



مُعجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري

تأليف

سعد بن عبد الله بن جنيدل

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية
(١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُعجم الأمكنة الوارد ذكرها
في
صحيح البُخاري

ⓒ دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بن جنيدل، سعد بن عبدالله

معجم الأمكنة الوارد ذكرها في صحيح البخاري.- الرياض.

٤٨٠ ص ؛ ٢٠ × ٢٧ سم.

ردمك:× - ٥٢-٦٩٣-٩٩٦٠

١- معجم البلدان ٢ - الجغرافيا - معاجم أ - العنوان

ديوي ٩١٠,٣ ٢٠/٠٣٣٥

رقم الإيداع: ٢٠/٠٣٣٥

ردمك: × - ٥٢-٦٩٣-٩٩٦٠

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود رحمه الله عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراسًا له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية، والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار.

ولقد كان استرداد الملك عبد العزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس إلى أكثر من مائتين واثنين وستين عامًا، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله - عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبد العزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم.

وجاءت عهود بنيه من بعده: سعود، وفيصل، وخالد - رحمهم الله -، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - يحفظه الله - امتدادًا لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبد العزيز ﵀ الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بعون الله تعالى وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيمانًا وولاءً، وجسّدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية.

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد التي قامت فيها الدعوة والدولة معًا لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه.

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس ﵀ وأبناؤه من بعده؛ عرفانًا بفضلهم، ووفاء لحقهم؛ وإيضاحًا لمنهجهم القويم فقد قامت دارة الملك عبد العزيز بإعداد الكثير من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود في منجزات علمية موثقة لتدلل بذلك على ما أسبغه الله ﷻ على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي ، ومن نهضة زاهرة. وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة «**مكتبة الدارة المئوية**» التي تقوم دارة الملك عبد العزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة.

في الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها. والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سلمان بن عبد العزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز

هذا الكتاب

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإنه لا يخفى ما للسنة النبوية من مكانة عالية، ومقام رفيع، فهي قسم من الوحي، والمصدر الثاني من مصادر الإسلام، وقد اعتنى علماء المسلمين وطلاب العلم منهم بالسنة عناية كبيرة، وأولوها اهتمامًا عظيمًا، من عصر الصحابة إلى عصرنا الحاضر تعليمًا وتلقيًا وتعلمًا وحفظًا وتأليفًا ورواية ودراية، وكان لتشجيع ولاة أمر المسلمين آثاره الطيبة، وإسهاماته الكثيرة في هذا المجال.

وقد تنوع ذلك التشجيع وظهر في صور متعددة، منها الحثّ على تدوين السنة، ومنها إنشاء المدارس والأربطة لتعليم السنة، وأهم من هذا وذاك العمل بالسنة وإظهارها والالتزام بها.

ومن الشواهد الحية والظاهرة لذلك ما قامت وتقوم به المملكة العربية السعودية من جهود كبيرة في نشر السنة، وإنشاء مؤسساتها ودعمها، وتشجيع العلماء وطلاب العلم على خدمة السنة وتعليمها، وتيسير الأسباب والوسائل المعينة لهم على ذلك.

ومما ينبغي الإشارة إليه، والتنويه به، أن مجالات عناية العلماء وطلاب العلم بالسنة قد تعددت وتنوعت، فلم تقتصر على استنباط الأحكام منها، ولا على دراسة ما يتصل بالحديث من حيث الرواية والإسناد وما يتعلق بذلك، بل شملت ذلك كله وتناولت جوانب أخرى كالأمثال في الحديث النبوي وغريب الحديث ونحو ذلك.

ومن هذه الجوانب موضوع هذا الكتاب الذي ألفه الأخ الكريم الشيخ سعد ابن عبد الله بن جنيدل بعنوان: «معجم الأمكنة الواردة في كتب السنة».

فقد تناول فيه جانبًا يتعلق بالسنة، وبيّن فيه الأماكن الوارد ذكرها في الأحاديث النبوية.

ولا ريب أن لذلك ثمراته وفوائده.

وقد عرفت المؤلف في أثناء عملي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. نشيطًا في عمله، شغوفًا بالبحث، ميالاً إلى العلم، له مشاركات جيدة في هذا المجال. وكتابه هذا أحد آثاره العلمية.

أسأل الله ﷻ أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خيرًا عما قام به من جهود في جمعه وإعداده وترتيبه.

وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

عبد الله بن عبد المحسن التركي
وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين.

أحمد الله وأستعينه، وأصلّي وأسلّم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

إن هذا الكتاب الذي أقدّم له ـ وقد مّن الله عليّ بأن هداني لتأليفه، ووفقني وأمدّني بعونه لإنجازه ـ هو ثمرة جهد متواصل، وحصيلة عدّة سنوات قضيتها في البحث والإعداد والتأليف.

أولاً: بدأت في قراءة كتب السنّة، واستخرجت ما ورد فيها من الأمكنة، داخل جزيرة العرب وخارجها.

ثانيًا: قارنت بينما استخرجته من كتب السنّة بالقراءة وبين ما ورد منها في الجزء الثامن من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، الذي أعدّه (آرنت يان ونسنك) وتبيّن لي من خلال المقارنة ـ مع تقديري لما في المعجم المفهرس من جهد ـ أنه لم يكن شاملاً لكل الأمكنة الواردة في كتب السنّة، فمنها ما فات عليه ذكره ومنها ما ذكره في موضع، وفات عليه ذكره في موضع آخر، ومع ما ذكرت فإنني لم أنصرف عن الاستئناس به في حصر أسماء الأمكنة.

ومن أهم الدوافع التي دفعتني إلى تأليف هذا الكتاب:

أولاً: شرف موضوعه، لا سيما وأنه يمثل جانبًا من سيرة المصطفى ﷺ، وسيرة أصحابه رضي الله عنهم أجمعين ـ ولا أبالغ ـ إذا قلت إنني شعرت بلذّة وارتياح في تأليف هذا الكتاب وتمتّعت فيه بعون الله وتيسيره، رغم ما بذلت فيه من الجهد المتواصل خلال سنوات متتالية، وما يعترضني من صعوبات، مثل:

١ ـ وقوع تحريف في أسماء بعض الأمكنة.

٢ ـ تغيّر أسماء بعض الأمكنة.

٣ ـ خلط بعض الباحثين بين الأمكنة المتماثلة في الاسم، مثل الخلط بين (السقيا) الواقعة في المدينة وبين (السقيا) الواقعة على طريق الحج بين مكة والمدينة، وكذلك الخلط بين جبل (ثور) الواقع في المدينة وجبل (ثور) الواقع في مكة، بل إن بعضًا من العلماء أنكروا وجود جبل اسمه (ثور) في المدينة رغم أنه ما زال معروفًا باسمه هذا من عهد النبي ﷺ إلى هذا العهد، وكذلك الخلط بين جبل (شامة) الموجود قريبًا من مكة، وبين جبل (شابة) بالباء الموحدة الواقع في عالية نجد، والجبلان ما زالا معروفين باسميهما إلى هذا العهد، إلى غير ذلك من الخلط بين الوقائع التاريخية مثل معركة (حنين) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وبين معركة (أوطاس) التي هي امتداد لمعركة (حنين) وجعلها معركة واحدة وسمّوها معركة (أوطاس)، وغير ذلك من الوقائع التي تحتاج إلى إيضاح ولبيان الصواب فيها، غير أنه سرعان ما تزول هذه الصعوبات بعون الله وتوفيقه.

ثانيًا: أن هذا الكتاب فريد من نوعه؛ لأنه لم يسبق أنْ أُلّف له نظير على غراره، خاصًا بالأمكنة الواردة في كتب السنّة، تحديدًا ووصفًا موجزًا مفيدًا لما جرى في هذه الأمكنة من أحداث، في داخل الجزيرة وفي خارجها، حسب علمي.

ثالثًا: منذ سنوات ـ في الفترة التي كنت فيها أعمل في (مركز البحث العلمي) التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، في الرياض مرّت عليّ قضايا مختلفة تبيّن لي من خلالها الحاجة الملحّة لتأليف هذا الكتاب ليكون مرجعًا للباحثين، يجدون فيه ما يحتاجون إليه في هذا الباب سهلاً ميسرًا، يصلون فيه إلى أهدافهم دون عناء، وذلك أن هذا الكتاب قد رتّبتُ أسماء الأمكنة فيه ترتيبًا هجائيًا على طريقة المعاجم الجغرافية القديمة مثل:

(معجم البلدان) تأليف ياقوت الحموي، (ومعجم ما استعجم) تأليف البكري، رحمهما الله.

وبعد أن يسّر الله تأليف القسم الأول من هذا المعجم وهو الخاص بالأمكنة الواردة في صحيح الإمام البخاري ، ومنّ الله عليّ بإتمامه فإنني قد عزمت على مواصلة البحث والإعداد لما ورد في صحيح الإمام مسلم ، وبقيّة كتب السنّة حسب المنهج الذي وضعته والخطة التي رسمتها للبحث والإعداد مسبّقًا ، بالإضافة إلى معجم للأمكنة الواردة في القرآن الكريم.

وقد اخترت المراجع لهذا البحث من الكتب الموثوقة القديمة والحديثة في مختلف الفنون التي لها صلة بهذا البحث، من كتب التفسير، والحديث، والسيّر، والجغرافيا، واللغة، والأدب، والأطالس الجغرافية، والخرائط وتحريّت الدقة في اختيار النصوص وتحرّي الشمول فيما أدوّنه من موجز الأحداث التاريخية، معتمدًا على أشهر المصادر الإسلامية، فجاء الكتاب شاملاً لكل المواضع مستوفيًا بصورة موجزة لأحداثها.

وأسأل الله ﷻ أن يمنحني فسحة بالأجل، وأن يمدّني بعونه لإتمام ما عزمت عليه، وأن يجعله جهدًا خالصًا لوجهه الكريم، ونافعًا موصلاً للغاية المنشودة.

ومع ما أنجزته من هذا المشروع ـ حسب قدرتي وجهدي الضعيف ـ لم أكن أشعر شعورًا كافيًا أنني حققت كل ما أطمح إليه في هذا الباب، ولا بلغت المرتبة التي كنت أصبو إليها، وذلك لما يعتري حالي من الضعف في مرحلة بلغت فيها من الكبر عتيًّا، غير أنه يؤنسني ويشدّ أزري وتعلّقي بثواب الله، ورجائي أن يمدّني بعونه، وأن يكون هذا الكتاب فاتحة خير ودليل رشد إلى التأليف في هذا الموضوع، من قِبَل علماء لهم قدرة كافية وباع أطول في هذا الباب في مستقبل الأمة الإسلامية ـ إن شاء الله ﷻ ـ، ولا يسعني إلا أن أشكر دارة الملك عبدالعزيز على اهتمامها بهذا العمل وطباعته ضمن إصداراتها بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المؤلف الفقير
إلى مولاه العزيز القدير
سعد بن عبد الله بن جنيدل
حرر في: ١٢/ ٣/ ١٤١٧هـ

تنبيه

١ ـ سيلاحظ القارئ أنني عند بحث كلّ موضع أذكر حديثًا ذكر فيه هذا الموضع، وذلك لأنّ نصوص الأحاديث في ذكرها فوائد كثيرة للقارئ والباحث؛ لأن نصّ الحديث إمّا أن يكون فيه دلالة على موقع المكان أو ما يعين على معرفة موقعه، وإمّا أن يكون فيه ذكر للمسافة بينه وبين مكان آخر، وإمّا أن يدل على الوصف الجغرافي لهذا المكان، وإمّا أن تكون له خاصية يحسن ذكرها كجبل حراء، وجبل ثور، وجبل أحد وغيرها، وإمّا أن يكون فيه فصل للخلاف الواقع بين بعض العلماء كما وقع ذلك في التعريف بـ(بير حاء) وفي جبل ثور الذي في المدينة، وفي بئر السقيا، وغير ذلك من المواضع.

٢ ـ وإتمامًا للفائدة ولإزالة اللبس فإنني حين أتحدث عن الموضع الذي ورد في الحديث أتلو ذلك بحديث موجز عمّا يشترك معه في اسمه من المواضع الأخرى.

٣ ـ ينبغي الإشارة إلى أن هذه المواضع التي وردت في هذه الأحاديث قد ورد كثير منها في أحاديث أخرى، بعضها في صحيح **البخاري**، وكثير منها ورد في كتب السنّة الأخرى.

وأسأل الله سبحانه وتعالى فسحة في الأجل وعونًا منه لمواصلة السير في البحث في كتب السنّة الأخرى.

والله وليّ التوفيق.....

المؤلف

باب الهمزة

الأبطح: بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة مفتوحة، وآخره حاء مهملة: موضع في مكة.

روى البخاري عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ بالأبطح فجاءه بلال فآذنه بالصلاة، ثم خرج بلال بالعنزة حتى ركزها بين يدي رسول الله ﷺ بالأبطح وأقام الصلاة.

قال ابن حجر: بطحاء مكة، موضع خارج مكة، وهو الذي يقال له الأبطح.

وفي اللسان: وبطحاء الوادي وأبطحه حصاه اللين في بطن المسيل، ومنه الحديث أنه ﷺ صلى بالأبطح. يعني أبطح مكة وهو مسيل واديها.

وقال ياقوت: كل مسيل فيه دقاق الحصى فهو أبطح، وعن أبي زيد: الأبطح أثر المسيل ضيقًا كان أو واسعًا.

وفي شعر عمرو بن كلثوم في معلقته قال:

يدهدون الرؤوس كما تدهدي
حزاورة بأبطحها الكرينا

وقال أيضًا:

وقد علم القبائل من مَعَدٍّ
إذا قُببٌ بأبطحها بُنينا

وقد علق عليه التبريزي بقوله: الأبطح والبطحاء بطن الوادي يكون فيه رمل وحصى - كأنه المكان المنبطح - فأبطح بمعنى المكان، وبطحاء بطن الوادي يكون فيه رمل وحصى - كأنه المكان المنبطح - فأبطح بمعنى المكان وبطحاء بمعنى البقعة[1].

قلت: يتضح مما تقدم أن هذا الاسم (أبطح) لا يعني موضعًا بعينه؛ لأنه يطلق على تكوين جغرافي متميز أينما وُجِدَ، وهو كل مجرى واد فيه رمل وحصى، وإنما يتحدد موقعه بإضافته إلى علم معروف كأبطح مكة مثلاً.

وقد أكثر الشعراء من ذكر الأباطح، ولا سيما أبطح مكة، قال كثّير، وتروي لغيره:

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح
وجدت بها وجد المضل ركابه
بمكة والركبان غاد ورائح

وقال القرشي:

هلاّ سألت عن الذين تبطّحوا
كرم البطاح وخير سرة واد
وعن الذين أبوا فلم يستكرهوا
أن ينزلوا الولجات من أجياد
يخبرك أهل العلم أن بيوتنا
منهم بخير مضارب الأوتاد

---

(١) شرح المعلقات العشر.

وقال البكري: الأبطح بمكة معلوم، وهي البطحاء، وروى سليمان بن يسار قال: قال أبو رافع وكان على ثقل النبي ﷺ: لم يأمرني أن أنزل الأبطح ولكن ضربت قبته فنزل.

وفي اللسان: بطحاء مكة وأبطحها معروفة لانبطاحها، ومنى من الأبطح، وقريش البطحاء الذين ينزلون حول مكة.

قال:

فلو شهدتني من قريش عصابة
قريش البطاح لا قريش الظواهر

وعن الأزهري قال ابن الأعرابي: قريش البطاح هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب، وأكرمهما قريش البطاح.

قلت: ويبدو مما ذكره المؤرخون فيما تقدم أن الأبطح إذا وَرَد معرّفًا بالألف واللام وأطلق فإنما يُراد به أبطح مكة لشهرته وشرف بقعته.

ويتضح من مدلول الأحاديث التي ورد فيها ذكر الأبطح إنما يُراد به أبطح مكة، وهو كذلك بطحاؤها، ويلاحظ في بعض الأقوال أنهم يطلقون هذا الاسم على وادي مكة، من أعلاه في منى إلى أن يتجاوز أسفل مكة، وتارة يجعلونه اسمًا لجزء منه، يأتي وصفه وتحديده.

ولهذا: فإن هذا الوادي يُسمى الأبطح والبطحاء نسبة إلى تكوينه الجغرافي، ويُسمّى وادي إبراهيم نسبة إلى سُكنى ذريته فيه، ويُسمّى وادي مكة لموقعه في مكة.

وهو الذي عناه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٣٧].

وقد حدّد الفاكهي موقع الأبطح من وادي مكة بقوله: فأما الأبطح، فيقال: إنه ما بين مسجد الحرس إلى حائط خرمان فذلك يقال له الأبطح.

وقال محققه عبد الملك بن دهيش: هذا تحديد دقيق لما سُمّي بالأبطح، ومسجد الحرس هو مسجد الجن، وأما حائط خرمان فهو ما يسمى اليوم بـ(الخرمانية) وقد أقيم على جزء كبير منه مبنى أمانة العاصمة.

قلت: وقال الفاكهي في سبب تسمية مسجد الجن بمسجد الحرس: مسجد الحرس هو الذي يعرف به اليوم، وإنما سمي مسجد الحرس؛ لأن صاحب الحرس بمكة كان يطوف فيجتمع إليه أعوانه من شعاب مكة وأرباعها عند ذلك المسجد، فسُمي مسجد الحرس وهو في طرف الحجون، وهو مسجد الجن.

قلت: وقد وصفه عاتق بن غيث البلادي وصفًا جغرافيًا من بدايته إلى نهايته وذكر روافده فقال:

يأخذ وادي إبراهيم سيله من حيث يسيل المُحَصّب من منى، فإذا صار عند المنحنى - بقرب القصر الملكي العامر - سُمي الأبطح فيتجه غربًا إلى أن يصل إلى ريع الحجون (كداء) فيعدل جنوبًا ويُسمى البطحاء إلى المسجد الحرام، أما العامة فتسمى الأبطح (الخَرِيق) فإذا صار عند المسجد الحرام عدل إلى الجنوب الغربي فيمر السيل في نفق شق بين المسجد الحرام وبين جبل أبي قبيس، فإذا تجاوز المسجد الحرام سُمي (المَسفَلة) إلى جبل الميثَب، ومكة عمومًا يُسمّى ما فوق المسجد الحرام المعلاة، وما بعده المسفلة.

فإذا تجاوز الوادي جبل المِيثَب التقى به وادي ذِي طُوى، فيعود إليه اسمه (وادي إبراهيم) ثم يعدل باتجاه الغرب إلى أن يصب في روضة تسمى أم الهشيم تقع جنوبًا عدلاً من الحديبية

بثلاثة عشر كيلاً، ولا يكاد يتجاوزها فإذا تجاوزها عدل جنوبًا حتى يصب في وادي (عرنة) مارًا بالمنصورة، ثم تحدث عن روافده[1].

قلت: ومن الملاحظ أن هذا الأبطح ذا الشهرة العلمية والتاريخية قد تغيرت معالمه وذهبت بطحاؤه بسبب النهضة العمرانية الشاملة في مكة المكرمة ورصف بطحائها وطرقاتها وفرشها بالأسفلت، فلم يعد في هذا الوادي بطحاء يترنّم بها الشعراء ويتحدث عنها المتحدثون.

الأَبْوَاءُ: بهمزة مفتوحة وباء موحدة ساكنة بعدها واو ثم ألف ممدود: قرية من أعمال الفرع من المدينة، وقيل: جبل.

وروى البخاري عن الصعب بن جثّامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال إنّا لم نرده إلا أنّا حُرُم.

قال ابن حجر: الأبواء: بفتح الهمزة وسكون الموحدة وبالمد: جبل من عمل الفرع، بضم الفاء والراء بعدها مهملة، قيل: سمي بالأبواء لوبائه على القلب، وقيل: لأن السيول تبوّؤه أي تحله.

قال البكري: الأبواء بفتح أوله ومد آخره: قرية جامعة، والأبواء: الأخلاط من الناس. وعلى خمسة أميال منها مسجد النبي ﷺ وبالأبواء توفيت أمه ﷺ وأول غزواته عليه الصلاة والسلام غزوة الأبواء، بعد اثنى عشر شهرًا من مقدمه المدينة يريد بني ضمرة وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادعته بنو ضمرة ثم رجع ﷺ فلم يلق كيدًا.

قال ياقوت: الأَبواء: بالفتح ثم السكون وواو وألف ممدود، قال قوم: سمي بذلك لما فيه من الوباء، ولو كان كذلك لقيل الأوباء، إلا أن يكون مقلوبًا. وقال ثابت بن أبي ثابت اللغوي: سميت الأبواء لتبوء السيول بها وهذا أحسن. وسئل كثير الشاعر لم سميت الأبواء أبواء؟ فقال: لأنهم تبوؤا بها منزلاً.

والأبواء قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

وقيل: الأَبْواء جبل على يمين آره، ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة، وهناك بلد ينسب إلى هذا الجبل، وقد جاء ذكره في حديث الصعب بن جثامة وغيره.

قال السكري: الأَبْواء جبل شامخ مرتفع ليس عليه شيء من النبات غير الخزم والبشام وهو لخزاعة وضَمْرَة. قال ابن قيس الرّقيات:

فمنى فالجمار من عبد شمس
مقفرات فبلدح فحراء
فالخيام التي بعسفان أقوت
من سليمى فالقاع فالأبواء

وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، وكان السبب في دفنها هناك أن عبد الله والد رسول الله ﷺ كان قد خرج إلى المدينة يمتار تمرًا فمات بالمدينة، فكانت زوجته آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، تخرج في كل عام إلى المدينة، تزور قبره فلما أتى على رسول الله ﷺ ست سنين خرجت زائرة لقبره، ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ فلما صارت بالأبواء منصرفة إلى مكة ماتت بها، ويقال: إن أبا طالب زار

(1) انظر أودية مكة المكرمة، ص ٢٠ ـ ٢٢.

أخواله بني النجار بالمدينة وحمل معه آمنة أم رسول الله ﷺ فلما رجع منصرفًا إلى مكة ماتت بالأبواء.

وفي المغانم المطابة قال المجد: الأَبْواء بالفتح وسكون الموحدة تحت، وفتح الواو بعده ألف ممدود، ثم أورد ملخصًا موجزًا مما ذكره ياقوت في معجمه. وقد تقدم.

وقال حمد الجاسر: والأبواء لا تزال معروفة، تقع شرقي بلدة (مستورة) الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة، وتبعد عنها بما يقارب ٢٥ كيلاً، شرقها بميل نحو الجنوب والمسافة بينها وبين رابغ من رابغ إلى الأصافر (٢٤) كيلاً، ومن الأصافر إلى ثنية هرشي (٦) أكيال، ومن ثنية هرشي إلى الأبواء (١٣ كيلاً = ٤٣ كيلاً)[١].

وقال عاتق البلادي: الأَبْواء وادٍ من أودية الحجاز التهامية، كثير المياه والزرع يلتقي فيه واديا الفرع والقاحة فيتكون من التقائهما وادي الأبواء ـ كتكون وادي مر الظهران من التقاء النخلتين. وينحدر وادي الأبواء إلى البحر جاعلاً أنقاض ودّان على يساره، وثمّ طريق إلى هرشي ويمر ببلدة مستورة ثم يبحر.

ويسمى اليوم (وادي الخريبه) غير أن اسم الأبواء معروف لدى المثقفين.

وسكانه: بنو محمد من بني عمرو، وبنو أيوب من البلادية من بني عمرو.

قلت: دلّ ما تقدم من أقوال العلماء على أن (الأَبْواء): اسم لقرية جامعة، وواد كثير الطرفاء، وجبل، وكلها تعني موضعًا واحدًا، هو قرية الأبواء وواديها وجبلها، ومثل هذا كثير في أسماء المواضع، يطلق الاسم على الوادي وعلى القرية التي تكون فيه، وعلى الجبل الذي يكون فيه وكذلك على موارد المياه التي تكون فيه، وعلى المعالم الجغرافية الأخرى التي تقع فيه. هذه هي الأبواء التي ورد ذكرها في الأحاديث الشريفة.

الأَبْواء أيضًا كالذي قبله: موضع من بلاد اليمامة القريبة من مدينة الرياض، ورد في شعر الأعشى مقرونًا بعدد من المواضع القريبة من مدينة الرياض، وقد جاء في شعر الأعشى بروايتين مختلفتين، والأبيات من معلقته ورد في إحدى الروايتين: (الأبلاء) وفي الرواية الثانية (الأَبْواء) والصحيح هو: (الأبواء) قال الأعشى:

قالوا نُمار فَنجد الخال جادهما
فالعسجديّة فالأَبُواء فالرّجل
فالسفح يجري فخنزير فبرقته
حتى تدافع منه الرّبو والحبل
ثمّت تحمل منه الماء تكلفة
روض القطا فكثيب الغينة السهل

هكذا أورد الهمداني هذه الأبيات بهذه الرواية ثم ذكر.. مواضع من أرض اليمامة قريبًا بعضها من بعض، ومن بينها (الأَبْواء) فقال: خنزير، ورجلة، وروض القطا، ودُرني، وكثيب الغينة، وعباعب، ومنفوحة[٢].

قلت: هذه المواضع التي وردت في شعر الأعشى وتحدث عنها الهمداني، بعضها ما زال معروفًا باسمه، مثل: نُمار، منفوحة، الغينة.

أما الرواية الثانية، كما أوردها البكري في معجمه، قال الأعشى:

(١) حاشية المغانم المطابة، ٦.
(٢) صفة جزيرة العرب، ٣٩٥.

فقلت للركب في درني وقد ثملوا
شيموا وكيف يشيم الشارب الثّمل
قالوا نُمار فبطن الخال جادهما
فالعسجدية فالأبلاء فالرجل
فالسفح يجري فخنزير فبرقته
حتى تدافع منه الوتر فالحبل

هذه هي رواية البكري، وقال: وروى أبو عمرو: (فالأبواء فالرجل) أما رواية التبريزي فإنه رواه (الأبلاء) وقال: ويروى (بالأبواء).

وقال ياقوت: أبوى: مقصور: اسم للقريتين اللتين على طريق البصرة إلى مكة المنسوبتين إلى طسم وجديس، قال المثقب العبدي:

ألا من مبلغ عدوان عني
وما يغني التوعد من بعيدِ
فإنك لو رأيت رجال أبْوَى
غداة تسربلوا حلق الحديدِ
إذًا لظننت جنّة ذي عرين
وآساد الغريفة في صعيدِ

قلت: ومعروف أن منازل طسم وجديس كانت بأرض اليمامة، وأن قصر الممدود ومدّ المقصور في الشعر ضرورة وهو كثير في أشعارهم.

ومما تقدم يترجح أن صحة البيت (فالأبواء) لتأكد وجود هذا الاسم في أرض اليمامة، ولأن (الأبلاء) غير معروفة في هذه البلاد، غير أن هذا الاسم أصبح غير معروف في هذا العهد.

وقد استوفيت الحديث عن هذا الموضوع في كتابي (معجم الأماكن الواردة في المعلقات العشر)، وبينت ما وقع فيه أحد الباحثين من خطأ؛ لأنه اعتمد على رواية واحدة.

أَبَوَى: بالتّحريك مقصور، قال ياقوت: اسم موضع أو جبل بالشام قال النابغة الذبياني يرثي أخاه:

لا يهنئ الناس ما يرعون من كلأ
وما يسوقون من أهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثّاوي على أبَوَى
أضْحَى ببلدة لا عمّ ولا خال
سهل الخليقة مشاء بأقْدُحه
إلى ذوات الذّرى حمّال أثقال
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بال

أُحُد: بهمزة مضمومة وحاء مهملة مضمومة، وآخره دال مهملة: جبل معروف في المدينة وما زال معروفًا باسمه هذا.

وروى البخاري عن أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - قال: غزونا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك... وقال في آخر حديثه فقال النبي ﷺ إني متعجل إلى المدينة فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل.. قال ابن بكّار كلمة معناها فلما أشرف على المدينة قال هذه طابة فلما رأى أُحُدًا قال هذا جبيل يحبنا ونحبه.

قال ابن كثير ورواه مسلم من حديث سليمان بن بلال به نحوه.

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال صعد النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله قال: اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيد.

وفي رواية أن النبي ﷺ صعد أحدًا وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم، فقال: اثبت أحد فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان.

قال السهيلي: أحد الجبل المعروف بالمدينة، سمي بهذا الاسم لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هنالك، وقال فيه الرسول ﷺ: هذا جبل يحبنا ونحبه... وفي المسند من طريق أبي عبيس بن جبير عن رسول الله قال: أحد يحبنا ونحبه، وهو على باب الجنة.

ويقويه قوله ﷺ: المرء مع مَنْ أحب، مع قوله: يحبنا ونحبه فتناسبت هذه الآثار، وشدّ بعضها بعضًا.

وقال ياقوت أحد بضم أوله وثانيه معًا: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر ليس بذي شناخيب، وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها، وكانت عنده الوقعة التي قتل فيها حمزة عم النبي ﷺ، وسبعون من المسلمين وكسرت رباعية النبي ﷺ وشج وجهه الشريف وكلمت شفته ـ وكان يوم بلاء وتمحيص ـ وذلك لسنتين وتسعة أشهر وسبعة أيام من مهاجر النبي ﷺ، وهي في سنة ثلاث.

وفي المغانم المطابة قال المجد: أحد بضمتين: جبل نوراني على ثلاثة أميال من المدينة، سمي به لتوحده وانقطاعه عن جبال أخَر هناك.

قلت: جبل أحد عَلَم بارز مشهور في المدينة منفرد عن جبالها في ناحيتها الشمالية، له شهرة تاريخية وشهرة أدبية لفضله وموقعه من طيبة الطيبة.

ومهما اختلف المؤرخون في تحديد المسافة التي بينه وبين المدينة فإن النمو العمراني في هذا الوقت أصبح يتسع في أنحاء المدينة المختلفة ويحبو إلى ما حولها من الأعلام ومن بينها جبل أحد، فإن العمران قد أخذ يحف به من جوانبه.

ولو لم يكن لأحد من المناقب المحمودة والفضل إلا قول النبي ﷺ: أحد جبل يحبنا ونحبه، لكفى.

وقد أورد ابن شبّه طائفة كبيرة من الآثار التي تحدثت عن فضل جبل أحد فمن ذلك، قال: عن عبد الرحمٰن الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: أحد على باب من أبواب الجنة.

وروي عن داود بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: أحد على ركن من أركان الجنة.

وعن إسحاق بن يحيى بن طلحة: أن النبي ﷺ قال: أحد، وورقان، وقدس، ورضوى من جبال الجنة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أحد على باب من أبواب الجنة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: هذا جبل يحبنا ونحبه.

هذا بعض ما ذكره ابن شبّه في فضائل جبل أحد.

وقال السمهودي: وللعلماء في معنى قوله ﷺ: (يحبنا ونحبه) أقوال، وذكر بعض هذه الأقوال وعلّق عليها بقوله: قال الحافظ المنذري: قال البغوي: الأولى إجراء الحديث على ظاهره، ولا ينكر وصف الجمادات بحب الأنبياء وأهل الطاعة كما حنّت الإسطوانة لمفارقته ﷺ حتى سمع القوم حنينها، وكما أخبر أن حجرًا كان يسلم عليه ﷺ قبل الوحي، فلا ينكر أن يكون جبل أحد وجميع أجزاء المدينة تحن إلى لقائه، قال المنذري: وهو جيد.

وقد أورد ياقوت شعرًا في حب جبل أحد والشوق إليه وقال: ورد محمد بن عبد الملك الفقعسي إلى بغداد، فحن إلى وطنه وذكر أحدًا وغيره من نواحي المدينة فقال:

نفى النوم عني فالفؤاد كئيب
نوائب هم ما تزالُ تنوبُ
وأحراض أمراض ببغداد جُمّعت
عليّ وأنهار لهن قسيبُ
وظلت دموع العين تمري غروبها
من الماء دارات لهن شعوبُ
وما جزع من خشية الموت أخضلت
دموعي ولكن الغريب غريبُ
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسلع ولم تغلق عليّ دروبُ
وهل أحد بادلنا وكأنه
حصان أمام المقربات جنيبُ
يخب السراب الضحّل بيني وبينه
فيبدو لعيني تارة ويغيبُ
فإن شفائي نظرة إن نظرتها
إلى أحد والحرّتان قريبُ
وإني لأرعى النجم حتى كأنني
على كل نجم في السماء رقيبُ
وأشتاق للبرق اليماني إن بدا
وأزداد شوقًا أن تهب جنوبُ

وقال ابن أبي عاصية السلمي، وهو عند معن بن زائدة باليمن يتشوق إلى المدينة:

أهل ناظر من خلف غمدان مبصر
ذرى أحد رمت المدى المتراخيا
فلو أن داء اليأس بي وأعانني
طبيب بأرواح العقيق شفانيا

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

يا سيد الظاعنين من أحد
حييت من منزل ومن سند
ما إن بمثواك غير راكدة
شفع وهاب كالفرخ ملتبد

ويحسن هنا أن أورد نصًا كتبه عبد القدوس الأنصاري في وصف جبل أحد، قال: أما وصفه الطبيعي فهو أنه جبل صخري من الجرانيت، وطوله من الشرق إلى الغرب ستة آلاف متر، وفيه رؤوس كثيرة وهضاب شتى... ومن كثرتها يكاد الناظر إليه يتخيلها جبالاً شبه مستقلة، أو يخيل إليه أن أحدًا هذا هو سلسلة كبار وصغار مرتبط بعضها ببعض، ومن مجموعات تكونت وحدة هذا الجبل.. من تلاصق هذه الجبال ووجود منفرجات بينها تكونت في أسافل جبل أحد المهاريس التي هي نقر طبيعية لحفظ المياه المنحدّرة من مجموعات أعالي الجبل. ومع أن لون جبل أحد أحمر وفق ما حكاه مؤلف مرآة الحرمين فإننا قد وجدنا فيه هضابًا وصخورًا وعروقًا مختلفة الألوان.. بعضها يميل إلى الزرقة، وبعضها أسود أثمدي، وبعضها رمادي اللون وبعضها أخضر[١].

قلت: ولم أر فيما اطلعت عليه من المراجع ما يماثل أحدًا في اسمه أو يدانيه إلا موضعًا واحدًا ذكره ياقوت ولم يحدده، اسمه (أَحَد).

قال ياقوت: أَحَد: بالتحريك، يجوز أن يكون بمعنى أَحَد الذي هو أول العدد، وأن يكون بمعنى أحد الذي هو بمعنى كتي وأرم وعريب فتقول: ما بالدار أحد، كما تقول ما بالدار كتيع، ولا بالدار عريب.

---

(١) آثار المدينة المنورة، ١٩٧.

قيل هو موضع بنجد، وقيل الأحد بتشديد الدال جبل له ذكر في شعرهم.

وهناك موضع آخر اسمه (واحد). قال ياقوت بلفظ العدد الواحد: جبل لكلب، قال عمرو ابن العداء الأجدري ثم الكلبي:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليله
بأنبط أو بالروض شرقي واحدِ
بمنزلة جاد الربيع رياضها
قصير بها ليل العذارى الرواقدِ
وحيث ترى الجرد الجياد صوافنا
يقودها غلماننا بالقلائدِ

قلت: وواحد هذا الواقع في بلاد كلب قرن جبيل منفرد وحيدًا ليس حوله جبال، تحدث عنه الشيخ حمد الجاسر فقال: يظهر أن واحدًا هذا هو جبل المركوز - من ركز - وهو جبيل ململم صغير بارز - ليس بقربه شيء من الجبال - إذا كنت في الدويد فهو هناك في الجنوب الشرقي تشاهده رأي العين، والمسافة بينهما تقارب عشرين كيلاً، ويقع عن الروض أحد مياه الحزول شمالاً، ويحف به خط الأنابيب بعد مجاوزة بلدة رفحة وقبل الوصول إلى العويقيلة، ويقع جنوب هذه بنحو خمسين كيلاً، شرق الحزول (حزن كلب قديمًا)(١).

الأَخْشَبَان: أوله همزة مفتوحة بعدها خاء معجمة ساكنة ثم شين مثلثة مفتوحة، فباء موحدة بعدها ألف وآخره نون موحدة، مثنى أخشب: جبلان بمكة.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كِلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

قال ابن حجر: الأخشبان، بالمعجمتين: هما جبلا مكة، أبو قيس والذي يقابله وكأنه قعيقعان، وقال الصاغاني: بل هو الجبل الأحمر الذي يشرف على قعيقعان، ووهم من قال هو ثور، كالكرماني، وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما.

وقال الأزرقي، قال أبو الوليد: أخشبا مكة أبو قبيس وهو الجبل المشرف على الصفا إلى (السويداء) إلى (الخندمة) وكان يسمى في الجاهلية (الأمين) ويقال: إنما سمي الأمين؛ لأن الركن الأسود كان فيه مستودعًا عام الطوفان، فلما بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت نادى إن الركن مني في موضع كذا وكذا... قال أبو الولي: وبلغني عن بعض أهل العلم من أهل مكة أنه قال إنما سمى أبا قبيس لأن رجلاً أول من نهض البناء فيه كان يقال له أبو قبيس، فلما صعد فيه البناء سمي جبل أبي قبيس، ويقال اقتبس منه الركن فسمي أبا قبيس، والأول أشهر عند أهل مكة.

---

(١) معجم شمال المملكة رسم (واحد).

والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له: (الأحمر) وكان يسمى في الجاهلية (الأعرف) وهو الجبل المشرف وجهه على (قعيقعان).

وقال البكري: الأخشب: بشين معجمة وباء معجمة بواحدة، على وزن أفعل وهي أربعة أخاشب، فأخشبا مكة جبلاها، وأخشبا المدينة، حرتاها المكتنفتان لها وهما لابتاها،... قال عبد الله بن عمر ﵄ ما قال رسول الله ﷺ: إذا كنت بين الأخشبين من منى - ونفح بيده نحو المشرق - فإنّ هناك واديًا يقال له السُّرُر، به سرحة سُرّ تحتها سبعون نبيًا.

ويقال: أخشب وخشباء، على التأنيث قال كعب بن مالك:

فاسأل الناس لا أبالك عنّا
يوم سالت بالمعلمين كُدَاء

وتداعت خَشباؤها إذ رأتنا
واستخفّت من خوفنا الخَشَباء

ورأى ما لقين منا حراء
فدعا ربه بأمن حراء

وقال الزبير: الأخشبان والجبجبان: جبلا مكة، ويقال: ما بين جبجبيها أكرم من فلان.

قال ياقوت: الأخاشب: بالشين المعجمة، والباء والموحدة، والأخشب من الجبال الخشن الغليظ، ويقال: هو الذي لا يرتقي فيه، وأرض خشباء وهي التي كانت حجارتها منثورة متدانية، قال أبو النجم:

إذا علوَن الأخْشَبَ المنطوحا

يريد كأنه نُطح. والخَشِبُ الغليظ الخشن من كل شيء، ورجل خشب: عاري العظم.

والأخاشب: جبال مكة وجبال منى.

والأخشبان: جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى منى، وهما واحد، أحدهما: أبو قبيس والآخر قعيقعان. ويقال: بل هما أبو قبيس والجبل الأحمر المشرف هنا لك، ويسميان الجبجبين أيضًا.

قال ابن وهب: الأخشبان الجبلان اللذان تحت العقبة بمنى، وقال السيد عليّ العَلويّ: الأخْشُب الشرقي أبو قبيس، والأخشب الغربي هو المعروف بجبل الخُط والخُط من وادي إبراهيم.

وقال الأصمعي: الأخُشبان أبو قبيس، وهو الجبل المشرف على الصفا وهو ما بين حرف أجياد الصغير المشرف على الصفا إلى السويداء التي تلي الخندمة، وكان يُسمّى في الجاهلية الأمين؛ لأن الركن كان مستودعًا فيه عام الطوفان، فلما بنى إسماعيل ﵇ البيت نودي: إن الركن في مكان كذا وكذا.

والأخشب الآخر الجبل الذي يقال له الأحمر كان يسمى في الجاهلية الأعرف، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان.

ومن الشعر الذي قيل فيهما قول الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين ابن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ﵄:

أحبك ما أقام منى وجمع
وما أرسى بمكة أخشباها

وما نحروا بخيف منى وكبوا
على الأذقان مشعرة ذراها

نظرتك نظرة بالخيف كانت
جِلاَءَ العين أو كانت قذاها

ولم يك غير موقفنا وطارت
بكل قبيلة منا نواها

وقد تفرد هذه التثنية، فيقال لكل واحد منهما: الأخشب، قال ساعدة بن جوؤية:

أفي وأهديهم وكل هديَّة
مما تَثُج لها ترائب تثعب

ومقامهن إذا حُبِسنَ بمأزم
ضيق ألفّ وصدّهن الأخشب

وقال صيفي بن عامر، وهو أبو قيس ابن الأسلت الخزرجي وهو جاهلي يعني قريشًا:

قوموا فصلوا ربكم وتعوّذوا
بأركان هذا البيت بين الأخاشب

وقال الأزرقي: وحدثني جدي عن مسلم ابن خالد عن ابن خيثم عن يوسف بن ماهك قال: كنت جالسًا مع عبد الله بن عمرو بن العاص في ناحية المسجد الحرام إذ نظر إلى بيت مشرف على أبي قبيس فقال: أبيت ذلك؟ فقلت: نعم، فقال: إذا رأيت بيوتها ـ يعني بذلك مكة ـ وقد علت أخشبيها، وفجرت بطونها أنهارًا فقد أزف الأمر، قال أبو الوليد: قال جدي لما بنى العباس بن محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس داره التي بمكة على الصيارفة حيال المسجد الحرام أمر قومه أن لا يرفعوها فيشرفوا بها على الكعبة، وأن يجعلوا أعلاها دون الكعبة فتكون دونها إعظامًا للكعبة أن تشرف عليها، قال جدي: فلم تبق بمكة دار لسلطان ولا غيره حول المسجد الحرام تشرف على الكعبة إلا هدمت أو خربت إلا هذه الدار فإنها على حالها إلى اليوم[(١)].

قلت: يفهم مما تقدم من أقوال العلماء في تعريف الأُخَشَبَين وتحديد موقعهما أن الأخْشَب اسم جنس يطلق على كل جبل خشن غليظ صعب المرتقى، ولهذا فإنه لا يتحدد موقع الأخشبين إلا بإضافتهما إلى عَلَم معروف: كأخشبي مكة، وأخشبي منى، وقد تحددت مواقع هذه الجبال في أقوال العلماء المتقدمة، وإذا جُمعت قيل لها: الأخاشِب، جمع أخْشَب كما تقدم ذلك في أقوال العلماء وفيما أوردوه من شواهد الشعر، الخاصة بأخْشَبي مكة وأخْشَبي منى.

وأما قول ياقوت عن أخشبي مكة وأخشبي منى: جبلان يضافان تارة إلى مكة، وتارة إلى منى، وهما واحد. فإنه قول لا يعوّل عليه؛ لأنه مخالف لأقوال العلماء في تحديد وتعريف هذه الجبال.

مع أن ياقوتًا في رسم (الأخاشب) قد فرّق بين أخشبي مكة وأخشبي منى، بخلاف ما قاله فيما تقدم، فقال: والأخاشب جبال مكة وجبال منى.

ومما يدل على أن الأخْشَب اسم جنس لكل جبل خشن غليظ ما سيأتي من تعدد هذه المسميات في أماكن أخرى من جزيرة العرب.

قال البكري: وأخْشَبا المدينة حرتاها المكتنفتان لها، وهما لابتاها.

وقال أيضًا وأخاشب الصمّان: جبال اجتمعن بالصمّان، في محلة بني تميم ليس قربها أكمة ولا جبل.

وقال ياقوت والأخاشِب: جبال سود قريبة من أجإ بينهما رملة ليست بالطويلة، عن نصر.

وأورد ياقوت في رسم (الأخْشَبَين) شعرًا لمزاحم العقيلي قال:

خليليّ هل من حيلة تعلمانها
يُقرّب من ليلى إلينا احتيالها
فإنّ بأعلى الأخْشَبَيْن آراكة
عدتني عنها الحرب دان ظلالها
وفي فرعها لو يُستطابُ جنابها
جنى يجتنيه المُجتنى لو ينالها
ممنّعة في بعض أفنانها العلى
يروح إلينا كل وقت خيالها

(١) أخبار مكة، ١/ ٢٨٢.

وقال ياقوت: ويظهر من هذا الشعر أن الأخْشَبين فيه غير التي بمكة، إنه يدل على أنها من منازل العرب التي يحلونها بأهاليهم، وليس الأخشبان كذلك.

قلت: ومما تقدم يتضح أن الأخْشبَين اللذين ورد ذكرهما في الحديث الشريف، هما: أخشبا مكة، وأن جبلي منى يقال لهما: الأخشبان.

أما المواضع الأخرى التي ذكرها ياقوت والبكري فإنّها أعلام متفرقة في نجد.

وتحدث عاتق البلادي عن الأخشبين فقال في حديثه: المعروف اليوم أن الأخشبين هما الجبلان اللذان يمر الطريق بينهما ليلة الإفاضة من عرفة، وهما حدّ مزدلفة من الشرق، ويسمى الشمالي الأخشب الكبير، والجنوبي الأخشب الصغير، ويسمى طريقهما طريق المأزمين وطريق الأخشبين، وهي ثنية ضيقة، وقد وسعت وجعلت فيها ثلاث طرق للسيارات وطريق للمشاة... وخلاصة القول، أن أخشبي مكة هما: أبو قبيس وقعيقعان وليس الأحمر منهما، وأخشبي منى هما: القابل والصابح ـ انظرهما ـ وأخشبي مزدلفة المتقدم ذكرهما.

أرض ثمود: بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وآخره ضاد معجمة، مضاف إلى ثمود القبيلة المشهورة في القرآن. المقصود به في هذا الحديث وادي القرى.

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: بعت من أمير المؤمنين عثمان مالاً بالوادي بمال له بخيبر، فلمّا تبايعنا رجعت على عقبي حتى خرجت من بيته خشية أن يرادّني البيع وكانت السنّة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرّقا، قال عبد الله: فلمّا وجب بيعي وبيعه رأيت أنيّ قد غبنته بأنّي سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال، وساقني إلى المدينة بثلاث ليال.

قلت: المقصود بالوادي في هذا الحديث هو وادي القرى، وهو كذلك بلاد ثمود.

قال ابن حجر: الوادي: يعني وادي القرى، وقوله: (سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال) أي زدت المسافة التي بينه وبين أرضه التي صارت إليه على المسافة التي كانت بينه وبين أرضه التي باعها بثلاث ليال. وقوله: (وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) يعني أنه نقّص المسافة التي بيني وبين أرضي التي أخذ بها عن المسافة التي كانت بيني وبين أرضي التي بعتها بثلاث ليال، وإنّما قال إلى المدينة لأنهما جميعًا كانا بها، فرأى ابن عمر الغبطة في القرب من المدينة، وذلك أن أرض ابن عمر التي باعها على عثمان كانت في وادي القرى، وأرض أمير المؤمنين عثمان التي باعها على ابن عمر كانت في خيبر فقربت أرض ابن عمر له في خيبر بمسافة ثلاثة أيام، وبعدت أرض أمير المؤمنين عثمان بمسافة ثلاثة أيام شمالاً؛ لأنها أصبحت في وادي القرى.

وبهذا يتبيّن أن المسافة بين المدينة وبين أدنى وادي القرى مسيرة ست ليال، وأن خيبر تقع في منتصف هذه المسافة.

وقد استوفيت الحديث عن بلاد ثمود في رسم (الحجر) وفي رسم (وادي القرى) ـ فانظرهما.

الأرض المقدّسة: بهمزة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وآخره ضاد معجمة، المقدّسة: صفة للأرض وصفت بها تمييزًا لها. واختلف في تحديدها فقيل: الطور، وقيل: أريحاء،

وقيل: الشام، وقيل: فلسطين ودمشق وما حولها.

قال الله ﷻ مخبرًا عن نبيّه موسى ﵇: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢١].

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﵁ قال: أرسل ملك الموت إلى موسى ﵇ فلمّا جاءه صكّه فرجع إلى ربّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور، فله بما غطّت يده بكل شعرة سنة. قال أيّ ربّ ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن قال فسأل الله أن يدني من الأرض المقدّسة رمية حجر.

قال ابن حجر: المطلوب القرب من الأنبياء الذين دفنوا في بيت المقدس، وهو الذي رجّحه عياض. هذا ما أراده موسى ﵇ حين طلب ربّه أن يدني من الأرض المقدّسة رمية حجر.

وقال ابن كثير: الأرض المقدّسة: أيّ المطهّرة، وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هي الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وروى سفيان الثوري عن أبي سعيد البقّال عن عكرمة عن ابن عباس قال: هي أريحاء، وكذا ذكره عن غير واحد من المفسّرين، وفي هذا نظر؛ لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوّهم فرعون، اللّهم إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قال السدّي فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس.

قال ابن جرير في تأويل قوله جلّ ثناؤه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: هذا خبر من الله عزّ ذكره عن قول موسى ﵇ لقومه بني إسرائيل، وأمره إيّاهم ـ عن أمر الله إيّاه ـ بأمرهم بدخول الأرض المقدّسة.

ثم اختلف أهل التأويل في الأرض التي عناها بـ ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾. قال بعضهم: عني بذلك الطور وما حوله وهو رواية بسنده عن مجاهد.

وروى بسنده عن ابن عباس: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: الطور وما حوله.

وقال آخرون: هو الشام روي ذلك بسنده عن قتادة.

وقال آخرون: هي أرض أريحاء.

وروى بسنده عن ابن زيد في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: الطور وما حوله.

وروى بسنده عن السدّي قال: هي أريحاء.

وروى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: هي أريحاء.

وقيل: إن ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ دمشق وفلسطين وبعض الأردن.

وعني بقوله ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾: المطهّرة المباركة.

وروى بسنده عن مجاهد ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: المباركة.

وقال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: هي الأرض المقدّسة كما قال نبيّ الله موسى ﷺ؛ لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض، لا تدرك حقيقة صحته إلا بالخبر ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به.

غير أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات، وعريش مصر لإجماع جميع أهل التأويل والسّير والعلماء بالأخبار على ذلك.

وقال القرطبي: ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ معناه المطهّرة. مجاهد: المباركة، والبركة التطهير من القحوط والجوع وغيره.
قتادة: هي الشام. مجاهد: الطور وما حوله.
ابن عباس والسدّي وابن زيد: هي أريحاء.
الزجّاج: دمشق وفلسطين وبعض الأردن.
وقول قتادة يجمع هذا كلّه.
قال ياقوت: الأرض المقدّسة: هي المباركة المنزّهة، قيل: هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن وبيت المقدس منه.
قلت: هذا ما قاله المفسّرون في تحديد الأرض المقدّسة على اختلاف بينهم، وقد رجّح القرطبي ما قاله قتادة: هي أرض الشام، لاشتمالها على ما قاله غيره، ولا سيّما بيت المقدس.

إرم ذات العماد: أوله همزة مكسورة بعدها راء مهملة مفتوحة بعدها ميم، والعماد بكسر العين المهملة: مدينة شدّاد بن عاد في اليمن على قول بعض العلماء.
قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [سورة الفجر، الآية: ٧].
قال البخاري: قال مجاهد: إرم ذات العماد القديمة، والعماد أهل عمود لا يقيمون.
قال ابن جرير: واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿إِرَمَ﴾ قال بعضهم: هي اسم بلدة، ثم اختلف الذين قالوا ذلك في البلدة التي عنيت بذلك، فقال بعضهم: عنيت الإسكندرية.
وروى بسنده عن القرطبي أنه يقول: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ الإسكندرية.
قال: وقال آخرون: هي دمشق.
وروى بسنده: عن مجاهد، قوله: ﴿إِرَمَ﴾ قال: القديمة.
وقال آخرون: تلك قبيلة من عاد.
وقال آخرون: إرم، الهالك.
قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن إرم إمّا بلدة كانت عاد تسكنها، فلذلك ردّت على عاد للإتباع لها، وإمّا اسم قبيلة.
وأمّا ما ذكر عن مجاهد، أنه قال: عني بذلك القديمة، فقول لا معنى له.
وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي: أنها اسم قبيلة من عاد، ولذلك جاءت القراءة بترك إضافة عاد إليها، وترك إجرائها.
وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: ذات الطول، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب للرجل الطويل: رجل معمّد، وقالوا: كانوا طوال الأجسام.
وقال بعضهم: بل قيل لهم: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا أهل عمد، ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلا حيث كان، ثم يرجعون إلى منازلهم.
وقال آخرون: بل قيل ذلك لهم لبناء بناه بعضهم فشيّد عمده ورفع بناه.
وأشبه الأقوال في ذلك بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، قول من قال: عني بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة؛ لأن المعروف في كلام العرب من العماد ما عمد به الخيام من الخشب، والسواري التي يحمل عليها البناء، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح.
وقال ابن كثير في تفسيره قوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشدّاد، وقد كانوا أشدّ الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشًا، ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربّهم الذي خلقهم.

قال مجاهد: إرم أمّة قديمة يعني عادًا الأولى، قال قتادة بن دعامة والسدّي: إنّ إرم بيت مملكة عاد وهذا قول حسن جيّد قويّ، وقال مجاهد وقتادة والكلبي في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ كانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال العوفي عن ابن عباس: إنّما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير وردّ الثاني فأصابه.

قال ابن كثير: فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها أو أعمدة بيوتهم للبدو أو سلاحًا يقاتلون به أو طول الواحد منهم فهم قبيلة وأمّة من الأمم فهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود والله أعلم.

ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ مدينة إمّا دمشق كما روي عن سعيد ابن المسيّب وعكرمة، أو إسكندرية كما روي عن القرطبي أو غيرهما ففيه نظر، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ أن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان. فإنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنّما الإخبار عن إهلاك القبيلة المسمّاة بعاد وما أحلّ الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم. وإنّما نبّهت على ذلك لئلا يغتر الكثير ممّا ذكره جماعة من المفسرّين عند هذه الآية عن ذكر مدينة يقال لها: إرم ذات العماد، مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وأن حصباءها لآلئ وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داع ولا مجيب، وأنّها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإنّ هذا كلّه من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدّقهم في جميع ذلك.

وذكر الثعالبي وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قلابة، في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت فبينما هو يتيه في ابتغائها إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب فدخلها فوجد فيها قريبًا مما ذكرناه، من صفات المدينة الذهبية التي تقدّم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئًا... فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ولو صحّ إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخيال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك، وهذا ممّا يقطع بعدم صحته.

ـ **وقال ابن إسحاق**: كانوا عربًا وكان منزلهم بوادي القرى.

ـ **قال ياقوت**: إرم ذات العماد: وهي إرم عاد، يضاف ولا يضاف، أعني قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ فمن أضاف لم يصرف إرم؛ لأنه يجعله اسم أمّهم، أو اسم بلدة، ومن لم يضف جعل إرم اسمه ولم يصرفه؛ لأنه جعل عادًا اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة، وجعله بدلاً منه.

وقال بعضهم: إرم لا ينصرف للتعريف والتأنيث لأنه اسم قبيلة، فعلى هذا يكون التقدير: ـ إرم صاحب ذات العماد، لأن ذات العماد مدينة.

ـ **وقيل**: ذات العماد وصف، كما تقول المدينة ذات الملك.

ـ وقيل: إرم مدينة، فعلى هذا يكون التقدير بعاد صاحب إرم.

ويقرأ بعاد إرم ذات العماد، الجرّ على الإضافة فهذا إعرابها، ثم اختلف فيها من جعلها مدينة، فمنهم من قال: هي أرض كانت واندرست، فهي لا تعرف. ومنهم من قال: هي الإسكندرية، وأكثرهم يقولون: هي دمشق، وكذلك قال شبيب بن يزيد ابن النعمان بن بشير:

لولا التي علّقتني من علائقها
لم تمس لي إرم دارًا ولا وطنًا

قالوا: أراد دمشق، وإياها أراد البحتري بقوله:

إليك رحلنا العيس من أرض بابل
نجوز بها سمت الدّبور ونهتدي
فكم جزعت من وهدة بعد وهدة
وكم قطعت من فدفد بعد فدفد
طلبنك من أمّ العراق نوازعًا
بنا، وقصور الشام منك بمرصد
إلى إرم ذات العماد وإنّها
لمَوضع قصدي موجفًا وتعمّدي

ـ **وحكى الزمخشري** أن إرم بلد منه الإسكندرية. وروى آخرون أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، باليمن بين حضرموت وصنعاء، من بناء شدّاد بن عاد، ورووا أن شدّاد بن عاد كان جبّارًا، ولمّا سمع بالجنة وما أعدّ الله فيها لأوليائه من قصور الذهب والفضة، والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار، والغرف التي من فوقها غرف، قال لكبرائه: إنّي متّخذ في الأرض مدينة على صفة الجنّة فوكّل بذلك مائة رجل من وكلائه وقهاريماته تحت يد كل رجل منهم ألف من الأعوان وأمرهم أن يطلبوا فضاء فلاة من أرض اليمن ويختاروا أطيبها تربة، ومكّنهم من الأموال ومثّل لهم كيف يعملون، وكتب إلى عمّاله الثلاثة: غانم بن علوان، والضحّاك ابن علوان، والوليد بن الريّان يأمرهم أن يكتبوا إلى عمّالهم في آفاق بلدانهم أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدّر والياقوت والمسك والعنبر والزعفران، فيوجّهوا به إليه.

ثم وجّه إلى جميع المعادن فاستخرج ما فيها من الذهب والفضة. ثم وجّه عمّاله الثلاثة إلى الغواصين إلى البحار فاستخرجوا الجواهر، فجمعوا منها أمثال الجبال، وحمل جميع ذلك إلى شدّاد ثم وجّهوا الحفّارين إلى معادن الياقوت والزبرجد، وسائر الجواهر فاستخرجوا منها أمرًا عظيمًا. فأمر بالذهب فضرب أمثال اللبن ثم بنى بذلك تلك المدينة، وأمر بالدّر والياقوت والجزع والزّبرجد والعقيق ففصّص به حيطانها، وجعل لها غرفًا من فوقها غرف، معمّد جميع ذلك بأساطين الزّبرجد والجزع والياقوت، ثم أجرى تحت المدينة واديًا ساقه إليها من تحت الأرض أربعين فرسخًا، كهيئة القناة العظيمة. ثم أمر فأجرى من ذلك الوادي سواق في تلك السّكك والشوارع والأزقّة تجري بالماء الصافي. وأمر بحافتي ذلك النهر وجميع السّواقي فطليت بالذهب الأحمر... ثم بنى لنفسه في وسط المدينة، على شاطئ ذلك النهر قصرًا منيفًا عاليًا يشرف على تلك القصور كلّها، وجعل بابها يشرع إلى الوادي بمكان رحب واسع، ونصب عليه مصراعين من ذهب مفصّصين بأنواع اليواقيت... ومكث في بنائها خمسمائة عام.

وإن الله ﷻ أحبّ أن يتّخذ الحجّة عليه وعلى جنوده بالرسالة والدعاء إلى التوبة والإنابة فانتجب لرسالته إليه هودًا عليه السلام، وكان من

صميم قومه وأشرفهم... ثم إن هودًا عليه السلام، أتاه فدعاه إلى الله تعالى وأمره بالإيمان والإقرار بربوبية الله عزّ وجلّ، ووحدانيّته، فتمادى في الكفر والطّغيان وذلك حين تمّ لملكه سبعمائة سنة. فأنذره هود بالعذاب وحذّره وخوفّه زوال ملكه فلم يرتدع عمّا كان عليه، ووافاه الموكّلون ببناء المدينة، وأخبروه بالفراغ منها فعزم على الخروج إليها في جنوده فخرج في ثلاثمائة ألف من حرسه وشاكريّته ومواليه وسار نحوها وخلّف على ملكه بحضرموت وسائر أرض العرب ابنه مرثد بن شدّاد، وكان مرثد فيما يقال مؤمنًا بهود ـ عليه السلام ـ فلما قرب شداد من المدينة وانتهى إلى مرحلة منها جاءت صيحة من السماء فمات هو وأصحابه أجمعون...

وختم ياقوت هذه القصة التي أوردنا ملخصًا مما جاء فيها بقوله:

قلت: هذه القصة مما قدّمنا البراءة من صحتها وظننّا أنها من أخبار القصّاص المنمّقة وأوضاعها المزوّقة.

قلت: هذا بعض ما ذكره ابن كثير وغيره من العلماء عن إرم ذات العماد، ويتّضح فيما ذكرناه من أقوال العلماء الاختلاف في حقيقة إرم ذات العماد، وصفها وموقعها، وهل هي مدينة أو قبيلة؟ غير أن ابن كثير استحسن قول قتادة والسدّي: إن إرم ذات العماد بيت مملكة عاد، والله أعلم.

أَرِيْحا: بهمزة مفتوحة وراء مهملة مكسورة، ثم ياء مثناة ساكنة بعدها حاء مهملة ثم ألف ممدود: بلدة في الغور من أرض الأردن.

روى **البخاري** في صحيحه عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لمّا ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين، وأراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهود رسول الله ﷺ ليقرهم بها أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر، فقال لهم رسول الله ﷺ: نقركم بها ما شئنا فقروا بها، حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء.

قال ابن حجر: أريحاء: بفتح الهمزة وكسر الراء بعدها تحتانية ساكنة ثم مهملة وبالمد.

وفي النهاية: هي بفتح الهمزة وكسر الراء وبالحاء المهملة: اسم قرية بالغور قريبًا من القدس.

وقال القزويني: أريحا: مدينة بقرب بيت المقدس من أعمال الأردن بالغور، ذات نخل وموز وسكر كثير، وهي قرية الجبّارين التي أمر الله موسى عليه السلام، بدخولها، فقال موسى لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، يعني أرض الشام[1].

وقال ياقوت: أريحا: بالفتح ثم الكسر، وياء ساكنة والحاء مهملة، والقصر، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة، لغة عبرانية: وهي مدينة الجبّارين في الغور من أرض الأردن بالشام، بينهما وبين بيت المقدس يوم للفارس في جبال صعبة المسلك سُميت فيما قيل بأريحا بن مالك بن أرفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام، وقد حرّك جرير الياء منه ومدّه فقال:

فماذا راب عبد بني نمير
فعليّ أن أزيدهم ارتيابا

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، ١٤٢.

أعدّ لها مكاوي منضجات
ويشفي حرّ شعلتي الجرابا
شياطين البلاد يخفن زأرى
وحيّة أريحاء لي استجابا

وفي الروض المعطار قال الحميري أريحا: مدينة من أجلّ بلاد الغور بالشام، وفي الخبر أن عمر رضي الله عنه أجلى اليهود إلى أريحا وكانوا طلبوا إلى النبي ﷺ حين غلب عليهم أن يقرّهم على أن لهم نصف الثمر، فقال: نقرّكم متى شئنا فبقوا كذلك خلافة أبي بكر رضي الله عنه وصدرًا من خلافة عمر رضي الله عنه، ثم أجلاهم إلى أريحا. ذكره مسلم بن الحجاج.

وقال ابن الأثير: ثم إن الله تعالى أمر موسى عليه السلام، أن يسير ببني إسرائيل إلى أريحا بلد الجبّارين وهي أرض المقدس. التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المائدة، الآيات: ٢١ ـ ٢٢].

قلت: ومدينة أريحا موضحة على خريطة فلسطين والمملكة الأردنية الهاشمية وهي ما زالت مدينة عامرة باقية على اسمها لم يتغير منه شيء، ولها شهرة تاريخية قديمًا ـ وفي هذا العهد ـ تغني عن التعريف بها، وموقعها الجغرافي شرق القدس غير بعيدة منه.

ويلاحظ أنها وردت في الحديث وبعض المصادر بمدّ الآخر وبعض المصادر ذكرها بالقصر وضبطه ياقوت بالقصر.

آطام المدينة: بمد أوله، جمع أطم، بضم الهمزة والطاء المهملة وآخره ميم: وهي حصون تبنى بالحجارة في المدينة.

روى البخاري عن أسامة رضي الله عنه قال أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر تابعة معمر وسليمان ابن كثير عن الزهري.

قال ابن حجر: آطام المدينة بالمد جمع أطم بضمتين وهي الحصون التي تبنى بالحجارة. وقيل: هو كل بيت مربع مسطح، والآطام جمع قلة، وجمع الكثرة أطوم، والواحدة أطمة كأكمة.

وقد ذكر الزبير بن بكار في أخبار المدينة ما كان بها من الآطام قبل حلول الأوس والخزرج بها، ثم ما كان بها بعد حلولهم وأطال في ذلك.

وقال ياقوت: الأطم: يقال بضمتين وبضمة ثم السكون، والأطم والأجم بمعنى واحد، والجمع آطام وآجام: وهي الحصون، وأكثر ما يسمى بهذا الاسم حصون المدينة، وقد يقال لغيرها أيضًا، قال أوس بن مغراء:

بث الجنود لهم في الأرض يقتلهم
ما بين بصرى إلى آطام نجران

وقال زيد الخيل الطائي:

أنيخت بآطام المدينة أربعًا
وعشرًا يغني فوقها الليل طائرُ
فلما قضى أصحابنا كل حاجة
وَخَطّ كتابًا في المدينة سَاطِرُ
شددت عليها رحلها وشليلها
من الدرس والشعراء والبطن ضامر

قلت: وآطام المدينة كثيرة مشهورة تحدث عنها المؤرخون، منها ما له اسم يعرف به مثل: الأغلب: بالغين المعجمة ابتناه بنو سواد ابن غنم بن كعب، كان على النهد الذي عليه الأحجار التي يستريح عليها السقّاؤون

حين يفيضون بزقاق رومة إلى بطحان، كان لعمرو بن عباد بن عمرو بن سواد أبي اليسر.

وخيط: بلفظ واحد الخيوط: أطم بالمدينة ابتناه بنو سواد بن غنم، كان موضعه في شرقي مسجد القبلتين على شرف الحرّة عند منقطع السبيل، من أرض بني سلمة كان لسهل ابن قيس بن أبي كعب بن القين بن كعب ابن سواد.

والموجا: بالفتح والجيم: أطم بالمدينة لبني وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة ابن مالك بن الأوس في دارهم التي كانوا بها، وابتنوا (العذق) أيضًا.

قلت: ومثل هذا كثير في أسماء الآطام في المدينة، ومنها ما يسمى باسم صاحبه منسوبًا إليه فيقال أطم بني فلان.

وتحدث السهيلي: عن بعض أطم المدينة فقال: وذكر في حديث عبد الله بن أبيّ أن رسول الله ﷺ مرّ به، وهو في ظل مزاحم أطمة، وآطام المدينة: سطوح ولها أسماء، فمنها مزاحم، ومنها الزوراء أطم بني الجلاح، ومنها معرض أطم بني ساعدة، ومنها فارع أطم بني حديلة، ومنها مسعط، وواقم، وفي معرض يقول الشاعر:

ونحن دفعنا عن بضاعة كلها
ونحن بنينا معرضًا فهو مشرف
فأصبح معمورًا طويلاً قذاله
وتخرب آطام بها وتقصف

وبضاعة أرض بني ساعدة، وإليها تنسب بئر بضاعة.

والأجش وكان بقباء والحميم والنواحان، وهما أطمان لبني أنيف، وصرار وكان بالجوانية والريان والشبعان وهو في تمغ، وراتج والأبيض، ومنها عاصم والرّعل وكان لحضير بن سماك، ومنها خيط وواسط وحبيش، والأغلب ومنيع، فهذه آطام المدينة ذكر أكثرها الزبير، والأطم: اسم مأخوذ من ائتطم: إذا ارتفع وعلا، يقال ائتطم عليَّ فلان: إذا غضب وانتفخ.

وقال السمهودي: إن الأوس والخزرج تفرقوا في عالية المدينة وسافلتها، واتخذوا الأموال والآطام... فابتنى عبد الأشهل أطمًا يقال له: واقم، وكان لحضير بن سماك، وله يقول شاعرهم:

نحن بنينا واقمًا بالحرّة
بلازب الطين وبالأصرّة

وله يقول خفاف بن ندبة:

لو أن المنايا جزن عن ذي مهابة
لهبن حضيرًا يوم أغلق واقما
يطيف به حتى إذا الليل جنّة
تبوّأ منه مضجعًا متناغما

وأطمًا يقال له الرّعل، بالمال الذي يقال له واسط لصخرة أم بني عبد الأشهل، وله يقول شاعرهم يوم بعاث:

نحن بنوا صخرة أرباب الرّعل

وآطامًا غير ذلك، وابتنا بنو حارثة أطمًا اسمه المسيّر، صار لبني عبد الأشهل بعد خروج بني حارثة من دارهم. ونزل بنو عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس قباء، فابتنوا أطمًا يقال له: الشُّنَيْف عند دار أبي سفيان ابن الحارث بين أحجار المراء، وبين مجلس بني الموالي، كان لبني ضبيعة بن زيد بن مالك ابن عوف.

وأطمًا في دار عبد الله بن أبي أحمد، كان لكلثوم بن الهدم من بني عبيد بن زيد ابن أظلم، وأطمًا يقال له واقم كان بقباء لأحيحة بن الجلاح، ثم صار لبني عبد المنذر ابن رفاعة في دية جدهم رفاعة... وله يقول كعب بن مالك:

فلا تتهدد بالوعيد سفاهة
وأوعد شُنَيْفًا إن عصيت وواقما

وكان في رحبة بني زيد بن مالك بن عوف أربعة عشر أطمًا يقال لها الصياصي، وكان لهم أطم بالمسبكة شرقي مسجد قباء، وأطم يقال له المستظل، كان موضعه عند بئر غرس، كان لأحيحة، ثم صار لبني عبد المنذر في دية جدهم رفاعة.

وابتنى أحيحة بن الجلاح بالعصبة أطمًا يقال له: الضحيان، وهو الأطم الأسود الذي بالعصبة، وكان عرضه قريبًا من طوله، بناه أولاً من بثرة بيضاء فسقط، يعني من حجارة الحرار البيض. وكان يرى من المكان البعيد، وفيه يقول أحيحة:

وقد أعددت للحدثان حصنًا
لو أن المرء تنفعه العقول
طويل الرأس أبيض مشمخر
يلوح كأنه سيف صقيل

وابتنوا هم وبنو مجدعة أطمًا يقال له الهجيم، عند المسجد الذي صلى فيه النبي ﷺ وخرجت بنو لوذان بن عمرو بن عوف - فسكنوا عند زقاق ركيح، وابتنوا أطمًا يقال له السعدان، وموضعه في المربّع، حائط هناك.

ونزل أبناء امرئ القيس بن مالك بن الأوس عند مسجد الفضيخ، وابتنى بنو واقف أطمًا يقال له الزيدان، وله يقول قيس بن رفاعة:

وكيف أرجو لذيذ العيش بعدهم
وبعد من قد مضى من أهل زيدان

وأطمًا كان موضعه عند بئر عائشة الواقفي.

ونزل بنو وائل بن زيد بن الأوس في دارهم المعروفة بهم، وابتنوا أطمًا يقال له: الموجا، كان موضعه في مسجد بني وائل.

وابتنوا أطمًا يقال له: أطم العذق، كان عند الكبا المواجهة مسجد بني أمية، وأطمًا كان في دار آل رويفع التي في شرق مسجد بني أمية.

ونزل بنو عطية بن زيد بن الأوس بصفنة فوق بني الحبلي، وابتنوا فيها أطمًا اسمه شاس، كان لشاس بن قيس أخي بني عطية بن زيد، وهو الذي على يسارك في رحبة مسجد قباء مستقبل القبلة.

ونزل بنو خطمة بن الأوس دارهم المعروفة بهم، وابتنوا الآطام وغرسوا النخيل، فابتنوا أطماً يقال له صَع ذَرْع، ليس به بيوت جعلوه كالحصن الذي يتحصنون فيه للقتال وكان لخطمة كلها، وكان موضعه عند مهراس بني خطمة، سمي: صَعْ ذَرْع لأنه كان عند بئر بني خطمة التي يقال لها ذرع.

وابتنى بنو الحارث بن الخزرج الأكبر دارهم المعروفة بهم بالعوالي، وابتنوا أطمًا كان لبني امرئ القيس بن مالك. وخرج جشم وزيد أبناء الحارث بن الخزرج فسكنا السنح، على ميل من مسجد الرسول ﷺ وابتنوا أطمًا يقال له السنح، وبه سميت الناحية، وبالسنح كان منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه بزوجته بنت خارجة بن زيد، قاله عياض، وهو منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة.

وخرجت بنو خدرة فسكنوا دارهم المعروفة ببني خدرة وابتنوا أطمًا يقال له الأجرد، وهو الأطم الذي يقال لبئره البصّة، كان لمالك ابن سنان جد أبي سعيد الخدري.

ونزل سالم وغنم أبناء عوف بن عمرو ابن الخزرج الدار التي يقال لها: دار بني سالم، على طرف الحرّة الغربية غربي الوادي ببطن رانونا وابتنوا آطامًا: منها المزدلف، أطم عتبان بن مالك ومنها الشماخ، كان خارجًا عن بيوت بني سالم من جهة القبلة، ومنها

أطم القوافل، وهو الذي في طرف بيوت بني سالم مما يلي ناحية العصبة.
وابتنى بنو سالم بن غنيم آطامًا منها مزاحم، بين ظهراني بيوت بني الحبلي، وهو لعبد الله ابن أبيّ بن سلول. ومنها أطم كان بين مال عمارة بن نعيم البياضي وبين مال ابن زمانة. ومنها أطم كان في جوف بيوتهم.
ونزل بنو سواد بن غنم بن سلامة عند مسجد القبلتين، وابتنوا أطمًا يقال له: الأغلب، وأطمًا يقال له: خيط في شرقي مسجد القبلتين على شرف الحرّة، وأطمًا يقال له منيع في يماني مسجد القبلتين على ظهر الحرّة.
ونزل بنو عبيد بن علي بن سلمة عند مسجد الخربة إلى الجبل الذي يقال له الدويخل، وابتنوا الأشنق، وهو المواجه لمسجد الخربة كان للبراء بن معرور، وابتنوا الأطول، عند قبلة مسجد الخربة، ونزل بنو حرام بن كعب ابن سلمة عند مسجد بني حرام، ولهم أطم يقال له المزاد سميت به الناحية وابتنوا أطمًا يقال له: جاعس، وابتنى بنو مر بن كعب ابن سلمة أطمًا يقال له أخنس، وهو الأسود القائم في بني سلمة.
ونزل بنو بياضة دار بني بياضة وابتنوا بدارهم الآطام، وقال عن ابن زبالة أنه كان بدارهم تسعة عشر أطمًا. منها أطم أسود في يماني أرض فراس بن ميسرة كان في الحرّة، ومنها: عقرب، كان في شامي المزرعة المسماة بالرحابة، ومنها: سويد كان في شامي الحائط الذي كان يقال له الحماضة، ومنها اللواء كان موضعه في حد السرارة، ومنها أطم كان في السرارة، وابتنى بنو حبيب بن جشم ابن الخزرج الأطم الذي في أدنى بني بياضة الذي دونه الجسر.

وخرج بنو زريق بن عامر من دار بياضة حتى حلوا دارهم المعروفة قبلي المصلى بالموضع المعروف بذي روان وما والاه، وابتنوا آطامًا منها أطم في زاوية دار كبير بن الصلت بالمصلى، وأطم يقال له الريان، عند سقيفة آل سراقة التي يقال لها سقيفة الريان.
وأقام بنو عمرو بن عامر بن زريق مع بني بياضة، ولهم الأطم الذي في شامي الفراس.
وانتقل بنو مالك بن زيد من بني بياضة، ونزلوا الناحية التي وردت بنو زريق، وابتنوا أطمًا كان لبني المعلى بن لوذان.
ونزل بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج في أربع منازل: نزل بنو عمرو وبنو ثعلبة دار بني ساعدة، في شرق سوق المدينة، وقال المطري قرية بني ساعدة عند بئر بضاعة، قال ابن زبالة: وابتنوا أطمًا يقال له: معرض، في الدار المواجهة مسجد بني ساعدة، وهو آخر أطم بني في المدينة، وقدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يبنونه، فاستأذنوا في إتمامه فأذن لهم فيه، وله يقول شاعرهم:

ونحن حمينا عن بضاعة كلها
ونحن بنينا معرضًا فهو مشرف
فأصبح معمورًا طويلاً قذاله
وتخرب آطام بها وتقصّف

وأطمًا في دار أبي دجانة التي عند بضاعة.
ونزلت بنو قشبة قريبًا من بني حديلة، وابتنوا أطمًا عند خوخة عمرو بن أمية الضمري.
ونزل بنو أبي خزيمة الدار التي يقال لها جرار وابتنوا أطمًا يقال له واسط.
ونزل بنو مالك بن النجار دارهم المعروفة بهم، فابتنى بنو غنم بن مالك أطمًا يقال له: فويرع، وابتنى بنو مغالة أطمًا يقال له: فارع، وله يقول حسّان بن ثابت:

أرقت لتوماض البروق اللوامع
ونحن نَشَاوَي بين سَلْع وفارع

قال ابن زبالة: وقال الزين المراغي: إن هذا الأطم كان لثابت والد حسّان بن ثابت.

وفارع هذا هو الأطم الذي كانت به صفية عمة رسول الله ﷺ يوم الخندق وعندها حسّان.

وفي مسلم في حديث ابن صياد: فوجوده عند أطم بني مغالة.

وابتنى بنو حديلة أطمًا يقال له مسعط، كان في غربي مسجدهم الذي يقال له: مسجد أبيّ، يعني أبيّ بن كعب.

وابتنى بنو مبذول أطمًا يقال له السلج، وأطمًا كان في دار آل حُيَي بن أخطب، وأطمًا كان في دار سرجس مولى الزبير.

ونزل بنو علي بن النجار دارهم المعروفة بهم غربي المسجد النبوي، وكان بها الأطم الذي في قبلة مسجدهم، وابتنوا أطمًا يقال له: أطم الزاهرية.

ونزل بنو مازن دارهم المعروفة بهم قبلي بئر البصّة، وابتنوا بها أطمين أحدهما يقال له: واسط.

ونزل بنو دينار بن النجار دارهم التي خلف بطحان المعروفة بهم، وابتنوا أطمًا يقال له: المنيف، عند مسجدهم.

قلت: هذا ما تيسر لي التعريف به من منازل قبيلتي الأوس والخزرج، وأطمهم، وقد اعتمد السمهودي في حديثه عن آطام المدينة ومنازل قبائلها على ما ذكره المؤرخون: ابن زبالة، وابن شبّه، والمطري، وابن النجار وغيرهم، وقد حرص في حديثه على الجمع بين أقوال من سبقه، وتحرى الأرجح منها واستعان ببعض مشاهداته في هذه البلاد.

وتحدث عبد القدوس الأنصاري عن آطام المدينة وقال في حديثه: وكان المُرجّى أن تبقي لنا يد الأيام طائفة من الحصون والآطام الكثيرة، ولكنها لم تبق سوى ثلاثة هي: حصن كعب بن الأشرف، وأطم الضحيان، وأطم أبي دجانة بن سماك.

وقال في وصف أطم كعب بن الأشرف: يقوم على هضبة من الحرّة الجنوبية الشرقية للمدينة، وطوله ٣٣ مترًا في عرض ٣٣ مترًا وارتفاع ما بقي من جدرانه أربعة أمتار وسمكها متر وله باب واحد في الجهة الغربية وثمانية أبراج ضخام، بناؤها من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة، وطول بعضها مائة وأربعون سنتيمترًا، وعرضها ثمانون سنتيمترًا، وسمكها أربعون سنتيمترًا. ولا أثر فيه للنقوش ولا للزخرفة، بناء حربي محسن، وبوسطه رحبة واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع، وهي غير مرصوفة ولا مبلطة، فالصخور الحرّية ناتئة فيها، وبينها انخفاضات وارتفاعات، وبجوانب الحصن من الداخل عشر غرف مختلفة الأقيسة، وأعاليه مهدّمة.

وفي الجهة الجنوبية خارج الحصن بئر ملاصقة له، وقد انهارت بطول الزمن ويدخل إليها من داخل الحصن بواسطة سلّم حجري ينزل المستقون منه، وقد طم التراب والحجارة والمدخل والسلّم.

وقال في وصف أطم الضَّحيان: أطم عظيم مشيّد بحجارة الحرّة السود، طوله نحو ٢٧ مترًا في عرض اثنى عشر مترًا، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار، وقد تساقط قسمه الجنوبي حتى ليكاد ينمحي أثره.

أما القسم الشمالي منه فلا يزال متماسكًا عاليًا مع تناثر كثير من حجارته العلوية، ولضخامته لم يظهر أثر كبير لهذا التناثر، وهو واقع بالعرصة الكائنة غربي بئر شميلة وشمالي

العصبة... وأطم الضَّحيان جاهلي كأغلب آطام المدينة.

وقال في وصف أطم أبي دجانة: إن الطلل الباقي من هذا البناء المصمت الشبيه في شكله واستدارته بأطم الضّحيان، والموجود في الناحية الشمالية من الحائط المربع في وهدة من الأرض قرب الزقاق الموصل إلى فندق آل المدني الذي أصبح مدرسة للبنات.. والذي تقع فعلاً في الشمال الغربي من بئر بضاعة، وهو بقية أطم أبي دجانة الأنصاري الساعدي. وقد نشر عبد القدوس الأنصاري في كتابه صورًا لهذه الأطم الثلاثة التي تحدث عنها.

قلت: وبما قدمنا أكتفي في الحديث عن آطام المدينة وهي أكثر مما ذكرته، هذا بالنسبة لآطام الأوس والخزرج.

أما آطام اليهود فإنها كذلك كثيرة ولم أتعرض لذكر شيء منها، وقد تحدث عنها المؤرخون الذين عنوا بتاريخ المدينة، واستوفوا الحديث عنها بما فيه كفاية.

أُطمُ بني مَغَالَة: الأطم تقدم ضبطه وتعريفه[١].

وبنو مغالة حيّ من الأنصار في المدينة.

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عمر ـ في خبر ابن صياد ـ أن النبي ﷺ وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة.

قال ابن حجر: أطم، بضمتين: بناء كالحصن، ومغالة: بفتح الميم والمعجمة الخفيفة بطن من الأنصار.

وقال السمهودي: بنو مغَالَة ـ هم بنو عديّ ابن عمرو بن مالك بن النجار ـ ومغالة أم عدي، ابتنوا أطمًا يقال له: فارع، وهو الأطم الذي يواجه دور بني طلحة بن عبيد الله، ودخل في دار جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وله يقول حسان بن ثابت:

أرقت لتوماض البروق اللوامع
ونحن نشاوي بين سلع وفارع

قاله ابن زبالة.

وقال الزين المراغي: إن هذا الأطم كان لثابت والد حسان بن ثابت، وأنه دخل في الدار المواجهة لباب الرحمة التي كانت دار عاتكة، ومأخذه في ذلك أن دار عاتكة من جملة دار جعفر بن يحيى... وفارع هذا هو الأطم الذي كانت به صفية عمة رسول الله ﷺ يوم الخندق وعندها حسان.

وقال: الباب السادس عشر: باب كان يقابل دار جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وقد دخل في داره هذه فارع أطم حسان بن ثابت كما قال ابن زبالة، وفي موضعها اليوم المدرسة الكلبرجية التي أنشأها السلطان شهاب الدين أحمد سلطان كلبرجة من بلاد الهند في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، وهذا الباب دخل في الحائط عند تجديده.

وقال الشنقيطي: أطم حسان بن ثابت رضي الله عنه وداره: وكان يسمى هذا الأطم الفارع، وموقعه في محل باب الرحمة اليوم، وكان النبي ﷺ يدخل أهله في هذا الحصن إذا وقع قتال حول المدينة المنورة، كما حصل في غزوة أحد والخندق، وهذا الحصن هو الذي قتلت فيه صفية عمة الرسول ﷺ اليهودي الذي جاء يتطلع عورات أهل بيت النبي ﷺ في غزوة الأحزاب.

وقال أحمد العباسي: بنو مغالة: وهم بنو عدي بن عمرو بن مالك، ومغالة أمهم، غربي

---

(١) انظر رسم آطام المدينة.

المسجد بجهة باب الرحمة ولهم فارع أطم حسان بن ثابت وبيرحاء[(١)].

قلت: وهذه الأطم والمعالم التاريخية قد زالت كلها في زمن غابر، ولم يبق منها أثر يدل على مواقعها إلا ما كتب المؤرخون في وصفها وتحديد أماكنها.

أعلى مكة: بهمزة مفتوحة وعين مهملة ساكنة ولام بعدها ألف مقصور: موضع في مكة (المعلاة).

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفًا أسامة بن زيد ومعه بلال، ومعه عثمان بن طلحة من الحجبة حتى أناخ في المسجد.

وروى بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة.

وروى بسنده عن هشام عن أبيه دخل النبي ﷺ عام الفتح من أعلى مكة من كداء.

وروى بسنده ـ في حديث دخول مكة ـ عن هشام عن أبيه قال وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون، قال عروة وأخبرني نافع ابن جبير بن مطعم، قال: سمعت العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية؟ قال: وأمر رسول الله يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء ودخل النبي ﷺ من كُدى.

قال ابن حجر: قوله: وأمر النبي ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء، أي بالمدّ، ودخل النبي ﷺ من كدي أي بالقصر، وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة أنّ خالدًا دخل من أسفل مكة، والنبي ﷺ من أعلاها، وكذا جزم ابن إسحاق أن خالدًا دخل من أسفل ودخل النبي ﷺ من أعلاها، وضربت له هناك قبّة، وقد ساق ذلك موسى بن عقبة سياقًا واضحًا فقال: وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ.

وقال ابن إسحاق: وقد حدثني ابن عبد الله ابن أبي نجيح في حديثه: أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد، فدخل من اللّيط أسفل مكة في بعض الناس، وكان خالد على المجنبة اليمني... وأقبل أبو عبيدة بن الجرّاح بالصفّ من المسلمين ينصبّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر، حتى نزل بأعلى مكة وضربت له قبّة هناك.

وروى الواقدي عن حزام بن هشام عن أبيه قال: أقبل الزبير بن العوام بمن معه من المسلمين حتى انتهى بهم إلى الحجون فغرز الراية عند منزل رسول الله ﷺ.

وروى بسنده عن أبي جعفر، قال: كان أبو رافع قد ضرب لرسول الله ﷺ قبّة بالحجون من أدم، فأقبل رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى القبّة، ومعه أمّ سلمة وميمونة.

وقال الواقدي ـ في خبر حجّة الوداع ـ حدثني ابن أبي سبرة، عن موسى بن سعد، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن

---

(١) عمدة الأخبار في مدينة المختار، ٣٥.

رسول الله ﷺ دخل مكة نهارًا من كدي على راحلته القصوى إلى الأبطح، حتى دخل من أعلى مكة حتى انتهى إلى الباب الذي يقال له باب بني شيبة.

وروى بسنده عن أمّ هانئ، قالت قلت: يا رسول الله، ألا تنزل في بيوت مكة؟ فأبى واضطرب بالأبطح حتى خرج يوم التروية، ثم رجع من منى فنزل بالأبطح حتى خرج إلى المدينة، ولم ينزل بيتًا ولم يظلّه.

وقال الفاكهي: وحدّ المعلاة فيما يقال ـ والله أعلم ـ، وفيما جاء الأثر بذلك حديث جرهم، وقطورًا، أنهم لما نزلوا مكة بعد العماليق، اقتسموا مكة نصفين، فكان لجرهم أعلى الوادي، وكان لقطور أسفله، فكان حوز جرهم وجه الكعبة إلى الركن الأسود والمقام وموضع زمزم مصعدًا يمينًا وشمالاً وقعيقعان إلى أعلى الوادي. وكان حوز قطور المسفلة ظهر الكعبة الركن اليماني والغربي وأجيادين والثنية والمسفلة.

وكانت جرهم تعشّر من جاء من المعلاة، وكانت قطور تعشّر مَنْ جاء من المسفلة.

وقال الفاسي في حديثه عن مقابر مكة: المقبرة المعروفة بالمعلاة، ويقال: المعلي بلام وياء، وهي مشهورة روينا بالسند إلى الأزرقي قال: وأخبرني جدّي عن الزنجي قال: كان أهل مكة في الجاهلية وفي صدر الإسلام يدفنون موتاهم في شعب أبي ذئب وبين الحجون، إلى الشعب الصفيّ صفيّ الشباب، وفي الشعب شعب الملاصق لثنية المدنيين الذي هو اليوم مقبرة أهل مكة ثم تمضي المقبرة مصعدة لاصقة بالجبل إلى ثنية أذاخر بحائط خرمان... وكان أهل مكة يدفنون موتاهم في جنبتي الوادي يمنة وشأمة في الجاهلية والإسلام، ثم حوّل الناس جميعًا قبورهم في الشعب الأيسر.

قال الفاسي: حائط خرمان هو ـ والله أعلم ـ الموضع الذي يقال له: الخرمانية، وهو أودان بأعلى الموضع المعروف بالمعابدة بظاهر مكة وثنية أزاخر فوق هذا المكان، وهي ثنية مشهورة، وكانت تنتهي المقبرة إليها في الجاهلية ومنها دخل النبي ﷺ يوم فتح مكة.

وروى الأزرقي بسنده عن عطاء أن النبي ﷺ بعد ما سكن المدينة كان لا يدخل بيوت مكة، قال: كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلى مكة فاضطرب به الأبنية، قال عطاء: في حجّته فعل ذلك أيضًا، ونزل أعلى مكة قبل التعريف، وليلة النفر نزل أعلى الوادي.

قال عاتق البلادي: المعلاة: هو القسم العلوي من مكة المكرمة، ويطلق اليوم على حيّ وسوق بين الحجون والمسجد الحرام، وغالبًا ما يطلق على مقبرة مكة التي صارت تعرف بالمعلاة لوقوعها في هذا الحيّ.

والمعلاة أيضًا: أعلى وادي رهاط، تكون مع المجمعة والبجّورة، أرض رهاط، وهي للروقة من عتيبة، فيها عين النبي، يقال: إنه ﷺ وردها.

قلت: مما تقدم من أقوال العلماء في تحديد موقع أعلى مكة (المعلاة) يتضح للقارئ موقع المعلاة من مكة، وبما أن أعلى مكة ما زال معروفًا باسمه، ومشتهرًا في مقبرة مكة (المعلاة) فإن ما ذكرته من أقوال العلماء فيه كفاية والله الموفق.

أوطاس: بهمزة مفتوحة بعدها واو ساكنة ثم طاء مهملة بعدها ألف وآخره سين مهملة: موضع يقع شرق مكة، في ديار هوازن.

روى البخاري بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمّة فقتل دريد وهزم الله أصحابه. . . الحديث.

قال البكري: أوطاس: بفتح أوله، وبالطاء والسين المهملتين: وادٍ في ديار هوازن، وهناك عسكروا هم وثقيف إذ أجمعوا على حرب رسول الله ﷺ، فالتقوا بحنين، ورئيسهم مالك بن عوف النّصري، ، وقال لهم دريد ابن الصمّة وهو في شجار يقاد به بعيره: بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا ليّن دهس. وإلى أوطاس تحيّز فلّهم بعد أن انهزموا، ومنهم من تحيّز إلى الطائف. وكان دريد فيمن أدركه الطلب بأوطاس فقتل، قتله ربيعة بن رفيع السّلمي. وحنين: ماء لهم. قالت امرأة من المسلمين لمّا هزم الله هوازن، وأظهر عليهم رسوله:

إن حنينًا ماؤنا فخلّوه
إن تنهلوا منه فلن تعلّوه
هذا رسول اللّه لن تفلّوه

وقال ياقوت: الأوطاس: يجوز أن يكون منقولاً من جمع وطيس وهو التّنور، نحو يمين وأيمان، وقيل: الوطيس نقرة في حجر يوقد تحتها النار فيطبخ فيه اللحم. ويقال: وطست الشيء وطسًا إذا كددته وأثرت فيه، وأوطاس: وادٍ في دار هوازن فيه كانت وقعة حنين للنبي ﷺ، ببني هوزان، ويومئذ قال النبي ﷺ: «حمي الوطيس وذلك حين استعرت الحرب»، وهو ﷺ، أول من قاله، وقال ابن شبيب: الغور من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق، ونجد من حدّ أوطاس إلى القريتين.

وقال أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوي في أماليه: أنشدني أبي رحمه الله:

يا دار أقوت بأوطاس وغيّرها
من بعد مأهولها الأمطار والمور
كم ذا لأهلك من دهر ومن حجج
وأين حلّ الدّمى والكنّس الحور
ردّي الجواب على حرّان مكتئب
سهاده مطلق والنوم مأسور
فلم تبيّن لنا الأطلال من خبر
وقد تُجلّى العمايات الأخابير

وقال أبو وجزة السّعدي:

يا صاحبيّ انظرا هل تؤنسان لنا
بين العقيق وأوطاس بأحداج[1]

وقال لغدة: وبأوطاس يلتقي طريق البصرة وطريق الكوفة، ويجيء أهل اليمامة من نخلة اليمانية ـ يعني طرق الحج ـ وقال: ويجتمع طريق البصرة والكوفة بأمّ خرمان، وهي أوطاس، وفي أمّ خرمان يقول الشاعر:

يا أمّ خرمان ارفعي الوقودا
فقد أطالت نارك الخمودا

وقال ياقوت: أمّ خرمان: بضم الخاء المعجمة، وسكون الراء، وميم وألف ونون، ويروي بالزاي أيضًا: اسم موضع. وحكى ابن السكّيت في كتاب المثنى، قال أبو مهدي: أمّ خرمان ملتقى حاجّ البصرة وحاجّ الكوفة، وهي بركة إلى جنبها أكمة حمراء على رأسها موقد، وأنشد:

يا أمّ خرمان ارفعي الوقودا
ترى رجالاً وقلاصًا قودا

---

(١) العقيق: يسمى في هذا العهد عقيق عشيرة، وقرية عشيرة واقعة فيه.

وقد أطالت نارك الخمودا
أنمت أم لا تجدين عودا؟

وأنشد الهذلي يقول:

يا أمّ خرمان ارفعي ضوء اللهب
أنّ السّويق والدقيق قد ذهب

وفي كتاب نصر: أمّ خرمان جبل على ثمانية أميال من العمرة التي يحرم منها أكثر حاجّ العراق، وعليه عَلَم ومنظرة، وكان يوقد عليها لهداية المسافرين، وعنده بركة أوطاس، ومنه يعدل أهل البصرة عن طريق أهل الكوفة ـ قلت وذلك في رجوعهم من مكة إلى بلادهم.

وفي كتاب المناسك: قال الحربي: وعلى ثمانية أميال من غمرة عند الحادي عشر من البريد يسرة، قبل البريد أمّ خرمان، ومنه يعدل أهل البصرة، وهو الجبل الذي عليه علم ومنظرة، وعنده بركة أوطاس وآبار ومنازل... وأوطاس بها قصور وأبيات وحوانيت وبركة، يسرة.

وفي أرجوزة ذكرها الحربي في وصف طريق الحج من البصرة إلى مكة:

حتى إذا مرّت بأمّ خرمان
وذاك حين اجتمع الطريقان
عجوا إلى اللّه الغفور المنّان
ثم مضوا مثل الجراد الأرسال
ساجمة أعينهم بالتّهمال
قد رفعوا أصواتهم بالإهلال

قلت: أقوال العلماء متفقة على تحديد موضع أوطاس، وأنه يسمى أيضًا: أمّ خرمان، غير أنه وقع بعض الباحثين في الخلط بينه وبين حنين وجعلهما موضعًا واحدًا، وقالوا إن وقعة حنين كانت في أوطاس ـ قال ذلك ياقوت وغيره ـ والواقع أنّ أوطاسًا وحنينًا موضعان مختلفان، فوقعة حنين وقعت في وادي حنين كما اتفق على ذلك كثير من أهل الأخبار، أما الوقعة التي وقعت في أوطاس فإنها وقعت بين الجيش الذي بعثه النبي ﷺ بقيادة أبي عامر وبين الفلول التي انهزمت في معركة حنين وانحازت إلى أوطاس، وقد أوضحت الصواب بشأن هذا الخلط بين الموضعين في رسم (حنين) في هذا الكتاب.

قال حمد الجاسر تعقيبًا على أحد الكتّاب: أوطاس وحنين موضعان بينهما عشرات الأميال، أحدهما في تهامة، والثاني شرق جبال الحجاز خارجًا عنها.

حنين هو أعلى وادي الشرائع، واسمه يدعان معروف الآن، ولكن أهل تلك الجهة يبدلون الياء جيمًا فيقولون: (جدعان)، قال نصر الإسكندريّ في كتابه ـ الذي لا يزال مخطوطا ـ: يدعان وادٍ به مسجد للنبي ﷺ، وبه عسكرت هوازن يوم حنين، في وادي نخلة. ونقل هذا ياقوت ولم يذكر مصدره، والقول بأنه في وادي نخلة فيه تجوّز، فهو بقرب وادي نخلة اليمانية يقع جنوبها، وليس فيها.

أما أوطاس فأقرب المواضع المسكونة منه عشيرة، التي كانت منهلاً من مناهل طريق الحجاز من نجد، فأصبحت الآن قرية...

وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى:

كانت علالة يوم بطن حنين
وغداة أوطاس ويوم الأبرق

ففرّق بين الموضعين ـ والغزوة واحدة، ابتدأت في حنين وهو كما جاء وصفه في كتب المغازي ـ وادٍ من أودية تهامة أجوف خطوط ينحدر فيه انحدارًا، فوقعت الهزيمة على المسلمين في أول الأمر، ثم ثبتوا وانتصروا حتى هزموا أعداءهم، فمنهم من هرب نحو الطائف، ومنهم من فرّ إلى أوطاس وتوجّه بعضهم إلى نخلة، وبعث رسول الله ﷺ في

آثار من توجّه قبل أوطاس بعثًا من المسلمين هزم من تجمّع هناك من الأعداء[١].

وحيث وقع من بعض المؤرخين ما يفهم منه اعتبارهما موضعًا واحدًا، مع تغايرهما، فأوطاس يقع شرق سلسلة جبال الحجاز، أقرب المواضع المأهولة منه عشيرة، يقع غرب وادي العقيق، على مقربة من البركة شمالها نحو الغرب[٢].

قلت المواضع التي حدد بها حمد الجاسر أوطاسًا ما تزال معروفة بأسمائها: وادي العقيق، عشيرة، البركة.

الأَهْوَاز: أوله همزة مفتوحة بعدها هاء ساكنة ثم واو بعدها ألف ثم زاي معجمة ـ جمع هوز: سبع كور بين البصرة وفارس.

روى البخاري في صحيحه عن الأزرق ابن قيس كنّا بالأهواز نقاتل الحروريّة فبينا أنا على جرف نهر إذا رجل يصلي وإذا لجام دابته بيده فجعلت الدّابّة تنازعه وجعل يتبعها، قال شعبة: هو أبو برزة الأسلمي.

قال ابن حجر: الأهواز بفتح الهمزة وسكون الهاء، هي بلدة معروفة بين البصرة وفارس، فتحت في خلافة عمر، قال في المحكم: ليس له واحد من لفظه، قال أبو عبيد البكري: هي بلد يجمعها سبع كور فذكرها. قال ابن خرداذابة: هي بلاد واسعة متصلة بالجبل وأصفهان.

وقال القزويني: الأهواز ناحية بين البصرة وفارس ويقال لها خوزستان بها عمارات ومياه وأودية كثيرة، وأنواع الثمار والسكر والأزر الكثير، لكنها في صيفها لا يفارق الجحيم.

قال ياقوت: الأهواز: آخره زاي، وهي جمع هوز، وأصله حوز، فلما كثر استعمال الفرس لهذه اللفظة غيرتها حتى أذهبت أصلها جملة؛ لأنه ليس في كلام الفرس حاء مهملة، وإذا تكلموا بكلمة فيها حاء قلبوها هاء فقالوا في حسن هسن، وفي محمد مهمد، ثم تلقفها العرب فقلبت بحكم الكثرة في الاستعمال وعلى هذا يكون الأهواز اسمًا عربيًا سمي به في الإسلام.

وكان اسمها في أيام الفرس خوزستان، وفي خوزستان مواضع يقال لكل واحد منها خوز كذا. منها: خوز بني أسد وغيرها، فالأهواز اسم للكورة بأسرها.

وأما البلد الذي يغلب عليه هذا الاسم عند العامة اليوم فإنّما هو سوق الأهواز، وأصل الحوز في كلام العرب مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزًا إذا حصّله وملكه.

قال أبو منصور الأزهري: الحوز في الأراضين أن يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها فلا يكون لأحد فيها حق فذلك الحوز.

وعن التوزي أنه قال: الأهواز تسمى بالفارسية هرمشير، وإنما كان اسمها الأخواز فعرّبها الناس فقالوا الأهواز، وأنشد لأعرابي:

لا ترجعنّ إلى الأخواز ثانية
قعيقعان الذي في جانب السوق
ونهر بطّ الذي أمسى يؤرقني
فيه البعوض بلسب غير تشفيق

وقال صاحب كتاب العين: الأهواز سبع كور بين البصرة وفارس، لكل كورة منها اسم

---

(١) مجلة العرب، ١٦: ٢٣٧.

(٢) مجلة العرب، ١٧: ١٦٧.

ويجمعهن الأهواز ولا يفرق الواحد منها بهوز.

وكور الأهواز: سوق الأهواز، ورام هرمز، وإيذج، وعسكر مكرم، وتستر، وجنديسابور، وسوس، وسرّق، ونهر تيري، ومناذر، وكان خراجها ثلاثين ألف ألف درهم، وكانت الفرس تقسّط عليها خمسين ألف ألف درهم.

قلت: وبعد ما تقدم أسهب ياقوت في وصف الأهواز: مناخها وجغرافيتها وبيئتها الطبيعية، وصفات أهلها وأخلاقهم، وذكر عددًا ممن ينسبون إليها من العلماء والمحدّثين.

وفي الروض المعطار: قال الحميري: الأهواز: مدينة متصلة بالجبل، فتحها حرقوص بن زهير السعدي، في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، والأهواز هي خوزستان وهي رام هرمز، وبين الأهواز وأصفهان خمسة وأربعون فرسخًا، والأهواز موضع يجمع سبع كور.

وتحدث البلاذري عن فتح الأهواز في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: قدم أبو موسى الأشعري حين ولاه عمر بن الخطاب البصرة بعد المغيرة، فاستكتب زيادًا، وأتبعه عمر ابن الخطاب بعمران بن الحصين الخزاعي وصيّره على تعليم الناس. الفقه والقرآن وخلافة أبي موسى إذا شخص عن البصرة فسار أبو موسى إلى الأهواز، فلم يزل يفتح رستاقًا رستاقًا، ونهرًا نهرًا، والأعاجم تهرب من بين يديه، فغلب على جميع أرضها، إلا السوس وتستر ومناذر ورام هرمز، ثم ذكر فتح ما بقي من أرضها ورساتيقها على مراحل، حتى انتهى فتحها جميعها، وكان ذلك في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

قلت: والأهواز لا زالت معروفة باسمها في هذا العهد، وهي داخلة ضمن الحدود الإيرانية.

الأيكة: بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة بعدها كاف مفتوحة وآخره هاء: بلاد مدين قوم شعيب.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾ [سورة الحجر، الآية: ٧٨].

قال البخاري: قال مجاهد: ليكة الأيكة.

وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وقد كان أصحاب الغيظة ظالمين.

يقول: كانوا بالله كافرين، والأيكة: الشجر الملتف المجتمع، كما قال أميّة:

كبكا الحمام على فرو
ع الأيك في الغصن الجوانح

وروى بسنده عن قتادة، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾ ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيظة. وكان عامّة شجرهم هذا الدّوم، وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمّتين من الناس وعذّبتا بعذابين شتّى.

أمّا أهل مدين فأخذتهم الصيحة، وأمّا أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاوس، ذكر لنا أنه سلّط عليهم الحرّ سبعة أيام، لا يظلّهم منه ظلّ ولا يمنعهم منه شيء فبعث الله عليهم سحابة فحلّوا تحتها يلتمسون الروح فيها فجعلها الله عليهم عذابًا، بعث عليهم نارًا فاضطرمت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلّة أنه كان عذاب يوم عظيم.

وروى بسنده عن ابن جريج، قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾.

قال: قوم شعيب. قال ابن عباس: الأيكة ذات آجام وشجر كانوا فيها.

قال ابن كثير: ومن زعم من المفسرّين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمّة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنّما عمدتهم شيئان: أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٧٦ - ١٧٧]. ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلّة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الإخوّة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الإخوّة هاهنا.

ولمّا نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم.

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأمّا احتجاجهم بيوم الظلّة، فإن كان دليلاً بمجرّده على أن هؤلاء أمّة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمّتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئًا من هذا الشأن.

فأمّا الحديث الذي أورده الحافظ بن عساكر في ترجمة النبي شعيب عليه السلام بسنده عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: (أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمّتان بعث الله إليهما شعيبًا النبي عليه السلام). فإنه حديث غريب وفي رجاله من تكلّم فيه.

والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو، ممّا أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل.. والله أعلم.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمّة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدلّ على أنهم أمّة واحدة، وأهلكوا بأنواع من العذاب. وذكر في كل موضع ما يناسبه من الخطاب.

وقال القرطبي: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ يريد قوم شعيب كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر، والأيكة: الغيظة، وهي جماعة الشجر، والجمع الأيك، ويروى أن شجرهم كان دومًا وهو المقل، قال النابغة:

تجلوا بقادمتي حمامة أيكة
بردًا أسفّ لثاته بالإثمد

وقيل: الأيكة اسم القرية، وقيل اسم البلدة، وقال أبو عبيدة: الأيكة وليكة مدينتهم.

وقال البكري: الأيكة المذكورة في كتاب الله تعالى، كانت منازل قوم شعيب: روي عن ابن عباس فيها روايتان: إحداهما أن الأيكة مدين إلى شغب وبدا، والثانية أنها من ساحل البحر إلى مدين. قال: وكان شجرهم المقل، والأيكة عند أهل اللغة الشجر الملتف وكانوا أصحاب شجر ملتف.

وقال قوم: الأيكة: الغيظة، وليكة: اسم البلد حولها، كما قيل في مكة وبكة، قال أبو جعفر بن النحاس: لا يعلم (ليكة) اسم بلد.

قال ياقوت: الأيكة التي جاء ذكرها في كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾، قيل: هي تبوك التي غزاها النبي ﷺ آخر غزواته، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه ويقولون: إن شعيبًا عليه السلام أرسل إلى أهل تبوك، ولم أجد هذا في كتب التفسير، بل يقولون: الأيكة الغيظة الملتفّة الأشجار، والجمع أيك، وأن المراد بأصحاب الأيكة أهل مدين، قال ياقوت: ومدين وتبوك متجاورتان.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره المفسّرون والمؤرخون في التعريف بالأيكة التي ورد ذكرها في كتاب الله عزّ وجلّ، وممّا تقدّم نرى اختلافًا بين المفسّرين في التعريف بأصحاب الأيكة، فبعضهم يرى أن أصحاب الأيكة ومدين أمّة واحدة، وبعضهم يرى أنهما أمّتان أرسل إليهما شعيب، غير أن ابن كثير يرجّح أنهما أمّة واحدة، وأنكر على من قال: إنهما أمّتان مختلفتان، والله أعلم. وفي رسم (مدين) مزيد من الإيضاح.

أَيْلَة: أوله همزة مفتوحة بعدها ياء مثناة ساكنة ثم لام مفتوحة وآخره هاء: مدينة على ساحل رأس خليج العقبة.

وروى البخاري عن يونس كتب رُزَيق ابن الحكيم إلى ابن شهاب وأنا معه يومئذ بوادي القرى هل ترى أن أجمّع ورُزَيق عامل على أرض يعملها وفيها جماعة من السودان وغيرهم، ورزيق يومئذ على أيلة.

قال ابن حجر: أيلة: بفتح الهمزة وسكون التحتانية، بعدها لام بلدة معروفة في طريق الشام بين المدينة ومصر، على ساحل القلزم، وكان رُزَيق أميرًا عليها من قبل عمر ابن عبد العزيز، والذي يظهر أن الأرض التي كان يزرعها من أعمال أيلة، ولم يسأل عن أيلة نفسها؛ لأنها كانت مدينة كبيرة ذات قلعة، وهي الآن خراب، ينزل بها الحاج المصري والغزّي، وبعض آثارها ظاهرة.

وقال ياقوت: أيلة بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام.

وعن أبي زيد: أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير، وهي مدينة اليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير، وبها في يد اليهود عهد لرسول الله ﷺ، وقال أبو المنذر: سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام.

وقال أبو عبيدة: أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم تعد في بلاد الشام، وقدم يحنّة بن رؤبة على النبي ﷺ من أيلة وهو في تبوك فصالحه على الجزية، وقرر على كل حالم بأرضه في السنة دينارًا، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم قِرى من مرّ بهم من المسلمين وكتب لهم أن يُحفَظوا ويُمنُعوا، فكان عمر بن عبد العزيز لا يزداد على أهل أيلة عن الثلاثمائة دينار شيئًا، وقال أحيحة ابن الجلاح يرثي ابنه:

ألا إن عيني بالبكاء تهلّل
جزوع صبور كل ذلك يفعلُ
فإن تعتريني بالنهار كآبة
فليلي إذا أمسى أمرّ وأطولُ
فما هبزرى من دنانير أيلة
بأيدي الوشاة ناصع يتأكلُ
بأحسن منه يوم أصبح غاديًا
ونفّسني فيه الحمام المعجلُ

وقال محمد بن الحسن المهلّبي: وهو يرسم طريق الحج من الفسطاط إلى مدينة أيلة.

(أيلة): من الفسطاط إلى جب عميرة ستة أميال، ثم إلى منزل يقال له عجرود، وفيه بئر ملحة بعيدة الرشا، أربعون ميلاً ثم إلى مدينة القلزم خمسة وثلاثون ميلاً، ثم إلى ماء يعرف بثجر يومان، ثم إلى ماء يعرف بالكرسي فيه بئر رواء مرحلة، ثم إلى رأس عقبة أيلة مرحلة، ثم إلى مدينة أيلة مرحلة.

قال: ومدينة أيلة جليلة على لسان من البحر الملح بها مجتمع حج الفسطاط والشام، وبها قوم يذكرون أنهم من موالي عثمان بن عفان.

ويقال: إن بها برد النبي ﷺ، وكان قد وهبه يُحَنَّة بن رؤبة لما سار إليه إلى تبوك. وخراج أيلة ووجوه الجِبايات بها نحو ثلاثة آلاف دينار.

وينسب إلى أيلة جماعة من الرواة، منهم: يونس بن يزيد الأيلي صاحب الزهري توفي بصعيد مصر سنة ٢٥٢هـ، وإسحاق ابن إسماعيل بن عبد الأعلى بن عبد الحميد ابن يعقوب الأيلي، روى عن سفيان بن عيينة وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن رواد، حدث عنه النسائي، مات بأيلة سنة ٢٥٨هـ، وحسان بن أبان بن عثمان أبو علي الأيلي ولي قضاء دمياط وكان يفهم ما يحدث به، وتوفي بها سنة ٣٢٢هـ.

وفي الروض المعطار قال الحميري: أيلة في طريق مكة ـ حاطها الله ـ من مصر وهي أول حد الحجاز، وهي مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح، بها يجتمع حاج مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس.

وسميت بأيلة بنت مدين قالوا: وهي القرية التي كانت حاضرة البحر المذكورة في القرآن.

قال ابن إسحاق: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنّة بن رؤبة فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وكتب له كتاب أمنه وهو مذكور في سيرة ابن إسحاق.

وروى أبو حميد الساعدي في خبر تبوك أن صاحب أيلة أهدى للنبي ﷺ بغلة بيضاء وكساه بردًا وكتب له.

وتسير من أيلة فتلقى العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها، ولا تقطع إلاّ في طول اليوم لطولها، ثم تسير مرحلتين في فحص التيه. وأيلة حد مملكة الروم في الزمن الغابر... ومن أيلة إلى بيت المقدس ست مراحل... وينزلها اليوم قوم من بني أمية وأكثرهم موالي عثمان رضي الله عنه كانوا سقاة الحاج، وبها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة، وهي كثيرة النخل والزرع، وأصلح عقبة أيلة فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون وسوّى طريقها وردم ما استرم فيها، وبأيلة أسواق ومساجد، وفيها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم برد النبي ﷺ وأنه وجهه إليهم أمانًا وهم يظهرونه رداء عدنيًا ملفوفًا في الثياب وقد أبرز منه مقدار شبر فقط.

ثم أصلحها السلطان الأشرف قانصوه الغوري آخر ملوك الجراكسة من جملة ما أصلح في طريق الحجاج في أواخر عمره قبل العشرين والسبعمائة.

وقال الإمام الحربي في كتاب المناسك، وهو يرسم طريق الحج الساحلي من أيلة إلى المدينة المنورة: من أيلة إلى عينوناء ومن عينوناء إلى المصلى، ومن المصلى إلى النبك، ومن النبك إلى ظبة، ومن ظبة إلى المرة، ومن المرة إلى عوينِد، ومن عويند إلى الوجه(١)... ثم كمل بقية الطريق إلى المدينة.

وقال ابن هشام: ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك، أتى يُحَنّة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية فكتب رسول الله ﷺ كتابًا فهو عندهم. وقد أورد ابن هشام كتاب رسول الله ﷺ لهم في سيرته.

---

(١) الوجه بلدة على الساحل، المقصود هنا المكان المعروف الآن بقلعة الوجه الواقعة شرق البلدة، وعليها يمر الطريق قديمًا، أما الميناء فلا تقع على طريق الحاج.

قال البلاذري: توجّه رسول الله ﷺ إلى تبوك من أرض الشام، لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع له من الروم وعاملة ولخم وجذام وغيرهم، وذلك في سنة تسع من الهجرة، لم يلق كيدًا. فأقام بتبوك أيامًا فصالحه أهلها على الجزية. وأتاه وهو بها يُحَنّة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح على أن جعل له على كل حالم بأرضه في السنة دينارًا. فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم قِرىً من مر بهم، وكتب لهم كتابًا بأن يُحْفَظوا ويُمْنَعوا.

وقال حمد الجاسر: والمسافة بين حقل والعقبة خمسة وعشرون كيلاً، والطريق غير معبّد بينهما وهو يسير على الشاطئ حيث تدنو الجبال منه، وهي قليلة الارتفاع وقد برزت معالم تعمير العقبة في الميناء وفي غيره من المباني، ويظهر أن الرغبة في سكناها لم تكن بالدرجة القوية، كما يظهر ذلك في عدم اتساعها مع أن العناية الحكومية تتجلى في الطرق وفي بعض المنشآت الأخرى حول الميناء.

والعقبة كانت معروفة في القديم باسم أيلة، ورد ذكرها في كتب التفسير وفي التوراة، ولما غزا الرسول ﷺ تبوك صالح أهلها على الجزية، وفي صدر الإسلام كثر سكانها من بني أمية من موالي عثمان وأقاربه وغيرهم... ولأيلة ذكر في عهد صلاح الدين، وحصاره لقلعتها ثم فتحها في سنة ٥٦٦هـ... غير أنها لها شهرة عظيمة بكونها أحد منازل طريق الحج المصري، فذكرت في كثير من كتب الرحلات، أما القلعة الباقية فهي من آثار القرن الثامن الهجري.

وفي القاموس الإسلامي: أيلة: ميناء صغيرة على رأس خليج العقبة، تعرف في الآرامية باسم (إيلون)، وبالعبرية (إيلات)، كانت منذ القدم مركزًا تجاريًا متوسطًا بين مصر وفلسطين والجزيرة العربية، دخلت في حوزة الرومان، ثم استولى عليها المسلمون صلحًا من عاملها يوحنّا بن رؤبة في العام الثامن للهجرة سنة (٦٣٠م)، بعد غزوة تبوك.

وازدهرت تجارتها إبان العصر الإسلامي، وفي القرن الثالث الهجري بنى أحمد ابن طولون بها طريقًا محصّنًا عرف بعقبة أيلة، ثم أطلق على المكان اسم (العقبة) مجازًا، وهي اليوم ميناء عربية في الأردن. تنازع المسلمون والصليبيون أيلة نظرًا لمركزها الاستراتيجي حتى ضمّها صلاح الدين بصفة نهائية عام (٥٦٧هـ) (١١٧١م).

وأيلة أيضًا: موضع برضوى، قال ياقوت: هو جبل. قال ابن حبيب: أيلة من رضوى وهو جبل ينبع بين مكة والمدينة، وهو غير المدينة المذكورة هذا لفظه، وأنشد غيره يقول:

من وحش أيلة موشيّ أكارعه

والوحش لا ينسب إلى المدن.

وقال كثيّر:

رأيت وأصحابي بأيلة موهنا
وقد غار نجم الفرقد المتصوّبُ
لعزة نارًا ما تبوخ كأنها
إذا ما رمقناها من البعد كوكبُ
تعجّب أصحابي لها حين أوقدت
وللمصطليها آخر الليل أعجبُ
إذا ما خبت من آخر الليل خبوة
أعيد لها بالمندل فتثقبُ

ومما يدل على أن أيلة جبل قول كثير أيضًا:

ولو بذلت أم الوليد حديثها
لعصم برضوى أصبحت تتقرّبُ
تهبّطن من أركان ضاس وأيلة
إليها ولو أغرى بهن المكلّبُ

وقال البكري: أيلة شعبة من رضوى وهو جبل ينبع، وأورد بيتين من شعر كثير المتقدّم.

إيلياء: بهمزة مكسورة وياء مثناة فلام مكسورة ثم ياء مثناة وآخره ألف ممدودة: مدينة بيت المقدس.

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنّه أخبر أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي وأمره رسول الله أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر. وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس مشى من حمص إلى إيلياء شكرًا لما أبلاه الله ـ الحديث.

قال ابن حجر: إيلياء: بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة ثم لام مكسورة ثم ياء أخيرة ثم ألف مهموز، وحكى البكري فيها القصر، ويقال لها أيضًا: إلياء بحذف الياء الأولى وسكون اللام حكاه البكري، وقال النووي مثله، لكن بتقديم الياء على اللام، واستغربه قيل: معناه بيت الله.

وقال ياقوت: إيلياء: بكسر أوله واللام، وياء وألف ممدودة: اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله. وحكى الحفصي فيه القصر، وفي لغة ثالثة حذف الياء الأولى فيقال: إلياء بسكون اللام والمد، قال أبو علي: وقد سمي البيت المقدس إيلياء بقول الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن ولاته
وقصر بأعلى إيلياء مشرّفُ

وقيل: إنما سميت إيلياء باسم بانيها وهو إيلياء بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أخو دمشق وحمص وأردن وفلسطين، قال بعض الأعراب:

فلو أن طيرًا كلّفت مثل سيره
إلى واسط من إيلياء لكلّتِ
سما بالمهارى من فلسطين بعدما
دنا الفيءُ من شمس النهار فولّتِ
فما غاب ذاك اليوم حتى أناخها
بميسان قد حلّت عراها وكلّتِ
كأن قطاميًا من الرحل طاويًا
إذا غمرة الظلماء عنه تجلّتِ

وتحدث ياقوت عن المقدس فقال: المقدس في اللغة المنزّه، قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣٠]، قال الزجاج: معنى نقدّس لك أي: نطهّر أنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدّسه أي نطهّره، قال: ومن هذا بيت المَقْدس. كذا ضبطه بفتح أوله وسكون ثانيه، وبتخفيف الدال وكسرها، أي البيت المقدّس المطهر الذي يتطهر به من الذنوب، قال مروان:

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها
إن كنت تاركَ ما أمرتك فاجلسِ
ودع المدينة إنها محذورة
والحقْ بمكةَ أو ببيت المقدسِ

وقال قتادة: المراد بأرض المقدس أي المبارك، وإليه ذهب ابن الأعرابي، ومنه قيل للراهب مقدّس، ومنه قول امرئ القيس.

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا
كما شبرق الولدان ثوب المقدّس

وصبيان النصارى يتبرّكون به وبمسح مسحه الذي هو لابسه وأخذ خيوطه منه حتى يتمزّق عنه ثوبه.

وفضائل بيت المقدس كثيرة، تحدث ياقوت عنها وأطال في ذكرها وقال: ولا بد من ذكر شيء هنا حتى يستحسنه المطّلع عليه. قال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ

﴿وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٧١]، قال هي بيت المقدس.

وقوله ﷻ لبني إسرائيل: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [سورة طه، الآية: ٨٠]، يعني بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٥٠] قال: البيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١]، وهو بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٦]، البيت المقدس.

وعن النبي ﷺ: لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس.

ثم استرسل ياقوت في ذكر فضائل بيت المقدس وفي وصفه، وذكر طائفة من الزهاد والفقهاء الذين ينسبون إليه.

وأما فتحها في أول الإسلام... فإن عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ نفذ عمرو بن العاص إلى فلسطين، ثم نزل البيت المقدس، فامتنع عليهم فقدم أبو عبيدة بن الجراح بعد أن فتح قنسرين وذلك في سنة ١٦ للهجرة فطلب أهل بيت المقدس من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب، فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر فقدم عمر ونزل الجابية من دمشق ثم صار إلى بيت المقدس فأنفذ صلحه وكتب لهم به كتابًا وكان ذلك في سنة ١٧هـ.

وقال ياقوت: ورُوي عن كعب أنه قال: لا تسمّوا بيت المَقْدِس إيلياء ولكن سموه باسمه فإن إيلياء امرأة بنت المدينة.

وتحدث البلاذري عن فتح إيلياء وقال: وقدم أبو عبيدة بعد أن فتح قنسرين ونواحيها سنة ١٦هـ على عمرو بن العاص وهو محاصر إيلياء، وإيلياء مدينة بيت المقدس. فيقال: إنه وجهه إلى أنطاكية من إيلياء وقد غدر أهلها، ففتحها ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة. ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صُولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء، فأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به. وكان فتح إيلياء في سنة سبع عشرة.

وفي الروض المعطار: قال الحميري: إيلِياء: ويقال أيلياء بفتح الهمزة، مدينة بالشام وهي بيت المقدس، وهي مدينة قديمة جليلة على جبل يصعد إليها من كل جانب، وهي طويلة من المغرب إلى المشرق...

مدينة إيلياء مسورة في نشز من الأرض، والجبال محيطة بها، وتحدث عن وصفها ثم قال: وكان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أمير الجيش قد كتب إلى بطارقة إيلياء يدعوهم إلى الإسلام، أو أداء الجزية فالتووا عليه، فنزل عليهم وحاصرهم حصارًا شديدًا، فلما رأوا أنه غير مقلع عنهم واشتدّ عليهم الحصار سألوه أن يصالحهم على أن يعطوه الجزية فأجابهم إلى ذلك، فقالوا: فأرسل إلى خليفتك فيكون هو الذي يعطينا العهد ويكتب لنا الأمان فإنا لا نرضى إلا به، فاستوثق منهم

أبو عبيدة... ثم خاطب عمر رضي الله عنه بما دعوا إليه.. فسار عمر رضي الله عنه نحو إيلياء وخرج المسلمون يستقبلونه، فخرج أبو عبيدة رضي الله عنه بالناس، وأقبل عمر رضي الله عنه على جمل له عليه رحل ملبّس جلد كبش حولي حتى انتهى إلى مخاضة، فأقبلوا يتبادرونه حتى نزل عن بعيره وأخذ بزمامه وهو من ليف، ثم دخل بين يديه حتى صار إلى أصحاب أبي عبيدة رضي الله عنه فإذا معهم برذون يجنبونه قالوا: يا أمير المؤمنين اركب هذا البرذون فإنه أحجابك وأهون عليك في ركوبه، ولا نحب أن يراك أهل الذمة في مثل هذه الهيئة، واستقبلوه بثياب بيض فركب البرذون، فلما هملج به نزل عنه وقال: خذوا هذا عني فإنه شيطان، فقالوا: يا أمير المؤمنين لو لبست هذه الثياب البيض وركبت هذا البرذون لكان أجمل في المروءة، وأحسن في الذكر فقال عمر رضي الله عنه: ويحكم لا تعتزوا بغير ما أعزكم الله به فتذلوا.

قلت: والحديث عن بيت المقدس، صفاته وفضائله وما تعرض له خلال القرون الغابرة طويل جدًا، وذو شجون، وهو اليوم واقع تحت الاحتلال الصهيوني المجرم البغيض.

وأسأل الله أن يعزّ دينه، ويعلي كلمته ولو كره المجرمون.

باب الباء

بِئْرُ أَرِيْس: بباء موحدة مكسورة وهمزة ساكنة وراء مهملة: واحدة الآبار، وأريس اسم رجل أضيف إليه وهو بهمزة مفتوحة وراء مهملة مكسورة، فياء مثناة ساكنة ثم سين: بئر بالمدينة.

وروى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال: لألزمنّ رسول الله ﷺ ولأكوننّ معه يومي هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا خرج ووجّه ها هنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى حاجته فتوضأ فقمت إليه فإذا هو جالس عند الباب فقلت لأكوننّ بواب رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت على رسلك، ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن. فقال: ائذن له وبشّره بالجنة، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل.ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف، ودلّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه، ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني فقلت: إن يرد الله بفلان خيرًا يريد أخاه يأت به، فإذا إنسان يحرك الباب فقلت: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب فقلت: على رسلك. ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن فقال ائذن له وبشّره بالجنة، فجئت فقلت له ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ودلى رجليه في البئر. ثم رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيرًا يأت به، فجاء إنسان يحرك الباب فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان فقلت على رسلك، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: ائذن له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه فجئته فقلت له: ادخل وبشّرك رسول الله بالجنة على بلوى تصيبك فدخل، فوجد القف قد ملئ فجلس وجاهه من الشق الآخر. قال شريك: قال سعيد ابن المسيّب: فأولتها قبورهم.

قال ياقوت: بئر أريس: بفتح الهمزة، وكسر الراء، وسكون الياء آخر الحروف، وسين مهملة: بئر بالمدينة، ثم بقباء مقابل مسجدها. قال أحمد بن يحيى بن جابر: فنُسِبت إلى أريس رجل من المدينة من اليهود، عليها مال لعثمان بن عفان رضي الله عنه، وفيها سقط خاتم النبي ﷺ من يد عثمان في السنة السادسة من خلافته، واجتهد في استخراجه بكل ما وجد إليه سبيل فلم يوجد إلى هذه الغاية، فاستدلوا بعدمه على حادث في الإسلام عظيم. . وقد كان قبله في يد أبي بكر، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان رضي الله عنهم.

والأريس في لغة أهل الشام الفلاح وهو الأكار، وجمعه أريسون وأرارسة وأرارس، في الأصل جمع الريس، بتشديد الراء، وأظنها لغة عبرانية، وأحسب أن الرئيس مقدم القرية تعريبه.

وفي المغانم: قال المجد: بئر أريس: بفتح الهمزة وكسر الراء وسكون المثناة، آخره سين مهملة: بئر أمام مسجد قباء على غربيه في حديقة الأشراف الكبرى من بني الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، نسبت إلى رجل من اليهود كان يقال له: أريس، وعليها كان مال لعثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفيها سقط خاتم النبي ﷺ من يد عثمان ابن عفان رضي الله عنه في السنة السادسة من خلافته، واجتهد ثلاثة أيام في استخراجه بكل ما وجد سبيل فلم يوجد إلى هذه الغاية.

وقيل: سقط من يد معيقيب[١]. والصواب الأول، وإن صح هذا فوجه الجمع لا يخفى.

قال ابن النجار: ذرعت طولها فكانت أربعة عشر ذراعًا وشبرًا، منها ذراعان ونصف ماء، وعرضها خمسة أذرع وطول قفها الذي جلس فيه رسول الله ﷺ وصاحباه ثلاثة أذرع تشف كفًا.

وهذا البئر تحت أطم من آطام المدينة، قد خربت وتهدمت، وبني بأعلاها سكن لمن يقوم بالحديقة، ويخدم مسجد قباء، وحولها دور الأنصار وآثارهم رضي الله عنهم.

وتحدث عبد القدوس الأنصاري عن هذه البئر فقال: تقع هذه البئر غربي مسجد قباء بنحو ٣٨ مترًا، وعمقها ١٢ مترًا وفي أسفلها فتحتان يجري منهما الماء إلى قاع البئر، وفتحة ثالثة توصلها إلى مجرى عين الأزرق (العين الزرقاء) وأريس هو اسم صاحبها.

وتاريخ حفرها مجهول لدينا، وكانت مطوية بالحجارة المنحوتة المطابقة، وكانت تعلوها قبة عالية مجصصة داخلها وخارجها، وهذا الشكل يشهد بأنها عمارة عثمانية. وكان بجوارها إلى الجنوب قبة أخرى ذات محراب فوقه كتابة باللغة التركية ولهذه القبة فتحة تطل على البئر، ويستقى منها أيضًا، وبجانب البئر حمام، وبشرقه بركة كبيرة.

ويستخرج الماء من البئر بوساطة السواني، وقد جدّد السُلامي سلمًا لهذه البئر يهبط منه إلى قاعها سنة ٧١٤هـ وكأنها بقيت على ذلك حتى جدّد طيّها في عهد الدولة العثمانية فطمّ السّلم لتقادمه وتداعيه، وشيدت على البئر هذه القبة وبنيت بجانبها القبة التي تليها.

وماء البئر غزير. وسواء أصح ما روي من أن النبي ﷺ تفل فيها أو لم يصح، فإن ماءها عذب خفيف، ولا بدع فإنه نابع من الصخور.

وبئر أريس مأثورة جلس الرسول على قفها ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، وتسمى (بئر الخاتم) لسقوط خاتم النبي من يد عثمان ابن عفان فيها.. وذلك بعد ست سنوات من خلافته، وبئر أريس أو بئر الخاتم في سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م بئر جافة وليس بها ماء[٢].

بئر جمل: بباء موحدة مكسورة بعدها همزة ساكنة وآخره راء مهملة، مضاف إلى جمل، بالجيم المعجمة، واحد الجمال من الإبل: بئر في المدينة في ناحية الجرف.

---

(١) هو صحابي جليل، من قبيلة دوس، هاجر الهجرتين.

(٢) آثار المدينة، ٢٤١ ـ ٢٤٣.

روى البخاري بسنده عن أبي جهيم الأنصاري قال: أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جمل، فلقيه رجل فسلّم عليه فلم يرّد عليه النبي ﷺ حتى أقبل على الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم ردّ عليه السلام.

قال ابن حجر: قوله من نحو بئر جمل: أي من جهة الموضع الذي يعرف بذاك، وهو معروف بالمدينة، وهو بفتح الجيم والميم، وفي النسائي: بئر الجمل وهو من العقيق.

وقال المجد: بئر جمل، معروفة بناحية الجرف في آخر العقيق، وعليها أموال أهل المدينة، يحتمل أنها سميت بجمل مات فيها، أو برجل اسمه جمل حفرها.

قال ياقوت: بئر جمل: بالجيم، بلفظ الجمل من الإبل: موضع بالمدينة فيه مال من أموالها. وقال في موضع آخر: جمل: بالتحريك بلفظ الجمل، وهو البعير: بئر جمل في حديث أبي جهيم بالمدينة.

وقال في رسم الجرف؛ الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم وبئر جمل.

وقال المطري: في حديثه عن آبار المدينة: والآبار المذكورة ستة، والسابعة لا تعرف اليوم إلا بما يسمع من أقوال العامة: إنها بئر جمل، ولا يعلم أين هي، ولا من ذكرها غير ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل. وروى ابن زبالة أيضًا فيها عن عبد الرحمٰن بن زيد ابن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن عبد الله وأسامة بن زيد قالا: ذهب رسول الله ﷺ إلى بئر جمل وذهبنا معه، فدخل رسول الله ﷺ ودخل معه بلال، فقلنا: لا نتوضأ حتى نسأل بلالاً كيف توضأ رسول الله ﷺ فقال: توضأ رسول الله ﷺ ومسح على الخفين والخمار. ولم يذكر بئر جمل في السبع المشهورات. والله أعلم.

قلت: وقد اطلعت على ما كتبه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري عن آثار المدينة ومواضعها الجغرافية، ولم أجد لهذه البئر ذكرًا بين ما ذكره من آبار المدينة وآثارها، ويبدو أن ذلك لأن هذه البئر قد درست معالمها فأصبحت غير معروفة في هذا العهد.

ومما تقدم: يتأكد أن بئر جمل تقع في الجرف من ناحية العقيق في المدينة، وقد استوفيت الحديث عن الجرف وصفًا وتحديدًا في رسمه، فانظره، وفيه مزيد من الإيضاح.

بئرُ ذَروان: بذال معجمة مفتوحة وراء ساكنة ثم واو بعدها ألف ثم نون موحدة: بئر في المدينة في بني زريق.

روى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ طُبّ حتى إنه ليخيل إليه أنه قد صنع الشيء وما صنعه، وأنه دعا ربه ثم قال: أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. فقالت عائشة: فما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: من طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال فبماذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة. قال: فأين هو؟ قال: في ذروان، وذروان بئر في بني زريق[1]. قالت: فأتاها رسول الله ﷺ وسلم، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة

(١) بنو زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج.

الحنّا، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فأتى رسول الله ﷺ فأخبرها عن البئر، فقلت: يا رسول الله، فهلاّ أخرجته؟ قال: أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن أثير على الناس شرًا.

وقال ياقوت: بئر ذروان: بفتح الذال المعجمة وسكون الراء، كذا يقول رواة كتاب البخاري كافة، وكذا روي عن ابن الحذاء. وفي كتاب الدعوات من كتاب البخاري هي بئر منازل بني زريق بالمدينة.

وقال الجرجاني ورواة مسلم كافة: هي بئر ذي أروان، وقال الأصيلي: وأروان موضع آخر على ساعة من المدينة، وفيه بُني مسجد الضرار.

وقال الأصمعي: وبعضهم يخطئ فيقول: بئر ذروان، والذي صححه ابن قتيبة: ذو أروان.

وقال السمهودي: قال الحافظ بن حجر: كأن رواة الأصيلي كانت بئر ذي أروان فسقطت الراء، قال: ويجمع بين الرواية ذروان وذي أروان لأن الأصل ذي أروان سهلت الهمزة لكثرة الاستعمال، فصار ذروان، ويؤيده أن أبا عبيد البكري صوب أن البئر أروان، وأن الذي قال ذروان أخطأ، وقد ظهر أنه ليس بخطأ، ووقع في رواية كما قال البكري بئر أروان بإسقاط ذي.

قلت: وفيما تقدم نرى اختلافًا بين الرواة وبين العلماء أيضًا في ضبط اسم هذه البئر غير أنه اختلاف شكلي لا أثر له في تحديد موقع هذه البئر التي ثبت في نص الحديث الصحيح أنها في بني زريق.

وأما منازل بني زريق من الأنصار من الخزرج ﭫ، قال المطري: نُقل أن أول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق قبل هجرة النبي ﷺ، وأن نافع بن مالك الزرقي ﭬ لما لقي رسول الله ﷺ في العقبة أعطاه ما نزل عليه من القرآن بمكة شرفها الله ﷻ ليلة العقبة، وذكر أن رسول الله ﷺ توضأ فيه ولم يصل، وعجب من اعتدال قبلته، قلت: وقرية بني زريق قبلي سور مدينة رسول الله ﷺ اليوم وقبلي المصلى وبعضها كان من داخل السور اليوم بالموضع المعروف بذروان أو ذي أروان التي وضع لبيد بن الأعصم وهو من يهود بني زريق السحر في راعوفة بئرها والحديث مشهور[١].

وتحدث عبد القدوس الأنصاري: عن بئر ذروان فقال: يطالبنا العلم والتاريخ بوصف هذه البئر التي وقعت فيها حادثة السحر المعلومة فما الذنب للبئر وإنما هو على لبيد ابن الأعصم اليهودي الذي سوّلت له نفسه الشريرة الخبيثة إذاية رسول الله ﷺ بما حماه الله منه، ومثله في هذا الخبث النفسي سائر اليهود، فهم آفة البشر والبذرة الفاسدة، ولبيد وإن أساء إلى النبي من جهة فقد آذى بني زريق الأنصاريين أهل هذه البئر التي كانت عذبة مرتادة للسقيا، فحال بينهم وبين الاستقاء منها بفعلته الشنعاء فاضطروا لتهويرها.

والشائع بين الناس أنها البئر المطمومة الكائنة أمام محلة النخاولة[٢] تحت أحد أبراج سور المدينة الجنوبي، وتلقى فيها وحواليها القمائم والأقذار... وذروان اسم قديم لهذه المحلة ولا تزال تحمله، وهي من جملة منازل بني

(١) التعريف بما أنست الهجرة من معالم، دار الهجرة، ٧٢.

(٢) محلة النخاولة بجنوبي المدينة.

زريق أصحاب البئر، وسور المدينة الداخلي اليوم[١] يفصل بين المحلة والبئر، ويقول المطري: إنها بداخل السور كأنه يعني السور الخارجي الذي كان يطيف بمحلة النخاولة المتصل بباب العوالي وذلك قبل هدمه هو أيضًا[٢].

قلت: ومما قاله المطري في تحديد ذروان، وما أوضحه عبد القدوس الأنصاري يتبين موقع هذه البئر، غير أن الأسوار والأبراج القديمة ومعالم العمران القديم قد أزيلت، فلم يبق لها أثر يستدل به على الموقع بسبب نمو العمران الحديث الذي أزاح كل هذه المعالم غير أن محلة ذروان ما زالت معروفة باسمها القديم، وقال ذلك: عبد القدوس الأنصاري.

ذو ذروان أيضًا: موضع في شعر كثيّر، قال:

طاف الخيال لآل عزة موهنا
بعد الهدوء فهاج لي أحزاني
فألم من أهل البويب خيالها
بمعرس من أهل ذي ذروان

ذروان أيضًا: حصن باليمن من حصون الحقل قريب من صنعاء. قاله ياقوت.

بئر رومة: واحدة الآبار، ورومة بضم الراء المهملة، وسكون الواو بعدها ميم مفتوحة وآخرها هاء: بئر معروفة في عقيق المدينة.

قال البخاري: قال عثمان: قال النبي ﷺ من يشتري بئر رومة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين؟ فاشتراها عثمان رضي الله عنه.

قال ياقوت: بئر رومة: بضم الراء وسكون الواو وفتح الميم: وهي في عقيق المدينة، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: نعم القليب قليب المزني، وهي التي اشتراها عثمان ابن عفان، فتصدق بها، وروي عن موسى ابن طلحة عن رسول الله ﷺ أنه قال: نعم الحفير حفير المزني يعني رومة، فلما سمع عثمان ذلك ابتاع نصفها بمائة بكرة وتصدّق بها على المسلمين، فجعل الناس يستقون منها، فلما رأى صاحبها أن قد امتنع منه ما كان يصيب منها باعها من عثمان بشيء يسير، فتصدّق بها كلها.

وقال أبو عبد الله بن مندة: رومة الغفاري صاحب بئر رومة روى حديث عبد الله ابن عمر بن أبان بن عبد الرحمٰن المحاربي عن ابن مسعود عن أبي سلمة عن بشر بن بشير الأسلمي عن أبيه قال: لمّا قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكان لرجل من بني غفار بئر يقال لها رومة، كان يبيع منها القربة بالمدة، فقال له رسول الله ﷺ: «بعنيها بعين في الجنة» فقال: يا رسول الله ليس لي ولعيالي غيرها، لا أستطيع ذلك، فبلغ ذلك عثمان فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، الحديث كذا، قال رومة الغفاري ثم قال: عين يقال لها رومة.

قال مصعب بن عبد الله الزبيري يذكر رومة ويتشوقها وهو بالعراق.

أقول لثابت والعين تهمي
دموعًا ما أنهنهها انحدارا
أعرني نظرة بقرى دجيل
تخايلها ظلامًا أو نهارا
فقال أرى برومة أو بسلع
منازلنا معطلة قفارا

---

(١) أي سنة ١٣٥٣هـ وما بعدها إلى أن هدم هذا السور في وقت لاحق.

(٢) آثار المدينة المنورة، ٢٥٤.

وقال أهل السير: لما قدم تبّع المدينة وكان منزله بقباء، واحتفر البئر التي يقال لها بئر الملك وبه سميت، فاجتوى ماءها، فدخلت عليه امرأة من بني زريق يقال لها فاكهة، فشكى إليها وباء بئره، فانطلقت واستقت له من ماء رومة ثم جاءته به فشرب فأعجبه فقال لها: زيديني، فكانت تصير إليه مقامه بالماء من رومة، فلما ارتحل قال لها: يا فاكهة ما معنا من الصفراء ولا البيضاء شيء، ولكن ما تركنا من أزوادنا ومتاعنا فهو لك، فلما سار نقلت جميع ذلك، فيقال: إنها وأولادها أكثر بني زريق مالاً حتى جاء الإسلام.

قال عبد الله بن الزبير الأسدي يرثي يعقوب ابن طلحة بن عبيد الله ومن قتل معه بالحرة:

لعمري لقد جاء الكروّس كاظمًا
على خبر للمسلمين وجيعِ
شباب ليعقوب بن طلحة أقفرت
منازلهم من رُومَة وبقيعِ

وفي المغانم المطابة قال المجد: بِئر رُومة بضم الراء وسكون الواو وفتح الميم بعدها هاء، وقيل رؤمة بعد الراء همزة ساكنة وهي بئر في عقيق المدينة، ثم ذكر عن هذه البئر مثل ما ذكره ياقوت إلى آخره، ثم قال: وبئر رُومة طولها ثمانية عشر ذراعًا، كانت قد تهدمت جوانبها وسقطت أطواؤها في السنين الماضية، ولم تزل كذلك إلى عصرنا هذا، فورد قاضي مكة المقدسة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الطبري إلى المدينة الشريفة زائرًا في حدود الخمسين وسبعمائة، فاحتفل لعمارتها من صميم ماله فعل من يقصد بفعله ذات الله، ويقرضه قرضًا حسنًا، فاستفرغ الوسع، وتأنق، وبذل المجهود وطواها وشيّد أركانها، فجاءت في نهاية الحسن والرضاية، تكفّل الله به في انقلابه وإجزال ثوابه.

وعند البئر بناء عال شبه حصن منهدم، يقال إنه كان ديرًا لليهود، وفي أطراف هذه البئر آبار أخرى كثيرة، ومزارع وهي قبلي الجرف.

وقال المطري في وصف هذه البئر وتحديد موقعها: وذكر أبو عمر بن عبد البر أن بئر رومَة كانت ركية ليهودي يبيع من المسلمين ماءها، فقال رسول الله ﷺ: «من يشتري رُومَة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه في دلائهم، وله بها مشرب في الجنة» فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها فاشترى عثمان نصفها باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، فقال له عثمان رضي الله عنه إن شئت جعلت لنصيبي قرنين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم، فقال بل لك يوم ولي يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى ذلك اليهودي قال أفسدت عليَّ ركيتي، فاشتر النصف الآخر، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم.

قلت: هذه البئر وسط وادي العقيق من أسفله في براح واسع من الأرض، وعندها بناء عال بالحجارة والجص منهدم، يقال: إنه كان ديرًا لليهود شمالي مسجد القبلتين بعيدًا منه، وحولها آبار كثيرة ومزارع، وهي قبلة الجرف المعروف في المدينة، وقد خربت ونقضت حجارتها وأخذت وانطمت، ولم يبق اليوم منها إلا أثرها.

قال الشيخ محب الدين بن النجار رحمه الله: وقفت على بئر رُومة وقد انقضت خرزتها وأعلامها إلا أنها بئر مليحة جدًا مبنية بالحجارة الموجهة، وذرعتها فكان طولها ثمانية عشر ذراعًا منها ذراعان ماء وباقيها مطموم بالرمل الذي تسفيه الريح، وعرضها

ثمانية أذرع، وماؤها طيّب حلو، ثم قال: واعلم أن هذه الآبار المذكورة قد يزيد ماؤها في بعض الزمان عمّا ذكرنا، وقد ينقص وربما بقي منها ما كان مطمومًا.

وقال السمهودي، في حديث عن هذه البئر وهو حديث أطال فيه.

قلت: وهي بئر قديمة جاهلية، لما رواه ابن زبالة عن غير واحد من أهل العلم أن تبّعًا اليماني لما قدم المدينة كان منزله بقناة، واحتفر البئر التي يقال لها بئر الملك، وبه سميت، فاستوبأ بئره تلك، فدخلت عليه امرأة من بني زريق يقال لها فاكهة، فشكى إليها وباء بئره، فانطلقت فأخذت حماري أعرابيين، فاستقت له من بئر رُومة، ثم جاءت به فشرب فأعجبه وقال: زيديني من هذا الماء، فكانت تصير إليه به مقامه، فلما خرج قال لها: يا فاكهة إنه ليس معنا من الصفراء والبيضاء شيء، ولكن لك ما تركنا من أزوادنا ومتاعنا، فلما خرج نقلت ما بقي من أزوادهم ومتاعهم، فيقال: إنها كانت لم تزل هي وولدها أكثر بني زريق مالاً حتى جاء الإسلام.

وهذه البئر في أسفل وادي العقيق، قريبة من مجمع الأسيال، في براح واسع من الأرض، وعندها بناء عال بالحجارة والجص قد تهدم.

قال الزين المراغي: وقد جددت بعد ذلك ورفع بناؤها عن الأرض نحو نصف قامة، ونزحت فكثر ماؤها. أحياها كذلك القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد ابن المحب الطبري قاضي مكة المشرفة في حدود الخمسين وسبعمائة، قال: فتناوله إن شاء الله ﷻ عموم حديث (من حفر بئر رُومة فله الجنة).

وقال عبد القدوس الأنصاري: تقع هذه البئر في عرصة العقيق الكبرى بقرب مجمع الأسيال (زغابة) شمال غربي المدينة وتبعد عنها نحو نصف ساعة، قطرها أربعة أمتار، وعمقًا اثنى عشر مترًا، وبجوارها أبنية مستحدثة، وإيوان أو مسجد لا أدري، به محراب لعل بانيه بعض ولاة بني عثمان نظرًا لطراز بنائه. وأمام هذا الإيوان أو هذا المسجد بركة مربعة واسعة جميلة.

وهي مع مزرعتها اليوم من جملة أوقاف المسجد النبوي ومن إدارة الأوقاف تستأجر. وتستأجرها اليوم[١] وزارة الزراعة والمياه السعودية، وجعلتها حديقة عامة تشتمل على مشاتل زراعية ومداجن وحظائر لأصائل الحيوانات من أبقار وأرانب ودجاج وغيرها.

قلت: وبما تقدم من أقوال العلماء المختارة بشأن وصف هذه البئر وتحديدها وفضلها أكتفي والله الموفق.

بئر معونة: واحدة الآبار، ومعونة بميم مفتوحة وعين مهملة مضمومة، بعدها واو ساكنة ونون موحدة مفتوحة، وآخرها هاء: بئر واقعة في أبلى من بلاد بني سليم.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان فزعموا أنهم قد أسلموا واستمدّوه على قومهم فأمدّهم النبي بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنّا نسميهم القرّاء يحطبون بالنهار ويصلّون باللّيل فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم فقنت شهرًا يدعو على رعل وذكوان وبني لحيان.

---

(١) سنة ١٣٩٢هـ.

قال ياقوت: بئر معونة: بالنون، قال ابن إسحاق: بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وقال: كلا البلدين منها قريب إلا أنها إلى حرة بني سليم أقرب، وقيل: بئر معونة بين جبال يقال لها أبلى في طريق المصعد من المدينة إلى مكة وهي لبني سليم، قاله عرام.

وقال أبو عبيدة في كتاب مقاتل الفرسان: بئر معونة ماء لبني عامر بن صعصعة، وقال الواقدي: بئر معونة في أرض بني سليم وأرض بني كلاب.

وقال البكري: بئر معونة بفتح أوله وضم ثانيه بعده واو ونون: هو ماء لبني عامر ابن صعصعة.

وقال في رسم أبلى: وأبلى حذاء واد يقال له عريفطان، وبأبلى مياه كثيرة، منها بئر معونة، وذو ساعدة، وذو جماجم، هكذا قال السكوني.

وتحدث السهيلي عن سبب إرسال بعث معونة فقال: وكان من حديثهم كما حدثني أبو إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمٰن ابن الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن عمر بن حزم، وغيره من أهل العلم، قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك ابن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو، أخا بني ساعدة المعنق ليموت في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين. . . فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرّة بني سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن مَلْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم من عصية ورعل وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا رحمه الله.

وقال حسان بن ثابت يحرّض بني أبي براء على عامر بن الطفيل:

بني أم البنين ألم يَرُعْكم
وأنتم من ذوائب أهل نجدِ
تهكّمُ عامرٍ بأبي بَرَاء
ليخفره وما خطأ كعمدِ
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي
فما أحدثت في الحدثان بعدي
أبوك أبو الحروب أبو بَرَاء
وخالك ماجد حَكَم بن سعدِ

وقال حسان رضي الله عنه يبكي قتلى بئر معونة:

على قتلى معونة فاستهلّي
بدمع العين سحًا غير نَزرِ
على خيل الرسول غداة لاقوا
منـاياهم ولاقتهم بقَدْرِ

أصابهم الفناء بعقد قوم
تخون عقد حبلهمُ بغدرِ
فيا لهفي لمنذرَ إذْ تولى
وأعنق في منيته بصبرِ
وكائِنْ قد أصيب غداة ذاكم
مِنَ ابيضَ ماجدٍ من سر عمرِو

وقال كعب بن مالك في يوم بئر معونة:

تركتم جاركم لبني سليم
مخافة حربهم عجزًا وهونا
فلو حبلا تناول من نُفَيْل
لَمَدَّ بحبلها حبلاً متينا
أو القرطاء ما إن أسلموه
وقِدْمًا ما وفوا إذ لا تفونا

قلت: فيما تقدم رأينا اختلاف الروايات في عدد الصحابة الذين قتلوا، وفي سبب خروجهم إلى بئر معونة، غير أننا لا نجد اختلافًا في أنهم قتلوا، وأن قتلهم كان في بئر معونة.

وكذلك لم يختلف علماء البلدان في أن بئر معونة واقعة في أبلى.

وأبلى من الأعلام الشهيرة التي لم تتغير أسماؤها، وهي واقعة في عالية نجد مما يلي أطراف الحجاز، باقية على اسمها مشهورة به إلى هذا العهد، وسكانها في هذا الزمان من قبيلة مطير بن عبد الله، تابعة في شؤونها الإدارية لإدارة المدينة المنورة.

وقد وصفها العلماء وحددوا موقعها وذكروا أسماء مياهها وأعلامها الجغرافية.

قال ياقوت، أبلى: بالضم ثم السكون والقصر بوزن حُبّلى، قال عرام: تمضي من المدينة مصعدًا إلى مكة فتميل إلى وادٍ يقال له: عريفطان، ليس لها ماء ولا مرعى، وحذاء جبال يقال لها أبلى، فيها مياه منها (بئر معونة)، وذو ساعدة، وذو جماجم، والوسباء، وهذه لبني سليم، وهي قنان متصلة بعضها ببعض، قال الشاعر:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا
أروم فآرام فشابة فالحضر[1]
وهل تركت أبلى سواد جبالها
وهل زال بعدي عن قنينته الحجر

وحذاء أبلى جبل يقال له: (ذو الموقعة) من شرقيها، وهو جبل معدن بني سليم.

وقال البكري: أُبلى بضم الهمزة على وزن فُعْلَى، وهي جبال على طريق الآخذ من مكة إلى المدينة على بطن نخل.

وأبلى حذاء وادٍ يقال له عريفطان، وبأبلى مياه كثيرة: (بئر معونة) و(ذو ساعدة)، و(ذو جماجم)، أو (حماحم)، هكذا قال السكوني وحذاء أبلى من غربيها قنة يقال لها الشورة، لبني خفاف من سليم وماؤه آبار يزرع عليها، ماء عذب وأرض واسعة... ثم قال: حذاء أبلى من شرقيها جبل يقال له ذو الموقعة وهو معدن بني سليم، تكون فيه الأروى كثيرًا، في أسفله من شرقيه بئر يقال لها: (الشقيقة)، وتلقاءه عن يمينه من تلقاء القبلة جبل يقال له أحامر، وهذه الجبال تضرب إلى الحمرة، وهي تنبت الغرب والغضور والثمام، وهناك (تعار) و(الأخرب) جبلان لا ينبتان شيئًا، قال الشاعر:

بليت ولا يبلى تعارٌ ولا أرى
ببئرٍ ثميلٍ نائيًا يتجدد
ولا الأخرب الأدنى كأن قلاله
بخات عليهن الأجله هجّر

وقال كثيّر:

---

(١) المواضع الواردة في هذين البيتين ما زالت معروفة بأسمائها: أروم، شابة، الحضر، الحجر.

أحبك ما دامت بنجد وشيجة
وما أنبتت أبلى به وتعارُ

وقال الشماخ:

فباتت بأبلى ليلة ثم ليلة
بحاذةَ واجتابت نوًى عن نواهما

قلت: من المواضع التي مرت في حديث البكري، (بطن نخل) وهو ما يُسمّى في هذا العهد: الحناكية. وكذلك جبل أحامر وجبل تعار و(حاذة) هذه الجبال لا تزال معروفة بأسمائها لم يتغير فيها شيء.

وقال محمد بن بليهد: أبلى، إني أعرفها كما أعرف بلادي، وهي جبال سود متصل بعضها ببعض، متاخمة لجبل كشب مما يلي جهته الشمالية، وهي قريب القرى الواقعة في شرقي الحرّة، وهي: صفينة والسويرقية، وماءة الجريسية واقعة في وسط جبال أبلى، وهي معروفة بهذا الاسم إلى هذا العهد[١].

ويقول محمد بن بليهد أيضًا: إنها واقعة في القطعة الشمالية الغربية من عالية نجد، شرقيها في الجاهلية والإسلام لبني عبد الله ابن غطفان، وغربيها لبني سليم، ويعد معدن بني سليم قطعة منها، والجبال المحيطة بها تضاف إليها فيقال لها: جبال أبلى[٢].

قلت: مما تقدم يتضح وصف أبلى وتحديد موقعها والتعريف ببعض معالمها، وأنها ما زالت باقية على اسمها معروفة به، وقد عمرت فيها هجر لقبيلة مطير، غير أن بئر معونة التي هي أحد مواردها المائية القديمة قد أصبحت غير معروفة باسمها، وكذلك موقعها من أبلى فإنه غير معروف.

بابل: بباء موحدة بعدها ألف وباء أخرى موحدة مكسورة وآخرها لام: مدينة شهيرة في العراق.

قال البخاري: يذكر لنا أن عليًّا كره الصلاة بخسف بابل.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٠٢].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿بِبَابِلَ﴾ بابل لا ينصرف للتأنيث والتعريف والعجمة، وهي قطر من الأرض، قيل: العراق وما والاه، قال ابن مسعود لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة وبابل. وقال قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين. وقال قوم: هي بالمغرب. قال ابن عطيّة: وهذا ضعيف. وقال قوم: هو جبل نهاوند، فالله تعالى أعلم.

واختلف في تسميته ببابل، فقيل: سمي بذلك لتبلبل الألسن بها حين سقط صرح نمروذ. وقيل: سمي به؛ لأنّ الله تعالى لمّا أراد أن يخالف بين ألسنة بني آدم بعث ريحًا فحشرتهم من الآفاق إلى بابل، فبلبل الله ألسنتهم بها، ثم فرّقتهم تلك الريح في البلاد. والبلبلة: التفريق، قال معناه الخليل.

قال أبو عمرو بن عبد البر من أخصر ما قيل في البلبلة وأحسنه ما رواه داود بن أبي هند عن علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس أن نوحًا عليه السلام لمّا هبط إلى أسفل الجودي ابتنى قرية وسمّاها ثمانين، فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة، إحداها اللسان العربي، وكان لا يفهم بعضهم عن بعض.

---

(١) صحيح الأخبار، ١ ـ ٢٣٢.

(٢) السابق، ١ ـ ١٣٥.

قال البكري: بابل، بالعراق مدينة السّحر، معروفة.. وقال أصحاب الأخبار: بنى نمروذ الخاطئ المجدل ببابل، طوله في السماء خمسة آلاف ذراع وهو البنيان الذي ذكره الله في كتابه، فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النحل، الآية: ٢٦].

قالوا: وبات الناس ولسانهم سرياني، فأصبحوا وقد تفرّقت لغاتهم على اثنين وسبعين لسانًا، وأصبح كل يبلبل بلسانه، فسمّي الموضع بابل.

وقال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني: وكان اسمه خيتارث، وربّما سمّوا العراق بابل، قال عمر بن أبي ربيعة وأتى البصرة، فضافه فيها ابن هلال المعروف بصديق الجن:

يا أهل بابل ما نفست عليكم
من عيشكم إلا ثلاث خصالِ
ماءَ الفرات وظلَّ عيش بارد
وسماعَ مسمعتين لابن هلالِ

وقال ياقوت: بابل: بكسر الباء: اسم ناحية منها الكوفة، والحلّة ينسب إليها السحر والخمر، قال الأخفش: لا ينصرف لتأنيثه، وذلك أن اسم كل شيء مؤنث إذا كان علمًا وكان على أكثر من ثلاثة أحرف فإنه لا ينصرف.

وقال المفسّرون في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾، قيل بابل العراق، وقيل بابل دمباوند، وقال أبو الحسن: بابل الكوفة، وقال أبو معشر: الكلدانيون هم الذين كانوا ينزلون بابل في الزمن الأول، ويقال: إنّ أوّل من سكنها نوح عليه السلام، وهو أوّل من عمرها، وكان قد نزلها بعقب الطوفان، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدفئ فأقاموا بها وتناسلوا فيها وكثروا من بعد نوح، وملّكوا عليهم ملوكًا، وابتنوا بها المدائن، واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات إلى أن بلغوا من دجلة إلى أسفل كسكر، ومن الفرات إلى ما وراء الكوفة، وموضعهم هو الذي يقال له السوّاد، وكانت ملوكهم تنزل بابل وكان الكلدانيون جنودهم، فلم تزل مملكتهم قائمة إلى أن قتل دارا آخر ملوكهم، ثم قتل منهم خلق كثير فذلّوا وانقطع ملكهم.

وقد أطال ياقوت في حديثه عن بابل، في وصفها وغرائب ما فيها وذكر أشياء كثيرة ليست من شأننا.

وقال الحميري: بابل: بالعراق، كانت بابل من عظمها واستبشاع أمرها لا تكاد تجعل من عمل الآدميين وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾.

ويقال إن الضحاك أول من بناها، وسكنها العمالقة، ودخلها إبراهيم عليه السلام، ويقال: إن بها مولده وقيل: بل ولد بالسوس من أرض الأهواز، وقيل: بكوثي من أرض السواد، وينسب إليها السحر والخمر ويقال: إن بها هاروت وماروت يعذبان، إذ اختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، وإنهما معلقان في سرب تحت الأرض كالحبلين، وإن بعض الناس رآهما كذلك، فجاد لهم يهودي بها لرغبته في ذلك فلما رأى منظرهما رأى منظرًا عظيمًا وأمرًا هائلاً أفزعه، هذا سمعته من الفقيه ابن البراء يحكي عن مجاهد صاحب التفسير، ولا أدري أهو الرائي لهما أو غيره فالله أعلم.

ويقال: إن نمروذ أسسها وهي مدينة ضاحكة المنظر، جميلة المنصب، زاهرة البناء، واسعة الفناء قد جمعت إلى حسن المنظر من كل

جانب رصانة البنيان، وبهاء المنصب، وكانت سهلة بطحاء، ديمومة فيحاء مربعة لها في كل تربيع حصنان عظيمان، وسائر ذلك من سورها لا يكاد من يبلغه خبره يصدق بصفته لكثرة ارتفاعه وفرط إتقانه.

قالوا: وبابل أقدم بناء بني بعد الطوفان، وإن منها تفرق ولد نوح عليه السلام، وإن الذي هدمها كسرى الأول ملك الفرس لما تغلّب على أرض بابل، وملوك بابل هم النبط، وزعموا أنهم أول ملوك العالم، وأن الفرس أخذت الملك منهم كما أخذته الروم من اليونانيين، وأول ملوكهم نمروذ وهم الذين شيّدوا البنيان ومدّنوا المدن وكوّروا وشقوا الأنهار، ورتبوا الجيوش، وجعلوا الألوية والأعلام.

وقد تحدث المسعودي عن إقليم بابل فقال: وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه، وساحقت مسافتنا عنه، وولّدت في قلوبنا الحنين إليه؛ إذ كان وطننا ومسقطنا، وهو إقليم بابل، وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً وقدره عظيمًا وكانت عنايته إليهم، وكانوا يشتون بالعراق، وأكثرهم يصيفون بالجبال ويتنقلون في الفصول إلى الصرّود من الأرض والحرور، وقد كان أهل المروءات في الإسلام كأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتون في الحرور، وهو العراق، ويصيفون في الصرود، وهي الجبال، وفي ذلك يقول أبو دلف:

وإني امرؤ كَسْرَوي الفعال
أصيف الجبال وأشتو العراقا

وذلك بما خصّ به هذا الإقليم من كثرة مرافقه، واعتدال أرضه، وغضار عيشه، ومادة الوافدين إليه، وهما دجلة والفرات[1].

قلت: قد اتفق المؤرخون على تحديد إقليم بابل في العراق، وذكر بعضهم عن مدينة بابل أشياء لا تتفق مع طبيعة الإنسان وتحضره ونشاطه في العمران، لذلك لم نذكرها لأنها ليست من شأننا في كتابنا هذا.

وقد حدد الدكتور السامرائي إقليم بابل بقوله: إقليم بابل يشمل منطقة أكد الكائنة في الوسط - يعني وسط العراق - وهي شمال بلاد سومر الجنوبية التي استولى عليها البابليون بعد ذهاب دولتهم الجنوبية، والسومريون أمة لم يتفق المؤرخون في عصرنا على أصلهم، ومن أين جاؤوا، ولكنهم اتفقوا على أنهم ليسوا ساميين، ولغتهم ليست سامية.

- وبابل الحديثة، وهي اسم لإحدى المحافظات في العراق ومركزها مدينة الحلة[2].

البحرين، مثنى بحر: اختلف العلماء في ضبط هذا الاسم في الاستعمال، أهو مبني على الياء في كل حالاته؟ أم يعامل معاملة الأسماء المثناة.

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن أول جمعة جمّعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثي من البحرين.

وقال ياقوت: هكذا يتلفظ بها في حال الرفع والنصب والجر، إلا أن الزمخشري قد حكى أنه بلفظ التثنية فيقولون: هذه البحران،

---

(١) مروج الذهب، ٢/٣٨ - ٣٩.

(٢) نظرات في المعجم الكبير، رقم ١٢٧.

وانتهينا إلى البحرين، ولم يبلغني من جهة أخرى.

أما البكري فإنه أورده مبتدأ مرفوعًا بالألف فقال: البحران تثنية بحر، وهو بلد مشهور بين البصرة وعمان.

وقال حمد الجاسر: وكذا ورد في لسان العرب، وفي المصباح المنير، ولكن الإمام الأزهري ـ وهو أقدم منهم وأعرف بهذه البلاد: اقتصر على لزوم الياء في جميع الإعراب.

أما أصل تسمية هذه البلاد بالبحرين فإن لعلماء اللغة فيه آراء كثيرة ذكر الشيخ حمد الجاسر بعضًا منها في كتابه (معجم المنطقة الشرقية).

وقال: قال الأزهري: وهو القول الذي ارتضاه ياقوت: وإنما ثنّوا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة عليها باب الأحساء، وقرى هجر بينها وبين البحر عشرة فراسخ، وقد قدرت هذه البحيرة ثلاثة أميال في مثلها ولا يفيض ماؤها، وماؤها راكد زعاق.

وقال الإدريسي في (نزهة المشتاق): وسميت الجهة بالبحرين بجزيرة أوال، وذلك أن جزيرة أوال بينها وبين فارس مجرى، وبينها إلى بر العرب مجرى، وهي ستة أميال طولاً وعرضًا كذلك.

وفي كتاب نصر قال الأصمعي: إنما سميت البحرين لأنهما عينان بينهما مسيرة ثلاث، إحداهما محلّم والأخرى قضباء، وهي خبيثة الماء، على إحديهما هجر، والأخرى قطيف وهي الخط ومثل هذا في كتاب الحازمي.

وهذا الكلام ـ ينبغي تقديمه على كلام الأزهري لقدم الأصمعي في الزمن والعلم.

قلت: هذا بعض ما أورده حمد الجاسر من أقوال العلماء في اشتقاق تسمية البحرين، ولا بد أن اشتقاق اسم البحرين كان من صفة موجودة ـ وهو الغالب ـ إذ من المعروف عند الجيولوجيين أن تشكيل جغرافية جزيرة العرب مرّ بمراحل متتالية، في عصور جيولوجية مختلفة، انكمشت فيها مياه البحر شرقًا، وأنها كانت في عصور جيولوجية سابقة غامرة أجزاء واسعة من شرقي جزيرة العرب، ممتدة إلى غرب مرتفعات طويق (جبال اليمامة) ويمكن القول: إنه بعد تقلص مياه البحر وانحسارها شرقًا عن منطقة البحرين، تكونت فيها الرؤوس والجزر وشبه الجزر، ثم مرّت بفترة تقلص مياه لاحقة فانعزلت منها جزر البحرين، وبرزت الشواطئ بينها وبين منطقة الأحساء، إذ المعروف أن تقلص مياه البحر عن شرقي الجزيرة العربية لم يتم في فترة جيولوجية واحدة، وإنما مر بعصور جيولوجية مديدة، ولا يستبعد أن يكون فيها نهران أو بحيرتان في تلك الحقب.

ومن هنا يمكن القول إن هناك علاقة جغرافية بين جزر (البحرين) وبين منطقة (الأحساء) قضت بتوحيد هذه البلاد باسم واحد هو (البحرين)، وأنه بعد انفصال جزر البحرين محاطة بالمياه، وانقطاع منطقة الأحساء ضمن صحراء جزيرة العرب بقي الاسم القديم علمًا على جزر (البحرين) دون ما انفصلت عنه من منطقة البحرين، ومن ثم خرجت منطقة الأحساء من مسمى البحرين معروفة باسمها الجزئي (الأحساء).

ومما تقدم من أقوال العلماء في تعليل تسمية البحرين يتبين لنا أنه ليس هناك تعليل واضح مجزوم به حول هذه التسمية يقوم على صفة جغرافية أو قضية تاريخية، وأن هذا الموضوع لا يزال في حاجة إلى البحث والتحقيق حتى يتبين وجه الصواب.

أما موقع البحرين بالنسبة لأقسام الجزيرة العربية، فإن المؤرخين قد تحدثوا عنه من حيث الموقع والصلة بما حولها من البلاد، وقد أورد ياقوت طائفة من أقوالهم، يحسن أن أذكر ما يتعلق بموقعها منها، **قال ياقوت:** البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، وقيل: هي قصبة هجر، وقيل: هجر قصبة البحرين.. وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة، وربما عدّ بعضهم اليمامة من أعمالها، والصحيح أن اليمامة عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين.

قال ابن الفقيه، وقال أبو عبيدة: بين البحرين واليمامة مسيرة عشرة أيام، وبين هجر مدينة البحرين والبصرة مسيرة خمسة عشر يومًا على الإبل، وبينها وبين عمان مسيرة شهر، قال: والبحرين هي الخط والقطيف والآرة وهجر وبينونة والزّارة وجواثة والسّابور ودارين والغابة، قال: وقصبة هجر الصّفا والمشقّر.

وقد أسهب ياقوت في الحديث عن البحرين وقال: وينسب إلى البحرين قوم من أهل العلم، وذكر أسماء طائفة من العلماء والمحدثين الذين ينسبون إليها.

أما وصول الإسلام إلى هذه البلاد الواسعة بلاد البحرين، فقد تحدث ياقوت عن هذا قائلاً: فلما كانت سنة ثمان للهجرة وجه رسول الله ﷺ، العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي حليف بني عبد شمس إلى البحرين؛ ليدعوا أهلها إلى الإسلام أو إلى الجزية، وكتب معه إلى المنذر بن ساوي وإلى سيخت مرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو إلى الجزية، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعض العجم.

فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء وكتب بينهم وبينه كتابًا نسخته: بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين: صالحهم أن يكفونا العمل، ويقاسمونا الثمر، فمن لا يفي بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وأما جزية الرؤوس فإنه أخذ لها من كل حالم دينارًا ثم استطرد ياقوت في الحديث عن أحوال بلاد البحرين وأمرائها من قِبَل النبي ﷺ ومن قِبَل الخلفاء الذين بعده، وفصّل في ذلك تفصيلاً شاملاً.

وفي الروض المعطار قال الحميري: بلاد البحرين هي بلاد واسعة شرقها ساحل البحر، وجوفها متصل باليمامة، وشمالها متصل بالبصرة، وجنوبها متصل بعمان، وقاعدتها هجر، وأهلها عبد القيس.

ومن بلاد البحرين الأحساء والقطيف وبيشة والزارة والخط الذي تنسب إليه الرماح الخطية وغيرها. وهي بلاد سهلة الأنهار والعيون عذبة الماء، ينبطون الماء على القامة والقامتين، والحنّاء والقطن على شطوط أنهارها بمنزلة السوسن، وهي كثيرة النخل والفواكه، وبساتينهم على نحو ميل منها ولا يأتونها إلا غدوًا أو رواحًا لإفراط حر الرمضاء، وأن حوافر الدواب تسقط فيها إذا احتدمت، وهي مخصوصة بتعظيم الطحّال، ولذلك قال بعض الشعراء:

ومن يَسكُنِ البحرينَ يعظُمْ طُحالُه
ويُغبَطْ بما في بطنه وَهْوَ جائعُ

ولها مدن كثيرة.

قال البكري: البحران: تثنية بحر، وهو بلد مشهود، بين البصرة وعمان، صالح أهله رسول الله ﷺ وأمر عليهم العلاء ابن

الحضرمي، وبعث أبا عبيدة يأتي بجزيتها فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: فأبشروا، وأمّلوا ما يسركم، فوالذي نفسي بيده ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم.

وتحدث البلاذري: عن البحرين وبعث النبي ﷺ العلاء بن عبد الله الحضرمي إليهم، والصلح الذي عقد بينه وبينهم، ثم تحدث عن الأحداث التي مرت بها هذه البلاد في عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه حديثًا شاملاً لا يتسع مقامنا لذكره[١].

قال حمد الجاسر: وقد ظل اسم البحرين يطلق على هذه الناحية حتى القرن الثامن، ثم إن اسم البحرين انحسر إلى جزيرة أوال التي كانت تدعى جزيرة البحرين بإضافتها إلى القطر، ثم انحصرت التسمية بها.

ثم منذ القرن العاشر كان يطلق على هذه البلاد اسم الحساء والأحساء، واستمر ذلك إلى ما بعد منتصف القرن الرابع عشر ـ أي بعد سنة ١٣٧٠هـ حين انتقلت القاعدة إلى مدينة الدمام، وصارت الشهرة لمنطقة الظهران منطقة صناعة النفط، فأطلق على البلاد اسم (المنطقة الشرقية).

قلت: ومما تقدم من أقوال المؤرخين والاستنتاجات لمدلولها يتبين أن (البحرين) اسم يشمل البلاد الممتدة المحاذية لساحل الخليج العربي من الجزيرة العربية، من حدود البصرة شمالاً إلى حدود بلاد عمان جنوبًا، وهو ما يطلق عليه في هذا العهد اسم (المنطقة الشرقية) للمملكة العربية السعودية.

بدر: بباء موحدة مفتوحة ودال مهملة ساكنة وآخره راء مهملة: ماء معروف بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن محمد بن جبير عن أبيه وكان جاء في أسارى بدر قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٢٣].

قال ابن جرير: اختلف في المعنى الذي من أجله سمّي (بدرًا) فقال بعضهم: سمّي بذلك لأنه كان ماء لرجل يسمّى بدرًا، فسمّى باسم صاحبه، عن الشعبي.

وأنكر ذلك آخرون وقالوا: ذلك اسم سميّت به البقعة، كما سمّي سائر البلدان بأسمائها.

وبسنده عن الضحّاك: بدر ماء عن يمين طريق مكة، بين مكة والمدينة.

وبسنده عن قتادة قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٢٣]، وبدر ماء بين مكة والمدينة، التقى عليه نبيّ الله ﷺ والمشركون، وكان أوّل قتال قاتله نبيّ الله ﷺ. وذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ: (أنتم اليوم بعدّة أصحاب طالوت يوم لقي جالوت). فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون يومئذ ألف، أو راهقوا ذلك.

قال ياقوت: بدر: بالفتح ثم السكون، قال الزّجّاج: بدر أصله الامتلاء، يقال غلام بدر

---

(١) فتوح البلدان، رقم ٩٦ ـ ١٠٤.

إذا كان ممتلئًا شابًا لحمًا، ويقال: قد بدر فلان إلى الشيء وبادر إليه إذا سبق، ومعناه استعمل غاية قوته وقدرته على السرعة، أي: استعمل ملء طاقته.

وسمّي القمر ليلة الأربعة عشر بدرًا لتمامه وعظمه.

وبدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة، أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار[1] ـ وهو من ساحل البحر ـ ليلة، ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة وقيل: بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع؛ فنسب إليه ثم غلب اسمه عليه.

وقال الزبير بن بكّار: قريش بن الحارث ابن يخلد ويقال: مخلد بن النضر بن كنانة به سمّيت قريش فغلب عليها؛ لأنه كان دليلها وصاحب سيرتها، فكانوا يقولون جاءت عير قريش وخرجت عير قريش، قال: وابنه بدر ابن قريش به سمّيت بدر التي كانت بها الوقعة المباركة؛ لأنه كان احتفرها، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام، وفرّق بين الحقّ والباطل، في شهر رمضان سنة اثنتين للهجرة.

وبين بدر والمدينة سبعة برد: بريد بذات الجيش، وبريد عبود، وبريد المرغة، وبريد المنصرف، وبريد ذات أجذال، وبريد المعلاة، وبريد الأثيل، ثم بدر، وبدر الموعد، وبدر القتال، وبدر الأولى والثانية، كله موضع واحد.

وقد نسب إلى بدر جميع من شهدها من الصحابة الكرام، ونسب إلى سكنى الموضع أبو مسعود البدري واسمه عقبة بن عمر ابن ثعلبة بن أسيرة بن عسيرة بن عطية بن جدارة ابن عوف بن الحارث بن الخزرج، شهد العقبة الثانية وكان أصغر من شهدها.

وقال البكري: بدر: ماء على ثمانية وعشرين فرسخًا، من المدينة في طريق مكة، ومن بدر إلى الجار ستة عشر ميلاً وميرتها من الجار.

وبدر عينان جاريتان عليهما الموز والعنب والنخل، قال عبد الله بن جعفر بن مصعب الزبيري، عن مصعب بن عبد الله: كان قريش بن بدر بن الحارث بن يخلد بن النضر ابن كنانة دليل بني كنانة في تجاراتهم، فكان يقال: قدمت عير قريش، فسميت قريش به، قال وهو صاحب بدر الذي لقي عليه رسول الله ﷺ مشركي قريش، أنبط هنالك بئرًا فنسب إليه.

وروى زكريا عن الشعبي، قال سميت بدرًا لأنه كان ماء لرجل من جهينة اسمه بدر. قال الواقدي: ذكرت ذلك لعبد الله بن جعفر، ومحمد بن صالح، فأنكراه، وقالا: لأي شيء سميت الصفراء؟ ولأي شيء سمي الجار؟ إنما هو اسم الموضع. قال وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري فقال: سمعت شيوخنا من غفار يقولون: هو ماؤنا ومنزلنا، وما ملكه أحد قط يقال له بدر، وما هو من بلاد جهينة، إنما هو من بلاد غفار. قال الواقدي: وهو المعروف عندنا.

قال الضحاك: بدر ماء عن يمين طريق مكة بينها وبين المدينة. وبدر يذكّر ولا يؤنّث، جعلوه اسم ماء.

قال ابن إسحاق: نزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي، خلف العقنقل وبطن الوادي هو يليل، وبين العقنقل الكثيب الذي

---

(١) الجار كانت ميناء على ساحل البحر الأحمر.

خلفته قريش، والقليب ببدر هو في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة.

ـ **غزوة بدر الكبرى**: سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم: مخرمة بن نوفل بن وهيب ابن عبد مناف بن زهرة، وعمرو بن العاص ابن وائل بن هشام، فندب رسول الله ﷺ المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفًا على أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان: أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم ابن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة.

فتجهّز الناس سراعًا للخروج وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلاّ والله ليعلمنّ غير ذلك، فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً.

وأوعبت قريش فلم يتخلّف من أشرافها أحد. إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلّف، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره وبعثه فخرج عنه وتخلّف أبو لهب.

وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه ـ قال ابن هشام: خرج (يوم الاثنين) لثمان ليال خلون من شهر رمضان ـ واستعمل عمرو بن أم مكتوم ـ ويقال اسمه: عبد الله بن أم مكتوم أخا بني عامر ابن لؤيّ على الصلاة بالناس، ثم ردّ أبا لبابة من الرّوحاء واستعمله على المدينة.

قال ابن إسحاق: ودفع اللواء إلى مصعب ابن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار، قال ابن هشام: وكان أبيض.

قال ابن إسحاق: وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدّم العير حذرًا، حتى ورد الماء، يعني ماء بدر ـ فعلم بقرب النبي ﷺ وأصحابه منه فرجع إلى أصحابه سريعًا، فضرب وجه عيره عن الطريق، فساحل بها، وترك بدرًا بيسار وانطلق حتى أسرع.

قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجّاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل ابن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليه ثلاثة فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا؛ فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا.

قال ابن إسحاق: ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، خلف العقنقل وبطن الوادي، وهو يليل بين بدر والعقنقل

الكثيب الذي خلفه قريش، والقليب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة. . فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم الماء، حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقليب فغوّرت، وبني حوض على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

قال ابن إسحاق: وقد ارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل ـ وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي ـ قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة.

قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس ودنى بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله ﷺ ألّا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانفحوهم عنكم بالنبل، ورسول الله ﷺ في العريش، معه أبو بكر الصديق.

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبعة عشر من شهر رمضان.

قال: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرّضهم، وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشًا بها، ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: شدّوا، فكانت الهزيمة، فقتل الله ﷻ من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

قال ابن هشام: وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: أحد أحد.

قال ابن إسحاق: فجميع من شهد بدرًا من المسلمين، من المهاجرين والأنصار من شهدها منهم، ومن ضرب له بسهمه وأجره، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن الأوس واحد وستون رجلاً، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً.

غزوة بدر الآخرة: كانت هذه الغزوة في شهر شعبان سنة أربع.

قال ابن إسحاق: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة الرقاع، أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا. ثم خرج في شعبان إلى بدر، لميعاد أبي سفيان، حتى نزله.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول الأنصاري.

قال ابن إسحاق: فأقام عليه ثماني ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنّة، من ناحية الظهران، وبعض الناس يقول: قد بلغ عسفان، ثم بدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده، فأتاه مخشى بن عمرو الضمري وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودّان، فقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال نعم: يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك

ثم جالدناك حتى يحكم بيننا وبينك، قال: لا والله يا محمد، ما لنا بذلك منك من حاجة.

ـ **قلت**: ولعبد الله بن رواحة ولحسّان بن ثابت في ذلك شعر ذكره ابن هشام في سيرته، قلت: هذا هو بدر الذي جرت فيه غزوتا رسول الله ﷺ، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف.

وقد نشأت في بدر بلدة نامية «تبعد عن المدينة المنورة (١٥٥) كيلاً، وعن مكة (٣١٠) أكيال، وتبعد عن سيف البحر قرابة (٤٥) كيلاً وكان ميناؤها الجار. فلما اندرست قامت بالقرب منها بلدة (الرايس)، ومنها اليوم يجلب السمك إلى بدر، وسكانها حرب، غالبهم بنو صبح، وبها مدارس ومسجد جامع، وإمارة عموم وادي الصفراء، وساحل الجار».

وبلدة بدر تابعة في كل شؤونها الإدارية والاجتماعية لإمارة المدينة، وموقعها بالنسبة للمدينة في الجنوب الغربي.

بدر أيضًا كالذي قبله: جبل أحمر، يقع في ناحية وادي الرّكا اليسرى، يمر مجرى الرّكا بينه وبين هضاب الكفل، وفيه ماء لقبيلة الدواسر، وهو واقع في ناحية بلادهم الشمالية مما يلي بلاد قحطان، واقع في بلاد بني الحريش قديمًا، ومعروف أن بلاد بني عامر الحريش وغيرهم تشمل اليوم بلاد الدواسر وبعضًا من بلاد قحطان في هذا العهد، والماء الذي فيه يسمى: البدرية، تابع لإمارة الدواسر.

وقد ذكره ياقوت، وقال: وبدر جبل في بلاد باهلة بن أعصر، وهناك أرمام الجبل المعروف، وأحد جبلين يقال لهما: بدران في أرض بني الحريش. واسم الحريش: معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة.

قلت: وهذا الجبل أصبح يذكر معرّفًا بالألف واللام: فيقولون له: البدر، وللماء الذي فيه: البدرية نسبة إليه.

قال ياقوت: وبدر أيضًا: مخلاف باليمن، وهو غير الأول.

وبدر أيضًا: محافظة من محافظات إمارة نجران في هذا العهد.

بَرْك الغِماد: أوله باء موحدة مفتوحة فراء مهملة ساكنة ثم كاف، والغماد بكسر الغين المعجمة بعدها ميم ثم ألف وآخره دال مهملة: موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

روى البخاري عن عائشة ﵂، قالت خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج... فأنا لك جار ارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة.

قال ابن حجر: أما برك فهو بفتح الموحدة، وسكون الراء بعدها كاف، وحكي كسر أوله، وأما الغماد بكسر المعجمة وقد تضم، وبتخفيف الميم.

وقال البكري: هي أقاصي هجر، وحكي الهمداني في أنساب اليمن: هو في أقصى اليمن، والأول أولى.

وحكى ابن فارس فيها ضم الغين: موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن.

وقال ابن خالويه: حضرت مجلس المحاملي وفيه زهاء ألف، فأملى عليهم حديثًا فيه (فقالت الأنصار لو دعوتنا إلى برك الغماد) قالها: بالكسر، فقلت للمستملي: هو بالضم: فذكر له ذاك، فقال لي: وما هو، قلت:

سألت ابن دريد فقال: هو بقعة في جهنم. فقال المحاملي: وكذا في كتابي على الغين ضمة.

قال ابن خالويه: وسألت أبا عمرو ـ يعني غلام ثعلب ـ فقال: هو بالكسر والضم موضع باليمن، قال وموضع باليمن أوله بالكسر لكن آخره دال مهملة، وهو عند بئر برهوت الذي يقال: إن أرواح الكفار تكون فيها.

واستبعد بعض المتأخرين ما ذكر ابن دريد فقال: القول بأنه موضع باليمن أنسب؛ لأن النبي ﷺ لا يدعوهم إلى جهنم: وخفي عليهم أن هذا بطريق المبالغة فلا يراد به الحقيقة، ثم ظهر لي ألاّ تنافي بين القولين، فيحمل قوله جهنم على مجاز المجاورة بناء على القول بأن برهوت مأوى أرواح الكفار وهم أهل النار[1] ا. هـ.

وقال ياقوت: برك الغماد: بكسر الغين المعجمة، وقال ابن دريد بالضم، والكسر أشهر، وهو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن دفن عنده عبد الله ابن جدعان التيمي القرشي:

قال الشاعر:

سَقى الأمطار قبر أبي زهير
إلى سقف إلى برك الغماد

وفي حديث عمّار: لو ضربونا حتى بلغوا بنا برك الغماد لعلمنا أننا على الحق، وأنهم على الباطل.

وفي كتاب عياض: برك الغماد، بفتح الباء عن الأكثرين، وقد كسرها بعضهم، وقال: هو موضع في أقاصي أرض هجر، قال الراجز:

جارية من أشعر أوعَك
بين غمادي نبّةٍ وبَرك

وقال ابن الدمينة: في الحديث أن سعد ابن معاذ والمقداد بن عمرو قالا لرسول الله ﷺ: لو اعترضت بنا البحر لخضناه، ولو قصدت بنا برك الغماد لقصدناه، وفي حديث آخر عن أبي الدرداء: لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدًا يفتحها عليّ إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه، وهو أقصى حجر باليمن، قال: وقد ذكره محمد بن أبان بن جرير الخنفري وهو في بلد الخنفريين في ناحية جنوبي منعج، فقال:

فدع عنك من أمسى بغور محلها
ببرك الغماد بين هضبة بارح

قال: وهذه مواضع في منقطع الدمينة وحرازة من سفلى المعافر، قال: والبرك حجارة مثل حجارة الحرّة خشنة يصعب المسلك عليها وعرة، وقال: الحارث بن عمرو الجزلي من جزلان.

فأجلوا مفرقًا وبني شهاب
وحلّوا في السهول وفي النجار
ونحن الخنفرين وآل عوف
لقصوى الطوق أو برك الغماد ا. هـ.

وقال الهمداني: وفي الحديث أن سعد ابن معاذ أو المقداد بن عمرو قال لرسول الله ﷺ وهو متوجه إلى بدر: لن نقول لك يا رسول الله كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون، بل اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون، والله لو اعترضت بنا ماء البحر لخضناه، أو قصدت بنا برك الغماد لقصدناه... قال: وهو في بلد الخنفريين بناحية حنوى منعج.

قلت: برك الغماد موضع يضرب به المثل لبعده ومشقة الوصول إليه وكانت له شهرة،

---

(١) فتح الباري، رقم ٧، ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

وقد اختلف العلماء في ضبطه بالحركات، بين فتح الباء الموحدة وضم الغين المعجمة، وكسرهما، غير أنهم رجحوا الفتح في الأول والكسر في الثاني، وكذلك اختلفوا في تحديد موقعه.

ومن خلال ما تقدم من أقوال العلماء ومن نصوص الشعر التي استشهدوا بها، يبدو لي أن برك الغماد اسم لموضعين، أحدهما برك الغماد الذي يبعد عن مكة مسيرة خمس ليال صوب اليمن، وهو الذي لقي فيه أبو بكر ﷺ ابن الدغنة.

ويرى حمد الجاسر أن هذا الموضع هو الموضع الذي يعرف في هذا العهد باسم (البرك) وادٍ يقع وراء وادي حلى مما يلي الجنوب. ا. هـ.

ثانيًا: برك الغماد موضع في أقاصي اليمن في بلد الخنفريين، وهو الذي يصعب السلوك فيه لوعورته وخشونة حجارته، وقد اختلفوا في تحديده فقال بعضهم: موضع في أقاصي أرض هجر.

وقد حدّد الهمداني هجر فقال: الهجر قرية ضمد وجازان

وقال الأكوع: الهجر بالتحريك في لغة حمير القرية الكبيرة، وما زال استعمالها لهذا إلى يوم الناس، وهجر ضمد ما زالت حية عامرة، وضمد بالتحريك أيضًا وادٍ عظيم فيه قرى كثيرة آهلة بالمساكن.

أما جازان هذه فإنها جازان القديمة تبعد عن البحر (٣٥) كيلاً تقريبًا شرقًا على ضفة وادي جازان من الجنوب.

وقال الهمداني: وهو يتحدث عن بلد كندة بحضرموت ثم: الهجران، وهما مدينتان متقابلتان، في رأس جبل حصين يطلع إليه في منعة من كل جانب، وهي تثنية الهجر، والهجر القرية بلغة حمير والعرب العاربة، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان حصبة[١].

قال الأكوع كل هذه الهجرات أنقاض وخرائب ليس منها عامر ألبتة، وهجر حَصِبة بفتح الحاء وكسر الصاد المهملتين: وهي في ظاهر الجراف من ضواحي شمال صنعاء بمسافة ثلاثة أميال تقريبًا.

قلت: وبهذا يتبين أن هجرًا اسم لعدد من المواضع في جنوب الجزيرة العربية، أحدهما يعني منطقة ضمد، وضمد مدينة عامرة من مدن المملكة العربية السعودية، واقعة في منطقة جازان، تبعد عن مدينة جازان حوالي (٥٠) كيلاً تقريبًا.

وقال آخرون: برك الغماد في بلد الخنفريين، في منقطع الدمينة وحرازة من سفلى المعافر.

وقال الهمداني في تحديد مدينة خنفر: وأبين وبها مدينة خنفر، وقال الأكوع خنفر: بضم الخاء المعجمة وسكون النون آخره راء: كانت مدينة أثرية وحصنها هضبة مسرطحة سميت باسم فيل يلقب خنفر، وتقوم وسط وادي أبين، وهي أنقاض، وقد خلفها اليوم مدينة زنجبار، وفي حصنها المذكور مبانٍ حكومية، وخنفر أيضًا بلدة في حضرموت[٢].

وفي تحديد بلاد الأشعريين والمعافر قال الهمداني: ورسيان وتباشعة، ويسكن هذه المواضع نسل المعافر بن يعفر... ووادي

---

(١) صفة جزيرة العرب، ١٧٠.

(٢) صفة جزيرة العرب، ٧١.

الملح، ويسكنه الأشعر، وفيما بينه وبين تباشعة بلد العشورة وقبيلة من الأشعر.

قال الأكوع: ورسيان: بكسر الراء وسكون السين المهملة ثم فتح الياء المثناة من تحت آخره نون: وهو معروف ومشهور. وتباشعة: بضم التاء المثناة من فوق وفتح الباء الموحدة ثم شين وهاء: وهي قرية كبيرة ذات مسجد جامع في عزلة بني وافي من جبل ذخر، الذي يسمى اليوم جبل حبشي، وكل هذه الأماكن غربي مدينة تعز.

ووادي الملح، هو ما يسمى اليوم وادي مغيل موبؤ... ذو غيول كبيرة، ومن تعز في الشمال الغربي وعداده من أعالي تعز[1].

وقال الهمداني: مخلاف المعافر: أما الجوة من عمل المعافر... وأما جبا وأعمالها وهي كورة المعافر فهي في فجوة بين جبل صبر وجبل ذخر.

وعلق عليه الأكوع بقوله: المعافر: بفتح الميم وكسر الفاء آخره راء: وهو ما يسمى اليوم الحجرية، وهو من أفخم المخاليف وأشهرها، ولهذا سمّاه الأمير الكبير محمد بن أبان ابن ميموم الخنفري دار الملك حيث قال:

حل المعافر دار الملك فاعتزموا
صيد مقاولة من نسل أحرار

ويقع في جنوب مدينة تعز فيما بين برداد والضباب شمالاً، وما بين ذبحان وما تاخم أصابح لحج[2].

بلاد الأشعريين وعك: قال الهمداني: الحصيب وهي قرية زبيد وهي للأشعريين وقد خالطهم بأخرة بنو واقد من ثقيف، وقرى بواديها حيس وهي للركب من الأشعر، والقحمة للأشاعرة، وفيها من خولان وهمدان، وذوال المعقر. والكدراء يسكنها خليط من عكّ والأشعر، وباديتها جميعًا من عك إلا النبذ من خولان، ثم المهجم وهي مدينة سردد، وأكثر بواديها وأهل البأس منها خولان من أعلاها وأسفلها وشماليها لعك. ومور وبه مدينة تسمى بلحة لعك.

وعلق الأكوع على هذا فقال الحُصَيْبُ: بضم أوله وفتح ثانيه ثم ياء مسكنة من تحت وآخره باء موحدة، وزبيد: زنة أمير: هي الحصيب إلا أنها غلبت على اسم الحصيب ووصفها يكثر.

والأشعريون قبيلة عزيزة مرهوبة الجانب، ومنها النفر الذين كان على رأس وفدهم إلى رسول الله ﷺ أبو موسى الأشعري.

أما حيس: بفتح الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وسين مهملة آخره، فهي مدينة عامرة واسعة ذات مساجد كثيرة، ومرافق غنية وزرع ونخيل.

والركب: بتشديد الراء وتسكين الكاف بطن من الأشعر شرق وجنوب زبيد.

والقحمة: بفتح فسكون كانت مدينة عامرة وهي اليوم أصرام وحلل قد تصرمت نضارتها، وتقع في وادي ذوال ما بين الفقيه والمنصورية، والقحمة أيضًا: على ساحل البحر من مخلاف الحكم.

ذوال: بضم الذال وآخره لام: واد مشهور، وهي التي تشرع عليه القحمة وبيت الفقيه الحديثة وغيرها، وتقع في الشرق الشمالي بمسافة يوم من مدينة زبيد.

(١) صفة جزيرة العرب، ١٠١.
(٢) صفة جزيرة العرب، ٢٠٧.

برك الغماد: قال الأكوع: بكسر الباء الموحدة وسكون الراء والغماد بكسر الغين المعجمة، وقد تضم بعدها ميم وألف ودال مهملة. وحجر بفتح الحاء وإسكان الجيم آخرها راء، ويوجد في المعافر ثلاثة أمكنة كلها في عزلة السوا، وتسمى حجر، ويبدو من كلام المؤلف - يعني الهمداني - أن برك الغماد في المعافر وهي من أقصى اليمن، والدمينة تصغير دمنة هنالك وربما أنها التي برداد.

وبرك الغماد هنالك إلى التاريخ.

قلت: وبهذا يتضح تحديد البلاد التي نسب إليها برك الغماد في أقوال العلماء، وكذلك تحديد منازل القبائل التي نسب إلى منازلها في أقصى جنوب اليمن.

يَبَة: قال ياقوت بالتحريك، يبة وعليّب: قريتان بين مكة وتبالة، قال كثيّر:

بوجه أخي بني أسد قَنَونا
إلى يَبَة إلى برك الغماد
مقيم بالمجازة من قنونا
وأهلك بالأجيفر فالثماد
فلا تبعد فكل فتى سيأتي
عليه الموت يطرق أو يغادي

قال حمد الجاسر: اسم الوادي ينطق الآن (يَبه) بالهاء و(يَبَا) بإبدال الهاء ألفًا، وهو من أشهر أودية تهامة المنحدرة من السراة، وهو بقرب وادي برك[1].

وفي معجم بلاد بارق: وادي يَبَة: بفتح المثناة التحتية والباء ثم هاء: وهو وادٍ عظيم من أكبر أودية المملكة العربية السعودية، . . . وينحدر من بلاد شمران بلقرن تهامة، ويسيل في البحر الأحمر، ثم ذكر الأودية التي تدفع فيه.

قلت: هو واقع بين منطقة القنفدة من الشمال ووادي حلى من الجنوب، معروف بهذا الاسم إلى هذا العهد، وقد قرنه كثيّر في شعره ببرك الغماد، الذي يرى حمد الجاسر أنه هو ما يسمى في هذا العهد: البرك.

وكان هذا الوادي يذكر بالألف بعد الباء (يَبَا) كما جاء في اللسان، ويذكر بإبدال الألف هاء (يَبَه) كما في شعر كُثيّر.

نَبَة: أوله نون موحدة مفتوحة بعدها باء موحدة مفتوحة، وآخره هاء، ويذكر بإبدال الهاء ألفًا، وهو الأصل (نَبَا).

قال ياقوت في تحديد برك الغماد: هو موضع في أقاصي أرض هجر، قال الراجز:

جارية من أشعر أوعَكْ
بين غمادي نَبَةٍ وبرك
هفهافة الأعلى رداح الورك
ترج وَدْكًا رجرجان الرك

وقال الهمداني: وادي أبين، وهو ما يلي لحج ومآتيه من شَراد، ونَبَا أرض رعين.

وعلق عليه المحقق **الأكوع** قائلاً: يتكون مياه وادي أبين من أصلين كبيرين، أحدهما غربي والآخر شرقي، في الغربي هو سيول نَبا، وهو الذي غلب عليه ميزاب أبين.

ووادي نَبَا له فرعان كل فرع يشكل سائلاً عظيمًا من الروافد التي تمده وتسمى باسم خاص[2].

قلت: هذا هو وادي نَبا (نَبَة) الذي ورد في الرجز مقرونًا ببرك الغماد، وبذكر قبيلتي أشعر وعك اللتين تعيشان في أقصى جنوب اليمن، وقد فات على حمد الجاسر أن (يَبَة) و(نَبَة) واديان مختلفان بعيد أحدهما عن الآخر،

(١) نظرات في المعجم الكبير، ٧٠.
(٢) صفة جزيرة العرب، ١٤٠.

أحدهما في بلاد بارق تهامة في المملكة العربية السعودية، والآخر في أقصى جنوب اليمن، فجعل الواديين واديًا واحدًا، وقال: إن كلمة (نَبَة) الواردة في الرجز تصحيف لكلمة يَبَة، وهو وادٍ بقرب وادي برك ويبدو أنه يرى أن برك الغماد هو وادي برك الواقع بين جازان وحلى ولا غيره، ومما أسلفت يتضح للقارئ من النصوص العلمية والشواهد أن برك الغماد اسم لموضعين، وإتمامًا للفائدة فإنني سأتحدث عن وادي برك حيث ورد الطريق من مكة إليه مرسومًا في قصيدة أبو دهبل الجمحي.

قال ياقوت: بِرك: بوزن قِرد، ناحية اليمن، وهو بين ذهبان وحلى، وهو نصف الطريق بين حلى ومكة، وإياه أراد أبو دهبل الجمحي بقوله يصف ناقته:

خرجت بها من بطن مكة بعدما
أصات المنادي للصلاة وأعتما
فما نام من راع ولا ارتد سامر
من الحي حتى جاوزت بي يلملما
ومرت ببطن الليث تهوي كأنما
تبادر بالإصباح نهبًا مقسما
وجازت على البزواء والليل كاسر
جناحيه بالزواء وردًا وأدهما
فما ذرّ قرن الشمس حتى تبينت
بعليّب نخلاً مشرفًا ومخيما
ومرت على أشطان روقة بالضحى
فما جررت للماء عينًا ولا فما
وما شربت حتى ثنيت زمامها
وخفْتُ عليها أن تُجنّ وتُكلما
فقلت لها: قد بعت غير ذميمة
وأصبح وادي البرك غيثًا مديما

هذا هو البرك الذي ما زال معروفًا باسمه في تهامة في المملكة العربية السعودية.

أما قول ياقوت: وهو نصف الطريق بين مكة وحلى، فإنه غير صحيح، لأنّ حليًا بينه وبين مكة.

بصرى: بباء موحدة مضمومة وصاد مهملة ساكنة وراء مهملة بعدها ألف مقصور، مدينة في منطقة حوران من بلاد الشام.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أخبره أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر... الحديث.

قال البكري: بصرى: بضم أوله، وإسكان ثانيه، وفتح الراء المهملة: مدينة حوران، قال المتلمس:

لم تدر بصرى بما آليت من قسم
ولا دمشق إذا ديس الكداديس

أراد: إذا ديس زرع الكداديس: جمع كدس.

ورواها الأصمعي: (إذا ديس الفراديس).

يقول: لم تدرها ولا بما حلفت، فيقول: إذا ديس زرع الفراديس، وهو موضع بدمشق.

قال: ودرب يقال له: درب الفراديس.

وقال كثيّر:

فبيد المنقى فالمشارب دونه
فروضة بصرى أعرضت فبسيلها[1]

وقال محيصة بن مسعود الخزرجي:

وما سرّني أني قتلتك طائعًا
وأن لنا ما بين بصرى ومأرب

---

(١) بسيل: قرية من حوراء.

وقال ياقوت: بصرى: في موضعين بالضم والقصر: إحداهما بالشام من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، ذكرها كثير في أشعارهم.

قال أعرابي:

أيا رفقة من آل بصرى تحملوا
رسالة لقيت من رفقه رشدا
إذا ما وصلتم سالمين فبلّغوا
تحية من قد ظن أن لا يرى نجدا
وقولوا لهم ليس الضلال أجازنا
ولكننا جزنا لنلقاكم عمدا
وإنا تركنا الحارثيّ مكبّلاً
بكبل الهوى من ذكركم مضمرًا وجدا

وقال الصمة بن عبد الله القشيري:

نظرتُ وطرف العين يتّبع الهوى
بشرقّي بُصْرى نظرة المتطاول
لأبصر نارًا أُوقدت بعد هجعة
لريا بذات الرمث من بطن حائل

وقال الرمّال بن ميّادة:

ألا لا تلطّى السّتر يا أم جحدر
كفى بذرى الأعلام من دوننا سترا
إذا هبطت بصْرى تقطع وصلها
وأغلق بوابان من دونها قصرا
فلا وصل إلا أن تقارب بيننا
قلائص يحسرنَ المطّي بنا حسرا
فيا ليت شعري هل يحلّن أهلها
وأهلي روضات ببطن اللوى خضرا
وهل تأتيني الريح تدرج موهنا
بريّاك تعروري بها عقدًا عفرا

ولما سار خالد بن الوليد من العراق لمدد أهل الشام قدم على المسلمين وهم نزول ببُصْرى، فضايقوا أهلها حتى صالحوهم على أن يؤدوا عن كل حالم دينارًا وجريبِ حنطة، وافتتح المسلمون جميع أرض حوران، وغلبوا عليها وقتئذٍ، وذلك سنة ١٣هـ.

قال البلاذري: قالوا: لما قدم خالد بن الوليد على المسلمين بُصْرى اجتمعوا عليها، وأمّروا خالدًا في حربها، ثم ألصقوا بها وحاربوا بطريقها حتى ألجؤوه وكماة أصحابه إليها.

ويقال: بل كان يزيد بن أبي سفيان المتقلّد لأمر الحرب؛ لأن ولايتها وإمرتها كانت إليه؛ لأنها من دمشق. ثم إن أهلها صالحوا على أن يأمنّوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية.

وذكر بعض الرواة أن أهل بُصْرى صالحوا أن يؤدوا عن كل حالم دينارًا وجريب حنطة. وافتتح المسلمون جميع أرض كورة حوران وغلبوا عليها.

قلت: مدينة بُصْرى ما زالت عامرة في هذا العهد مشهورة في إقليم حوران في جنوب سوريا.

وبُصْرَى أيضًا: قال ياقوت، من قرى بغداد قرب عكبراء، وإياها عنى ابن الحجاج بقوله:

ولعمر الشباب ما كان عني
أول الراحلين من أحبابِ
إن تولّى الصباء عني فإنّي
قد تعزيت بعده بالتّصابي
أيظن الشباب أني مخلّ
بعده بالسماع أو بالشرابِ
حاش لي حانتي أو أنا وبُصْرى
للدّنان التي أرى والخوابي
إنّ تلك الظروف أمست خدُوراً
لبنات الكروم والأعناب

وإليها يُنْسب أبو الحسن محمد بن أحمد ابن خلف البُصْرَوي الشاعر، قرأ الكلام على المُرتضى المُوسوي، كتب عنه أبو بكر الخطيب من شعره أقطاعًا منها:

تـرى الـدنـيـا وزهـرتـهـا فـتـصـبـو
ولا يـخـلـو مـن الـشـهـوات قـلـبُ
ولـكـن فـي خـلائـقـهـا نـفـار
ومـطـلـبـهـا بـغـيـر الـحـظ صـعـبُ
كـثـيـرًا مـا نـلـوم الـدهـر مـمـا
يـمـر بـنـا ومـا لـلـدهـر ذنـب
ويـعـتـب بـعـضـنـا بـعـضًـا ولـولا
تـعـذر حـاجـة مـا كـان عـتـب
فـضـول الـعـيـش أكـثـرهـا هـمـوم
وأكـثـر مـا يـضـرك مـا تـحـبُّ
فـلا يـغـررك زخـرف مـا تـراه
وعـيـش لـيـن الأعـطـاف رَطـب
فـتـحـت ثـيـاب قـوم أنـت فـيـهـم
صـحـيـح الـرأي داء لا يُـطَـبّ
إذا مـا بـلـغـة جـاءتـك عـفـوا
فـخـذهـا فـالـغـنـى مـرعـى وشـرب
إذا اتـفـق الـقـلـيـل وفـيـه سـلـم
فـلا تـرد الـكـثـيـر وفـيـه حـرب

ومات البصروي سنة ٤٤٣هـ.

البصرة: بباء موحدة مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وراء مهملة مفتوحة ثم هاء، مدينة مشهورة بالعراق.

روى البخاري بسنده عن سالم عن أبيه قال، قال النبي ﷺ من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقّه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين، قال القربريّ قال أبو جعفر بن أبي حاتم قال أبو عبد الله: هذا الحديث ليس بخراسان في كتاب ابن المبارك أملاه عليهم بالبصرة.

قال البكري: البصرة: بالعراق معروفة. والبصرة: هي الحجارة الرخوة تضرب إلى البياض.

قال ذو الرمّة وذكر حوضًا: «جوانبه من بصرة وسلام».

والنسب إلى البصرة: بصري.

وقال أبو بكر: سميت البصرة؛ لأن أراضيها التي بين العقيق وأعلى الربد حجارة رخوة، وهو الموضع الذي يسمّى الجزيرة.

وقال ياقوت: وهما بصرتان: العظمى بالعراق وأخرى بالمغرب، ، وأما البصرتان: فالكوفة والبصرة.

قال ابن الأنباري: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة، وقال قطرب: البصرة الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقطع وتقلع حوافر الدواب، وقال ابن الأعرابي: البصرة حجارة صلاب، قال: وإنما سميت بصرة لغلظتها وشدّتها.

وذكر الشرقي ابن القطامي أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها فقالوا: إن هذه أرض بصرة، يعنون حصبة، فسميت بذلك.

وقال الطرماح بن حكيم:

مـؤلـفـة تـهـوى جـمـيـعًـا كـمـا هـوى
من النيق فوق البصرة المتطحطح

وقال خفاف بن ندبة:

إن تـلـك جـلـمـود بـصـر لا أؤبـسـه
أوقـد عـلـيـه فـأحـمـيـه فـيـنـصـدع

وهـذان الـبـيـتـان يـدلان عـلـى الـصـلابـة لا الرخاوة.

وأما فتحها وتمصيرها فقد روى أهل الأثر عن نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وغيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يتخذ للمسلمين مصرًا، وكان المسلمون قد غزوا من قبل البحرين توّج ونوبند جان وطاسان، فلما فتحوها كتبوا إليه إنا وجدنا بطاسان مكانًا لا بأس به. فكتب إليهم: إن بيني وبينكم دجلة، لا حاجة في شيء بيني وبينه دجلة أن تتخذوه مصرًا.

ثم قدم عليه رجل من بني سدوس يقال له ثابت، فقال: يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر، وفيه مسالح للعجم يقال له الخريبة، ويسمّى أيضًا البُصيرة، بينه وبين دجلة أربعة فراسخ، له خليج بحري فيه الماء إلى أجمة قصب، فأعجب ذلك عمر، وكان قد جاءته أخبار الفتوح من ناحية الحيرة، وكان سويد بن قطبة الذهلي يغير في ناحية الخريّبة من البصرة على العجم، كما كان المثنى بن حارثة يغير بناحية الحيرة.

ولمّا بلغ عمر بن الخطاب ﷺ خبر سويد ابن قطبة وما يصنع بالبصرة رأى أن يوليها رجلاً من قبله، فولاها عتبة بن غزوان بن جابر ابن وهيب بن نسيب، أحد بني مازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة، حليف بني نوفل ابن عبد مناف، وكان من المهاجرين الأولين، أقبل في أربعين رجلاً، منهم نافع ابن الحارث بن كلدة الثقفي، وأبو بكرة، وزياد ابن أبيه، وأخت لهم، وقال له عمر: إن الحيرة قد فتحت فأت أنت ناحية البصرة وأشغل من هناك من أهل فارس والأهواز وميسان عن إمداد إخوانهم، فأتاها عتبة، وانضم إليه سويد بن قطبة في من معه من بكر بن وائل وتميم.

قال نافع بن الحارث: فلما أبصرتنا الديارية خرجوا هربًا وجئنا القصر فنزلناه.

وأمدّ عمر عتبة بهرثمة بن عرفجة، وكان بالبحرين فشهد بعض هذه الحروب، ثم سار إلى الموصل، قال: وبنى المسلمون بالبصرة سبع دساكر: اثنتين بالخريبة، واثنتين بالزابوقة، وثلاث في موضع دار الأزد اليوم، وفي رواية أنهم بنوها بلبن: في الخريبة اثنتان، وفي الأزد اثنتان، وفي الزابوقة واحدة، وفي بني تميم اثنتان، ففرق أصحابه فيها ونزل هو الخريبة.

هذا بعض ما ذكره ياقوت عن البصرة، وقد أسهب في حديثه عن وصفها، وما ورد فيها من أخبار وأشعار.

وقال البلاذري: لمّا نزل عتبة بن غزوان الخريبة كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله إياها، وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم.

فكتب إليه أن اجمع أصحابك في موضع واحد، وليكن قريبًا من الماء والمرعى، واكتب إليّ بصفته، فكتب إليه: إني وجدت أرضًا كثيرة القضبة في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع ماء فيها قصباء.

فلما قرأ الكتاب قال: هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب، وكتب إليه أن أنزلها الناس. فأنزلهم إياها، فبنوا مساكن بالقصب، وبنى عتبة مسجدًا من قصب، وذلك في سنة ١٤، فيقال إنه تولى اختطاط المسجد بيده، ويقال اختطه غيره.

وبنى عتبة دار الإمارة دون المسجد، في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدّهناء، وفيها السجن والديوان.

ثم إنّ الناس اختطوا وبنوا المنازل. وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وسقفها بالعشب، وزاد في المسجد.

ثم استرسل البلاذري في الحديث عن تمصير البصرة: دورها وقطائعها ومساجدها وأمرائها، وما مرت به من تطور في عمرانها، في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، ومن بعده من الخلفاء، ولا يتسع له هذا المقام.

قلت: كانت البصرة مدينة مزدهرة واسعة العمران، كثيرة النخيل والبساتين، ولها شهرة بمركزها العلمي والأدبي - وهي كذلك - وما زالت مدينة واسعة العمران كثيرة النخيل والبساتين، وهي ميناء مهم بالنسبة للعراق، وموقعها في جنوب العراق، ولها شهرة في هذا العهد.

والبصرة أيضًا: قال ياقوت، بل في المغرب في أقصاه قرب السوس، خربت.

قال ابن حوقل وهو يذكر مدن المغرب من بلاد الزبير: والبصرة مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالمنيع، ولها عيون خارجها عليها بساتين كثيرة، وأهلها ينسبون إلى السلامة والخير والجمال وطول القامة واعتدال الخَلق، وبينها وبين المدينة المعروفة بالأقلام أقل من مرحلة، وبينها وبين مدينة يقال لها تشمس أقل من مرحلة أيضًا.

وقال البشاري: البصرة مدينة بالمغرب كبيرة، كانت عامرة وقد خربت، وكانت جليلة، وكان قول البشاري هذا في سنة ٣٧٨هـ.

البطحاء: بباء موحدة مفتوحة بعدها طاء مهملة ساكنة ثم حاء مهملة بعدها ألف ممدودة: اسم جنس، والمقصود به في الحديث بطحاء مكة.

روى البخاري بسنده عن أبي موسى ﵁ قال: بعثني النبي ﷺ إلى قوم باليمن فجئت وهو بالبطحاء، فقال: بما أهللت؟ قلت كإهلال النبي ﷺ.

قال ياقوت: أصله المسيل الواسع فيه دقاق الحصى، وقال النضر، الأبطح والبطحاء بطن الميثاء والتلعة والوادي، وهو التراب السهل في بطونها ممّا قد جرّته السيول، يقال أتينا أبطح الوادي وبطحاء مثله، وهو ترابه وحصاه والسهل الليّن، والجمع الأباطح... على غير قياس، وبطحاء مكة وأبطحها ممدود، وكذلك بطحاء ذي الحليفة.

قلت: وممَا تقدّم يتّضح أن البطحاء اسم جنس وكذلك الأبطح، ولا يتميّز أي منها إلا بإضافته إلى عَلَم معروف، وقد تقدّم الحديث مستوفى عن ذلك في رسم (الأبطح).

وأبطح مكة وبطحاؤها لهما شهرة لشرف مكانهما، ولذلك لا يضافان غالبًا.

وقد ورد البطحاء في الأحاديث غير مضاف، غير أنه يفهم من سياق الأحاديث التي ورد فيها أن المقصود به بطحاء مكة.

قال البكري: في تحديد بطحاء مكة: هي ما حاز السيل من الردّم إلى الحنّاطين يمينًا مع البيت، وليس الصفا من البطحاء.

وروى البخاري: عن أبي موسى ﵁ قال: بعثني النبي ﷺ إلى قوم باليمن فجئت وهو بالبطحاء، فقال: بما أهللت؟ قلت أهللت كإهلال النبي ﷺ، قال: هل معك من هدي، قلت: لا، فأمرني فطفت بالبيت وبالصفا والمروة، ثم أمرني فأحللت.

قال ابن الأثير: وفي حديث عمر أنه أول من بطح المسجد، وقال: ابطحوا في الوادي المبارك، أي ألقى فيه البطحاء، وهو الحصى الصغار، وبطحاء الوادي وأبطحه: حصاه الليّن في بطن السيل.

ومنه الحديث: أنه صلى بالأبطح، يعني أبطح مكة، وهو مسيل واديها، ويجمع على البطحاء والأباطح. ومنه قيل قريش البطاح، وهم الذين ينزلون أباطح مكة وبطحاءها، وقد تكررت في الحديث.

وقال ياقوت: البِطاح بكسر أوله جمع بطحاء: وهي بِطاح مكة، يقال لقريش الداخلة البطاح، وقال ابن الأعرابي: قريش البَطاح الذين ينزلون خارج الشعب، وأكرمها قريش

البِطاح. . . وإنّما سموا بذلك؛ لأن قريشًا اقتسموا فأصابت بنو كعب بن لؤي البطحاء، وأصابت هؤلاء الظواهر. وقال أبو خالد: ذكوان مولى مالك الدار:

فلو شهدتني من قريش عصابة
قريش البِطاح لا قريش الظواهر
ولكنهم غابوا وأصبحت شاهدًا
فقبحت من مولى حفاظ وناصر

وبلغت معاوية فقال: أنا ابن سِداد البطحاء، والله إيّاي نادى.

قلت: وفيما قاله ياقوت عن ابن الأعرابي دليل على أن البطحاء هي ما بين أخشبي مكة، من واديها. انظر رسم (الأخشبين).

وقال عاتق البلادي: أشهر ما سمعت من أقوال أهل مكة في تحديدها ـ يعني بطحاء مكة ـ أنها الجزع من وادي إبراهيم بين الحجون إلى المسجد الحرام وما فوق ذلك إلى المنحنى يُسمّى الأبطح، وما أسفل من ذلك يُسمّى المسفلة، وقد أدركناها بطحاء تنغرز فيها عجلات السيارات، ثم عبّدت.

قلت: ما قاله عاتق البلادي في تحديد البطحاء يتفق مع قول ياقوت عن ابن الأعرابي: ما بين أخشبي مكة، قال حذافة العدوي يمدح بني هاشم:

هم ملؤوا البطحاء مجدًا وسؤددًا
وهم تركوا رأي السفاهة والهجر

وقد حدّد الفاكهي البطحاء بقوله: وحدّ البطحاء فيما يقال ـ والله أعلم ـ ما بين دار ابن برمك إلى سوق ساعة، فذلك يقال له: البطحاء.

وعلّق عليه محققه عبد الملك بن دهيش قائلاً: تحديد الفاكهي للبطحاء تحديد دقيق، وهو الخبير ببلده، العارف لمعالمها، وما علينا إلا أن نعرف أين يقع سوق ساعة؟ وأين موضع دار ابن برمك؟

أما دار ابن برمك ـ فابن برمك هو: جعفر ابن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي، أحد رجال الدولة العباسية في زمن الرشيد.

وداره هذه حدّد الأزرقي موقعها فقال: هي في الرباع العائدة إلى عدي ابن ربيعة ابن عبد شمس، وهي بفوهة أجياد الكبير، وكانت هذه الدار لأبي العاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت النبي ﷺ ـ وفيها بنى بزينب ابنة رسول الله ﷺ، وقد حدّد الأزرقي في موضع آخر موضع هذه الدار بين باب البقالين، وباب الخياطين، لاصقة بالمسجد الحرام.

فإذا عرفنا أن باب البقالين، وما كان يسمّى بـ (باب الحزامية) أو: باب الحزورة، ويعرف اليوم مكانه بـ (باب الوداع)، وهذا الباب فتحه المهدي موازيًا لباب بني هاشم الذي في أعلى المسجد فيما إذا جاء السيل العظيم، دخل من باب بني هاشم وخرج من باب البقالين. وأن (باب الخياطين) هو: باب إبراهيم، وما زال معروفًا موضع هذا الباب بهذا الاسم إلى اليوم، وإبراهيم هذا خياط كان يجلس عند هذا الباب فنسب إليه.

إذا عرفنا ذلك كله عرفنا دار ابن برمك، وأن هذه الدار قد صارت خرابًا في زمن الفاكهي على ما سيذكره بعد عند ذكره لرباع آل عدي ابن ربيعة بن عبد العزة بن عبد شمس.

وهذه الدار دخلت في المسجد الحرام اليوم من جهة باب الوداع وباب إبراهيم، وبذلك يتبين لنا الحد الأسفل للبطحاء.

أما سوق ساعة، فقد ذكره الأزرقي عند ذكره لرباع آل أسيد ابن أبي العيص بن أمية، حيث قال: ولهم دار الحارث، ودار الحصين

اللذان بالمعلا في سوق ساعة، عند فوهة شعب ابن عامر. ا. هـ.

وعلى ذلك فسوق ساعة: يقع في مدخل شعب ابن عامر، الذي يُسمّى اليوم شعب عامر وهذا حدّ البطحاء الأعلى.

وبذلك يتبين لنا موضع البطحاء بدقة ولله الحمد.

قلت: ما ذكره عاتق بن غيث في تحديد البطحاء فيه إجمال، وإن لم يكن بعيدًا عن الصواب، أما ما ذكره عبد الملك بن دهيش، فإن فيه تتبعًا دقيقًا لتاريخ هذه الأمكنة وتحديدًا واضحًا يربط حاضرها بماضيها، وبيانًا لما طرأ عليها من تغيرات عبر الأزمان الحالية.

بطحان: بباء موحدة مضمومة وطاء مهملة ساكنة بعدها حاء مهملة بعد الحاء ألف ونون موحدة: وادٍ بالمدينة.

روى البخاري بسنده عن جابر قال: جعل عمر يوم الخندق يسّب كفّارهم، وقال: يا رسول الله ما كدت أصلي العصر حتى غربت، قال: فنزلنا بطحان، فصلّى بعدما غربت الشمس.

قال ابن حجر: بطحان، بضم أوله وسكون ثانيه، وادٍ بالمدينة.

قال ياقوت: بطحان بالضم ثم السكون، كذا يقوله المحدّثون أجمعون، وحكى أهل اللغة: بطحان، بفتح أوله وكسر ثانيه، وكذلك قيّده أبو علي القالي في كتاب البارع، وأبو حاتم والبكري، وقال: لا يجوز غيره.

وقرأت بخط أبي الطيّب أحمد بن أخي محمد الشافعي وخطه حجّة: بطحان بفتح أوله وسكون ثانيه، وهو وادٍ بالمدينة، وهو أحد أوديتها الثلاثة، وهي: العقيق، وبطحان، وقناة، قاله غير واحد من أهل السيّر.

لما قدم اليهود المدينة نزلوا السافلة فاستوخموها فأتوا العالية فنزل بنو النضير بطحان، ونزلت بنو قريظة مهزورًا، وهما واديان يهبطان من حرّة هناك تنصب منها مياه عذبة، فاتخذ بها بنو النضير الحدائق والآطام، وأقاموا بها إلى أن غزاهم النبي ﷺ وأخرجهم منها... قال الشاعر وهو يقوي رواية من سكّن الطاء:

أبا سعيد لم أزل بعدكم
في كرب للشوق تغشاني
كم مجلس ولي بلذاته
لم يهنني إذ غاب ندماني
سقياً لسلع ولساحاتها
والعيش في أكناف بطحان
أمسيت من شوقي إلى أهلها
أدفع أحزانًا بأحزان

وقال ابن مقبل في قول من كسر الطاء:

عفى بطحان من سليمى فيثرب
فملقى الرّحال من منى فالمحصّب

قال البكري: بطحان: بفتح أوله وكسر ثانيه، وبالحاء المهملة على وزن فعلان، لا يجوز غيره.

وقال ابن مقبل يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:

عفى بطحان من قريش فيثرب
فملقى الرّحال من منى فالمحصّب

وروى الحربي من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وواديها بطحان نجل تجتزئ عليه الإبل: نجل أي: واسع، فيه ماء ظاهر. يقال استنجل الوادي، واستنجلت الأرض: إذا خرج منها الماء. وفي حديث أبي موسى قال: كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولاً في بقيع بطحان، والنبي ﷺ

بالمدينة، فكان يتناوب كل ليلة عند الصلاة نفر منّا . . .

ومن حديث بكر بن مبشر الأنصاري، قال: كنت أغدو مع أصحاب رسول الله ﷺ إلى المصلى يوم الفطر ويوم الأضحى، فنسلك بطن بطحان حتى نأتي المصلى، فنصلي مع رسول الله ﷺ، ثم نرجع من بطن بطحان إلى بيوتنا.

وفي المغانم المطابة أورد المجد: ملخصًا لما قاله ياقوت، وزاد: روى الزبير بن بكار بسنده عن عروة بن الزبير قال، قال: رسول الله ﷺ، بطحان على ترعة من ترع الجنة.

قلت: وفيما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، قالت: فكان بطحان يجري نجلاً، تعني: ماء آجناً.

قال السمهودي: روى ابن شبة والبزار عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بطحان على ترعة من ترع الجنة، قال ابن شبة: وأما سيل بطحان ـ وهو الوادي المتوسط بيوت المدينة، أي في زمنه ـ فإنه يأخذ من ذي الحدر، والحدر قرارة في الحرة العليا حرّة معصم، وهو سيل يفترش في الحرة حتى يصب على شرقي ابن الزبير وعلى جفاف ومرفية والحساة، حتى يفضي إلى فَضاء بني خطمة والأعرس، ثم يستن حتى يرد الجسر، ثم يستبطن وادي بطحان حتى يصب في زغابة[١].

وفي رواية ابن زبالة: أن بطحان يأتي من الحلابين حلابي مصعب على سبعة أميال من المدينة أو نحو ذلك، وفي رواية له أن بطحان يأتي من صدر جفاف. فيتلخص أنه يأتي من الحلابين فيصل أولاً إلى وادي جفاف، ثم إلى بطحان، ولهذا استغنى ابن زبالة وغيره ببطحان عن إفراد جفاف بالذكر، وجعل المطرى ومن تبعه الترجمة لجفاف، قالوا: ووادي جفاف على موضع في العوالي شرقي مسجد قباء، ا. هـ.

ويفهم من أطراف كلام ابن شبّة أن ابتداء وادي بطحان من جسر بطحان، وذلك بقرب الماجشونية وآخره في غربي مساجد الفتح، ويشاركه رانونا في المجرى من الموضع الذي في غربي المصلى وما والاه من القبلة؛ لأنها تصب فيه، والذي يقتضيه كلام غيره أن الماجشونية وتربة صعيب من بطحان.

وقال عبد القدوس الأنصاري: يطلق اسم بطحان اليوم على كل ما هو بغربي مسجد المصلى من المدينة إلى الحرة الغربية، وفي هذا الإطلاق شيء كبير من المجاز . . . إذ إن حقيقة المسمى ببطحان لا يعدو هذا المسيل، ابتداءً من قرب حديقة الماجشونية المعروفة بالمدشونية إلى غربي مسجد الفتح.

فبطحان عَلَم وضع لهذا المسيل في حدوده المذكورة فحسب، ولا دخل لهذا الاسم فيما جاور المسيل من البقاع.

وربما يكون منشأ هذه التسمية ملاحظة ما في مسماها من البطحاء، وقد نزع اسم بطحان عن هذا المسيل في العرب في الحاضر، وخلع عليه اسم (أبي جيدة). كان ذلك منذ زمن غير موغل في القدم. ولا نعرف ما هو أبو جيدة، ولا المغزى منه، اللهم إلا أن يكون أحد من تملكوا حديقة في أعالي الوادي فيما سلف.

---

(١) زغابة: ملتقى أودية المدينة، ومجمع سيولها.

ويتيامن سكان المدينة بقدوم سيل أبي جيدة. ولعل السبب في ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها من أن رسول الله ﷺ قال: «إن بطحان على ترعة من ترع الجنة».

ويصدر بطحان من ذي حدر، فجفاف، وهي قرية قربان، ثم يسيل في فضاء متسع ويستبطن بعده وادي بطحان، ويذهب حتى غربي مسجد الفتح، حيث منتهى وادي بطحان، ثم يسير إلى زغابة.

وتحدث عبد القدوس الأنصاري أيضًا عن أودية المدينة حديثًا مجملاً فقال: تكتنف المدينة أودية سيول ستة:

١ ـ وادي العقيق: (في ضاحيتها الغربية).

٢ ـ وادي رانونا: (في ضاحيتها الغربية).

٣ ـ وادي بطحان: (في ضاحيتها الجنوبية).

٤ ـ وادي مذينيب: (في ضاحيتها الجنوبية الشرقية).

٥ ـ وادي مهزور: (في ضاحيتها الشرقية).

٦ ـ وادي قناة: (في ضاحيتها الشمالية الشرقية).

ويسيل العقيق ووادي قناة من خارج المدينة، والسيول الأربعة الباقية تجتمع في وادي بطحان من جنوب المدينة، وتسير ممتزجة حتى تدخل المدينة من الأبواب الحديدية المعمولة لها قديمًا تحت باب قباء بشرقيه، وتشق الأودية الأربعة المدينة ممتزجة، إلى الشمال، في المسيل المعروف بأبي جيدة، حتى تخرج من باب البرابيخ وتفيض في صفاصف إلى أن تبلغ سفح سلع، ثم تفضي إلى زغابة، حيث تجتمع بسيلي العقيق ووادي قناة[١].

وقال الشنقيطي: ومما يوجد من معالم المدينة في جهة قباء وادي بطحان أحد أودية المدينة الرئيسة.. ويقع جنوبي قباء إلى الشرق، وبين قباء وبين صدر بطحان توجد العين الزرقاء. وقد شيدّت المملكة العربية السعودية على وادي بطحان سدًا عظيمًا يتكون من ثلاثة سدود متصلة ببعضها، وهو من نوع السدود الحديثة، وهذا السد أقيم في موضع سد قديم أقامه سكان المدينة عصرًا بعد عصر من لدن العمالقة حتى العصور الإسلامية الأولى، وطريق السد من قباء نحو الحزام حتى مثلث قربان ثم الطريق اليميني، وهو طريق مسفلت يمر بحصن كعب بن الأشرف، وينتهي في سد بطحان، ويسمى بطحان الآن بالسيح في وسط المدينة[٢].

قلت: ومما تقدم من أقوال العلماء في تحديد وادي بطحان ووصفه تتبين لنا معالمه الجغرافية ومدافعه من بدايته من الحرة جنوب المدينة إلى التقائه بوادي رانونا، ثم إلى مدفعه في بطن زغابة والتقائه بوادي العقيق، وكذلك معرفة ما وقع فيه من تغيرات في معالمه بإقامة السدود الحديثة والطرق، وما جرى على اسمه من تغيير، كتسميته (بأبي جيدة)، وتسميته (بالسيح) هذا هو وادي بطحان المشهور في المدينة.

وذكر محمد العقيلي في منطقة جازان ثلاثة مواضع تسمى بهذا الاسم، فقال[٣]:

---

(١) آثار المدينة المنورة، رقم ٢١٧.

(٢) الدر الثمين رقم ١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) المعجم الجغرافي: مقاطعة جازان.

بطحان: بفتح الباء وسكون الطاء المهملة، قرية قرب (البزّة) من أعمال العارضة.
بطحان: بضم الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة، بقعة في جبل الصهاليل من أعمال هروب.
بطحان: ويسمى أيضًا (البطح) و(بطحان) على اسم سابقه، بقعة في الشمال الغربي جبل (فدّه) من جبال بلاد قيس.
وقال ياقوت: قال أبو زياد: بطحان من مياه الضباب، قلت: بلاد الضباب واقعة في وسط نجد، ولا يعرف فيها اليوم موضع بهذا الاسم.

بطن مكة: بباء موحدة مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وآخره نون معجمة، ومكة مضاف إليه: موضع في مكة.
قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٤].

وروى البخاري بسنده عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل حجّ البيت، فرأى قومًا جلوسًا فقال: من هؤلاء القعود؟ قال: هؤلاء قريش قال من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر فأتاه فقال: إنّي سائلك عن شيء أتحدّثني قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان ابن عفّان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم فتعلم تغيّبه عن بدر فلم يشهدها قال: نعم، قال: فتعلم أنّه تخلّف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها قال: نعم فكبّر، قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبيّن لك عمّا سألتني عنه أمّا فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأمّا تغيّبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له النبي ﷺ: «إن لك أجر رجل ممّن شهد بدرًا وسهمه» وأمّا تغيّبه عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحد أعزّ ببطن مكة من عثمان بن عفّان لبعثه مكانه؛ فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال النبي ﷺ: «ليده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان اذهب بهذا الآن معك».

قال ابن جرير: يقول ﷻ ذكره لرسول ﷺ، والذين بايعوه بيعة الرضوان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ يعني أن الله كفّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ يلتمسون غرّتهم ليصيبوا منهم، ما بعث رسول الله ﷺ ومنّ عليهم ولم يقتلهم، فقال الله للمؤمنين: وهو الذي كفّ أيدي هؤلاء المشركين، وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم.
روى بسنده عن عبد الله بن مغفّل أن رسول الله ﷺ كان جالسًا في أصل شجرة بالحديبية، وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة فرفعتها عن ظهره، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه، وسهيل بن عمرو، وهو صاحب المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «لعليّ اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم»، فأمسك سهيل بيده، فقال: ما نعرف الرحمٰن اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» فكتب فقال: «هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة» فأمسك سهيل بيده، فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولاً، اكتب في قضيتّنا ما نعرف. قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب وأنا رسول الله» فخرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا؛ فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: (هل خرجتم في أمان

أحد؟) قال: فخلّى عنهم، قال: فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٤].

وروى بسنده عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

وروى الفاكهي: بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه ـ قال: لما كان يوم الحديبية، نزل على رسول الله ﷺ، ثمانون رجلاً من التنعيم من أهل مكة في سلاحهم، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذوا سلمًا. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ قال: يعني أن جبل التنعيم من مكة.

وقال الفاكهي: وبكة: الوادي الذي به الكعبة، وبطن مكة سائر الوادي مكة: فمن ذلك المربع ـ حائط ابن بومك ـ هلمّ جرّاء.

وفخ وهو أعظمها وصدره شعب بني عبد الله ابن خالد بن أسيد[1].

وقال أيضًا: بطن مكة مما يلي ذا طوى ما بين الثنية البيضاء التي تسلك إلى التنعيم، إلى ثنية الحصحاص التي بين ذي طوى وبين الحصحاص.

قال المحقق: الثنية البيضاء هي الثنية التي تؤدّي بك إلى التنعيم، بينها وبين مسجد عائشة ما يقارب الكيلو الواحد.

وثنية الحصحاص: هو المربع الذي على يمينك وأنت متوجّه إلى الشهداء بعد أن تجعل ريع الكحل في ظهرك، وهذا الريع يهبط بك إلى اللصوص قادمًا من الشهداء، ويقع هذا الريع في جبل الحصحاص، بل إن جبل الحصحاص ينحصر بين ريع الكحل وريع الحصحاص هذا.

فهذه الفسحة العريضة وما تضم من حيّ الزهراء والشهداء كلها بطن مكة.

وقال الأزرقي: بطن مكة مما يلي ذا طوى ما بين الثنية البيضاء التي تسلك إلى التنعيم إلى ثنية الحصحاص التي بين ذي طوى وبين الحصحاص.

وقال محقّقة: بطن مكة هو وادي الزهراء أو الشهداء.

وفي شعر كعب بن زهير رضي الله عنه:

إن الرسول لسيف يستضاء به
مهنّد من سيوف اللّه مسلول

ويروى: إن الرسول لنور يستضاء به.

في فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لمّا أسلموا زولوا

ويروى: في عصبة من قريش.

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عن اللقاء ولا ميل معازيل

وقال عبد الله بن الزبعري في وقعة الفيل لمكة:

تنكّلوا عن بطن مكّة أنها
كانت قديمًا لا يرام حريمها

وقال أميّة بن أبي الصلّت في رثاء من أصيب من قريش يوم بدر:

ألا ترون لما أرى
ولقد أبان لكلّ لامح

---

(١) فخ هو الذي أصبح يدعى: الزهراء.

أن قـد تـغـيّـر بـطـن مـكـ
ـة فـهـي مـوحـشـة الأبـاطـح
مـن كـلّ بـطـريـق لـبـطـر
يـق نـقـيِّ الـقـول واضـح

بَطْنُ الوادي: بباء موحدة مفتوحة وطاء مهملة ساكنة، آخره نون موحدة، مضافًا إلى الوادي، المقصود به بطن الوادي الذي يلي جمرة العقبة.

روى البخاري عن عبد الرحمٰن بن يزيد أنه كان مع ابن مسعود رضي الله عنه، حين رمى جمرة العقبة، فاستبطن الوادي.

ومن هذا الحديث يتبين أن المقصود هو بطن الوادي مما يلي جمرة العقبة.

قال ابن حجر: إن التي تُرمى من بطن الوادي هي جمرة العقبة لكونها عند الوادي بخلاف الجمرتين الأخريين.

وقد عرّف ياقوت بطن الوادي فقال: بُطْنان الأودية بالضم ثم السكون ونونان بينهما ألف.. المواضع التي يستريض فيها الماء، ماء السيل فيكثر نباتها، واحدها بطن عن أبي منصور.

أما الجمرة فإنها معروفة وقد تحدث عنها العلماء من حيث تحديد موقعها وما يتعلق بها من أحكام وهي واقعة في منى المعروف، قال ياقوت والجمرة: موضع رمي الجمار بمنى، وسُمّيت جمرة العقبة والجمرة الكبرى؛ لأنه يرمى بها يوم النحر، قال الداودي: وجمرة العقبة في آخر منى مما يلي مكة وليست العقبة التي نسبت إليها الجمرة من منى، والجمرة الأولى والوسطى هما جميعًا فوق مسجد الخيف مما يلي مكة.

قلت: وبهذا القدر أكتفى في الحديث عن بطن الوادي لأن هذا الموضع له شهرة عند المسلمين تُغني عن الإطالة في الحديث عنه.

وقد أدركت هذا الوادي، وأرضه بطحاء، وكان ذلك في حجتي الأولى سنة ١٣٦١هـ.

بُعَاث: بضم الباء الموحدة وعين مهملة بعدها ألف وآخره ثاء مثلثة: موضع في بني قريظة في المدينة.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يوم بعاث يومًا قدّمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم وجرحوا. فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام.

قال ابن حجر: بعاث: بضم الموحدة وتخفيف المهملة وآخره مثلثة. وحكى العكسري أن بعضهم رواه عن الخليل ابن أحمد وصحّفه بالغين المعجمة.

وذكر الأزهري أن الذي صحّف الليث الراوي عن الخليل، وحكى القزاز في الجامع أنه يقال بفتح أوله أيضًا، وذكر عياض أن الأصيلي رواه بالوجهين أي بالعين المهملة والمعجمة، وأن الذي وقع في رواية أبي ذر بالغين المعجمة وجهًا واحدًا.

ويقال: إن أبا عبيدة ذكره بالمعجمة أيضًا، وهو مكان، ويقال حصن وقيل مزرعة ـ عند بني قريظة على ميلين من المدينة، كانت به وقعة بين الأوس والخزرج فقتل فيها كثير منهم.

وكان رئيس الأوس فيه حضير والد أسيد ابن حضير، وكان يقال له حضير الكتائب وبه قتل.

وكان رئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي فقتل فيها أيضًا، وكان النصر فيها

أولاً للخزرج ثم ثبتهم حضير فرجعوا وانتصرت الأوس، وجرح حضير يومئذ فمات فيها.

وذلك قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بأربع وقيل بأكثر والأول أصح.

قال ياقوت: بعاث بالضم، وآخره ثاء مثلثة: موضع في نواحي المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وحكاه صاحب كتاب العين بالغين المعجمة، ولم يسمع في غيره وقال أبو أحمد السكري: هو تصحيف، وقال صاحب كتاب المطالع والمشارق: بعاث، بضم أوله وعين مهملة، وهو المشهور فيه وروى صاحب كتاب العين بالغين وقيده الأصيلي بالوجهين، وهو عند القابسي بغين معجمة وآخره ثاء مثلثة بلا خلاف، وهو موضع من المدينة على ليلتين وقال قيس بن الخطيم:

ويوم بعاث أسلمتنا سيوفنا
إلى نسب من جذم غسان ثاقب

وكان الرئيس في بعض حروب بعاث حضير الكتائب أبو أسيد بن حضير، فقال خفاف ابن نَدْبة يرثي حضيرًا وكان قد مات من جراحه:

فلو كان حيّ ناجيًا من حِمامه
لكان حضير يوم أغلق واقما

أطاف به حتى إذا الليل جنّه
تبوأ منه منزلاً متناعما

وقال بعضهم: بعاث من أموال بني قريظة، فيها مزرعة يقال لها قورًا، قال كثير عزة ابن عبد الرحمٰن:

كأن حدائج أظعاننا
بغيقة لما هبطن البراثا

نواعم عمّ على ميثب
عظام الجذوع أحلت بعاثا

كدهم الركاب بأثقالها
غدت من سماهيج أو من جواثا

وقال آخر:

أرقت فلم تنم عيني حثاثا
ولم أهجع بها إلا امتلاثا

فإن يك بالحجاز هوى دعاني
وأرقني ببطن منى ثلاثا

فلا أنس العراق وساكنيه
ولو جاوزت سلعًا أو بعاثا

وقال البكري بعاث: بضم أوله وبالثاء المثلثة: موضع على ليلتين من المدينة وفيه كانت الوقيعة واليوم المنسوب إليه من الأوس والخزرج.

وفي المغانم المطابة: أورد المجد كل ما ذكره ياقوت ولم يزد عليه.

وتحدث السمهودي عن عياض وأورد الأقوال المتقدمة في ضبطه ثم قال: وهو مكان، ويقال: حصن، ويقال: مزرعة عند بني قريظة على ميلين من المدينة، وقال الزركشي: وهو حصن للأوس، وقال بعضهم: هو من أموال بني قريظة، به مزرعة يقال لها قورًا، وقال رزين: موضع عند أهل القورا، قال: لعله تصحيف قورى.

قال قيس بن الخطيم:

ونحن هزمنا جمعهم بكتيبة
تضاءل منها حرز قورى وقاعها

تركنا بعاثًا يوم ذلك منهم
وقورى على رغم شباعًا سباعها

وقال كثير:

كأن حدائج أظعاننا
بغيقة لما هبطنا البراثا

نواعم عمّ على ميثب
عظام الجذوع أحلت بعاثا

وميثب: حائط مجاور للدلال والصافية، وأسفل الدلال نخل يُسمّى قوران، الظاهر أنه قوري، فبُعاث بتلك الجهة، ويشهد له ما نقل ابن إسحاق عن محمد بن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف، قال: فخرجنا ـ يعني بعد قتله ـ حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بُعاث، حتى أسندنا في حرة العريض، وبه يُعلم ضعف قول عياض ومن تبعه: إنه موضع على ليلتين من المدينة.

قلت وقد دلت أقوال العلماء السابقة على أن موقع (بعاث) كان قريبًا من منازل بني قريظة، وقد أفاد الشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي أن منازل بني قريظة كانت بالعالية فقال: وخرجت بنو قريظة وإخوانهم فنزلوا بالعالية على واديي، مذينيب ومهزور، فنزلت بنو النضير على مذينيب واتخذوا عليه الأموال، وكانوا أول من احتفر بها الآبار وغرس الأموال[(١)].

وقال عبد القدوس الأنصاري في تحديد منابع واديي مذينيب ومهزور، وادي مذينيب: تتبعنا مجراه فإذا هو آت من شرق حصن كعب ابن الأشرف. وبالقرب من الحصن يشكل نصف دائرة في وسطها الحصن، ثم يفيض في مسيله شمال أم أربع فأم عشر، ولا يزال سائرًا حتى يختلط بوادي بطحان في مبدئه، وعلى هذا الوادي كانت منازل بني النضير... وذكر أن حصن كعب بن الأشرف ما زال باقية أطلاله.

أما وادي مهزور فإنه يصدر عن حرّة واقم.. قال ابن شبة إنه يأخذ من شرق هذه الحرّة ومن هكر: ـ موضع ماء على أربعين ميلاً من المدينة ـ ومن حرّة صفة حتى يأتي أعلى حلاءة بني قريظة، وهناك ينقسم إلي شعبتين تختلط إحداهما بوادي مذينيب، وتذهب الأخرى حتى تتصل بمذينيب بفضاء بني خطمة، ثم يجتمع مذينيب ومهزور[(٢)].

وقال الشنقيطي: تعتبر الحرّة الشرقية معلمًا بينًا وقديمًا من معالم المدينة، ورد في التوراة أنها مهاجر نبي آخر الزمان، ولذلك نزل بها اليهود ـ قينقاع والنضير وقريظة انتظارًا له.

وتقع منازل اليهود في وسط الحرّة الشرقية؛ لأنها تحصينات طبيعية لكثرة غدرهم وزرعهم الشرور وإذكائهم الحروب فلا يسكنون إلا في قرى محصنّة.

أما الحرّة الشرقية اليوم فهي مدينة مزدهرة بالفلل والقصور والحدائق والطرق والميادين والمراكز الحيوية للأمن والصحة والتعليم والأفراد والمطاعم والأسواق ومحطات الوقود وقصور الأفراح، وذلك نتيجة للأمن والرخاء الذي تنعم به هذه البلاد في ظل المملكة العربية السعودية[(٣)].

قلت: وبهذا يتبين موقع بعاث الذي وقعت فيه الحرب بين الأوس والخزرج ومنازل بني قريظة التي ينسب إليها موضع بعاث، من الحرّة الشرقية على وادي مهزور.

البَقِيْعُ: بباء موحدة مفتوحة بعدها قاف مثناة بعد القاف ياء مثناة ساكنة وآخره عين مهملة: موضع بالمدينة وهو مقبرة أهل المدينة.

روى البخاري عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها أوصت عبد الله بن الزبير، لا

(١) عمدة الأخبار في مدينة المختار ٢١.

(٢) آثار المدينة ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٣) الدر الثمين، ١٣٨ ـ ١٣٩.

تدفني معهم وادفني مع صواحبي بالبقيع لا أُزكّى به أبدًا.

وقال ياقوت: وأصل البقيع في اللغة الموضع الذي به أروم الشجر من ضروب شتى.

قلتُ: والبقيع اسم لعدة مواضع قريبة من المدينة وكلها تُذكَر مضافة للتمييز بينها، وإذا ورد البقيع غير مضاف فإنما يراد به بقيع الغرقد الذي هو مقبرة أهل المدينة فإنه يذكر تارة مضافًا وتارة غير مضاف، وذلك لشهرته. وسيأتي الحديث عنه مستوفى في رسم(بقيع الغرقد) إن شاء الله، فانظره.

بَقَيْعُ بُطْحان: بفتح أوله وسكون الياء المثناة وآخره عين مهملة، وبُطْحان واد سبق الحديث عنه في رسمه وهو موضع في المدينة.

روى البخاري عن أبي موسى قال كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولاً في بقيع بُطْحان والنبي ﷺ بالمدينة.

قال ابن حجر: بَقيع بُطْحان بفتح الموحدة من بقيع وضمها من بطحان، ولم يزد عليه.

وقال السمهودي: بقيع بطحان ـ مضاف إلى وادي بطحان، وفي الصحيح عن أبي موسى: كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في بَقيع بُطحان[١].

وذكره حمد الجاسر وقال: ورد ذكره في صحيح البخاري، وبطحان أشهر أودية المدينة ولا يزال معروفًا[٢].

قلتُ: سبق تعريف البقيع في رسمه وسبق الحديث عن وادي بطحان مستوفى في رسمه، فانظره.

بَقِيْع الغَرْقَد: تقدم ضبط البقيع، والغَرقد بغين معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة بعدها قاف مثناة مفتوحة وآخره دال مهملة، موضع في المدينة، وهو مقبرة أهل المدينة.

روى البخاري عن علي رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة.

قال ياقوت: الغرقد بالغين المعجمة وأصل البقيع في اللغة: الموضع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سمي بقيع الغرقد، والغرقد: كبار العوسج، قال الراجز:

ألفن ضالاً ناعمًا وغرقدًا

وقال الخطيم العكلي:

أواعس في برث من الأرض طيب
وأودية ينبتن سدرًا وغرقدا

وهو مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة... وقال الزبير أعلى أودية العقيق البقيع وأنشد لأبي قطيفة:

ليت شعري وأين مني ليت
أعلى العهد يلبن فبرام
أم كعهدي العقيق أم غيرته
بعدي الحادثات والأيام

قلت: قوله عن الزبير أعلى أودية العقيق البقيع فيه خلط بين البقيع الذي هو بالباء الموحدة وبين النقيع الذي هو بالنون الموحدة، ومعروف أن البقيع هو مقبرة أهل المدينة داخل المدينة، وأن النقيع بالنون الموحدة موضع خارج المدينة حماه النبي ﷺ لخيله.

---

(١) وفاء الوفاء، ١١٥٢.

(٢) العرب، ٦/٥٥٦.

وقد وقع في هذا الالتباس غير واحد من المؤرخين بسبب تقارب الاسمين وسيأتي الحديث عن النقيع بالنون الموحدة مفصلاً في رسمه إن شاء الله.

وقال البكري: البقيع: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وعين مهملة: هو بقيع الغرقد، مقبرة المدينة. قال الأصمعي: قطعت غرقدات في هذا الموضع، حين دُفن فيه عثمان بن مضعون، فسمى بقيع الغرقد لهذا.

وقال الخليل: البقيع من الأرض، موضع فيه أروم الشجر، وبه سُمي بقيع الغرقد، شجر كان ينبت هناك.

وفي المغانم المطابة قال المجد: أصل البقيع في اللغة: كل مكان فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سُمي بقيع الغَرقد، والغرقد كبار العوسج. وهو مقبرة أهل المدينة، وكان داخل المدينة، واليوم خارج عن السور.

وقال عمرو بن النعمان البياضي يرثي قومه، وكانوا دخلوا حديقة من حدائقهم في بعض حروبهم، وأغلقوا بابها عليهم ثم اقتتلوا، فلم يفتح الباب حتى قتل بعضهم بعضًا:

خلت الديار فسدت غير مُسوّد
ومن العناء تفرّدي بالسّؤدد
أين الذين عهدتهم في غبطة
بين العقيق، إلى بقيع الغرقد
كانت لهم نهاب كل قبيلة
وسلاح كل مذرب مستنجد
نفس الفداء لفتية من عامر
شربوا المنية في مقام أنكد
قوم هموا سفكوا دماء سراتهم
بعضًا ببعض فعل من لم يرشد
يا للرجال لعثرة من دهرهم
تركت منازلهم كأن لم تعهد

ونسبه الحمامي إلى رجل من خثعم.

وقال الزبير بن بكّار: أعلى أودية العقيق: البقيع، هكذا قاله ياقوت، في باب الباء وهو خطأ، والصواب: النقيع: بالنون، وتصحف على ياقوت، والذي ذكره الزبير بالنون، وأنشد لأبي قطيفة عمرو بن الوليد، وكان عبد الله بن الزبير قد نفاه من المدينة في من نفاه من بني أمية، فلحق بالشام، فقال يتشوق إلى المدينة:

ليت شعري وأين مني ليت
أعلى العهد يلبن فبرام
أم كعهدي البقيع أم غيرته
بعدي الحادثات والأيام
منزل كنت أشتهي أن أراه
ما إليه لمن بحمص مرام
وحيّ بين العريض وسَلع
حيث أرسى عموده الإسلام
كان أشهى إليّ قرب جِوار
من نصارى، في دورها الأصنام
يضربون الناقوس في كلّ فجر
ببلاد تنتابها الأسقام
وبقومي بدّلت عكّا ولخما
وجذامًا، وأين مني جذام
وتبدّلت من منازل قومي
والقصور التي بها الآطام
كل قصر مشيّد ذي أواس
تتغنى على ذراه الحمام
أقْرِ مني السلام إن جئت قومي
وقليل لهم لدي السلام
أقطع الليل كله باكتئاب
وزفير فما أكاد أنام
نحو قومي إذ فرقت بيننا الدا
ر وحادت عن قصدها الأحلام
خشية أن يصيبهم عنت الدهـ
ر وحرب يشيب منها الغلام

ولقد حان أن يكون لهذا البعـ
ـد عنّا تباعد وانصرام

فبلغ عبد الله بن الزبير شعره فقال: حنّ أبو قطيفة، ألا مَنْ رآه فليبلغه أني قد أمنته فليرجع فمات قبل أن يبلغ المدينة. اهـ.

قلت: وبهذا استدرك الفيروز أبادى ما وقع فيه ياقوت من التصحيف فيما نقله عن الزبير ابن بكّار، وفي شعر أبي قطيفة عمرو بن الوليد.

وتحدث السمهودي عن بقيع الغرقد فقال: بقيع الغرقد ـ هو كبار العوسج، كان نابتًا بالبقيع، مقبرة أهل المدينة، فقطع عند اتخاذها مقبرة، والبقيع: كل موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ثم أورد خمسة أبيات من شعر عمرو بن النعمان البياضي، ولم يزد عليه.

وكان قد تحدث حديثًا مسهبًا عن فضل البقيع وعن قبور الذين دفنوا فيه من الصحابة وأهل البيت والمشاهد المعروفة بالمدينة.

وتحدث عبد القدوس الأنصاري عن البقيع وقال في حديثه: والبقيع هو مقبرة أهل المدينة الوحيدة، منذ عصر الرسالة إلى اليوم، دفن فيه ما يقرب من عشرة آلاف صحابي وصحابية، ودفن به أمهات المؤمنين وأبناء النبي ﷺ وبناته، ومن أجل الصحابة المدفونين به: الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وفيه من التابعين: نافع شيخ الإمام مالك ابن أنس، ومن تابعي التابعين: مالك بن أنس وغيرهما.

والبقيع عبارة عن بقعة مستطيلة بشرقي المدينة خارج سورها. قريبة من باب الجمعة، وطولها ١٥٠ مترًا في عرض ١٠٠ متر، وهو مسوّر من جميع النواحي، وعلى بابه كتابة تدل على أن هذا التسوير من آثار دولة بني عثمان.

هذا وقد رمم سور البقيع في عهد الدولة السعودية، وكانت بجانبه من الناحية الشمالية ملتصقة به أرض تابعة لوقف عثمان بن عفان التابع للمغاربة، أخذها مكتب مشروع التوسعة لتبقى سوحًا وقد أحاطتها إدارة أوقاف المدينة بسياج حديدي لصونها.. وتقع بعدها مباشرة إلى الشمال أرض كبيرة كانت ملكًا للأشراف وقد امتلكها بالشراء منهم الأستاذ عبد الحق نقشبندي، ثم أخذت منه بتعويض مالي وسجلت وقفيتها على مصالح المسجد النبوي وهي باقية سوحًا، كما كانت تعلوها أكوام عالية ومزمنة من قمائم البلد فأزيلت منها القمائم المتراكمة عليها وبذلك زادت مساحة البقيع كثيرًا عما كانت عليه في العهود السابقة[1].

وقال الشنقيطي: البقيع، أصبحت هذه اللفظة علمًا بالغلبة على مقبرة المدينة المنورة، والتي تقع شرقي المسجد النبوي، وكان يفصلها عنه حي كبير يدعى في عصرنا (حارة الأغوات) وهم خدام الحرم، ومعظم هذا الحي أوقاف، وقد أزيل هذا الحي لتوسعة الحرم النبوي الشريف وميادينه، وبإزالته أصبح لا شيء يحول بين الحرم وبين البقيع وذلك عام ١٤٠٥هـ وأصبح المار في شارع أبي ذر يرى الحرم النبوي في غاية الجمال ولا يكدر نظره شيء من تلك المباني العتيقة[2].

---

(١) آثار المدينة، ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) الدر الثمين، ١١٠.

قلت: ومما سبق نستخلص أهم ما ورد فيه من أمور وهي:

أولاً: معرفة البيئة الجغرافية لهذه البقعة، ولماذا سُمّيت ببقيع الغرقد، وموقعها من المدينة.

ثانيًا: أن بقيع الغرقد سمي بهذا الاسم منذ اتخذ مقبرة في عهد النبي ﷺ.

ثالثًا: أن بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة منذ عهد النبي ﷺ وما زال إلى هذا العهد.

رابعًا: أنه يضم عددًا كبيرًا من قبور الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وقبور زوجات النبي ﷺ وأبنائه وبناته.

خامسًا: معرفة التوسعة الكبيرة التي أضيفت إلى مساحته في عهد الدولة السعودية القائمة.

سادسًا: إقامة إدارة لتنظيم الدفن فيه والإشراف عليه.

بلدح: بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الدال المهملة وآخره حاء مهملة: واد في غربي مكة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدّمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.

قال ابن حجر: بلدح: هو مكان في طريق التنعيم، بفتح الموحدة والمهملة بينهما لام ساكنة وآخره مهملة، ويقال: هو واد.

قال البكري: بلدح بفتح أوله وبالدال والحاء المهملتين: واد عند الجراحية في طريق التنعيم إلى مكة.

وقال ياقوت: بلدح: آخره حاء مهملة، والدال قبله، كذا يقال: بلدح الرجل إذا ضرب بنفسه الأرض، وربما قالوا بلطح، وبلدح الرجل إذا أعيا وإذا وعد ولم ينجز. وبلدح: واد قبل مكة من جهة المغرب، قال ابن قيس الرقيّات:

فمنى فالجمار من عبد شمس
مقفرات فبلدح فحراء

قال الأزرقي: فخ الوادي الذي بأصل الثنية البيضاء إلى بلدح، الوادي الذي تطؤه في طريق جدة على يسار ذي طوى.

قال محقّقه: وبلدح واد بين فخ والحديبية، والحديبية واقعة في آخر بلدح ا. هـ.

وتحدّث الفاكهي عن الحوائط التي أقيمت في فخّ وفي بلدح، فقال: ومنها حائط بلدح وهو قائم إلى اليوم.

قال محققه: وبلدح واد واسع طويل، يبدأ من نهاية حي الشهداء وينتهي بالحديبية (الشميسي) وأشهر حوائطه هي الحوائط التي لا زالت قائمة إلى اليوم في أم الدود (أم الجود، اليوم) وبستان القزّاز، وبستان أم الدود.

قال الفاكهي: وفي بلدح يقول الشاعر:

وبالمنحنى ذي السرح من بطن بلدح
إلى بئر بكار قواء بسابس

وقال آخر:

حبّذا ماء بلدح
وهوى فيه نازله

وقال الفاكهي: وفخ وبيوت سراج والبرود وبلدح، وهذا كله قريب بعضه من بعض، يقال لذلك كله: بطن مكة.

قال الشاعر:

إلى الصفح من مفضى البرود وبلدح
إلى وادي الحصحاص حين يدعثر

وقال المحقق: وعند ملتقى أذاخر الشامي بشعب بني عبد الله، يسمى الوادي فخا إلى أن يصل إلى الثنية البيضاء، فيطلق عليه بعد الثنية البيضاء بلدح ويقال له اليوم الزاهر، فإذا تجاوز الزاهر أطلق عليه أم الدود، وعلى ذلك: ففخ تطؤه وأنت ذاهب إلى المدينة، وبلدح تطؤه وأنت ذاهب إلى جدة.

قلت: وذكر الواقدي أن قريشًا لما خرجوا لصدّ النبي ﷺ عن مكة في عمرة الحديبية، قد ثبتوا له في بلدح، قال وقدموا خالد بن الوليد في الخيل، ووضعوا العيون على الجبال حتى انتهوا إلى جبل يقال له: وزر وزغ، كانت عيونهم عشرة رجال قام عليهم الحكم ابن عبد مناف، يوحي بعضهم إلى بعض الصوت الخفي: فعل محمد كذا وكذا، حتى ينتهي ذلك إلى قريش ببلدح، قد خرجت قريش إلى بلدح فضربوا بها القباب والأبنية وخرجوا بالنساء والصبيان فعسكروا هناك.

وذكر أن عثمان بن عفان حين بعثه النبي ﷺ إلى قريش من الحديبية أتاهم وهم في بلدح قال: فخرج عثمان حتى أتى بلدح فوجد قريشًا هنالك فقالوا: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إليكم وقال: منهم من لقي ببلدح ومنهم من لقي بمكة.

قلت: ومما ذكره الواقدي وغيره يتبين أن بلدح واد قريب من الحديبية مواجه لها وأنه بينها وبين مكة، والحديبية هي المكان الذي عسكر فيه النبي ﷺ وأصحابه، وقد أصبحت في هذا العهد قرية تعرف باسم (الشميسي).

بلدح أيضًا: قال البكري: بلدح موضع في ديار بني فزارة، وفي بلدح ورد المثل: لكن على بلدح قوم عجفى، قاله بيهس بن صهيب الفزاري لما قتل إخوته وأسر هو، وذكر آسروه كثرة ما غنموا، يعني أهل بيته.

البُوَيْرَة: بضم الباء الموحدة، وفتح الواو وسكون الياء المثناة وفتح الراء المهملة، وآخره هاء: موضع منازل بني النضير في المدينة.

روى البخاري في صحيحه عن نافع عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه حرّق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة:

ولها يقول حسان:

لهان على سراة بني لؤي
حريق بالبويرة مستطير

قال ابن حجر: والبُويرة بضم الموحدة مصغّر موضع معروف.

وقال ياقوت: البويرة: تصغير البئر التي يُستقى منها الماء، والبويرة: هو موضع منازل بني النضير اليهود الذين غزاهم رسول الله ﷺ، بعد غزوة أحد بستة أشهر، فأحرق نخلهم وقطع زرعهم وشجرهم.

وفيه نزله قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [سورة الحشر، الآية: ٥].

قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يعز على سراة بني لؤي
حريق بالبويرة مستطير

فأجاب حسان بن ثابت:

أدام اللّه ذلكم حريقا
وضرّم في طوائفها السعيرُ
هم أوتوا الكتاب فضيّعوه
وهم عُمْي عن التوراة بورُ

وقال جمل بن جوال التغلبي:

وأوحشت البويرة من سلام
وسعدٍ وابن أخطبَ فهي بورُ

وقال ياقوت أيضًا: والنضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقريظة نزولاً بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم،

وغزوة بني النضير لم أر أحدًا من أهل السير ذكر أسماء منازلهم، وهو مما يحتاج إليه الناظر في هذا الكتاب، فبحثت فوجدت منازلهم التي غزاهم النبي ﷺ فيها تسمى وادي بطحان.. وبموضع يقال له البويرة.

وفي المغانم المطابة: أورد المجد ما ذكره ياقوت في غزوة النضير وتحديد منازلهم، ولم يزد عليه.

وقال البكري البويرة: بضم أوله، وبالراء المهملة على لفظ التصغير، فعيلة.. وهي من تيماء. ثم ذكر غزوة النبي ﷺ لبني النضير، وسيأتي إيضاحه.

وقال السمهودي: بويرة ـ تصغير البئر التي يستقى منها ـ وفي الصحيح حرّق نخل النضير وهو البويرة.

وقال المجد: البويرة موضع منازل بني النضير وذكره المرجاني. وقال ابن سيد الناس في قوله:

حريق بالبويرة مستطير

ويروى (بالبويلة) قال وذكر ابن سعد أن رسول الله ﷺ أعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة البويلة من أرض بني النضير.

وقد أطال السمهودي الحديث في التفريق بين البويرة التي هي مناز بني النضير التي غزاها النبي ﷺ، وبين البويلة، باللام التي هي مال من أموالهم أعطاها النبي ﷺ الزبير بن العوام وأبا سلمة.

قلت: مما تقدم من أقوال العلماء يتضح وبدون خلاف أن البويرة بالراء المهملة هي منازل بني النضير التي غزاها النبي ﷺ، وأحرق نخلها وقطع أشجارها وأجلاهم منها.

أما البويلة باللام، فإنه حصن من حصونهم.

قال الواقدي وهو يتحدث عن أموال بني النضير التي أفاء الله على رسوله ﷺ وما أعطاه لبعض أصحابه منها: وأعطى الزبير بن العوام وأبا سلمة بن عبد الأسد البويلة.

وذكر السمهودي أن البويلة أطم من آطام اليهود، نقلاً عما ذكر ابن زبالة.

أما ما قاله ياقوت في تحديد منازل بني النضير فإنه لا خلاف في ذلك بين قوله: وادي بطحان وبموضع يقال له البويرة، لما يأتي.

أما قول البكري: في تحديد البويرة وهي من تيماء، فإن البويرة التي ذكر أنها في تيماء غير البويرة التي هي منازل بني النضير في المدينة: كما هو مفهوم من أقوال المؤرخين.

قال ابن زبالة: فكان جميعهم ـ يعني اليهود ـ بزهرة وكانت لهم الأموال بالسافلة ـ وزهرة ثبرة ـ أي أرض سهلة بين الحرّة والسافلة مما يلي القف ـ ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول مما يلي زغابة.

ثم أسند عن محمد بن كعب القرضي أنه قال: وخرجت بنوا قريظة وإخوانهم بنوا هدل والنضير، فنزلوا بالعالية على واديين يقال لهما مذينيب ومهزور، فنزلت بنوا النضير على مذينيب واتخذوا عليه الأموال فكانوا أول من احتفر بها ـ أي بالعالية ـ الآبار وغرس الأموال.. فاتخذوا الأموال وابتنوا الآطام والمنازل. ا.هـ.

أما تحديد وادي مذينيب ووادي مهزور اللذين نزلهما يهود بني قريظة وبني النضير قال ابن شبّة: وسيل مهزور يأخذ من الحرّة من شرقيها، ومن هكر وحرّة صفة حتى يأتي حلاة بني قريظة ثم يسلك فيه شعيب، فيأخذ على بني أمية بن زيد بين البيوت في وادٍ يقال له مذينيب، ثم يلتقي هو وسيل بني قريظة بالمشارف ـ فضاء بني خطمة ـ ثم يجتمع الواديان جميعًا مهزور ومذينيب، فيفترقان في الأموال ويدخلان صدقات رسول الله ﷺ

كلها إلا مشربة أم إبراهيم، ثم يفضي إلى السورين على قصر مروان بن الحكم ثم يأخذ بطن الوادي على قصر بني يوسف، ثم يأخذ في البقيع حتى يخرج على بني جديلة، والمسجد ببطن مهزور، وآخره كومة أبي الحمراء، ثم يفضي فيصب في وادي قناة. ا. هـ.

وقال المطري: وادي جفاف، وهو أعلى موضع بالعوالي إلى شرقي مسجد قباء، ثم وادي مذينيب وهو شرقي جفاف يلتقي هو وجفاف فوق مسجد الشمس، المعروف قديمًا بمسجد الفضيخ ثم يصبان في بطحان يلتقيان هما ورانونا ببطحان، فيمران بالمدينة غربي المصلى ويصلان إلي مساجد الفتح سيلاً واحدًا ويلتقى هو والعقيق عند بئر رومة، ثم وادي مهزور وهو أيضًا شرقي العوالي شمالي مذينيب، ويشق في الحرّة الشرقية إلى العريض، ثم يصب في وادي الشظاة، ثم وادي الشظاة يأتي من شرقي المدينة من أماكن بعيدة عنها إلى أن يصل إلى السدّ الذي أحدثته النار، نار الحرّة التي ظهرت في المدينة. . وبعد أن تخرّق هذا السد مع مرور الزمن وضغط السيول التي تتجمع خلفه أخذ سيل وادي الشظاة مجرى واسعًا، وأصبح يصب في رومة في مجتمع السيول فيها، سيل بطحان والعقيق والزغابة والنقمى وسيل غراب من جهة الغابة، فيصير سيلاً واحدًا ويأخذ في وادي الضيقة إلى إضم، وهذه جميع أودية المدينة.

وقال السمهودي: نقل المجد عن أبي عبيدة أن اليهود لما نزلوا المدينة نزلوا بالسافلة، فاستوبؤوها، فبعثوا رائدًا إلى العالية، فرأى بطحان ومهزورًا يهبطان من حرّة ينصب منهما مياه عذبة فرجع وقال: وجدت بلدًا طيبًا وأودية تنصب إلى حرّة عذبة، فتحولوا. فنزل بنوا النضير على بطحان، وقريظة على مهزور. قال ومع أن الذي تقدم في المنازل أن بني النضير نزلوا بمذينيب ومنازلهم النواعم(١)، فمن أطلق نزولهم على بطحان راعى اتحاد الأصل، وأن مذينيب يصب في بطحان أيضًا.

قلت: ويفهم من أقوال العلماء أن واديي مذينيب ومهزور ينبعثان من العالية من الحرّة الشرقية متجهين إلى المدينة في مجريين متفرقين، فيلتقى وادي مذينيب بوادي بطحان، وأن منازل بني النضير كانت في مذينيب ولم تختلف الروايات عن هذا.

وقال عبد القدوس الأنصاري في تحديد منابع وادي مذينيب ومهزور: وادي مذينيب تتبعنا مجراه فإذا هو آت من شرق حصن كعب ابن الأشرف، وبالقرب من الحصن يشكل نصف دائرة وسطها الحصن، ثم يفيض في مسيله شمال أم أربع فأم عشر، ولا يزال سائرًا حتى يختلط بوادي بطحان في مبدئه، وعلى هذا الوادي كانت منازل بني النضير. . . وذكر أنّ حصن كعب ابن الأشرف مازالت باقية أطلاله.

أما وادي مهزور فإنه يصدر من حرّة واقم(٢) قال ابن شبّة: إنه يأخذ من شرق هذه الحرّة ومن هكر موضع ماء على أربعين ميلاً من المدينة، ومن حرّة صفة حتى يأتي أعلى حلاءة بني قريظة، وهناك ينقسم إلى شعبتين تختلط إحداهما بوادي مذينيب، وتذهب

(١) حديقة غناء من منازلهم، وبجانبها حديقة تسمى النويعمة.

(٢) هي الحرة الشرقية.

الأخرى حتى تتصل بمذينيب بفضاء بني خطمة، ثم يجتمع مذينيب ومهزور.

وقال الشنقيطي: تعتبر الحرّة الشرقية معلمًا بينًا وقديمًا من معالم المدينة، وورد في التوراة أنها مهاجر نبي آخر الزمان؛ ولذلك نزل بها اليهود. قينقاع والنضير وقريظة انتظارًا له.

وتقع منازل اليهود في وسط الحرة الشرقية؛ لأنها تحصينات طبيعية، لكثرة غدرهم وزرعهم الشرور وإذكائهم الحروب فلا يسكنون إلا في قرى محصنة.

قلت: وبهذا يتضح أن البويرة التي هي منازل بني النضير في وادي مذينيب حيث ينبعث من الحرة الشرقية وهو الموضع الذي غزاهم فيه النبي ﷺ وقطع أشجارهم وأحرق نخيلهم وأجلاهم ﷺ، وكانت أموالهم مما أفاء الله على رسوله. مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وبهذا تُعرفُ منازل يهود بني النضير وبني قريظة.

قلت والبويرة من الأسماء المشتركة التي يشترك فيها عدد من المواضع وسأتحدث عن المواضع التي تسمى بهذا الاسم واحدًا واحدًا إن شاء الله.

قال ياقوت: والبويرة أيضًا موضع قرب وادي القرى، بينه وبين بسيطة. مرّ بها المتنبي وذكرها في شعره فقال:

روامي الكفاف وكبد الوهاد
وجار البويرة وادي الغضا

وتحدث حمد الجاسر عن هذا الموضع وقال: البويرة جبل غرب وادي عفال بينه وبين خليج العقبة، وسيل هذا الجبل ما انحدر غربًا جنوبيًا يصب في واد يدعى وادي الجليب حتى يفيض في خليج العقبة شمال بئر الماشي بقربها، وما انحدر شمالاً غربيًا صب في وادي الحشاء إلى الخليج، ويقع هذا الجبل في منطقة مدين غرب حسمي ويدعه طريق المتجه إلى حقل فالعقبة غربه، وأهل تلك الجهة يسمونه: البوارة، كعادة أبناء البادية بإبدال الياء واوًا.

ولا أستبعد بأنه هو الذي عناه المتنبي بقوله:

وهبت بجسمي هبوب الدبور
مستقبلات مهب الصبا
روامي الكفاف وكبد الوهاد
وجار البويرة وادي الغضا
وجابت بسيطة جوب الردا
ء بين النعام وبين المها

والبويرة أيضًا: قال ياقوت موضع بحوف مصر.

والبويرة أيضًا: قال ياقوت: قرية أو بئر دون أجا، وفيها قال:

إن لنا بئرًا بشرقي العلم
عادية ما حفرت بعد إرم
ذات سجال حامش ذات أجم

قال: واسمها اللقيطة.

وقال حمد الجاسر: ويلاحظ أن اللقيطة تقع شمال شرقي أجا، فكأنه يقصد بالعلم الجبل، قال وتبعد عن مدينة حائل ثلاثين كيلاً، وهي من قرى شمّر.

والبويرة أيضًا: قال حمد الجاسر، وقال الحازمي في (البلدان)، وفي حديث عسى العذرى الوافد على رسول الله ﷺ، واستقطعه أرضًا بوادي القرى، فأقطعها فهي إلى اليوم تسمى بويرة عسّى.

هذه البويرة تقع في وادي القرى بقرب العلا، وهي غير الجبل الذي تقدم تحديده.

والبويرة أيضًا: قال البكري: بضم أوله، وبالراء المهملة، على لفظ التصغير، وهي من تيماء، وأورد خبر غزوة النبي ﷺ لبني النضير فقال: أحرق رسول الله ﷺ نخل بني النظير،

وقطع زهو البويرة فنزل فيهم: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [سورة الحشر، الآية: ٥].

قلت: والمعروف من أقوال المؤرخين وعلماء التفسير أن منازل بني النضير التي غزاهم فيها النبي ﷺ كانت في المدينة كما تقدم، وليست في تيماء، وهذا لا يمنع أن يكون في تيماء موضع يسمى البويرة، غير معروف لنا.

والبويرة أيضًا: حددها البكري في واد يقال له برك بحذاء جبل شواحط، فقال: شواحط بضم أوله وبالحاء والطاء المهملتين: جبل شامخ... وهذا الجبل كثير النمور والأروى، كثير الأوشال ينبت الغضور والثغام قال عنترة:

فقلت تبينوا ظعنًا أراها
تحل شواحطًا جنح الظلام

وبحذائه واد يقال له برك، كثير النبات وبه ماء يقال له البويرة، عذبة الماء.

قال حمد الجاسر: المعروف أن جبل شواحط قرب قرية السوارقية ولا يزال معروفًا والسوارقية من القرى التابعة للمدينة، ولكنها تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام للإبل[(١)].

والبويرة أيضًا: ذكرها البكري وحددها على الطريق بين المدينة وبين تيماء، فيما بين ميثب وبين عراعر.

هذه هي المواضع التي تعرف باسم البويرة، غير أن بعضها لم يعد معروفًا بهذا الاسم في هذا العهد.

البويرة أيضًا: تصغير بئر محطة لسكة حديد الحجاز (٩٤) كيلاً شمال غربي المدينة، في ديار ولد محمد من حرب، وربما تكون هذه بويرة عسّى. قاله عاتق البلادي.

البويرة أيضًا: بفتح الباء الموحدة والواو وسكون الياء المثناة وفتح الراء المهملة ثم هاء: بقعة في وادي قصى في جهة بلغازي، قاله محمد العقيلي[(٢)].

بيت المقدس: واحد البيوت، المقدس بميم مفتوحة وقاف مثناة ساكنة ودال مهملة مكسورة وآخره سين، المقصود به: المسجد الأقصى المعروف.

روى البخاري بسنده عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلّى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلّى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلّى معه قوم، فخرج رجل ممن صلّى معه فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلّي قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلمّا ولّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك.

ـ **قال ياقوت**: المقدس في اللغة: المنزّه، قال المفسرون في قوله تعالى: ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال الزجّاج: معنى نقدّس لك أي نطهّر أنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدّسه أي نطهّره، قال: ومن هذا بيت المقدس، كذا ضبطه بفتح أوله وسكون ثانية وتخفيف الدال وكسرها، أي البيت

(١) العرب ٤ ـ ١٨٧.
(٢) معجم مقاطعة جازان.

المقدّس المطهّر الذي يتطهّر به من الذنوب، قال مروان:

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها
إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس
ودع المدينة إنها محذورة
والحقْ بمكة أو ببيت المقدس

وقال قتادة: المراد بأرض المقدس أي المبارك، وإليه ذهب ابن الأعرابي.

وفضائل بيت المقدس كثيرة، قال مقاتل ابن سليمان في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية: ٧١]، قال: هي بيت المقدس، وقوله سبحانه لبني إسرائيل: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [سورة الطور، الآية: ٨٠]، يعني بيت المقدس، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٥٠]، قال البيت المقدس، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١]، هو بيت المقدس، وقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [سورة النور، الآية: ٣٦]، أي: بيت المقدس.

ورفع الله عيسى بن مريم إلى السماء من بيت المقدس، وفيه مهبطه إذا هبط، وأول شيء حسر عنه بعد الطوفان صخرة بيت المقدس.

ـ **قلت:** وقد أطال ياقوت حديثه في وصف بيت المقدس وما مرّ عليه من أطوار تاريخية، وما قيل في فضله من الأخبار حديثًا لا يتسع مقامنا هذا لذكر ما جاء فيه، ثم قال: وأمّا فتحها في أول الإسلام إلى يومنا هذا؛ فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنفذ عمرو بن العاص إلى فلسطين، ثم نزل البيت المقدّس فامتنع عليه، فقدم أبو عبيدة بن الجرّاح بعد أن فتح قنسرين، وذلك سنة ١٦ للهجرة، فطلب أهل بيت المقدس من أبي عبيدة الأمان والصلّح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم، على أن يكون المتولّي للعقد لهم عمر بن الخطاب، فكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر، فقدم عمر ونزل الجابية من دمشق، ثم صار إلى بيت المقدس فأنفذ صلحهم وكتب لهم كتابًا، وكان ذلك في سنة ١٧هـ، ولم تزل على ذلك بيد المسلمين، والنصارى من الروم والإفرنج والأرمن وغيرهم من سائر أصنافهم يقصدونها للزيارة إلى بيعتهم المعروفة بالقيامة وليس لهم في الأرض أجلّ منها، حتى انتهت إلى أن ملكها سُكْمان بن أرتُق وأخوه إيلغازي، جدّ هؤلاء الذين بديار بكر صاحب ماردين وآمد، والخطبة فيها تقال لبني العباس.

قلت: ثم تحدث عن تاريخ بيت المقدس فيما بعد ذلك وما مرّ عليه من صراع بين المسلمين وبين الغزاة الصليبيين.

وقد تقدم في رسم (إيلياء) طرف من أخبار بيت المقدس.

وشهرة بيت المقدس تغني عن الإطالة في وصفه وتحديده، والصراع عليه ما زال قائمًا في هذا العهد بين المسلمين وبين اليهود الظالمين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وقد ألحقوا به وبسكان مدينة القدس من الأذى ما لا يعلمه إلا الله. أسأل الله أن ينصر عباده المجاهدين في سبيله، وأن ينزل بأسه باليهود المجرمين الغاصبين.

البيداء: بباء موحدة مفتوحة وياء مثناة ساكنة بعدها دال مهملة وآخره ألف ممدودة: مفازة

إذا رحل حجاج المدينة من ذي الحليفة استقبلوها مصعدين إلى مكة.

روى البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي؛ فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام معه الناس وليسوا على ماء... إلى آخر الحديث، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا.

وروى عن أنس رضي الله عنه قال صلّى رسول الله ﷺ ونحن معه بالمدينة الظهر أربعًا والعصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، ثم ركب حتى إذا استوت به على البيداء حمد الله وسبّح وكبّر، ثم أهلّ بحج وعمرة وأهل الناس بهما.

قال ابن حجر: البيداء هي: ذو الحليفة بالقرب من المدينة.

وقال المطري: رأيت كثيرًا من الحجاج يتجاوزون ما حول المسجد - يعني مسجد ذي الحليفة - إلى جهة الغرب ويصعدون إلى البيداء فيتجاوزون الميقات بيقين، والنبي ﷺ يقول: مهل أهل المدينة من ذي الحليفة، والذي ورد أنه ﷺ أحرم من ذي الحليفة، فلما علت به راحلته على البيداء أهلّ بالحج، وكذلك قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ما بيداؤكم هذه التي تكذبون فيها على رسول الله ﷺ، وما أهل رسول الله إلا من عند المسجد يعني ذا الحليفة كل ذلك يؤيد ألا يتعدى الإنسان إذا أراد الإحرام. المسجد وما حوله.

وقال ياقوت: البيداء: اسم لأرض ملساء بين مكة والمدينة وهي إلى مكة أقرب، تعدّ من الشرف أمام ذي الحليفة... وكل مفازة لا شيء بها فهي بيداء.

قلت: قوله هي إلى مكة أقرب: ليس معنى ذلك أن المسافة بينها وبين مكة أقرب من المسافة التي بينها وبين المدينة، ولكن معناه أنها أقرب إلى مكة من ذي الحليفة، وكلا الموضعين البيداء وذي الحليفة قريبان من المدينة.

أما قول ابن حجر ذو الحليفة (يعني البيداء) فإنه في شرحه للحديث الثاني.

قال: ولكن عند مسلم من طريق أبي حسان عن ابن عباس: أن النبي ﷺ صلى الظهر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها ثم ركب راحلته، فلما استوت به على البيداء أهل بالحج.

وللنسائي من طريق الحسن عن أنس: أنه ﷺ صلى الظهر بالبيداء ثم ركب. ويجمع بينهما بأنه صلاها في آخر ذي الحليفة وأول البيداء والله أعلم.

فبهذا نرى أنه فرق بين ذي الحليفة والبيداء واعتبرهما موضعين مختلفين قال البكري: البيداء: هو الشرف الذي قدام ذي الحليفة في طريق مكة، ثم ذكر بعضًا من الأحاديث المتقدمة.

وفي المغانم المطابة قال المجد: قال مؤرخو المدينة: البيداء هي التي إذا رحل الحجاج بعد الإحرام من ذي الحليفة استقبلوها مصعدين إلى جهة الغرب، وهي التي جاءت في حديث عائشة رضي الله عنها: حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش.

وفي البيداء نزلت آية التيمم.

وقال السمهودي: أول البيداء عند آخر ذي الحليفة، وكان هناك علمان للتمييز بينهما؛ ولذا قال الأسدي في تعداد أعلام الطريق: إن على مخرج المدينة علمين، وعلى مدخل ذي الحليفة علمين، وعلى مخرج ذي الحليفة

علمين، وقال في موضع آخر: والبيداء فوق علمي ذي الحليفة إذا صعدت من الوادي، وفي أول البيداء بئر.

وكأن البيداء ما بين ذي الحليفة، وذات الجيش.

وقال الشنقيطي: البيداء: الصحراء الواسعة.

قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول

والمراد بالبيداء هنا أرض واسعة يصعدها الذاهب من محرم المدينة إلى مكة وهي مستوية، وتقع غربي ذي الحليفة، وهي بين ذي الحليفة وذات الجيش، وقد ورد ذكر البيداء في الحديث النبوي: «إن قومًا يغزون المدينة، فإذا نزلوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا بيداء أبيديهم».

وقد ورد ذكرها في حديث عائشة رضي الله عنها، في سبب نزول آية التيمم، أنها قالت: حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش...

وهذا يعني أن نهاية ذي الحليفة هي بداية البيداء (وفيهما اليوم محطة تلفاز المدينة المنورة) وأن نهاية البيداء هي ذات الجيش، وذات الجيش سهل فسيح بعد البيداء، يشقه واد يسمى بهذا الاسم، وعن يمينه جبيلات حمر غير شاهقة غربي جسر تقاطع طريق جدة مع طريق مدينة الحجاج المتصل بطريق الهجرة السريع، وبعد الجسر مركز أمن[1].

قلت: وبهذا يتضح موقع البيداء التي ورد ذكرها في الحديث، وموقعها بالنسبة للمدينة، وما طرأ عليها من معالم عمرانية حديثة، ممثلة في بناء الطرق التي تعبرها والجسور، والمنشآت العمرانية، في هذا العهد.

بَيْرُحَاء: بباء موحدة مفتوحة وياء ساكنة وراء مهملة مضمومة وبعدها حاء مهملة وآخره ألف ممدودة: بستان فيه ماء في المدينة.

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طَيِّب قال أنس رضي الله عنه فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وإن أحبّ أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بخ ذلك مال رابح. ذلك مال رابح».

قال ابن حجر: بَيْرَحاء: بفتح الموحدة وسكّون التحتانية وفتح الراء وبالمهملة والمد، وجاء في ضبطه أوجه كثيرة، جمعها ابن الأثير في النهاية فقال: يروى بفتح الباء وبكسرها، وبفتح الراء وضمها، وبالمد والقصر فهذه ثمان لغات.

وفي رواية حمّاد بن سلمة: بُرِيْحا، بفتح أوله وكسر الراء وتقديمها على التحتانية، وفي سنن أبي داود: بارِيحا، مثله لكن بزيادة ألف.

وقال الباجي: أفصحها بفتح الباء وسكون الياء وفتح الراء مقصور، وكذا جزم الصاغاني. وقال: إنه فَيْعَلَى من البراح، قال: ومَنْ ذكره بكسر الموحدة وظن أنها بئر من آبار المدينة فقد صحّف. اهـ.

---

(١) الدر الثمين، ٢٥٠.

وقال ابن الأثير في النهاية: وفي حديث أبي طلحة (أحب أموالي إليَّ بيرحى) هذه اللفظة كثيرًا ما تختلف ألفاظ المحدثين فيها فيقولون: بَيْرحاء بفتح الباء وكسرها وبفتح الراء وضمها والمد فيهما، وبفتحهما والقصر، وهي اسم مال وموضع بالمدينة.

وقال الزمخشري في الفائق: إنّها فَيْعَلَى من البراح، وهي الأرض الظاهرة اهـ.

وقال السهيلي: بيرحاء: ذكر بعضهم أن هذه البئر سميت بيرحاء بزجر الإبل عنها، وذلك أن الإبل يقال لها إذا زجرت عن الماء ـ وقد رويت ـ: حا حا، وهكذا كان الأصيلي يقيده برفع الراء إذا كان الاسم مرفوعًا، وبالمد. وغير الأصيلي يقول: بيرحاء بالفتح على كل حال وبالقصر يجعله اسمًا واحدًا.

وقد حكى عن بعضهم فيه بيرحا، بفتح الباء مع القصر، وفي الصحيح أن أبا طلحة دفع بيرحاء إلى رسول الله ﷺ وجعلها صدقة، فأمره النبي ﷺ أن يجعلها في الأقربين. اهـ.

وفي المغانم المطابة قال المجد: بيرحا: بئر وبستان شمالي سور المدينة من جهة الشرق، وقد صارت بئرحا لأبيّ بن كعب وحسان ابن ثابت رضي الله عنهما حين دفعها إليهما أبو طلحة رضي الله عنه كما ورد في (الصحيحين) وغيرهما.

واختلف الناس في ضبط هذه الكلمة وذكر قول الزمخشري المتقدم وقال:

قال أبو بكر الباجي: وأنكر أبو بكر الأصم الإعراب في الراء وقال: إنّما هو بفتح الراء على كل حال. قال وعليه أدركت أهل العلم بالمشرق.

وقال أبو عبد الله الصوري: إنما هو بفتح الباء والراء في كل حال، يعني أنه كلمة واحدة.

قال القاضي عياض: وعلى رواية الأندلسيين ضبطنا هذا الحرف عن أبي جعفر في: (كتاب مسلم) بكسر الباء وفتح الراء وبكسر الراء وفتح الباء والقصر ضبطناه في (الموطأ) عن ابن عتاب وابن حمدون وغيرهما. وبضم الراء وفتحها معًا قيدناه عن الأصيلي.

وقد رواه مسلم من طريق حمّاد بن سلمة بريحًا هكذا ضبطناه عن الخشني، والأسدي، والصدّفي، فيما قيدوه عن العذرى، والسمرقندي وغيرهما ولم أسمع فيه خلافًا إلا أنّي وجدت الحميدي ذكر عن حمّاد ابن سلمة: بيرحا، كما قال الصوري، ورواية الرازي في (صحيح مسلم) من حديث مالك ابن أنس بريحا وهُمٌ، إنما هذا في حديث حمّاد، وأما في حديث مالك فهو بيرحا كما قيده الجميع على اختلافهم.

وذكر أبو داود في مصنفه هذا الحديث، بخلاف ما تقدم فقال: جعلت أرض باريحًا، وهذا كله يدل على أنها ليست ببئر. وقيل موضع بقرب المسجد يعرف بقصر بني حديلة.

وذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رضي الله عنه لما تكلم في الإفك بما تكلم به، ونزل القرآن ببراءة عائشة رضي الله عنها، عدا صفوان بن المعطل على حسان رضي الله عنه فضربه بالسيف، فاشتكت الأنصار إلى رسول الله ﷺ فعل صفوان فأعطاه رسول الله ﷺ عوضًا عن ضربته بئر حاء وهو قصر بني حديلة اليوم بالمدينة، وكان مالاً لأبي طلحة بن سهيل تصدق إلى رسول الله ﷺ فأعطاه رسول الله ﷺ حسان، وأعطاه شيرين ـ أَمَة قبطية ـ فولدت له عبد الرحمٰن بن حسان.

وقد أفرد بعض المحدثين لتحقيق ضبط كلمة بئرحا مصنفًا، وهذه الأسطر مشتملة على زبدته، إن شاء الله تعالى.

وفي **بئر حا**، بئر قريبة الرشاء ضيقة الفناء طيبة الماء، وأمامها إلى القبلة مسجد صغير في

وسط الحديقة، وهي اليوم وقف على الفقراء والمساكين ونخيلها مضمونة، وأهل المدينة يفضلون النخيل المضمونة على المسقوية لا تمرها على تمرها، وإنما يفضل لكونها تؤتي أكلها إلى مالكها، دون معاناة وكد. اهـ.

وقال ياقوت: بيرحاء بوزن خَيْزَلَى، قال أبو القاسم بن عمر: ويقال: بئرحاء مضاف إليه ممدود، ويقال: بيرحاء بفتح أوله والراء والقصر، ورواية المغاربة قاطبة. الإضافة وإعراب الراء بالرفع والجر والنصب، وحاء على لفظ الحاء من حروف المعجم.

قيل: هي أرض لأبي طلحة، وقيل: موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جديلة، وذكر خبر حسان بن ثابت لما عدا صفوان بن المعّطل عليه وضربه بالسيف وأن النبي ﷺ أعطاه بيرحاء، عوضًا عن ضربته. ا.هـ.

وذكر الواقدي: خبر اعتداء صفوان ابن المعطّل على حسان بن ثابت، وأن صفوان حبس في حقه، فلما برئ حسان من ضربته كلّم سعد بن عبادة حسان بن ثابت طالبًا منه التنازل عن حقه على صفوان، فجاء حسان في قومه حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كلّ حقّ لي قبل صفوان ابن المعطل فهو لك، قال: قد أحسنت وقبلت ذلك؛ فأعطاه رسول الله ﷺ أرضًا براحًا، وهي بيرحاء وما حولها، وسيرين[١]، وأعطاه سعد بن عبادة حائطًا كان يجد مالاً كثيرًا عوضًا له مما عفا عن حقه. ا.هـ.

قلت: وهكذا اختلف العلماء في ضبط كلمة (بيرحاء) كما اختلفوا في التعريف بها، هل هي حائط فيه نخل وبئر، أو أنها بئر، أو أنها أرض براح، غير أن مؤرخي المدينة يختلفون في التعريف بها عن قول من قال إنها أرض وليست بئر ولا حائط نخل.

وقول من قال إنها ليست بئرًا ولا حائط نخل مردود بنص الحديث الصحيح الذي جاء فيه: وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها.

قال المطري: بعد أن أورد حديث أنس الذي رواه البخاري كاملاً: قلت هذه البئر وسط حديقة صغيرة فيها نخل جيد وهي شمالي سور المدينة الشريفة بينها وبين السور الطريق، وتعرف الآن ـ أي في عهده ـ بالنويرية اشتراها بعض النساء النويريين[٢] ووقفها على الفقراء والمساكين والواردين والصادرين... وهي كما ورد فيها مستقبلة المسجد.

قال الشيخ محب الدين بن النجار رحمه الله: ذرعتها فكان طولهاعشرين ذراعًا منها أحد عشر ذراعًا ماء والباقي بناء، وعرضها ثلاثة أذرع وشيئًا يسيرًا[٣].

وقال السمهودي: بعد أن روى حديث أنس الذي رواه البخاري. وفي رواية له أيضًا عقب قوله: (وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء) قال: وكانت حديقة، كان رسول الله ﷺ يدخلها ويستظلّ ويشرب من مائها.

وقال ابن النجار: وبيرحاء اليوم في وسط حديقة صغيرة جدًا فيها نخيلات ويزرع حولها، وعندها بيت مبني على علو من

---

(١) في بعض الروايات بالشين المثلثة.

(٢) النويريون: فسره العباسي بقوله: أي خطباء مكة.

(٣) التعريف ٥٥/٥٦.

الأرض وهي قريبة من سور المدينة وهي لبعض أهلها، وماؤها عذب حلو.

قال السمهودي: وهي اليوم ـ يعني في عهده ـ على هذا النعت وفي قبلتها مسجد ليس من بناء الأقدمين لم يذكره ابن النجار ولا المطري وكأنه لما حدث بعدهما. وذكر المسجد فقال وفي بيرحاء بير قريبة الرشاء ضيقة الفناء طيبة الماء، وأمامها إلى القبلة مسجد صغير في وسط الحديقة.

وقوله في الحديث الصحيح (وكانت مستقبلة المسجد) معناه أن المسجد في جهة قبلتها فلا ينافي بعدها عنه على هذه المسافة الموجودة اليوم. ا.هـ.

وقال أحمد العباسي: بئرحاء: بئر وبستان شمالي سور المدينة من جهة الشرق، وقد صارت بئرحاء لأبي بن كعب، وحسان ابن ثابت دفعها إليهما أبو طلحة، كما ورد في الصحيحين وغيرهما...

وهي قريبة الرشاء ضيقة الفناء وأمامها إلى القبلة مسجد صغير في وسط الحديقة، وهي وقف على الفقراء والمساكين، ونخلها مضمومة، وأهل المدينة يفضلون النخل المضموم، وإنما يفضلونها؛ لكونها تؤتي أكلها إلى مالكها عفوًا دون كد. ا.هـ.

وقال عبد القدوس الأنصاري: بئرحاء. تقع هذه البئر خارج سور المدينة ـ كان ذلك قبل هدم سور المدينة ـ قريبة منه في ناحية المدينة الشمالية الشرقية، وتبعد عن أقرب نقطة إليها من السور بنحو (١٣) مترًا وهي في طرف زقاق منحدر، وفيه فتحتها، وهي مطوية بالحجارة من أسفل إلى قرب الفتحة. ويخالف شكلها شكل الآبار بالمدينة، إذ هي أي: (بيرحاء) مربعة الطيّ. والآبار غيرها مستديرته وعلى بئرحاء عقد صغير من الطوب الأحمر.

وهي اليوم ـ أي سنة تأليف هذا الكتاب ١٣٥٣هـ ـ على أغلب ما وصفها به السمهودي؛ لأنها ليست في وسط حديقة بل في ركن المنزل التابع لها أو التابعة له، وبشرقها قطعة صغيرة من الأرض جرداء، بها نخلتان ضامئتان، ولعلها من بقايا حديقتها المذكورة. ا.هـ.

وقال الشنقيطي: تقع بئرحاء شمالي المسجد النبوي الشريف، في المنطقة المعروفة الآن بباب المجيدي على بعد (٨٤) مترًا من المسجد النبوي، كما تقع شرقي فندق قصر المدينة، وعلى هذه البئر منذ أن رأيتها عام ١٣٧٨هـ بناء مسقوف وفيه نافذة من الجنوب ويمكن النظر منها إلى البئر داخل البناء، وفي هذا العام ١٤٠٥ ـ هـ ـ وجدت تلك النافذة أغلقت بصندوق من الورق، ولا يزال بالقرب من البئر إلى الشرق منها نخلة أو نخلتان من بقايا البستان الذي كانت تقع فيه، ورأيت مكتوبًا على جدران البيوت من حولها الأمر بمراجعة أمانة المدينة مع أصحاب صكوك التملك، لأنه تقررت إزالة هذا الحيّ لمشروع توسعة الحرم، وأما ما كان شرقيها من الحيّ فقد أزيل وأصبح موقفًا للسيارات، فحبذا لو سُمّي باسم بيرحاء. وفي هذا البستان الذي تقع فيه هذه البئر كانت توجد دار أم سليم بنت ملحان وزوجها أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهما[1] ا.هـ.

قلت: ومما تقدم يتأكد أن بيرحاء كانت حائط نخل فيه بئر طيبة الماء، وأنها واقعة في الشمال الشرقي من المسجد النبوي، وأنها

(١) الدر الثمين ١٦٢.

كانت لأبي طلحة الأنصاري ﷺ، وأنّه تصدق بها كما مرّ في الحديث الصحيح.
كما يتأكد أن هذه البئر انتقلت إلى حسان ابن ثابت وأبيّ بن كعب، وأن أرضها طرأ عليها بيع بعض أجزائها مما كان سببًا في زوال نخلها وأشجارها، وأن هذه البئر بقيت في موضعها عامرة إلى عهد قريب.

بَابُ التَّاء

تَبُوْك: بتاء مثناة مفتوحة وباء موحدة مضمومة، بعدها واو ساكنة وآخره كاف: مدينة معروفة تقع في الشمال الغربي للمملكة العربية السعودية.

روى البخاري عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك، فلما جاء وادي القرى إلى امرأة في حديقة لها فقال النبي ﷺ لأصحابه: «اخرصوا وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق فقال لها أحص ما يخرج منها».... الحديث.

وفي المغانم المطابة قال المجد: تبوك ـ بالفتح ثم الضم وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القرى والشام قيل اسمه بركة لأبناء سعد من بني عذرة.

وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأول الشام، على أربعة مراحل، من الحجر، ونحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل، وحائط ينسب إلى النبي ﷺ.

ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب كانوا فيها، ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين.

ومدين على بحر القلزم، على نحو ست مراحل من تبوك.

وتبوك على اثنتي عشرة مرحلة من المدينة.

وقال أهل السير: توجه النبي ﷺ في سنة تسع إلي تبوك من أرض الشام، ـ وهي آخر غزواته ـ لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع من الروم، وعاملة، ولخم، وجذام، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيدًا، ونزلوا على عين، فأمرهم رسول الله ﷺ ألا يمس أحد من مائها، فسبق إليها رجلان، وهي تبض بشيء من ماء، فجعلا يدخلان فيها سهمين، ليكثر ماؤها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما زلتما تبوكانها منذ اليوم»، فبذلك سميت تبوك.

والبوك، إدخال اليد في الشيء وتحريكه.

وركز النبي ﷺ عنزته فيها ثلاث ركزات، فجاشت ثلاث أعين فهي ترمي بالماء إلى الآن.

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك أيامًا حتى صالح أهلها.

وأنفذ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى دومة الجندل، وقال له: «ستجد صاحبها يصيد البقر». فكان كما قال ﷺ فأسره وقدم به على النبي ﷺ، فقال بجير بن بجرة الطائي يذكر ذلك:

تبارك سائق البقرات إنّي
رأيت اللّه يهدي كل هاد
فمن يك حائدًا عن ذي تبوك
فإنّا قد أمرنا بالجهاد

وكان ابن غريض اليهودي قد طوى بئر تبوك، لأنها كانت تنظم في كل وقت، وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمره بذلك.

وقال البكري: تبوك بفتح التاء، وهي أقصى أثر رسول الله ﷺ، وهي من أدنى أرض الشام.

وذكر القتبي من رواية موسى بن شيبة عن محمد بن كليب أن رسول الله ﷺ، جاء في غزوة تبوك وهم يبوكون حسيها بقدح، فقال: ما زلتم تبوكونها بعد، فسميت تبوك.
ومعنى تبوكون: تدخلون فيه السهم وتحركونه، ليخرج ماؤه.
وذكر بعثة خالد بن الوليد من تبوك إلى دومة الجندل. اهـ.
وقال ياقوت تبوك: بالفتح ثم بالضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين واد القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة... وتبوك بين جبل حِسْمىَ وجبل شروری، وحسمىَ غربيها، وشروری شرقيها...
وذكر عن أحمد بن يحيى بن جابر أن النبي ﷺ توجه في سنة تسع للهجرة إلى تبوك، (وهي آخر غزواته)... وأنه ﷺ أقام بتبوك أيامًا حتى صالح أهلها، وأنه أنفذ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل. اهـ.
وفي الروض المعطار قال الحميري: تبوك بين الحجر وأول الشام، وشرب أهلها من عين ماء خرارة، وبها نخيل كثيرة، ويقال إنّ أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب النبي عليه السلام كانوا بها، وكان شعيب من مدين ـ وتبوك أقصى أثر رسول الله ﷺ.
وروى أنه جاء في غزوة تبوك وهم يبوكون حسيها بالقدح أي: يدخلون فيه؟ ويحركون ليستدر ماؤه، فقال ﷺ: ما زلتم تبوكونها؛ فسميت تبوك. وفي سنة تسع غزا رسول الله ﷺ الرّوم في تبوك فكانت أقصى أثره، وبني بها مسجدًا وهو بها إلى اليوم، وقصة تبوك مستوفاة في سيرة ابن إسحاق. اهـ.
قال السهيلي: سميت تبوك بعين، وهي العين التي أمر رسول الله ﷺ الناس ألا يمسّوا من مائها شيئًا، فسبق إليها رجلان وهي تبض بشيء من ماء؛ فجعلاً يدخلان فيها سهمين ليكثر ماؤها، فسبهما رسول الله ﷺ، وقال لهما ﷺ: ما زلتما تبوكانها منذ اليوم.
وفيما ذكر القتبي، قال: وبذلك سميت العين تبوك ا.هـ.
وقال فيلبي: (ما هذا الذي تبوكونه).
يقال إن النبي محمدًا قد وجه هذه الملاحظات إلى بعض أصحابه حين مرّ بهم، فرآهم منهمكين في جرف الرمال التي كانت تطمر موقع النبع الكبير، الذي كان يعتمد عليه القسم الرئيسي من الواحات، وما زال كذلك حتى الآن.
وطالما أن هذا النبع كان موجودًا فمن المعقول أن يكون اسم (تبوك) قد اشتق منه كما قال لي السكان المحليون.
ويقول الويس موسيل المكتشف النمساوي المشهور والرجل الواسع الاطلاع والثقافة: إن اسم (تبوك) قد اشتق من هذه الملاحظة.
ويقول إنه من تبوك ـ تابوا ـ.
ومن المؤكد أنه كان لمدينة تبوك، منذ الأزمنة القديمة، مركز ممتاز على الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب. تلك الطريق التي يسلكها التجار في طريقهم إلى دنيا البحر الأبيض المتوسط. كما أنها درب ـ الحجاج في طريقهم إلى المدن الإسلامية المقدسة. اهـ.
وقال الإمام الحربي في وصف طريق الحج من دمشق إلى المدينة: من دمشق إلى الصنمين ومن الصنمين إلى أذرعات، ومن أذرعات إلى الزرقاء، ومن الزرقاء إلى القسطل، ومن القسطل إلى قبال، ومن قبال إلى بالعة، ومن بالعة إلى الحفير، ومن الحفير إلى معان، ومن معان إلى ذات المسار.

ومنها إلى المغيثة، ومنها إلى سرغ، ومن سرغ إلى تبوك، ومن تبوك إلى المحدثة، ومن المحدثة إلى الأقرع، ومن الأقرع إلى الجنينة، ومن الجنينة إلى الحجر، ومن الحجر إلى وادي القرى، ومن وادي القرى إلى السقيا، وبها يلتقي الطريق. اهـ.

وقال حمد الجاسر: انحصرت عناية المؤرخين المسلمين بالنسبة لتبوك في ناحيتين **أولاهما**: أن الرسول ﷺ غزاها وهي آخر غزوة وصل بها إلى حدود الشام، وقد أورد خبر الغزوة مفصلة ابن إسحاق ثم ابن هشام ومن جاء بعدهما، ممن أوفى خبر الغزوة وما يتصل بها من استسلام أهل وادي القرى ودومة الجندل وتيماء، وخضوع تلك الجهات للرسول ﷺ، وأوردوا من بين ذلك وثائق تاريخية على درجة من الأهمية، لم تنل بعد الدراسة الكافية، ومن أمثلة ذلك كتاب الرسول لأهل مَقْنا وهي قرية لا تزال معروفة على ساحل خليج العقبة بين (المويلح) المعروف قديمًا باسم (النبك) وبين العقبة، وكتابه ﷺ لأهل دومة الجندل.

الناحية الثانية: عنايتهم بالمساجد النبوية الواقعة في الطريق بين المدينة وتبوك، ذلك أن المؤرخين الإسلاميين حرصوا أشد الحرص على تسجيل أسماء الأماكن التي صلى فيها الرسول ﷺ.

وفي معنى كلمة تبوك قال: يقول موزل: يذكر بطليموس اسم محلة تعرف باسم (تباوا) عند الحدود الشمالية الغربية لبلاد العرب السعيدة.

وإني أعتبر هذا الاسم تحريفًا للفظة (تبوكا - أو تبوك) إذ ينطبق كل منهما على الآخر.

وإذن فهو يرى عدم صحة ما روي من أن الاسم أطلق على الموقع بسبب ما جرى للعين، وأن اسم تبوك كان معروفًا عند جغرافي اليونان، ولا شك أن القول بأن اسم تبوك عرف بعد غزوة الرسول ﷺ قول غير صحيح، فالمؤرخون يذكرون أن اسم تبوك كان معروفًا قبل تلك الغزوة، ولو لم يكن كذلك لما كان لقولهم: عزم علي غزوة تبوك معنى، إذ ذلك العزم كان قبل الوصول إليها. ا. هـ.

وقال عاتق بن غيث البلادي: تبوك مدينة حجازية تاريخية كانت فيها غزوة جيش العسرة، في السنة التاسعة بقيادة النبي ﷺ تقع على طريق المدينة إلى الشام على (٧٧٨) كيلاً، مرّ بها القطار الحديدي في سنة ١٣١٢هـ، أو بعدها بقليل عندما وصلت المدينة المنورة بالسكة الحديد بدمشق في عهد السلطان عبد الحميد العثماني.

تعتبر تبوك شبكة مواصلات، فمنها إلى الأردن سكة الحديد وطريق معبدة وإلى المدينة نحو ذلك وإلى حقل غربًا طريق معبدة وإلى الجوف طريق ترابي، وطرق أخرى ترابية.

وقد تدفق الماء غزيرًا في تبوك مما أنعش الزراعة؛ فصارت ذات بساتين غناء بديعة، وخططت المدينة تخطيطًا حسنًا وعبدت شوارعها وشجرت، وتعتبر اليوم ثكنة عسكرية وفيها جميع مرافق الدولة في المدن، ويبلغ عدد سكانها عشرين ألفًا بعد أن كانوا أربعمائة قبل ٢٥ سنة.

ترتفع تبوك عن سطح البحر ٢٥٤٣ قدمًا. وقد تقهقرت في العصور السالفة، ولكنها اليوم في نهضة مباركة، وصارت لها أحياء عديدة منها الخالدية، والعزيزية، وأم درمان، والمنشية، والسلطانية، والفيصلية، والمنتزه، والجديدة.

- وأرض تبوك خصبة ومياهها عذبة ويبلغ سهلها الصالح للزراعة (١٠٠) كيلاً من الشمال إلى الجنوب و(٥٠) كيلاً من الشرق

إلى الغرب، أي أن تبوك لو استصلحت جميع أراضيها الصالحة للزراعة لاستطاعت أن تستوعب ما لا يقل عن مليون نسمة، والأرض توزع اليوم فيها مجانًا، ولكن الراغبين في الزراعة قلة.

سكانها بنو عطية، القبيلة التي تضرب دائرة حول المدينة، ا. هـ.

وقال حمد الجاسر في وصف النهضة في تبوك: لقد اتسعت البلدة وتغيرت تغيرًا مفاجئًا بعد حوادث فلسطين الأخيرة... فأنشئ فيها كثير من الدارات (الفلل) والدور الجميلة وغرست حولها الأشجار وخططت البلدة تخطيطًا حسنًا، وأنشئ لكثير من الدوائر الرسمية محلات واسعة كالإمارة والبلدية والمستشفى و(نادي الضباط) وغير ذلك من المباني، وأنشئ فيها عدد من المساجد، قال لي فضيلة القاضي الشيخ التويجري: إنها تبلغ اثنين وثلاثين مسجدًا، يجمع في سبعة منها.

وفي المدينة سوق طويل يخترقها تزخر دكاكينه بمختلف البضائع، وتتفرع في جوانبه محلات لبيع مختلف الأشياء كالخضر واللحوم والحطب والفحم وغير ذلك، وأنيرت البلدة بالكهرباء وأدخل الماء داخل المنازل، وتوفرت فيها الوسائل التي تتوفر في أرقى مدن المملكة، ولا تزال في تقدم واضطراد نمو، وهي واقعة في براح واسع من الأرض ومحلاتها متباعدة وماؤها غزير وعذب.

قلت: هذا الوصف لمدينة تبوك كتبه حمد الجاسر أثناء زيارته الأخيرة لهذه المدينة عام ١٣٩٠هـ ـ أي منذ ربع قرن ـ غير أن هذه المدينة في هذه الحقبة التي تلت زيارته قد خطت خطوات واسعة في النمو العمراني والتطور الحضاري حتى أصبحت مدينة حافلة بالمتاجر والبنوك والأسواق والمؤسسات، بل أصبحت لها شهرة زراعية واسعة، وسفلتت الطرق التي تصلها بمدن المملكة، وكذلك الطرق الزراعية التي تحيط بها، أسس فيها مطار يربطها بالمدن الحضارية بواسطة حركة الطيران المنتظمة منه وإليه وأخذت بنصيب من التعليم للبنين والبنات، مماثل للتعليم فيما سواها من مدن المملكة.

وتحسن الإشارة إلى أن مدينة تبوك هي مركز إدارة المنطقة الشمالية الغربية للمملكة العربية السعودية.

غزوة تبوك: هي آخرة غزوة غزاها النبي ﷺ وأشق غزوة غزاها، وقد تحدث عنها ابن هشام حديثًا شاملاً كما تحدث عنها أيضًا الواقدي مبينًا أسبابها وتنفيذها وأحداثها، وما ذكره هذان المؤرخان لا يتسع له مقامنا، غير أنني سأتحدث بإيجاز مُختصِرًا بعض ما ورد من أخبار هذه الغزوة.

قال ابن هشام: أقام النبي ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة الحر وجدب من البلاد: وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلّما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبة فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم.

ثم إنّ رسول الله ﷺ جدّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز والإنكماش، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله؛ فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق

عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع، واستعمل على المدينة محمد ابن مسلمة الأنصاري، وقيل: سباع بن عُرفْطة.

وخلّف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، على أهله، وأمره بالإقامة فيهم؛ فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له، وتخففًا منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو نازل بالجرف فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني، فقال: كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني في منزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ في سفره.

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه حتى قيل: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتلوم أبو ذر على بعيره فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر»، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده، ويبعث وحده».

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من المنافقين يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأننا بكم غدا مقرنين في الحبال، أرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يُحَنَّة بن رُؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية وأتاه أهل جَرباء وأذرُح فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابًا فهو عندهم.

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة. اهـ.

وختم ابن إسحاق حديثه عن غزوة تبوك بخبر أرجاف المنافقين، وما نزل فيهم من القرآن وتحدث عن مساجد رسول الله ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك، وتحدث عن الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ من المعذورين وغير المعذورين ومن تاب الله عليه منهم.

وقال الواقدي: كانت الساقطة ـ وهم الأنباط ـ يقدمون إلى المدينة بالدرمك والزيت في الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط، فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلف هرقل بحمص، ولم يكن ذلك، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه.

ولم يكن عدو أخوف عند المسلمين منهم، وذلك لما عاينوا منهم - إذا كانوا يقدمون عليهم تجارًا - من العدد والعدة والكراع.
وكان رسول الله ﷺ لا يغزوا غزوة إلا ورى بغيرها، لئلا تذهب الأخبار بأنه يريد كذا وكذا، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، واستقبل غزّى وعددًا كثيرًا، فجلّى للناس أمرهم إذا يتأهبوا لذلك أهبة غزوهم، وأخبرهم بالوجه الذي يريد، وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم... وحض رسول الله ﷺ على القتال والجهاد، ورغبهم فيه، وأمرهم بالصدقة، فحملوا صدقات كثيرة، فكان أول من حمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء بماله كله أربعة آلاف درهم، ثم تتابع الناس بالصدّقة... وجهز عثمان بن عفان رضي الله عنه ثلث ذاك الجيش فكان من أكثرهم نفقة، حتى كفى ذلك الجيش مؤنتهم، ويقال إن رسول الله ﷺ قال يومئذ: «ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا».
فلما استمد برسول الله ﷺ السفر، وأجمع المسير، استخلف على المدينة سُباع ابن عُرفُطَة الغفاري - ويقال محمد بن مسلمة - لم يتخلف عنه غزوة غير هذه.
وقال رسول الله ﷺ: «استكثروا من النّعال»، فإن الرجل لا يزال راكبًا ما دام منتعلاً، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أبي عن رسول الله ﷺ في من تخلف من المنافقين وقال: يغزوا محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب. ونافق معه من هو على مثل رأيه، ثم قال ابن أبي: والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال، إرجافًا برسول الله ﷺ وأصحابه.
وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفًا، ومن الخيل عشرة آلاف فرس، وأمر رسول الله ﷺ كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواء وراية، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية.
وقال رسول الله ﷺ: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تنالوها حتى يضحي النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي»، قال معاذ بن جبل: فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الزلال تبض بشيء من ماء، فسألهما: هل مسستما من مائها شيئًا قالا: نعم، فسبهما النبي ﷺ وقال لهما: «ما شاء الله أن يقول». ثم غرفوا قليلاً حتى اجتمع في شنّ، ثم غسل فيه وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجاءت العين بماء كثر فاستقى الناس.
ثم قال النبي ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانًا».
وقال: قدم رسول الله ﷺ تبوك وأقام بها عشرين ليلة يصلي ركعتين، وهرقل يومئذ بحمص.
وقال: ولما انتهى برسول الله ﷺ إلى تبوك وضع حجرًا قبلة مسجد تبوك بيده وما يلي الحجر، ثم صلى الظهر بالناس. اهـ.
وقال البلاذري: توجه رسول الله ﷺ إلى تبوك من أرض الشام، لغزو من انتهى إليه أنه قد تجمع له من الروم وعاملة ولخم وجذام وغيرهم، وذلك في سنة تسع من الهجرة لم يلق كيدًا فأقام بتبوك أيامًا، فصالح أهلها على الجزية، وأتاه وهو بها يُحَنة بن رُؤْبة - صاحب أيلة - فصالح على أن جعل له على كل حالم بأرضه في السنة دينارًا، فبلغ ذلك ثلاثمائة

دينار. واشترط عليهم قرى من مرّ بهم من المسلمين وكتب لهم كتابًا بأن يُحْفَظُوا ويُمْنَعُوا.

وصالح رسول الله ﷺ أهل أذْرُح على مائة دينار في كل رجب، وصالح أهل الجَرْباء على الجزية وكتب لهم كتابًا، وصالح أهل مَقْنَا على ربع عروكهم - والعروك خشب يصطاد عليه - وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكانوا يهودًا، وكتب لهم بذلك كتابًا وصالح أهل دومة الجندل وكتب لهم بذلك كتابًا. اهـ.

قلت: ومما تقدم من الأحاديث وأقوال العلماء يفهم أن اسم تبوك كان معروفًا قبل غزوة النبي ﷺ لها، وأنها كانت آهلة بسكان.

١ - ومن أهم نتائج غزوة تبوك. استسلام أهل أيلَة وأذرُح ومَقْنَا والجَرْباء ودومة، وأهل تلك الجهات لرسول الله ﷺ ومصالحتهم له.

٢ - أن النبي ﷺ سار حتى بلغ تبوك وأقام بها أيامًا؛ فصالحه أهلها على الجزية.

٣ - أن النبي ﷺ بلغ تبوك في غزوته وقفل منها راجعًا ولم يلق كيدًا؛ لأن من تجمعوا له من الروم وأعوانهم قد تفرقوا قبل أن يصل إليهم.

٤ - حدث في غزوة تبوك معجزات وكرامات لنبي الله تختص بتوفير الطعام والماء وغير ذلك من الوقائع التي تحدث عنها المؤرخون.

٥ - ظهور النفاق من المنافقين الذين كانوا يرجفون بالمسلمين، وقد فضحهم الله بما أنزل فيهم من آيات القرآن الكريم التي في سورة التوبة.

٦ - قوة عزيمة النبي ﷺ وأصحابه على تنفيذ هذه الغزوة، في حال من الشدة والعسر وبعد المسافة وحرارة الوقت وصعوبة الطريق.

٧ - حرص أصحاب النبي ﷺ على الجهاد والإنفاق في سبيل الله، ممثلاً ذلك فيما أنفقوه من أموالهم في تجهيز هذا الجيش حتى اكتمل تجهيزه.

هذا بعض ما تحقق في هذه الغزوة التي نفذها رسول الله ﷺ، وأنزل الله الرعب في قلوب أعدائه ففروا من وجهه هاربين فلم يلق فيها كيدًا.

تَعْهِن: بفتح التاء المثناة وكسرها، وعين مهملة ساكنة بعدها، هاء مكسورة ثم نون: موضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة.

روى البخاري عن عبد الله بن أبي قتادة قال: انطلق أبي عام الحديبية، فأحرم أصحابه ولم يحرم وحُدِّث النبيّ ﷺ أن عدوًا يغزوه فانطلق النبي ﷺ فبينما أنا مع أصحابي يضحك بعضهم إلى بعض فنظرت فإذا أنا بحمار وحش فحملت عليه فطعنته فأثبته واستعنت بهم فأبوا أن يعينوني فأكلنا من لحمه وخشينا أن نُقْطَع فطلبت النبي ﷺ أرفع فرسي شأوا وأسير شأوا فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال: تركته بتعهن وهو قائل السقيا.

قال ابن حجر: تعهن: بكسر المثناة وبفتحها. بعدها عين مهملة ساكنة ثم هاء مكسورة ثم نون، ورواية الأكثر بالكسر وبه قيّدها البكري في معجم البلاد، ووقع عند الكشميهني بكسر أوله وثالثه، ولغيره بفتحها، وحكى أبو زيد الهروي أنه سمعها من العرب بذلك المكان بفتح الهاء، ومنهم من يضم التاء ويفتح العين ويكسر الهاء، قيل: وهو من تغييراتهم والصواب الأول. وأعرب أبو موسى المديني فضبطه بضم أوله وثانيه وبتشديد الهاء، قال: ومنهم من يكسر التاء، وأصحاب الحديث

يسكنون العين، ووقع في رواية الإسماعيلي بِدعْهِن، بالدال المهملة بدل المثناة.

وقال السهيلي: تِعْهِن: بكسر التاء والهاء والتاء فيه أصلية على قياس النحو، فوزنه فِعْلِل إلا أن يقوم دليل من اشتقاق على زيادة التاء، أو تصح رواية من رواه تُعهن بضم التاء، فإن صحت فالتاء زائدة، كسرت أو ضمت، وبتعهن صخرة، يقال لها أم عقى عرفت بامرأة كانت تسكن هناك، فمر بها النبي ﷺ واستسقاها فلم تسقه، فدعا عليها فمسخت صخرة، فهي تلك الصخرة فيما يذكرون.

وقال البكري: تِعِهن بكسر أوله وإسكان ثانيه، وكسر الهاء. وتعهن وذو الريان وأمج: مياه لبني ليث بن بكر. وتعهن بين القاحة والسقيا في طريق مكة من المدينة.

وقال ياقوت: تِعْهِن بكسر أوله وهائه، وتسكين العين وآخره نون: اسم عين ماء سُمي به موضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة، وقد روى في تَعِهن، بفتح أوله وكسر هائه وبضم أوله.

قلت: وقد مرّ النبي ﷺ تعهن في طريق هجرته من مكة إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: ثم أجازبهما ـ يعني النبي ﷺ ورفيقه أبا بكر رضي الله عنه ـ مدلجة لقف ثم استبطن بهما ـ يعني دليلهما ـ مدلج محاج، ويقال: مجاج، فيما قاله ابن هشام، ثم سلك بهما مرجح مجاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين. قال ابن هشام: ويقال: العضوين. ثم بطن ذي كَشْر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم، من بطن أعداء مدلج تعهن، ثم على العبابِيْد. قال ابن هشام: ويقال العبابيب، ويقال: العثيانة. يريد: العبابيب.

قال ابن إسحاق: ثم أجازبها الفاجة، ويقال القاحة، فيما قال ابن هشام. اهـ.

قلت: ومما تقدم يتبين اختلاف العلماء في ضبط (تعهن) وكثرة الأقوال في ضبط هذا الاسم، غير أنهم لم يختلفوا كثيرًا في وصفه وتحديده.

وقال السمهودي: في تحديده سألت بعض العارفين بهذه الأماكن، فقال: هي معروفة اليوم: القاحة مما يلي المدينة، ثم السقيا إلى جهة مكة ثم تعهن بعده، ثم سألت جماعة عن ذلك وكلهم أخبرني بذلك.

قلت: لقد زار هذا الموضع ـ وهو ما زال معروفًا باسمه ـ عاتق البلادي ووصفه وقال في وصفه: تعهن: واد من كبار روافد القاحة يأتيها من الشرق من جبال قدس، فيدفع أسفل من السقيا على مرأى منها فيه آبار سقي كثيرة، وله روافد متعددة، وفيه آثار عين لا زالت ضفائرها وأحواض نخلها ماثلة، وملاكه اليوم العُبَدة من بني عمرو من حرب وعند مصبه زراعة قليلة، وكل ما يعرف اليوم عن تعهن فقد رويناه عن مشاهدة.

وقال في موضع آخر تعهن: واد يأتي القاحة من الشرق من جبل عوف (قدس) فيصب عند أم البرك السقيا مما يلي الثبرة. وبعد ثلاثة أكيال من اجتماعه بالقاحة وصلت إلى بركة تعهن: بركة مهدمة في جانب الوادي الأيسر، تمتد تحتها أرض كانت تسقيها عين، فيها قعور النخل النخرة ترى، ومجاري قنوات الماء معمولة بالحجر ومساكن مهدمة، وضفائر على شكل زوابن للجبال تنقض على الأرض الزراعية.

قلت: وبهذا يتبين ضبط هذا الاسم والتعريف به وتحديد موقعه والواقع أن تعهن والقاحة والسقيا كلها مواضع قريب بعضها من بعض،

يمر بها طريق الحجاج القديم بين مكة والمدينة وهي إلى المدينة أقرب.

التَّنْعِيْم: بفتح التاء المثناة وسكون النون الموحدة، وعين مهملة بعدها ياء مثناة وآخره ميم: موضع على أربعة أميال جهة المدينة من مكة على الطريق القديم.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أهللت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فكنت ممن تمتع ولم يسق الهدي، فزعمت أنها حاضت ولم تطهر حتى دخلت ليلة عرفة فقالت: يا رسول الله هذه ليلة عرفة وإنما كنت تمتعت بعمرة، فقال لها رسول الله ﷺ: «انقضي رأسك وامتشطي وأمسكي عن عمرتك» ففعلت فلما قضيت الحج أمر عبد الرحمٰن ليلة الحصبة فأعمرني من التنعيم مكان عمرتي التي نسكت.

قال ابن حجر: التنعيم بفتح المثناة وسكون النون وكسر المهملة: مكان معروف في خارج مكة، وهو على أربعة أميال من مكة إلى جهة المدينة، كما نقله الفاكهي.

وقال المحب الطبري: التنعيم أبعد من أدنى الحل إلى مكة بقليل وليس بطرف الحل، بل بينهما نحو من ميل، ومن أطلق عليه أدنى الحل فقد تجوز.

قلت: أو أراد بالنسبة إلى بقية الجهات.

وروى الفاكهي من طريق عبيد بن عمير قال: إنما سمي التنعيم لأن الجبل الذي عن يمين الداخل يقال له ناعم، والذي عن اليسار يقال له منعم، والوادي نعمان.

وروى الأزرقي من طريق ابن جريج: قال رأيت عطاء يصف الموضع الذي اعتمرت منه عائشة قال: فأشار إلى الموضع الذي ابتنى فيه محمد بن علي بن شافع المسجد الذي وراء الأكمة، وهو المسجد الخرب.

ونقل الفاكهي عن ابن جريج وغيره أن ثم مسجدين، يزعم أهل مكة أن الخرب الأدنى من الحرم هو الذي اعتمرت منه عائشة، وقيل هو المسجد الأبعد على الأكمة الحمراء، ورجحه المحب الطبري وقال الفاكهي: لا أعلم إلا أني سمعت ابن أبي عمر يذكر عن أشياخه أن الأول هو الصحيح عندهم. اهـ.

قال ياقوت: التنعيم: بالفتح ثم السكون، وكسر العين المهملة وياء ساكنة، وميم: موضع بمكة في الحل، وهو بين مكة وسرف، على فرسخين من مكة وقيل على أربعة، وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم، وآخر عن شماله يقال له ناعم، والوادي نعمان، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة وسقايا على طريق المدينة منه يحرم المكيون بالعمرة، وقال محمد بن عبد الله النميري: -

فلم ترعيني مثل سرب رأيته
خرجن من التنعيم معتمرات
مررن بفخ ثم رحن عشية
يلبين للرحمٰن مؤتجرات
فأصبح ما بين الأراك فحذوة
إلى الجذع جذع النخل والعمرات
له أرج بالعنبر الغض فاغم
تطلع رياه من الكفرات
تضوّع مسكًا بطن نعمان إن مشت
به زينب في نسوة عطرات

وقال البكري: التنعيم: على لفظ المصدر من نعمته تنعيمًا. وهو بين مر وسرف، بينه وبين مكة فرسخان. ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة وهو الذي أمر رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن ابن أبي بكر أن يعمر منه عائشة. اهـ.

وقال الفاسي: التنعيم: في حد الحرم من جهة المدينة النبوية وهو أمام أدنى الحل على ما ذكر المحب الطبري، قال: وليس بطرف الحل، ومن فسر بذلك تجوز وأطلق اسم الشيء على ما قرب منه، وأدنى الحل إنما هو من جهته ليس موضع في الحل أقرب إلى الحرم منه، وهو على ثلاثة أميال من مكة، والتنعيم أمامه قليلاً في صوب طريق وادي مر الظهران. انتهى بنصه. اهـ.

قال الأزرقي: التنعيم: في طريق المدينة الغربي، والأنصاب في هذا الطريق على رأس ثنية تسمى (ذات الحنظل) فما كان من وجهها في هذا الشق فهو حرم، وما كان في ظهرها فهو حل. اهـ.

قلت: اتفق العلماء على ضبط اسم التنعيم، وأنه هو الموضع الذي اعتمرت منه عائشة رضي الله عنها، كما اتفقوا على موقعه، غير أنهم اختلفوا في تحديد المسافة بينه وبين مكة إلا ما قال البكري: هو بين مر وسرف والصحيح: هو بين سرف ومكة.

ومهما كان الاختلاف في المسافة بينه وبين مكة فإنها مسافة قصيرة، وهو ما زال معروفًا باسمه، وقد أصبح العمران في هذا العهد يسير إلى ربوعه من مكة، ليصبح حيًا معمورًا من أحياء مكة آهلاً بالسكان.

وقال عاتق البلادي: التنعيم: واد من روافد وادي يأجج يأتيه من الجنوب، من جبل الشهيد، وجبال بشم، رأسه الثنية البيضاء فيها عمرة التنعيم، وصلها اليوم نزل مكة من الجنوب، وقد خُطّط اليوم وادي التنعيم ليكون مدينة صناعية.

تِهامَة: أوله تاء مثناة مكسورة، بعدها هاء، بعد الهاء ألف ثم ميم مفتوحة وآخره هاء، هي الصحارى الممتدة بين جبال السروات وبين البحر الأحمر.

روى البخاري عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال كنا مع النبي ﷺ بذي الحليفة من تهامة فأصبنا غنمًا وإبلاً فعجّل القوم فأغلوا بها القدور، فجاء رسول الله ﷺ فأمر بها فأكفأت ثم عدل عشرًا من الغنم بجَزُور.

وفيما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة.

قلت: وقد قسّم العلماء جزيرة العرب إلى خمسة أقسام، وحددوا كل قسم من هذه الأقسام. فمنهم من حددها بمنازل القبائل التي تسكنها، ومنهم من حددها بذكر بعض المواضع الواقعة فيها، كالجبال والأودية والقرى.

قال ياقوت: فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب في أشعارها وأخبارها: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن، وذلك أن جبل السراة، وهو أعظم جبال العرب وأذكرها، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازًا لأنه حجز بين الغور، وهو تهامة، وهو هابط، وبين نجد، وهو ظاهر، فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها، وغار من أرضها الغور، غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله.

وقال أيضًا: قال أبو المنذر: تهامة تساير البحر منها مكة. وقال الشرقي بن القطامي: تهامة إلى عرق اليمن إلى أسياف البحر إلى الجحفة وذات عرق.

وقال عمارة بن عقيل: ما سال من الحرّتين حرّة سليم، وحرّة ليلى فهو تهامة والغور حتى يقطع البحر.

وقال الأصمعي: طرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج وأول تهامة من قبل نجد ذات عرق، المدارج: الثنايا الغلاظ.

وقال ابن الأعرابي: وجرة من طريق البصرة فصل ما بين نجد وتهامة، وقال بعضهم: نجد من حد أوطاس إلى القريتين، ثم تخرج من مكة فلا تزال في تهامة حتى تبلغ عسفان بين مكة والمدينة، وهو على ليلتين من مكة، ومن طريق العراق إلى ذات عرق هذا كله تهامة.

وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها، وهو من التهم وهو شد الحر وركود الريح، يقال: تَهَم لحرّ إذا اشتد.

وقال المبرّد: إذا نسبوا إلى تهامة قالوا رجل تَهَام، بفتح التاء وإسقاط ياء النسبة، لأن الأصل تَهَمة، فلما زادوا ألفًا خففوا ياء النسبة.

وقال إسماعيل بن حماد: النسبة إلى تِهامة تَهامي وتَهام، إذا فتحت التاء لم تشدد الياء، قال ابن أحمر:

وأكبادهم كابني سبات تفرقوا
سبا ثم كانوا منجدًا وتهاميا
وألقى التهامي منهما بلطاته
وأخلط هذا لا أريم مكانيا

وقوم تَهامون كما يقال يمانون وقال سيبويه: منهم من يقول تَهامي ويَماني وشَامي، بالفتح مع التشديد، وقال زهير:

يحشونها بالمشرفية والقنا
وفتيان صدق لا ضعاف ولا نكل
تَهامون نجديوّن كيدًا ونجعة
لكل أناس من وقائعهم سجل

وأتْهَم الرجل إذا صار إلى تهامة، قال بعضهم:

فإن تتهموا أنجدْ خلافًا عليكم
وإن تعمنوا مستحقبي الحرب أعرق

والمتهام: الكثير الإتيان إلى تِهامة، قال الراجز:

ألا أتهما إنها متاهيم
وإننا مناجد متاهيم

وقال حميد بن ثور الهلالي:

خليلي هبّا علّلاني وانظرا
إلى البرق ما يفرى سنًا وتبسما
عروض تدلت من تهامة أهدِيت
لنجد فتاح البرق نجدًا وأتهما

اهـ.

وقال الأصمعي: إذا جزت ذات عرق إلى البحر فأنت في غمرة... وإذا تصوبت في ثنايا ذات عرق فقد أتهمت.

وقال الهمداني: وذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز، وفيهما يقول الشاعر:

كأن المطايا لم تنخ بتهامة
إذا صعدت من ذات عرق صدورها[(١)]

وقال آخر من أهل ذات عرق:

ونحن بسهب مشرف غير منجد
ولا متهم فالعين بالدمع تشرق

وتحدث عرام السلمي عن تهامة وجبالها وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت فيها من الأشجار فقال: أولها رضوى، من ينبع على يوم، ومن المدينة على سبع مراحل، ثم أخذ يصف ما في تهامة من الجبال والقرى

(١) ذات عرق بكسر العين المهملة وسكون الراء آخره قاف: موضع مشهور يعرف الآن باسم الضريبة في أعلى نخلة الشامية، وهو مهلّ أهل العراق.

والمياه، وما ينبت في جبالها من أشجار، ويذكر سكانها، ولا يتسع لما قاله مقامنا هذا.

وقال البكري: وطول السرات ما بين عرق إلى حد نجران، وما خلف هذا الجبل في غربيه إلى أسياف البحر، من بلاد الأشعريين[1] وعك وكنانة إلى ذات عرق والجحفة وما والاها وصاقبها وغار من أرضها: الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وغور الشام لا يدخل في ذلك.

وقال في موضع آخر: وأما تِهامة، فإنك إذا هبطت من الأثاية إلى الفرع وغيقة إلى طريق مكة إلى أن تدخل مكة: تهامة، إلى ما وراء ذلك من بلاد عك، كلها تهامة، والمجازة وعلّيب وقنوني ويزن كلها تهامة، وأنت إذا انحدرت في ثنايا ذات عرق متهم إلى أن تبلغ البحر، وكذلك إذا تصوبت في ثنايا العرج إلى أقصى بلاد بني فزارة فأنت متهم.

قلت: ومما تقدم من أقوال العلماء في تحديد تهامة ووصفها يفهم أن اسم تهامة يشمل: الصحارى الممتدة من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى أطرافها الشمالية المحصورة بين ما انحدر من جبال السروات، وبين البحر الأحمر.

هذا ما يدل عليه تقسيمهم لجزيرة العرب إلى خمسة أقسام، أولها من الناحية الغربية تِهامة، وما يؤكده ما ذكروه فيها من أعلام: من الجبال والأودية والمياه والبلدان، وما زال اسم تهامة باقيًا شاملاً لبلادها من جنوبها إلى شمالها كما حددها ووصفها العلماء المتقدمون.

تَيْمَاء: بتاء مثناة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره ألف ممدود: مدينة تقع في الشمال الغربي من المملكة العربية السعودية على بعد (٤٧٦) كيلاً شمال المدينة.

وروى البخاري عن ابن عمر أن عمر ابن الخطاب ﵁ أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها كانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين وأراد إخراج اليهود منها فسألت اليهود رسول الله ﷺ ليقرهم بها أن يكفوا عملها ولهم نصف الثمر فقال لهم رسول الله ﷺ: «نقركم بها على ذلك ما شئنا فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحا».

وقد تحدث المؤرخون عن تيماء ووصفوها وصفًا واضحًا، فقال البكري: تيماء بفتح أوله وبالمد، على وزن فعلاء، وتيماء من أمهات القرى ويقال: إنها صلح صالح أهلها رسول الله ﷺ.

قال السكوني: ترتحل من المدينة وأنت تريد تيماء، فتنزل الصهباء لأشجع، ثم تنزل أشماذين لأشجع، ثم تنزل العين، ثم سَلاَح لبني عذرة، ثم تسير ثلاث ليال في الجناب، ثم تنزل تيماء وهي لطيء.

وكان حمل بن مالك بن النابغة يسكن الجناب، وبينه وبين تيماء حصن الأبلق الفرد، الذي كان ينزله السّموْأل ويقول فيه الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزله
حصن حصين وجار غير غدّار

وتيماء: مدينة لها سور، وعلى شاطئ بحر طوله فرسخ وبها بحيرة يقال لها العقيرة، ونهر

---

(١) انظر بلاد الأشعريين وعك في رسم برك الغماد.

يقال له: نهر فيحاء، وهي كثيرة النخيل والتين والعنب، وبها ناس كثير من بني جوين، من طيء، وبني عمرو وغيرهم. ا.هـ.

وقال ياقوت: تيماء: بالفتح والمد: بليدة في أطراف الشام[1] بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عاديا اليهودي مشرف عليها، فلذلك كان يقال لها تيماء اليهودي.

ولما أبلغ أهل تيماء في سنة تسع وطءُ النبي ﷺ وادي القرى أرسلوا إليه وصالحوه على الجزية، وأقاموا ببلادهم وأرضهم بأيديهم، فلما أجلى عمر رضي الله عنه اليهود من جزيرة العرب أجلاهم معهم، قال الأعشى:

ولا عاديًا لم يمنع الموت ماله
وورد بتيماء اليهودي أبلق

وقال بعض الأعراب:

إلى اللّه أشكو لا إلى الناس إنني
بتيماء تيماء اليهود غريب
وأني بتهباب الرياح موكّل
طروب إذا هبت عليّ جنوب
وإن هبّ علويّ الرياح وجدتني
كأني لعلوي الرياح نسيب اهـ.

وفي الروض المعطار قال الحميري: تيماء: من أمهات القرى، على سبع ليال من المدينة المنورة، ولها سور على شاطئ بحر طوله فرسخ، ويخرج من تيماء إلى الشام على حوران والثنية وحسمى، وبين تيماء وأول الشام ثلاثة أيام، وتيماء مياه ونخل ومنه تمتار البادية وبه تجارات قلائل.

وقال البلاذري: ولما بلغ أهل تيماء ما وطئ به رسول الله ﷺ أهل وادي القرى صالحوه على الجزية، فقاموا ببلادهم وأرضهم في أيديهم، وولى رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد ابن العاص بن أمية وادي القرى، وولى يزيد بن أبي سفيان بعد الفتح، وكان إسلامه يوم فتح تيماء.

وقال: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلى أهل فدك وتيماء وخيبر، قال: وكان قتال رسول الله ﷺ أهل وادي القرى في جمادى الآخرة سنة تسع. اهـ.

وتحدث حمد الجاسر عن تيماء حديثًا طويلاً شمل الجوانب التاريخية والجغرافية والحضارية في مختلف العصور، وقال في حديثه: قمت في جولة حول البلدة وشاهدت آثار ما يعتقد بأنه حصن السموأل (الأبلق) المتصل بسور البلدة في غربها، وهذا السور تل عريض طويل مبني من الحجارة، وقد تهدم كثير من جوانبه بحيث لم يبق منه سوى الأساس، وفي بعض الجوانب لا تزال بقايا قائمة، ففي الجهة الجنوبية من البلاد يبدو الباقي من السور شامخًا مرتفعًا، بحيث يقارب الارتفاع عشرة أمتار.

تقع البلدة في منخفض من الأرض، حيث تنحدر السيول إلى هذا المنخفض من الجنوب ومن الشرق مارة ببلدة تيماء وبساتينها، وكانت البلدة فوق مرتفعات الوادي في جنوب هذه الوهدة (المنخفض) ثم تتجه السيول إلى الشمال، حيث تبتلعها سبخة واسعة لا منفذ لما ينحدر إليها من السيول، لإحاطتها من الشمال بتل صخري مرتفع.

وكان السور يحيط بالبلدة وحدائقها وحصونها من ثلاث جهات، على ما يبدو من آثاره الباقية، من الجنوب ومن الغرب ومن الشمال الغربي، أما الجهة الشمالية فيحيط بالبلدة

---

(١) قوله: بليدة في أطراف الشام غير صحيح.

ـ على بعد منها على حافة السبخة ـ تل مرتفع، برز منه جبيل يدعى (طويل سعيد).
وتتوسط بئر هدّاج في وسط البلدة، وهذه البئر حفرة عميقة ليست مستديرة ولا مربعة، متعددة الجوانب، مطوية بالحجارة. . . وعندما زار الملك سعود رَحِمَهُ اللَّهُ البلدة تبرع بأربع مضخات، وأمر بمهندس ليتولى تركيب تلك المضخات على البئر، ولا تزال مقامة عليها.
وأشهر أسرها ـ يعني تيماء ـ: آل رمان، وآل سلامة، وآل خلف بن عمر.
وتعتبر تيماء من أقدم مدن المملكة، وقد أثبتت الآثار التي وجدت فيها صحة هذا، ونجد في المؤلفات العربية التاريخية خبر غزو الزبّاء ملكة تدمر لتيماء، وعجزها عن الاستيلاء عليها، بحيث أصبح المثل المنسوب إليها: (تَمرَّد مارد وعزّ الأبلق) من أشهر الأمثال العربية، إذ الزبّاء عاشت في القرن الثالث الميلادي وقتلت سنة ٢٧٣م تقريبًا، وهذا مما يدل على أن الحصن كان قديمًا، وأن إضافة بنائه لأناس تأخروا عن هذا الزمن قد يكون من قبل التجديد والإصلاح.
ومن المعروف أن سكان جزيرة العرب قبل الإسلام كانوا يدينون بديانات مختلفة، فقد انتشرت الديانة اليهودية في جنوب الجزيرة وفي شمالها، وانتشرت الديانة النصرانية في شمال الجزيرة وشرقها وجنوبها، وانتشرت المجوسية في شرق الجزيرة.
ولا شك أن الديانة اليهودية قد انتشرت في تيماء، ولكن سكانها لم يكونوا يهودًا، بل كانوا في ذلك العهد عربًا قحطانيين من غسان، وما كان اليهود يستطيعون في ذلك العهد أن يتوغلوا إلى تيماء الواقعة في مكان متوغل بين منازل القحطانيين في الغرب والشمال والشرق، ومنازل العدنانيين في الجنوب والجنوب الغربي.
أما مصالحة الرسول ﷺ لأهلها على الجزية، فقد صالح أناسًا من العرب عليها، كما فعل مع الأكيدر الكندي وقومه، سكان دومة الجندل، وهم من بني كلب من قحطان، وكما فعل أصحابه فيما بعد حينما أخذوا الجزية من بني تغلب، وهم من ربيعة من عدنان لبقائهم على دينهم من النصرانية.
وبالإجمال فإن سكان تيماء من العرب الصريحين في نسبهم، وكانوا عند ظهور الإسلام يدينون باليهودية، ثم انتقلوا إلى الإسلام بعد أن توطدت قواعده في الجزيرة.
وممن تركوا اليهودية أبناء السموأل الذين كانوا معروفين في تيماء إلى منتصف القرن الرابع الهجري، كما قال أبو بكر بن دريد: السموأل بن عاديا بن حيّا من الأزد أولاده بتيماء إلى اليوم.
وفي العصور المتأخرة أصبحت تيماء تعيش في عزلة تامة عن العالم، ويسودها نفوذ قبلي حتى كان القرن الثاني عشر الهجري، حيث بدأت قبيلة شمر تسيطر على النواحي الشمالية من الجزيرة، وكان أن استوطن تيماء بعض الأسر الشمرية، عاشت البلدة تحت نفوذها، ومن هؤلاء أسرة آل رمان.
وفي سنة ١٣٦٩هـ انتهى نفوذ أسرة آل رمان في تيماء، وضمت إلى المملكة العربية السعودية وعين فيها أمير من قبل الدولة السعودية.
هذا بعض ما تحدث به حمد الجاسر عن مدينة تيماء[١].

---

(١) في شمال غرب الجزيرة رقم ٣٢٣ ـ ٤١٩.

قلت: مدينة تيماء، مدينة عريقة في القدم، كما تقدم من أقوال المؤرخين، واقعة في شمال غرب المملكة العربية السعودية، يمر بها الطريق المسفلت الذي يصل بين المدينة المنورة وبين تبوك، على بعد (٤٧٦) كيلاً من المدينة، و(٢٤٠) كيلاً من تبوك.

وقد شملها النمو العمراني والتطور الاجتماعي الذي شمل كل مدن وقرى المملكة العربية السعودية في مختلف المرافق، وكان لمرور الطرق المسفلتة عليها أثر واضح في نموها العمراني والاقتصادي.

وقد زرتها سنة ١٣٩٥هـ ورأيت معالم التقدم واضحة في الأسواق التجارية ومحطات الوقود، والمقاهي وشق الطرق، إلى جانب أخذها بنصيبها من التعليم للبنين والبنات.

وتيماء: من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها عدد من الأمكنة.

تيماء: المدينة المعروفة التي تحدثت عنها فيما سبق.

تيماء: على لفظ ما تقدم، بفتح التاء وسكون الياء وميم بعدها ألف ممدود: بلد قديم كثير النخل. ذكره الهمداني ووصفه فقال ـ وكأنه يعلق على شعر امرئ القيس ـ: «كتيفة وتيماء، هنالك تيماء منزل كثير النخل، عادل عن محجة العراق، وهو غير تيماء السموأل» ثم ذكر بعد ذلك أبانا والمجيمر والغبيط.

قلت: وبما أن المواضع التي ذكرها امرؤ القيس في شعره واقعة في ظل السحاب الذي كان يرى برقه واقع في وادي الرمة أو قريبًا منه، فإنه من المحتمل أن تكون تيماء التي ذكرها غير تيماء السموأل.

قال حمد الجاسر: في بحث نشره في صحيفة المدينة تعليقًا على شعر امرئ القيس:

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة
ولا أطما إلا مشيدًا بجندل

القول في تيماء: لقد كان المتقدمون يرون أن امرأ القيس قصد تيماء البلدة المعروفة الآن، ولكن فاتهم وجود موضع بهذا الاسم يقع في الشمال من هجرة البعايت الواقعة في غرب القصيم، بقرب قرية الحاجر، وكان هذا الموضع معمورًا في العهود القديمة، حيث عثر فيه على بضعة عشر بئرًا مطويًا ومنها ما يستعمل الآن، هذا الموضع كان يعرف قديمًا باسم (تيماء). ثم ذكر نص الهمداني المتقدم، ثم قال: وذكر جبلي أبان والمجيمر بعد ذكر تيماء هذه وهي كما وصف عادلة عن محجة العراق، ويقصد طريق الحج الكوفي الذي كان يمر بالحاجر، وتيماء يساره بنحو بضعة أكيال، ولا أعتقد أن دارس الشعر القديم يجهل ضرورة تصور البيئة التي وصفها الشاعر من خلال ما يذكر من أسماء مواضعها، مع محاولة الاهتداء إلى ما يجهل من تلك المواضع بما هو مذكور[1].

قلت: ولبعد تيماء السموأل قاصية في غرب شمال الجزيرة عن المواضع الواردة في أبيات امرئ القيس مقرونة بذكر تيماء، ولوجود نص قديم يشير إلى موضع يسمى تيماء قريب من هذه المواضع، وقريب من وادي الرمة، فإن القول يترجّح بأن تيماء السموأل غير مقصودة في شعر امرئ القيس، وإنما المقصود هو تيماء القصيم.

---

(١) صحيفة المدينة، العدد ٦٨٤٨ بتاريخ ٢٧/٤/١٤٠٦ هـ.

تَيْمَا: بتاء مفتوحة وياء ساكنة وميم بعدها ألف مقصور، هضبة حمراء كبيرة، فيها ماء عذب في ناحيتها الشرقية، يطلع إليه في شعب في الهضبة يفيض سيله شرْقًا، تقع شرق جبل ثهلان، في إقبال فيضة الريان، جنوبًا من بلدة الشعراء، تُرَى منها بالبصر وقد ورد ذكرها في الشعر الشعبي كثيرًا، وهي من أعلام الشريف، شريف بني نمير قديمًا. ومما دعا الشعراء إلى الإكثار من ذكر هضبة تيما في أشعارهم هو ما تمتاز به هذه الهضبة في تكوينها الطبيعي، فهي هضبة حمراء عالية المناكب، من الغرانيت الأحمر المتلألئ الذي يمثّل منظرًا طبيعيًا خلابًا، وتنحدر منها شرقًا وغربًا شعاب سهلة فسيحة، ذات تربة رملية نقية، وفيها ماء عذب لا ينضب، وفيها كهوف واسعة ذات أرض سهلة واطئة، ولذلك كان أهالي بلدة الشعراء يذهبون إليها في الأعياد والمناسبات، ويقضون فيها بعض أوقاتهم[١].

وقد ذكرت في كتب الجغرافيا القديمة باسم (تَيْمَن) بنون في آخرها بدلاً من الألف، قال الهجري: تَيْمَن: وقال: أنشدني النميريّ لجحيفة في ابنتها وزوجها في بني نمير، فلما استهداها زوجها شاقها ذهابه فقالت:

صحا القلب إلا عن ظعائن فاتني
بهنّ نميريّ لتَيمن قارب

قال: وسألت الباهلي عن تيمن فقال: هضبة برأس الذّرو، ذَرو الشريف، مغرب الشمس من حصن ابن عصام بيوم، وسيل تيمن يصب في الكلاب. والكلاب وادٍ به نخل وسدر وطلح، وبجانب الكلاب ثهلان جبل عظيم، علم أسود به الوحوش، عرضه يوم، به فلجي، وذو يقن، والريان، والريا، والأطياء، واليريض، خسف به ماء، وكل ما أسمينا الشريف[٢] اهـ.

قلت: والشريف لا يزال يعرف هذا الاسم، إلا أنه أصبح يذكر مؤنثًا غالبًا ـ فيقال: الشّريفة، والبعض يذكرونه مؤنثًا مكبرًا فيقولون: الشّرفة، ومنهم من يقول: الشّريف. وبلدة الشعراء تسمى الشُّريفة لوقوعها في بلاد الشُّريف، وقد ذكرت في الشعر الشعبي باسم (الشّعراء) و(الشّريفة).

تُيْمَا كالذي قبله: هضبة حمراء، تقع جنوبًا غربيًا من ماء طلال، قريبة منه، ولهذا فإنها تُنسب إليه فيقال: تيما طلال، وشمالها جذيب أسود يسمى: ضرابين، وجبل المضيّح يقع جنوبًا منها، وهي في بلاد قبيلة مطير بني عبد الله، وكانت قديمًا في بلاد محارب.

وقد ذكرت في كتب المعاجم القديمة باسم (تَيْمَن) قُلبت نونها ألفًا مقصورًا، وكذلك ذكرت مضافة إلى ماء طلال، لقربها منه، وهو مورد مشهور قديمًا وحديثًا.

قال الأصفهاني: ذو طلال: أجبال سود لمحارب، قريب من تيمن، وتيمن هضبة حمراء لمحارب، قال الشاعر:

ما هاج عينيك من دار على جزع
بجنب تيمن مصطاف ومرتبع

وقال ياقوت: تَيْمَن هضبة حمراء في بلاد محارب قرب الرّبذة، قال الحكم الخضري ـ خضر محارب:

أبكاك والعين يذري دمعها الجزع
بنعف تيمن مصطاف ومرتبع

---

(١) ذكرت طائفة ممّا قيل فيها من الشعر الشعبي في كتاب (معجم عالية نجد).

(٢) أبحاث أبي علي الهجري ٢١٦.

جرت بها الريح أذيالاً وغيرها
مر السنين وأجلت أهلها النجع

وتيمن ذي طلال: وادٍ إلى جنب فدك في قول بعضهم، والصحيح أنه بعالية نجد، قال لبيد يذكر البراض وفتكة بالرحال بهذا الموضع:

وأبلغ إن عرضت بني كلاب
وعامر والخطوب لها موالي
بأن الوافد الرحّال أمسى
مقيمًا عند تيمن ذي طلال

قلت: ذكر ياقوت ذا طلال بالظاء المعجمة، والصحيح أنه بالطاء المهملة، وهو لا يزال معروفًا باسمه وقد تأسست فيه هجرة حديثة اسمها طلال، تابعة لإمارة القصيم، وتيما ما زالت معروفة باسمها، وقد استوفيت الحديث عن طلال، ماءه وجباله وصفًا وتحديدًا في كتابي (معجم عالية نجد) في رسمه.

باب الثاء

ثَبِيْر: بثاء مثلثة مفتوحة، وباء موحدة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره راء مهملة: جبل المزدلفة في مكة.

وروى البخاري عن عمرو بن ميمون يقول: شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجمع الصبح ثم وقف فقال: إن المشركين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون أشرق ثبير وإن النبي صلى الله عليه وسلم خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس.

قال ابن حجر: المراد بثبير الجبل المشهور الذي كانوا في الجاهلية يقولون له: أشرق ثبير، كيما نغير، وهو جبل المزدلفة، ولكن بمكة خمسة جبال أخرى يقال لكل منها ثبير، ذكرها أبو عبيد البكري وياقوت وغيرهما.

وتحدث الفاكهي عن الأثبرة فقال: ثبير غيناء: وهو المشرف على بئر ميمون بن الحضرمي وقلته المشرفة على شعب علي، وعلى شعب الحضارمة بمنى، كان يسمى في الجاهلية سميرًا، ويقال لقلته: ذات القتادة، وكان فوقه قتادة، ولها يقول الحارث بن خالد المخزومي:

إلى طرف الجمار فما يليها
إلى طرف القتادة من ثبير

وله يقول إبراهيم بن عباد:

وهل عائد ما قد قضى من زماننا
ليالي نعصي في الهوى ونطيعُ
ليالي قطوف اللهو دانية لنا
ومشربنا صاف ونحن جميعُ
ففج ثبير لا يرى البؤس بعدنا
وجاد عليه صيّف وربيعُ

وله يقول الخزاعي يذكر مكانه ومكان قومه من مكة:

ألا زعم المغيرة أن كعبا
بمكة منهم قدر كثيرُ
فلا تعجب مغير بأن ترانا
بها يمشي المعهلج والمهيرُ
بها آباؤنا وبها نبتنا
كما أرسى بمكته ثبيرُ

ويقول له قيس بن ذريح:

حلفت بمن أرسى ثبيرًا مكانه
عليه ضباب فوقه يتَعصَّبُ
لقد عشت من لبنى زمانًا أحبها
أخا الموت إذ بعض المحبين يكذبُ

وله يقول بعض الشعراء:

لا أنس من الأشياء لا أنس مجلسًا
لنا ولها بالسفح سفح ثبير

ولثبير يقول عباس بن مرداس السلمي:

ألا لا تطمعوا منا بسلم
طوال الدهر ما أرسى ثبير

قال محققه: لا زال معروفًا إلى اليوم، وهو من أعلى جبال مكة.

وقال الفاكهي: وثبير الذي يقال له: جبل الزنج، وإنما سمي جبل الزنج أن زنوج مكة فيما مضى كانوا يلعبون فيه، وهو ثبير النخيل.

قال محققه: وإنما سمي جبل الزنج لأن زنوج مكة كانوا يحتطبون فيه ويلعبون فيه، وهو: من ثبير النخيل، ويقال له: الأقحوانة، الجبل الذي به الثنية الخضراء.

والعبارة مضطربة عند الفاكهي، كما هي مضطربة عند الأزرقي، ولو سرنا على عبارة الأزرقي لقلنا: إن ثبير الزنج هو ثبير النخيل، وهو الأقحوانة أيضًا وهذا هو سبب إقحام تعاريف الأقحوانة في هذا الموضع.

أما لو سرنا على عبارة الفاكهي فيكون ثبير الزنج هو ثبير النخيل، أما الأقحوانة فموضع آخر غيرهما.

وقال عاتق البلادي في معالم مكة، عن ثبير الزنج: وهو المعروف اليوم بجبل المسفلة، وله أسماء عديدة منها: جبل عمر: يطلق على القسم المشرف على الشبيكة... وجبل الناقة يجاور جبل عمر من الجنوب الشرقي.... يجاور ذلك جبل الشراشف، وفي الجنوب الغربي، جبل النوبة... ويسمى غربه جبل الحفاير. اهـ.

قال المحقق: قد أحسن الأستاذ البلادي في تفصيل جبال هذا الثبير، فهو ذو سلسلة جبلية تبدأ من ريع الحفاير وتنتهي بقوز المكّاسة، وهذا الجبل هو الذي يفصل بين حيّ المسفلة بكامله، وحيّ الحفاير بكامله (الطندباوي) وقد فُتح في هذا الجبل نفقان يربطان بين حيّ المسفلة وبين حيّ الطندباوي وشارع المنصور.

قال الفاكهي وثبير النِّصْع: الذي فيه سداد الحجاج، وهو جبل المزدلفة عن يسارك وأنت ذاهب إلى منى وروي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: إن أهل الجاهلية كانوا يقولون لثبير هذا إذا أرادوا أن يدفعوا من المزدلفة: أشرق ثبير، فلا يدفعوا حتى يروا الشمس عليه، فخالفهم رسول الله ﷺ فدفع قبل طلوع الشمس.

قال محققه عبد الملك بن دهيش: هكذا عند الأزرقي أيضًا (على يسار الذاهب إلى منى) وهذا مشكل، إذ الذي يتبادر إلى الذهن من العبارتين أن هذا الجبل على يسار الذاهب من المزدلفة إلى منى، وهذا ليس صحيحًا لأن الجبل الذي على يسار النازل إلى منى من مزدلفة إنما سماه الأزرقي والفاكهي (ذات السُّليَم) وهذا مشهور.

أما جبل المزدلفة الذي سُمِيّ: (ثبير النِّصْع) والذي فيه سداد الحجاج إنما هو على يمين الذاهب إلى منى من المزدلفة.

وثبير النِّصْع هو أعلى جبل في منطقة المزدلفة وهو يحد أرضها من جهة الشمال الشرقي ومشهور اليوم بـ(جبل مزدلفة) ويحد ثبير النِصْع من جهة الشرق (ريع المرار) ومن الغرب ثبير الأحدب. وبعضهم يطلق اليوم على ثبير (النِصْع) جبل الأحدب.

وثبير النِّصْع هذا هو الجبل الذي لم يكونوا يدفعون من مزدلفة حتى يروا الشمس على رأسه، وليس هو جبل (ثبير غيْناء) المتقدم، كما توهمه بعض الفضلاء من القدامى أو المحدثين.

وقد وقفت مع الشريف محمد فوزان الحارثي عند تحديدنا لحدود مزدلفة وتبين لي أن جبل مزدلفة (ثبير النِّصْع) هو أعلى الجبال المحيطة بالمزدلفة وفيه سداد الحجاج وهو أول جبل تشرق عليه الشمس في مزدلفة.

أما الجبال التي على يسار النازل من مزدلفة إلى منى فإنها جبال صغيرة ومسمياتها معروفة وهي تحد مزدلفة جنوبًا، فأعلاها (ذات السّليم) ثم (المريخيات) وأطلت في ذلك لبيان ما أشكل على البعض والله أعلم.

وقال الفاكهي: وثبير الأعرج: المشرف على حق الطارقيين، بين المغمس والنخيل.

وقال محققه: يظهر من تحديد الفاكهي والأزرقي لهذا الجبل أنه الجبل المسمّى اليوم (جبل طارق) وهو أشمخ الجبال الواقعة بين المغمس والنخيل، والمغمس، هو: السهل الفسيح الواسع الذي يبدأ من أرض الصفاح والشرائع العليا (حنين) إلى سهل عرفات، بل إنّ سهل عرفات كله ما هو إلا امتداد لأرض المُغمّس.

وأما النخيل: فقد ضبطه ياقوت بضم النون وفتح الخاء مصغرًا، وأما ابن ظهيرة فقد جعلها باسم الشجر المعروف، وقال لعله أراد بالنّخيل بساتين ابن عامر التي كانت في جهة عرنة، لأنه كان بها نخل فيما مضى. اهـ.

وتحديد الفاكهي والأزرقي لموضع هذا الجبل الذي أسميناه جبل الطارقي وهو الجبل العالي الذي يكون على يسار القادم إلى مكة من طريق السيل إذا دخل أرض الصفاح واقترب من أنصاب الحوم، ويشرف اليوم على حيِّ الشرائع السفلى.

ولا زال يطلق على أحد شعابه التي تسيل منه شمالاً على أراضي الدّخل المحدود اسم: (شعب الأعرج).

وتحدث الأزرقي عن الأثبرة في مكة، ولم يزد عمّا ذكره الفاكهي ولم يختلف معه في شيء منها، إلا اختلافًا يسيرًا في ثبير، الذي يقال له جبل الزنج.

أما فيما يخص ثبير النِّصْع ـ وهو الذي يعنينا في كتابنا هذا من بين هذه الأثبرة ـ فإنّه قال عنه ما قاله الفاكهي، قال: وثبير النصع: الذي فيه سداد الحجاج وهو جبل المزدلفة الذي على يسار الذاهب إلى منى وهو الذي كانوا يقولون في الجاهلية إذا أرادوا أن يدفعوا من المزدلفة: أشرق ثبير، كيما نغير، ولا يدفعون حتى يروا الشمس عليه.

وقال ياقوت: ثبير: بالفتح ثم الكسر، وياء ساكنة، وراء، قال الجمحي وليس بابن سلام: الأثبرة أربعة: ثبير غيني[1] الغين معجمة مكسورة، وبمكة أيضًا أثبرة غير ما ذكرنا.

وقال البكري: ثبير: بفتح أوله، وكسر ثانيه، بعده ياء وراء مهملة، جبل بمكة، وهي أربعة أثبرة بالحجاز: وذكر ثبير غيني وثبير الأعرج وثبير الأحدب، وثبير الأثبرة.

قلت: ومما تقدم من أقوال العلماء في وصف هذه الجبال ـ التي يُسمَّى كل واحد منها ثبيرًا ـ يتبين لنا اختلافهم في عددها، وقد زاد بعضهم في عددها فجعلها ثمانية، ومنهم من جعلها أربعة ومنهم من ذكرها خمسة إلى غير ذلك من الأقوال. وكما اختلفوا في عددها اختلفوا في وصفها وتحديد مواقعها، إلاّ ما توافق عليه الأزرقي والفاكهي ـ وهو أقرب إلى الصواب ـ والذي نحن بصدد الحديث عنه من هذه الأثبرة، هو ثبير النّصْع، وقد تقدم تحديده ووصفه، وذلك لأنه هو ثبير الذي ورد في الحديث في صحيح البخاري، واتفقت أقوال المؤرخين على موقعه في مزدلفة وعلى اسمه، وهو اختيار ابن حجر في الفتح. وفي تحقيق عبد الملك بن دهيش الذي أسلفته مزيد من الإيضاح الذي يدل على أن هذا الجبل هو المعنيُّ في الحديث.

ثبير أيضًا كالذي قبله: قال ياقوت: موضع في ديار مزينة، وفي حديث شريس ضمرة المزني

---

(١) ذكره الأزرقي والفاكهي ممدودًا (غيناء).

لما حمل صدقة إلى النبي ﷺ، ويقال هو أول من حمل صدقته، قال له: ما اسمك، فقال: شريس، فقال له: بل أنت شريح، وقال: يا رسول الله أقطعني ماء يقال له ثبير، فقال: قد أقطعتك.

الثَّنِيَّتَان: بثاء مثلثة مفتوحة ونون موحدة مكسورة بعدها ياء مثناة وتاء مثناة، وآخره ألف ونون، مثنى ثنية: الثنية العليا والثنية السفلى، اللتان يهبطان على ذي طوى.

وروى البخاري أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يبيت بذي طوى بين الثنيتين ثم يدخل من الثنية التي بأعلى مكة.

قلت: دلت أقوال العلماء على أن الثنيتين هما: ثنية كَدَاء، وتُسمّى في هذا العهد (ريع الحجون)، وهي الثنية العليا. والثنية السفلى ثنية كُدى، وتُسمّى في هذا العهد (ريع الرسّام).

هاتان هما الثنيتان اللتان كان ابن عمر رضي الله عنهما يبيت بينهما بذي طوى أما الثنية التي بأعلى مكة التي يدخل منها فإنها ثنية كَداءَ.

وقد استوفيت الحديث عن هاتين الثنيتين في رسمهما فانظره.

الثَّنِيَّةُ السّفُلَى: بثاء مثلثة مفتوحة ونون موحدة مكسورة، بعدها ياء مثناة مشددة مفتوحة، وآخره هاء: ثنية كدى التي تهبط على ذي طوى في مكة.

روى البخاري عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ دخل مكة من كُدَاء من الثنية العليا التي بالبطحاء ويخرج من الثنية السفلى.

وفيه عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كَدَاء وخرج من كُدى من أعلى مكة.

قال ابن حجر: قوله: (الثنية السفلى) ذكر في ثاني حديثي الباب (وخرج من كُدَى) وهو بضم الكاف مقصور وهو عند باب شبيكة بقرب شعب الشاميين من ناحية قعيقعان، وكان بناء هذا الباب عليها في القرن السابع.

وقوله: (من أعلى مكة) كذا رواه أبو أسامة فقلبه، والصواب ما رواه عمرو وحاتم عن هشام (دخل من كَدَاء من أعلى مكة) ثم ظهر لي أن الوهم فيه ممن دون أبي أسامة.

قال عياض والقرطبي وغيرهما: اختلف في ضبط كَدَاء وكُدَى، فالأكثر على أن العليا بالفتح والمد والسفلى بالضم والقصر، وقيل بالعكس. قال النووي: وهو غلط.

وبهذا يتضح أن الثنية السفلى التي كان النبي ﷺ يخرج منها هي ثنية كُدَى.

وقد حدد الفاكهي هذه الثنية فقال: ثنية كُدَى: التي تهبط منها إلى ذي طوى، وهي التي دخل منها قيس بن سعد بن عبادة ـ ﵁ ـ يوم الفتح، وخرج منها رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال محققه عبد الملك بن دهيش: تعرف اليوم (ريع الرسّام)، سُميّت بذلك؛ لأن الذي يأخذ الرسم ـ الضريبة ـ على القادم من جدة يقعد هناك، فسمي الريع به.

وقال الفاسي: كُدَى، الموضع الذي يستحب الخروج منه لمن كان في طريقه، وهو الثنية التي بأسفل مكة التي بُني عليها بابها المعروف بباب الشبيكة ـ على ما يقتضيه كلام المحب الطبري في شرح التنبيه ـ لأنه قال فيه: وكُدَى التي يخرج منها الحاج مضمومة مقصورة،

وقد بُني عليها باب مكة الذي يتوجه منه إلى عمرة التنعيم.

وباب مكة الذي أشار إليه المحب هو: باب الشبيكة... وذكر النووي ما يؤيد ما ذكره المحب الطبري في ضبطها ومكانها لأنه قال في الإيضاح... السُّنة أن يدخل مكة من ثنية كَداءَ بفتح الكاف والمد وهي بأعلى مكة ينحدر منها إلى المقابر، وإذا خرج راجعًا إلى بلده خرج من ثنية كُدَى بالضم والقصر والتنوين، وهي بأسفل مكة بقرب جبل قعيقعان وإلى صوب ذي طوى. اهـ.

ومن هذه الثنية دخل قيس بن سعد بن عبادة يوم فتح مكة على ما ذكر الأزرقي.

وبأسفل مكة ثنية يقال لها: كُدَيّ، بالضم وتشديد الياء وتنوينها يخرج منها إلى اليمن. اهـ.

قال ياقوت: قال أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي: كَدَاء، الممدودة بأعلى مكة عند المحصّب دار النبي ﷺ من ذي طوى إليها. وكُدَى، بضم الكاف وتنوين الدال: بأسفل مكة عند ذي طوى بقرب شعب الشافعيين ومنها دار النبي ﷺ إلى المحصّب فكأنه ضرب دائرة في دخوله وخروجه، بات بذي طوى ثم نهض إلى أعلى مكة، فدخل منها وفي خروجه خرج من أسفل مكة، ثم رجع إلى المحصّب.

وأما كُدَي مصُغَرًا: فإنّما هو لمن خرج من مكة إلى اليمن وليس من هذين الطريقين في شيء، أخبرني بذلك كله أبو العباس أحمد ابن عمر بن أنس العذري عن كل من لقي من مكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث الواردة في ذلك، هذا آخر كلام ابن حزم.

وذكر ياقوت أقوالاً كثيرة مختلفة اكتفينا منها بما تقدم لأنه هو الصواب.

وقال عاتق البلادي: كُدًى: بالضم والتنوين: ثنية بمكة يخرج منها الطريق من الحرم إلى جرول تفصل بين نهاية قعيقعان في الجنوب الغربي وجبل الكعبة، جعل فيها من زمن الأشراف مركز لرسم البضائع الآتية من جدة فسميت (ريع الرسام) والعامة تقول: الرسّان. خطأ. ولا تعرف اليوم إلا بريع الرسّام. اهـ.

قلت: وبما تقدم يتحدد موقع الثنية السفلى - ثنية كُدًى - وتحديدها وما طرأ عليها من تغيرات في موقعها وفي اسمها.

والكُدَى: بالضم والفتح: قرية في وادي وجّ بين الوهط والمثناة سكانها الهيافية من قريش، على ثلاثة أكيال جنوب الطائف، قاله عاتق البلادي.

الثَّنِيَّةُ العُليا: بثاء مثلثة مفتوحة ونون موحدة مكسورة وياء مثناة مشددة مفتوحة، وآخرها هاء: ثنية كداء (ريع الحجون) في مكة.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ يدخل مكة من الثنية العليا ويخرج من الثنية السفلى.

وفيه أيضًا: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل مكة من كداء من الثنية العلياء التي بالبطحاء ويخرج من الثنية السفلى.

قال ابن حجر: كَدَاء: بفتح الكاف والمد، قال أبو عبيد لا يصرف. وهذه الثنية هي التي ينزل منها إلى المعلى مقبرة أهل مكة، وهي التي يقال لها الحجون بفتح المهملة وضم الجيم وكانت صعبة المرتقى، فسهلها معاوية ثم عبد الملك ثم المهدي على ما ذكره الأزرقي، ثم سُهل في عصرنا هذا منها

سنة (٨١١) موضع، ثم سهلت كلها في زمن سلطان مصر الملك المؤيد في حدود (٨٢٠). . .

واختلف في ضبط كَدَاء وكُدَى: فالأكثر على أن العليا بالفتح والمد والسفلى بالضم والقصر، وقيل بالعكس، قال النووي: وهو غلط.

واختلف في المعنى الذي لأجله خالف ﷺ بين طريقين فقيل: الحكمة في ذلك، لأن إبراهيم لما دخل مكة دخل منها، وقيل: لأنه ﷺ خرج منها مختفيًا في الهجرة فأراد أن يدخلها ظاهرًا عاليًا، وقيل: لأن من جاء من تلك الجهة كان مستقبلاً للبيت، ويحتمل أن يكون ذلك لكونه دخل منها يوم الفتح فاستمر على ذلك، والسبب في ذلك قول أبي سفيان بن حرب للعباس: لا أسلم حتى أرى الخيل تطلع من كَدَاء، فقلت: ما هذا، قال: شيء طلع بقلبي وأن الله لا يطلع الخيل هناك أبدًا، قال العباس: ذكرت أبا سفيان بذلك لما دخل مكة.

وللبيهقي من حديث ابن عمر قال: قال النبي ﷺ لأبي بكر: كيف قال حسّان، فأنشد:

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كَداءُ[1]

فتبسم وقال: ادخلوها من حيث قال حسّان.

روى الفاكهي عن إسماعيل بن أمية، قال: إن رسول الله ﷺ كان يدخل في ثنية المدنيين ويخرج من كُدَى.

وروي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا دخل مكة دخلها من الثنية العليا وإذا خرج خرج من الثنية السفلى.

وكان أول من سهل هذه الثنية فيما يقولون معاوية ـ رضي الله عنه ـ ثم عملها عبد الملك ابن مروان بعده ـ ثم كان آخر من بنىٰ ضفائرها وحدودها وأحكمها المهدي.

ومن ثنية المقبرة دخل رسول الله ﷺ في حجة الوداع وقال بعضهم: إن ثنية المقبرة هو اسمها، يقال لها ثنية المقبرة، ويقال: اسمها كَدَاء وهي ثنية المعلاة.

ويقال إن ابن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أول من سهلها.

وكَدَاء: الجبل المشرف على المقبرة والوادي، وله يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

عدمت بنيتي إن لم تروها
تثير النقع عن كنفي كَدَاء[2]

وفي كداء يقول الشاعر من العرب:

كرهت كتيبة الجمحيّ لما
رأيت الموت سال على كَداءِ

قلت: غير أننا نجد فيما رواه عن إسماعيل ابن أمية اختلافًا عما ذكره فيما بعد، وهو خلط بين ثنية المدنيين وبين الثنية العليا ثنية المقبرة، ثنية كداء، وفي مثل هذا الخلط وقع الأزرقي. وقد بين عاتق البلادي وجه الصواب والفرق بين هاتين الثنيتين فقال: قال الأزرقي: ومقابر أهل مكة بأصل ثنية المدنيين وهي التي كان ابن الزبير مصلوبًا عليها وكان أول من سهلها معاوية ثم عملها عبد الملك بن مروان ثم كان

(١) وفي رواية: مطلعها كداء.

(٢) ويروىٰ:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداءُ

وهي الرواية الصحيحة. وقد تقدمت.

آخر من بنىٰ ضفائرها ودرجها وحددها المهدي. . . وسماها الأزرقي أيضًا: ثنية المقبرة فقال: هذه هي التي دخل منها الزبير ابن العوام يوم الفتح ومنها دخل النبي ﷺ في حجة الوداع.

وقوله: إنها ثنية المدنيين خطأ وثنية المدنيين هي التي تشرف على شهداء فخ من الجنوب الشرقي وتعرف اليوم بريع أبو مدافع.

أما الثنية المتقدم الحديث عنها فهي (كَدَاء). اهـ.

قال عبد الملك بن دهيش في تحقيقه: يتحصل مما ذكره الفاكهي لهذه الثنية من أسماء ستة، وهي ثنية المدنيين، وثنية كداء، وثنية المقبرة، والثنية العليا، وثنية العقبة، وثنية المعلى.

قلت: ثنية المدنيين، ثنية غير هذه وقد تقدم التعريف بها وبيان الخلط بين الثنيتين.

وقال الفاسي: كَدَاء، الموضع الذي يستحب للمحرم دخول مكة منه، وهو الثنية التي بأعلى مكة، التي يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالأبطح ويقال لها الحجون الثاني. . .

وفي كلام غير واحد من المتأخرين تسمية هذه الثنية بكداء. منهم سليمان بن خليل، والمحب الطبري، والنووي، وقال المحب: هي بالفتح والمد تصرف على إرادة الموضع، وبتركه على إرادة البقعة. . . وكانت حرجة ضيقة جدًا فنحت ما يليها من الجبال بالمعاول حتى اتسعت فصارت تسع أربع مقاطير من الجمال محملة وكانت قبل ذلك لا تسع إلا واحدة وسهلت أرضها بتراب ردم فيها حتى استوت وصار الناس يسلكونها.

وقال عاتق البلادي: وفي (٨٣٢) أصلح طريقها الملك المؤيد فظلت على ذلك إلى عام (١٣٤٠) حيث خرقت الحكومة الهاشمية الثنية وأصلحت طريقها ولما كثرت السيارات في العهد السعودي نجرت أكثر فعبدت وبنيت ضفائر جديدة على جانبي الطريق وتسمى اليوم ريع الحجون.

وقال عبد الملك بن دهيش في تحقيقه: قال إبراهيم رفعت في مرآته: ثم جعل سُودُون المحمدّي رئيس العماير بالمسجد الحرام سنة (٨٣٧) هذين الطريقين طريقًا واحدًا فردم الطريق الجديد المنخفضة عن القديمة بنحو قامة حتى سواها بالأولى وجعلها طريقًا واحدًا يسع عدة قطائر.

أما الآن فإن هذه الثنية وسعت، وجعل فيها طريقان واحد للصعود والآخر للنزول، وكل طريق تتسع لثلاث سيارات، وربط بها جسر يمر فوق الشارع المؤدي إلى المسجد الحرام، ويسميها الناس ريع الحجون. اهـ.

قلت: ومما تقدم يتضح أن الثنية العليا هي ما يُسمَّى في هذا العهد: ريع الحجون وبعض العامة يقلبون النون لامًا فيقولون: ريع الحجول، وهو معروف في مكة إلى هذا العهد.

ثَنِيَّةُ الوَدَاع: بثاء مثلثة مفتوحة ونون موحدة مكسورة وياء مثناة مشددة مفتوحة، وآخرها هاء: ثنية في المدينة معروفة.

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأمدها ثنية الوداع وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زُرَيق وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها.

وروى أيضًا عن السائب بن يزيد ـ رضي الله عنه ـ قال: ذهبنا نتلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع.

وقال الواقدي: فخرج رسول الله ﷺ من المدينة فسلك ثنية الوداع ثم أخذ على الزغابة، ثم على نقمي، ثم سلك المستناخ، ثم كبس الوطيح. اهـ[١].

كان ذلك طريقه في غزوة خيبر، من المدينة إلى خيبر.

وروى الواقدي عن خالد بن يزيد، قال: خرج النبي ﷺ مشيعًا لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله فقال: اغزوا بسم الله.

وقال الواقدي في خبر غزوة تبوك: وأخذ رسول الله ﷺ الناس بالانكماش والجد، وضرب رسول الله ﷺ عسكره بثنية الوداع... فلما رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع إلى تَبُوك، وعقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ورايته العظمى إلى الزبير...

ولما مضى رسول الله ﷺ من ثنية الوداع سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجال فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

وقال ابن كثير في خبر غزوة تبوك: ثم استتب برسول الله ﷺ سفره وأجمع السير فلما خرج يوم الخميس ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفًا من الناس.

وقال في خبر عودة النبي ﷺ من تبوك: قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سفيان عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: أذكر أني خرجت مع الصبيان نتلقى رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك.

وقال البيهقي: أخبرنا أبو نصر بن قتادة أخبرنا أبو عمرو بن مطر سمعت أبا خليفة يقول سمعت ابن عائشة يقول: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

قال البيهقي: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه المدينة من مكة لا أنه لما قدم المدينة من ثنيات الوداع عند مقدمه من تبوك والله أعلم[٢].

وقال ابن القيم في خبر قدوم النبي ﷺ المدينة من غزوة تبوك: فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

وبعض الرواة يهم في هذا ويقول إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة وهو وهم ظاهر لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، فلما أشرف على المدينة قال: هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه[٣].

---

(١) الوطيح: من أعظم حصون خيبر.
(٢) البداية والنهاية ٥/ ٢٢، ٢٣.
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ١٠.

قلت: هذه الأحاديث المتقدمة تدل كلها على أن ثنية الوداع التي خرج منها النبي ﷺ في غزوته تبوك وغزوته خيبر وعاد منها وخرج منها الجيش الذي جهزه لمؤتة هي ثنية الوداع التي في شمال المدينة وهي التي وردت في صحيح البخاري.

ولم أر فيما اطلعت عليه من المراجع أن أحدًا ذكر أن النبي ﷺ دخل إلى المدينة عند مقدمه من مكة من ثنية الوداع، غير أن ما أسلفت لا يمنع أن يكون في جنوب المدينة ثنية تسمى ثنية الوداع، يمر بها الذاهب من المدينة إلى مكة.

وقد حدد السمهودي موقع هذه الثنية، وبعد أن أورد أحاديث مما أسلفته قال: وفي البخاري عن السائب بن يزيد قال: أذكر أني خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع مقدمه من غزوة تبوك، وكل هذه الروايات متظاهرة على أن هذه الثنية هي المعروفة بذلك اليوم في شامي المدينة بين مسجد الراية الذي على ذباب ومشهد النفس الزكية، يمر فيها المار بين صدّين مرتفعين قرب سلع.

ومن تأمل كلام ابن شبّة في المنازل وغيرها لم يرتب في ذلك، وسوق المدينة كانت هناك.

ويوضح ذلك ما رواه ابن إسحاق في غزوة العالية حيث قال: أول من نذر بهم سلمة، غدا ومعه قوسه وهو يريد الغابة، فلما أشرف على ثنية الوداع نظر إلى جبل فعلا في سلع ثم صرخ: واصباحاه.

وأحد صدّي هذه الثنية معروفة اليوم متصل بسلع.

وذكر السمهودي: أقوالاً كثيرة متعارضة واختلافًا في تحديد ثنية الوداع هل هي في شمال المدينة ـ كما تقدم ـ أو أنها جنوب المدينة، وذكر أقوالاً كثيرة في سبب تسميتها مرجحًا أنها في شمال المدينة[١].

وفي المغانم المطابة، قال المجد: ثنية الوداع، بفتح الواو، واسم من التوديع، وهي ثنية مشرفة على المدينة، يطؤها من يريد مكة، وقيل: من يريد الشام.

واختلف في تسميتها بذلك فقيل: لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة. وقيل: لأن النبي ﷺ ودع بها بعض من خلّف بالمدينة في آخر خرجاته. وقيل: في بعض سراياه المبعوثة عنه. وقيل: الوداع اسم واد بالمدينة.

والصحيح، أنه اسم قديم جاهلي، سمي لتوديع المسافرين.

هكذا قال أهل السير والتاريخ، وأصحاب المسالك: إنها من جهة مكة. وأهل المدينة اليوم يظنونها من جهة الشام، وكأنهم اعتمدوا قول ابن قيم الجوزية في (هديه) فإنه قال: من جهة الشام ثنيات الوداع، ولا يطؤها القادم من مكة ألبتة، ووجه الجمع أن كلتا الثنيتين تُسمّى ثنية الوداع والله أعلم. اهـ.

وقال ياقوت: ثنية الوداع: بفتح الواو، وهو اسم من التوديع عند الرحيل: وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، واختلف في تسميتها بذلك. فقيل: لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة. وقيل لأن النبي ﷺ ودع بها بعض من خلّفه في المدينة في آخر خرجاته. وقيل في بعض سراياه المبعوثة عنه. وقيل: الوداع اسم واد

---

(١) وفاء الوفاء، ص: ١١٧٢.

بالمدينة، والصحيح أنه اسم قديم جاهلي، سمي بتوديع المسافرين. اهـ.

وقال أحمد العباسي: ثنية الوداع: بفتح الواو وهو اسم من التوديع وهي ثنية مشرفة على المدينة، يطؤها من يريد مكة وقيل من يريد الشام. واختلف في تسميتها بذلك فقيل: لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة، وقيل: لأن النبي ﷺ ودع بها بعض من خلّفه بالمدينة، وقيل لتوديع النساء اللاتي استمتعوا بهن بها بعد رجوعهم من خيبر وفي رواية عند خروجهم إلى تبوك وكان رسول الله ﷺ ضرب عسكره حينئذ عليها. وفي رواية: (ما كان أحد يدخل المدينة إلا يعشر بها فإن لم يعشّر بها، مات، قبل أن يخرج) لوبائها ـ كما زعمت اليهود ـ فإذا وقف عليها قيل: قد ودّع، فسميت ثنية الوداع فيكون اسمًا جاهليًا لها وهو الأشهر والصحيح أنه اسم قديم جاهلي سُمّي لتوديع المسافرين[1].

وقال عبد القدوس الأنصاري: وقد اختلف المؤرخون في حقيقة المكان المسمى بثنية الوداع حتى وصل الاختلاف ببعضهم إلى القول بأنها بمكة، وانقسم الذين يرون أنها بالمدينة إلى فريقين: فريق يقول: إنها المدرج الذي ينزل فيه إلى بئر عروة بالجنوب الغربي للمدينة. وفريق يقول: إنها المعروفة بذلك من شامي (شمالي) المدينة بين مسجد الراية الذي على جبل ذباب، ومشهد النفس الزكية يمر فيها المار بين صدين مرتفعين قرب سلع، وبهذا الرأي جزم السمهودي، وقد حاول تفنيد كل رأي يخالفه. على أنّا نقول: أما إثباته أن هذه الثنية هي التي بين هضبتي سلع هي ثنية الوداع فذلك لا نعارضه فيه، لأنه مقبول ومعقول، وعليه دلائل علمية متوافرة، غير أن محاولة دحضه وإنكاره لتسمية المدرج بثنية الوداع فيه ما فيه، وخصوصًا وقد تظافرت تصريحات جماعة من العلماء الأعلام قديمًا وحديثًا على تسميته بثنية الوداع أيضًا.

وكما أن أهل المدينة كانوا يودعون المسافرين منها إلى ناحية الشام من الثنية التي هي بطريق الشام، فكذلك لهم أن يودعوا المسافر إلى جهة مكة من الثنية الواقعة بطريق مكة ويحق لكل من الثنيتين بهذا النظر أن تُسَمّى ثنية الوداع لقيام معنى الثنية الذي هو الطريق في الجبل والوداع بكل منهما ولاشتراكهما فيه فكلتاهما مركز لتوديع المسافر.

هذا وكان الصدّ (الهضبة التي بشرقي ثنية الوداع الشامية) ثكنة عسكرية اليوم... وأما صدّها الغربي فخالٍ من أي بناء حين ألف هذا الكتاب. وكان مرتادًا للمتنزهين في ساعات الآصائل الجميلة لاحتجاب الشمس في هذه الأوقات وراء سلع من جهة الإشراف هذا الموقع على المدينة وعلى أكثر ضواحيها وبساتينها وجبالها النائية والقريبة من جهة أخرى.

أما ثنية الوداع التي هي في طريق مكة فتشرف على وادي العقيق وتحيط بها الحرّة من كل جانب. وإحدى الثنيتين هي التي عنتها الولائد الأنصاريات في نشيدهن الابتهاجي بقدوم الرسول ﷺ إلى المدينة، والدلائل القوية التي ساقها السمهودي تجعلنا نرجح أن الثنية المقصودة لدخول النبي ﷺ إلى المدينة هي: الثنية الشامية[2].

---

(١) عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص: ٢٤٨.

(٢) آثار المدينة المنورة، ص: ١٥٩، ١٦٠.

وقال الشنقيطي: وقيل إن للمدينة ثنيتي وداع: إحداهما لوداع الحاج وهي جنوبي المدينة قبيل قباء وهي التي وقع فيها نشيد استقبال الأنصار للنبي ﷺ، وهي عقدة من الحرّة تقع عليها الآن قلعة من العهد التركي.

والثانية: ثنية وداع المسافر إلى الشام وهي في الجهة الشمالية للمدينة على عقبة من جبل السلع والتي أدركناها معروفة عند أهل المدينة بثنية الوداع، بل عرفت عند أهل المدينة من ذي القرون الأولى كما ذكر ذلك ابن القيم في زاد المعاد وكان عليها مسجد أدركناه بالبناء التركي القديم ثم بني بناء حديثٌ وجميلٌ في عهد المملكة العربية السعودية، ولكن عندما تولى (عمر قاضي) أمانة المدينة وقام بأعمال جليلة لتطويرها وإظهارها بالمظهر اللائق بها عالميًا، أزيل هذا المسجد في خضم ذلك عام ١٤٠٣هـ لتوسعة ميدان ملتقى طريق سيد الشهداء وسلطانة، وبقيت كدية صغيرة في مكانه وهي صالحة الآن تسمى ثنية لغة وواقعًا وقد أزيلت في الأسبوع الأول من المحرم عام ١٤٠٦هـ.

وقيل: إن النشيد بدأ من الثنية الجنوبية وتكرر في غزواته ﷺ حين قدم منها ودخل المدينة من الشمال مثل غزوة الغابة وغزوة خيبر وغزوة تبوك[١].

قلت: وبهذا يتبين مدى الاختلاف بين العلماء المتقدمين والمتأخرين في تحديد ثنية الوداع: أهي شمال المدينة أم جنوب المدينة، أو أنهما ثنيتان، جنوبية وشمالية.

وفيما ذكره عبد القدوس الأنصاري جمع بين الأقوال وتوسط في الاختيار. وإن الأمر كما ذكره: ثنيتان شمالية خرج منها النبي ﷺ في غزواته شمال المدينة وعاد منها، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة، وثنية جنوبية يودع عندها الذاهب إلى مكة.

غير أنه لم يذكر أن النبي ﷺ دخل منها في مقدمه إلى المدينة من مكة. وفيما ذكره إيضاح للحقيقة، وفيه كفاية والله أعلم.

أما قول الشنقطي: وقيل: إن النشيد بدأ من الثنية الجنوبية وتكرر في غزواته ﷺ حين قدم منها ودخل المدينة من الشمال، فإنه قول لم يؤيده بدليل يستند إلى حدث تاريخي يرجحه على ما سواه من الأقوال.

ثور: بثاء مثلثة مفتوحة وواو ساكنة، آخره راء مهملة: جبل معروف في المدينة[٢].

روى البخاري عن علي ﷺ، قال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله غير هذه الصحيفة قال: فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل قال: وفيها المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثًا أو آوىٰ محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل. اهـ.

في المغانم المطابة، قال المجد: ثور، بلفظ الثور، فحل البقر: جبل صغير حذاء أحد، جانحًا إلى ورائه.

وقال بعض الحفاظ: إن خلف أحد من شماليه جبلاً صغيرًا مدورًا يسمّى ثورًا، يعرفه أهل المدينة، خلفًا عن سلف، وفيه حديث النبي ﷺ أنّه حرّم ما بين عير إلى ثور.

---

(١) الدر الثمين، ص: ١٢٤.

(٢) جبل ثور الذي بمكة. انظر رسم غار ثور.

ولما لم يصل علم هذا الجبل إلى أبي عبيد، ولم يحط بخبره خبرًا اعتذر عن هذا الحديث، وقال: أهل المدينة لا يعرفون بالمدينة جبلاً يقال له ثور، وإنّما ثور بمكة. قال: فيرى أهل الحديث أنه حرّم ما بين عير إلى أحد.

وتكلّف غيره فقال: إلى، بمعنى مع، كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة في التحريم. . . إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة.

قال: ولا أدري كيف وقعت المسارعة من هؤلاء الأعلام إلى إثبات وهم في الحديث الصحيح المتفق على صحته بمجرد دعوى أن أهل المدينة لا يعرفون بها جبلاً يسمّى ثورًا.

وغاية مثال هؤلاء القائلين أنهم سألوا جماعة من أهل المدينة ـ أولاً يلزم أن يكون كلهم ـ بعد مضي أعصار متطاولة وسنين متكاثرة فلم يعرفوه.

والعلم القطعي حاصل من طريق العيان المشاهدة لطرق التغيير والاختلاف والنسيان على أسماء الأمكنة والبلدان، باعتبار أسباب تحدث، وأمور تتجدّد فيلقّب ذلك المكان باعتبار ما تجدد فيه ويهجر الاسم القديم الأصلي ويترك العلم الموضوع الأول نسيًا.

أين سقيفة بني ساعدة؟ أين ذو الحليفة الذي لا يعرف اليوم إلا ببئر علي؟ ولو سماه أحد ذا الحليفة لكان كالمخترع له اسمًا، والمغير له لقبًا ورسمًا. وأغرب من ذلك أني سألت جماعات من أشراف المدينة الأمراء بها، ومن الفقهاء والسوقة عن (فدك) ومكانها فكلهم عن بواء واحد: أجابوا بأنه لا يعرف في بلادنا موضعًا يدعى فدك.

وهذه القرية لم تبرح في أيدي الأشراف والخلفاء يتداولونها ناس عن ناس إلى أواخر الدولة العباسية، فكيف بجبل صغير واقع في طرف أحد، لا يتعلق به كبير أمر.

وبعد أن أورد أمثلة أخرى مماثلة قال: وكل هذه تعسّفات وتخرّصات ممن لم يبلغهم علم ثور الموجود بالمدينة والله أعلم. اهـ.

وقال المطري: قال المازري: نقل بعض أهل العلم أن ذكر ثورهنا ـ يعني في المدينة ـ وهم من الراوي، لأن ثورًا بمكة. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: عير وثور جبلان بالمدينة، وأهل المدينة لا يعرفون بها جبلاً يقال له ثور، إنما ثور بمكة، فنرى أن الحديث أصله ما بين عير إلى أحد. وقال: قلت: بل خلف جبل أحد من شماليه تحته جبل صغير مدور يُسمى ثورًا يعرفه أهل المدينة خلف عن سلف، ووعيرة شرقيه وهما حد الحرم، كما نقل، ولعل هذا الاسم لم يبلغ أبا عبيد ولا المازري، ولو لم يكن معروفًا لم يسمه الخلف عن السلف والله أعلم. اهـ.

وقال الفاسي: وثور أيضًا جبل بالمدينة مذكور من حد حرمها، كما في صحيح مسلم من حديث علي رضي الله عنه، وهو جبل صغير جدًا، أحد عن يساره، ذكره العفيف بن مزروع ونقل ذلك عن طوائف من العرب عارفين بتلك المواضع. اهـ.

وقال السمهودي ثور: بالمثلثة الثور فحل البقر: جبل صغير خلف أحد كما سنحققه، فإنه خفي على جماعة من فحول العلماء فاستشكلوا الحديث، وقالوا: ليس بالمدينة ثور، وإنما هو بمكة. ثم أورد أقوال العلماء الذين أنكروا وجود ثور بالمدينة وما في أقوالهم من تعسفات على اختلاف بينهم في وجود جبلي عير وثور في المدينة، ثم قال: وقال صاحب البيان والانتصار: قد صحت الرواية بلفظ ثور فلا ينبغي الإقدام على تَوهيم الرواة بمجرد عدم العرفان، فإن أسماء الأماكن قد تتغير أو تنسى ولا يعلمها كثير من

الناس قال: وقد سألت بمكة عن وادي محسّر وغيره من أماكن تتعلق بالنسك فلم أخبر عنها مع تكرر مجيء الناس إليها، فما ظنك بغيرها، وأيضًا فقد يكون للشيء اسمان فيعرف أحدهما دون الآخر. قال السمهودي: قد حكى البيهقي في المعرفة قول أبي عبيد: أهل المدينة لا يعرفون جبلاً يقال له ثور، ثم قال البيهقي: وبلغني عن أبي عبيدة أنه قال في كتاب الجبال: بلغني أن بالمدينة جبلاً يقال له ثور.

ونقل المجد في ترجمة عير عن نصر أنه قال: عير جبل يقابل الثنية المعروفة بشعب الجوز، وثور جبل عند أحد. فدلّ على أن ما اشتهر في زماننا وقبله من وجود ثور بالمدينة له أصل في الزمن القديم، وإن خفي على بعضهم، وقد أخبرني بوجوده جماعة كثيرة من الخواص، وأروني إياه خلف أحد.

ونقل جماعة عن المحدث أبي محمد عفيف الدين عبد السلام بن مزروع البصري نزيل المدينة أنه رآه غير مرة، ولما خرج رسولاً من صاحب المدينة إلى العراق كان معه دليل يذكر الأماكن والأجبل فلما وصل إلى أحد إذا بقربه جبل صغير، فسأله: ما اسم هذا الجبل؟ فقال له: يُسمى ثورًا، وقد حكى عنه نحو هذا القطب الحلبي في شرح البخاري.

وقال المحب الطبري: أخبرني الثقة الصدوق الحافظ العالم المجاور بحرم رسول الله ﷺ البصري أن حذاء أحد عن يساره جانحًا إلى ورائه جبل صغير يقال له ثور، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه الطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال، فكلٌ أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور.

قال الطبري: فعلمنا بذلك أن ما تضمنه صحيح، وعدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه.

وقال الأقشهري: وقد استقصينا من أهل المدينة تحقيق خبر جبل يقال له ثور عندهم، فوجدنا ذلك اسم جبل صغير خلف أحد، يعرفه القدماء دون المحدثين من أهل المدينة والذي يعلمه حجة على من لا يعلم.

وقال العلامة أبو العباس بن تيمية: عير جبل عند الميقات يشبه العير وهو الحمار، وثور جبل في ناحية أحد، وهو غير جبل ثور الذي بمكة. اهـ.

وقال عبد القدوس الأنصاري: عير وثور: هما اسما جبلين من جبال المدينة، أولهما: عظيم شامخ يقع بجنوبي المدينة على مسافة ساعتين عنها تقريبًا بسير الأقدام غير المستعجل. وثانيهما: أحمر صغير يقع شمالي أحد، ويحدّان حرم المدينة جنوبًا وشمالاً.

وقال عاتق البلادي: وثور الذي بالمدينة: جبل شبيه بالبرث أحمر حائز بطرف وادي النقَمى من الجنوب وشمال أحد عن قرب، تكلم من أحدهما من في الآخر بينهما طريق عبّد ليكون مجنبًا لغير المسلمين لتحاشي مرورهم بالمدينة، يبعد شمال المدينة بحوالي (١٧) كيلاً. اهـ.

قلت: وبما تقدم من أقوال العلماء في تحديد جبل ثور في المدينة يتضح الاختلاف الذي وقع بين كثير من العلماء في وجود هذا الجبل وعدمه كما يتضح رد بعض العلماء على من يرى أن هذا الجبل غير موجود في المدينة، وبما ذكر من أقوال العلماء الذين تبلغهم على هذا الجبل يتضح ويزول الإشكال، ويثبت بالاستقراء من بعض العلماء والمشاهدة من آخرين وجود جبل اسمه ثور في شمال المدينة

خلف جبل أحد، اتفق العلماء على تحديد موقعه ووصفه.

ثور أيضًا: واد ببلاد مزينة، قال معن ابن أوس:

أعاذل من يحتل فيفًا وفيحة
وثورًا ومن يحمي الأكاحل بعدنا

وثور الشباك: موضع آخر. قاله ياقوت.

الثور: اسم موضع في الصمان، تضاف إليه برقة. ذكره ياقوت في (معجم البلدان) وذكره غيره.

ويطلق اسمه الآن على جوّ من أشهر أجواء الصمان، تحف به البرق ـ جمع برقة ـ يقع غرب اللصافة (لصاف قديمًا) بنحو خمسين كيلاً، يمر به طريق المنشرحة ـ أحد الطرق المتجهة إلى نجد ـ وبجواره جو آخر يدعى جو الثور والطريق يمر بينهما. قاله حمد الجاسر.

ثور أيضًا: قرية حديثة لعنزة في الوادي، غرب جبل عطوة، فيها نزل حديث وفيها نخل وآبار، من نواحي خيبر. قاله عاتق البلادي.

باب الجيم

جَبَل طَيء: بجيم معجمة مفتوحة وباء موحدة مفتوحة، وآخره لام، واحد الجبال، وطيّء بفتح أوله: قبيلة معروفة نسب إليها هذا الجبل: وهو جبل له شهرة في نجد.

روى البخاري عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك فلما جاء وادي القرى إذا امرأة في حديقة لها فقال النبي ﷺ لأصحابه: «اخرصوا» وخرص رسول الله ﷺ أوسق فقال لها أحصي ما يخرج منها فلما أتينا تبوك قال: «أما إنها ستهب الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد ومن كان معه بعير فليعقله فعقلناها». وهبت ريح شديدة فقام رجل فألقته بجبل طيء.

قال ابن حجر: المراد بجبلي طيّء المكان الذي كانت القبيلة المذكورة تنزله، واسم الجبلين المذكورين (أجا) بهمزة وجيم مفتوحتين بعدهما همزة بوزن قمر وقد لا تهمز فيكون بوزن عصا و(سلمى)، وهما مشهوران، ويقال: إنهما سميا باسم رجل وامرأة من العماليق.

وقال ياقوت: أجًا: بوزن فَعَل بالتحريك، مهموز مقصور، والنسب إليه أجئيّ بوزن فَعَليّ: وهو علم مرتجل باسم رجل سمي الجبل به ويجوز أن يكون منقولاً.

وقال الزمخشري: أجأ وسلمى جبلان عن يسار سميراء، وقد رأيتهما، شاهقان. ولم يقل عن يسار القاصد إلى مكة أو المنصرف عنها.

وقال أبو عبيد السّكوني: أجأ أحد جبلي طيء وهو غربي فيد، وبينهما مسيرة ليلتين وفيه قرى كثيرة، قال: ومنازل طيء في الجبلين عشر ليال من دون فيد إلى أقصى أجأ...

وذكر العلماء بأخبار العرب أن أجأ سمي باسم رجل وسمي سلمى باسم امرأة. وكان من خبرهما أن رجلاً من العماليق يقال له أجأ بن عبد الحي عشق امرأة من قومه، يقال لها سلمى، وكانت لها حاضنة يقال لها العوجاء.

وكانا يجتمعان في منزلها حتى نذر بهما إخوة سلمى، وهم الغميم والمضل وفدك وفائد والحدثان وزوجها. فخافت سلمى وهربت هي وأجأ والعوجاء، وتبعهم زوجها وإخوتها فلحقوا سلمى على الجبل المسمى باسمها، فقتلوها هناك، فسمي الجبل باسمها ولحقوا العوجاء على هضبة بين الجبلين فقتلوها هناك، فسمي المكان بها. ولحقوا أجأ بالجبل المسمى بأجأ فقتلوه فيه فسمي به. وأنفوا أن يرجعوا إلى قومهم، فسار كل واحد إلى مكان فأقام به فسمي ذلك المكان باسمهم...

وتحدث ياقوت عن سبب نزول طيء الجبلين واختصاصهم بسكناها دون غيرهم من العرب، وأطال في حديثه عن هذا الخبر وذكر أقوالاً مختلفة لا يتسع لها مقامنا هذا.

وقد أكثر شعراء طيء من ذكر الجبلين أجأ وسلمى في شعرهم، وقد أورد ياقوت طائفة من أشعارهم منها.

قال عارق الطائي:

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة
إذا استحقبتها العيس تنضي من البعدِ
أيوعدني والرمل بيني وبينه
تأمل رويدًا ما أمامة من هندِ
ومن أجإٍ حولي رعان كأنها
قنابل خيل من كميت ومن وردِ

وقال العيذار بن الأخفش الطائي، وكان خارجيًا:

ألاحيّ رسم الدار أصبح باليا
وحيّ وإن شاب القذال الغوانيا
تحملنَ من سملى فوجهن بالضحى
إلى أجإٍ يقطعن بِيدًا مهاويا

وقال زيد بن مهلهل الطائي:

جلبن الخيل من أجإٍ وسلمى
تخب نزائعًا خببَ الركابِ
جلبنا كل طرف أعوجيّ
وسلهبة كخافية الغرابِ
نسوفٌ للحزام بمرفقيها
شنون الصلب صماء الكعابِ

وقال لبيد يصف كتيبة النعمان:

أوت للشباح واهتدت بصليلها
كتائب خضر ليس فيهن ناكلُ
كأركان سلمى إذ بدت أو كأنها
ذرى أجإٍ إذ لاح فيه مواسلُ

فقال: فيه ولم يقل فيها، ومواسل قنة في أجأ[1].

وأنشد قاسم بن ثابت لبعض الأعراب:

إلى نضد من عبد شمس كأنهم
هضاب أجا أركانه لم تقصفِ
قلامسة ساسوا الأمور فأحكَمُوا
سياستها حتى أقرت لمردفِ

قلت: حدد ياقوت جبلي أجإٍ وسلمى بسميراء وبفيد لأنهما واقعان على طريق مكة، غير أن أجأ وسلمى أكثر شهرة من هذين الموضعين اللذين حددهما بهما، قديمًا وحديثًا، وأجأ وسلمى جبلا طيء ما زالا معروفين باسميهما، ولم يتغير فيهما شيء.

وقال الهمداني: الجبال المشهورة عند العرب المذكورة في أشعارها: أجأ وسلمى جبلا طيء وأبان وتعار إلى آخر ما ذكر من أسماء الجبال.

وقال البكري: أجأ: بفتح أوله وثانيه على وزن فعل، يهمز ولا يهمز، ويذكّر ويؤنث وهو مقصور في كلا الوجهين، من همزه وترك همزه، وهو أحد جبلي طيء، قال امرؤ القيس: فهمزه وأنثه:

أبت أجأ أن تسلم العام جارها
فمن شاء فلينهض لها من مقاتلِ

وقال العجاج، فلم يهمزها:

فإن تصر ليلى بسلمى أو أجا
أو باللّوى أو ذي حسا ويأججا
أو حيث كان الولجات ولَجا
أو حيث رمل عالج تَعلّجا
أو حيث صار بطن قوع وسجا
أو ينتهي الحيّ نباك فالرّجا
بجوف بصري أو بجوف توّجا
أو يجعل البيت رتاجًا مرتجا

وقال: سلمى: على وزن فعلى، سمي باسم المرأة التي نزلته. وهي أحد جبال طيء...

(١) قال: «ولم يقل فيها»، يعني أن فيه دلالة على أن أجأً اسم مذكر، وليس مؤنثًا كما يقول النحويون.

وقال زهير:

فقفّ فصارات فأكناف منعج
فشرقيّ سلمى حوضه فأجاوله

قال حمد الجاسر: جبل أجإٍ أحد جبلي طيء وليس جبلاً واحدًا ولكنه وهو من أشهر جبال نجد سلسلة جبال تمتد من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي بما يقارب مائة كيل في عرض بين ٢٥ و٣٥ كيلاً، وتتخللها شعاب كثيرة، وفي داخلها بعض القرى الصغيرة والنخيل والعيون.

ومن شعاب أجإٍ المعروفة قديمًا: توارن وحقل والأرخ وشوط ـ بضم الشين ـ وبلطة وحضن ورميض وثرمدا ـ مثل الذي باليمامة ـ كذا قال الهجري والمعروف ثرمد.

وهواء أجإٍ من أطيب الأهوية، وارتفاع أعلى قمة فيه ١٣٥٠ مترًا عن سطح البحر ويخترق سلسلة أجإٍ طريقان للسيارات:

١ ـ ريع السلف.
٢ ـ طلعة صيحان.

وطرق للدواب إلى الأودية التي داخلها.

وكان في القديم لبني ثعل وسائر بني الغوث من طيء، وفي القرن الثالث وأول الرابع لبني عقدة من بني سنبس.

وتخترق أجأ أيضًا طرق أشهرها:

١ ـ المخُتَلِف: يشق أجأ من طرفه الغربي الجنوبي بمقابلة بزاخة مغربًا فيخرج إلى قرية جفيفا وفيه قرية تدعى المخُتَلِف فيها آبار عليها نخل ومزارع.

٢ ـ بيض: يشق الجبل من الشرق إلى الغرب بمقابلة قصر العشراوات والمعيقلات، وغربًا شماليًا إلى قرية موقق.

٣ ـ صيحان: من الشرق وادي السلف المقابل لبلدة قفار، ومن الغرب وادي صيحان الذي يخرج إلى موقق.

قلت: هذا ما ذكره حمد الجاسر في وصف جبل أجإٍ والطرق التي تنفذه من الشرق إلى الغرب وقد جزت طريق صيحان من الشرق إلى الغرب متجهًا إلى بلدة (موقق) عام ١٣٩٣هـ وكانوا يسمونه ريع صيحان وفي أثنائه ثنايا مرتفعة تجوزها السيارة صعودًا وهبوطًا وبعضها ضيق، وكان في ذلك العهد على طبيعته لم يمهد، وعدت إلى حائل من طريق بيض المتقدم ذكره.

وسَلْمَى: قال ياقوت: بفتح أوله وسكون ثانيه، مقصور وألفه للتأنيث: وهو أحد جبلي طيء وهما أجأ وسلمى، وهو جبل وغربه واد يقال له رك به نخل وآبار مطوية بالصخر طيبة الماء والنخل عصب والأرض رمل، بحافتيه جبلان أحمران يقال لهما حميّان والغداة، وبأعلاه برقة يقال لها السرّاء.

وقال السكوني: سلمى جبل يقرب من فيد عن يمين القاصد مكة، وهو لنبهان لن يدخله أحد عليها، وليس به قرى إنما به مياه وآبار وقلب عليها نخل وشجرتين ولا زرع فيه وفيه قيل:

أما تبكين يا أعرافَ سَلمى
على مَنْ كان يحميكنَّ حِينا

الأعراف: الأعالي، قال وأدنى سلمى من فيد إلى أربعة أميال ويمتد إلى الأقيلبة والملتهب ثم يخنس ويقع في رمان، وهو جبل رمل، وليس بسلمى رمل.

وقال حمد الجاسر: سلمى: سلسلة الجبال الواقعة في بلاد طيء، وهذه هي أشهر ما يسمى بهذا الاسم، وأكثرها ذكرًا في الأخبار والأشعار بل قل أن يقصد غيرها عند الإطلاق. وأورد في النقائض، قول جرير يهجو النعمان بن شريك وهو الأعور النبهاني:

تبلغ بني نبهان مني قصائدًا
تطالع من سلمى وهن وعورُ

وسلمى: لبني نبهان خصوصًا.. وأجأ لثعل وسائر بني الغوث:

إذا حل من نبهان أرباب ثلة
بأوساط سلمى دقة وفجورُ

وكانت جديلة من طيء تسكن سلمى، قال عبيد بن الأبرص:

نبئت أن بني جديلة أرعبوا
نفراء من سلمى لنا وتنكبوا

وأنشد الهجري لجارية من طيء:

لبرق على سلمى وأعلامها العلا
أقر لعيني وأشفى لما بيا

وتبعد سلسلة جبال سلمى عن مدينة حائل ٦٠ كيلاً، وعرض السلسلة نحو ١٣ كيلاً من ريع الشراء إلى السفح الشرقي. وارتفاع أعلى قمة فيها تبلغ نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر.

ويتخلّل السلسلة طرق تجتازها السيارات منها شرا المسعود وشرا الضّرير، وريع النُّعي في الشمال، وريع تقريب في الجنوب.

وفيها مسالك أخرى للدواب، توصل إلى تلاع واسعة وأودية ذات نخل.

وهذا خلاصة ما ذكره حمد الجاسر في وصف جبال سلمى.

قلت: وما ذكره المؤرخون عن سكان جبلي أجإٍ وسلمى من قبائل طيء هذا في عهدها القديم، أما في هذا العهد فإن سكانها من قبيلة شمّر، وهم منتشرون في هذين الجبلين الواسعين المشهورين وفيما حولهما من الجبال والبلاد، وبما أن قبيلة شمّر قد استوطنت هذه الجبال وثبتت فيها، فإنها قد أصبحت يقال لها: جبال شمّر، يطلق هذا على الجبلين وما حولهما من الجبال كجبل رمان وغيره.

وتقع مدينة حائل بين هذين الجبلين، غير أنها قريبة إلى سفوح (أجا الشرقية). وفي عام ١٣٩٣هـ ـ وهو تاريخ أول زيارة قمت بها لمنطقة حائل ـ كان بين عمران المدينة وبين سفح أجإٍ ما يقرب من ٦ إلى ٧ أكيال، أما في هذا العهد فإن العمران أخذ يسير باتجاه جبل أجإٍ حتى وصفها أحدهم بقوله: في سفح جبل أجإٍ الشرقي.

أما بالنسبة لجبل سلمى فإن المسافة فيما بينهما قد تقدم التعريف بها، وأنها تبلغ ٦٠ كيلاً تقريبًا.

وقد تحدث حمد الجاسر عن مدينة حائل حديثًا أطال فيه. تحدث عن موقعها وعن عمرانها وعن تاريخها، وأورد كثيرًا مما كتبه عنها الرحالون الذين زاروها من الأجانب، في فترات مختلفة وسأكتفي بخلاصة موجزة من حديثه في وصفها إن شاء الله.

قال حمد الجاسر: حائل ـ بفتح الحاء المهملة بعدها ألف فهمزة مكسورة تقلب ياء فلام ـ: الحائل لغة: الناقة لم تحمل عامها ذاك، ورجل حائل اللون: إذا كان أسود متغيرًا. والعامة يسهلون الهمزة في كلمة (حائل) فيبدلونها ياء، كعادتهم في مثل هذا الاسم.

في كتب المتقدمين يطلق اسم حائل على موضعين، أحدهما وادٍ، أو موضع في بلاد طيء، والثاني رمل وأرض جنوب الوشم بقرب المروت، على طريق حاج اليمامة قديمًا، ومما ينبغي أن يلاحظ أن اسم حائل حينما يرد في شعر قشير أو جعدة أو عقيل أو غيرهم من بني عامر فإن المقصود به في الغالب الموضع الواقع قرب المروت، وقد ورد هذا كثيرًا[1].

(١) قلت: وقد استوفيت الحديث عن هذا الموضع وصفًا وتحديدًا في كتابي عالية نجد، في رسمه.

وقد وقع الخلط من كثير من الباحثين قديمًا وحديثًا بين الموضعين، ولا يعنينا في بحثنا الآن إلا الموضع الذي في بلاد طيء.

وتكاد تجمع أقوال المتقدمين على أن اسم حائل كان يطلق على واد. ويحسن أن نورد جملاً من أقوالهم.

قال الهجري: حائل واد يفلقُ بين الرمال وأجأ، ليس ثم واد غيره.

وقال البكري: وحائل أيضًا موضع آخر بجبلي طيء. وقال أبو سعيد الضرير:

حائل: بطن واد بالقرب من أجأ، وهذا هو الذي أراد امرؤ القيس بقوله:

تصيّفها حتى إذا لم يسغ لها
تجلّى بأعلى حائل وقصيصِ

ويدل على ذلك قوله:

تبيت لبوني بالقريّةِ آمنة
وأسرحها غبًا بأكناف حائلِ

والقرية: بجبلي طيء معروفة.

وقال ياقوت: حائل واد في جبل طيء.

وبعد أن أورد حمد الجاسر هذه النصوص القديمة، قال: هذا مجمل كلام المتقدمين عن حائل الوادي، فنحاول تحديده على ضوء ما ذكروا. ثم أخذ يحدد وادي حائل ويورد ما قال المتحدثون عنه وقد استوفى الحديث عن هذا الوادي ولا يسع مقامنا هذا ما قاله في تحديده.

وقال في وصفها: وتقع مدينة حائل في سفح جبل أجإٍ من الشرق في سهل ذي تربة رملية حمراء، ممتد بمحاذاة ذلك السفح يتسع جنوبًا وشرقًا. بينما يقع في جهته الشمالية جبل السمراء، وهو أنف كان ممتدًا من جبل أجإٍ يفصله الوادي، وترتفع الأرض قليلاً فيما بينه وبين أجأ، وقد شمل العمران ذلك المرتفع.

ويقدر ارتفاع موقع حائل عن سطح البحر بنحو ٩٠٠ متر تقريبًا وتطل قمم أجإٍ على المدينة، بل يكاد الجبل أن يحتضنها وتشاهد بلدة قفار ذات البساتين والأشجار جنوب المدينة، ويلبّ بها من الشرق مجرى الوادي، وقد بلغه العمران، وفي أسفله النخيل الكثيرة في السويفلة، في سفح السمراء وتقع مدينة حائل بقرب خط الطول ٣٠ ـ ٤١° وخط العرض ٣٣ ـ ٢٧° هذا بعض ما قاله حمد الجاسر عن مدينة حائل.

الجُحْفَةُ: بضم الجيم المعجمة وسكون الحاء المهملة وفتح الفاء الموحدة وآخره هاء: قرية ذات منبر على طريق المدينة من مكة.

روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مهل أهل المدينة ذو الحليفة، ومهل أهل الشام مَهْيَعة، وهي الجحفة، ومهل نجد قرن».

قال ابن حجر: الجحفة، بضم الجيم وسكون المهملة، وهي قرية خربة بينها وبين مكة خمس مراحل أو ستة، وفي قول النووي في (شرح المُهذّب): ثلاث مراحل نظر... ومهيعة بوزن علقمة، وقيل بوزن لَطِيْفة، وسميت الجحفة لأن السيل أجحف بها.

قال ابن الكلبي: كان العماليق يسكنون يثرب فوقع بينهم وبين ابن عبيل ـ بفتح المهملة وكسر الموحدة وهم إخوة عاد ـ حرب فأخرجوهم من يثرب فنزلوا مهيعة، فجاء سيل فاجتحفهم أي استأصلهم فسميت الجحفة.

وقال ياقوت: الجحفة: بالضم ثم السكون، والفاء: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، فإن مروا بالمدينة فميقاتهم ذو

الحليفة، وكان اسمها مَهْيَعة، وإنما سميت بالجحفة لأن السيل اجتحفها، وحمل أهلها في بعض الأعوام، وهي الآن خراب، وبينها وبين ساحل الجار نحو ثلاث مراحل، وبينها وبين أقرب موضع من البحر ستة أميال، وبينها وبين المدينة ست مراحل، وبينها وبين غدير خَمّ ميل. وقال السكري: الجحفة على ثلاث مراحل من مكة في طريق المدينة، والجحفة أول الغور إلى مكة، وكذلك هي من الوجه الآخر إلى ذات عرق، وأول الثغر من طريق المدينة أيضًا الجحفة، وحذف جرير الهاء وجعله من الغور فقال:

قد كنت أهوى ثرى نجد وساكنه
فالغور غور به عسفان والجُحفِ
لما ارتحلنا ونحو الشام نيتنا
قالت جعادة هذي نيّة قَذفِ

وقال ابن الكلبي: إن العماليق أخرجوا بني عقبل[1] وهم إخوة عاد بن رب، فنزلوا الجحفة وكان اسمها يومئذ مهيعة، فجاءهم سيل واجتحفهم فسميت الجحفة.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة استوبأها وحمّ أصحابه، فقال: اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، وسميت الجحفة لأن السيول اجتحفتها.

وقال في رسم العقيق: ويستقيم الطريق من بدر إلى الجحفة يومان في قفر به آبار عديدة. . . ومن طريق آخر قال: ومن العرج إلى السّقيا سبعة عشر ميلاً، ومن السقيا إلى الأبواء تسعة عشر ميلاً، ومن الأبواء إلى الجحفة ثلاثة وعشرون ميلاً. . . ومن الجحفة إلي كليّة اثنا عشر ميلاً، ومن كليّة إلى المشلل تسعة أميال. . .

وفي أول الجحفة مسجد النبي، بموضع يقال له عزور، وفي آخرها عند العلمين مسجد الأئمة، وبين الجحفة والبحر نحو ستة أميال. وغدير خم على ثلاثة أميال من الجحفة، يسرة عن الطريق.

وقد سماها رسول الله ﷺ مهيعة، قال: اللهم انقل وباء المدينة إلى مهيعة. اهـ.

قلت: وفي البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال فكان أبو بكر إذا أخذته الحمىٰ يقول:

كل امرئ مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمّى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليلُ
وهل أردن يومًا مياه مجنّة
وهل يبدونْ لي شامة وطفيلُ

قال اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميّة بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. ثم قال رسول الله ﷺ: «اللّهم حببّ إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشد اللّهم بارك لنا في صاعنا وفي مدّنا وصحّحها لنا وانقل حمّاها إلى الجحفة». قالت: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله. قالت: فكان بطحان يجري نجلا. تعني ماء آجنا.

وقال الحربي: وعلى اثني عشر ميلاً من الجحفة بئر يقال لها كليّة وعندها حوانيت، وكليّة قبل المشلل خيمتا أم معبد والمشلل قبل قديد بثلاثة أميال.

وفي ملحق الأرزقي: الجحفة في طريق الساحل الشمالي من الحجاز، والجحفة

(١) ضبطه ابن حجر بباء موحدة بعد العين. وقد تقدم.

مندثرة اليوم، ويحرم الحاج في الوقت الحاضر من رابغ.

وقد وصفها عاتق البلادي فقال: الجحفة: آثار باقية، بني مؤخرًا عليها مسجد مسلح يزوره السياح شرق رابغ من ميل إلى الجنوب على (٢٢) كيلاً وكانت على خمس مراحل من مكة على طريق الحاج إلى المدينة هي: الجموم بمر الظهران، وعسفان، والدف، والطارف أو البريكة، متجاوران ثم الجحفة. وكان واديها يسمى الخرار، وسكان الجحفة اليوم بطون من زبيد من حرب: الزنابقة والروايضة والعصلانِ وابن السّقَر، وليست هناك مساكن دائمة وكل السكان بواد رحل، وتتبع الجحفة إمارة رابغ.

وقال حمد الجاسر: الجحفة: بالضم وسكون الحاء المهملة، أحد المواقيت، قرية كانت كبيرة ذات منبر، على نحو خمس مراحل وثلثي مرحلة من المدينة، وعلى نحو أربع مراحل ونصف من مكة، وكانت تسمى أولاً (مهيعة).

وأقول: درست الآن ولم يبق سوى آثارها ومسجد بني حديثًا بقرب المسجد القديم[١].

قلت: وبما تقدم من أقوال المؤرخين يتضح وصف الجحفة وتحديد موقعها بين مكة والمدينة.

الجُرُفْ: بضم الجيم المعجمة وراء مهملة مضمومة وآخره موحدة: موضع خارج المدينة جهة الشام.

قال البخاري في صحيحه: وأقبل ابن عمر من أرضه بالجرف فحضرت صلاة العصر بمربد الغنم فصلى ثم دخل المدينة والشمس مرتفعة فلم يعد.

قال ابن حجر: والجرف بضم الجيم والراء بعدها فاء: موضع ظاهر المدينة كانوا يعسكرون به إذا أرادوا الغزو. وقال ابن إسحاق: هو على فرسخ من المدينة.

وقال البكري: الجرف بضم أوله وثانيه، وبالفاء أخت القاف: موضع قد حددته في رسم النقيع، وهو قريب من ودّان وهو من منازل بني سهم بن معاوية من هذيل، وهنا أوقع بهم عرعرة بن عاصية السّلمي، في قومه بني سليم، فأدرك بثأر أخيه عمرو بن عاصية السّلمي، ثم البهزي، وقال عرعرة في ذلك:

ألا بلّغ هذيلاً حيث كانت
مغلغلة تخب عن الشفيقِ
مقامكم غداة الجرف لما
تواقفت الفوارسُ بالمَضيقِ

وفي شعر كعب بن مالك ما يدل على أن الجرف من ديار بني عبس. وانظره في رسم خزبى، ولعلهما موضعان متفقان في الاسمين. وكان اسم الجرف العرض، قال كعب ابن مالك:

فلما هبطنا العرض قال سراتنا
علام إذا لم نمنع العرض نزرعُ؟

فلما مرّ به تبّع في مسيره قال: هذا جرف الأرض، فلزمه، ومرّ بموضع قناة، فقال: هذه قناة الأرض، فسميت بذلك، ثم هبط في موضع العرصة وكان يسمّى السليل، فقال: هذه عرصة الأرض، فلزمه، ولما صار بموضع العقيق قال: هذا عقيق الأرض، فلزمه. ويقال: في الأرض عقّ من السّيل مثل خدّ. وقال الزبير: الجرف على ميل من

(١) حاشية المغانم، ص: ٩٩.

المدينة. وقال ابن إسحاق: على فرسخ من المدينة، وهناك كان المسلمون يعسكرون إذا أرادوا الغزو.

ومن حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: يأتي الدّجّال المدينة، فيجد على كل نقب من أنقابها صفوفًا من الملائكة، فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه، فترجف المدينة ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة. اهـ.

وقال في رسم النقيع، في تحديد الجرف: وفيه سقاية سليمان بن عبد الملك. وبالجرف كان عسكر أسامة بن زيد حين توفي رسول الله ﷺ، ويلي ذلك الزغابة وبها مزارع وقصور، وتجتمع سيول العقيق وبطحان وقناة بالزغابة.

وقال في رسم خزبى، على وزن فَعْلَى: موضع تلقاء مسجد القبلتين إلى المذاد في سند الحرّة وهي دار بني سلمة من الأنصار... قال كعب بن مالك:

فلولا ابنة العبسي لم تلق ناقتي
كلالاً ولم توضع إلى غير مُوْضَعِ
فتلك التي إن تمس بالجرف دارها
وأمسي بخَزْبَى تمس ذكرتها معي

قلت: فيما ذكره البكري خلط بين مواضع تسمى الجرف، وضمّنه أقوالاً منها ما هو خاص بالجرف الواقع في المدينة، وهو ما قاله عن الزبير وعن ابن إسحاق وما أورد في رسم النقيع، وما أورده في رسم خزبى. هذا هو ما يخص الجرف الذي نتحدث عنه الواقع في المدينة. أما بيان ما يخص المواضع الأخرى فسيأتي بيانه، إن شاء الله في آخر حديثنا هذا.

وقال ياقوت: الجرف: بالضم ثم السكون، والجرف ما تجرفته السيول فأكلته من الأرض، وقيل: الجرف عرض الجبل الأملس، وقيل: جرف الوادي ونحوه من أسناد المسايل إذا نخج الماء من أصله فاحتفر وصار كالدخل وأشرف أعلاه، فإذا انصدع أعلاه فهو هار، ومنه قوله: ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٩].

والجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم وبئر جمل، قالوا: سمي الجرف لأن تبّعًا مرّ به فقال: هذا جرف الأرض، وكان يسمى العرض، وفيه قال كعب بن مالك:

إذا ما هبطنا العرض قال سراتنا
علام إذا لم نمنع العرض نزرعُ

وذكر هذا الجرف في غير الحديث.

وفي المغانم المطابة، قال المجد: الجرف: بالضم ثم السكون، موضع على ثلاثة أميال من المدينة، من جهة الشام، وكانت به أموال لعمر ولأهل المدينة، وفيه بئر جشم وبئر جمل... قال الزبير: بعث تبّع رائدًا ينظر إلى مزارع المدينة، فأتى فقال: قد نظرت، فأما قناة فحب بلا تبن وأما الحرار فلا حب ولا تبن، وأما الجرف فالحب والتبن.

وقال السمهودي: قال عياض: هو بضم الجيم والراء، موضع بالمدينة، فيه أموال من أموالها، وبه كان مال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام. وفي طبقات ابن سعد: مات المقداد بالجرف، على ثلاثة أميال من المدينة، فحمل على رقاب الرجال حتى دفن بالبقيع.

ثم ذكر بعضًا مما ذكره من قبله.

وقال عبد الحميد العباسي: الجرف: بالضم ثم السكون، موضع على ثلاثة أميال من المدينة من جهة الشام، كانت بها أموال

لعمر بن الخطاب ﷺ وفيها بئر جمل وبئر جشم، وقد وصلت ودرت فيه وبحواليه وبآباره وآثاره وليس الخبر كالمعاينة، قالوا سمي بالجرف لأن تبّعًا مرّ به قال هذا جرف الأرض، وكان يسمى العرض قبل ذلك.

ثم ذكر نحوًا مما ذكره ياقوت.

وقال الشنقيطي: الجرف، بضم الجيم وسكون الراء: موضع به قرية إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة على نحو ثلاثة أميال، وقد قامت أمانة المدينة ببناء منتزه كبير في مدخل قرية الجرف وصار متنفسًا لأهل المدينة يخرجون إليه عشيًا وحين يمسون. ومنطقة الجرف من أول مناطق المدينة سكنى، حيث سكنه أولاً صعل ثم فالج الذين غزاهم نبي الله داود عليه السلام وسبىٰ منهم مائة ألف عذراء، ثم سلط الله عليهم دودًا في أعناقهم فأهلكهم الله، فقبورهم تملأ ما بين حرّة زهرة ووادي رانونا... وكان بالجرف أموال لعمر ﷺ، وبه آبار منها بئر جشم، وبئر جمل.

قلت: هذا هو (الجرف) الذي ورد في الحديث في صحيح البخاري، وفيما تقدم من أقوال العلماء يتضح لنا:

أولاً: أنهم اختلفوا في ضبطه، فقال بعضهم هو بضم أوله وثانيه، وقال بعضهم هو: بضم أوله وإسكان ثانيه، وذكر فيه القرطبي قراءتين.

وبذلك يترجح أنه يجوز فيه الوجهان.

ثانيًا: أنهم اتفقوا على موقعه من المدينة ووصفه وتحديد المسافة بينه وبين المدينة وفي سبب تسميته.

قلت: وهو ما زال معروفًا باسمه معمورًا وقد رسم موضحًا على خريطة المدينة الجغرافية الملحقة في بحث المدينة في رسمه في هذا الكتاب.

والجرف - من الأسماء المشتركة، فهو اسم لمواضع متعددة ذكرها المؤرخون وهي كما ذكرت في مؤلفاتهم.

الجرف أيضًا: قال ياقوت: موضع بالحيرة كانت به منازل المنذر.

والجرف أيضًا: موضع قرب مكة كانت به وقعة بين هذيل وبني سليم.

قلت: هذا هو الموضع الذي ذكره البكري، وقال: وهو من منازل بني سهم بن معاوية ابن هذيل، وهنا أوقع بهم عرعر بن عاصية السّلمي، في قومه بني سليم فأدرك بثأر أخيه.

وقال البكري: وفي شعر كعب بن مالك ما يدل على أن الجرف من ديار بني عبس.

وكان اسم الجرف العرض، قال كعب ابن مالك:

فلما هبطنا العرض قال سراتنا
علام إذا لم نمنع العرض نزرعُ

قلت: العرض اسم للجرف المعروف في المدينة.

وفي رسم خَزْبَىٰ، قال: موضع تلقاء مسجد القبلتين إلى المذاد في سند الحرّة، وهي دار بني سلمة من الأنصار.. قال كعب بن مالك:

فلولا ابنة العبسيّ لم تلق ناقتي
كلالاً ولم توضع إلى غير موضعِ
فتلك التي إن تمس بالجرف دارها
وأمسي بخَزْبَى تمس ذكرتها معي

قلت: وبما أنه حدد خَزْبَىٰ التي كان يقيم فيها في سند الحرّة في دار بني سلمة من الأنصار بالمدينة، وحدد الجرف في المدينة، فإنه لا دلالة في شعر كعب بن مالك على أن الجرف في ديار عبس، بل هو في المدينة.

والجرف أيضًا: قال ياقوت من نواحي اليمامة، كان به يوم الجرف لبني يربوع على بني عبس، قتلوا فيه شريحًا وجابرًا ابني

وهب بن غوث بن غالب، وأسروا فروة وربيعة ابني الحكم بن مروان بن زنباع، قال رافع بن هزيم.

فينا بقيّاتٌ من الخيل صُرَّمْ
وسبعة آلاف وأدراعُ رزَّمْ
ونحن يوم الجرف جئنا بالحكم
قسرًا وأسرى حوله لم تقتسم

والجرف أيضًا في قول أبي سعد: موضع باليمن، ينسب إليه أحمد بن إبراهيم الجرفي، سمع منه الحافظ أبو القاسم بن الوارث الشيرازي.

الجَزِيْرَة: : بجيم معجمة مفتوحة وزاي معجمة مكسورة ثم ياء مثناة ساكنة بعدها راء مهملة مفتوحة وآخره هاء: جزيرة من أعمال الموصل.

قال البخاري قال مجاهد: الجودي جبل بالجزيرة.

وقال ابن حجر: قوله، الجودي جبل بالجزيرة، وصله ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عنه وزاد: تشامخت الجبال يوم الغرق وتواضع هو لله فلم يغرق وأرسيت عليه سفينة نوح.

وقال القرطبي في تفسيره: الجودي، ياؤه مشددة، هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح.

وقال ياقوت في رسم جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأحسب أن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي، وكانت له امرأة بالجزيرة وذكر قرابة سنة ٢٥٠ وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال، ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماء ونُصِبت عليه رحى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق، وينسب إليها جماعة كثيرة، منهم: أبو طاهر إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن مهران الفقيه الجزري الشافعي، وكان رجلاً كاملاً جمع بين العلم والعمل، تفقه بالجزيرة على عاملها يومئذ عمر بن محمد البزري. وذكر غيره آخرين من أهل العلم.

وقال المسعودي: في حديثه عن سفينة نوح عليه السلام وقومه: فأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء وقد غرق جميع الأرض خمسة أشهر، ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء والسماء أن تقلع، واستوت السفينة على الجودي، والجودي ببلاد باسورى، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل، بينه وبين دجلة ثمانية فراسخ، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية(١).

وقال ابن بطوطة في وصف طريقه من الموصل إلى نصيبين: ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصّد، وهي على نهر عليه جسر مبني، وبها خان كبير، ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمَوِيلحَة، ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر، وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة، أكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل، وسورها مبني بالحجارة أيضًا، وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء، ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب

(١) مروج الذهب ١/ ٥١.

الله ـ ﷺ ـ الذي استوت عليه سفينة نوح ﷺ، وهو جبل عال مستطيل.

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيبين[(١)].

قلت: وقد تعرضت جزيرة ابن عمر لأحداث كثيرة، ذكرها ابن الأثير متفرقة في كتابه منها:

وفي سنة (٤٧٨) أرسل فخر الدولة جيشًا إلى جزيرة ابن عمر، وهي لبني مروان، فحصروها، فثار أهل بيت من أهلها يقال لهم بنو وهبان وهم من أعيان أهلها، وقصدوا بابًا للبلد صغيرًا يقال له باب البويبة، لا يسلكه إلا الرّجالة لأنه يصعد إليه من ظاهر البلد بدرج فكسروه، وأدخلوا العسكر فملكه وانقرضت دولة بني مروان، فسبحان من لا يزول ملكه.

وفي سنة (٥٤١) سار أتابك زنكي إلى حصن جعبر، وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلي، سلم السلطان ملك شاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب، فحصره وسير جيشًا إلى قلعة فَنَك، وهي تجاور جزيرة ابن عمر، بينهما فرسخان فحصرها أيضًا وصاحبها حينئذ الأمير حسام الدين الكردي البشناوي.

وفي سنة (٥٦٠) توفي الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي تفقه على الفقيه الكيا الهراس واحد عصره في الفقه تأتي إليه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد، وهو من جزيرة ابن عمر.

وفي سنة (٥٧٧) توفي إبراهيم بن محمد ابن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن عمر وكان فاضلاً كثير الورع.

وفي سنة (٥٨٧) في ربيع الأول، سار أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها، وكان بها صاحبها سنجر شاه سيف الدين غازي بن مودود، وهو ابن أخي عز الدين. وكان سبب حصره أن سنجر شاه كان كثير الأذى لعمه عز الدين والشناعة عليه.

وفي سنة (٦٠٥)، قتل سنجر شاه بن غازي ابن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب جزيرة ابن عمر، وهو أن عم نور الدين، صاحب الموصل قتله ابنه غازي.

وفي سنة (٦٢٤)، في رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وأرادوا الإغارة على جزيرة ابن عمر، وكان صاحب الجزيرة قد قتل، فلما قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها سلكون ولقوهم من ضحوة النهار إلى العصر، وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الأكراد فهزموهم وقتلوا فيهم، وخرجوا ونهبوا ما معهم وعادوا سالمين.

قلت: هذا وصف موجز لجزيرة ابن عمر، وهي ما زالت معروفة باسمها هذا، مرسومة به على الخرائط الجغرافية الحديثة، على الحدود الشمالية الشرقية السورية، بينها وبين تركيا، شرق نصيبين، وقد كتبت على الخريطة ـ على جانب خط الحدود ـ مما يلي تركيا. وقد جاء ذكر الجزيرة في البخاري عن مجاهد وكذا في فتح الباري غير معرّفة بإضافة تميزها ولا وصف جغرافي يحددها، وهذا الاسم من الأسماء المشتركة التي لا يتميز مسمّاها إلا بالوصف أو التعريف.

ويتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن المقصود في الحديث هو الجزيرة المحصورة بين نهري دجلة والفرات، وهذه جزيرة واسعة ممتدة إلى بلاد كبيرة ولربوعها أسماء تميز بها، وإنما

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص: ٢٣٦.

تحدثت عن جزيرة ابن عمر لأن المورخين ربطوا ذكر جبل الجودي ـ الذي رست عليه سفينة نوح ـ بذكرها، وسيأتي في رسم الجودي مزيد من الإيضاح.

أما وإن اسم الجزيرة جاء في الحديث مطلقًا، فإنني سأتحدث عن الجزيرة المحصورة بين نهري دجلة والفرات حديثًا موجزًا من خلال ما وصفها به ياقوت والبكري، وقد سماها ياقوت: جزيرة أقور.

قال ياقوت: جزيرة أقور: بالقاف، وهي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام، تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، وهما يقبلان من بلاد الروم وينحطّان متسامتين حتى يلتقيان قرب البصرة ثم يصبان في البحر، وهي صحيحة الهواء جيدة الريّع والنماء واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة من أمهات مدنها حران والرّها والرقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميا فارقين والموصل وغير ذلك... وقد صنف لأهلها تواريخ، وخرج منها أئمة في كل فن، وفيها قيل:

نحن إلى أهل الجزيرة قبلة
وفيها غزال ساحي الطرف ساحره
يؤازره قلبي عليّ وليس لي
يدان بمن قلبي عليّ يؤازره

وتوصف بكثرة الدّماميل، قال عبد الله ابن هشام السلولي:

أتيح له من شرطة الحي جانب
عريض القُصَيرَى لحمه متكاوسُ
أبدٌّ إذا يمشي يحيك كأنما
به من دماميل الجزيرة ناخسُ

القُصَيرى: الضلع التي تلي الشاكلة، وهي الواهنة في أسفل البطن.

والأبد: السمين.

وتحدث ياقوت حديثًا طويلاً عن سكان هذه الجزيرة وفتحها، لا يتسع له مقامنا هذا.

وقال البكري: كل موضع أحاط به البحر أو النهر، أو جزر عن وسطه، فهي جزيرة. والجزيرة أكورة إلى جنب الشام معروفة، والجزيرة بالبصرة: أرض كثيرة النخل بينها وبين الأبلة، خصت بهذا الاسم. والكورة التي تلي الشام المذكورة، هي المعروفة بديار مضر وربيعة والجزيرة، وهي كورة الرقة، وكورة الرها، وكورة سروج، وكورة حرّان، وكورة شمشاط، وكورة حصن منصور، وسميت الجزيرة لأنها بين الفرات ودجلة مثل الجزيرة.

وتحدث البلاذري عن فتح الجزيرة، وذكر مراحل فتحها والقادة المسلمين الذين قاموا بفتح أقاليمها وختم حديثه بقوله: وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر، عن الزهري قال: لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فُتِح على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم.

قلت: وهذه الجزيرة ما زالت معروفة باسمها القديم ترسم به على الخرائط الجغرافية في هذا العهد، واسمها يشكل كل البلاد الواقعة بين نهري دجلة والفرات على طول امتدادهما في دولة العراق وفي سوريا وفي تركيا.

جزيرة العرب: بجيم معجمة مفتوحة وزاي معجمة مكسورة وياء مثناة ساكنة بعدها راء مهملة مفتوحة وآخرها هاء، مضاف: جزيرة العرب التي كانوا يسكنونها وتنسب إليهم.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «يوم الخميس وما يوم الخميس». ثم بكى حتى خضب دمعه

الحصباء، فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع». فقالوا: هجر رسول الله ﷺ قال: «دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه». وأوصى عند موته بثلاث أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ونسيت الثالثة.

وقال ابن حجر: قال الزبير بن بكّار - في أخبار المدينة - أخبرت عن مالك عن ابن شهاب قال: جزيرة العرب المدينة. قال الزبير: قال غيره: جزيرة العرب ما بين العذيب إلى حضرموت، قال الزبير: وهذا أشبه وحضرموت آخر اليمن. وقال الخليل ابن أحمد: سميت جزيرة العرب لأن بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة أحاطت بها، وهي أرض العرب ومعدنها.

وقال الأصمعي: هي ما لم يبلغه ملك فارس من أقصى عدن إلى أطراف الشام. وقال أبو عبيد من أقصى عدن إلى ريف العراق طولاً ومن جدة وما والاها من الساحل إلى أطراف الشام عرضًا. وقال الأصمعي: جزيرة العرب ما بين أقصى عدن أبين إلى ريف العراق طولاً ومن جدة وما والاها إلى أطراف الشام عرضًا، وسميت جزيرة العرب لإحاطة البحار بها - يعني بحر الهند وبحر القلزم وبحر فارس وبحر الحبش، وأضيفت إلى العرب لأنها كانت بأيديهم قبل الإسلام وبها أوطانهم ومنازلهم. اهـ.

وقال الهمداني: بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوا بها، وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب، وفي أشعارها: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن، وذلك أن جبل السّراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمّته العرب حجازًا لأنه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعكّ وحكم وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وما صاقبها، وغار من أرضها: الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله.

وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسّماوة وما يليها نجدًا، ونجد تجمع ذلك كله.

وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر إلى ناحية فيد وجبلي طيء إلى المدينة وراجعا إلى أرض مذحج من تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازًا، فالعرب تسميه نجدًا وحجازًا والحجاز يجمع ذلك كله.

وصار بلاد اليمامة والبحرين وما والاها العروض، وفيها نجد وغور لقربها من البحار وانخفاض مواضع منها، ومسايل أودية فيها والعروض يجمع ذلك كله.

وصار ما خلف تثليث وما قاربها إلى صنعاء وما والاها إلى حضرموت والشّحر وعمان وما يليها اليمن، وفيها التهائم والنجد واليمن تجمع ذلك كله. اهـ.

وقال البكري: قال الأصمعي: جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس، من أقصى عدن أبين إلى أطراف الشام، هذا هو الطول. والعرض من جدة إلى ريف العراق. . .

وقال الشعبي: جزيرة العرب ما بين قادسية الكوفة إلى حضرموت. وقال أبو عبيدة: جزيرة العرب ما بين حفر أبي موسى بطوارة من أرض العراق، إلى أقصى اليمن في الطول، وأما في العرض فما بين رمل يبرين

إلى منقطع السّماوة. وقال الخليل: سميت جزيرة العرب جزيرة، لأن بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة أحاطت بها وهي أرض العرب ومعدنها.

وقال أبو إسحاق الحربي: أخبرني عبد الله ابن شبيب عن الزبير، قال: حدّثني محمد ابن فضالة: إنما سميت جزيرة العرب لإحاطة البحر بها والأنهار من أقطارها وأطرارها، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم، فظهر بناحية قنّسرين، ثم انحطّ عن الجزيرة، وهي ما بين الفرات ودجلة، وعن سواد العراق حتى دفع في البحر، من ناحية البصرة والأبلّة، وامتد إلى عبادان، وأخذ سفوان وكاظمة، ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف عمان الشّحر، وسال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن دهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن، بلاد حكم والأشعريين وعكّ، ومضى إلى جدة ساحل مكة وإلى الجار سواحل المدينة، وإلى ساحل تيماء وأيلة حتى بلغ إلى قلزم مصر، وخالط بلادها، وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان، مستطيلاً معارضًا للبحر، حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين، ومرّ بعسقلان وسواحلها، وأتى على صور ساحل الأردن، وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق، ثم نفذ إلى ساحل حمص وسواحل قنّسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات، منحطًّا على أطراف قنّسرين والجزيرة إلى سواد العراق. فصارت بلاد العرب هذه الجزيرة التي نزلوها خمسة أقسام: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن.

وجبل السّراة هو الحد بين تهامة ونجد، وذلك أنه أقبل من قعرة اليمن ـ وهو أعظم جبال العرب ـ حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمّته العرب حجازًا. فصار ما خلف هذا الجبل في غربيه إلى أسياف البحر في بلاد الأشعريين وعكّ وكنانة إلى ذات عرق والجحفة وما والاها وصار فيها وغار من أرضها الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وغور الشام لا يدخل في ذلك.

وصار ما دون ذلك في شرقيه من الصحاري إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجدًا ونجد تجمع ذلك كله، وأعراض نجد هي بيشة وترج وتبالة والمراغة ورنية، وصار الجبل نفسه وهو سراته وهو الحجاز وما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد وذلك كله حجاز.

وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما: العروض، وفيها نجد وغور لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسايل وأودية فيها، والعروض يجمع ذلك كله.

وصار ما خلف تثليث وما قاربها إلى صنعاء وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشحر وعمان وما بينها: اليمن وفيها التهائم والنجود، واليمن يجمع ذلك كله. اهـ.

وتحدث ياقوت عن جزيرة العرب فقال: قد اختلف في تحديدها وأحسن ما قيل فيها ما ذكره أبو المنذر هشام بن محمد السائب مسندًا إلى ابن عباس وذكر نحوًا مما ذكره البكري مسندًا إلى محمد بن السائب الكلبي متصلاً إلى ابن عباس وأورد ما ذكره البكري في تحديد جزيرة العرب ووصفها ووصف البحار المحيطة بها وتعليل تسميتها بهذا الاسم وتحدث عن أقسامها الخمسة بنحو ما تحدث به البكري.

قلت: مما تقدم يتبين لنا شيء من اختلاف العلماء في تحديد جزيرة العرب وتحديد أقسامها غير أن الاختلاف يعتبر يسيرًا وهو فيما يخص حدودها من ناحية الشمال ـ مما يلي العراق وبلاد الشام ـ غير أنهم لم يختلفوا في حدودها الأخرى التي تحد بمياه البحار، واختلافهم في الحدود من ناحية الشمال إنما هو بالنسبة لتعريف المواضع التي تحد بها ولم يختلفوا في سعة حدودها من الشمال إلى حدود الشام وحدود العراق مما يلي الكوفة. أما الاختلاف في تحديد أقسامها الداخلية فإنه اختلاف يسير بسبب تعريف الأمكنة التي تحدد كل قسم منها عن القسم الآخر وهذه الجزيرة العربية ما زالت محتفظة باسمها، عامرة بسكانها من العرب، متميزة بجغرافيتها وبنمط معيشة أهلها وتقاليدهم العربية الأصيلة وانتمائهم الإسلامي الذي شرّف الله به هذه الجزيرة حيث جعلها منطلقًا للبعث الإسلامي، وميّزها بالأماكن المقدّسة في مكة وفي المدينة. وقد تشرّف أهلها بخدمة هذه الأماكن المقدّسة والمحافظة على قداستها وتيسير السبل لزوّارها من المسلمين من أقطار الأرض على مرّ السنين.

وقد استوفيت الحديث عن كل قسم من أقسامها الجغرافية في رسمه من كتابي هذا، فانظرها.

الجعْرانَة: بجيم معجمة مكسورة وعين مهملة ساكنة وراء مهملة بعدها ألف، وبعد الألف نون موحدة مفتوحة وآخره هاء: موضع شرق مدينة مكة معروف.

روى البخاري عن يعلى قال لعمر ـ رضي الله عنه ـ أرني النبي ﷺ حين يوحىٰ إليه قال فبينما النبي ﷺ بالجعرانة ومعه نفر من أصحابه جاءه رجل فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمخ بطيب؟ فسكت النبي ﷺ ساعة. فجاءه الوحي. فأشار عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى يعلى، فجاء يعلى وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به فأدخل رأسه فإذا رسول الله ﷺ محمرّ الوجه وهو يغط.. الحديث.

قال ابن حجر: أما الجعرانة فهي بكسر الجيم والعين المهملة وتشديد الراء، وقد تسكن العين، وهي بين الطائف ومكة وإلى مكة أقرب قاله عياض، وقال الفاكهي: بينها وبين مكة بريد، وقال الباجي: ثمانية عشر ميلاً. وقد أنكر الداودي الشارح قوله إن الجعرانة بين مكة والمدينة، وقال: إنما هي بين مكة والطائف، وكذا جزم النووي بأن الجعرانة بين الطائف ومكة وهو مقتضى ما تقدم نقله عن الفاكهي وغيره. اهـ.

وقال ياقوت: الجعرانة؛ بكسر أوله إجماعًا، ثم إن أصحاب الحديث يكسرون عينه ويشددون راءه، وأهل الإتقان والأدب يخطئونهم ويسكنون العين ويخففون الراء.

وقد حكي عن الشافعي أنه قال: المحدثون يخطئون في تشديد الجعرانة وتخفيف الحديبية، إلى ها هنا مما نقلته، والذي عندنا أنهما روايتان جيدتان. حكى إسماعيل ابن القاضي عن علي بن المديني أنه قال: أهل المدينة يثقلونه ويثقلون الحديبية، وأهل العراق يخففونهما، ومذهب الشافعي تخفيف الجعرانة، وسمع من العرب من قد يثقلها، وبالتخفيف قيدها الخطابي: وهي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ لما قسم غنائم هوازن، مرجعه من غزاة حنين وأحرم منها ﷺ وله فيها مسجد

وبها آبار متقاربة. وأما في الشعر فلم نسمعها إلا مخففة، قال:

فيا ليت في الجعرانة اليوم دارها
وداري ما بين الشآم فكبكبِ
فكنت أراها في الملبين ساعة
ببطن منى ترمى جمار المحصّبِ

وقال أبو العباس القاضي: أفضل العمرة لأهل مكة ومن جاورها من الجعرانة لأن رسول الله ﷺ اعتمر منها، وهي من مكة على بريد من طريق العراق، فإن أخطأ ذلك فمن التنعيم. اهـ.

وقال الفاسي: والمعروف عند أهل السير أن النبي ﷺ انتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة وأقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ليلاً فأحرم بعمرة ودخل مكة.

والجعرانة أفضل مواقيت العمرة من مكة لإحرام النبي ﷺ من هذا المكان، على مذهب مالك والشافعي وابن حنبل وغيرهم من العلماء.

وقال الواقدي: انتهى رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، فأقام بالجعرانة ثلاثة عشر فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج من الجعرانة ليلة الأربعاء لاثنتي عشر بقيت من ذي القعدة ليلاً، فأحرم من المسجد الأقصى الذي تحت الوادي بالعدوة القصوى وكان مصلّى رسول الله ﷺ إذا كان بالجعرانة ـ فأما هذا المسجد الأدنى، فبناه رجل من قريش واتخذ ذلك الحائط عنده ـ ولم يجز رسول الله ﷺ الوادي إلا محرمًا، فلم يزل يلبي حتى استلم الركن. ويقال: لما نظر إلى البيت قطع التلبية. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى الجعرانة من ليلته فكان كبائت بها، فلما رجع إلى الجعرانة خرج يوم الخميس فسلك في وادي الجعرانة وسلك معه حتى علا سرف ثم أخذ الطريق حتى انتهى إلى مر الظهران... وقدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من ذي القعدة.

قلت: فيما تقدم يتضح اختلاف العلماء في ضبط الجعرانة، بين كسر العين وتسكينها وبين تثقيل الراء وتخفيفها، وقد أورد ياقوت أقوال الفئتين وقال: والذي عندنا أنهما روايتان جيدتان، وكذلك اختلفوا في تحديد المسافة بين مكة وبين الجعرانة.

قلت: والجعرانة موضع ما زال محتفظًا باسمه عبر القرون الماضية وما زال معروفًا به لم يتغير منه شيء وهو من المواضع التي احتفظت باسمها وبمكانتها الإسلامية، وقد زارها عاتق البلادي ووصفها وصفًا جيدًا وهو يشاهد معالمها فقال:

الجعرانة: الأصل بئر تقع شمال شرقي مكة في صدر وادي سرف الذي يسمى بها هناك، ثم اتخِذَت عمرة اقتداء باعتمار الرسول ﷺ منها بعد غزوة الطائف، فيها اليوم مسجد كبير وبستان صغير، يشرف عليها من الشمال الشرقي جبل أظلم، ويربطها بمكة طريق معبد تمتد إلى وادي الزّبارة، تبعد الجعرانة أحد عشر كيلاً عن علمي طريق نجد... وماؤها يضرب بعذوبته المثل، وينقل إلى مكة هدايا، وبها نزل قليل.

وذكر أن المسافة بين علمي طريق نجد وبين مكة (١٥) كيلاً تقريبًا وعليه فإن المسافة بين الجعرانة وبين مكة تبلغ (٢٦) كيلاً تقريبًا والطريق إليها مسفلت جيد. اهـ.

الجَمْرَة: بجيم معجمة مفتوحة وميم ساكنة فراء مهملة، وآخره هاء: موضع رَمِي الجمار في منى.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله ابن عمرو قال: رأيت النبي ﷺ عند الجمرة وهو يُسْأل فقال رجل: يا رسول الله نحرت قبل أن أرمي قال: ارم ولا حرج. قال آخر: يا رسول الله، حلقت قبل أن أنحر. قال: انحر ولا حرج. فما سئل عن شيء قدّم ولا أخّر إلا قال: افعل ولا حرج.

قال البكري: الجمرة: بمكة معلومة وهي موضع رمي الجمار، فالجمرة الكبرى هي جمرة العقبة، روى شعبة بن الحكم عن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن يزيد: أن ابن مسعود لما انتهى إلى الجمرة الكبرى، جعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ورمى الجمرة بسبع حصيات، وقال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة.

وقال الفاسي: الجمار بمنى، ونُقِلَ عن ابن سيدة اللغوي صاحب المحكم ما يقتضي أنها بعرفة، وهو وهم قطعًا، ذكرناه لغرابته، وقد نقل ذلك عنه السهيلي في كتابه الروض الأنف، لأنه نقل عن ابن سيدة شيئًا قاله في كتابه المحكم وخطأه فيه، ثم قال السهيلي: فقال ـ يعني ابن سيده ـ في الجمار في غير هذا الكتاب، هي التي تُرمى بعرفة، وهذه هفوة لا تُقال، وعثرة لا لَعالها وكم له من هذا إذا تكلم في النسب وغيره والله ولي التوفيق.

والأولى منها هي التي تلي مسجد الخيف، والوسطى التي بينها وبين جمرة العقبة، والأخيرة هي جمرة العقبة، وهي أقرب الجمار إلى مكة ورميها على هذا الترتيب مطلوب على مذهب الإمام مالك، ومتى وقع على غير هذه الصفة ولم يتدارك في وقت الأداء، وهو النهار على المشهور لزم فاعل ذلك الدم.

وقال الأزرقي في ذكر المسافة بين الجمار: ومن جمرة العقبة وهي أول الجمار مما يلي مكة إلى الجمرة الوسطى أربعمائة ذراع وسبعة وثلاثون ذراعًا واثنتا عشرة أصبعًا، ومن الجمرة الوسطى إلى الجمرة الثالثة وهي تلي مسجد منى ثلاثمائة ذراع وخمسة أذرع، ومن الجمرة التي تلي مسجد منى إلى أوسط أبواب المسجد ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وواحد وعشرون ذراعًا.

قال ياقوت: جمار: بالكسر جمع جمرة، وهي الحصاة: اسم موضع بمنى، وهو موضع الجمرات الثلاث، قال ابن الكلبي: سميت بذلك حيث رمى إبراهيم الخليل عليه السلام، إبليس فجعل يجمر من مكان إلى مكان، أي يثب، وكان ابن الكلبي ينشد هذا البيت:

وإذا حرّكت غرزي أجمرت

وقال الشاعر:

إذا جئتما أعلى الجمار فعرّجا
على منزل بالخيف غير ذميم
وقولا سقاك اللّه عن ذي صبابة
إليك على ما قد عهدت مقيم

وقال: والجمرة موضع رمي الجمار بمنى، وسميت جمرة العقبة والجمرة الكبرى لأنه يرمى بها يوم النحر: وقال الداودي: وجمرة العقبة في آخر منى، مما يلي مكة، وليست العقبة التي نسبت إليها الجمرة من منى، والجمرة الأولى والوسطى هما جميعًا فوق مسجد الخيف مما يلي مكة.

وذكر الفاكهي طائفة من الأشعار التي ورد فيها ذكر الجمار، منها:

قال عمر بن أبي ربيعة:

كان يوم الجمار مما قضى اللّه
عـلـيـنـا وخـط بـالأقـلامِ
قـد تـمـنـيـت أنـنـي لـك در
ع وإزار وحـلـيـة فـي نـظـامِ
وقال العرجي:
وللرمي قد تبدي الحسان أكفّها
ويفتر بالتكبير عن شعب غرّ
فيا رب مشعوف بنا لا ينالنا
غداة تساق المشعرات إلى النحر
غداة يوافي أهل جمع مع الحصى
كذا الجمرة القصوى ذوو لم غبُر
فـيـا ربّ بـاد شـجـوه ومـعـول
إذا ما رأى الأطناب تُنزع للنّفر
وقال مجنون بني عامر:
ولم أر ليلى بعد موقف ساعة
ببطن منى ترمي جمار المحصّبِ
ويبدي الحصى منها إذا قذفت به
من الدرع أطراف البنان المخضّبِ
فلما رأت أن التفرق بغتة
وأنّا متى ما نفترق نتشعبِ
أشارت بموسوم كأن بنانه
عليه المثاني من دمقس مذهبِ
ألا إنما غادرت يا أمّ مالك
صدى أينما تذهب به الريح يذهبِ
وقال شاعر آخر:
إنـي امـرؤ يـعـتـادنـي ذِكَـر
مـنـهـا ثـلاث مـنـى لـذا صـبـري
ومـواقـف بـالـمـشـعـريـن لـهـا
ومـنـاظـر الـجـمـرات والـنـحـرِ
وقال شاعر آخر:
تقول التي ترمي الجمار عشية
وتبدي لنا منها بنانًا مخضّبا
غدا ينفر الحجاج من بطن مكة
وتفترق الأحياء شرقًا ومغربا
فأبلست واسترجعت إذ نطقت به
وقلت لها: العينان بالدمع تسكبا
وقال شاعر آخر:
أتعهد الحي ليل السامر العُرِد
بجانب الجمرة القصوى إلى السبد
هل للزمان إياب في تصرفه
بليلة سلفت منكنّ لم تعد

هذا بعض ما ذكره الفاكهي مما قيل من الشعر في الجمرات.

قلت: مما تقدم من أقوال العلماء في وصف الجمرات وتحديد موقعها في منى يتضح لنا اتفاقهم على موقعها، ومشروعية رميها في الحج، والجمرة تذكر بصيغة المفرد والجمع (جمرة)، (جمرات)، (جمار)، وكلها تعني موضع رمي الجمار بمنى، مجموعًا ومفردًا، ولا خلاف في ذلك.

والجمار من المشاعر التي خلّدها التشريع الإسلامي في فريضة الحج، اسمها وموقعها ورميها بالحصى في الحج، وشهرتها تغني عن الإطالة في الحديث عنها.

جَمْع: بجيم معجمة مفتوحة وميم ساكنة، والعين مهملة: اسم من أسماء المزدلفة.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جمع النبي ﷺ بين المغرب والعشاء بجمع كل واحدة منهما بإقامة ولم يسبح بينهما ولا على إثر كل واحدة منهما.

قال ابن حجر: جمع: بفتح الجيم وسكون الميم أي المزدلفة، وسُميت جمعًا لأن آدم اجتمع فيها مع حواء، وأزلف إليها أي دنا منها. وروي عن قتادة أنها سميت جمعًا لأنها يُجمع فيها بين الصلاتين. وقيل: وصفت بفعل أهلها لأنهم يجتمعون بها ويزدلفون إلى الله أي يتقربون إليه بالوقوف فيها. وسميت

المزدلفة إما لاجتماع الناس بها، أو لاقترابهم إلى منى، أو لازدلاف الناس منها جميعًا، أو للنزول بها في كل زلفة من الليل، أو لأنها منزلة وقربة إلى الله، أو لازدلاف آدم إلى حواء بها. اهـ.

وقال الفاكهي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جمع من مفضى المأزمين إلى القرن الذي خلف وادي محسّر.. وعن عطاء بنحوه، إلا أنه قال: حتى يبلغ القرن الأحمر دون محسّر على يمين من خرج من مكة.

وإنما سميت المزدلفة لمزدلف الناس عنها، وأنهم لا يقيمون بها يومًا كاملاً.

وروى بسنده عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: أهبط الله ـ عز وجل ـ آدم عليه الصلاة والسلام بالهند، وأهبط حواء بجدة، ولا يعلم واحد منهما بمكان صاحبه حتى اجتمعا بجمع فسميت جمعًا لاجتماعهما بها.

وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدّثني الفضل بن عباس رضي الله عنهما، قال: أردفني رسول الله ﷺ غداة جمع، قال: ودفع معنا رجل من الأعراب له ابنة، فالتفت رسول الله ﷺ فرآني أنظر إليها نظرًا شديدًا، فأمال النبي ﷺ رأسي حتى أمال وجهي عنها، فلم يزل يلبي حتى رمى الجمرة.

وروى بسنده عن عطاء قال قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: المزدلفة إذا أفضيت من مأزمي عرفة فذلك إلى محسّر. قال: ليس المأزمان مأزمي عرفة من المزدلفة ولكن مفضاهما، قال: فتقف بأيهما شئت، قال: وأحب إليّ أن تقف دون قزح، هلمّ إلى منى.

قال عطاء: فإذا أفضيت من مأزمي عرفة فانزل في كل ذلك عن يمين وشمال، وأين شئت. قال: قلت: فأنزل في الجرف إلى الجبل الذي يأتي يميني حين أفضي إذا أقبلت من المأزمين، قال: نعم إن شئت. قال: وأحب إليّ أن تنزل دون قزح هلمّ إلينا وحذوه، قال: قلت: فأحب إليّ أن أنزل على قارعة الطريق، قال: سواء إذا أخفضت عن قزح هلمّ إلينا ـ وهو يكره أن ينزل الإنسان على الطريق ـ قال: تضيق على الناس. قال: وإن نزلت فوق قزح إلى مفضى مأزمي عرفة فلا بأس إن شاء الله.

وروى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: المشعر الحرام: المزدلفة كلها.

ورورى بسنده عن حبيب، قال: قيل لعطاء ـ يعني في الموقف ـ بجمع: قال: ما فوق بطن محسّر، قيل: إلى قزح، قال: وما وراء ذلك هو المشعر الحرام.

وقال الفاسي: المزدلفة الموضع الذي يؤمر الحاج بنزوله والمبيت فيه بعد دفعه من عرفة ليلاً، وهو ما بين مأزمي عرفة ومحسّر، ومأزما عرفة هو الذي يقال له المضيق...

ويقال للمزدلفة: جمع، سُميت بذلك لاجتماع الناس بها، وقيل: لاجتماع آدم وحواء فيها، وقيل: لجمع الصلاتين فيها، وبها مسجد حول قزح، وهو صغير مربع ليس بالطويل الحيطان.

وقال ياقوت: جمع: ضد التّفرق: هو المزدلفة، وهو قزح، وهو المشعر، سمي جمعاً لاجتماع الناس به.

قال ابن هرمة:

سلا القلب إلا من تذكر ليلة
بجمع وأخرى أسعفت بالمحصّبِ
ومجلس أبكار كأن عيونها
عيون المها أنضين قدّام ربربِ

وقال آخر:

تمنّى أن يرى ليلى بجمع
ليسكن قلبه مما يعاني

فــلــمــا أن رآهــا خــوّلــتــه
بــعــادًا فَــتَّ فــي عَــضُــد الأمــانــي
إذا ســمــح الــزمــان بــهــا وضــنّــت
عــلــيّ فــأي ذنــب لــلــزمــان

قلت: وبما أن جَمعا (المزدلفة) مشعر من مشاعر الحج وموطن من مواطن العبادة التي خلدها تكرر الحجاج إليها كل عام، وتجدد زيارتهم لها، وأن العلماء فيما قدمته قد حددوها تحديدًا واضحًا، وسمّوها بالاسمين، ولم يختلفوا في شيء من ذلك فإنني أكتفي بما قدمته عن هذا المشعر من أقوال العلماء، ولا أرى حاجة للإطالة في الحديث عنها لشهرتها الإسلامية والجغرافية.

قال ياقوت: وجمع أيضًا: قلعة بوادي موسى عليه السلام، من جبال الشراة قرب الشوبك.

وقال: وادي موسى: منسوب إلى موسى ابن عمران عليه السلام: وهو واد من قبلي بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز وهو واد حسن كثير الزيتون.

قلت: وادي موسى: ما زال معروفًا باسمه في تلك الناحية.

جُوَاثا: بجيم معجمة مضمومة بعدها واو مخففة، ثم ألف بعدها ثاء مثلثة وآخره ألف مقصور: مدينة كانت في الأحساء، (البحرين).

وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثا من البحرين.

قال ابن حجر: جواثا: بضم الجيم وتخفيف الواو وقد تهمز ثم مثلثة خفيفة قوله: (من البحرين) في رواية وكيع (قرية من قرى البحرين) وفي أخرى عنه: من قرى عبد القيس، وكذا للإسماعيلي من رواية محمد بن أبي حفصة عن ابن طهمان. اهـ.

قال ياقوت: جواثاء: بالضم، وبين الألفين ثاء مثلثة، يمد ويقصر، وهو علم مرتجل: حصن لعبد القيس بالبحرين، فتحه العلاء ابن الحضرمي في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سنة اثنتي عشرة عنوة، وقال ابن الأعرابي: جواثا مدينة الخط، والمشقّر مدينة هَجَر، وقالت سلمى بنت كعب بن جعيل تهجو أوس ابن حجر.

فــيــشــلــة ذات جــهــار وخــبــر
وذات أذنــيــن وقــلــب وبــصــر
قــد شــربــت مــاء جُــواثــا وهَــجَــر
أكــوي بــهــا حِــرَامٌ أوس بــن حــجــر

ورواه بعضهم جؤاثا، بالهمزة... قالوا: وجؤاثا أول موضع جمعت فيه الجمعة بعد المدينة.

قال عياض: وبالبحرين أيضًا موضع يقال له قصر جُواثا، ويقال: ارتدت العرب كلها بعد النبي ﷺ إلا أهل جُواثا، وقال رجل من المسلمين يقال له عبد الله بن حذف وكان أهل الردّة بالبحرين حصروا طائفة من المسلمين بجواثا:

ألا أبــلــغ أبــا بــكــر رســولا
وفــتــيــان الــمــديــنــة أجــمــعــيــنــا
فــهــل لــكــم إلــى قــوم كــرام
قــعــود فــي جــواثــا مُــحْــصــريــنــا
كــأن دمــاءهــم فــي كــل فــجّ
شــعــاع الشــمــس يغشي الناظرينا
تــوكــلــنــا عــلــى الــرحــمٰــن إنّــا
وجــدنــا الــنــصــر لــلــمــتــوكــلــيــنــا

فجاءهم العلاء بن الحضرمي فاستنقذهم وفتح البحرين كلها.. وقال أبو تمام:

زالت بعينيك الحمول كأنها
نخل مواقر من نخيل جواثا اهـ

وعلّق حمد الجاسر على بعض ما ذكره ياقوت، وقال: قول ابن الأعرابي: إن جواثا مدينة الخطّ غير صحيح، فجواثا بقرب هَجَر في واحة الأحساء، والخط القطيف ونواحيه. وكذا قوله: إن المشقّر مدينة هَجَر فالمعروف أن هجر هي مدينة البحرين، والمشقّر كان حصنًا فيها بنته الفرس لحمايتهم، وذلك قبل الإسلام.

وقال البكري: جُواثا: بضم أوله وبالثاء المثلثة، على وزن فُعالَىٰ: مدينة بالبحرين لعبد القيس، قال امرؤ القيس:

ورحنا كأنّا من جواثا عشيّة
نعالي النعاج بين عدل ومشنق

يريد: كأنا من تجار جُواثا، لكثرة ما معهم من الصيد. أراد كثرة أمتعة تجار جواثا. اهـ.

قال البلاذري: قالوا: ولما مات المنذر ابن ساوي بعد وفاة النبي ﷺ بقليل ارتد من بالبحرين من ولدي قيس بن ثعلبة بن عكابة مع الحُطَم ـ وهو شريح بن ضبيعة بن عمر ابن مرثد أحد بني قيس بن ثعلبة ـ وإنما سمي الحطم بقوله:

لقد لفَّها الليلُ بسوّاق حُطَم

وارتد سائر من بالبحرين من ربيعة خلا الجارود، وهو بشر بن عمرو العبدي، ومن تابعه من قومه، وأمروا عليهم ابنًا للنعمان ابن المنذر يقال له المنذر فسار الحطم حتى لحق بربيعة، بمن معه، وبلغ العلاء بن الحضرمي الخبر فسار بالمسلمين حتى نزل جواثا وهو حصن بالبحرين، فدلفت إليه ربيعة، فخرج إليها بمن معه من العرب والعجم، فقاتلها قتالاً شديدًا. ثم إن المسلمين لجؤوا إلى الحصن فحصرهم فيه عدوهم.

ثم إن العلاء خرج بالمسلمين ذات ليلة فبيت ربيعة فقاتلوا قتالاً شديدًا وقتل الحطم وفي ذلك يقول مالك بن ثعلبة العبدي:

تركنا شريحًا قد علته بصيرة
كحاشية البرد اليمانيْ المحبّرِ

البصيرة من الدم: ما وقع في الأرض.

ونحن فجعنا أم غضبان بابنها
ونحن كسرنا الرمح في عين حبترِ
ونحن تركنا مسمعًا متجدلاً
رهينة ضبع تعتريه وأنسرِ

وقال ابن كثير في حديثه عن ردّة أهل البحرين. كان رسول الله ﷺ قد بعث العلاء ابن الحضرمي إلى ملكها، المنذر بن ساوي العبدي وأسلم على يديه وأقام فيهم الإسلام والعدل، فلما توفي رسول الله ﷺ، توفي المنذر بعده بقليل، فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم الغرور وهو المنذر ابن النعمان بن المنذر، وقال قائلهم: لو كان محمد نبيًا ما مات. ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها جواثا... وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعًا شديدًا حتى فرّج الله، وقد قام فيهم رجل من أشرافهم، وهو الجارود بن المعلّى ـ وكان ممن هاجروا إلى رسول الله ﷺ ـ خطيبًا وقد جمعهم فقال: يا معشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموه، فقالوا: سل، قال: أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أم ترونه؟ قالوا: نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمدًا ﷺ مات كما ماتوا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقالوا: ونحن أيضًا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله،

وأنت أفضلنا وسيدنا وثبتوا على إسلامهم، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه.

وبعث الصديق رضي الله عنه إليهم العلاء ابن الحضرمي، فلما دنا من البحرين جاء إليه ثمامة بن أثال في محفل كبير، وجاء كل أمراء تلك النواحي فانضافوا إلى جيش العلاء ابن الحضرمي، فأكرمهم وأحسن إليهم ـ وقد كان العلاء من سادات الصحابة العلماء العبّاد مجابي الدعوة ـ ثم لما اقترب من جيوش المرتدّة، وقد حشدوا وجمعوا خلقًا عظيمًا نزل ونزلوا، وباتوا متجاورين في المنازل، فبينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتًا عالية في جيش المرتدين، فقال: من يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد الله بن حذف فدخل فيهم فوجدهم سكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إليه فأخبره، فركب العلاء من فوره والجيش معه فكبسوا أولئك فقتلوهم قتلاً عظيمًا، وقلّ من هرب منهم، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم فكانت غنيمة عظيمة جسيمة، وقتل الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة من سادات القوم[(١)].

قلت: وقد تحدث حمد الجاسر عن جواثا حديثًا شاملاً قال فيه: لقد نبه شأن جواثا لمسارعة أهلها للإسلام، واستمساكهم به حين ارتدّ كثير من العرب، ثم انتصار المسلمين على المرتدين في الوقعة التي حدثت فيها تلك الوقعة التي اتخذ منها بعض الشعراء مجالاً للفخر، بينما نجد ابن خرداذبة ـ وهو كما يصفه الهمداني شعوبي ـ يورد بيتًا من الشعر مدح أحد الأعاجم، تقليلاً لشأنها:

ماضرّ (أشناس) لا يكون له
يوم جواثا ويوم ذي قار[(٢)]

وكانت جواثا من المراكز التجارية التي تقصدها القوافل وتعود منها محملة من بضائعها التمر وغيره، كما في شعر امرئ القيس المتقدم. وقول كثير: يصف حدائج الأظعان:

كدهم الرّكاب بأظعانها
غدت منه سماهيج أو من جواثا

وعرفت بالنخل ووفرة الماء. . . ويظهر أن جواثا ضعف شأنها في عهد متقدم ـ إذ نجد صاحب كتاب (المناسك) وقد عدد المنابر في البحرين لا يذكرها، وهو من أهل القرن الثالث. . . وليس من المستبعد دروس تلك القرية منذ القرن الرابع، كما درست قرى كثيرة في تلك الجهة، ومع وقوع القرية في مرتفع من الأرض وهو حزن متقاود من آكام[(٣)].

تقع شمال موقع القرية وشرقه، إلا أن الرمال المتموجة قد أحاطت بالقرية من جهتها الغربية، كما ابتلعت أغلب بيوت قرية (الكلابية) الواقعة بقربها وهي رمال غير مستقرة.

وموقع جواثا مرتفع بالنسبة لقرى واحة الأحساء، ولهذا فقد وصفها بعض المتقدمين بأنها كانت حصنًا لعبد القيس.

وموقع جواثا لا يزال معروفًا بهذا الاسم، في الجهة الشرقية من قرية الكلابية الواقعة شرق مدينة المبرّز، وتبعد عن هذه المدينة بنحو مسيرة ثلاث ساعات مشيًا على القدم.

---

(١) البداية والنهاية ٦/٣٢٧، ٣٢٨.

(٢) أشناس: اسم أحد القواد الأعاجم في الدولة العباسية.

(٣) تعرف باسم كنزان.

قلت: وذكر أنه زارها في ذي القعدة سنة ١٣٥٨هـ، وشاهد آثارها الباقية وأطلال مسجدها وأورد لها وصفًا شاملاً في تلك الزيارة. ثم زارها في رجب سنة ١٣٩٨هـ وقد رافقته في هذه الزيارة، وكتب لها وصفًا قال فيه: فوجدت كلما شاهدته يعني في زيارته الأولى ـ قد تغير ـ لقد أحيط المسجد ببناء حديث ولم يبق من آثاره سوى العقدين القديمين داخل البناء الحديث وغرس ما حوله بالأشجار، وكثرت البنايات الحديثة حول المسجد، فأصبح من الصعب الاهتداء إلى موقع البلدة وكان قبل هذا التغيير واضحًا.

وكان من الواجب الإبقاء على آثار القرية كلها كما كانت وإحاطتها بسور يحميها من تغيير معالمها، حتى تقوم (إدارة الآثار) بدراسة شاملة لها بعد إزاحة ما تراكم من الرمال وإبراز ما خفي من الآثار، وصيانتها وترتيبها، ووضع المعلومات الوافية عن هذه البلدة التاريخية وجعل موقعها متحفًا يضم مع آثارها بعض الآثار الإسلامية التي عثر عليها في هذه المنطقة وما أكثرها. وختم حديثه عن هذه البلدة الإسلامية بصورة تذكارية لزيارتنا لمسجدها ومعالمها.

قلت: هذه خلاصة موجزة لما وصف به حمد الجاسر وغيره من العلماء بلدة (جواثا) التي اشتهر أهلها بسبقهم إلى الإسلام واعتزازهم بأن مسجدهم هو أول مسجد أقيمت فيه صلاة الجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ في ذلك يقول شاعر منهم:

والمسجد الثالث الشرقي كان لنا
والمنبران وفصل القول في الخطبِ
أيام لا مسجد للناس نعرفه
إلا بطيبة والمحجوج ذو الحجبِ

وبهذا أكتفي من الحديث عن هذه البلدة التاريخية الإسلامية.

الجوديّ: بجيم معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة فدال مهملة بعدها ياء: جبل مطل على الجزيرة في العراق، من أعمال الموصل.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة هود، الآية: ٤٤].

قال البخاري في صحيحه، عن مجاهد: الجوديّ جبل بالجزيرة.

وقال ابن حجر: وقال مجاهد: الجوديّ جبل بالجزيرة.

وقال ابن حجر: وقال مجاهد: الجوديّ جبل بالجزيرة، وصله ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عنه، وزاد: تشامخت الجبال يوم الغرق وتواضع هو لله فلم يغرق وأرسيت عليه سفينة نوح عليه السلام.

قال ابن جرير: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾، أبقاها الله لنا بوادي أرض الجزيرة عبرة وآية.

وبسنده عن الضحاك يقول: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ هو جبل الموصل. وقال ياقوت: الجودي: ياؤه مشددة وهو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة، من أعمال الموصل، عليه استوت سفينة نوح عليه السلام. اهـ.

قال ابن بطوطة في وصف طريقه من الموصل إلى نصيبين: رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبه خان كبير، ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة، ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر، وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي، ولذلك سميت جزيرة، أكثرها خراب

ولها سوق حسن عتيق مبني بالحجارة محكم العمل، وسورها مبني بالحجارة أيضًا وأهلها فضلاء لهم محبة بالغرباء، ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجوديّ المذكور في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، وهو جبل عال مستطيل.

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيبين(١).

وقال المسعودي: وكان ركوبهم ـ يعني نوحًا ومن معه ـ في السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار، فأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء وقد غرق جميع الأرض خمسة أشهر، ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء، والسماء أن تقلع، واستوت السفينة على الجوديّ، والجودي جبل ببلاد باسوري، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل إلى هذه الغاية.

ونزل نوح من السفينة ومعه أولاده الثلاثة، وهم: سام، وحام، ويافث، وكنّاته الثلاث أزواج أولاده وأربعون رجلاً وأربعون امرأة، وصاروا إلى سفح الجبل فابتنوا هنالك مدينة وسموها ثمانين، وهو اسمها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢، ودثر عقب هؤلاء الثمانين نفسًا، وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده. وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله(٢): ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [سورة الصافات، الآية: ٧٧] اهـ.

قال ابن كثير: ذكر الله تعالى في كتابه الجودي على التعيين، وهو جبل عظيم في شرق جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة، عند الموصل، امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام، وارتفاعه مسيرة نصف يوم، وهو أخضر لأن فيه شجرًا من البلوط، وإلى جانبه قرية يقال لها: قرية الثمانين لسكنى الذين نجوا في السفينة مع نوح عليه السلام (٣) اهـ.

وقال ابن الأثير: قال ابن عباس: وطافت السفينة ـ يعني سفينة نوح ـ بالأرض كلها لا تستقر حتى أتت الحرم فلم تدخله، ودارت بالحرم أسبوعًا، ثم ذهبت في الأرض تسير بهم، حتى انتهت إلي الجودي، وهو جبل بقردي بأرض الموصل فاستقرت عليه فقيل عند ذلك(٤): ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ﴾ [سورة هود، الآية: ٤٤] اهـ.

قلت: هذا هو جبل الجودي، الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام كما جاء ذلك في القرآن الكريم. وهو واقع في شمال العراق، في ناحية الموصل، مطل على جزيرة ابن عمر. وقد استوفيت الحديث عن جزيرة ابن عمر في رسم (الجزيرة)، وقد اتفق المؤرخون في وصفه وتحديده.

قال ياقوت: والجودي أيضًا: جبل بأجإٍ أحد جبلي طيء، وإيّاه أراد أبو صعترة البولاني بقوله:

فما نطفة من حبّ مزن تقاذفت
به جنبتا الجودي والليل دامسُ

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ص: ٢٣٦.

(٢) مروج الذهب ١/ ٥١.

(٣) البداية والنهاية: ١/ ٢١.

(٤) الكامل في التاريخ ١/ ٧٢.

فلما أقرّته اللصاف تنفّست
شَمالٌ لأعلى مائه فهو قارسُ
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه
ولكنّني فيما ترى العين فارسُ

قلت: والجودي أيضًا، ذكره ابن الأثير، في حديثه عن حوادث سنة (٦٠٢)، قال: انهزم شهاب الدين محمد بن سام الغوريّ، صاحب غزنة، من الخطأ الكفار... وظهر الخبر ببلاده أنه عدم من المعركة، ولم يقف أصحاب له على خبر، فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون في أطراف البلاد، وكان ممن أفسد دانيال، صاحب جبل الجودي، فإنه كان قد أسلم، فلما بلغه الخبر ارتدّ عن الإسلام، وتابع بني كوكر، وكان في جملة الخارجين عليه بنو كوكر، ومساكنهم في جبال بين الهاوور والمولتان حصينة منيعة، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين، وحملوا له الخراج، فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائرهم، وأطاعهم صاحب جبل الجودي وغيره من القاطنين بتلك الجبال، ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها إلى غزنة.

وذكر أن شهاب الدين أخذ يجهز لغزو الخطا الكفار وبني كوكر وقال: أتاه ـ يعني شهاب الدين ـ خبر ابن كوكر أنه نازل في عساكره ما بين جيلم وسودرة، فجد السير إليه، فدهمه قبل الوقت الذي كان يقدر وصوله فيه فاقتتلوا قتالاً شديدًا.. من بكرة إلى العصر، واشتد القتال، فبينما هم في القتال أقبل قطب الدين أيبك في عساكره، فنادوا بشعار الإسلام، وحملوا حملة صادقة، فانهزم الكوكريّة ومن انضم إليهم، وقتلوا بكل مكان، وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله، وهرب ابن كوكر بعد أن قتل إخوته وأهله.

وأما ابن دانيال، صاحب جبل الجودي فإنه جاء ليلاً إلى قطب الدين أيبك فاستجار به فأجاره وشفّع فيه إلى شهاب الدين فشفّعه فيه، وأخذ منه قلعة الجودي[1] اهـ.

هذا هو جبل الجودي الواقع بين غزنة وبلاد الهند.

الجودي أيضًا ـ جبل ذكره حمد الجاسر وقال: الجودي: جبل بقرب منهل جودة، وذكره في كتاب (دليل الخليج) في الكلام على جبال الأحساء، بأنه يقع على مسافة ١٢ ميلاً غربي جبال الطف، وآبار جودة بينه وبينها.

وذكر بعضهم أن فروع واديي الفروق تنحدر من جبل الجودي وما بقربه من المرتفعات. اهـ.

والجودي أيضًا طريق بين نجد والأحساء، نسبة إلى (جودة) وهو منهل جاهلي في أشعار العرب وأخبارها، إلا أن المتأخرين أسقطوا من اسمه الجاهلي ياء من أوله، فقد كان اسمه الجاهلي يجودة، وقد ذكرها صاحب معجم البلدان وقال: هي في بلاد بني تميم، وهي قريب منتصف الطريق بين الدهناء وبين الأحساء إلا أن المسافة الواقعة بين الأحساء وجودة أقرب[2] اهـ.

الجوف: أوله جيم معجمة مفتوحة بعدها واو ساكنة وآخره فاء موحدة: واد باليمن عند سبأ.

---

(١) الكامل في التاريخ ١٢/٢٠٨ ـ ٢١١.
(٢) صحيح الأخبار ٢/٨٢.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا ودّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأمّا سواع كانت لهذيل، وأمّا يغوث فكانت لمراد ثم لبني غُطَيف بالجوف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان، وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

قال الهمداني: الجوف منفهق من الأرض بين جبل تهم الشمالي الذي فيه أنف اللوذ وأوين الجنوبي الموصل بهيلان وهبن، وسعة ما بين الجبلين مرحلة من أسفل الجوف، وطوله إلى أصحر وأشراف خبش مرحلة ونصف، ويفضي إليه أربعة أودية كبار.

فأولها الخارد مخرجه مما بين جنوبه ومغربه، ومساقي الخارد من فروع مختلفة فأولها من مخلاف خولان في شرقي صنعاء.

والوادي الثاني: وادي خبش ويصب في متوسط الجوف غربيه صادرًا من حبش بعد ريّ نخيلها وزروعها، وفروع هذا الوادي من سرات بلد وادعة وظاهرها.

والوادي الثالث: يظهر في زاويته التي ما بين شماله ومغربه، وفروعه من بلد خولان شرقي أجذر وبلاد دمّاج.

والوادي الرابع: وادي المنبج، وفروعه من بلد يام القديمة وبلد مرهبة.

وقد تحدث الهمداني عن هذه الأودية وذكر فروعها وروافدها التي تدفع فيها حديثًا شاملاً. كما تحدّث محمد الأكوع في تحقيقه عن كل المعالم والأودية التي وردت في حديث الهمداني، وضبط أسماءها قراءة ووصفها وحدّدها وذكر أن كثيرًا منها ما زال معروفًا باسمه، في حديث واف، لا يتسع مقامنا هذا لذكر كل ما جاء فيه.

هذا هو الجوف الذي ورد في الحديث المتقدّم.

ويطلق اسم الجوف على مواضع متعدّدة ذكر حمد الجاسر في كتابه معجم شمال المملكة بعضًا منها فقال:

الجوف: بالجيم المفتوحة بعدها واو ساكنة ففاء: يطلق اسم الجوف في الجزيرة على مواضع أشهرها:

١ ـ جوف آل عمرو ـ المعروف أيضًا باسم دومة الجندل، وقد تحدّث عنه حديثًا وافيًا فقال: أما جوف آل عمرو فقد نسب إلى سكّانه بني عمرو من قبيلة طيء، وكانوا سكنوه حول القرن الرابع الهجري، وكانت طيء تسكن جوف الخنقة ثم جوف طريب في جنوب الجزيرة ثم انتقلت إلى شمالها من الجبلين ورمل عالج، ثم الجوف (دومة الجندل قديمًا).

واسم الجوف جاء من المعنى اللغوي، الذي يقصد به الأرض المنخفضة، وهكذا كان هذا الموضع، ويعرف حديثًا أيضًا باسم (نقرة الجوف) و(جوف آل عمرو) و(الجوف) غير مضاف، وهو أشهر اسم عرف به في عهدنا.

قلت: وقد تقدم له ذكر في رسم (دومة الجندل)، وقد استوفيت الحديث عنه في كتابي (بلاد الجوف أو دومة الجندل).

٢ ـ جوف مراد نسبة لقبيلة قحطانية معروفة ويقع جنوب نجران ولا يزال معروفًا.

٣ ـ الجوف في أرض بني سعد ذكره ياقوت وغيره، وأورد من قصيدة:

خلا الجوف من قتّال سعد فما بها
لمستصرخ يدعو الثّبور نصيرُ

وأورد أيضًا:

شفينا الغليل من سمير وجعون
وأفلتنا رب الصلاصل عامرُ
وأيقن أن الخيل إن يعلقوا به
يكن لفسيل الجوف بعدك آبرُ

وكان الجوف هذا ـ في القديم ـ لعبد القيس، ثم صار لبني سعد من تميم ولا يزال معروفًا وكان حمي للأمير عبد الله بن جلوي أمير الأحساء سابقًا، ويقع في جنوب ثاج وحنيذ والصّرار، في غرب إقليم الأحساء غرب بلدة الجبيل التي على ساحل الخليج.

٤ ـ الجوف في بلاد قحطان بقرب وادي طريب في أعالي وادي تثليث، له ذكر عند المتقدّمين ولا يزال معروفًا.

وهناك أجواف أخرى غير هذه، إذ كلمة الجوف تطلق على المكان المنخفض من الأرض والمذكورة من أشهرها.

قلت: هذه المواضع التي ذكرها حمد الجاسر وأوجز في ذكرها هي أشهر المواضع التي تسمى باسم الجوف قديمًا وما زالت معروفة بهذا الاسم.

باب الحاء

الحبشة: أوله حاء مهملة مفتوحة بعدها باء موحدة مفتوحة ثم شين مثلثة مفتوحة وآخرها هاء: قطر في أفريقيا.

روى البخاري في صحيحه عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية.

قال القزويني: بلاد الحبشة: أرض واسعة شمالها الخليج البربري، وجنوبها البر، وشرقها الزنج، وغربها البجّة. الحرّ بها شديد جدًّا، وسواد لونهم لشدة الاحتراق، وأكثر أهلها نصارى يعاقبة، والمسلمون بها قليل.

وهم من أكثر الناس عددًا وأطولهم أرضًا، لكن بلادهم قليلة وأكثر أرضهم صحارى لعدم الماء وقلة الأمطار، وطعامهم الحنطة والدخن، وعندهم الموز والعنب والرمان، ولباسهم الجلود والقطن.

ومن الحيوانات العجيبة عندهم: الفيل والزرافة. ومركوبهم البقر، يركبونها بالسرج واللجام مقام الخيل، وعندهم من الفيلة الوحشية كثير وهم يصطادونها. ولهم ملك مطاع يقال له أبرهة بن الصبّاح. ولما مات ذويزن، وهو آخر الأذواء من ملوك اليمن، استولى الحبشة على اليمن وكان عليها أبرهة من قبل النجاشي، فلما دنا موسم الحج رأى الناس يجهزون للحج، فسأل عن ذلك فقالوا: هؤلاء يحجّون بيت الله بمكة. قال: فما هو؟ قالوا: بيت من حجارة. قال: لأبنين لكم بيتًا خيرًا منه، فبنى بيتًا من الرّخام الأبيض والأحمر والأصفر والأسود، وحلاّه بالذهب والفضة، ورصعه بالجواهر، وجعل أبوابه من صفائح من ذهب، وجعل للبيت سدنة ودخنه بالمندليّ، وأمر الناس بحجه، وسماه: القلّيس، وكتب إلى النجاشي: إني بنيت لك كنيسة ما لأحد من الملوك مثلها، أريد أن أصرف إليها حج العرب. فسمع بذلك رجل من بني مالك بن كنانة، انتهز الفرصة حتى وجدها خالية، فقعد فيها ولطخها بالنجاسة.

فلما عرف أبرهة ذلك اغتاظ، وآلى أن يمشي إلى مكة ويخرّب الكعبة أيضًا على العرب. فجمع عساكر من الحبشة ومعه اثنا عشر فيلاً، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالتأهب والغارة... فقام الجيش بفيلهم قاصدين مكة، فبعث الله من جانب البحر طيرًا أبابيل مثل الخطاف مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره على شكل الحمص، فلما غشى القوم أرسلها عليهم فلم تصب أحدًا إلا هلك فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفيل، الآيات: ٣ ـ ٥].

ومنهم النجاشي: الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، واسمه أصحمة، كان وليًّا من أولياء الله يبعث إلى رسول الله بالهدايا والنبي ﷺ يقبلها. وفي يوم مات أخبر

جبرائيل ﷺ رسول الله بذلك مع بعد المسافة، وكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ في يوم موته، صلّى عليه الصلاة مع أصحابه وهو ببلاد الحبشة.

قال المسعودي: وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر، وقيل: كعمى، وهي مدينة عظيمة، وهي دار مملكة النجاشي بالبحر الحبشي، ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة، وهي مقابل لبلاد اليمن، فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلكي وناصع، هذه مدن منها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة، وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقة - وهي ساحل زبيد من أرض اليمن - ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين، ومن الموضع عبرت الحبشة البحر، حين ملكت اليمن في أيام ذي نواس، وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن، وصاحب زبيد في وقتنا هذا إبراهيم بن زياد صاحب الحرملي، ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركب فيها التجار بالأمتعة، وبينهم مهادنة. وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين - أعني ساحل اليمن، وساحل الحبشة - أقل المواضع فيه عرضًا. اهـ.

وقال السهيلي في خبر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة: قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية. بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه. فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

قال: وأما النجاشي فاسم لكل ملك يلي الحبشة، كما أن كسرى اسم لمن ملك الفرس، وخاقان اسم لملك الترك كائنًا من كان... واسم هذا النجاشي: أصحمة ابن أبحر، وتفسيره: عطية. وذكر في أول من خرج إلى الحبشة: عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان حين تزوجها يغنيها النساء:

أحسن شخصين رأى إنسان
رقيّة وبعلها عثمان

وروى ابن إسحاق بسنده عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه.

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله، قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا. ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي أطمأنوا بها وأمنوافيها، فبعثوا عبد الله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاصي بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم.

ولما رأى أبو طالب ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه، قال أبياتًا للنجاشيّ يحضّه على حسن جواره والدّفع عنهم:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر
وعمرو وأعداء العدو الأقاربُ
وهل نالت افعالُ النجاشي جعفرًا
وأصحابه أو عاق ذلك شاغبُ
تعلّم أبيت اللعن أنك ماجد
كريم فلا يشقى لديك المجانبُ

تـعـلّـم بـأن الـلّـه زادك بـسـطـة
وأسـبـاب خـيـر كـلـهـا بـك لازبُ
وأنـك فـيـض ذو سـجـال غـزيـرة
يـنـال الأعـادي نـفـعـهـا والأقـاربُ

وبعد أن بلّغا ما معهما من هدايا للملك وبطارقته قالا للملك: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمالهم وعشائرهم، لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. . . فقال بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردّاهم إلى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم. . . ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم، فقال لهم ما هذا الدين الذي قد فارقتم قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل. . فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنّا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. . . وعدد عليه أمور الإسلام، فصدّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك. . . فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه عليّ. . فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [سورة مريم، الآية: ١] فبكى والله النجاشي، حتى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم، ثم قال النجاشي: إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

وتحدث ابن إسحاق عن إسلام النجاشي والصلاة عليه فقال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا وخرجوا عليه فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنًا وقال: اركبوا فيها، وكونوا كما أنتم، فإن

هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم فإن ظفرت فاثبتوا، ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة وصفوا له فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله قال النجاشي، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئًا، وإنما يعني ما كتب. فرضوا وانصرفوا فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى النجاشيّ في اليوم الذي مات فيه خرج إلى المصلّى فصفّ بهم وكبّر أربعًا.

قلت: هذا بعض ما ورد في السير عن بلاد الحبشة موقعها ووصفها وملوكها وهجرة الصحابة رضي الله عنهم إليها واحتفاء ملكها بهم، وإسلام النجاشي وصلاة النبي ﷺ.

أما في هذا العهد فإن للحبشة دولة قائمة على أرضها معروفة بين الدول الإفريقية، وشهرتها تغني عن الحديث عنها.

الحجاز: بكسر الحاء المهملة بعدها جيم معجمة وبعد الجيم ألف وآخره زاي معجمة: قطر معروف من أقطار الجزيرة العربية.

روى البخاري عن أنس قال: نسخ عثمان المصاحف فبعث بها إلى الآفاق ورأى عبد الله بن عمر ويحيى بن سعيد ومالك ذلك جائزًا واحتج بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتابًا وقال: لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا فلما بلغ ذلك المكان قرأ على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ.

قال البكري: جزيرة العرب التي نزلوها على خمسة أقسام: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن. ومعنى تهامة والغور واحد، ومعنى حجاز وجلس واحد، هكذا ذكر الزبير بن بكّار عن عمه.

وجبل السّراة هو الحد بين تهامة ونجد. وذلك أنه أقبل من قعرة اليمن وهو أعظم جبال العرب، حتى بلغ أطراف بوادي الشام، فسمّته العرب حجازًا، وقطعته الأودية.

وقال الزبير بن بكّار: سألت سليمان بن عيّاش السّعدي: لم سمي الحجاز حجازًا؟ فقال: لأنه حجز بين تهامة ونجد.

قال ياقوت: الحجاز: بالكسر، وآخره زاي، قال أبو بكر الأنباري: في الحجاز وجهان: يجوز أن يكون مأخوذًا من قول العرب حجز الرجل بعيره يحجزه إذا شدّه شدًّا يقيده به، ويقال للحبل حجاز، ويجوز أن يكون سمي حجازًا لأنه يحتجز بالجبال.

وقال الأصمعي: الحجاز من تخوم صنعاء إلى تخوم الشام، وإنما سمي حجازًا لأنه حجز بين تهامة ونجد.

ثم أورد ياقوت أقوالاً كثيرة مختلفة في تعريف الحجاز وتحديده ثم قال: وأحسن من هذه الأقوال جميعها وأبلغ وأتقن قول أبي المنذر هشام بن أبي النضر الكلبي، قال في كتاب افتراق العرب وقد حدد جزيرة العرب ثم قال: فصارت بلاد العرب منه هذه الجزيرة التي نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند

العرب، في أشعارهم وأخبارهم: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن وذلك أن جبل السّراة هو أعظم جبال العرب وأذكرها، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازًا لأنه حجز بين الغور وتهامة وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجَبل الغور غور تهامة، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقيه من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجدًا، وصار الجبل نفسه وهو سراته وهو الحجاز.

وقد أكثرت شعراء العرب من ذكر الحجاز واقتدى بهم المحدثون، وسأورد منه قليلاً من كثير، من الحنين والتشوق.

قال بعض الأعراب:

تطاول ليلي بالعراق ولم يكن
علَيّ بأكناف الحجاز يطولُ
فهل لي إلى أرض الحجاز ومن به
بعاقبة قبل الفوات سبيلُ
إذا لم يكن بيني وبينك مرسل
فريح الصّبا مني إليك رسولُ

وقال أعرابي آخر:

سرى البرق من أرض الحجاز فشاقني
وكل حجازيّ له البرق شائقُ
فوا كبدي مما ألاقي من الهوى
إذا حنّ إلف أو تألق بارقُ

وقال آخر:

كفى حزنًا أنّي ببغداد نازل
وقلبي بأكناف الحجاز رهينُ
إذا عنّ ذكر للحجاز استفزّني
إلى من بأكناف الحجاز حنينُ
فوالله ما فارقتهم قاليًا لهم
ولكنّ ما يقضي فسوف يكونُ

وقال الأشجع بن عمرو السلمي:

بأكناف الحجاز هوى دفين
يؤرقني إذا هدَت العيونُ
أحنّ إلى الحجاز وساكنيه
حنين الإلف فارقه القرينُ
وأبكي حين ترقد كل عين
بكاءً بين زفرته أنينُ
أمرّ على طبيب العيس نأى
خلوج بالهوى الأدنى شطونُ
فإن بعد الهوى وبعدت عنه
وفي بعد الهوى تبدو الشجونُ
فأعذر من رأيت على بكاء
غريب من أحبّته حزينُ
يموت الصبّ والكتمان عنه
إذا حسن التذكر والحنينُ. اهـ

قلت: كثرت الأقوال في تحديد الحجاز وكلها ـ مع اختلافها ـ لا تبعد عن سلاسل جبال السروات المعروفة في هذا العهد بهذا الاسم ـ والمعروفة كذلك باسم الحجاز ـ وقد اختصرت ما قاله العلماء في تحديد الحجاز ووصفه فيما قدمته وما قالوه يدل على أن اسم الحجاز يشمل جميع سلاسل جبال السروات الممتدة من أقصى اليمن شمالاً بحذاء ساحل البحر الأحمر إلى نهايتها في بلاد الشام.

الحجر: بحاء مهملة مكسورة وجيم معجمة ساكنة وآخره راء مهملة: المقصود به: منازل ثمود قوم صالح.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الحجر، الآيتان: ٨٠ ـ ٨١].

قال ابن جرير: والحجر مدينة ثمود.

وروى بسنده عن قتادة: أصحاب الحجر، قال: أصحاب الوادي.

وروى بسنده عن عبد الله بن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم)، ثم زجر فأسرع حتى خلفها. وروى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال وهو بالحجر: (هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلا رجلاً كان في حرم الله منعه حرم الله من عذاب الله)، قيل: يا رسول الله من هو؟ قال: (أبو رغال).

يقول ﷻ ذكره: وكان أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٢] من عذاب الله، وقيل: آمنين من الخراب أن تخرب بيوتهم التي نحتوها من الجبال.

وقيل: آمنين من الموت. وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٣] يقول: فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وعدوا العذاب، وقيل لهم: تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام.

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لمّا نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا قد عجنّا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهرقوا ذلك الماء.

قال ابن حجر: قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٧٣] وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ الْحِجْرِ﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٠] وكانت منازلهم بالحجر وهو بين تبوك والحجاز.

قال ابن كثير: قال الإمام أحمد في سنده عن ابن عمر، قال: لمّا نزل رسول الله ﷺ، بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم).

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة، فكانوا يبنون البيوت من المدر، فتخرب قبل موت الواحد منهم، فنحتوا لهم بيوتًا من الجبال.

قال ياقوت: الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى، بين المدينة والشام، قال الإصطخري: الحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهي من وادي القرى على يوم بين جبال، وبها كانت منازل ثمود، قال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٤٩] قال: رأيتها بيوتًا مثل بيوتنا في أضعاف جبال، وتسمى تلك الجبال الأثالث، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة، فإذا توسطها رأىٰ كل قطعة منها منفردة بنفسها، يطوف بكل قطعة منها الطائف، وحواليها الرمل لا تكاد ترتقي، كل قطعة منها قائمة بنفسها، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٥٥]، قال جميل:

أقول لداعي الحب والحجر بيننا
ووادي القرى لبيّك لما دعانيا
فما أحدث النأي المفرق بيننا
سلواً ولا طول اجتماعٍ تقاليًا. اهـ

وقال الحميري: الحجر: بلد ثمود بين الشام والحجاز وقيل: هو من وادي القرى وهو حصين بين الجبال وبه بيوت منقورة بالحجر، وبها الآن بئر ثمود، ويحيط بالحجر من كل ناحية جبال ورمال لا يكاد أحد يرتقي ذروتها إلا بعد الجهد والمشقة، ومن الحجر إلى تيماء أربع مراحل.

والحجر هو المذكور في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٠].

واجتاز النبي ﷺ به في طريقه إلى تبوك فأمر أصحابه بالإسراع، ولا يستقوا من بئرها، وقال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا وأنتم باكون.

وكان نبيهم صالحًا عليه السلام، وبيوتهم باقية منحوتة في الجبال، ورمتهم باقية وآثارهم بادية، وهم بين الشام والحجاز. اهـ.

قال البكري: الحجر: بكسر أوله، المذكور في التنزيل: هو بلد ثمود، بين الشام والحجاز، ولما نزل رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك، استقى الناس بئرها، فلما راحوا: قال لا تشربوا من مائها، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ولا يخرجن منكم الليلة أحد إلا ومعه صاحبه ففعل الناس ما أمرهم به إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته فخنق على مذهبه فدعا له رسول الله ﷺ فشفي، وخرج الآخر في طلب بعير له، فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيء، فأهدته طيء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة. اهـ.

وقد كتب حمد الجاسر بحثًا بعنوان: (ليس الحجر مدائن صالح) قال فيه: يطلق الناس الآن اسم مدائن صالح على الوادي الواقع شمال مدينة العلا، المعروف باسم الحجر ـ بكسر الحاء المهملة وإسكان الجيم وبالراء ـ ذي الآثار التي تناولها الباحثون بالدراسات الوافية.

والواقع أن إطلاق ذلك الاسم على هذا الوادي خطأ، وقع فيه الناس منذ عهد قديم وتوضيح هذا:

(أ) أن الحجر هو الوادي الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وورد النهي عن الشرب من مائه سوى بئر الناقة التي كانت معروفة إلى عهد قريب، لأن هذا الوادي كان منازل قوم غضب الله عليهم فأهلكهم قبل ظهور الإسلام بعصور مجهولة.

وهذا الوادي لا يزال معروفًا باسم (الحجر) عند سكان جهاته، وعند غيرهم، لا خلاف في ذلك.

(ب) وفي جنوب مدينة العلا بنحو ٥٥ كيلاً آثار عمران قديم، من أسس بناء ومجاري مياه وآثار زراعة، يطلق على موضعها الآن اسم غريب هو (المابيات) جمع (مابيّة) بالميم المفتوحة بعدها ألف فباء موحدة مكسورة فياء مشددة فهاء وهذا الاسم حادث، فقد كان الموضع في القرن السابع الهجري وما قرب منه يعرف باسم مدينة صالح، ثم مدائن صالح.

وله قبل ذلك اسم آخر أرجّح أنه (الرّحبة) الوارد في كثير من كتب الرحلات ومعجمات الأمكنة فنسي اسم الرّحبة، واسم مدينة صالح ـ أو مدائن صالح ـ وعرف باسم وادي (العطاس) على ما جاء في رحلة ابن بطوطة، الذي مرّ بهذا الموضع في عشر الثلاثين من القرن الثامن، مع أن الوادي كان معروفًا باسم وادي الدّيدان، الذي نجد له في الكتب الأعجمية وما عرّب عنها صورًا غريبة (ددان) و(دادان) و(ديدان).

(جـ) وادي الدّيدان، الذي تقع فيه مدينة صالح التي عرفت باسم مدائن صالح، ليس متّصلاً من حيث الجوار بوادي الحجر الذي قرّر العلماء أخيرًا عدم سكناه، بل يفصل بينهما مسافة من الأرض تقارب خمسين كيلاً بل تزيد.

(د) أما كيف نشأ الخطأ فهو أن الحجر كان من منازل قوم النبي صالح ﷺ فكذبوه فأهلكهم الله، ونَجَّىٰ صالحًا والذين آمنوا معه، وقد ذكر الله خبرهم في سور من القرآن الكريم ومنها (سورة الحجر)، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وقد بقيت آثار القوم، في البيوت المنحوتة في الجبال، وفي الآبار المحفورة في الوادي، وفي غيرها فكان المسافرون الذين يذهبون من الحجاز إلى الشام أو من يمرّون بهذه الجهات يشاهدون تلك الآثار، ويتناقلون أخبارها، من الكتب أو من الرواة وكثير من رواة الأخبار ومدوّنيها لا يلتزمون الدّقة وتحرّي الصواب فيما ينقلون أو يكتبون، فوقع الخلط بين الآثار الواقعة جنوب مدينة العلا في وادي الحجر، وهي آثار سابقة وبين الآثار الواقعة شمال مدينة العلا، وهي مما حدث في صدر الإسلام، وساعد على وقوع الخلط أن الموضع الأخير الواقع جنوب العلا كان يعرف بمدينة صالح، وهو رجل مسلم من بني العباس ومدينته هذه كانت قائمة إلى القرن الرابع الهجري، وأن الموضع الأول الذي هو الحجر، الواقع شمال العلا عرف سكانه بقوم صالح، وعرفت إحدى آباره ببئر ناقة صالح، وعرف موضع بأحد جباله بمسجد صالح، أي المكان الذي كان يتعبّد فيه.

ومن هنا أطلق على الحجر خطأ اسم (مدائن صالح).

وأقدم من رأيته فعل ذلك ما عرب لي من مؤلف تركي اسمه (بهجة المنازل) أو (نهجة المنازل) مؤلفه يدعىٰ محمد أديب الموقع الرومي، على ماجاء في كتاب (إيضاح المكنون) فقد نقل عن كتابه أن الحجر يعرف بمدائن صالح أو قرىٰ صالح، أو عدال، والمساكن في مدائن صالح منحوتة في الصخر، ولا يسكنها أحد.

أما أول من وقع منه الخلط بين الموضعين، فوصف الموضع الواقع جنوب العلا بصفحات الحجر، فأقدم نص اطلعت عليه هو ما جاء في رحلة البلوي الأندلسي... وقد حجّ سنة ٧٣٨هـ قادمًا من الشام مع حجاج الكرك. اهـ[١].

قلت: وقد أوردِ **حمد الجاسر** كلام البلوي كاملاً ثم أورد نصوصًا من أقوال العلماء وأقوال الرّحالة الذين تحدثوا عن هذين الموضعين، لا يتسع مقامنا هذا لذكرها. اهـ.

وقد اعترض عليه أحد القراء منكرًا عليه ما قاله في التفريق بين مدائن صالح وبين الحجر، فردّ عليه حمد الجاسر، وكان فيما قاله في الردّ عليه: لقد تحدثت مبينًا أن إطلاق اسم مدائن صالح على موقع الحجر ليس معروفًا لدى قدماء العلماء ممن وصلت إلينا مؤلفاتهم، وأوضحت أن اسم مدائن صالح لم يطلق على وادي الحجر إلا في العصور المتأخرة وأن إطلاقه كان ناشئًا عن وهم

(١) مجلة العرب، ١٣/٣ ـ ٥.

أوضحته فيما كتبت. فجاء أحد المعلّقين من الإخوان يقول: (ليس غريبًا بأن تسمى الحجر مدائن صالح، وهي موطن ثمود، وقد أرسل إليهم صالح رسولاً من عند الله، وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم مكانًا وقد جعل الله لهم آية ناقة الله. كل ذلك حدث في مدائن صالح المعروفة الآن باسم الحجر). وقال قبل ذلك: (والواقع أن مدائن صالح هي الحجر نسبة لرسول الله صالح ﷺ).

- من ذا الذي أنكر أن الحجر موطن ثمود وأنه يسمى في الوقت الحاضر مدائن صالح؟ بل من الذي أنكر أن صالحًا ﷺ نبيّ لثمود حتى يأتي أخونا ليرشده إلى هذا الخطأ الشنيع؟.

- وإنما السؤال هو: من الذي يستطيع أن يثبت أن واحدًا من العلماء المتقدمين أطلق على الحجر مدائن صالح؟، ومن الذي يستطيع بالأدلة التاريخية أن يثبت قول الأخ: (كل ذلك حدث في مدائن صالح)؟ بينما النصوص القاطعة تدل على أنه حدث في الحجر.

بين يدي الباحثين ما لا يحصى من الكتب في التفسير والتاريخ وتحديد المواضع وفي كثير منها ذكر ثمود وسكناهم الحجر وإرسال صالح ﷺ إليهم، ولكن هل فيها أن هذا الحجر مدائن صالح؟

إن الحجر بلاد قوم ظلموا أنفسهم فأهلكهم الله بالنص الثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية وصالح ﷺ لا يصح أن يوصف بما وصفوا به.

وقد أنجاه الله ومن آمن معه من الرّجفة التي حلّت بأولئك القوم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٧٨]. ولو كان مقيمًا في تلك البلاد لأصابه ما أصابهم، وقد أمر رسول الله ﷺ بالإسراع عند المرور بتلك الديار خشية الإصابة بما أصاب أهلها[١].

قلت: هذا بعض ما قال حمد الجاسر في الرد على من أنكر قوله في المغايرة بين الحجر وبين مدائن صالح.

وتحدث عبد القدوس الأنصاري عن الحجر في بحث كتبه بعنوان الحجر أو مدائن صالح، ذكر فيه أي (نادي البحر الأحمر) في جدة قام برحلة إلى مدائن صالح في أواسط عام ١٣٨٤هـ وعاد أعضاء النادي إلى جدة، وتحدث بعضهم عن نتائج الرحلة وما شاهدوا هناك من الآثار الخالدة. وكتب بعضهم في بعض الصحف المحلية آراءهم المبنية على المشاهدة والمطالعة، فذكر أن منحوتات مدائن صالح لم تكن منازل لأحياء السكان، وإنما كانت مساكن لأمواتهم، أي مقابر ومدافن وأضرحة. واستند في إثبات هذه النظرية على ضيق البيوت المنحوتة، وعلى ما أورده بعض المستشرقين الرّحالين الذين شاهدوها فيما قبل، وكتبوا عنها ما كتبوا إذ ذاك.

وهذا الرأي لم يؤخذ به لما اطلعنا عليه من التفاسير وكتب التاريخ والجغرافيا العربية الإسلامية القديمة... وإنما مصدره الأول والأخير هو جماعة المستشرقين، ومن سار على دربهم من مؤلفي العرب بعدهم في العصر الحديث.

وقد اعتنق هذا المذهب بعض من كتبوا في الصحف المحلية من (رحلة نادي البحر الأحمر بجدة) إلى مدائن صالح.

وتحدث به إليّ بعضهم، جازمًا بأن المنحوتات ليست إلا قبورًا لقوم صالح. ولا

---

(١) مجلة العرب ١٤/٦١٩، ٦٢٠.

يمكن أن تكون منازلهم، لضيقها الشديد، ولأنها عبارة عن كهوف ومغاور، ولوجود عظام موتى بها... وقلت له: إن ضيق البيوت لا يدل دائمًا على عدم صلاح البيوت للسكنى... وها نحن أولاء نرى في البلاد المكتظة بالسكان اليوم كيف أن أشخاصًا عديدين يسكنون غرفة واحدة.. لكل منهم ما هو على قدر نومه وجسمه منها.

ولأن أصل هذه النظرية وارد ووافد من المستشرقين كما أوردناه آنفًا، فأرى أن علينا أن نأخذ دائمًا معلومات المستشرقين بحذر، خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وآثارنا وبلادنا.. وذلك من جهتين لا من جهة واحدة..

أولاهما: أن أفهامهم بعض الأحيان ملتوية تغلب عليها طبيعة بيئاتهم فتشذ وتند عن الصواب الواضح بحكم طبيعتها إلى خطأ فاضح...

وثانيهما: الغرض الدّفين طبعيًا وتقليديًا بين جوانح الكثيرين منهم، وواجب علينا اليوم ـ وقد نهضنا من إغفاءتنا الطويلة ـ ألا نتكل على مجهوداتهم العلمية وحدها.. بل نسعى بأنفسنا لكشف كنوز حضارتنا علميًا وفكريًا وقوليًا وأثريًا وخبريًا.

وكان مؤرخو الإسلام ورحّاله وعلماؤه يرون أن البيوت التي نقرت في جبل أو جبال مدائن صالح هي بيوت معمورة بأحياء الثموديين الذين نحتوها.. وبذلك فسّروا قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [سورة النمل، الآية: ٥٢].. وبذلك فسّروا الآية الكريمة الأخرى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٧٤].. فخواؤها أي فراغها منهم بعد هلاكهم دليل صارخ على سكناهم فيها في حياتهم اهـ[1].

وقد أورد **عبد القدوس الأنصاري** في بحثه هذا نصوصًا كثيرة من أقوال المؤرخين المسلمين وأقوال المستشرقين لا يتسع مقامنا هذا لذكرها.

وفي الكتاب الذي أصدرته **إدارة الآثار والمتاحف** في وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية، بعنوان: (مقدّمة عن آثار المملكة العربية السعودية) ما نصّه: مدائن صالح تقع على مسافة ١٥ كيلو متر شمال العلا. وقد جاءت في القرآن الكريم باسم (الحجر) كحاضرة ثمود قوم نبي الله صالح، وتشتمل المنطقة على عدة كهوف ومقابر منحوتة في الجبال الرملية المتقاربة، وهذه الكهوف كما تدل نقوشها كانت مقابر لأقوام كثيرة ممن حكموا المنطقة من أنباط ورومان وعرب، وهي تشبه إلى حد كبير مقابر (البتراء) عاصمة الأنباط القديمة وتقع الآن بالأردن، وعلى واجهات المقابر تماثيل وصور رؤوس خرافية وثنية يعود نحتها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وتوجد بالقرب من منطقة المقابر آثار مستوطنات قديمًا وربما كانت مساكن لسكان مدائن صالح في عصورها المختلفة، وقد اشتهرت عند المؤرخين اليونان والرومان بهجر وكان لها ميناء يسمى باسمها (الوجه حاليًا) وكان يعتبر شريانًا تجاريًا هامًا).

ويظهر من تنوع آثار الحجر وفنونها المختلفة أن بدء حياة وازدهار المنطقة يعود إلى ما قبل آلاف السنين إذ ظلت زمنًا طويلاً تتلقى تجارة

---

(١) بين التاريخ والآثار، ص: ٢٤٩ ـ ٢٦٤.

الشرق القادمة بواسطة الموانئ العربية في الجنوب وتصدرها نحو الغرب بواسطة موانئ سوريا في الشمال، كما يستشف من دراسة الخرائب المتناثرة في المنطقة وحولها أن شعوبًا كثيفة قد تجمعت هناك وعاشت لعدة قرون. ا. هـ.

قلت: ومن الملاحظ أن هذا التقرير تضمن قولاً جازمًا بأن المساكن المنحوتة في الجبال الرملية في منطقة الحجر ما هي إلا مقابر لأقوام كثيرة ممن حكموا المنطقة من أنباط ورومان وعرب، ولم يتضمن شيئًا من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه البلاد وعن أهلها وعن نبيهم صالح عليه السلام وما حلّ بهم، مع أن بعض الآيات القرآنية الكريمة يفهم منها أن هذه البيوت المنحوتة كانت مساكن للأحياء، وقد تقدم في هذا البحث شيء من الآيات التي تضمنت ذلك.

بل إنه جزم بأن هذه البيوت المنحوتة لم تكن خاصة بثمود، وأنها مقابر لأقوام كثيرة من أنباط ورومان وعرب. وآيات القرآن الكريم صريحة قاطعة بنسبة نحت هذه البيوت إلى ثمود قوم صالح.

وتحدث عاتق البلادي عن بلاد الحجر في موضعين من معجمه، ذكرها باسم (وادي الحجر) مرة، وذكرها باسم (مدائن صالح) مرة أخرى، وقال في حديثه: وادي الحجر المعروف: ما زال باسمه يصب في وادي العلا (القرى) من الشمال.. وقد وصل الآن بطريق معبدة بالمدينة، وكان يرتبط بها بسكة الحديد المعطلة الآن، ويبعد عن المدينة (٣٤٥) كيلاً شمالاً، وعن العلا قرابة (٢٤) كيلاً، ويعرف بمدائن صالح ذات الآبار العجيبة.. وهو رأس وادي القرى المعروف اليوم باسم وادي العلا.

ومدائن صالح: بلدة في شمال الحجاز ذات صبغة أثرية سياحية، كان أهلها ثمود قوم صالح، وقد أرسل الله إليهم صالحًا فعصوا فأهلكهم الله بفتنة، وقد فصّلت أخبارهم في القرآن.. فيها آثار عجيبة، بيوت منحوتة في الصخر وقلات مخازن للمياه في صخر، وجبالها بارزة، ينفرد معظمها عن غيره، كأنه مغروس في الأرض.. وإنما سمّىٰ الناس هذه المساكن مدائن صالح اختيارًا لاسم صالح عليه السلام وأنفة عن اسم ثمود الكفار، وهكذا صارت لا تعرف إلا بمدائن صالح. ا. هـ.

قلت: قوله وهكذا صارت لا تعرف إلا بمدائن صالح، يتناقض مع قوله في أول حديثه وادي الحجر المعروف، ما زال باسمه.

والواقع أن هذه البلاد ما زالت تعرف باسمها القديم (الحجر) وتسمى أيضًا في هذا العهد مدائن صالح.

الحجر أيضًا: قال عرّام وهو يصف قرية الرّحضية: قرية للأنصار وبني سليم من نجد، وبها آبار عليها زرع كثير ونخيل. وحذاؤها قرية أو أرض يقال لها الحجر، وبها مياه وعيون وآبار لبني سليم خاصة وحذاءها جبل ليس بالشامخ يقال له قنّة الحجر. ا. هـ.

وفي هذا الموضع يقول الشاعر:

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا
أروم فآرام فشابة فالحضرُ
وهل تركت أبلى سواد جبالها
وهل زال بعدي عن قنينته الحجرُ

قلت: وقد أصبحت هذه القرية في هذا العهد تسمى (الحجرية)، تعرف في هذا العهد بهذا الاسم وكذلك قرية الرّحضية ما زالت معروفة باسمها وهما اليوم من بلاد مطير بني عبد الله.

حَجْر بالفتح والسكون: هي مدينة اليمامة وأم قراها، وبها ينزل الوالي، وهي شركة إلا أن الأصل لحنيفة. قاله ياقوت.

قلت: والمقصود بحجر اليمامة منطقة الرياض التي تقع فيها عاصمة المملكة العربية السعودية.

الحجر أيضًا: وادٍ ببلاد عذرة وغطفان. قاله ياقوت.

الحجر أيضًا: جبل في بلاد غطفان. قاله ياقوت.

الحِجْر بالكسر والسكون: أحد شعب وادي ينبع النخل إذا فاض ماؤه في الخبت، وهي الشعبة الوسطى، والجنوبية شطب، والشمالية المرخية تصب على بلدة ينبع من الجنوب، يبعد الحجر ١٣ كيلاً جنوب مدينة ينبع البحر.

حَجُر: بفتح أوله وضم الجيم وراء: وادٍ ذو نخل وقرى وعيون جارية لزبيد من حرب، يقع شرق رابغ ويعتبر أحد الروافد الرئيسية لوادي مرّعنب (وادي رابغ) ويقع على قرابة (١٠٠) كيل من رابغ، وكان يعرف باسم (السائرة). قاله عاتق البلادي.

حَجَر: بفتح المهملة والجيم وآخره راء مهملة: جبال على شكل سلسلة تمتد غرب الطريق بين خيبر والجهراء (الجناب) تسيل مياهها الشرقية إلى وادي الزهيراء ثم الطبق والغربية إلى وادي الصّحن وبرمة فالطبق أيضًا. وهي من ديار عنزة، وحدّها الشمالي حفيرة الأيداء وحدّها الجنوبي شرف العمامة، الذي يأخذه الطريق بين غمرة والعلاء، وكل جبل من هذه السلسلة له اسم يعرف به، وهي تشرف على قرية العشاش من الغرب.

الحَجُون: بحاء مهملة مفتوحة بعدها جيم معجمة مضمومة ثم واو ساكنة وآخره نون معجمة: ثنية بأعلى مكة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ من المدينة بعد ما ترحّل وادّهن ولبس إزاره ورداءه وأصحابه... قال: فقدم مكة لأربع ليال خلون من ذي الحجة فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ولم يحلّ من أجل بدنه لأنه قلّدها ثم نزل بأعلى مكة عند الحجون.

وروى بسنده أيضًا عن عبد الله مولى أسماء بنت أبي بكر حدّث أنه كان يسمع أسماء تقول كلّما مرّت بالحجون: صلى الله على محمد لقد نزلنا معه ههنا ونحن يومئذ خفاف قليل ظهرنا قليلة أزوادنا فاعتمرت أنا وأختي عائشة.

قال ابن حجر: كداء: بفتح الكاف والمد، قال أبو عبيد لا يصرف، وهذه الثنية هي التي ينزل منها إلى المعلى مقبرة أهل مكة، وهي التي يقال لها: (الحجون) بفتح المهملة وضم الجيم، وكانت صعبة المرتقى فسهّلها معاوية ثم عبد الملك ثم المهدي على ما ذكر الأزرقي.

وقال الفاسي: كداء: الموضع الذي يستحب للمحرم دخول مكة منه، وهو الثنية التي بأعلى مكة، التي يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالأبطح، ويقال لها الحجون.

وقال الأزرقي: الحجون: الجبل المشرف حذاء مسجد البيعة الذي يقال له مسجد الحرس[1] وفيه ثنية تسلك من حائط عوف من عند الماجلين اللذين فوق دار مال الله إلى شعب الجزّارين بأصله في شعب الجزّارين

---

(١) انظر رسم الأبطح لسبب تسميته مسجد الحرس.

كانت المقبرة في الجاهلية، وفيه يقول كثير ابن كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي:

كم بذاك الحجون من حيّ صدق
من كهول أعفّة وشبابِ
سكنوا الجزع جزع بين أبي مو
سى إلى النخل من صفيّ السبابِ
أهل دار تبايعوا للمنايا
ما على الدّهر بعدهم من عتابِ
فارقوني وقد علمت يقينًا
ما لمن ذاق ميتة من إيابِ

قال أبو الوليد: فكان أهل مكة يدفنون موتاهم في جنبتي الوادي يمنة وشمالاً في الجاهلية. وفي صدر الإسلام، حوّل الناس جميعًا قبورهم في الشعب الأيسر لما جاء من الرواية فيه، ولقول رسول الله ﷺ: نعم الشعب ونعم المقبرة.

وقال الواقدي في حديثه عن عمرة القضية: خرج رسول الله ﷺ وأصحابه رحمهم الله، ورسول الله ﷺ على راحلته القصواء وأصحابه به محدقون برسول الله ﷺ، متوشحو السيوف يلبّون، فلما انتهى إلى ذي طوى وقف رسول الله ﷺ على راحلته القصواء والمسلمون حوله، ثم دخل من الثنية التي تطلعه على الحجون، على راحلته القصواء وابن رواحة آخذ بزمام راحلته.

قال في حديثه عن دخول مكة يوم الفتح: حدثني ابن أبي سبرة، عن سعد بن عمرو ابن شرحبيل عن أهله، قالوا: دخل ـ والله ـ سعد بلوائه حتى غرزه بالحجون. . .

قال: وأقبل الزبير بن العوام بمن معه من المسلمين حتى انتهى بهم إلى الحجون فغرز الراية عند منزل رسول الله ﷺ.

وقال: حدّثني عبد الله بن زيد، عن أبي جعفر، قال: كان أبو رافع قد ضرب لرسول الله ﷺ قبة بالحجون من أدم، فأقبل رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى القبة، ومعه أم سلمة وميمونة.

وروى بسنده، عن أبي رافع قال: قيل للنبي ﷺ: ألا تنزل منزلك من الشعب؟ قال: فهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة. فقيل لرسوله ﷺ: فانزل في بعض بيوت مكة في غير منازلك، فأبى رسول الله ﷺ وقال: لا أدخل البيوت. فلم يزل مضطربًا بالحجون لم يدخل بيتًا، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون.

وروى بسنده عن عطاء، قال: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يدخل بيوت مكة، فاضطرب بالأبطح في عمرة القضية وعام الفتح وفي حجته.

وروى بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه عن جدّه، قال: رأيت رسول الله ﷺ مضطربًا بالحجون في الفتح ويأتي لكل صلاة. اهـ.

قال ابن جبير في رحلته: ولها ـ يعني مكة ـ ثلاثة أبواب: أولها بالمعلى ومنه يخرج إلى الجبانة المباركة وهي بالموضع الذي يعرف بالحجون وعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية عليها علم شبيه بالبرج، يخرج منها إلى طريق العمرة وتلك الثنية تعرف بكداء، وهي التي عناها حسّان بقوله في شعره:

تثير النقع موعدها كداء

فقال النبي ﷺ يوم الفتح: ادخلوا من حيث، قال حسّان. فدخلوا من تلك الثنية، وهذا الموضع الذي يعرف بالحجون، وهو الذي عنى الحارث بن مضاض الجرهمي بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ

بلىٰ نحن كنّا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثرُ

وبالجبانة المذكورة مدفن جماعة من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين، قد دثرت مشاهدهم وذهبت عن أهل البلد أسماؤهم.. وعن يمينك إذا استقبلت الجبّانة المذكورة مسجد في ميل بين جبلين، يقال: إنّه المسجد الذي بايعت فيه الجن النبي ﷺ[1].

وذكر ابن بطوطة في رحلته نحوًا مما ذكره ابن جبير في رحلته وزاد، ويقال: إن الحجون هو الجبل المطل على الجبّانة، ومنها المحصّب وهو أيضًا الأبطح، وهو يلي الجبّانة المذكورة، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله ﷺ[2].

قال البكري: الحجون: بفتح أوله على وزن فعول: موضع بمكة عند المحصّب، وهو الجبل المشرف بحذاء المسجد، الذي يلي شعب الجزّارين إلى ما بين الحوضين اللذين في حائط عوف.

قال نصيب:

لا أنساك ما أرسى ثبير مكانه
وما دام دارًا للحجون المحصّبُ

وقال الزبير: الحجون مقبرة أهل مكة، تجاه دار أبي موسى الأشعري وأنشد للحارث ابن خالد:

لنساء بين الحجون إلى الحسمة
أشهى من نسوة في دمشق

قال ياقوت: الحجون، آخره نون، والحجن الاعوجاج، والحجون: جبل بأعلى مكة عند مدافن أهلها. وقال السكري: مكان من البيت على ميل ونصف. وقال السهيلي: على فرسخ وثلث، عليه سقيفة آل زياد بن عبيد الله الحارثي، وكان عاملاً على مكة في أيام السفاح وبعض أيام المنصور.

وقال الأصمعي: الحجون، هو الجبل المشرف الذي بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزّارين. وقال مضاض بن عمرو الجرهمي يتشوق مكة لما أجلتهم عنها خزاعة:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثرُ

قلت: وهذه الأقوال المتقدمة متفقة على تحديد موضع الحجون ووصفه إلا ما قال السهيلي والسكّري في وصف المسافة بينه وبين مكة فإن ذلك لا يستند على دليل ولا يتفق مع الواقع الطبيعي لهذا الموضع، وكما رأينا أن العلماء حددوا الحجون: تارة بقربه من المحصّب وتارة لنسبته إلى مقبرة المعلى وتارة بقربه إلى مسجد البيعة، وكلهم قالوا: إنه بأعلى مكة وهذه الأقوال كلها صحيحة فالحجون ما زال معروفًا باسمه لم يتغير، ومقبرة المعلى ما زالت معروفة، ومسجد البيعة ما زال عامرًا معروفًا، ودلّت الأقوال على أن الحجون اسم للثنية التي تنفذ من المحصّب إلى ذي طوى، واسم للجبل المطل عليها، التي تقع في طرفه، لهذا فإنه كان يسمى الحجون، والثنية العلياء وكداء، وبعض العامة يقلبون النون لامًا فيسمونه ريع الحجول.

ولمزيد من الإيضاح انظر رسم (الثنية العليا) وقد تقدم، ورسم (كداء).

(١) رحلة ابن جبير، ص: ٨٧، ٨٨.
(٢) رحلة ابن بطوطة، ص: ١٤٢.

وقد تحدث الفاسي عن الحجون وقال: الحجون جبل بالمعلاة مقبرة أهل مكة ثم أورد أقوالاً كثيرة مختلفة ولم يأت في نهايتها إلى قول يجمع بين هذه الأقوال المختلفة لهذا فإنني اكتفيت في وصف هذا الموضع وتحديده بما تقدم، لا سيما أن هذا الموضع معروف باسمه على مر السنين مشهور في مكة لم يتغير.

الحديبية: بحاء مهملة مضمومة ودال مهملة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وباء موحدة مكسورة، وياء مثناة مشددة مفتوحة، ومنهم من خففها، وآخره هاء: قرية على مرحلة من مكة على طريق المدينة القديم.

روى البخاري بسنده عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر؛ فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب.

وروى الواقدي بسنده عن المسور بن مخرمة قال: وسار رسول الله ﷺ ـ يعني في غزوة الحديبية ـ فلما دنا من الحديبية وقعت يد راحلته على ثنية تهبطه على غائط القوم، فبركت راحلته فقال المسلمون: حل، حل، فأبت أن تنبعث فقالوا: خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ: إنها ما خلأت، ولا هو لها بعادة، ولكن حبسها حابس الفيل. أما والله لا يسألونني اليوم خطة في تعظيم حرمة الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرناها فقامت، فولّىٰ راجعًا عوده على بدئه حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية ضنون قليل الماء، يتبرّض ماؤه تبرّضًا، فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء، فانتزع سهمًا من كنانته فأمر به فغرز في الثمد، فجاشت لهم بالرّواء حتى صدروا عنه بعطن. قال: وإنهم ليغرفون بآنيتهم جلوسًا على شفير البئر. والذي نزل بالسهم ناجية بن الأعجم من أسلم.

وفي رواية: أن الذي نزل بالسهم هو ناجية ابن جذب.

وفي رواية: أن ناجية بن الأعجم كان يحدث، يقول: دعاني رسول الله ﷺ، حين شكي إليه قلة الماء فأخرج سهمًا من كنانته ودفع إليّ ودعاني بدلو من ماء البئر، فجئته به فتوضأ، فقال: مضمض فاه ثم مج بالدلو والناس في حرّ شديد وإنما هي بئر واحدة، وقد سبق المشركون إلى بلدح فغلبوا على مياهه، فقال: انزل بالماء فصبّه في البئر وأثر ماءها بالسهم. ففعلت، فوالذي بعثه بالحق ما كنت أخرج حتى كاد يغمرني، وفارت كما تفور القدر حتى ضمّت، واستوت بشفيرها، يغترفون ماء جانبها حتى نهلوا من آخرهم. اهـ.

وقال عرّام: ويطيف بشمنصير ـ وهو جبل ـ من القرى: قرية كبيرة يقال لها: رهاط، وهي بواد يسمّى غرّان، وأنشد:

فإن غرّانًا بطن واد أحبّه
لساكنه عهد عليّ وثيقُ

وبغربيّه قرية يقال لها: الحديبية، ليست بالكبيرة وبحذائها جبيل يقال له: ضعاضع، وعنده حبس كبير يجتمع عنده الماء، والحبس حجارة مجتمعة يوضع بعضها على بعض. قال الشاعر:

وإن التفاني نحو حبس ضعاضع
وإقبال عيني في الظبا لطويل

فهؤلاء القريّات لسعد وبني مسروح، وهم الذين نشأ رسول الله ﷺ فيهم، ولهذيل منها شيء، ولفهم أيضًا. ومياههم بثور، وهي أحساء وعيون ليست بآبار.

ومن الحديبية إلى المدينة تسع مراحل، وإلى مكة مرحلة وميل أو ميلان. اهـ.

قال ياقوت: الحديبية: بضم الحاء، وفتح الدال، وياء ساكنة، وباء موحدة مكسورة، وياء مشدّدة مفتوحة وآخره هاء. اختلفوا فيها فمنهم من شدّدها ومنهم من خفّفها، فروي عن الشافعي رضي الله عنه، أنه قال: الصواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة، وأخطأ من نصّ على تخفيفها. وقيل: كلّ صواب، أهل المدينة يثقلونها وأهل العراق يخففونها، وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. وقال الخطابي في أماليه: سميت الحديبية بشجرة حدباء كانت في ذلك الموضع.

وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل. وفي الحديث: أنها بئر. وبعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم، وهو أبعد الحل من البيت، وليس هو في طول الحرم ولا في عرضه بل هو في مثل زاوية الحرم، فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم. وعند مالك بن أنس أنها جميعها في الحرم. وقال محمد بن موسى الخوارزمي: اعتمر النبي ﷺ عمرة الحديبية ووادع المشركين لمضي خمس سنين وعشرة أشهر للهجرة النبوية اهـ.

وقال الواقدي: كان رسول الله ﷺ قد رأى في النوم أنه دخل البيت، وحلّق رأسه، وأخذ مفتاح البيت، وعرّف مع المعرّفين، فاستنفر أصحابه إلى العمرة، فأسرعوا وتهيؤوا للخروج في ليال بقيت من شوال سنة ست. . . وخرج أصحاب رسول الله ﷺ معه، لا يشكون في الفتح، للرؤيا التي رأى رسول الله ﷺ. فخرجوا بغير سلاح إلا السيوف في القرب، وساق قوم من أصحابه الهدي. . . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أتخشى يا رسول الله علينا من أبي سفيان بن حرب وأصحابه، ولم يأخذ للحرب عدّتها؟ فقال رسول الله ﷺ: ما أدري، ولست أحب أن أحمل السلاح معتمرًا. وقال سعد بن عبادة: يا رسول الله لو حملنا السلاح معنا، فإن رأينا من القوم ريبًا كنا معدّين لهم، فقال رسوله الله ﷺ: لست أحمل السلاح، إنما خرجت معتمرًا. واستخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الاثنين لهلال ذي القعدة. . . وخرج معه المسلمون ست عشرة مائة، ويقال ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلاً. اهـ.

وقال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة معتمرًا، لا يريد حربًا. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي. . . وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم للعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومعظمًا، لا يريد قتالاً وقال: وكان جابر بن عبد الله، فيما بلغني يقول: كنا أصحاب الحديبية أربعة عشر مائة.

قال الزهري: وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن شيبان الكعبي ـ قال ابن هشام: ويقال بسر ـ فقال: يا رسول الله

هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدّموها إلى كراع الغميم، قال: فقال رسول الله ﷺ: يا ويح قريش لقد أكلهم الحرب ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوه، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنّ قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.

وسلك رسول الله ﷺ في طريق تخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة.

ودعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلّك على رجل أعزّ بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظّمًا لحرمته.

قال ابن إسحاق: وخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على ألا نفر، فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلّف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجدّ ابن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس. ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل.

وروى ابن هشام بسنده عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي، إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنّا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، تكلّم فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا

بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطىٰ الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: ألسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني.

قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا.

قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: اكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب: باسمك اللّهم، فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللّهم، فكتبها ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عهد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

فلما فرع رسول الله ﷺ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المشركين ورجالاً من المسلمين.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مضطربًا في الحل، أي كانت أبنيته مضروبة في الحل، وكان يصلي في الحرم، وهذا لقرب الحديبية من الحرم، فلما فرغ من الصلح قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه... فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ، قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون.

قال الزهري في حديثه: ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

قال ابن هشام: حدثنا أبو عبيدة: أن بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله: إنك تدخل مكة آمنا؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لي جبريل. اهـ.

قال الواقدي: قال أبو سعيد الخدري: جلست عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا، فذكر القضيّة فقال: لقد دخلني يومئذ من الشك، وراجعت النبي ﷺ يومئذ مراجعة ما راجعته مثلها قط، ولقد أعتقت فيما دخلني يومئذ رقابًا وصمت دهرًا، وإني لأذكر ما صنعت خاليًا فيكون أكبر

همي، ثم جعل الله عاقبة القضيّة خيرًا، فينبغي للعباد أن يتّهموا الرأي والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي: لو كنا مائة رجل على رأيي ما دخلنا فيه أبدًا، فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر ممّن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصلح، لأنهم خرجوا لا يشكّون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلق رأسه، وأنه دخل البيت، فأخذ مفتاح الكعبة وعرّف مع المعرّفين، فلما رأوا الصلح دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون. . .

قال الواقدي: فلما دخل رسول الله ﷺ، عام القضيّة وحلق رأسه قال: هذا الذي وعدتكم. فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: ادعوا لي عمر بن الخطاب، فقال: هذا الذي قلت لكم. فلما كان في حجة الوداع بعرفة فقال: أي عمر، هذا الذي قلت لكم، قال: أي رسول الله، ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عمّا كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد الله.

قال الواقدي: قالوا: فقام رسول الله ﷺ بالحديبية بضعة عشر يومًا، ويقال عشرين ليلة، فلما انصرف رسول الله ﷺ، من الحديبية نزل بمر الظهران ثم نزل عسفان، فأرملوا من الزّاد، فشكا الناس إلى رسول الله ﷺ أنهم قد بلغوا من الجوع ـ وفي الناس ظهر ـ وقالوا: فننحر يا رسول الله وندّهن من شحومه، ونتخذ من جلوده حذاء فأذن لهم رسول الله ﷺ، فأخبر بذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله لا تفعل فإن يك من الناس بقية ظهر يكن أمثل، ولكن ادعهم بأزوادهم ثم ادع الله فيهم فأمر رسول الله ﷺ بالأنطاع فبسطت ثم نادى مناد: من كان عنده بقيّة من زاد فلينشره على الأنطاع. قال أبو شريح الكعبي: فلقد رأيت من يأتي بالتمرة الواحدة، وأكثرهم لا يأتي بشيء، ويأتي بالكفّ من الدقيق، والكفّ من السويق، وذلك كله قليل. فلما اجتمعت أزوادهم وانقطعت موادهم مشى رسول الله ﷺ إليها فدعا فيها بالبركة، ثم قال: قرّبوا أوعيتكم، فجاؤوا بأوعيتهم. قال أبو شريح: فأنا حاضر فيأتي الرجل فيأخذ ما شاء من الزاد حتى إن الرجل ليأخذ ما لا يجد له محملاً، ثم أذّن رسول الله ﷺ بالرحيل فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤوا وهم صائفون. فنزل رسول الله ﷺ ونزلوا معه، فشربوا من الماء. اهـ.

وروى الفاكهي بسنده عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، يقول: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة، وقال لنا رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير من أهل الأرض، قال عمرو ـ أحد الرواة ـ وقال لنا جابر رضي الله عنه : لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة.

وروى بسنده عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [سورة الفتح، الآية: ١٨] قال: سمرة كانت بالحديبية.

فكانت هذه الشجرة يعرف موضعها، ويؤتى هذا المسجد حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فبلغه أن الناس يأتونها ويصلون عندها فيما هنالك ويعظمونها، فرأى أن ذلك من فعلهم حدث.

وروى بسنده عن ابن عون، قال: بلغ - عمر ﷺ - أن الشجرة التي بويع عندها تؤتىٰ، فأوعد في ذلك، وأمر بها فقطعت. اهـ.

وقال الفاسي: الحديبية: الموضع الذي نزل عنده النبي ﷺ لما قدم من المدينة محرمًا، يريد دخول مكة، فعاقه المشركون عن ذلك، يقال: له الموضع الذي فيه البئر المعروفة ببئر شميسي، بطريق جدة والله أعلم. قال صاحب المطالع: إن الحديبية قرية ليست بالكبيرة، وسُمّيت ببئر هناك عند مسجد الشجرة. انتهى.

والشجرة والحديبية لا يعرفان الآن. . .

واختلف في الحديبية: هل هي في الحرم كما قال مالك، أو في طرف الحل كما قال الماوردي، أو أن بعضها في الحل وبعضها في الحرم كما قال الشافعي وابن العطار. والله أعلم.

وليست الحديبية بالموضع الذي يقال له: الحدّة في طريق جدة لقرب هذا الموضع من جدة وبعده من مكة، والحديبية دونه بكثير إلى مكة. اهـ.

قلت: هذا موجز لما قاله العلماء في وصف الحديبية، وفي تحديدها، وفي أحداث غزوة الحديبية، وما حصل فيها من المعجزات للنبي ﷺ.

ولا تنافي بين قولهم - في وصفها - أحساء وبثور وقولهم بئر، وقولهم قرية صغيرة، وذلك أن الأحساء والبثور القصيرة المنزع قد يوجد من بينها بعض الآبار. ولا منافاة بين هذا وبين وجود قرية فيها - موجودة قبل نزول النبي ﷺ بها أو بعده - والذي يبدو لي أن القرية إنما نشأت فيها بعد نزول النبي ﷺ بها وذلك أنه بعد ما نزلها النبي ﷺ، وجرت فيها بيعة الرضوان، أقيم فيها مسجد، وقد تكون إقامة المسجد فيها بداية لنشأة عمرانها وذلك أن هذا المسجد لم يرد له ذكر في المرة الأولى التي نزلها النبي ﷺ فيها، وإنما ورد ذكره في المرة الثانية حين نزل بها النبي ﷺ في عمرة القضاء.

قال الفاكهي: وأما مسجد الحديبية، فمسجد اعتمر منه النبي ﷺ عام قاضىٰ قريشًا ومنعوه من دخول مكة، وكانت عنده قضايا من النبي ﷺ، وسنن معمول بها إلى اليوم.

وقال عبد الملك بن دهيش: الحديبية: موضع مشهور في طريق جدة القديم، يعرف اليوم بالشميسي، لأن رجلاً يحمل هذا الاسم حفر هناك بئرًا، قيل لها: بئر شميسي، فأطلق على تلك المنطقة: الشميسي. وبعضهم هناك يسمي بئرًا في تلك المنطقة باسم: بئر الهدية، ولعله إطلاق أعجمي للفظة حديبية. وهي ليست من الحرم وتبعد عن أنصاب الحرم حوالي (١,٥) وتبعد الحديبية عن المسجد الحرام قرابة (٢٥) كم. وفيها مسجد حديث إلى جنب مسجد قديم هو اليوم خراب، مبني بالحجر الأسود والجصّ، وبقربه أكثر من بئر أقيم على بعضها مزارع، وأقيم بقرب المسجد حدائق حديثة جميلة لأمانة العاصمة، وقبل مسجد الحديبية للقادم من جدة نقطة تفتيش، تابعة للشرطة لمنع غير المسلمين من دخول الحرم.

قلت: وقد تقدم في رسم (بلدح) مزيد من الإيضاح - فانظره.

حِرَاء: أوله حاء مهملة مكسورة بعدها راء مهملة ثم ألف ممدود: جبل معروف في مكة.

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: ثم فتر عني الوحي فترة فبينما أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين

السماء والأرض فجئت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت زملّوني زملّوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [سورة المدثر، الآية: ٥].

قال الأزرقي: جبل حراء: وهو الجبل الطويل الذي بأصل شعب آل خنس مشرف على حائط مورش والحائط الذي يقال له: حائط حراء على يسار الذاهب إلى العراق وهو المشرف القلّة مقابل ثبير غيناء، محجّة العراق بينه وبينه. وقد كان رسول الله ﷺ أتى واختبأ فيه من المشركين من أهل مكة في غار في رأسه مما يلي القبلة... وفي حراء يقول الشاعر:

تفرّج عنها اللّهم لما بدا لها
حراء كرأس الفارسيّ المتوجِ
منعّمة لم تدر ما عيش شقوة
ولم تعترر يومًا على عود عوسجي[1]

قلت: العبارة التي قال فيها: وقد كان رسول الله ﷺ أتى واختبأ فيه من المشركين من أهل مكة في غار في رأسه، يبدو لي أنها خاصة بجبل ثور لا بجبل حراء.

قال الفاكهي: جبل حراء: وهو الجبل الطويل الذي بأصل شعب آل خنس، مشرفًا على حائط مورش، وهو الحائط الذي يقال له: حائط حراء على يسار الذاهب إلى العراق، وهو المشرف القلّة. مقابل ثبير غيناء، محجّة العراق بينه وبينه.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعبّد في مبتدأ النبوّة في غار، في رأسه مما يلي القبلة.

وروى بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: حدّثنا رسول الله ﷺ قال: جاورت في غار حراء، وذكر حديثًا طويلاً. اهـ.

قال ياقوت: حراء: بالكسر، والتخفيف، والمدّ: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال، وهو معروف، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه، قال جرير:

ألسنا أكرم الثقلين طرّا
وأعظمهم ببطن حراء نارا؟

فلا يصرفه لأنه ذهب به إلى البلدة التي حراء بها، وقال بعضهم: للناس فيه ثلاث لغات يفتحون حاءه وهي مكسورة ويقصرون ألفه وهي ممدودة ويميلونها وهي لا تسوغ فيها الإمالة، لأن الراء سبقت الألف ممدودة مفتوحة، وهي حرف مكرر فقامت مقام الحرف المستعلي، مثل راشد ورافع فلا تمال. وكان النبي ﷺ، قبل أن يأتيه الوحي يتعبّد في غار من هذا الجبل وفيه أتاه جبرائيل عليه السلام. اهـ.

قال البكري: حراء: بكسر أوله ممدود، على وزن فعال: جبل بمكة.

قال الأصمعي: بعضهم يذكّره ويصرفه، وبعضهم يؤنثه ولا يصرفه، قال عوف ابن الأخوص في تأنيثه:

فإنّي والذي حجّت قريش
محارمه وما جمعت حراء

وأنشد الفراء:

ألسنا أكرم الثقلين رحلا
وأعظمهم ببطن حراء نارا

قال ابن الأنباري: إنّما لم يجر حراء، لأنه جعله اسمًا لما حول الجبل، فكأنه اسم لمدينة، وأنشد لابن هرمة في التأنيث:

وخلت حراء من ربيع وصيّف
نعامة رمل وافرًا ومقرنصا

---

(١) في رواية الفاكهي: ولم تغتزل يومًا على عود عوسجي. قلت: هو أدنى إلى الصواب.

وأجراها لضرورة الشعر. وقال أبو حاتم: التذكير في حراء أعرف الوجهين...
وقال رؤبة:

وربّ وجه من حراء منحن

قال الأصمعي: لم أره منحنيًا، وقد سمعت حيث حناه حانيه. اهـ.

وقال عرّام: ثبير جبل شامخ، يقابله حراء، وهو جبل شامخ أرفع من ثبير، في أعلاه قلّة شاهقة زلوج، وذكروا أن رسول الله ﷺ ارتقى ذروته ومعه نفر من الصحابة فتحرّك فقال له رسول الله ﷺ: اسكن حراء فما عليك إلاّ نبي أو صدّيق أو شهيد. اهـ.

قلت: حديث (اثبت حراء فإنّما عليك نبي أو صدّيق أو شهيد) هذا الحديث إنما ورد في جبل أحد، وليس في جبل حراء، وقد تقدّم بيانه في رسم أحد فانظره.

قال ابن كثير: كان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهرًا من السنة يتنسّك فيه، وكان من نسّك من قريش في الجاهلية يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة، وهكذا روي عن وهب بن كيسان أنه سمع عبيد بن عمير يحدّث عبد الله بن الزبير مثل ذلك، وهذا يدل على أن هذا كان من عادة المتعبّدين في قريش أنّهم يجاورون في حراء للعبادة، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وثور ومن أرسى ثبيرًا مكانه
وراق ليرقى في حراء ونازل

وحراء: يقصر ويمدّ ويصرف ويمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها على يسار المارّ إلى منى، له قلّة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية، وما أحسن ما قال رؤبة بن العجّاج:

فلا ورب الآمنات القطّن
وربّ ركن من حراء منحن

اهـ.[1]

وقال الفاسي: حراء بأعلى مكة لكثرة مجاورة النبي ﷺ فيه، وما خصّه الله به فيه من الكرامة بالرسالة، ونزول الوحي فيه عليه، وكان نزول الوحي على النبي ﷺ في حراء، في غار فيه، لأن في بعض طرق الحديث: حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، وهذا الغار بأعلى حراء، في مؤخره، وهو غار مشهور عند الناس، نقله الخلف عن السلف ويقصدونه بالزيارة. وذكر الأزرقي موضع هذا الغار لأنه قال بعد ذكره الحائط: وهو مشرف القلّة مقابل لثبير غيناء، ومحجّة العراق بينه وبينه وقد كان رسول الله ﷺ أتاه واختبأ فيه من المشركين من أهل مكة في غار في رأسه مشرف القلّة مما يلي القبلة. اهـ.

وذكر الفاكهي خبرًا يقتضي أن النبي ﷺ اختفى بحراء من أذى المشركين، وهذا غريب. وكذلك ما ذكره الأزرقي لأن المعروف في الغار الذي اختفى فيه النبي ﷺ من المشركين أنه غار ثور لا غار حراء فإنه كان يأتيه للعبادة والله أعلم.

وإن صحّ اختفاء النبي ﷺ بحراء فهو غير اختفائه بثور والله أعلم وذكره أبو عبيدة مع شيء من خبره لأنه قال حراء مشهور بينه وبين مكة ميل ونصف، وهو جبل صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد على رصفة ملساء وهو في جميع جوانبه منقطع لا

(١) البداية والنهاية ٣/ ٥.

يرقاه راق، والموضع الذي نزل جبريل فيه في أعلاه من مؤخره في شق مبارك. اهـ.

قلت: ما ذكره أبو عبيدة من أن بين حراء ومكة ميلاً ونصفًا فيه نظر، لمخالفته ما نقله صاحب المطالع لأنه قال: وهو على ثلاثة أميال من مكة، وذكر ذلك غيره وهو ابن جبير لأنه قال: ومن جبال مكة المشهورة جبل حراء، وهو في الشرقي منها على فرسخ أو نحوه، وذكر في موضع آخر من رحلته أنه في مكة على ثلاثة أميال. اهـ.

قلت: والعيان يشهد بخلاف ذلك مما ذكره أبو عبيدة في مقدار ما بين حراء ومكة، ولصحة ما ذكره ابن جبير وصاحب المطالع في مقداره والله أعلم. اهـ.

قلت: فيما تقدم نرى أن العلماء قد اتفقوا في أقوالهم على تحديد موقع جبل حراء في مكة والمسافة التي بينه وبين مكة ـ وإن خالف في تحديد المسافة قلة من العلماء ـ كما اتفقوا على وصفه. غير أن ابن كثير قد ذكر أن له قلّة مشرفة على الكعبة منحنية، والغار في تلك الحنية، واستشهد بما قاله رؤبة بن العجاج واستحسنه.

وربّ ركن من حراء منحن

وهذا الشعر أورده البكري: وربّ وجه من حراء منحن

وروي عن الأصمعي أنه قال: لم أره منحنيًا، وقد سمعت حيث حناه حانيه. ويبدو لي أن الأصمعي أنكر على رؤبة وصف ركن حراء بالانحناء، والمشاهدة تؤكد أنه ليس في حراء ركن منحن، وإنما يرى في قمته ميل يسير، ولكنه لا يصل إلى درجة الانحناء، فلا يصح وصفه بأنه منحن.

وجبل حراء من أشهر الجبال في مكة ما زال معروفًا باسمه، معروفًا في موقعه كما وصفه العلماء المتقدمون، وكما دلت عليه المشاهدة. ويسمى أيضًا جبل النور وهذا الاسم أطلق عليه بعد أن نزل فيه نور الرسالة على محمد ﷺ في غاره.

وقد قدّر العلماء المسافة بين حراء وبين مكة بثلاثة أميال، أما في هذا العهد فإن التوسع العمراني قد أخذ يمتد إليه من كل نواحيه، فلم يبق بينه وبين مكة مسافة تقدّر.

حَرْث: أوله حاء مهملة مفتوحة بعدها راء مهملة ساكنة وآخره ثاء مثلثة: موضع حرث في المدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئ على عسيب إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فقال: ما رابكم إليه وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه فقالوا: سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم فعلمت أنه يوحىٰ إليه فقمت مقامي فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٥].

قال ابن حجر: حرث، بفتح المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة، ووقع في كتاب العلم من وجه آخر بخاء معجمة وموحدة، وضبطوه بفتح أوله وكسر ثانيه وبالعكس، والأول أصوب فقد أخرجه مسلم من طريق مسروق عن ابن مسعود بلفظ: كان في نخل، وزاد في رواية العلم: بالمدينة، ولابن مردويه من وجه آخر عن الأعمش: في حرث للأنصار.

قلت: كلمة حرث: اسم جنس للأرض التي حرثت للزراعة، ولا يتحدد موقعه إلا بإضافته إلى ما يحدّده أو يميّزه عن سواه، وجاء في بعض روايات الحديث: حرث للأنصار،

وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان جالسًا في أرض للأنصار كانت محروثة للزراعة، وجاء في بعض روايات الحديث: في نخل، وهذا لا ينافي قوله: في حرث وذلك أن الحرث قد يجمع أحيانًا بين النخل والزراعة.

وممّا تقدّم يتأكد أن هذا الموضع في المدينة وأنه أرض محروثة لأحد الأنصار رضي الله عنه.

الحرّة: بحاء مهملة مفتوحة بعدها راء مهملة مشدّدة وآخره هاء: حرّة معروفة في المدينة.

وروى البخاري بسنده عن أنس قال: قدم أناس من عكل أو عرينة فاجتووا المدينة فأمرهم النبي ﷺ بلقاح وأن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحّوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم فجاء الخبر في أول النهار فبعث في آثارهم فلما ارتفع النهار جيء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمّرت أعينهم وألقوا في الحرّة يستسقون فلا يسقون.

قال ابن حجر: الحرّة: هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة.

قال ياقوت: قال صاحب كتاب العين: الحرّة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار، والجمع الحرّات والأحرّون والحرار والحرّون، وقال الأصمعي: الحرّة الأرض التي ألبستها الحجارة السود، فإن كان فيها نجوة الأحجار فهي الصخرة، وجمعها صخر.

قال ياقوت: حرّة واقم: إحدى حرّتي المدينة وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم، وكان قد نزلها في الدّهر الأول، وقيل: واقم اسم أطم من آطام المدينة إليه تضاف الحرّة، وقال المرّار:

بحرّة واقم والعيس صعر
ترى للحي جماجمها تبيع

وفي هذه الحرّة كانت وقعة الحرّة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في سنة (٦٣)، وأمير الجيش من قبل يزيد مسلم بن عقبة المرّي، وسمّوه لقبيح صنيعه مسرفًا، قدم المدينة فنزل حرّة واقم وخرج إليه أهل المدينة يحاربونه، فكسرهم... ثم انصرف نحو مكة وهو مريض مدنف فمات بعد أيام، وأوصى إلى الحصين بن نمير. وفي قصة الحرّة طول، وكانت بعد قتل الحسين رضي الله عنه ورمي الكعبة بالمنجنيق من أشنع شيء جرى في أيام يزيد، وقال محمد بن بحرة الساعدي:

فإن تقتلونا يوم حرّة واقم
فنحن على الإسلام أول من قتل
ونحن تركناكم ببدر أذلة
وأبنا بأسياف لنا منكم نفل
فإن ينج منكم عائذ البيت سالمًا
فما نالنا منكم وإن شفنا جلل

عائذ البيت: عبد الله بن الزبير، وقال عبيد الله بن قيس الرقيّات:

وقالت:

لو أنّا نستطيع لزاركم
طبيبان منّا عالمان بدائكا
ولكنّ قومي أحدثوا بعد عهدنا
وعهدت أضعافًا كلفن شوائكا
وقد كان قومي قبل ذاك وقومها
قرومًا زوت عودًا من المجد نائكا
فقطّع أرحام وقصّت جماعة
وعادت روايا الحلم بعد ركائكا

حرّة الوبرة: بثلاث فتحات مضبوطة في كتاب مسلم، وقد سكّن بعضهم الباء: وهي على ثلاثة أميال من المدينة. اهـ.

وتحدث المجد عن حرّتي المدينة، وذكر مثلما ذكر ياقوت وزاد: وعن كعب الأحبار: أنا نجد في كتاب الله ﷻ حرّة بشرقي المدينة

يقتل بها مقتلة تضيء وجوههم يوم القيامة كما يضيء القمر ليلة البدر. قلت: هي حرّة واقم وكانت وقعة الحرّة وقتل الحسين رضي الله عنه ورمي الكعبة بالمنجنيق من أشنع شيء جرى في أيام يزيد. اهـ.

قال المطري: الحرّة الشرقية وتعرف بحرّة واقم، وهي التي كانت فيها وقعة الحرّة في أيام يزيد بن معاوية في سنة (٦٣) من الهجرة، وقتل فيها من قتل من الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، رضوان الله عليهم ورحمته وبركاته. اهـ.

وروى ابن كثير بسنده عن أيوب بن بشير المعافري أن رسول الله ﷺ خرج في سفر من أسفاره، فلما مرّ بحرّة زهرة وقف فاسترجع فساء ذلك من معه، وظنّوا أن ذلك من أمر سفرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ما الذي رأيت؟ فقال رسول الله ﷺ: أما إن ذلك ليس من سفركم هذا، قالوا: فما هو يا رسول الله؟ قال: يقتل بهذه الحرّة خيار أمتي بعد أصحابي. هذا مرسل. وقد قال يعقوب ابن سفيان: قال وهب بن جرير: قالت جويرية: حدّثني ثور بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٤] قال: لأعطوها، يعني إدخال بني حارثة أهل الشام على أهل المدينة. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، وتفسير الصحابي في حكم المرفوع عند كثير من العلماء.

وقال ابن كثير: وكان سبب وقعة الحرّة أن وفدًا من أهل المدينة قدموا على يزيد ابن معاوية بدمشق فأكرمهم وأحسن جائزتهم، وأطلق لأميرهم - وهو عبد الله بن حنظلة ابن أبي عامر - قريبًا من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهليهم عن يزيد ما كان يقع منه من القبائح في شربه الخمر، وما يتبع ذلك من الفواحش التي أكبرها ترك الصلاة عن وقتها، بسبب السكر، فأجمعوا على خلعه، فخلعوه عند المنبر النبوي، فلما بلغه ذلك بعث إليهم سرية، يقدمها رجل يقال له مسلم بن عقبة، وإنما يسميه السلف: مسرف بن عقبة، فلما ورد المدينة استباحها ثلاثة أيام، فقتل في غضون هذه الأيام بشرًا كثيرًا حتى كاد لا يفلت أحد من أهلها[1] اهـ.

قال السمهودي: حرّة واقم هي حرّة المدينة الشرقية، سميت برجل من العمالقة نزل بها، وعن ابن زبالة: واقم أطم بني عبد الأشهل، وبه سميت تلك الناحية واقمًا، يقول شاعرهم:

نحن بنينا واقمًا بالحرّة
بلازب الطين وبالأصرّة

وتسمى أيضًا حرّة بني قريظة، لأنهم كانوا بطرفها القبلي، وحرّة زهرة، لمجاورتها لها، وبها كانت مقتلة الحرّة.

وقال السمهودي: حرّة الوبرة، محركة وجوز بعضهم سكون الموحدة، وهي على ثلاثة أميال من المدينة، كذا ما قاله المجد هنا.

وقال الهجري: مزارع عروة وقصره في حرّة الوبرة.

فهي المشرفة على وادي العقيق، ولهذا صح في مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرّة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر عنه جرأة ونجدة.. اهـ.

(١) البداية والنهاية ٦/ ٢٣٣، ٢٣٤.

وقال الشنقيطي: تعتبر **الحرّة الشرقية** معلمًا بينًا وقديمًا من معالم المدينة المنورة وورد في التوراة أنها مهاجر بني آخر الزمان، ولذلك نزل بها اليهود (قينقاع ـ والنضير ـ وقريظة) انتظارًا له، والمدينة لها ثلاث حرار هي: حرّة بني بياضة جنوبي قباء وبها منازل بني قينقاع، وحرّة واقم وهي الحرّة الشرقية وتمتد من بطحان حتى أجمة الشيخين، والحرة الغربية وتبدأ من نهاية حرّة بني بياضة في الجنوب حتى ديار بني سلمة في الشمال عند القبلتين.

وأما الحرّة الشرقية فكانت تسمى بحرّة واقم وهو اسم لأطم قديم كان فيها، وتمتد هذه الحرّة من شرقي البقيع بمائتي متر حتى قرب مهد الذهب، بمسافة مائة وعشرين ميلاً.

وتقع منازل اليهود في وسط الحرّة الشرقية، لأنها تحصينات طبيعية لكثرة غدرهم وزرعهم الشرور وإذكائهم الحروب فلا يسكنون إلا في قرى محصّنة.

وأما مشارف هذه الحرّة على المدينة ففيها مساكن بني ظافر، وإلى الشمال منازل بني معاوية أهل مسجد الإجابة، وإلى الشرق منها منازل بني عبد الأشهل وهم قوم أسيد ابن حضير، وإلى الشمال في الطرف الشمالي من الحرّة منازل بني حارثة الذين كانت الحرّة من هناك تسمى بهم، فيقال لها حرّة بني حارثة.

وقد قسّم مؤرخو المدينة هذه الحرّة إلى خمسة أقسام هي: منطقتان كان يسكنهما يهود بني النضير ويهود بني قريظة، وثلاث مناطق إلى شمالها كان يسكنها أحياء من الأنصار، هم بنو ظفر ثم بنو عبد الأشهل ثم بنو زعور ابن جشم، وهذا يؤيد أن معظم مساكن الأوس كانت في الجهة الشرقية من المدينة.

ولا يزال المتجوّل في هذه الحرّة يشاهد أطلال الآطام، وركام القصور، وحجارة القرى والدور، وقطع الفخّار مما لا يدع شكًا للناظرين فيه بأنها كانت عامرة ومسكونة.

أما اليوم فإن الحرّة الشرقية مدينة مزدهرة بالفلل والقصور والحدائق والطرق والميادين والمراكز الحيويّة، للأمن والصحة والتعليم والأفران والمطاعم والأسواق ومحطات الوقود وقصور الأفراح، وذلك نتيجة للأمن والرخاء الذي تنعم به هذه البلاد في ظل المملكة العربية السعودية. اهـ.

قلت: وقد حدد النبي ﷺ حرم المدينة من الشرق إلى الغرب بهاتين الحرتين، فقال: ما بين لابتيها حرام، ولا بتاها هما حرّتاها.

وقال عبد القدوس الأنصاري: حرّة واقم: هي الحرّة الكائنة شرقي المدينة، وتحد حرم المدينة شرقًا، وحدّه الغربي: حرّة الوبرة، فهما لابتاها المقصودتان في الحديث النبوي الذي حدد حرم المدينة، وذكر في تقسيم المنازل فيها إلى خمسة أقسام مثل ما ذكر الشنقيطي وكذلك بالنسبة لما يشاهد في هذه الحرّة من آثار الدور والحصون والآطام وغيرها من آثار التحضّر القديم فيها.

وقال: حرة الوبرة: تقع بضاحية المدينة الغربية، وهي أقرب إلى المدينة بالنسبة لحرّة واقم. وتختلف حرّة الوبرة عن حرّة واقم بكثرة الهضاب والتلاع والمستنقعات والمنخفضات والمرتفعات، وبطرفها الشمالي الشرقي منازل بني سلمة، ومن تحت طرفها الغربي قصر عروة وبئر ومزارع، وبعض قصور العقيق وبطرفها الشمالي مسجد القبلتين. . . وبطرفها الجنوبي الغربي أطم الضحيان وقلعة قباء التي لا تزال شامخة وشاخصة للعيان.

ومن الملاحظ تلاقي الحرتين: حرّة الوبرة وحرّة واقم الشرقية في ناحيتهما: الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية بالنسبة للمدينة. اهـ.

قلت: الحرّة اسم جنس لتكوين طبيعي متميز ولا يتحدد موقعها إلا بإضافتها إلى علم يميزها عن غيرها من الحرّات، وقد ورد اسم الحرّة في البخاري مجردًا من الإضافة، وما ذلك إلا لشهرة حرّتي المدينة، ولأن سياق الأحاديث يدل على الحرّة المقصودة منهما، وقد ورد اسم الحرّة في البخاري مضافًا إلى المدينة مرّة واحدة في حديث أبي ذر في موضعين من الكتاب.

وعامة الأحاديث التي وردت كلها في الحرّة الشرقية إلا حديث أنس الذي فيه خبر أناس من عكل أو عرينة فإنه خاص بالحرة الغربية، وذكر ابن حجر أنه بعد أن قطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ألقوا في هذه الحرّة، لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا.

أما حرّة بني بياضة فإنه وقع فيها رجم ماعز ابن مالك، كما قال السمهودي عن رواية ابن سعد في قصته.

ومما تقدم من أقوال العلماء في وصف حرّتي المدينة يتبين لنا أن الحرّة الشرقية كانت أوسع من الحرّة الغربية وأصلح للسكنى، وأنها كانت معمورة بالسكان قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وأن الحرّة الغربية إنما نشأ العمران في أطرافها في وقت متأخر عن سابقتها، كما يتضح أن العمران قد عاد إلى الحرّة الشرقية في هذا العهد بصورة أوسع فأخذ يمتد في أرجائها ويتوسع في أنحائها، عمرانًا حديثًا يتمثل في كل أصناف العمران.

ومن الملاحظ أن سيول الحرّة الشرقية تدفع إلى المدينة وتروي نخيلها وبساتيها وفي رسم لابتي المدينة مزيد من الإيضاح.

وانظر خريطة المدينة التي توضح موقع الحرّتين وأودية المدينة وقد ذكر ياقوت عددًا من الحرّات المنتشرة في جزيرة العرب، منها ما تحدّث عنه وحدد موقعه ومنها ما ذكره وأورد عليه شاهدًا من الشعر ولم يحدده، غير أن مقامنا هذا لا يتسع للتحدث عن هذه الحرّات لكثرتها.

الحَصْبَةُ (المحصّب): بفتح الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة بعدها باء موحدة مفتوحة، وآخره هاء: موضع في أعلى مكة.

روى البخاري بسنده عن عائشة قالت: هللت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع فكنت ممن تمتع ولم يسق الهدى فزعمت أنها حاضت ولم تطهر حتى دخلت ليلة عرفة فقالت: يا رسول الله هذه ليلة عرفة وإنما كنت تمتعت بعمرة فقال لها رسول الله ﷺ: (انقضي رأسك وامتشطي وأمسكي عن عمرتك). ففعلت فلما قضيت الحج أمر عبد الرحمٰن ليلة الحصبة فأعمرني من التنعيم مكان عمرتي.

وروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر وهو بمنى: نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر يعني ذلك المحصّب.

وروى بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما كان منزلاً ينزله النبي ﷺ ليكون أسمح لخروجه. تعني بالأبطح.

وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس التحصيب بشيء إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر: وليلة الحصبة: بفتح الحاء وسكون الصاد المهملتين ثم الموحدة: هي الليلة التي نزلوا فيها في المحصّب، وهو المكان الذي نزلوا بعد النفر من منى خارج مكة. اهـ.

وروى الأزرقي بسنده عن ابن عباس قال: المحصّب ليس بشيء إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ، وبه قال سفيان عن عمرو ابن دينار عن صالح بن كيسان عن سليمان ابن يسار عن أبي رافع وكان على ثقل النبي ﷺ قال: لم يأمرني النبي ﷺ أنزل الأبطح ولكن ضربت فيه قبّته فجاء فنزل.

وحدّ المحصّب من الحجون مصعدًا في الشق الأيسر وأنت ذاهب إلى منى إلى حائط خرمان مرتفعًا عن بطن الوادي، فذلك كله المحصّب وربما كان الناس يكثرون حتى يكونوا في بطن الوادي. اهـ.

وذكر الفاكهي: أقوالاً كثيرة في تحديد المحصّب وكلها لا تخرج عن الموقع الذي قال الأزرقي في تحديده: وحد المحصّب من الحجون مصعدًا إلى آخر ما ذكر، غير أن الأقوال التي ذكرها يختلف بعضها عن بعض في الأسماء التي يحددون بها هذا المكان، وفي بعضها خلط بين هذا المحصّب الذي في مكة، وبين المحصّب الذي في منى.

وقد فسّر الفاسي تحديد الأزرقي للمحصّب من جهة منى بقوله: وأما حد المحصّب من جهة منى فوقع في كلام الأزرقي ما يوهم أنه إلى حائط خرمان، وهو الأودان المعروفة بالخرمانية بأعلى المعابدة.

لأني وجدت في كلام منقول عن الشافعي ما يقتضي أن حد المحصّب من جهة منى جبل العيرة وهو بقرب السبيل، الذي يقال له سبيل الست... ونص الكلام الذي رأيته للشافعي في ذلك على ما نقل سليمان بن خليل في منسكه، قال الشافعي: المحصّب ما بين الجبلين جبل العيرة والجبل الآخر، وهو على باب مكة بالأبطح. اهـ.

قلت: وقد أطال الفاسي في الحديث عن تحديده المحصّب من جهة منى، وذكر أقوالاً كثيرة في تحديده من جهة منى والأسماء التي يحددونه بها قريب بعضها من بعض.

أما حد المحصّب من جهة مكة فإنهم لم يختلفوا فيه كما تقدم.

قال ياقوت: المحصّب: بالضم ثم الفتح وصاد مهملة مشددة، اسم المفعول من الحصباء أو الحصب وهو الرمي بالحصى، وهي صغار الحصى وكباره: وهو موضع فيما بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب، وهو بطحاء مكة، وهو خيف بني كنانة وحدّه من الحجون ذاهبًا إلى منى. وقال الأصمعي: حدّه ما بين شعب عمرو إلى شعب بني كنانة وهذا من الحصباء التي في أرضه.

والمحصّب أيضًا موضع رمي الجمار بمنى وهذا من رمي الحصباء.

قال عمر بن أبي ربيعة:

نظرت إليها بالمحصب من منى
ولي نظر لولا التحرج عارمُ
فقلت أشمس أم مصابيح بيعة
بدت لك تحت السجف أم أنت حالمُ
بعيدة مهوى القرط إمّا لنوفل
أبوها وإمّا عبد شمس وهاشمُ
ومدّ عليها السجف يوم لقيتها
على عجل تبّاعها والخوادمُ
فلم أستطعها غير أن قد بدالنا
عشية راحت كفّها والمعاصمُ
إذا ما دعت أترابها فاكتنفنها
تمايلْن أو مالت بهن المآكمُ
طلبن الصبا حتى إذا ما أصبنه
نزعن وهن المسلمات الظوالمُ

قلت: يتبين مما قاله ياقوت أن الحصبة والمحصّب اسم جنس عام لكل تكوين تتصف

أرضه بالحصباء، ولا يتميز إلا بإضافته إلى علم معروف يميزه عمّا سواه، كمحصّب مكة ومحصّب منى.

وفيما قاله ياقوت: وهو موضع فيما بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب. توسع في تحديده مما يلي منى. ثم حدده بقوله وهو بطحاء مكة وهو خيف بني كنانة وحدّه من الحجون ذاهبًا إلى منى. وفي هذا التحديد أبقى حدّه مما يلي منىٰ مفتوحًا، وفيه خلط بين محصّب مكة ومحصّب منى.

ومما تقدم من الأقوال يتبين أن المحصّب اسم لموضعين: أحدهما في مكة وهو الذي كان النبي ﷺ نزله وقد تقدم تحديده مع اختلاف في حدوده مما يلي منى.

والثاني محصّب منى وهو موضع رمي الجمار، وقد فسّر الأصمعي تسمية هذين الموضعين فيما نقله عنه ياقوت.

وقد أكثر الشعراء من ذكر محصّب منى، وقد تقدم ما قاله ابن أبي ربيعة، وقوله أيضًا:

نظرت إليها بالمحصّب من منى
فقلت شعاع الشمس والشمس تقصرُ

وقال الفرزدق:

هم سمعوا يوم المحصّب من منى
ندائي وقد لفّت رقاق المواسمِ

وقال النّصيب:

ذكرتك يوم النحر لما بدا لنا
حدوج تداني ضحوة بالمحصّبِ
حدوج عليها الرقم قد أزرت به
وقنّعن من خضر الفريد المذهّبِ

وقد حدد رشدي ملحس محقق كتاب الأزرقي المحصّب بقوله: وهو مسيل بين مكة ومنى، وحدّه من جهة منى جبل العيرة بقرب السبيل الذي يقال له سبيل الست، في طريق منى على ما ذكره الناس، ويقال له: خيف بني كنانة، وهو الخيف الذي تقاسمت فيه قريش على الكفر، ويسمى أيضًا الأبطح والبطحاء وهي ما أنبطح من الوادي واتسع، وصفى الباب، وزاد ابن حجر فقال: إنه يقال له المعرّس، بتشديد الراء. قلنا ويعرف اليوم: بالمعابدة نسبة إلى امرأة تسمى (أم عابد) كانت تسكن في هذا المكان كما يقول المعمّرون من أهل مكة. اهـ.

وقال حمد الجاسر معلقًا على قول بعض القدماء في تحديد المحصّب: (المحصّب موضع فيما بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب وحدّه من الحجون ذاهبًا إلى منى وهو موضع رمي الجمار في الحج). هذا التعريف مأثور عن القدماء ولكن خلط بين موضعين كل واحد منهما يسمى المحصّب، ويظهر أن اتصافهما بصفة واحدة هي وجود الحصباء في كل واحد منهما مع تقاربهما هو الذي سبب الخلط بينهما. إن المحصّب يقع قديمًا بطرف مكة في أعلى واديها من الحجون فصاعدًا، وهو الموضع الذي نزل فيه الرسول ﷺ والذي ورد فيه رأي بعض العلماء عن التحصيب.

أما الموضع الثاني فهو محصّب منى الواقع في أسفله الموالي لمكة وفيه الجمرة التي ترمي، وورد هذا في الشعر قديمًا، ومعرفة الموضعين تغني عن الاستشهاد بأقوال المتقدمين اهـ[(١)].

قلت: وفيما قدمته من أقوال المتقدمين من العلماء والمتأخرين كفاية في معرفة موقع المحصّبين من مكة ومن منى، غير أن في هذا العهد أصبح لا حصباء ولا بطحاء ولا محصّب، فقد زالت كل معالم الطبيعة

---

(١) مجلة العرب ٢/ ٩٤٢.

الجغرافية لهذه البقاع واكتست أرضها بالأسفلت الأسود، وقامت فيها المساكن الحديثة فكست جميع أرضها، فلا أثر للبطحاء في الوادي ولا الحصباء ولا محصّب.

حضرموت: بفتح الحاء الموحدة وسكون الضاد المعجمة بعدها راء مهملة مفتوحة، وفتح الميم وسكون الواو وآخره تاء مثناة: ناحية باليمن.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة أنه يقال قال رسول الله ﷺ: (لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ). قال رجل من حضرموت: ما الحدث يا أبا هريرة؟ قال: فساء أو ضراط.

قال ياقوت: حضرموت: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء والميم: اسمان مركبان، إعرابهما إن شئت بنيت الاسم الأول على الفتح وأعربت الثاني إعراب ما لا ينصرف فقلت: هذا حضرموت، وإن شئت رفعت الأول في حال الرفع وجررته ونصبته على حسب العوامل، وأضفته على الثاني فقلت: هذا حضرموت، أعربت حضرًا وخفضت موتًا، ولك أن تعرف الأول وتخير بالثاني بين الصرف وتركه، ومنهم من يضم ميمه فيخرجه مخرج عنكبوت، والنسبة إليه حضرمي، والتصغير حضير موت تصغير الصدر منهما، وكذلك الجمع، يقال: فلان من الحضارمة، وقيل: سميت بحاضر ميّت وهو أول من نزلها، ثم خفّف بإسقاط الألف.

وقيل: سميت بحضرموت بن يقطن بن عامر ابن شالخ، وإنما سمي حضرموت لأنه كان إذا حضر حربًا أكثر فيها من القتل فلقّب بذلك، ثم سكّنت الضاد للتخفيف.

وحضرموت: ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف، وبها قبر هود عليه السلام، وبقربها بئر برهوت، ولها مدينتان يقال لإحداهما تريم وللأخرى شبام، وعندها قلاع وقرى.

وقال ابن الفقيه: حضرموت مخلاف من اليمن بينه وبين البحر رمال، وبينه وبين مخلاف صدّاء ثلاثون فرسخًا، وبين حضرموت وصنعاء اثنان وسبعون فرسخًا، وقيل: مسيرة أحد عشر يومًا.

وقال الإصطخري: بين حضرموت وعدن مسيرة شهر، وقال عمرو بن معدي كرب:

والأشعث الكنديّ حين إذ سما لنا
من حضرموت مجنّب الذّكرانِ
قاد الجياد عليَّ وجاهًا أشريا
قبّ البطون نواحل الأبدانِ

وقال علي بن محمد الصّليحي الخارج باليمن:

وألذّ من قرع المثاني عنده
في الحرب الجم يا غلام وأسرجِ
خيل بأقصى حضرموت أسدها
وزئيرها بين العراق ومنبج

وأما فتحها: فإن رسول الله ﷺ كان قد راسل أهلها فيمن راسل فدخلوا في طاعته وقدم عليه الأشعث بن قيس في بضعة عشر راكبًا مسلمًا، فأكرمه رسول الله ﷺ، فلما أراد الانصراف سأل رسول الله ﷺ أن يولّي عليهم رجلاً منهم، فولّىٰ عليهم زياد بن لبيد البياضي الأنصاري وضم إليه كندة، فبقي على ذلك إلى أن مات رسول الله ﷺ فارتدت بنو وليعة ابن شرحبيل بن معاوية، وكان من حديثه أن أبا بكر - رضي الله عنه - كتب إلى زياد بن لبيد يخبره بوفاة النبي ﷺ، ويأمره بأخذ البيعة على من قبله من أهل حضرموت، فقام فيهم زياد خطيبًا وعرفهم موت النبي ﷺ، ودعاهم إلى بيعة أبي بكر، فامتنع الأشعث بن قيس من البيعة،

واعتزل في كثير من كندة، وبايع زيادًا خلق آخرون وانصرف إلى منزله. وبكّر لأخذ الصدقة كما كان يفعل، فأخذ فيما أخذ قلوصًا من فتى من كندة، فصيّح الفتى واستغاث بحارثة بن سراقة بن معدي كرب بن وليعة ابن شرحبيل بن معاوية بن حجر القَرِد ابن الحارث: الولادة يا أبا معد كرب، عُقلت ابنة المهرة، فأتى حارثة إلى زياد فقال: أطلق للغلام بكرته، فأبى وقال: قد عقلتها ووسمتها بميسم السلطان، فقام حارثة فحلّ عقالها فخرجت القلوص تعدو إلى ألافها، فجعل حارثة يقول:

يمنعها شيخ بخدّيه الشيبُ
ملمّع كما يلمّع الثوبُ
ماضٍ على الرّيب إذا كان الرّيبُ

فنهض زياد فصاح بأصحابه المسلمين ودعاهم إلى نصرة الله وكتابه، فانحازت طائفة من المسلمين إلى زياد، وجعل من ارتدّ ينحاز إلى حارثة، فجعل حارثة يقول:

أطعنا رسول اللّه ما دام بيننا
فيا قوم ما شأني وشأن أبي بكرِ
أيورثها بكرًا إذا مات بعده
فتلك لعمرو اللّه قاصمة الظهرِ

فكان زياد يقاتلهم نهارًا إلى الليل، وجاء عبد له فأخبره أن ملوكهم الأربعة، وهم: مخوس ومشرح وحمد وأبضعة وأختهم العمرّدة بنو معدي كرب بن وليعة في محجرهم قد ثملوا من الشراب، فكبسهم وأخذهم وذبحهم ذبحًا، وقال زياد:

نحن قتلنا الأملاك الأربعة
حمدًا ومخوسًا ومشرحًا وأبضعة

وسمّوا ملوكًا لأنه كان لكل واحد منهم واد يملكه، قال: وأقبل زياد بالسبي والأموال فمرّ على الأشعث بن قيس وقومه، فصرخ النساء والصبيان، فحمى الأشعث أنفًا وخرج في جماعة من قومه، فعرض لزياد ومن معه وأصيب ناس من المسلمين وانهزموا، فاجتمعت عظماء كندة على الأشعث فلما رأى ذلك زياد كتب إلى أبي بكر يستمدّه، فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أميّة، وكان واليًا على صنعاء، فأمره بإنجاده، فلقيا الأشعث ففضّا جموعه وقتلا منهم مقتلة كبيرة فلجؤوا إلى النُّجير حصن لهم فحصرهم المسلمون حتى أجهدوا، فطلب الأشعث الأمان لعدّة منهم معلومة هو أحدهم، فلقيه الجفشيش الكندي واسمه معدان بن الأسود بن معدي كرب، فأخذ بحقوه وقال: اجعلني من العدّة، فأدخله وأخرج نفسه ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر فقبضا عليه وبعثا به إلى أبي بكر رضي الله عنه أسيرًا في سنة ١٢، فجعل يكلّم أبا بكر وأبو بكر يقول له: فعلت وفعلت، فقال الأشعث: استبقني لحربك فوالله ما كفرت بعد إسلامي ولكني شححت على مالي فأطلقني وزوجني أختك أم فروة، فإني قد تبت مما صنعت ورجعت منه من منعي الصّدقة، فمنّ عليه أبو بكر رضي الله عنه، وزوّجه أخته أمّ فروة، ولما تزوجها دخل السوق فلم يمرّ به جزور إلا كشف عن عرقوبها وأعطى ثمنها وأطعم الناس وولدت له أمّ فروة محمدًا وإسحاق وقريبة وحبّانة، ولم يزل بالمدينة إلى أن سار إلى العراق غازيًا، ومات بالكوفة، وصلّى عليه الحسن بعد صلح معاوية. اهـ.

قال البلاذري: قالوا ولّى رسول الله ﷺ زياد بن لبيد البياضي من الأنصار حضرموت، ثم ضمّ إليه كندة. ويقال إن الذي ضم إليه كندة أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وكان زياد ابن لبيد رجلاً حازمًا صلبًا، فأخذ في الصدقة من بعض كندة قلوصًا، فسأل الكنديّ ردّها عليه

وأخذ غيرها. وكان قد وسمها بميسم الصدقة فأبى ذلك، وكلمه الأشعث بن قيس فيه لم يجبه، وقال: لست براد شيئًا قد وقع الميسم عليه. فانتفضت عليه كندة كلها إلا السّكون فإنهم كانوا معه، فقال شاعرهم:

ونحن نصرنا الدين إذ ضلّ قومنا
شقاء وشايعنا ابن أم زيادِ
ولم نبغ عن حقّ البياضيّ مزحلاً
وكان تقي الرحمٰن أفضلَ زادِ

وجمع له بنو عمرو بن معاوية بن الحارث الكندي، فبيّتهم فيمن معه من المسلمين فقتل منهم بشرًا فيهم مخوس ومشرح وحمد وأبضعة بنو معدي كرب بن وليعة بن شرحبيل ابن معاوية بن حجر القَرِد، والقَرِد الجواد في كلامهم، ابن الحارث بن الولادة بن عمرو ابن معاوية بن الحارث. وكان لهؤلاء الإخوة أودية يملكونها، فسمّوا الملوك الأربعة.
وكانوا قد وفدوا على النبي ﷺ ثم ارتدّوا، وقتلت أخت لهم يقال لها العمرّدة وقاتلها يحسبها رجلاً.
ثم إن زيادًا أقبل بالسبي والأموال فمرّ على الأشعث بن قيس وقومه، فصرخ النساء والصبيان وبكوا، فحمى الأشعث أنفًا وخرج في جماعة من قومه فعرض لزياد ومن معه، فأصيب ناس من المسلمين، ثم هزموهم. فاجتمعت عظماء كندة إلى الأشعث بن قيس. فلما رأى زياد ذلك كتب إلى أبي بكر يستمدّه، وكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أبي أمية يأمره بإنجاده. فلقيا الأشعث بن قيس فيمن معهما من المسلمين، ففضّا جمعه وأوقعا بأصحابه، فقتلا منهم مقتلة عظيمة. ثم إنهم لجؤوا إلى النُّجير، وهو حصن لهم، فحصرهم المسلمون حتى جهدوا. فطلب الأشعث الأمان لعدّة منهم وأخرج نفسه من العدّة، وذلك أن الجفشيش الكندي ـ واسمه معدان بن الأسود بن معدي كرب ـ أخذ بحقوه وقال: اجعلني من العدّة. فأدخله وأخرج نفسه، ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر فبعثا به إلى أبي بكر الصديق، فمنّ عليه وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة، فولدت له محمدًا وإسحاق وقريبة وحبابة وجعدة وبعضهم يقول زوجه أخته قريبة، ولما تزوجها أتى السوق فلم ير بها جزورًا إلا كشف عرقوبيها وأعطى ثمنها وأطعمها الناس. وأقام بالمدينة، ثم سار إلى الشام والعراق غازيًا، ومات بالكوفة وصلّى عليه الحسن بن علي ابن أبي طالب بعد صلحه مع معاوية. وكان الأشعث يكنّى أبا محمد ويلقّب عرف النار.

وقال بعض الرواة: ارتد بنو وليعة قبل وفاة النبي ﷺ، فلما بلغت زياد بن لبيد وفاته ﷺ دعا الناس إلى بيعة أبي بكر فبايعوه خلا بني وليعة، فبيتهم وقتلهم. وارتد الأشعث وتحصّن في النجير، فحاصره زياد بن لبيد والمهاجر، اجتمعا عليه وأمدّهما أبو بكر رضي الله عنه بعكرمة بن أبي جهل بعد انصرافه من عمان. فقدم عليهما وقد فتح النجير. فسأل أبو بكر المسلمين أن يشركوه في الغنيمة ففعلوا.

قلت: هذا موجز لوصف بلاد حضرموت وتاريخها القديم، أما تاريخها فيما بعد ذلك فإنه قد ألف فيه مؤلفات تتحدّث عن أطواره، وأما في هذا العهد فإنها بلد معروفة وشهرتها تغني عن الحديث عنها، ولا يتسع مقامنا هذا لاستقصاء الحديث عن تاريخها في أطواره المختلفة.

الحَفْياء: بفتح الحاء المهملة وسكون الفاء الموحدة، بعدها ياء مثناة وآخره ألف ممدودة: موضع قرب المدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأمدها ثنية الوداع وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها.

قال ابن حجر: الحفياء: بفتح المهملة وسكون الفاء بعدها ياء وآخره ألف ممدودة.

قال ياقوت: حفياء: بالفتح ثم السكون، وياء، وألف ممدودة: موضع قرب المدينة أجرى منه رسول الله ﷺ الخيل في السباق، قال الحازمي: ورواه غيره بالفتح والقصر. وقال البخاري: قال سفيان: بين الحفياء إلى الثنية خمسة أميال أو ستة، وقال ابن عقبة: ستة أو سبعة، وقد ضبطه بعضهم بالضم والقصر، وهو خطأ، كذا قال عياض.

وفي المغانم المطابة: قال المجد مثلما قال ياقوت ولم يزد عليه.

وقال المطري: وأما الحفياء فبالغابة من شامي المدينة، وأما العشيرة فنقب في الحفياء.

قال الهجري بعد ذكر مجتمع السيول بزغابة: ثم يفضي إلى سافلة المدينة وعين الصوّرين بالغابة، وبها الحفياء صدقة الحسن بن علي.

وقال ابن الأثير: وفي حديث السباق ذكر الحفياء، وهو بالمد والقصر: موضع بالمدينة على أميال. وبعضهم يقدّم الياء على الفاء.

وقال السمهودي: حفياء، بالفتح ثم السكون ثم مثناة تحتية وألف ممدودة: موضع قرب المدينة، منه أجريت الخيل المضمرة إلى ثنية الوداع، قال الحازمي، ورواه غيره بالقصر، وضبطه بعضهم بالضم والقصر، وأخطأ. ورواه بعضهم حيفاء بتقديم الياء على الفاء، قال البخاري: قال سفيان: من الحفياء إلى الثنية خمسة أميال أو ستة، وقال ابن عقبة: ستة أو سبعة، قال المجد: وهي على مقربة من البركة فيما يغلب على الظن.

وقال: هي شامي البركة مفيض العين لأن الهجري قال بعد ذكر مجتمع السيول بزغابة: ثم يفضي إلى سافلة المدينة وعين الصّورين بالغابة، وبها الحفياء صدقة الحسن بن زيد ابن علي، وعبارة الزبير: فينحدر إلى عين أبي زياد والصورين في أدنى الغابة، فالحفياء التي عبر عنها الهجري بالحيفاء بأدنى الغابة، ولهذا جاء في حديث السباق من الغابة إلى موضع كذا.

قلت: ومما تقدم من أقوال العلماء يتبين أن الحفياء واقعة في سافلة المدينة، في أدنى الغابة، غير أنها أصبحت غير معروفة بهذا الاسم في هذا الزمان وقد جهل موقعها بهذا الاسم منذ زمن قديم، فهي غير معروفة بهذا الاسم.

حمص: بحاء مهملة مكسورة وميم ساكنة وآخره صاد مهملة: مدينة في الشام.

روى البخاري بسنده عن عبادة بن الصامت، وهو نازل في ساحل حمص وهو في بناء له ومعه أم حرام قال عمير ـ أحد رجال السّند ـ فحدثتنا أم حرام أنها سمعت النبي ﷺ يقول: أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا قالت أم حرام: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم ثم قال النبي ﷺ: (أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم) فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا.

قال ابن حجر: مدينة قيصر: يعني القسطنطينية وجوز بعضهم أن المراد بمدينة قيصر المدينة التي كان بها يوم قال النبي ﷺ تلك المقالة، وهي حمص وكانت دار مملكته إذ ذاك. اهـ.

وقال ياقوت: حمص: بالكسر ثم السكون، والصاد مهملة: بلد مشهور قديم كبير مسوّر، وفي طرفه القبلي قلعة حصينة على تل عال كبيرة، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق، يذكّر ويؤنّث، بناه رجل يقال له حمص بن المهر بن جان بن مكنف، وقيل: حمص بن مكنف العمليقي. وأما فتحها فذكر أبو المنذر عن أبي مخنف أن أبا عبيدة ابن الجراح لما فرغ من دمشق قدّم أمامه خالد ابن الوليد وملحان بن زيار الطائي ثم تبعهما فلما توافوا بحمص قاتلهم أهلها ثم لجؤوا إلى المدينة وطلبوا الأمان والصلح، فصالحوه على مائة ألف وسبعين ألف دينار.

وقال الواقدي وغيره: بينما المسلمون على أبواب دمشق إذ أقبلت خيل للعدو كثيفة فخرج إليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لهيا والثنية فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا حتى وافوا حمص، وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم، فأعطوا ما بأيديهم وطلبوا الأمان، فأمنهم المسلمون فأخرجوا لهم النزل، فأقاموا على الأرنط، وهو النهر المسمى بالعاصي، وكان على المسلمين السّمط بن الأسود الكندي، فلما فرغ أبو عبيدة من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان، ثم قدم حمص على طريق بعلبك فنزل بباب الرستن، فصالحه أهل حمص على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنّا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم.

وقيل: بل السّمط صالحهم فلما قدم أبو عبيدة أمضى الصلح، وإن السّمط قسّم حمص خططًا بين المسلمين وسكنوها، في كل موضع جلا أهله أو ساحة متروكة. اهـ.

وتحدث ياقوت عن من قبر في حمص من الصحابة رضي الله عنهم ومن كان فيها من العلماء، وذكر أشياء من عجائب ما فيها وأطال الحديث عنها، وذكر أشياء لا يتسع مقامنا هذا لذكرها.

وقال البلاذري: حدثني عباس بن هشام عن أبيه، عن أبي مخنف أن أبا عبيدة بن الجراح لما فرغ من دمشق قدم أمامه خالد بن الوليد وملحان بن زياد الطائي ثم اتبعهما، فلما توافوا بحمص قاتلهم أهلها، ثم لجؤوا إلى المدينة وطلبوا الأمان والصلح، فصالحوه على مائة ألف وسبعين ألف دينار.

قال الواقدي وغيره: : بينا المسلمون على أبواب مدينة دمشق، إذ أقبلت خيل للعدو كثيفة، وخرجت إليهم جماعة من المسلمين بين بيت لهيا والثنية، فولّوا منهزمين نحو حمص، على طريق قارا. واتبوعهم حتى وافوا حمص، فألفوهم قد عدلوا عنها، ورآهم الحمصيون، وكانوا متخوفين لهرب هرقل عنهم وما كان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم، فأعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأمان، فأمنهم المسلمون وكفّوا أيديهم عنهم. فأخرجوا إليهم العلف والطعام وأقاموا على الأرنط ـ يريد الأرند، وهو النهر الذي يأتي أنطاكية ثم يصب في البحر بساحلها ـ وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي، فلما فرغ أبو عبيدة من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان، ثم قدم حمص على طريق بعلبك، فنزل بباب الرستن، فصالحه أهل حمص على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد، واشترط الخراج على من أقام منهم.

وذكر بعض الرواة، أن السّمط بن الأسود الكندي كان صالح أهل حمص فلما قدم أبو عبيدة أمضى صلحه، وأن السّمط قسّم حمص خططًا بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة.

وحدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد ابن عبد العزيز قال: لما فتح أبو عبيدة بن الجراح دمشق استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق وعمرو بن العاص على فلسطين وشرحبيل على الأردن. وأتى حمص فصالح أهلها على نحو صلح بعلبك، ثم خلف بحمص عبادة ابن الصامت الأنصاري ومضى نحو حماة، فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية في رؤوسهم والخراج في أرضهم فمضى إلى شيرز فخرجوا يكفّرون ومعهم المقلّسون ورضوا بمثل ما رضي به أهل حماة. وبلغت خيله الزراعة والقسطل، ومر أبو عبيدة بمعرّة حمص، وهي التي تنسب إلى النعمان بن بشير فخرجوا يقلسون بين يديه ثم أتى فامية ففعل أهلها مثل ذلك، وأذعنوا بالجزية والخراج، واستتم أمر حمص، فكانت حمص وقنسرين شيئًا واحدًا. اهـ.

وفي الروض المعطار قال الحميري: حمص: مدينة بالشام من أوسع مدنها، ولا يجوز فيها الصرف كما يجوز في هند، لأنه اسم أعجمي، سميت برجل من العمالق يسمى حمص، ويقال رجل من عاملة، هو أول من نزلها، ولها نهر عظيم يشرب منه أهلها.

وهي مدينة حسنة في مستوٍ من الأرض وهي عامرة بالناس، والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع من كل فن وأسواقها قائمة وخصبهم تام ومعايشهم رقيقة، وفي نسائهم جمال وحسن بشرة، وشرب أهلها من ماء يأتيهم في قناة على مرحلة منها مما يلي دمشق والنهر المسمّى المقلوب يجري على أبوابها بمقدار رمية سهم، ولهم عليه قرى متصلة وبساتين وأشجار وأنهار كبيرة، ومنها تجلب الفواكه إلى المدينة، وثراها طيب للزراعات وهواؤها أعدل هواء يكون بمدن الشام... وجميع أزقتها وطرقها مفروشة بالحجر الصلْد، وزراعتها مباركة كثيرة، وهي تكتفي باليسير من المطر أو السقي، وبها مسجد جامع كبير من أكبر جوامع الشام، ومنها إلى حلب خمس مراحل...

وافتتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحًا سنة أربع عشرة في خلافة عمر رضي الله عنه. وقال عبد الله ابن قريط: عسكر أبو عبيدة ونحن حول حمص نحوًا من ثمان عشرة ليلة وبث عماله في نواحي أرضها واطمأن في عسكره.

وبحمص مات خالد بن الوليد رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين، وقيل بل مات في المدينة وصلّى عليه عمر رضي الله عنه. اهـ.

وذكر في مسيرة فتحها نحوًا مما ذكره ياقوت والبلاذري.

قلت: هذا خلاصة مما ذكره المؤرخون عن مدينة حمص في ماضيها، أما في هذا العهد فإنها ما زالت مدينة عامرة مشهورة في سوريا واقعة بين مدينتي دمشق وحلب موضحة على خريطة سوريا يلتقي فيها كثير من الطرق المسفلتة التي تربط بينها وبين كثير من المدن السورية العامرة.

حنين: بحاء مهملة مضمومة ونون موحدة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره نون موحدة: موضع بين مكة والطائف.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [سورة التوبة، الآية: ٢٥].

وروى البخاري بسنده، عن إسماعيل قال: رأيت بيد ابن أبي أوفى ضربة قال: ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين.

وقال ابن حجر: حنين بمهملة ونون مصغّر: واد إلى جنب ذي المجاز قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات، قال أبو عبيد البكري: سمّي باسم حنين ابن قانية بن مهلائيل.

وقال ابن حجر: يقول ﷻ ذكره: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها المؤمنون في أماكن حرب توطّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، يقول: وفي يوم حنين أيضًا قد نصركم.

(حنين) واد فيما ذكر بين مكة والطائف، وأجري لأنه مذكر اسم لمذكّر. وقد يترك إجراؤه، ويراد به أن يجعل اسمًا للبلدة التي هو بها، ومنه قول الشاعر:

نصروا نبيهم وشدّوا أزره
بحنينَ يوم تواكل الأبطالُ

وروىٰ بسنده عن عروة قال: (حنين) واد إلى جنب ذي المجاز.

وروي بسنده عن قتادة بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، قال: حنين ما بين مكة والطائف، قاتل عليها نبي الله هوازن وثقيفًا، قال: وذكر لنا أنه خرج يومئذ مع رسول الله ﷺ اثنا عشر ألفًا: عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطلقاء، وذكر لنا أن رجلاً قال يومئذ: لن نغلب اليوم بكثرة.

وقال القرطبي: نهض رسول الله ﷺ حتى أتى وادي حنين وهو من أودية تهامة، وكانت هوازن قد كمنت في جنبتي الوادي وذلك في غبش الصبح، فحملت على المسلمين حملة رجل واحد فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو أحد على أحد.

وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته عليّ والعباس وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد ـ وهو أيمن ابن أم أيمن قتل يومئذ بحنين ـ وربيعة ابن الحارث والفضل بن عباس وقيل في موضع جعفر بن أبي سفيان: قثم بن العباس فهؤلاء عشرة رجال، ولهذا قال العباس:

نصرنا رسول اللّه في الحرب تسعة
وقد فرّ من قد فرّ عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقىٰ الحمام بنفسه
بما مسّه في اللّه ألا يتوجّعُ

وثبتت أم سليم في جملة من ثبت، محتزمة ممسكة بعيرًا لأبي طلحة وفي يدها خنجر. ولم ينهزم رسول الله ﷺ ولا أحد من هؤلاء.

قال ياقوت: حنين: يجوز أن يكون تصغير الحنان، وهو الرحمة تصغير ترخيم، ويجوز أن يكون تصغير الحنّ، وهو حيّ من الجن، وقال السهيلي: سمّي بحنين بن قانية ابن مهلائيل، قال: وهو حيّ من الجن، وقال السهيلي: سمّي بحنين بن قانية بن مهلائيل، قال: وأظنّه من العماليق، حكي عن أبي عبيد البكري، وهو اليوم الذي ذكره عزّ وجلّ في كتابه الكريم، وهو قريب من مكة، وقيل: هو واد قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز، وقال الواقدي: بينه وبين مكة ثلاث ليال، وقيل: بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً، وهو يذكر ويؤنّث، فإن قصدت به البلد ذكرّته وصرّفته كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، وإن قصدت به البلدة والبقعة أنثته ولم تصرفه كقول الشاعر:

نصروا نبيّهم وشدّوا أزره
بحنينَ يوم تواكل الأبطالُ

وقال خديج بن العوجاء النصري:

ولمّا دنونا من حنين ومائه
رأينا سوادًا منكر اللون أخصفا
بملمومة عمياء لو قذفوا بها
شماريخ من عروى إذا عاد صفصفا
ولو أن قومي طاوعتني سراتهم
إذا ما لقينا العارض المتكشفا
إذا ما لقينا جند آل محمد
ثمانين ألفًا واستمدوا بخندفا

كأنه تصغير حنّ عليه إذا أشفق، وهي لغة في (أحنى): موضع عند مكة. اهـ.

وقال البكري: حنين: وادٍ قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً، والأغلب عليه التذكير لأنه اسم ماء. قال عباس بن مرداس:

لدن غدوة حتى تركنا عشية
حنينًا وقد سالت دوافعه دما

وربما أنثته العرب، لأنه اسم للبقعة قال حسّان:

نصروا نبيهم وشدّوا أزره
بحنينَ يوم تواكل الأبطالُ

وهو الموضع الذي هزم فيه رسول الله ﷺ هوازن، وقيل: إنه سمّي بحنين بن قانية ابن مهلائيل. اهـ.

قلت: وفيما تقدم من أقوال العلماء ترى اختلافًا بين هذه الأقوال، في تحديد موقع حنين، وفي تحديد المسافة بينه وبين مكة، وكذلك في المسافة بينه وبين الطائف، وأقرب الأقوال إلى الصواب في تحديد البعد بينه وبين مكة قول بعضهم: بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. أما قول بعضهم هو واد قبل الطائف فإنه قول غير صائب، والواقع أنه قريب من مكة ـ كما قال ذلك بعضهم.

وقال الهمداني: قال أحمد بن عيسى الرّداعي في أرجوزته وهي أرجوزة رسم بها طريق الحج من اليمن إلى مكة:

لضيعة الطليحي مستقيمَة
صادرة عنها تؤم الزيمَة
ثم على سبوحة القديمَة
حيث بريد الصّخرة المقيمَة
مطنبة في السير ذي العزيمَة
إلى أريكٍ تعتلي صميمَه
حميدة في الركّب لا مليمَة
باقية أعراقها كريمَة
إني لأرجو أن ترى سليمَة
محمودة في الركّب لا ذميمَة

ضيعة الطليحي من قريش نخل قديمات، الزيمة في بستان عبد الله بن عبيد الله الهاشمي، وسبوحة موضع، وأريك عقبة تضاف إلى مكان فيقال عقبة أريك بضم الألف.

ثم انتحت وخدا على انكماش
بئر الجذاميّ باحتياشِ
إلى حنين المنهل الجياش
حتى إذا أفضت إلى المشاشِ
حيث بريد الصّخر لا تحاشي
عجّت بتحنان لشوق غاشي

آبار الجذامي بئر معمورة، والجذامي من أهل مكة. وحنين هو الذي كانت به وقعة حنين بين النبي ﷺ وبين هوازن، والمشاش موضع يلتقي فيه محجّة اليمن ونجد ومحجّة العراق والبحرين.

قلت: هكذا رسم الرّداعي الطريق وحدد موقع حنين، وسار على هذا الترتيب: الزيمة، سبوحة، بئر الجذامي، حنين، وذكر أن حنينًا منهل جيّاش، أي يجيش بالمياه الكثيرة.

قال محمد بن بليهد: وادي الشرائع: واسم الشرائع حديث، وزعم بعض المعاصرين أنها حنين المشهورة في التاريخ الإسلامي والتي ذكرها الله ﷻ بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٢٥] وأن تلك العيون هي عيون حنين، وأنا أقول: إن وادي حنين ليس فيه عيون، ولو كان فيه شيء من ذلك لما أغفله أصحاب السّير، والصحيح أن حنينًا هو الوادي الذي يحاذي الشرائع على يمين الذاهب من مكة إلى الطائف يبعد عن الشرائع إلى جنوبيه بمسافة ثلاثة آلاف متر، نذكر هذا التحديد مستندين إلى قول صحيح ذكره ابن هشام في سيرته عند ذكر معركة حنين، قال بن هشام: ولما نزل المشركون بأوطاس قال دريد بن الصمّة، وكان مع هوازن، وهو شيخ كبير: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: انزلوا، نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس (فكانت المعركة فيه، وهو باق بهذا الاسم إلى الآن، وامتدت المعركة إلى قرب أميال الحرم، ثم انهزمت هوازن وامتدت المعركة إلى ما يقارب الزّيمة) قوله: فكانت المعركة فيه وما بعده من قوله هو، لا من حديث ابن هشام.

وأهل السّير قالوا في ذكر منزلهم: فنزلوا الشعب من حنين، ونأخذ من ذلك أنّهم نزلوا في واد وتبين لنا من قصة دريد أن ذلك الوادي هو أوطاس، وليس ببعيد أن الشعب يقال له أوطاس، والوادي يقال له حنين، لأن في شعب أوطاس آثار آبار باقية(١).

قلت: ومما يلاحظ في هذا النص أنه نفىٰ أن يكون في حنين عيون، زعما منه أنه لو كان في حنين عيون لما أغفلها أصحاب السير، وهذا بالنسبة لعلمه.

ثانيًا: قال والصحيح أن حنينًا هو الوادي الذي يحاذي الشرائع على يمين الذاهب من مكة إلى الطائف ولم يذكر اسم هذا الوادي.

ثالثًا: ذكر منزل هوازن في وادي أوطاس ولم يذكر منزل النبي ﷺ وأصحابه.

رابعًا: قال وتبيّن لنا من قصة دريد أن ذلك الوادي هو أوطاس، وليس ببعيد أن الشعب يقال له أوطاس والوادي يقال له حنين، لأن في شعب أوطاس آثار آبار قديمة.

قلت: أما نفيه وجود عيون في حنين فهو مردود بالأخبار الصحيحة. قال الفاكهي: وهو يذكر أعمال زبيدة الخيرية في مكة: وأجرت فيها عيونًا من الحل منها: عين مشاش، واتخذت لها بركًا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها، ثم أجرت لها عيونًا من حنين، واشترت حائط حنين، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سدًا تجتمع فيه السيول، فأهل مكة يشربون من مائها إلى يومنا هذا.

وقال الأزرقي في حديثه عن أعمال زبيدة: وأجرت فيها ـ أي في مكة ـ عيونًا من الحل، منها عين من المشاش، واتخذت لها بركًا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها، ثم أجرت لها عيونًا من حنين، واشترت حائط حنين، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سدًا يجتمع فيه السيل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد قبلها.

وفي أرجوزة الرداعي قال:

ثم انتحت وخدًا على انكماشِ
بئر الجذاميّ باحتياشِ

---

(١) صحيح الأخبار ٢/ ١٤٢، ١٤٣.

إلـى حـنـيـن الـمـنـهـل الـجـيّـاشِ
حـتـى إذا أفـضـت إلـى الـمـشـاشِ

وبهذا أوضح الرّداعي أن حنينًا منهل جيّاش، أي مورد ماء يجيش بالمياه الكثير.

أما قوله: والصحيح أن حنينًا هو الوادي الذي يحاذي الشرائع على يمين الذاهب من مكة فهو قول لا يستند إلى دليل.

وفي الثالث والرابع نسب المعركة إلى أوطاس بينما المشهور في القرآن وفي السّير أنها في حنين ويلاحظ أنه في آخر حديثه جعل أوطاسًا وحنينًا موضعًا واحدًا والمشهور أنهما واديان يسمى كل واحد منهما باسم يعرف به.

وقال في موضع آخر: بعد أن أورد ما ذكر ياقوت في تحديده: حنين موضع قد أعيانا الوقوف على حقيقته، ومن كتّاب هذا العصر من قال: عن عين الشرائع: إنها هي عين حنين، وهذا قريب من الصواب فإن لم تكن عين حنين فهي قريبة منها في الوادي الذي يقع عن الشرائع جنوبًا لأنه قريب من ذي المجاز الذي ذكر في آخر رواية السهيلي[(١)].

قلت: وفي هذا النص اختلاف عما ذكر في النص السابق ورد على قوله بالنسبة لعيون حنين وموقعه.

وقال حمد العبيدي في استدراكاته على أحد أجزاء مجلة العرب: يظن كثير من الكتاب أن عين زبيدة التي أوردتها إلى مكة المكرمة، هي التي توجد منابعها جنوب شداد، والصواب أنها عين حنين التي تقع في أسفل الشرائع وتعرف اليوم بعين سمحاء، وقد بعثها قبل سنين الشيخ حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية سابقًا وأجرى ماءها إلى مزرعة أقامها هناك[(٢)].

فنخلة اليمانية فقرن المنازل وبعد ذلك الطائف، وليس حنين قبلَ وج، فحنين يقع على مقربة من مكة في تهامة، وموضعه يعرف الآن باسم الشرائع، قرية عظيمة، وفي شرقيها يقع وادي يدعان الذي حصلت فيه معركة حنين، وبه نزل الرسول ﷺ، ويعرف الآن باسم جدعان، بالجيم[(٣)].

وقال حمد الجاسر تعقيبًا على أحد الكتّاب: أوطاس وحنين موضعان بينهما عشرات الأميال، أحدهما في تهامة والثاني شرق جبال الحجاز خارجًا عنها. حنين هو أعلى وادي الشرائع واسمه يدعان معروف الآن ولكن أهل تلك الجهة يبدلون الياء جيمًا فيقولون: (جدعان) قال نصر الإسكندريّ في كتابه ـ الذي لا يزال مخطوطًا ـ: يدعان واد به مسجد للنبي ﷺ، وبه عسكرت هوازن يوم حنين، في وادي نخلة.

ـ ونقل هذا ياقوت، ولم يذكر مصدره. والقول: إنه في وادي نخلة فيه تجوّز، فهو بقرب وادي نخلة اليمانية يقع جنوبها، وليس فيها.

أما أوطاس فأقرب المواضع المسكونة منه عشيرة، التي كانت منهلاً من مناهل طريق الحجاز من نجد، فأصبحت الآن قرية...

وقال بجير بن زهير بن أبي سلمى:

كـانـت عـلالـة يـوم بـطـن حـنـيـن
وغـــداة أوطـــاس ويـــوم الأبـــرقِ

---

(١) صحيح الأخبار ٣/ ١٢٧.
(٢) مجلة العرب ٥/ ٣٠٢.
(٣) السابق ٦/ ٣٩١.

في كتب المغازي: واد من أودية تهامة أجوف، حطوط، ينحدر فيه انحدارًا ـ فوقعت الهزيمة على المسلمين أول الأمر، ثم ثبتوا وانتصروا حتى هزموا أعداءهم فمنهم من هرب نحو الطائف ومنهم من فرّ إلى أوطاس وتوجّه بعضهم إلى نخلة. وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قبل أوطاس بعثًا من المسلمين هزم من تجمع هناك من الأعداء[1].

وقال حمد الجاسر معقبًا على بعض ما قاله أحد الكتاب: حنين واد قريب من مكة إلى جانب ذي المجاز وهو واد يعرف الآن باسم (الشرائع) وأعلاه (يدعان) يبدّل العامة الياء جيمًا فيقولون: (جدعان) وليس بجانب ذي المجاز الواقع بقرب عرفات، ولكن سيله يفضي إليه، والمسافة بينهما قصيرة[2].

وقال حمد الجاسر: ومن أشهر المواضع الأثرية قرب مكة: وادي حنين (يدعان) أعلى وادي الشرائع، الذي حدثت فيه الواقعة المذكورة في القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [سورة التوبة، الآية: ٢٥] الآية وتحسن الإشارة إلى التفريق بين موضعي حنين وأوطاس، حيث وقع من بعض المؤرخين ما يفهم منه اعتبارهما موضعًا واحدًا، مع تغايرهما، فأوطاس يقع شرق سلسلة جبال الحجاز، أقرب المواضع المأهولة منه عشيرة، يقع غرب وادي العقيق، على مقربة من البركة شمالها بميل نحو الغرب[3].

وقال عاتق البلادي ـ بعد أن ذكر ما قاله ياقوت والبكري في تحديد حنين ـ: حنين يعرف اليوم بالشرائع، وهو على طريق مكة من نخلة اليمانية: واد يسيل من جبال طاد والتنضب، ثم ينحدر غربًا مارًا بين جبلي لبن وكنثيل، يسمى رأسه الصّدر وأسفله الشرائع، ثم يدفع في أعلى عرنه قرب ذي المجاز شمالاً، ومن روافده وادي يدعان، يبعد حنين عن مكة (٢٦) كيلاً شرقًا، وعن حدود الحرم (١١) كيلاً، عن علمي طريق نجد، سكانه هذيل والأشراف.

قلت: ومما تقدم من أقوال العلماء في تحديد موقع حنين ووصفه الجغرافي يترجّح أن حنينًا هو الوادي الذي يسمّى في هذا العهد الشرائع، وقد صرّح بذلك بعضهم على ضوء دراستهم لهذا الموقع ومشاهدتهم له.

وتحدث ابن إسحاق عن غزوة حنين فقال: ولما سمعت هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نصر وجشم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب وكلاب، ولم يشهدها منهم أحد له اسم وفي بني جشم دريد بن الصمّة شيخ كبير، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخًا مجرّبًا، وفي ثقيف سيّدان لهم، وفي الأحلاف قارب بن الأسود بن مسعود ابن معتّب، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع ابن الحارث بن مالك، وأخوه أحمر ابن

(١) السابق ١٦/ ٢٢٧، ٢٢٨.
(٢) السابق ١٦/ ٨٢٧.
(٣) مجلة العرب ١٧/ ١٦٧.

الحارث، وجماع أمر الناس إلى مالك ابن عوف النضري.

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصّمة في شجار له يقاد به، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء، قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودعي له، فقال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء؟ قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال: ولم ذلك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، قال: فانقض به، ثم قال: راعي ضأن والله، وهل يردّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد، قال: غاب الحد والجد، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو ابن عامر وعوف بن عامر، قال: ذانك الجذعان من عامر، لا ينفعان ولا يضران، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعليا قومهم، ثم ألق الصبّاء على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك. قال: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر عقلك. والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وكره أن يكون لدريد بن الصمّة فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك فقال دريد بن الصمّة: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني:

يا ليتني فيها جذع
أخبّ فيها وأضع
أقود وطفاء الزّمع
كأنها شاة صدع

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا له وسلاحًا، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك، فقال: يا أبا أميّة، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدوّنا غدًا، فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: بل عاريّة ومضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل.

قال: ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشر ألفًا، واستعمل رسول الله ﷺ عتّاب ابن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس على مكة، أميرًا على من تخلّف عنه من الناس، ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن.

وروى ابن إسحاق بسنده عن جابر بن عبد الله قال: لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحدارًا، قال: وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في

شعابه وأحنائه ومواثقه وقد أجمعوا وتهيؤوا وأعدّوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلمّوا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ، نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

قال ابن إسحاق: فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته، وصرخ جبلة بن الحنبل، وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدّة التي جعل له رسول الله ﷺ: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش أحبّ من أن يربني رجل من هوازن.

قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض أهل مكة، أن رسول الله ﷺ قال: حين فصل من مكة إلى حنين، ورأى كثرة من معه من جنود الله: لن نغلب من قلّة.

قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها.

وروى ابن إسحاق بسنده عن العباس ابن عبد المطلب، قال: إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، قال: وكنت امرءًا جسيمًا شديد الصوت، قال رسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباس، اصرخ يا معشر الأنصار: يا معشر أصحاب السّمرة، قال: فأجابوا: لبيك، لبيّك، قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، فيؤمّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوى أول ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت أخيرًا: يا للخزرج وكانوا صبرًا عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس.

قال: واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فلما انهزمت هوازن استحر القتل من ثقيف في بني مالك، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم، فيهم عثمان ابن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب، وكانت رايتهم مع ذي الخمار، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال: أبعده الله فإنه كان يبغض قريشًا.

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجّه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجّه نحو نخلة إلا بنو غبرة من ثقيف. وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا.

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجّه قبل أوطاس أبا عمر الأشعري، فأدرك من الناس بعض من انهزم، فناوشوه

القتال فَرُمي أبو عمر بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ـ وهو ابن عمه ـ فقاتلهم، ففتح الله على يديه وهزمهم.

قال ابن إسحاق: ثم جمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغفاريّ وأمر رسول الله بالسّبايا والأموال إلى الجعرانة فحبست بها.

قال ابن إسحاق: خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس، ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة، وكان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الذراريّ والنساء، ومن الإبل والشّاء ما لا يُدْرَى ما عدّته.

قال ابن إسحاق فيما رواه بسنده عن عبد الله ابن عمرو: أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنّا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا منّ الله عليك قال: وقام رجل من هوازن، ثم أحد بني سعد بن بكر، يقال له زهير، يكنى أبا صرد، فقال يا رسول الله: إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبّ إلينا، فقال لهم: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صلّيت الظهر بالناس، فقوموا فقولوا: إنّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم». فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلّموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال عباس ابن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

قال: يقول عباس بن مرداس لبني سليم: وهّنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسّك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض، من أول سبي أصيبه، فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره ابن هشام من خبر غزوة حنين موجزًا ومجرّدًا من الأخبار الجانبية والأشعار التي قيلت في هذه الغزوة وتخصيص المؤلفة قلوبهم بالعطاء الكثير من غنائم حنين.

حنين أيضًا: بالمهملة والياء بين نونين: خليج صغير تدخل فيه السفن الصغيرة شمال رابغ، بين الخرّار ومستورة، يجاوره من الجنوب الرأس الأبيض، وفيه الزبائر وقد يكون حنين هذا مأوى لبعض المهرّبين.

ورأس حنين: رأس بطرف ذلك الخليج. قاله عاتق البلادي.

الحيرة: بحاء مهملة مكسورة وياء مثناة ساكنة ثم راء مهملة مفتوحة وآخره هاء: مدينة في شمال العراق.

روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك

حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله. الحديث.

قال ياقوت: الحيرة، بالكسر ثم السكون، وراء: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له النّجم، وبالحيرة الخورنق بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل، والسدير في وسط البرية التي بينها وبين الشام، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية، من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه، والنسبة إليها حاريّ على غير قياس، قال عمرو بن معدي كرب:

كأن الإثمد الحاريَّ منها
يسفّ بحيث تبتدر الدموعُ

وحيريّ أيضًا على القياس، كل قد جاء عنهم، ويقال لها: الحيرة الرّوحاء قال عاصم ابن عمرو:

صبحنا الحيرة الرّوحاء خيلاً
ورجلاً فوق أثباج الرّكابِ
حضرنا في نواحيها قصورًا
مشرفة كأضراس الكلابِ

وأما وصفهم إياها بالبياض فإنما أرادوا حسن العمارة، وقيل: سميت الحيرة لأن تبّعًا الأكبر لما قصد خراسان خلّف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم: حيّروا به أي أقيموا به.

وقال الزجاجي: كان أول من نزل بها مالك ابن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله ابن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن لحاف بن قضاعة، فلما نزلها جعلها حيرًا وأقطعه قومه فسميت الحيرة بذلك.

وفي بعض أخبار أهل السير: سار أردشير إلى الأردوان ملك النبط، وقد اختلفوا عليه وشاغبه ملك من ملوك النبط يقال له بابا، فاستعان كل واحد منهما بمن يليه من العرب ليقاتل بهم الآخر، فبنى الأردوان حيرًا فأنزله من أعانه من العرب فسمى ذلك الحير الحيرة، وأنزل بابا من أعانه من الأعراب الأنبار وخندق عليهم خندقًا، وكان بختنصر نادى العرب قد جمع من كان في بلاده من العرب بها فسمتها النبط أنبار العرب، كما تسمّى أنبار الطعام، إذا جمع إليه الطعام.

وفي كتاب أحمد بن محمد الهمذاني: إنما سمّيت الحيرة لأن تبّعًا لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحيّر فسميت الحيرة.

وقال أبو المنذر هشام بن محمد: كان بدء نزول العرب أرض العراق وثبوّتهم بها، واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلاً أن الله ﷻ أوحى إلى يوحنّا بن ختيار بن زر بابل ابن شليشل من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر فمره أن يغزوا العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب، وأن يطأ بلادهم بالجنود، فيقتل مقاتلهم، ويستبيح أموالهم، وأعلمهم كفرهم بي، واتخاذهم آلهة دوني، وتكذيبهم أنبيائي ورسلي، فأقبل يوحنّا من نجران حتى قدم علىٰ بختنّصر، وهو ببابل فأخبره بما أوحي إليه، وذلك في زمن معد ابن عدنان، قال: فوثب بختنصر على من كان في بلاده من تجار العرب فجمع من ظفر به منهم، وبنى لهم حيرًا على النجف وحصّنه، ثم جعلهم فيه، ووكّل بهم حرسًا وحفظه، ثم نادى في الناس بالغزو فتأهبوا لذلك، وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب.

فخرجت إليهم طوائف منهم مسالمين مستأمنين، فاستشار فيهم بختنصر يوحنّا فقال: خروجهم إليك من بلدهم قبل نهوضهم إليك رجوع منهم عما كانوا عليه، فاقبل منهم وأحسن إليهم، فأنزل السّواد على شاطئ

الفرات، فابتنوا موضع عسكرهم وسمّوه الأنبار، وخلّى عن أهل الحيرة، فابتنوا في موضعه وسمّوها الحيرة، لأنه كان حيرًا مبنيًا، وما زالوا كذلك مدّة حياة بختنصر، فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار، وبقي الحيراء خرابًا زمانًا طويلاً، لا يطلع عليه طالعة من بلاد العرب، وأهل الأنبار ومن انضم إليهم من أهل الحيرة من قبائل العرب بمكانهم. . .

وصار في الحيرة من جميع القبائل: من مذحج، وحمير، وطيء، وكلب، وتميم، ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة إلى طف الفرات وغربيه، إلا أنهم كانوا بادية يسكنون المضال وخيام الشعر، ولا ينزلون بيوت المدر، وكانت منازلهم فيما بين الأنبار والحيرة، فكانوا يسمّون عرب الضاحية فكان أول من ملك منهم في زمن ملوك الطوائف مالك بن فهم أبو جذيمة الأبرش، وكان منزله مما يلي الأنبار، ثم مات فملك ابن جذيمة الأبرش بن مالك بن فهم، وكان جذيمة من أفضل ملوك العرب.

قلت: هذا بعض ما ذكره ياقوت عن الحيرة ـ اشتقاق اسمها ونشأتها وسكانها ـ وقد أطال في حديثه عن هذه المدينة.

وفي الروض المعطار قال الحميري: الحيرة مدينة صغيرة جاهلية حسنة البناء طيبة الثرى، وكانت فيما سلف أكبر من نظرها بعد ذلك لأن أكثر أهلها انتقلوا إلى الكوفة.

وبالحيرة منازل بني بقيلة وغيرهم، وبها كانت منازل بني نصر ولخم، وهم آل النعمان ابن المنذر وأول من ترك الحيرة عمرو بن عدي ابن نصر واتخذها دار مملكته، وعامة أهل الحيرة نصارى، وفيهم من قبائل العرب على دين النصرانية من بني تميم آل عدي بني زيد العبّادي الشاعر، ومن سليم وطيء وغيرهم. . . والحيرة أرض باردة في الشتاء، وهي في الصيف مفرطة الحر. . . ولم يزل عمران الحيرة يتناقص مذ بنيت الكوفة إلى أيام المعتضد، فإنه استولى عليها الخراب. . . وكان فيها ديارات كثيرة ورهبان لحقوا بغيرها من البلاد لاستيلاء الخراب عليها.

ونزلها جماعة من خلفاء بني العباس لطيب هوائها، وصفاء جوها، وقرب الخورنق والنجف منها، وكانت مدة الحيرة من أول وقت عمارتها إلى أول خرابها عند بناء الكوفة خمسمائة سنة وبضعًا وثلاثين سنة. اهـ.

وتحدث المسعودي عن الحيرة وعن ملوكها فقال: وكان عدّة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكًا من بني نصر وغيرهم من العرب والفرس، وكان مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر، وقد قيل: إن عمران الحيرة وبدوّه إلى أن خربت في وقت بناء الكوفة، كان خمسمائة سنة وبضعًا وثلاثين سنة.

ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرنا إلى صدر من أيام المعتضد، فإنه استولى عليها الخراب، وقد كان جماعة من خلفاء بني العباس ـ كالسفاح، والمنصور، والرشيد، وغيرهم ـ ينزلونها ويطيلون المقام بها لطيب هوائها، وصحة تربتها وصلابتها، وقرب الخورنق والنجف منها، وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان، فلحقوا بغيرها من البلاد، لتداعي الخراب إليها، وأقفرت من كل أنيس في هذا الوقت ليس بها إلا الصّدى والبوم.

وقال البلاذري: سار خالد ـ يعني خالد ابن الوليد ـ قاصدًا إلى الحيرة، فخرج إليه عبد المسيح بن عمر بن قيس بن حيان ابن بقيلة، واسم بقيلة الحارث وهو من الأزد،

وهانئ بن قبيصة بن مسعود الشيباني، وإياس بن قبيصة الطائي، ويقال فروة ابن إياس، وكان إياس عامل كسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر، فصالحوه على مائة ألف درهم. ويقال على ثمانين ألف درهم في كل عام، وعلى أن يكونوا عيونًا للمسلمين على أهل فارس، وألا يهدم لهم بيعة ولا قصرًا.

وروى أبو مخنف، عن أبي المثنى الوليد ابن القطامي، وهو الشرقيّ بن القطامي الكلبي، وأن عبد المسيح استقبل خالدًا، وكان كبير السن، فقال له خالد: من أين أقصى أثرك يا شيخ؟ فقال: من ظهر أبي. قال: فمن أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: ويحك في أي شيء أنت؟ قال: في ثيابي. قال: ويحك على أي شيء أنت؟ قال: أتعقل؟ قال: نعم، وأقيد. قال: ويحك، إنما أكلمك بكلام الناس. قال: وأنا إنما أجيبك جواب الناس. قال: أسلم أنت أم حرب قال: بل سلم. قال: فما هذه الحصون؟ قال: بنيناها للسفيه حتى يجيء الحليم. ثم تذاكرا الصلح فاصطلحا على مائة ألف يؤدونها في كل سنة فكان الذي أخذ منهم أول مال حُمل إلى المدينة من العراق، واشترط عليهم ألا يبغوا المسلمين غائلة وأن يكونوا عونًا على أهل فارس، وذلك في سنة ١٢.

قلت: هذا موجز لما ذكره المؤرخون من تاريخ الحيرة قبل الإسلام وبعده إلى أن دب فيها الخراب وتفرق سكانها منذ عمرت مدينة الكوفة.

باب الخاء

خراسان: بخاء معجمة مضمومة وراء مهملة بعدها ألف ثم سين مهملة بعدها ألف، وآخره نون موحدة: بلاد واسعة تقع في الجنوب الشرقي من دولة إيران.

وروى البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من السنّة ألا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج وكره عثمان ﷺ أن يحرم من خراسان وكرمان.

قال القزويني: خراسان بلاد مشهورة، شرقيها ما وراء النهر، وغربيها قهستان. قصبتها مرو وهراة وبلخ ونيسابور. وهي من أحسن أرض الله وأعمرها وأكثرها خيرًا وأهلها أحسن الناس صورة وأكملهم عقلاً وأقومهم طبعًا، وأكثرهم رغبة في الدين والعلم.

بها نهر الرزيق بمرو، عليه سقي بساتينهم وزروعهم وعليه طواحينهم. قتل فيه يزدجرد ابن شهريار آخر ملوك الأكاسرة في زمن عمر بن الخطاب. اهـ.

وقال ياقوت: خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أزاذورا قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها، إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها ويعدّ ما رواء النهر منها وليس الأمر كذلك، وقد فُتِحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحًا.

وقال البلاذري: خراسان أربعة أرباع، فالربع الأول إيران شهر وهي نيسابور وقهستان والطبسان وهراة ويوشنج وباذغيس وطوس واسمها طابران، والربع الثاني: مرو الشاهاجان وسرخس ونسا وأبيورد ومرو والروذ والطالقان وخوارزم وآمل وهما على نهر جيحون.

والربع الثالث: وهو غربي النهر وبينه وبين النهر ثمانية فراسخ، ألفا رياب والجوزجان وطخارستان العليا وخست وأندرابه والباميان وبغلان ووالج، وهي مدينة مزاحم بن بسطام، ورستاق بيل وبذخشان، وهو مدخل الناس إلى تبت، ومن أندرابه مدخل الناس إلى كابل، والترمذي، وهو في شرق بلخ، والصّاغنيان وطخارستان السفلى وخلم وسمنجان.

والربع الرابع: ما وراء النهر، بخارىٰ والشاش والطرار بند والصّغد وهوكسّ، ونسف والرّوبستان وأشروسنه وسنام قلعة المقنّع، وفرغانة وسمرقند.

قال ياقوت: فالصخيح في تحديد خراسان ما ذهبنا إليه أولاً، وإنما ذكر البلاذري هذا لأن جميع ما ذكره من البلاد كان مضمومًا إلى والي خراسان، وكان اسم خراسان يجمعها،

فأما ما وراء النهر فهي بلاد الهياطلة برأسها وكذلك سجستان ولاية برأسها ذات نخيل، لا عمل بينها وبين خراسان.

وقال ابن قتيبة: أهل خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة ولم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاحًا لا يؤدون إلى أحد أتاوة ولا خراجًا... ثم أتى الإسلام فكانوا فيه أحسن الأمم رغبة وأشدّهم إليه مسارعة منّا من الله عليهم وتفضّلاً لهم، فأسلموا طوعًا فدخلوا فيه سلمًا، وصالحوا عن بلادهم صلحًا، فخفّ خراجهم وقلّت نوائبهم ولم يجر عليهم سباء ولم تسفك فيما بينهم دماء، وبقوا على ذلك طوال أيام بني أميّة إلى أن أساؤوا السيرة واشتغلوا باللذات عن الواجبات، فانبعث عليهم جنود من أهل خراسان مع أبي مسلم الخراساني ونزع عن قلوبهم الرحمة وباعد عنهم الرأفة حتى أزالوا ملكهم عن آخرهم رأيًا وأحنكهم سنًا وأطولهم باعًا فسلموه إلى بني العباس، وأنفذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأحنف بن قيس في سنة ١٨هـ فدخلها وتملّك مدنها فبدأ بالطبسين ثم هراة ومرو الشاهجان ونيسابور في مدة يسيرة، وهرب منه يزدجرد بن شهريار ملك الفرس إلى خاقان ملك الترك بما وراء النهر، فقال ربعي ابن عامر في ذلك:

ونحن وردنا من هراة مناهلا
رواء من المروين إن كنت جاهلا
وبلخ ونيسابور قد شقيت بنا
وطوس ومرو قد أزرنا القنابلا
أنخنا عليها كورة بعد كورة
نفضّهم حتى أحتوينا المناهلا
فللّه عينًا من رأى مثلنا معًا
غداة أزرنا الخيل تركًا وكابلاً

وبقي المسلمون على ذلك إلى أن مات عمر رضي الله عنه. وولي عثمان، فلما كان لسنتين من ولايته ثار بنو كنازا، وهم أخوال كسرى بنيسابور وألجؤوا عبد الرحمٰن بن سمرة وعماله إلى مرو الروذ وثنّى أهل مرو الشاهجان وثلّث نيزك التركي فاستولى على بلخ وألجأ من بها من المسلمين إلى مرو الروذ وعليها عبد الرحمٰن بن سمرة فكتب ابن سمرة إلى عثمان بخلع أهل خراسان، فقال أسيد ابن المتشمس المرّيّ:

ألا أبلغا عثمان عني رسالة
فقد لقيت عنّا خراسان بالغدرِ
فأدرك هداك اللّه حربًا مقيمة
بمروى خراسان العريضة في الدّهرِ
ولا تفترز عنّا فإن عدوّنا
لآل كنازاء الممدّين بالجسرِ

فأرسل إلى ابن عامر عبد الله بن بشر في جند أهل البصرة، فخرج ابن عامر في الجنود حتى تولّج خراسان من جهة يزد والطبسين وبثّ الجنود في كورها وساروا نحو هراة فافتتح البلاد في مدة يسيرة، وأعاد عمال المسلمين عليها، وقال أسيد بن المتشمّس بعد استرداد خراسان:

ألا أبلغا عثمان عنّي رسالة
لقد لقيتْ منّا خراسانُ ناطحا
رميناهمُ بالخيل من كلّ جانب
فولّوا سراعًا واستقاد النّوائحا
غداة رأوا خيل العِراب مغيرةً
تقرّب منهم أسداهنّ الكوالحا
تنادوا إلينا واستجاروا بعهدنا
وعادوا كلابًا في الديار نوابحا

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: إن الدجّال يخرج من المشرق من أرض يقال لها خراسان يتبعه قوم كأن وجوههم المجان المطرقة، قال

ياقوت فأما العلم فهم - يعني أهل خراسان - فرسانه وساداته وأعيانه، ومن أين لغيرهم مثل محمد بن إسماعيل البخاري ومثل مسلم ابن الحجاج القشيري وأبي عيسى الترمذي وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وأبي حامد الغزاليّ والجويني إمام الحرمين والحاكم أبي عبد الله النيسابوري وغيرهم من أهل الحديث والفقه، ومثل الأزهري والجوهري وعبد الله بن المبارك، وكان يعد من أجواد الزهاد والأدباء، والفارابي صاحب ديوان الأدب، والهروي وعبد القاهر الجرجاني وأبي القاسم الزمخشري، هؤلاء من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز عن عدّهم، وممن ينسب إلى خراسان عطاء الخراساني، وهو عطاء بن أبي مسلم، من أهل سمرقند ويقال من أهل بلخ مولى المهلّب بن أبي صفرة الأزدي.

وذكر غير هؤلاء من العلماء وبعض من أخذ عنهم ومن أخذوا عنه.

قلت: هذا مختصر موجز لما ذكره ياقوت وغيره عن بلاد خراسان. أما في هذا العهد فإن بلاد خراسان مرسومة على الخرائط الجغرافية ضمن حدود دولة إيران الجنوبية الشرقية وهي على الخريطة إنما تمثل جزءًا من بلاد خراسان القديمة، وقد دخل مواضع من خراسان القديمة في حدود دولة أفغانستان ومواضع أخرى في حدود الجمهوريات السوفيتية، التي انفصلت أخيرًا عن روسيا السوفيتية.

خَرِبُ المدينة: بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وباء موحدة، والمدينة مضاف إليه: موضع في المدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمرّ بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح وقال بعضهم: لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه فقال بعضهم: لنسألنّه فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم ما الرّوح؟ فسكت فقلت: إنه يوحىٰ إليه فقمت فلما انجلى عنه فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٨٥] قال الأعمش هكذا في قراءتنا.

قال ابن حجر: قوله خرب: بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء جمع خربة، ويقال بالعكس، والخرب ضد العامر ووقع في موضع آخر بفتح المهملة وإسكان الراء بعدها مثلثة. اهـ.

قلت: وجاء في رواية للإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، في حرث المدينة وهو متكئ على عسيب. الحديث. - ذكره ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ﴾.

قلت: فعلى رواية البخاري، يحتمل أن يكون المقصود به ناحية خربة في المدينة وعلى رواية الإمام أحمد: يحتمل أن يقصد به ناحية محروثة من المدينة. والمحروثة هي الأرض التي هيئت للزراعة.

ولم أر فيما اطلعت عليه من المراجع الكثيرة من تحدّث عن هذا الموضع، وصفًا أو تحديدًا، ولا يعرف في المدينة موضع يسمى بهذا الاسم، لذا فإنه يترجّح القول بأنه اسم جنس للمكان الخرب، على رواية البخاري وعلى رواية الإمام أحمد فإنه يترجّح أن يكون اسم جنس للأرض المحروثة.

وهذا الاسم من الأسماء التي يشترك فيها عدد من المواضع.

قال ياقوت: خرب: بفتح أوله وكسر ثانيه، وآخره باء موحدة: موضع بين فيد وجبل السّعد على طريق يسلك إلى المدينة.

وخرب أيضًا جبل قرب تعار في قبلي أبلى، في ديار سليم. قال الكندي وأنشد:

وما الخرب الداني كأنّ قلاله
بخات عليهنّ الأجلّة هجّد

قلت: هذا الموضع يذكر في هذا العهد بضم الخاء وسكون الراء: جبل أسود فيه منهمل ماء، وقد استوفيت الحديث عنه في رسمه في كتابي عالية نجد. والواقع أنه لا يقع في قبلي أبلى بل إنه في ديار بني سليم الواقعة شرق أبلى.

وخرب أيضًا: اسم للأرض العريضة بين هيت والشام.

خرب: بالتحريك، وآخره باء أيضًا، والخرب في اللغة ذكر الحبارىٰ، والخرب أيضًا مصدر الأخرب وهو الذي في شق أو ثقب مستدير، وهو خرب العقاب: أبرق بين سجا والثعل، في ديار بني كلاب.

قلت: هذا الموضع أصبح يسمى في هذا العهد: أم السباع، وقد استوفيت الحديث عنه وصفًا وتحديدًا في رسمه في كتابي (عالية نجد).

خَطْمُ الخيل: (خطم الجبل): بخاء معجمة مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وآخره ميم: موضع على الطريق بين مكة والمدينة، بين الجنابذ ومرّ الظهران.

روى البخاري بسنده عن هشام عن أبيه قال، قال النبي ﷺ للعباس: (احبس أبا سفيان عند خطم الخيل حتى ينظر إلى المسلمين) فحبسه العباس فجعلت القبائل تمرّ مع النبي ﷺ كتيبة كتيبة على أبي سفيان.

قلت: كان ذلك يوم فتح مكة.

قال ابن حجر: قوله عند خطم الجبل في رواية النسفي والقابسي بفتح الخاء المعجمة وسكون المهملة وبالجيم الموحدة، أي أنف الجبل وهي رواية ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي، وفي رواية الأكثر بفتح المهملة من اللفظة الأولى وبالخاء المعجمة وسكون التحتانية، أي ازدحامها، وإنما حبسه هناك لكونه مضيقًا ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم.

وقال الواقدي: قال رسول الله ﷺ للعباس بعدما خرج: احبسه بمضيق الوادي إلى خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها. قال العباس: فعدلت به في مضيق الوادي إلى خطم الجبل.

وقال السهيلي: فلما ذهب لينصرف ـ يعني أبا سفيان ـ قال رسول الله ﷺ: «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها». قال: فخرجت به حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه. وهو نص رواية ابن إسحاق.

وقال الحربي: ومن عسفان إلى جنابذ بني صيفي تسعة عشر ميلاً، وقبل ذلك بميل بئر ابن ضبيع، وقبله بئر القرشي.

ومن الجنابذ إلى مر الظهران أربعة أميال، وبعد الجنابذ بميل خشونة وصعوبة وطريق ضيّق بين الجبلين، يقال: إنه الموضع الذي أمر رسول الله ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان حتى تمرّ به الجيوش.

وروى بسنده عن ابن عباس قال: فلمّا نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران، وكان من قصة

أبي سفيان ما كان تلك الليلة قال رسول الله ﷺ للعباس حين أسلم أبو سفيان: «انصرف يا عباس، واحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله».

قلت: بهذا يترجّح أن رواية (خطم الجبل) هي أصح الروايات لهذا الخبر، ويدل سياق الروايات لهذا الخبر على معنيين: أحدهما وهو الأرجح أن المقصود به أنف جبل يشرف على مضيق من الوادي تمرّ منه جيوش رسول الله ﷺ، فحينئذ يصبح هذا اسم موضع.

أما المعنى الآخر ـ وهو الذي ورد في رواية خطم الخيل ـ فإنهم قالوا: إن المقصود بخطم الخيل شدّ أعنتها عند ازدحامها في مضيق الوادي حين تمرّ به.

الخندق: بخاء معجمة مفتوحة ونون موحدة ساكنة ودال مهملة مفتوحة، وآخره قاف مثناة: حفير حفره رسول الله ﷺ عام الأحزاب حول شمال المدينة.

روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللّهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة».

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا
على الجهاد ما بقينا أبدا

وفي رواية عنه قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة وينقلون التراب على متونهم.

قال المجد: الخندق: حفير حفره رسول الله ﷺ عام الأحزاب لما بلغه قدوم بني النضير من اليهود على قريش ومظاهرتهم لهم، ومخافتهم على رسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك بعد إجلائهم من المدينة، فقدموا للحرب، ثم سعى حييّ بن أخطب حتى قطع الحلف الذي كان بين قريظة والنبي ﷺ، واشتد الحصار على المسلمين ونجم النفاق، قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٠] يعني قريظة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني أسد وغطفان، وكانوا نازلين ما بين طرف وادي النقمي إلى آخره، وقريش وكنانة يرون، فحفر ﷺ طولاً من أعلى وادي بطحان غربي الوادي، مع الحرّة إلى غربي المصلّى يوم العيد، ثم إلى مسجد الفتح ثم إلى الجبلين (الصغيرين) غربي الوادي، وجعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع، وضرب النبي ﷺ قبّته على موضع مسجد الفتح اليوم، والخندق بينهم وبين المشركين، وفرغ من حفره بعد ستة أيام، وعمل فيه جميع المسلمين وهم يومئذ ثلاثة آلاف، وأقام (في غزوة) الخندق خمسة عشر يومًا، وقيل أربعة وعشرين يومًا، ورجع إلى المدينة.

والخندق قد عفا أثره اليوم ولم يبق فيه شيء يعرف إلا ناحيته، لأن وادي بطحان استولى على موضع الخندق وصار سيله على موضع الخندق. اهـ.

قال ابن هشام: إن نفرًا من اليهود من بني النضير وغيرهم هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فلما قالوا ذلك لقريش، سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه، من حرب رسول الله ﷺ

فاجتمعوا لذلك واتّعدوا له، وخرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

قال ابن إسحاق: فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها ابن حصين، في بني فزارة والحارث ابن عوف المرّي، في بني مرّة، ومسعر ابن رخيلة بن نويرة بن غطفان فيمن تبعه من قومه من أشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، وما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على المدينة، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه.

وروى أن جابر بن عبد الله كان يحدّث: أنه اشتدّ عليهم في بعض الخندق كدية، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء، فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالذي بعثه بالحق نبيًا، لانهالت حتى عادت كالكثيب لا تردّ فأسًا ولا مسحاة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال، من روما، بين الجرف وزغابة، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نقمي، إلى جانب أحد. وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم.

واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام.

وعظم عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظنّ المؤمنون كل ظّن، ونجم النّفاق من بعض المنافقين، فأقام رسول الله ﷺ، وأقام عليه المشركون بضعًا وعشرين ليلة، قريبًا من شهر، لم تكن بينهم حرب إلا الرّميّا بالنبل والحصار.

قال ابن هشام: يقال إن سلمان الفارسي، أشار به - يعني الخندق - على رسول الله ﷺ، وقال حدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منّا أهل البيت.

وقال السهيلي: وحَفْرُ الخندق لم يكن من عادة العرب، ولكنه من مكايد الفرس وحروبها، ولذلك أشار به سلمان الفارسي، وأول من خندق الخنادق من ملوك الفرس فيما ذكر الطبري منوشهر بن أبيرج بن أفريدون.

قال السهيلي: ثم إن نعيم بن مسعود ابن عامر بن أنيف ثعلبة بن قنفذ بن هلال ابن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان، أتى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنّا إن استطعت فإن الحرب خدعة»... فخرج حتى أتى بني قريظة: ثم خرج حتى أتى قريشًا... ثم خرج حتى أتى غطفان فسعى بينهم بالفرقة حتى تخاذل بعضهم عن بعض، وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم

بدار مقام، لقد هلك الكراعُ والخفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدّة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

وقال الواقدي: قال سلمان: يا رسول الله، إنّا إذ كنّا بأرض فارس وتخوّفنا الخيل خندقنا علينا فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين... فركب رسول الله ﷺ فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب إلى راتج، فعمل يومئذ في الخندق، وندب الناس فخبّرهم بدنوّ عدوّهم وعسكرهم إلى سفح سلع وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدوّ عليهم، وأخذ رسول الله ﷺ يعمل معهم في الخندق لينشّط المسلمين، وعملوا واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحٍ وكرازين ومكاتل، يحفرون به الخندق - وهم يومئذ سلم للنبي ﷺ يكرهون قدوم قريش - ووكّل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قومًا يحفرونه، فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بني عبيد، وكان سائر المدينة مشبّكًا بالبنيان... وكان الشباب ينقلون التراب، والخندق بسطة أو نحوها، وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رؤوسهم في المكاتل، وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من جبل سلع.

وكانوا يجعلون التراب مما يلي النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا يسطرون الحجارة مما يليهم كأنها جبال التمر، وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها. وكان رسول الله ﷺ يومئذ يحمل التراب في المكاتل ويطرحه، وتنافس الناس يومئذ في سلمان الفارسيّ فقال المهاجرون: سلمان منّا، وكان قويًا عارفا بحفر الخنادق. وقالت الأنصار: هو منّا ونحن أحقّ به، فبلغ رسول الله ﷺ قولهم فقال: سلمان رجل منّا أهل البيت.

ولقد كان يومئذ يعمل عمل عشرة رجال حتى عانه يومئذ قيس بن أبي صعصعة، فلبط به، فسألوا رسول الله ﷺ فقال: مروه فليتوضأ له، وليغتسل به، ويكفأ الإناء خلفه، ففعل فكأنما حلّ من عقال.

وروى بسنده عن جابر بن عبد الله يقول: لقد كنت أرى سلمان يومئذ، وقد جعلوا له خمسة أذرع طولاً وخمسًا في الأرض، فما تحيّنته حتى فرغ وحده، وهو يقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة.

وما كان في المسلمين يومئذ أحد إلا يحفر في الخندق أو ينقل التراب، ولقد رئي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر - وكان أبو بكر وعمر لا يتفرقان في عمل، ولا مسير ولا منزل - ينقلان التراب في ثيابهما يومئذ من العجلة، إذا لم يجدا مكاتل لعجلة المسلمين.

وكان الخندق ما بين جبل بني عبيد بخزبي إلى راتج، فكان للمهاجرين من ذباب إلى راتج، وكان للأنصار ما بين ذباب إلى خزبي فهذا الذي حفره رسول الله ﷺ والمسلمون وشبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية وهي كالحصن.

وقال المطري: حفر رسول الله ﷺ طولاً من أعلى وادي بطحان غربي الوادي، مع الحرّة إلى غربي المصلى مصلى رسول الله ﷺ يوم

العيد، ثم إلى مسجد الفتح ثم إلى الجبلين الصغيرين اللذين في غربي الوادي يقال لأحدهما راتج وللآخر جبل بني عبيد، وجعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع وضرب رسول الله ﷺ قبته على القرن الذي في غربي جبل سلع... والخندق بينهم وبين المشركين، وقد عفا أثر الخندق اليوم ولم يبق منه شيء إلا ناحيته، لأن الوادي وادي بطحان استولى على موضع الخندق وصار مسيله في موضع الخندق.

وقال ابن النجار: والخندق اليوم باق وفيه قناة تأتي من عين بقباء إلى النخل الذي بأسفل المدينة بالسيح حوالي مسجد الفتح، وفي الخندق نخل قد انطمّ أكثره وتهدّمت حيطانه.

وقال أحمد العباسي: يتلخص مما رواه الطبراني والبيهقي وابن سعد أن النبي ﷺ خطّ الخندق من أجمة الشيخين طرف بني حارثة خلف بني عبد الأشهل، أي طرف الحرّة الشرقية حتى إذا بلغ المذاد طرق منازل بني سلمة مما يلي مسجد الفتح وجبل بني عبيد، وهناك الحرّة الغربية، ثم قطع أربعين ذراعًا لكل عشرة، واحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، فقال النبي ﷺ: «منّا أهل البيت»، وكان المهاجرون من ناحية راتج إلى ذباب وكان الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل بني عبيد بمنازل بني سلمة، فالحاصل أن الخندق كان شامي المدينة من طرف الحرّة الشرقية إلى طرف الحرّة الغربية... وكان أحد جانبي المدينة عورة وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل لا يتمكن العدو منها. اهـ.

والخندق قد عفا أثره اليوم ولم يبق منه شيء يعرف إلا ناحيته، لأن وادي بطحان استولى على مواضع الخندق وصار سيله موضع الخندق.

وقال الشنقيطي: يعتبر الخندق من الخطط الحربية التي سبق المسلمون العرب إلى عملها، وبما أن المدينة المنورة محاطة بتحصينات طبيعية من شرقيها وجنوبيها وغربيها بما يحيط بها من حرار وعرة، لا مطمع للجيوش في عبورها، ومع ما يتخللها من قرى ومزارع ونخيل مما يشتّت ويبعثر أيّ جيش يفكر في الإتيان منها، ولكن الجهة الشمالية مدخل عسكري مكشوف وغير محصّن، ولم تغز المدينة على مدى العصور إلا منها، فقد غزاها تبّع من هناك.. كما جاء منها المشركون في غزوة أحد، وحاولوا الهجوم منها في غزوة الأحزاب، فلهذا كان لازمًا أن تحصّن هذه الجهة، فحصّنها المصطفى ﷺ بالخندق، فحفره من نهاية الحرّة الشرقية عند أجمة الشيخين شرقي ما يعرف به الآن بمسجد المستراح، حتى ثنية حرّة بني سلمة إلى الشرق من القبلتين، بطول (٢٧٢٥) مترًا، وبشكل قوس منفرج، وعمل فيه ألف وخمسمائة من المسلمين، بالفؤوس والمعاول وغيرها من الآلات التقليدية، وجعل النبي ﷺ لكل عشرة من الصحابة أربعين ذراعًا يحفرونها بعمق عشرين ذراعًا وعرض أربعين ذراعًا، وليس ستة أذرع لأنها يمكن لبعض العدّائين من الناس أن يقفزوها، فضلاً عن الخيول العتاق، وقد أتم حفره في ستة أيام على الصحيح.

قلت: اختلف الشنقيطي مع غيره من العلماء في عدد العاملين في حفر الخندق من المسلمين، كما اختلف معهم في وصف الخندق فقال: إنه بعمق عشرين ذراعًا، وعرض أربعين ذراعًا، ولم يشر إلى مصدر

هذه المعلومات قلت: وقد تبين مما تقدم من أقوال العلماء في هذا الموجز أنهم لم يختلفوا في حفر الخندق وتحديد موقعه وعمل النبي ﷺ وأصحابه فيه، بل إن أقوالهم يكمل بعضها بعضًا ويوضح بعضها بعضًا، هذا هو الخندق الذي حفر النبي ﷺ حول شمالي المدينة، تحصينًا لتلك الجهة في غزوة الأحزاب التي وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة.

الخندق أيضًا: قال ياقوت: الخندق بلفظ الخندق المحفور حول المدينة: محلة كبيرة بجرجان، وقد نسب إليها قوم، منهم: أبو تميم كامل بن إبراهيم الخندقي الجرجاني، سمع منه زاهر بن أحمد الحليمي وأبو عبد الله النيلي وغيرهما.

والخندق أيضًا: قرية كبيرة في ظاهر القاهرة بمصر، يقال هي ثنيّة الأصبغ بن عبد العزيز ابن مروان، ينسب إليها أبو عمران موسى ابن عبد الرحمٰن الخندقي ثم الرّميس لسكناه ببركة رمسيس من الفسطاط. روىٰ عن أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المقريَ المعروف بالكيراني، وروىٰ عنه جماعة، وأقرأ القرآن مدّة، سمع الإمام الزّكي أبا محمد عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري عن أصحابه.

خندق سابور: في برية الكوفة، حفره سابور بينه وبين العرب خوفًا من شرّهم، قالوا: كانت هيت وعانات مضافة إلى طسوج الأنبار، فلما ملك أنو شروان بلغه أن طوائف من الأعراب يغيرون على ما قرب من السّواد إلى البادية. فأمر بتجديد سور مدينة تعرف بالنّسر، كان سابور ذو الأكتاف بناها وجعلها مسلحة تحفظ ما قرب من البادية، وأمر بحفر خندق من هيت يشقّ طفّ البادية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر، وبنى عليه المناظر والجواسق ونظّم بالمسالح ليكون ذلك مانعًا لأهل البادية من السواد، فخرجت هيت وعانات بسبب ذلك الخندق من طسوج شاه فيروز لأن عانات كانت قرى مضمومة إلى هيت.

خيبر: بخاء معجمة مفتوحة وياء ساكنة وباء موحدة مفتوحة وآخره راء مهملة: بلد تقع على بعد (١٧١) كيلاً من المدينة على طريق تبوك.

روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ عامل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع فكان يعطي أزواجه مائة وسق ثمانون وسق تمر وعشرون وسق شعير فقسم عمر خيبر فخيّر أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الماء والأرض أو يمضي لهن فمنهن من اختار الأرض ومنهن من اختار الوسق وكانت عائشة اختارت الأرض.

قال الحربي: أخبرني أبو الفضل الحسني أن طريق خيبر تخرج من المدينة على الغابة العليا، ثم تسلك الغابة السفلى، ثم تسلك واديًا يقال له رجب، ثم ترقىٰ في نقل بردوج - وبه مسجد لرسول الله ﷺ - ثم تهبط في واد يقال له الدومة، وبه آبار، ثم الأشمذ وهو جبل، ثم السعة وهي حرّة، إلى نمار. قال: ويقال: إن حد خيبر أوله الدومة، ثم تصير إلى خيبر وحصونها.

قال: وسوق خيبر اليوم المرطة، وكان عثمان بن عفان مصّرها، والحصن فيه بقية الناس، وهو لعمر بن الخطاب، ثم حصن وجدة وبه نخل وأشجار، وهو لرسول الله ﷺ، ثم سليلم، وعظمها للنبي ﷺ، ثم الأهيل: جبل في أصله آطام اليهود، ومزارع وأموال تعرف بالوطيح، فيها طعم أزواج النبي ﷺ وبني المطلب وبني مخزوم، ثم الوادي

المتصل بالوطيح إلى طبران وإلى خاض، كله للنبي ﷺ يسمّى الكتيبة والحصن الأعظم القموص، وهو الذي فتح على يد علي بن أبي طالب ﷺ، وأسفله مسجد النبي ﷺ.

وما بين النطاة والشق ـ وهما واديان ـ أرض تسمى السبخة.

والمخاضة تتصل إلى مسجد النبي ﷺ الأعظم، الذي صلى فيه أربعين يومًا مقامه كله.

أخبرني الحسني: أن عيسى بن موسى بناه، وأنفق عليه مالاً جليلاً، يسمى المسجد المنزلة، وله رحاب واسعة، وهو على طاقات معقودة، وفيه تصلى الأعياد اليوم. وفيه الصخرة التي صلى إليها النبي ﷺ، وهو أول نطاة.

وفي نطاة حصن مرحب وقصره، وقع في سهم الزبير بن العوام، وبالشق عيون أخبرني الحسني: أن عينًا تسمى الحميّة، وهي سماها النبي ﷺ قسمة الملائكة، يذهب ثلثا مائها في فلج، وثلث في فلج، والمسلك واحد، وأخبرني أنها اعتبرت منذ زمان رسول الله ﷺ، إلى اليوم يطرح فيها ثلاث خشبات فتذهب خشبتان في فلج ويطرح ثلاث بعرات فتذهب بعرتان في هذا، وبعرة في هذا، ولا يقدر أحد أن يأخذ منها أكثر من الثلث.

وقال لي أبو الفضل الحسني: أنا اعتبرتها وقمت فيها لأرد الماء إلى الناحية التي يذهب فيها الثلث فغلبني الماء، حتى كاد أن يفيض ولم أستطع ذلك فخلّيت عنه.

والعين العظمى بالنطاة تسمى اللّحيحة، وبين المدينة وبين خيبر ثلاثة أيام. اهـ.

وقال البكري نحوًا مما قاله الحربي وزاد: وأول دار فتحت بخيبر دار بني قمّة، وهي بنطاة، وهي منزل لياسر أخي مرحب، وهي التي قالت فيها عائشة: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قمّة.

صحّ جميع ما أوردته من كتاب السكوني. اهـ.

قال محمد بن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرّم، وولى تلك الحجّة المشركون، ثم خرج في بقية المحرّم إلى خيبر.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة نميلة ابن عبد الله الليثي، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب ﷺ وكانت بيضاء.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر، فبنى له فيه مسجدًا، ثم على الصهباء، ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ.

وتدنّى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتحها حصنًا حصنًا، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قتل محمد بن مسلمة، ألقيت عليه منه رحى فقتلته، ثم القموص حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهم صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق.

قال ابن إسحاق: ولما فتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما فتح وحاز من الأموال ما حاز، انتهوا إلى حصنيهم الوطيح والسلالم، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحًا، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة.

قال ابن هشام: وكان شعار أصحاب الرسول ﷺ يوم خيبر: يا منصور، أمت. أمت.

قال ابن إسحاق: فحدّثني عبد الله بن سهل ابن عبد الرحمٰن بن سهل، أخو بني حارثة، عن جابر بن عبد الله، قال: خرج مرحب اليهودي من حصنهم، قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرّب
أطعن أحيانًا وحينًا أضرب
إذا الليوث أقبلت تحرّب
إن حماي للحمى لا يقرب

وهو يقول من يبارز؟ فأجابه كعب بن مالك فقال:

قد علمت خيبر أني كعب
مفرّج الغمّى جريء صلب
إذ شبّت الحرب تلتها الحرب
معي حسام كالعقيق عضب
نطؤكم حتى يذلّ الصّعب
نعطي الجزاء أو يفيء النّهب
بكفّ ماض ليس فيه عتب

قال ابن هشام: أنشدني أبو زيد الأنصاري:

قد علمت خيبر أني كعب
وأنني متى تشب الحرب
ماض على الهول جريء صلب
معي حسام كالعقيق عضب
بكف ماض ليس فيه عتب
ندككم حتى يذلّ الصّعب

قال ابن هشام: ومرحب من حمير.

قال ابن إسحاق: فحدّثني عبد الله بن سهل، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: فقال رسول الله ﷺ: من لهذا؟ قال محمد ابن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس قال فقم إليه، اللهم أعنه عليه. قال: فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عمرية من شجر العشر، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، كلّما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، فما فيها فنن، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه، فاتقاه بالدّرقة، فوقع سيفه فيها، فعضّب به فأمسكته وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله.

قال ابن إسحاق: ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز؟ فزعم هشام ابن عروة أن الزبير بن العوام خرج إلى ياسر، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله، قال: بل ابنك يقتله إن شاء الله، فخرج الزبير فالتقيا فقتله الزبير.

وروى ابن إسحاق بسنده عن سلمة ابن عمرو بن الأكوع قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته، وكانت بيضاء، فيما قاله ابن هشام، إلى بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع ولم يك فتح، وقد جهد ثم بعث الغد عمر بن الخطاب فقاتل، ثم رجع ولم يك فتح، وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الرّاية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرّار. قال: يقول سلمة، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا رضوان الله عليه، وهو أرمد فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الرّاية فامض بها حتى يفتح الله عليك. قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح، يهرول هرولة، وإنّا لخلفه نتّبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب. قال: يقول اليهودي: علوتم، وما أنزل على

موسى، أو كما قال. قال: فما رجع حتى فتح الله علي يديه.

قال ابن إسحاق: فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القرى، فحاصر أهله ليالي، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة.

وقال الواقدي: وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات، هيهات، وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر: ما أمنع والله خيبر منكم، لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذرى الجبال، والماء فيها واتن، إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم فأنتم تطيقون خيبر؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ، فيقول أصحاب النبي ﷺ: قد وعدها الله نبيّه أن يغنّمه إيّاها، فعمّىٰ الله عليهم مخرجه إلا بالظن حتى نزل رسول الله ﷺ بساحاتهم ليلاً.... قال: فخرج رسول الله ﷺ من المدينة فسلك ثنية الوداع، ثم أخذ علي الزّغابة، ثم علا نقمي، ثم سلك المستناخ، ثم كبس الوطيح، ومعهم دليلان من أشجع يقال لأحدهما حسيل ابن خارجة، والآخر عبد الله بن نعيم، خرج على عصر وبه مسجد، ثم على الصّهباء... فصلى بها العصر، ثم أقام إلى المغرب فصلى بالناس، ثم صلى العشاء بالناس، ثم دعا بالأدلاء فجاء حسيل بن خارجة الأشجعي، وعبد الله بن نعيم الأشجعي، قال: فقال رسول الله ﷺ لحسيل امض أمامنا حتى تأخذنا صدور الأودية، حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان، فقال: حسيل: أنا أسلك بك... وخرج الدليل برسول الله ﷺ حتى انتهى به، فيسلك بين حياض والسّرير، فاتّبع صدور الأودية حتى هبط به الخرصة، ثم نهض به حتى سلك بين الشقّ والنّطاة. ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه: قفوا، ثم قال: قولوا: اللهم ربّ السماوات وما أظلّت وربّ الأرضين السّبع وما أقلّت وربّ الرّياح وما ذرت، فإنّا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها. ثم قال: ادخلوا على بركة الله، فسار حتى انتهى إلى المنزلة، وعرّس بها ساعة من الليل.

فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة، حتى طلعت الشمس، فأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم معهم المساحي والكرازين والمكاتل فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نزل بساحتهم قالوا: محمد والخميس، فولّوا هاربين حتى رجعوا إلى حصونهم، وجعل رسول الله ﷺ يقول: الله أكبر، خرّبت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. ثم قال رسول الله ﷺ: نقاتلهم هذا اليوم ومن ثم أخذ يقاتلهم ويفتح حصونهم، حصنًا حصنًا حتى فتحها كلها.

وكان خروج النبي ﷺ من المدينة إلى خيبر في صفر سنة سبع. ويقال خرج لهلال ربيع الأول إلى خيبر.

وكان رسول الله ﷺ، لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا: يا محمد، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها، فساقاهم رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزرع وكان يزرع تحت النخل فقال رسول الله ﷺ أقركم ما أقركم الله: فكانوا على عهد رسول الله ﷺ

حتى توفي، وأبي بكر، وصدر من خلافة عمر.

وبلغ عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال في مرضه الذي توفي فيه: لا يجتمع بجزيرة العرب دينان، ففحص عن ذلك عمر ابن الخطاب حتى وجد عليه الثبت من لا يتّهم، فأرسل إلى يهود الحجاز فقال: من كان منكم عنده عهد من النبي ﷺ، فإني مجليه، فإن الله ﷻ قد أذن في جلائهم، فأجلا عمر يهود الحجاز.

وقد أطال الواقدي في حديثه عن فتح خيبر، وتحدث عنه حديثًا شاملاً من كل جوانبه، لا يتسع مقامنا هذا لاستيفاء كل ما جاء فيه.

قال ياقوت: خيبر الموضوع المذكور في غزاة النبي ﷺ، وهي ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام، يطلق هذا الاسم على الولاية وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، وأسماء حصونها: حصن ناعم، والقموص حصن أبي الحقيق، وحصن الشقّ، وحصن النّطاة، وحصن السّلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة، وأما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود الحصن، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر، وقد فتحها النبي ﷺ كلها في سنة سبع للهجرة وقيل سنة ثمان.

وقال محمد بن موسى الخوارزمي: غزاها النبي ﷺ حين مضى ست سنين وثلاثة أشهر وواحد وعشرون يومًا للهجرة، وقال أحمد ابن جابر: فتحت خيبر في سنة سبع عنوة نازلهم رسول الله ﷺ قريبًا من شهر ثم صالحوا على حقن دمائهم وترك الذريّة، على أن يخلّوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزّة إلا ما كان منها على الأجساد، وألا يكتموه شيئًا ثم قالوا: يا رسول الله ﷺ إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علمًا فأقرّنا، فأقرهم وعاملهم على الشطر من التمر والحب، وقال: أقرّكم ما أقرّكم الله، فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ظهر فيهم الزّنا وتعبّثوا بالمسلمين فأجلاهم إلى الشام، وقسّم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين، وجعل لأزواج النبي ﷺ فيها نصيبًا وقال: أيتكنّ شاءت أخذت التمرة وأيّتكن شاءت أخذت الضيّعة فكانت لها ولعقبها.

وإنما فعل عمر ﷺ ذلك لأنه سمع أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب، فأجلاهم... وذكر أبو القاسم الزّجاجي أنها سميت بخيبر بن قانية ابن مهلائيل بن إرم بن عبيل، وعبيل أخو عاد ابن عوض بن إرم بن سام بن نوح ﷺ.

وخيبر موصوفة بالحمّى، قال شاعر:

كأن به إذ جئته خيبرية
يعود عليه وردها وملالها

وقال الأخنس بن شهاب:

فلابنة حطّان بن قيس منازل
كما نمّق العنوان في الرّق كاتبُ
ظللت بها أعرى وأشعر سخنة
كما اعتاد محمومًا بخيبر صالبُ

وهي أيضًا موصوفة بكثرة النخل والتمر، قال حسّان بن ثابت:

أتفخر بالكتّان لمّا لبسته
وقد تلبس الأنباط ريطًا مقصّرا
فلا تك كالعاوي فأقبل نحره
ولم تخشه سهمًا من النّبل مضمرا
فإنّا ومن يهدي القصائد نحونا
كمبتضع تمرًا إلى أرض خيبرا

وتحدث حمد الجاسر عن خيبر فقال: خيبر من أخصب واحات الجزيرة، فهي تقع في

مجتمع أودية تنحدر من سلسلة جبال بركانية تدعى الحرار، فتتسرب مياه هذه الأودية في وهدة منخفضة من الأرض بحيث تكوّن ينابيع جارية يطلق عليهم اسم عيون، وعلى مجاري هذه العيون توجد حدائق النخيل في أرض واسعة، ومن تلك الأرض تتسرّب إليه مياه كثيرة تكوّن مستنقعات تنمو فيها نباتات طفيلية لا يستفاد منها، بل تكوّن مأوى للبعوض الذي يسبب في هذه الواحة مرض الحمّى (الملاريا).

وعن فكرة صلة اليهود العبرانيين بخيبر قال: وهي صلة نجد المتقدمين يركّزون عليها تركيزًا قويًا شأنهم ذلك في كثير من مواضع الجزيرة التي جاء الإسلام ومن سكانها من يدين باليهودية، ولكن اليهودية عند المتقدمين وفي الواقع لم تكن تطلق على جنس وإنما تعني من اتّصف بصفة أي أن اليهودية قد تطلق على غير جنس اليهود ويعني بها من يدين بالدين اليهودي أيًا كان جنسه، ولعل مما يوضح ذلك معرفة أن قبائل يمنية هاجرت إلى شمال الجزيرة واستوطنتها في يثرب وفي فدك وفي خيبر، وهي عربية الأصل والمنشأ، أما الديانة فهي بالنسبة إلى هذه القبائل تعتبر أمرًا ثانويًا.

وكانت واحة خيبر تقع في أرض واسعة، تحاط بالحرار والأودية الكثيرة الخصبة المراعي والمناهل المتعددة، وتحلّها قبل ظهور الإسلام قبيلة غطفان ذات الفروع العديدة، فأصبح نفوذ هذه القبيلة مسيطرًا على الواحة وما يجاورها، وأصبح أولئك الذين يعيشون عيشة استقرار وتحضّر خاضعين لنفوذ القبائل، بل أكثر من ذلك لا يستطيعون العيش إلا بحمايتهم، ومن ثم عرف سكان واحة خيبر بصلتهم القوية بقبيلة غطفان.

أما أصلهم فكان مزيجًا مختلطًا من قبائل متحضرة منها ما يرجع إلى أصل يمني عميق التحضّر، ومنها ما يرجع إلى أناس طارئين دفعتهم حرفة المعيشة في أول الأمر، ثم دفعتهم عوامل القوة والسيطرة إلى النزوح إلى هذه البلاد، فعمروا الواحة واستثمروا خيراتها عمرانًا واستثمارًا مرتبطين أتم الارتباط بقوة قبيلة غطفان الحامية للواحة، والتي نجد فيها مرتعًا خصبًا وأسواقًا رائجة للبضاعة بكل ما تحتاج إليه تلك القبائل من أسلحة وكساء وثمار تدّخرها زمنًا طويلاً للحاجة.

جاء الإسلام وكل من يسكن في الواحات الزراعية عالة على حماية القبيلة الغطفانية، وليس كل من يسكن فيها من البعيدين عن العرب بل هم عرب في كثير من أخلاقهم وفي معاملاتهم، بل منهم من هو صريح النسب في ذلك، كما تجد في مرحب اليهودي الذي سجلت الكتب العربية جانبًا من بطولته فهو ليس يهودي النسب بل من قبيلة حمير القحطانية الصريحة النسب، كما صرح بذلك ابن هشام العالم العربي الحميري النسب فقد قال: مرحب من حمير.

أما استيطان اليهود للواحة فأقدم ما عرف عن مؤرخي العرب من أن موسى بن عمران النبي بعث بعثًا إلى الحجاز لقتال العمالقة، وأمرهم بعدم الإبقاء على أحد، غير أنهم استبقوا غلامًا صغيرًا عادوا به، فكان أن استقروا في نواح من الحجاز.

ولعلّ لانتشار الديانة الموسوية في هذه الواحة من الأثر ما حمل على الاعتقاد بأن السكان يمتون بنسبهم إلى اليهود.

لا شك أنه يوجد بين السكان من التجار والصناع يهود، ولكن القول بأنه كان لهم من النفوذ والقوة والسيطرة ما مكّنهم من طرد

سكانها الأقدمين والاستيلاء عليها، فمما لا تؤيده نصوص تاريخية قوية صحيحة.

ويقول ابن خلدون: ثم بعث يوشع من بني إسرائيل بعثًا إلى الحجاز فملكوه، وانتزعوا من أيدي العمالقة ملكه، ونزعوا يثرب وبلادها وخيبر.

والذي يؤيده العقل والمنطق أن خيبر واحة زراعية قديمة قدمًا ما ليس من المستطاع تحديده بصورة قاطعة وأهل هذه الواحة كانوا قبل ظهور الإسلام كغيرهم من سكان الواحات الزراعية في الجزيرة، يعيشون عيشة هي أقرب إلى الاستقرار والهدوء منها إلى أي نوع من أنواع الحياة التي تعيشها الأقوام.

وهم في أكثر الأحوال مزيج من سائر الأجناس، سكان قديمون عرفوا بهذه البلاد منذ أن عرفت، وجهل أصلهم، وطوائف من العرب التي سئمت حياة البداوة لسبب من الأسباب، فآثرت طريقة من العيش في هذه الواحة هي أقرب إلى الهدوء من حياة البادية، وتجار وجدوا في هذه الواحة كل ما يتوق إليه التاجر من ربح مادي، فسوقها السنوي العام الذي تفد إليه القبائل العربية من مختلف أنحاء الجزيرة كل عام[١].

قلت: هذا مقتطفات موجزة مما ذكر المؤرخون عن خيبر البلد التي فتحها رسول الله ﷺ. أما في هذا العهد فإن خيبر أصبحت بلدة عامرة آخذة بنصيبها من التقدم العمراني والحضاري، شأنها في ذلك شأن البلدان الأخرى في المملكة العربية السعودية، وهي مرتبطة بجميع شؤونها الإدارية والاجتماعية بإدارة المدينة المنورة.

خيبر كالذي قبله: قرية تقع في ضفة وادي بيشة الغربية. سكانها المنيع من قبيلة أكلب، تابعة لإدارة بيشة.

خيف بني كنانة: بخاء معجمة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره فاء موحدة، مضاف إلى بني كنانة. موضع بأعلى مكة ينزله النبي ﷺ.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر وهو بمنى نحن نازلون غدًا في خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر يعني ذلك المحصّب وذلك أن قريشًا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أو بني المطلب أن لا يناكحوهم ويبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ.

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ حين أراد قدوم مكة منزلنا غدًا إن شاء الله تعالى بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر.

قال ياقوت: خيف: بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره فاء، والخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، وقال ابن جنيّ: أصل الخيف الاختلاف، وذلك أنه ما انحدر من الجبل فليس شرفًا ولا حظيظًا فهو مخالف لهما ومنه: الناس أخياف أي مختلفون، قال:

الناس أخياف وشتّى في الشّيم
وكلهم يجمعهم بيت الأدم

وقال القاضي عياض: خيف بني كنانة هو المحصّب، كذا فسّر في حديث عبد الرزاق، وهو بطحاء مكة، وقيل مبتدأ الأبطح، وهو الحقيقة فيه لأن أصله ما انحدر من الجبل وارتفع عن المسيل، وقال الزهري: الخيف

(١) في شمال غرب الجزيرة، ص: ٢٢٦.

الوادي والخيف ما كان مجنّبًا عن طريق الماء يمينًا وشمالاً متسعًا. اهـ.

وقال البكري: خيف: بفتح أوله وإسكان ثانيه، على وزن فعل: اسم يقع مضافًا إلى مواضع كثيرة، ولا يكون خيفًا إلا بين جبلين، وقيل: الخيف: ارتفاع وهبوط في سفح جبل أو غلظ. وأشهرها خيف منى، ومسجده مسجد الخيف، قال الأحوص فيه:

وقد وعدتك الخيف ذا الشّرى من منى
وتلك المنى لو أننا نستطيعها

وهو خيف بني كنانة، الذي ورد في الحديث، رواه الزهري عن علي بن حسين عن عمرو ابن عثمان، عن أسامة بن زيد قال قلت: يا رسول الله ﷺ أين تنزل غدًا في حجتك؟ قال: هل ترك لنا عقيل منزلاً؟ نحن نازلون بخيف بني كنانة، حيث تقاسمت قريش على الكفر، يعني المصحّب. اهـ.

قلت: فيما قاله البكري خلط بين خيف بني كنانة الواقع في مكة، وبين خيف منى وجعلهما خيفًا واحدًا، حيث قال في حديثه عن خيف منى: وهو خيف بني كنانة.

وروى الواقدي بسنده عن جابر بن عبد الله، قال كنت ممن لزم رسول الله ﷺ فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر فلما أشرف على أذاخر نظر إلى بيوت مكة، ووقف عليها فحمد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قبّته فقال: هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت علينا قريش في كفرها.

قال جابر: فذكرت حديثًا كنت أسمعه منه ﷺ قبل ذلك بالمدينة: منزلنا غدًا إن شاء الله إذا فتح الله علينا مكة في الخيف حين تقاسموا على الكفر. وكنا بالأبطح وتجاه شعب أبي طالب حيث حصر رسول الله ﷺ ثلاث سنين.

وروى الفاكهي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ حين أراد أن ينفر من منى، قال: نحن نازلون غدًا ـ إن شاء الله ـ بالمحصب بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، وذلك أن قريشًا تقاسموا على بني هاشم وعلى بني عبد المطلب ألا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. وروى بسنده عن الزهري، قال: قال النبي ﷺ لرجل: موعدك خيف بني كنانة حيث تقاسم الكفار علينا.

قال ابن أبي عمر قال سفيان قال عمر ابن حبيب: حائط الصفيّ.

قلت: عرّف ابن حبيب خيف بني كنانة بقوله: حائط الصفيّ، قال المحقق: إن هذا التعريف من باب إطلاق الكل على الجزء لأن خيف بني كنانة يطلق على شعب الصفيّ وعلى الخرمانيّة قلت: وهذه المواضع معروفة بأعلى مكة.

وروى الأزرقي بسنده عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله: أين منزلك غدًا؟ قال ـ وذلك في حجته ـ قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ قال: ونحن نازلون غدًا ـ إن شاء الله ـ بخيف بني كنانة ـ يعني المحصّب ـ حيث تقاسمت قريش على الكفر، وذلك أن بني كنانة حالفت قريشًا على بني هاشم ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يوارثوهم إلا أبا لهب فإنه لم يدخل الشعب مع بني هاشم، وتركته قريش لما تعلم من عداوته للنبي ﷺ، وكانت بنو هاشم كلها مسلمها وكافرها تحتمي للنبي ﷺ إلا أبا لهب، قال أسامة: ثم قال النبي ﷺ: لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم.

وروى بسنده عن عبد الله بن أبي بكر قال قال: رسول الله ﷺ: إذا قدمنا مكة ـ إن شاء

الله ﷺ ـ نزلنا بالخيف الذي تحالفوا علينا فيه، قال ابن جريج قلت لعثمان: أي حلف؟ قال: الأحزاب، وبه عن الزنجي عن ابن جريج عن عطاء أن النبي ﷺ، لم ينزل بيوت مكة بعد أن سكن المدينة، قال: كان إذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلى مكة فضرب به الأبنية، قال عطاء: وفعل ذلك في حجّته أيضًا نزل بأعلى مكة قبل التعريف، وليلة الصّدر نزل بأعلى الوادي.

قال محققه ـ في تحديد المحصّب: وهو مسيل بين مكة ومنى، وحدّه من جهة منى جبل العيرة، بقرب السبيل الذي يقال له سبيل الست، في طريق منى على ما ذكره الناس، ويقال له: خيف بني كنانة، وهو الخيف الذي تقاسمت فيه قريش على الكفر، ويسمى أيضًا الأبطح والبطحاء، وهو ما انبطح من الوادي واتسع، وصفى الباب، وزاد ابن حجر فقال: إنه يقال له المعرّس بتشديد الراء. قلنا: ويعرف اليوم بالمعابدة، نسبة إلى امرأة تسمى (أم عابد) كانت تسكن في هذا المكان كما يقول المعمرّون من أهل مكة. اهـ.

قلت: ويتضح من أقوال العلماء أن **الخيف اسم لموضعين** أحدهما في أعلى مكة وهو الذي كان النبي ﷺ ينزل فيه إذا أتى مكة وقد اتضح تحديده فيما تقدم وهو الذي يسمى خيف بني كنانة.

والثاني واقع في منى وهو ما زال معروفًا باسمه، ومشتهرًا في مسجده العامر الذي يسمى مسجد الخيف.

وقد وقع الخلط بين الموضعين بين العلماء المتقدمين واعتبارهما موضعًا واحدًا لتشابه الاسمين.

وفيما قدمته في تحديد هذين الموضعين كفاية. ولمزيد من الإيضاح انظر رسم البطحاء ورسم الحصبة ورسم المحصّب في هذا الكتاب فإن فيهم مزيدًا من الإيضاح.

والخيف من الأسماء المشتركة، وذكر ياقوت مواضع تسمى بهذا الاسم.

خيف سلاّم: قال ياقوت: بلد بقرب عسفان على طريق المدينة، فيه منبر وناس كثيرون من خزاعة، ومياهها قنيّ وباديتها قليلة من جشم وخزاعة.

وسلاّم هذا كان من أغنياء هذا البلد من الأنصار، بتشديد اللام قاله أبو الأشعث الكندي.

خيف السّلام: قال الحربي: وهو يتحدث عن الطريق بين مكة والمدينة: وعلى ثمانية أميال من الغمير عين يقال لها خيف أبي الخز، وقصر مبني بالسّاج والذهب، ومشرعة للدّواب، وخيف السّلام بعد عين أبي الخز، بأربعة أميال، وبها قصر عظيم مبني بالسّاج والذهب وبساتين لأمير المؤمنين، وبه منزل للناس وماء كثير ظاهر، والتنضب به خيف السّلام متصل به.

وعلق عليه حمد الجاسر بقوله: كان قفرًا فلما حجّ الرشيد استحسن فضاءه فبنى عنده قصرًا وغرس به نخلاً في خيف الجبل وسماه خيف السّلام. وعلق على التنضب بقوله: تنضب قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة فيها عين جارية ونخل.

خيف الحميراء: قال ياقوت: في أرض الحجاز قال ابن هرمة:

كأن لم تجاورنا بنعف روارة
وأخزم أو خيف الحميراء ذي النخل

خيف النخل: موضع آخر جاء في شعر سويد بن جذعة القسرى، قال:

ونحن نفينا خثعمًا عن بلادها
نقتّل حتى عاد مولى سنيدها

فريقين: فرق باليمامة منهم
وفرق بخيف الخيل تبري حدودها

خيف ذي القبر: أسفل من خيف سلّام، وليس به منبر وإن كان آهلاً، وبه نخيل كثير وموز ورمان، وسكانه بنو مسروح وسعد كنانة وتجّار ألفاق، وماؤه من القنيّ وعيون تخرج من ضفتي الوادي، وبقبر أحمد بن الرضا سمي خيف ذي القبر وهو مشهور به.

خيف النّعم: قال ياقوت: أسفل من خيف ذي القبر، به منبر وأهله غاضرة وخزاعة وتجار بعد ذلك وناس، وبه نخيل ومزارع، وهو إلى عسفان، ومياهه خرّارة كثيرة.

خيف أبي الخز: حدده الحربي بين مكة والمدينة على الطريق فقال: وعلى ثمانية أميال من الغمير عين يقال لها خيف أبي الخز وقصر مبني بالسّاج والذهب، ومشرعة للدّواب وغير ذلك يمنة، وعيون سوى ذلك لسائر الناس، وخيف السّلام بعد عين أبي الخز بأربعة أميال.

خيف نوح: قال الحربي في وصف الطريق من المدينة إلى مكة عن طريق بدر: إذا أردت سلوك طريق بدر عدلت من الروحاء في المضيق، فمن الروحاء إلى خيف نوح اثني عشر ميلاً، ثم تخرج منه إلى المعلىٰ.

وعلّق عليه حمد الجاسر بقوله: يطلق عليه اسم الخيف غير مضاف، في أعلى وادي الصفراء وقد يسمى خيف الخزامي.

وتحدث عاتق البلادي عن خيف الخزامي وقال: قرية بوادي الصفراء عند المضيق من الغرب كانت لها عين جارية ثم اندثرت في منتصف هذا القرن الرابع عشر. ويسمى خيف الخزامي، وخيف بني سالم بطن بن حرب وهم سكانه. وخيف البرعي، نسبة إلى عبد الرحيم البرعي المتصوف الناسك، قيل: إن قبر البرعي فيه، ظل يزار إلى عهد قريب. وغزا الشريف عبد المطلب بن غالب الخيف سنة ١٢٦٨هـ، فاحتلها وقتل بعض أهلها وبنى فيها قلعة، وجعل فيها قوة لضبط البلد، والخيف تبعد (١٠٥) أكيال عن المدينة في طريق بدر، وعن المسيجيد (٢٥) كيلاً بينه وبين بدر.

ويقال أيضًا: خيف نوح، ولا أدري ما سبب هذه التسمية ويقول شاعر شعبي من حرب:

يا رب تسقي بدر والخيف
والواسطة وأم ذيّان
خيف الخزامي مقر الكيف
نزلته كل ديقان

وفي خيف الخزامي اليوم مدرسة ومستوصف ومركز شرطة.

الخيف: قال البلادي: عين في قديد بلصق حرّة المشلّل من الجنوب، على كيلين من البريكة، و(١٣٩) كيلاً من مكة.

الخيف: قال البلادي: عين داثرة في ستارة على (١٣) كيلاً شرق الظُبيّة فيها زراعة على الآبار.

الخيف (خيف الرّواجحة): قال البلادي: عين بها قرية للأشراف الرّواجحة تلي قرية أبي عروة من الشرق على ضفة الوادي الشمالية بلبط الحرّة (حرّة النهميّة).

قلت: ما ذكره ياقوت عن خيف سلام وخيف ذي القبر وخيف النّعم هو نص ما ذكره عرام عن هذه المواضع في كتابه.

باب الدال

دار القضاء: بدال مهملة بعدها ألف وآخره راء مهملة، مضاف إلى القضاء، بقاف مثناة: دار كانت معروفة في المدينة.

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول ﷺ قائمًا ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم أغثنا، اللَّهم أغثنا ـ الحديث.

قال ياقوت: دار القضاء: هي دار مروان ابن الحكم بالمدينة وكانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فبيعت في قضاء دينه بعد موته، وقد زعم بعضهم أنها دار الإمارة بالمدينة، وهو محتمل؛ لأنها صارت لأمير المدينة، ا. هـ. وهو نصّ ما قاله المجد في المغانم.

قال ابن شبّة: قال عبد العزيز بن مروان: ومنهنّ دار القضاء التي هي اليوم رحبة لمسجد رسول الله ﷺ في غربيّه مما يلي دار مروان.

قال أبو غسان: وأخبرني عبد العزيز، عن راشد بن حفص، عن أم الحكم بنت عبد الله ابن ثابت عن عمتها سهلة بنت عاصم قالت: كان دار القضاء لعبد الرحمٰن بن عوف ـ وإنما سمّيت: دار القضاء، لأن عبد الرحمٰن اعتزل فيها ليالي الشورى حتى قضي الأمر، فباعها بنو عبد الرحمٰن بن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

قال عبد العزيز: فصارت بعد في الصّوافي، وكانت الدّواوين فيها وبيت المال، فهدمها أبو العباس أمير المؤمنين، فصيّرها رحبة للمسجد، فهي اليوم كذلك، قال: وسمعت مَنْ يقول فيها غير ذلك من غير واحد، منهم محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، أخبرني عن عمه قال: كانت رحبة القضاء لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وأمر حفصة وعبد الله ابنيه رضي الله عنهما أن يبيعاها عند وفاته في دين كان عليه، فإن بلغ ثمنها دينه وإلا فاسألوا فيه بني عديّ بن كعب حتى يقضوه، فباعوها من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وكانت تسمى دار القضاء، قال ابن أبي فديك: فسمعت عمر يقول: إن كانت لتسمى دار القضاء. قال: وكان معاوية رضي الله عنه اشتراها عند ولايته فلم يزل حتى قدم زياد بن عبد الله المدينة سنة ثمان وثلاثين ومائة، فهدمها وجعلها رحبة للمسجد، وفتح فيها الباب الذي إلى جنب الخوخة الصغيرة، وجعل هدمها على أهل السوق.

قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك فأخذ مني في هدمها أربعة دوانيق، قال ابن أبي فديك: وأخبرني أيضًا ـ كما أخبرني عمي ـ عبد الله ابن عمر بن عبيد الله ابن عبد الله بن عمر قال، وأشار لي عبيد الله إلى صندوق في بيته وقال: إن في هذا الصندوق إبراءات من ذلك الدَّين فالله أعلم بأمرها.

وتحدث السمهودي عن دار القضاء، وأورد ما ذكره ابن شبّه نصًا، وزاد: وروى ابن زبالة خبر ابن أبي فديك الأول مقتصرًا عليه من طريق محمد بن إسماعيل يعني ابن أبي فديك عن ابن عمر أن عمر توفي وترك عليه ثمانية وعشرين ألفًا فدعا عبد الله وحفصة فقال: إني قد أصبت من عبد الله شيئًا، وأنا أحبّ أنْ ألقى الله وليس في عنقي منه شيء، فبيعا فيه حتى تقضياه، فإن عجز عنه مالي فسلا فيه بني عديّ فإن بلغ وإلاّ فلا تعدوا قريشًا، فخرج عبد الله بن عمر إلى معاوية فباع منه دار عمر التي يقال لها دار القضاء، وباع ماله بالغابة فقضى دينه، فكان يقال: دار قضاء دين عمر، وهي رحبة القضاء.

قال محمد بن إسماعيل: فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان واليًا لأبي العباس على المدينة في سنة ثمان وثلاثين ومائة دار القضاء، وكانت تكرى من تجار أهل المدينة فهدمها زياد وجعلها رحبة للمسجد، وفتح الباب الذي إلى جنب الخوخة.

قلت: هذا هو ما ذكره المؤرخون عن دار القضاء ـ تحديد موقعها وسبب تسميتها ـ ولم يختلفوا في سبب تسميتها ولا في تحديد موقعها، ونلحظ فيما أورده ابن شبة اختلافًا بين نسبتها إلى عبد الرحمٰن بن عوف، أو إلى عمر بن الخطاب، غير أن الذي يترجّح في الروايات أنها كانت دارًا لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وهذه الدار كانت بعد هدمها رحبة لمسجد النبي ﷺ لم يعد موقعها معروفًا في هذا العهد، ولم يبق لها ذكر إلا ما كان في صفحات التاريخ.

دَسْكَرة: بدال مهملة مفتوحة وسين مهملة ساكنة وكاف مفتوحة بعدها راء مهملة مفتوحة وآخره هاء: دسكرة لهرقل بحمص.

جاء فيما **روى البخاري** عن ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب ـ في حديث أبي سفيان الطويل مع هرقل ملك الروم، قال في آخره فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطّلع ـ الحديث.

قال في التاج: الدّسكرة: قال الصّغاني: هي القرية، قال الأزهري، والدّسكرة الصّومعة، عن أبي عمرو، وفي جامع القزّاز: الدّسكرة الأرض المستوية، وقيل الدّسكرة بيوت الأعاجم، يكون فيها الشّراب والملاهي، قال الأخطل:

في قبال عند دسكرة
حولها الزيتون قد ينعا

قال الأخفش: الصحيح أن البيت ليزيد ابن معاوية، وزعم ابن السيّد أنه لأبي دهبل، وقيل للأحوص، أو الدّسكرة: بناء كالقصر حوله بيوت ومنازل للخدم والحشم، كذا في المغيث في غريب الحديث لأبي موسى، قال الليث: يكون للملوك، ومثله في جامع القزّاز، جمعه دساكر، ليست بعربية محضة.

وفي حديث أبي سفيان وهرقل الذي رواه البخاري في أول الصحيح وفي أثنائه مرّات أنه أذن لعظماء في دسكرة له. ا.هـ.

قلت: ولم أر فيما اطّلعت عليه من المراجع تحديدًا لدسكرة هرقل بالنسبة لموقعها من مدينة حمص، ولم يرد لها ذكر في المراجع التي اطّلعت عليها سوى ما في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ـ وقد تقدّم.

وهذا الاسم من الأسماء المشتركة، وقد ذكر ياقوت في معجمه عددًا من المواضع تسمى بهذا الاسم، قال:

الدّسكرة: بفتح أوله، وسكون ثانية، وفتح كافه: قرية كبيرة ذات منبر بنواحي نهر الملك من غربي بغداد، ينسب إليها أبو منصور ابن أحمد بن الحسين بن منصور الدّسكري أحد الرؤساء، روى عنه أبو سعد شيئًا من الشعر.

الدّسكرة أيضًا: قرية في طريق خراسان قريبة من شهر أبان، وهي دسكرة الملك، كان هرمز بن سابور بن أرد شير بن بابك يكثر المقام بها فسمّيت بذلك، ينسب إليها الحافظ الدّسكري، والحافظ لقب له وليس لحفظه الحديث، وينسب إليها أبو العباس أحمد ابن بكرون بن عبد الله العطّار الدّسكري، سمع أبا طاهر المخلص، وروى عنه الحافظ أبو بكر الخطيب، وتوفي سنة ٤٣١هـ.

الدّسكرة أيضًا: قرية مقابل جَبّل، منها كان أبان بن أبي حمزة جدّ محمد بن عبد الملك ابن أبان بن أبي حمزة بن الزيات الوزير، وفي أخبار نافع بن الأزرق أنه من نواحي الأهواز(١).

الدّسكرة أيضًا: قرية بخوزستان، عن البشّاري.

قلت: هذا ما تيسّر من الحديث عن المواضع التي تسمى بهذا الاسم.

دِمَشْق: بدال مكسورة مهملة وميم مفتوحة وشين معجمة ساكنة، وآخره قاف مثناة: مدينة مشهورة في بلاد الشام.

روى البخاري في صحيحه عن الزهري يقول دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت له: ما يبكيك فقال: لا أعرف شيئًا مما أدركت إلا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضُيّعت.

قال ياقوت: دمشق الشام: بكسر أوله، وفتح ثانيه، هكذا رواه الجمهور، والكسر لغة فيه، وشين معجمة، وآخره قاف: البلدة المشهورة قصبة الشام، وهي جنّة الأرض بلا خلاف؛ لحسن عمارة، ونضارة بقعة، وكثرة فاكهة، ونزاهة رقعة، وكثرة مياه، ووجود مآرب، قيل: سُمّيت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي: أسرعوا. وناقة دمشق، بفتح الدال وسكون الميم: سريعة، وناقة دمشقة اللحم: خفيفة، قال الزّفيان:

وصاحبي ذات هباب دمشق

وقال أهل السير: سُمّيت دمشق بدماشق ابن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، فهذا قول ابن الكلبي، وقال في موضع آخر: ولد يقظان بن عامر سالف وهم السلف، وهو الذي بنى قصبة دمشق، وقيل أول مَنْ بناها بيوراسف، وقيل: بنيت دمشق على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمس وأربعين سنة من جملة الدّهر الذي يقولون إنه سبعة آلاف سنة، وولد إبراهيم الخليل، عليه السلام، بعد

---

(١) جَبّل: بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها ولام: بليدة بين النّعمانية وواسط في الجانب الشّرقي كانت مدينة، وأما الآن فإني رأيتها مرارًا، وهي قرية كبيرة، وإيّاها عنىٰ البحتري بقوله:

حنانيك من هول البطائح سائراً ... على خطر والريح هول دبورها
لئن أوحشتني جبُل وخصاصها ... لما آنستني واسط وقصورها

معجم البلدان.

بنائها بخمس سنين، وقيل: إنَّ الذي بنى دمشق جيرون بن سعد بن عاد بن إرم ابن سام بن نوح، عليه السلام وسمّاها إرم ذات العماد، وقيل إنَّ هوداً عليه السلام، نزل دمشق وأسّس الحائط الذي في قبلي جامعها.

وقيل: إن العازر غلام إبراهيم عليه السلام، بنى دمشق وكان حبشيًا وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار، وكان يسمّى الغلام دمشق فسمّاها باسمه، وكان إبراهيم عليه السلام قد جعله على كلّ شيء له، وسكنها الروم بعد ذلك.

وقال غير هؤلاء: سميت بدماشق بن نمرود ابن كنعان وهو الذي بناها وكان معه إبراهيم، كان دفعه إليه نمرود بعد أن نجّى الله ﷻ إبراهيم من النار وقال آخرون: سميت بدمشق ابن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام، وهو أخو فلسطين وايليا وحمص والأردن، وبنى كل واحد موضعًا فسمي به.

وقال أهل الثقة من أهل السير: إن آدم، عليه السلام، كان ينزل في موضع يعرف الآن ببيت أنات حوّاء في بيت لهيا، وهابيل في مقرى، وكان صاحب غنم وقابيل في قنينة، وكان صاحب زرع، وهذه المواضع حول دمشق، وكان في الموضع الذي يعرف الآن بباب الساعات عند الجامع صخرة عظيمة يوضع عليها القربان فما يقبل منه تنزل نار تحرقه وما لا يقبل بقي على حاله، فكان هابيل قد جاء بكبش سمين من غنمه فوضعه على الصخرة فنزلت النار فأحرقته، وجاء قابيل بحنطة من غلّته فوضعها على الصخرة فبقيت على حالها، فحسد قابيل أخاه وتبعه إلى الجبل المعروف بقاسيون المشرف على بقعة دمشق وأراد قتله، فلم يدر كيف يصنع فأتاه إبليس فأخذ حجرًا وجعل يضرب به رأسه فلمّا رآه أخذ حجرًا فضرب به رأس أخيه فقتله على جبل قاسيون، وأنا رأيت هناك حجرًا عليه شيء كالدم يزعم أهل الشام أنه الحجر الذي قتله به وأن ذلك الاحمرار الذي عليه أثر دم هابيل، وبين يديه مغارة تزار حسنة يقال لها مغارة الدم، لذلك رأيتها في لحف الجبل الذي يعرف بجبل قاسيون.

وقالوا في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٥٠] قال: هي دمشق ذات قرار وذات رخاء من العيش وسعة ومعين كثيرة الماء، وقال قتادة في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلتِّينِ﴾، قال: الجبل الذي عليه دمشق، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾: الجبل الذي عليه بيت المقدس، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: شعب حسن، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: مكة، وقيل: إرم ذات العماد دمشق.

وقال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الأبلّة، وحشوش الدنيا ثلاثة: الأبلة وسيراف وعمان، وقال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الشاعر الأديب: جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصغد سمرقند. وشعب بوّان، وجزيرة الأبلّة، وقد رأيتها كلها وأفضلها دمشق.

وفي الأخبار: أن إبراهيم، عليه السلام، ولد في غوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل قاسيون. وعن النبي ﷺ أنه قال: إن عيسى، عليه السلام، ينزل عند المنارة البيضاء من شرقي دمشق.

قال ياقوت: ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها، كثرة الأنهار بها، وجريان الماء في قنواتها، فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب إلى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر، وما رأيت بها مسجدًا ولا مدرسة ولا خانقاً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ويسح

في ميضئه، والمساكن بها غزيرة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها، ولها ربض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه، وهي في أرض مستوية تحيط بها من جميع جهاتها الجبال الشاهقة، وبها جبل قاسيون ليس في موضع من المواضع أكثر من العبّاد الذين فيه، وبها مغاور كثيرة وكهوف وآثار للأنبياء والصالحين لا توجد في غيرها، وبها فواكه جيّدة فائقة طيّبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حرّان وما يقارب ذلك فتعمّ الكل، وقد وصفها الشعراء فأكثروا، وأمّا جامعها فهو الذي يضرب به المثل في حسنه، وجملة الأمر أنه لم توصف الجنّة بشيء إلا وفي دمشق مثله، ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجد من جميع البلد، وفتحها المسلمون في رجب سنة ١٤هـ.

وأما جامعها فقد وصفه بعض أهل دمشق فقال: هو جامع المحاسن، كامل الغرائب، معدود إحدى العجائب، قد زوّد بعض فرشه بالرخام، وألّف على أحسن تركيب ونظام، وفوق ذلك فصّ أقداره متفقة وصنعته مؤتلفة. بساطه يكاد يقطر ذهبًا، ويشتعل لهبًا، وهو منزّه عن صور الحيوان إلى صنوف النبات وفنون الأغصان، لكنها لا تجنى إلا بالأبصار، ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الأشجار والثمار، بل باقية على طول الزمان مدركة بالعيان في كل أوان، لا يمسّها عطش مع فقدان القطر، ولا يعتريها ذبول مع تصاريف الدّهر.

وقالوا عجائب الدنيا أربع: قنطرة سنجة، ومنارة الإسكندرية، وكنيسة الرّها، ومسجد دمشق.

وكان قد بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان ذا همّة في عمارة المساجد، وكان الابتداء بعمارته في سنة ٨٧هـ، وقيل سنة ٨٨هـ، ولمّا أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم: إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم يعني كنيسة يوحنّا ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وإن شئتم أضعفنا لكم الثمن، فأبوا وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد وقالوا: إنّا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق، فقال لهم الوليد: فأنا أول مَنْ يهدمها فقام وعليه قباء أصفر فهدم وهدم الناس، ثم زاد في المسجد ما أراده واحتفل في بنائه بغاية ما أمكنه.

وقد تحدث ياقوت: عن دمشق حديثًا أسهب فيه. في وصفها وفي جغرافيتها وفي وصف مسجدها، وأسهب في حديثه عن مَنْ سكنها من الصحابة والتابعين ﵃، ومن أعيان المسلمين ومن مشاهير العلماء والمحدثين، حديثًا لا يتّسع له مقامنا هذا، بل إن غيره من المؤرخين قد أطالوا في هذا الصدد لمن أراد أن يستقصي في تاريخ هذه المدينة.

وفي الروض المعطار قال الحميري: دمشق: هي قاعدة الشام ودار ملك بنى أميّة، سُمّيت باسم صاحبها الذي بناها وهو دمشق ابن قاني بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح ﵇، وقيل: سُمّيت بدماشق بن نمرود ابن كنعان.

قال عياض: هي بكسر الدال وفتح الميم ومنهم مَنْ يكسر الميم، وهي ذات العماد في قول عوف بن خالد وعكرمة وغيرهما وقيل غير ذلك، قال مؤرخو أخبار العجم: في شهر أيار بنى دمشوش الملك مدينة جلّق وهي مدينة دمشق، وحفر نهرها بردى ونقره في الجبل حتى جرى إلى المدينة.

وسور دمشق تراب، ولها أربعة أبواب: الباب الغربي وهو باب الجابية، والباب الجنوبي ويسمى باب توما ويقال له اليوم باب المصادمة، والباب الشرقي وهو باب الغوطة، ومن الباب الشرقي دخل خالد بن الوليد ومنه فتح دمشق، والباب الشمالي هو باب الفراديس وهو باب كيسان، ونهرها يحيط بمدينتها من كلّ ناحية حتى يلتقي من جهة الغوطة، وفي باب توما أربعة أنهار: نهر برزة، ونهر ثورا، ونهر يزيد، ونهر القناة، وتسير في مدينة دمشق حتى تنتهي إلى باب الفراديس مقدار ميل إلى عين حرّان، وهي ثلاث ديارات، وقصر ابن طولون إلى جانبه، ومما يلي الباب الغربي وهو باب الجابية المصلّى، وتسير من المدينة في بساتين إلى باب صغير وعليه خمس صوامع للرهبان. وفي سور دمشق فتح كالأبواب تدخل منها الأنهار إلى المدينة وهي تجري داخل المدينة وتخرق دورها وأسواقها، والأسواق كلها مسقّفة على هيئة سقوف المسجد الجامع بها، وأرضها مفروشة.

ومسجدها جامعها بناه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين، وهو داخل المدينة، وليس على وجه الأرض مثله بناء ولا أحسن صفة ولا أتقن إحكامًا ولا أبدع منه تلميعًا بأنواع الفصوص المذهبة والآجر المحكوك والمرمر المصقول.

قلت: وقد أطال صاحب الروض وغيره من المؤرخين في الحديث عن مدينة دمشق وعن جامعها، وفصّلوا في بنائه ووصفه غير أنَّ مقامنا هذا لا يتّسع لاستيعاب كلّ ما قاله المؤرخون.

أما فتحها: قال البلاذري: ولمّا فرغ المسلمون من قتال مَنْ اجتمع لهم بالمرج أقاموا خمس عشرة ليلة، ثم رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرّم سنة أربع عشرة. فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة. وتحصّن أهل المدينة وأغلقوا بابها، فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف، ضمّهم إليه أبو عبيدة. وقوم يقولون إنّ خالدًا كان أميرًا، وإنما أتاه عزله وهم محاصرون دمشق، وسُمّي الدير الذي نزل عنده خالد دير خالد. ونزل عمرو ابن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل على باب الفراديس، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير إلى الباب الذي يعرف بكيسان، وجعل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلحة ببرزة، وكان الأسقف الذي أقام لخالد النزل في بدأته ربما وقف على السور فدعي له خالد: فإذا أتى سلّم عليه وحادثه. فقال له ذات يوم: يا أبا سليمان إن أمركم مقبل، ولي عليك عدة فصالحني عن هذه المدينة، فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.

ثم إن بعض أصحاب الأسقف أتى خالدًا في ليلة من الليالي فأعلمه أنها ليلة عيد لأهل المدينة، وأنهم في شغل، وأن الباب الشرقي قد ردم بالحجارة وترك وأشار عليه أن يلتمس سلّمًا فأتاه قوم من أهل الدير الذي عند عسكره بسلّمين فرقى جماعة من المسلمين عليهما إلى أعلى السور ونزلوا إلى الباب

وليس عليه إلا رجل أو رجلان، فتعاونوا عليه وفتحوه، وذلك عند طلوع الشمس.

وقد كان أبو عبيدة بن الجراح عانى فتح باب الجابية وأصعد جماعة من المسلمين على حائطه، فانصبّ مقاتلو الروم إلى ناحيته فقاتلوا المسلمين قتالاً شديدًا، ثم إنهم ولّوا مدبرين، وفتح أبو عبيدة والمسلمون معه باب الجابية عنوة، ودخلوا منه فالتقى أبو عبيدة وخالد بن الوليد بالمقلّاط وهو موضع النحاسين بدمشق، وهو البريص الذي ذكره حسّان بن ثابت في شعره حين يقول:

يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفّق بالرحيق السلسل

وقد روي أن الروم: أخرجوا ميتًا لهم من باب الجابية ليلاً وقد أحاط بجنازته خلق من شجعانهم وكماتهم، وانصبّ سائرهم إلى الباب فوقفوا عليه ليمنعوا المسلمين من فتحه ودخوله إلى رجوع أصحابهم من دفن الميت، وطمعوا في غفلة المسلمين عنهم، وإن المسلمين بدروا بهم فقاتلوهم على الباب أشدّ قتال وأبرحه حتى فتحوه في وقت طلوع الشمس. فلمّا رأى الأسقف أن أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي، فدخل الأسقف معه ناشرًا كتابه الذي كتبه له، فقال بعض المسلمين: والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه؟ فقال أبو عبيدة: إنه يجيز على المسلمين أدناهم. وأجاز صلحه وأمضاه، ولم يلتفت إلى ما فتح عنوة، فصارت دمشق صلحًا كلها. وكتب أبو عبيدة بذلك إلى عمر وأنفذه وفتحت أبواب المدينة فالتقى القوم جميعًا.

وقال الواقدي: وكان فتح مدينة دمشق في رجب سنة أربعة عشرة وتاريخ كتاب خالد لصلحها في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة، وذلك أن خالدًا كتب الكتاب بغير تاريخ فلمّا اجتمع المسلمون للنهوض إلى مَنْ تجمّع لهم باليرموك أتى الأسقف خالدًا فسأله أن يجدّد له كتابًا ويشهد عليه أبا عبيدة والمسلمين، ففعل وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد ابن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة وغيرهم، فأرّخ بالوقت الذي جدّده.

قلت: هذا ما تيسّر من خلاصة تاريخ مدينة دمشق ـ عاصمة الدولة الإسلامية أيام الخلافة الأموية ـ ومدينة دمشق ما زالت عامرة لها شأنها السياسي والاجتماعي، وهي عاصمة الجمهورية السورية في الشام في هذا العهد، وشهرتها قديمًا وحديثًا تغني عن الإطالة في الحديث عنها.

دومة الجندل: بضم الدال المهملة بعدها واو ساكنة ثم ميم مفتوحة وآخره هاء، والجندل بفتح أوله وسكون ثانية، مضاف إليه: مدينة في بلاد الجوف في شمال الجزيرة العربية.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ودّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ـ الحديث.

قال ياقوت: دومة الجندل: بضم أوله وفتحه، وقد أنكر ابن دريد الفتح وعدّه من أغلاط المحدّثين، وقد جاء في حديث الواقدي دوماء الجندل، وعدّها ابن الفقيه من أعمال المدينة، سُمّيت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم، وقال الزّجاجي: دومان بن إسماعيل، وقيل: كان لإسماعيل ولد اسمه دوما ولعله مغيّر منه.

وقال ابن الكلبي: دوماء بن إسماعيل، قال: ولمّا كثر ولد إسماعيل عليه السلام بتهامة خرج

دوما بن إسماعيل حتى نزل موضع دومة وبنى به حصنًا فقيل دوماء ونسب الحصن إليه، وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول ﷺ، وقال ابن سعد: دومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ، قال: ومن قبل مغربه عين تثج فتسقي ما به من النخل والزرع، وحصنها مارد، وسُمّيت دومة الجندل؛ لأنَّ حصنها مبني بالجندل، وقال أبو عبيد السّكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء كانت به بنو كنانة من كلب، قال: ودومة من القريّات، من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال، والقريّات: دومة وسكاكة وذو القارة.

فأما دومة فعليها سور يتحصّن به، وفي داخل السّور حصن منيع يقال له مارد، وهو حصن أكيدر الملك بن عبد الملك بن عبد الحي ابن أعياد بن الحارث بن معاوية بن خلاوة ابن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب ابن السكّون بن أشرس بن ثور بن عفير وهو كندة السكّوني الكندي.

كان النبي ﷺ وجّه إليه خالد بن الوليد من تبوك وقال له ستلقاه يصيد الوحش، وجاءت بقرة وحشية فحكّكت قرونها بحصنه فنزل إليها ليلاً ليصيدها فهجم عليه خالد فأسره وقتل أخاه حسّان بن عبد الملك وافتتحها خالد عنوة، وذلك في سنة تسع للهجرة، ثم إن النبي ﷺ صالح أكيدر على دومة وآمنه وقرّر عليه وعلى أهله الجزية، وكان نصرانيًا فأسلم أخوه حريث فأقرّه النبي ﷺ، على ما في يده، ونقض أكيدر الصلح بعد النبي ﷺ، فأجلاه عمر ﷺ، من دومة فيمن أجلى من مخالفي دين الإسلام إلى الحيرة فنزل في موضع منها قرب عين التمر وبنى به منازل وسمّاها دومة، وقيل: دومة باسم حصنه بوادي القرى، فهو قائم يعرف إلا أنه خراب، قال: وفي إجلاء عمر ﷺ. أكيدر يقول الشاعر:

يا مَنْ رأى ظعنا تحمّل غدوة
مـن آل أكدر شجوه يعنيني
قد بدّلت ظعننا بدار إقامة
والسير من حصن أشمّ حصين

وأهل كُتب الفتوح مجمعون على أنَّ خالد ابن الوليد، ﷺ، غزا دومة أيام أبي بكر ﷺ، عند كونه بالعراق في سنة ١٢هـ، وقتل أكيدر لأنه كان نقض وارتدّ، وعلى هذا لا يصح أن عمر ﷺ. أجلاه وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر ﷺ.

وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد ابن جابر في كتاب الفتوح له، وأنا حاكٍ جميع ما قاله على الوجه، قال بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﷺ، سنة تسع إلى أكيدر ابن عبد الملك بدومة الجندل فأخذه أسيرًا وقتل أخاه، وقدم بأكيدر على النبي ﷺ وعليه قباء ديباج بالذهب، فأسلم أكيدر وصالح النبي ﷺ، على أرضه وكتب له ولأهل دومة الجندل كتابًا... ثم عاد أكيدر إلى دومة، فلما مات رسول الله ﷺ، منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناءً وسمّاه دومة، وأسلم حريث بن عبد الملك أخوه على ما في يده فسلم له ذلك، فقال سويد بن الكلبي:

فلا يأمنن قوم زوال جدودهم
كما زال عن خبت ظعائن أكدرا

وتزوج يزيد بن معاوية ابنة حريث، وقيل إن خالدًا لمّا انصرف من العراق إلى الشام مرّ بدومة الجندل التي غزاها أولاً بعينها وفتحها وقتل أكيدرًا، قال: وقد روي أن أكيدرًا كان منزله أولاً بدومة الحيرة، وهي كانت منازله، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب، وأنه لمعهم

وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدّمة لم يبق إلا حيطانها وهي مبنية بالجندل فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة فهذا يزيل الاختلاف.

قال ابن سعد: غزوة رسول الله ﷺ دومة الجندل في شهر ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرًا من مهاجره، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل جمعًا كثيرًا، وأنهم يظلمون مَنْ مرّ بهم من الضافطة، وأنهم يريدون أن يدنو من المدينة، وهي طرف من أفواه الشام بينها وبين دمشق خمس ليال، وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة، فندب رسول الله ﷺ الناس، واستخلف على المدينة سبّاع بن عرفطة الغفاري، وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة، يقال له مذكور، فلما دنا منهم إذا هم مغرّبون، وإذا آثار النعم والشاء فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب مَنْ أصاب، وهرب مَنْ هرب في كلّ وجه. وجاء الخبر أهل دومة فتفرّقوا، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحدًا فأقام بها أيامًا وبثّ السّرايا وفرّقها فرجعت ولم تصب منهم أحدًا وأخذ منهم رجل فسأله رسول الله ﷺ، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدًا لعشر ليال بقين من شهر ربيع الآخر. وروى بسنده عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الرحمٰن بن عوف في سبعمائة إلى دومة الجندل، وذلك في شعبان سنة ست من الهجرة، فنقض عمامته بيده ثم عمّمه بعمامة سوداء فأرخى بين كتفيه منها، فقدم دومة فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ثلاثًا، ثم أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبيّ وكان نصرانيا، وكان رأسهم فبعث عبد الرحمٰن فأخبر النبي ﷺ بذلك، فكتب إليه أن تزوّج تماضر بنت الأصبغ، فتزوّجها عبد الرحمٰن وبنى بها وأقبل بها وهي أم أبي سلمة ابن عبد الرحمٰن.

وقال ابن سعد: بعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد في أربعمائة وعشرين فارسًا، في رجب سنة تسع سرية إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة ـ كان بعث النبي ﷺ في غزوة تبوك ـ وكان أكيدر من كندة قد ملكهم، وكان نصرانيًا، فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسّان، فشدّت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسّان وقاتل حتى قتل، وهرب مَنْ كان معهما فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح، فعزل للنبي ﷺ، صفيًّا خالصًا، ثم قسم الغنيمة فأخرج الخمس، وكان للنبي ﷺ، ثم قسم ما بقي بين أصحابه، فصار لكل رجل منهم خمس فرائض ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد وكان في الحصن وبما صالحه عليه قافلاً إلى المدينة، فقدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فأهدى له هدية فصالحه على الجزية، وحصّن دمه ودم أخيه وخلّى سبيلهما. وكتب له رسول الله ﷺ كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذٍ بظفره.

قلت: كانت هذه المدينة هي أشهر مدن بلاد الجوف وأعرقها تاريخًا، وكانت هي مقر إدارة

البلاد على مرّ العصور، غير أن مدينة سكاكة ـ المدينة الثانية من مدن الجوف ـ أخذت في الظهور كمنافس لها في المركز الاجتماعي والعمراني، وقد كان نقل مقر إمارة الجوف من مدينة دومة الجندل إلى سكاكة بداية تحول واضح بالنسبة لكلتا المدينتين.

وقد أشار حمد الجاسر إلى ذلك فقال: دومة الجندل هي أشهر بلدة في الجوف وكان الاسم عند إطلاقه يقع عليها، وكانت قاعدة تلك البلاد حتى كان عام ١٣٧٠هـ حينما كان الأمير تركي بن أحمد السّديري أميراً لهذه البلاد، فنقل القاعدة في ذلك العهد إلى سكاكة، وتبعد الجوف (دومة الجندل) عن سكاكة خمسين كيلا.

قلت: وبعد نقل مقر الإمارة مرّت بفترة ركود نسبي غير أن النهضة الاجتماعية والعمرانية التي عمّت في أنحاء المملكة شملتها، فأخذت بنصيبها منها وفي السنوات الأخيرة تطوّرت تطوّراً ملحوظاً في مرافقها الحيوية، فطوّرت مرافقها الأمنية وبلديتها واستكمل فيها التعليم مراحله الابتدائية والمتوسطة والثانوية للبنين وللبنات، وظهرت فيها المباني الحديثة الضخمة، وسفلتت شوارعها، وأنيرت بالكهرباء، فوصل التيار الكهربائي إلى كل حي من أحياء المدينة ودخل في كل بيت وسوّرت المقابر القديمة وهذّبت الشوارع والطرقات، وتوفّرت فيها المرافق الاجتماعية المختلفة، وقامت فيها سوق تجارية، وقد شيّدت الأسواق والمتاجر بالأسمنت المسلح، ونمت فيها الحركة التجارية، وارتفعت أثمان البيوت والدكاكين، وامتدّ عمرانها وتوسعت أنحاؤها.

ومن أبرز المعالم التاريخية العريقة في القدم ـ في هذه المدينة ـ (حصن مارد) الذي اشتهر بهذا الاسم على مرّ العصور وما زال معروفاً به وآثار (حصن البرج)، و(مسجد عمر) ذي المئذنة الحجرية البارزة التي تتميّز بطرازها المعماري الحجري. وما زالت هذه المئذنة قائمة عامرة ومستعملة للأذان.

وقد استوفيت الحديث عن هذه المدينة من الناحية الجغرافية والناحية التاريخية والناحية الاجتماعية في كتابي (بلاد الجوف أو دومة الجندل) من كل جوانبه، بما فيه كفاية.

دومة أيضًا: قال ياقوت: بالضم، من قرى غوطة دمشق، غير دومة الجندل، كذا حدثني المحبّ عن الدمشقيين، منها عبد الله ابن هلال بن الفرات أبو عبد الله الرّبعي الدّومي الدّمشقي، سكن بيروت وكان أحد الزهاد حدّث عن إبراهيم بن أيوب الحوراني وأحمد بن عاصم الأنطاكي، وأحمد ابن أبي الحواري وهشام بن عمّار، وروى عنه أبو حاتم الرّازي وأبو العباس الأصمّ ومحمد ابن المنذر، وشكّر الهروي، وأبو نعيم الإستراباذي، وعبد الرحمٰن بن داود ابن منصور، ذكره أبو القاسم، وينسب إلى دومة جماعة من رواة الحديث، منهم: شجاع ابن بكر بن محمد أبو محمد التميمي الدومي، حدّث عن أبي محمد هشام بن محمد الكوفي، روى عنه عبد العزيز الكناني.

بَابُ الذَّال

ذات الجيش: بجيم معجمة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره شين مثلثة: موضع قريب من المدينة.

روى البخاري بسنده عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال: ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمّم فتيمّموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر قالت فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحته. ا.هـ.

قال ابن حجر: قولها: حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، وهما بين المدينة وخيبر كما جزم به النووي. قلت: وما جزم به مخالف لما جزم به ابن التين فإنه قال: البيداء هي ذو الحليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة، قال: وذات الجيش وراء ذي الحليفة في طريق مكة. وقال أيضًا: ذات الجيش من المدينة على بريد، قال وبينها وبين العقيق سبعة أميال، والعقيق من طريق مكة لا من طريق خيبر، فاستقام ما قاله ابن التين ا.هـ.

وقال ياقوت: الجيش: بالفتح ثم السكون، ذات الجيش: جعلها بعضهم من العقيق بالمدينة، وأنشد لعروة بن أذينة:

كاد الهوى يوم ذات الجيش يقتلني
لمنزلٍ لم يهج للشوق من صقب

ويقال: إن قبر نزار بن معدّ وقبر ابنه ربيعة بذات الجيش، وقال بعضهم: أولات الجيش موضع قرب المدينة وهو واد بين ذي الحليفة وتربان، وهو أحد منازل رسول الله ﷺ، إلى بدر وإحدى مراحله عند منصرفه من غزاة بني المصطلق، وهناك جيش رسول الله ﷺ في ابتغاء عقد عائشة ونزلت آية التيمّم، وقال جعفر بن الزبير بن العوام.

لمن ربع بذات الجيـ
ـش أمسى دارسًا خلقا
كلفت بهم غداة غد
ومرّت عيسهم فرقا
تنكّر بعد ساكنه
فأمسى أهله فرقا
علونا ظاهر البيدا
ء والمحزون من قلقا

قال البكري: ذات الجيش: ذكر القتبي أن ذات الجيش من المدينة على بريد. وروى مالك عن يحيى بن سعيد أنه قال: قلت لسالم بن عبد الله: ما أشدّ ما رأيت ابن عمر أخّر المغرب في السفر؟ قال: غربت له الشمس بذات الجيش فصلاّها بالعقيق. قال يحيى بن يحيى: بين ذات الجيش والعقيق ميلان، وفي تفسير ابن الموّاز عن ابن وهب، أن بين ذات الجيش والعقيق خمسة أميال، وقال عيسى عن ابن القاسم: بينهما عشرة أميال. وذكر مطرّف أن العقيق من المدينة على ثلاثة أميال. وإذا نظرت هذه ونظرت قول القتبي صحّ قول ابن القاسم. ا.هـ.

قال المطري: فأمّا ذات الجيش فنقب ثنية الحفيرة من طريق مكة والمدينة.

وقال السمهودي: ذات جيش على ستة أميال من ذي الحليفة ـ وعن ابن وهب أنها على ستة أميال من العقيق، وكأنه أراد من طرفه الذي بذي الحليفة، ويقرب منه قول ابن وضّاح: هي على سبعة أميال من العقيق، وقال ابن القاسم: بينها وبين العقيق عشرة أميال، وعن الثعلبي: اثني عشر ميلاً، وقيل: بينهما ميلان.

وقال الشنقيطي: ذات الجيش: الوادي الواقع على طريق المدينة جدة في وسط البيداء بعد ذي الحليفة، ويقع قبله جسر تقاطع الشارع الموصل على خط الهجرة مع شارع جدة، وعلى هذا الوادي جسر قوي وحديث.

قلت: اختلفت أقوال العلماء ـ فيما تقدم ـ في تحديد موقع ذات الجيش، وجهته من المدينة، وتقدير المسافة بينه وبين المدينة، حتى إن أحدهم قال: ذات الجيش والبيداء في الطريق بين المدينة وخيبر ـ وقد أبعد النجعة في هذا القول ـ ولا تكاد تخرج من هذه الأقوال بقول يجمع بينها، ويحدّد موقع ذات الجيش، غير أنّ هذه الأقوال ـ مع اختلاف بينها ـ لا تكاد تبعد في تحديده عن العقيق وعن البيداء وعن تربان.

وهذا الموضع ـ أعني ذات الجيش ـ له شهرة في غزوات النبي ﷺ، قال ابن إسحاق في وصف طريق النبي ﷺ إلى بدر في غزوته الكبرى: فسلك طريقه من المدينة إلى مكة، على نقب المدينة، ثم على العقيق ثم على ذي الحليفة، ثم على أولات الجيش ـ قال ابن هشام ـ ذات الجيش ـ قال ابن إسحاق: ثم مرّ على تربان، ثم على ملل ثم غميس الحمام إلى آخر الطريق.

قلت: وممّا ذكر ابن إسحاق، يتحدّد موقع ذات الجيش فيما بين ذي الحليفة وتربان.

ومن ظاهر الحديث فيما قالته عائشة رضي الله عنها: كنا بالبيداء أو بذات الجيش، وقد تقدم في رسم البيداء: أن البيداء واقعة بين ذي الحليفة وبين ذات الجيش، غير أن ابن إسحاق تجاوز البيداء وقال: من ذي الحليفة على ذات الجيش، وهذه المواضع الثلاثة ذو الحليفة والبيداء وذات الجيش يتصل بعضها ببعض، أدناها ممّا يلي المدينة ذو الحليفة ويليه وراءه البيداء وبعد البيداء ذات الجيش.

وقال عاتق البلادي: ذو الحليفة، يسمى اليوم آبار علي: بلدة عامرة على تسعة أكيال من المدينة إلى مكة، يأخذ على البيداء ثم ذات الجيش، فتربان.

وقال أيضًا: تجهّزت للقيام برحلة ـ يعني من المدينة ـ وكان الطريق على ذي الحليفة جنوبًا غربيًا، وبعد (٢٤) كيلاً صعدت ريعة ذات الجيش، وتسمى اليوم مفرّحات وهي ريعة تسيل منها تلعة كبيرة تسمى الشّلبية، وهي التي كانت تعرف بذات الجيش إلى مطلع الشمس

فتصب في العقيق عند قرية الوسطة، على يسار طريقنا هذا.
ومن هذه الريعة يسيل وادي تربان إلى الجنوب الغربي فيجتمع بملل وفي مفرّحات مقاةٍ ونزل قليل.
قلت: فيما ذكره ابن إسحاق في تحديد ذات الجيش وما قاله عاتق البلادي عن مشاهدته لهذه المواضع في رحلته تحديدٌ متوافق لموقع ذات الجيش الذي أصبح في هذا العهد يسمى: مفرّحات. وفي رسم البيداء مزيد من الإيضاح ـ وقد تقدم ـ فانظره.

ذات السلاسل: بسين مهملة مفتوحة بعدها لام وألف، وبعد الألف سين مهملة مكسورة وآخره لام: موضع بأرض جذام.
قال البخاري: غزوة ذات السلاسل، وهي غزوة لخم وجذام، قال إسماعيل ابن أبي خالد، وقال ابن إسحاق عن يزيد عن عروة هي: بلاد بلي وعذرة وبني بلقين.
وروى بسنده عن أبي عثمان أنّ رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل.
قال ابن حجر: ذات السلاسل: بالمهملتين والمشهور أنها بفتح الأولى، على لفظ جمع السلسلة، وضبطه كذلك أبو عبيد البكري، قيل: سُمّي المكان بذلك؛ لأنه كان به رمل بعضه على بعض كالسلسلة، وضبطها ابن الأثير بالضم وهو بمعنى السلسال أي: السهل.
وقيل: سُمّيت بذات السلاسل؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفرّوا، وقيل: لأن بها ماء يقال له السلسل.
وقال ابن إسحاق: ذات السلاسل من أرض بني عذرة وذلك أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص يستنفر العرب إلى الشام ـ وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بلي ـ فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يستألفهم لذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام، يقال له: السلسل، وبذلك سُمّيت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل، فلمّا كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدّه، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجرّاح في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبي عبيدة حين وجّهه: لا تختلفا.
وقال الواقدي: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من بلي وقضاعة قد تجمّعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة... وأمره أن يستعين بمن مرّ به من العرب وهي بلاد بلي وعذرة وبلقين، وذلك أن عمرو بن العاص كان ذا رحم بهم، كانت أم العاص بن وائل بلويّة، فأراد رسول الله ﷺ أن يتألفهم بعمرو، فسار فكان يكمن النهار ويسير الليل، وكانت معه ثلاثون فرسًا، فلمّا دنا من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا فنزل قريبًا منهم وهم شاتون.
وبعث رافع بن مكيث الجهنيّ إلى رسول الله ﷺ يخبره أن لهم جمعًا كثيرًا ويستمدّه بالرجال، فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح وعقد له لواء، وبعث معه سراة المهاجرين ـ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ـ والأنصار. وأمره رسول الله ﷺ أن يلحق عمرو بن العاص فخرج أبو عبيدة في مائتين، وأمره أن يكونا جميعًا ولا يختلفا، فساروا حتى لحقوا بعمرو بن العاص... فصاروا خمسمائة، فساروا الليل والنهار حتى وطىء بلاد بلي ودوّخها، وكلّ ما انتهى إلى موضع بلغه أنه

كان بهذا الموضع جمع فلمّا سمعوا به تفرّقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا ليس بالكثير، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنّبل، . . وحمل المسلمون عليهم فهربوا، وأعجزوا هربًا في البلاد وتفرّقوا، ودوّخ عمرو ما هناك وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا بمكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنّعم وكانوا ينحرون ويذبحون، لم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن غنائم تقسم إلا ما ذكر له. ا.هـ.

قال ياقوت: السلاسل: بلفظ جمع السلسلة: ماء بأرض جذام، وبذلك سُمّيت ذات السلاسل، وقال ابن إسحاق: اسم الماء سلسل وبه سُمّيت ذات السلاسل، وقال جران العود:

وفي الحيّ ميلاء الخمار كأنّها
مهات بهجل من أديم تعطّف
كأن ثناياها العذاب وريقها
ونشوة فيها خالطتهنّ قرقف
يشبّهها الرّائي المشبّه بيضة
غدا في الندى عنها الظّليم الهجنّف
بجرعاء من ذات السّلاسل يلتقي
عليها من العلقى نبات مؤنّف

وقال الرّاعي:

ولمّا علت ذات السلاسل وانتحى
لها مصغيات للفجاء عواسر

وقال ابن سعد: ذات السلاسل: وراء القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام، وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان من مهاجر رسول الله ﷺ.

قلت: لم يختلف العلماء في غزوة ذات السلاسل - جهتها وما لقيه عمرو بن العاص ومَنْ معه من المسلمين في هذه الغزوة - أمّا موقع ذات السلاسل فقد ذكروا أنه في بلاد جذام وأنه يبعد عن المدينة شمالاً عشر ليال.

ذات عرْق: بكسر العين المهملة وسكون الراء المهملة وآخره قاف: ميقات الحج لأهل العراق.

روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال لمّا فتح هذان المصران أتوا عمر فقالوا يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ حدّ لأهل نجد قرنًا وهو جور عن طريقنا، وإنْ أردنا قرنا شقّ علينا، قال: فانظروا حذوها من طريقكم فحدّ لهم ذات عرق.

قال ابن حجر: ذات عِرْق: هي بكسر العين وسكون الراء بعدها قاف، سُمّي بذلك لأنَّ فيه عرقًا وهو الجبل الصغير، وهي أرض سبخة تنبت الطرفا بينها وبين مكة مرحلتان، والمسافة اثنان وأربعون ميلاً، وهو الحدّ الفاصل بين نجد وتهامة.

قال الحربي في المناسك: حدثني عبد الله ابن محمد بن سنان السّعدي قال حدّثنا إبراهيم ابن سيّار، حدّثنا ابن عيينة عن أبيه، قال: قلت لأهل ذات عرق منجدون أنتم أم متهمون؟ قالوا: لا منجدين ولا متهمين، نحن أهل الغور[1].

حدثني عبد الله بن عمرو قال حدثني علي ابن محمد بن زمام الهلالي قال سمعت أبا محمد بن زمام عن أبيه أنَّ ذات عرق سُمّيت على عرق في جبل أبيض، بوادٍ منها يقال له: ذات الحل، وكان ذات عرق بها في جبل

(١) قوله: نحن من أهل الغور غير صحيح.

الجاهلية أبيات قليلة، فلمّا كثر الناس حوّلت إلى ها هنا وكان المهدي بنى بها مسجد المحرم.

حدثني أبو عمر الصّنعاني وغيره، عن موسى بن داود، عن مسلم بن خالد، عن ابن دريد، عن عطاء عن جابر أنَّ النبي ﷺ وقّت لأهل المشرق ذات عرق.

قلت: وفي حاشيته علّق حمد الجاسر بقوله: والصحيح أنه توقيت عمر رضي الله عنه، وفي خلافته افتتحت العراق.

حدّثنا عبد الله بن عمر البلخي، قال: حدثنا عبد الله بن رباح بن الأحوص قال أخبرني كثير بن يحيى بن سوادة، عن أبيه قال: أقبل النبي ﷺ حتى أشرف على ثنية مسجد النّجد، فصلى به، وأشرف على قرية ذات عرق، وكان يقال لها عرق ذات، فسأل عنها، ثم جنّب عنها ولم يدخلها فسمّاها رسول الله ﷺ ذات عرق، وسار حتى ورد قرية يقال لها رهاط، فوقف ناقته، وضرب عصاه فأنبط عيناً، فهي تسقي لأدنى وادي النخل برهاط وأثر ناقته في صفات.

ثم بجانب العين من ذات عرق، على ليلة ممّا يلي القبلة رهاط، وهي قطائع لآل الزبير، ولمحمد بن يوسف الجعفري، وعينهم تسمّى عين النبي ﷺ[1].

وفي أرجوزة ذكرها الحربي في نظم طرق الحج من البصرة إلى مكة.

حتى إذا مرّت بأمّ خرمان
وذاك حين اجتمع الطريقان
عجوا إلى اللّه الغفور المنّان
ثم مضوا مثل الجراد الأرسال
ساجمة أعينهم بالتهمال
قد رفعوا أصواتهم بالأهلال
حتى إذا مرّت بذات عرق
مرّت بها وما بها من طرق

وفي أرجوزة لأحمد بن عمرو، أوردها الحربي قال:

ثم توافينا بذات عرقِ
بمنزل يجمع أهل الطرقِ
من كلّ حج عادل وأفقِ
وليس في إحرامهم من فرقِ
ولا يحلون بدون الحلقِ
شعث يدينون بدين الحقِ
لبّوا وقالوا: يا عزيز أبقِ
بنت أبي الفضل لهذا الخلقِ
وكلّهم يروي بها ويسقي
واللّه يجزي كلّ مستحقِ

وقال لغدة: قال عمارة: ما سال من حرّة بني سليم وحرّة ليلى فهو الغور، حتى يقطعه البحر، وما سال من ذات عرق مغرّبًا عن الحجاز إلى أن تقطعه تهامة، فهو حجاز أسود، يحجز بين نجد وتهامة، وما سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق... وقال إذا جزت ذات عرق إلى البحر فأنت في تهامة، وإذا اجتزت وجرة وغمرة فأنت في نجد إلى أن تبلغ العذيب.

قال ياقوت: ضريبة: بالفتح ثم الكسر، وياء مثناة من تحت، وباء موحدة: وادٍ حجازيّ يدفع سيله في ذات عرق.

وقال الهجري: أنشد لنزار النّعامي في ربيعة ابن عقيل:

هلالية أدنى محلّ تحلّه
ثنية خيل أو فروع الضرائب

---

(١) قلت: رهاط ما زالت قرية عامرة معروفة باسمها.

فروع الضرائب: هضب بأعلى وادي ذات عرق.

وقال حمد الجاسر: ذات عرق: تعرف الآن باسم الضريبة والحنو، ومنها يحرم حجاج شمالي نجد قبل إصلاح طريق السيارات المارّ الآن بـ(قرن المنازل) السيل[1].

قلت: وفي هذا العهد تغلّب اسم الضريبة على ذات عرق ـ كما سلف ـ فأصبح لا يعرف إلا بالضريبة والحنو. ويقال لطريق الحج الذي يمرّ بهذا الميقات: طريق الضريبة وطريق الحنو.

وفي عام ١٣٦١هـ في حجّتي الأولى، وكانت على المطايا، سلكنا من طريق عشيرة في ذهابنا إلى مكة، وأحرمنا من قرن المنازل (السيل)، وفي انصرافنا من الحج إلى نجد سلكنا طريق ذات عرق، وكان لا يعرف إلا باسم الضريبة، أو الحنو.

ذُو الحُلَيْفة: بحاء مضمومة ولام مفتوحة وياء مثناة ساكنة بعدها فاء موحدة مفتوحة وآخره هاء. تصغير حلفة (ذو الحليفة): مكان إحرام أهل المدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر أن رجلاً قام في المسجد فقال: يا رسول الله من أين تأمرنا أن نهلّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «يهلّ أهل المدينة من ذي الحليفة، ويهلّ أهل الشام من الجحفة، ويهلّ أهل نجد من قرن» وقال ابن عمر؛ ويزعمون أنَّ رسول الله ﷺ قال: ويهلّ أهل اليمن من يلملم.

روى بسنده عن أنس رضي الله عنه قال صلّى رسول الله ﷺ ونحن معه بالمدينة الظهر أربعاً والعصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح ثم ركب حتى إذا استوت به على البيداء حمد الله وسبّح وكبّر ثم أهلّ بحج وعمرة، وأهلّ الناس بهما، فلما قدمنا أمر الناس فحلّوا حتى كان يوم التروية أهلّوا بالحج.

قال ابن حجر: ذو الحليفة: بالمهملة والفاء مصغرًا ـ مكان معروف ـ بينه وبين مكة مائتا ميل غير ميلين، قاله ابن حزم، وقال غيره: بينهما عشر مراحل.

وقال النووي: بينها وبين المدينة ستة أميال، ووهم مَنْ قال بينهما ميل واحد، وهو ابن الصبّاغ. وبها مسجد يعرف بمسجد الشجرة، وبها بئر يقال لها: بئر علي. ا.هـ

وقال ياقوت: الحليفة: بالتصغير والفاء، ذو الحليفة، قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ومنها ميقات أهل المدينة، وهو من مياه جشم بينهم وبين بني خفاجة من عقيل. ا.هـ.

وقال البكري: ذو الحليفة. تصغير حلفة، وهي ماء بين بني جشم بن بكر بن هوازن وبين بني خفاجة العقيلتين، رهط توبة، بينه وبين المدينة ستة أميال وقيل سبعة وهو كان منزل رسول الله ﷺ إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة، فكان ينزل تحت شجرة في موضع المسجد، الذي بذي الحليفة، فإذا قدم راجعًا هبط بطن الوادي، فإذا ظهر من بطن الوادي أناخ بالبطحاء على شفير الوادي الشرقية، فعرّس حتى يصبح، فيصلي الصبح فدخل السيل بالبطحاء حتى دفن ذلك المكان الذي كان يعرّس فيه رسول الله ﷺ، فالمسجد الأكبر الذي يحرم الناس منه هو مسجد الشجرة، والآخر يسرة مسجد المعرّس ا.هـ.

(١) مجلة العرب ٧/ ٨٢٧.

قلت: ذكر ياقوت والبكري أن ذا الحليفة ماءة بين بني جشم بن بكر بن هوازن وبين بني خفاجة العقيليين، وهذا القول لا ينطبق على هذا المكان ـ أعني ذا الحليفة الذي هو ميقات أهل المدينة ـ وإنما هو خلط بين هذا الموضع وبين موضع آخر.

وروى المطري: عن الزبير بن بكّار، روى بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه أخبر أنّ رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر وفي حجته حين يحج تحت سمرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة، قلت: هذا المسجد هو المسجد الكبير الذي هنالك، وكان فيه عقود في قبلته ومنارة في ركنه الغربي الشمالي فتهدّم على طول الزمان، والبئر من جهة شماليه وهو مبني في موضع الشجرة التي كانت هنالك، وبها سُمّي مسجد الشجرة. ا.هـ.

وتحدث السمهودي: عن ذي الحليفة وأورد طائفة من أقوال العلماء في تحديدها، وكان فيما قال: قال المجد: هي قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، وهي ذو الحليفة، وميقات أهل المدينة وهو من مياه بني جشم بالجيم والشين المعجمة، بينهم وبين بني خفاجة من عقيل. ا.هـ. وهو تابع لعياض في ذلك، وزاد كونها قرية، وعن عياض أنّ بطن وادي ذي الحليفة من العقيق، وأنّ العقيق من بلاد مزينة، وهذا هو المعروف، وما ذكره هنا بنسبة ذي الحليفة إلى بني جشم إلى آخره غير معروف.. وما ذكره من المسافة موافق لتصحيح النووي كالغزالي أنها على ستة أميال، ويشهد له قول الشافعي كما في المعرفة: قد كان سعيد بن زيد وأبو هريرة يكونان بالشجرة على أقلّ من ستة أميال فيشهدان الجمعة ويدعانها، والمراد بالشجرة: ذو الحليفة.

وقال العزّ بن جماعة: وبذي الحليفة بئر تسميها العوام بئر علي، وينسبونها إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، لظنهم أنه قاتل الجن بها، وهو كذب ونسبتها إليه غير معروفة عند أهل العلم، ولا يرمى بها حجر ولا غيره كما يفعل بعض الجهلة. ا.هـ.

وذكر أقوالاً مختلفة في تحديد ذي الحليفة وذكر مواضع أخرى تسمى بهذا الاسم وقع في بعض الأقوال الخلط بينها، ولم يأت بخلاصة تجمع بين هذه الأقوال المختلفة.

وتحدث الشنقيطي: عن وادي العقيق وقال في حديثه: وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ينيخ بالوادي ويتحرّى معرّس رسول الله ﷺ وهو أسفل المسجد الذي ببطن الوادي بينه وبين الطريق وفيه مسجد المحرم الميقات الآن، ومنه إحرام حاج المدينة والمعتمرين وهو الآن، في وسط قرية ذي الحليفة (أبيار علي) وقيل في سبب تسمية ذي الحليفة بهذا الاسم الجديد إن عليًا رضي الله عنه سكن هناك في أيام الفتنة والبغي على عثمان رضي الله عنه، ورفض عثمان أن يقتل الباغين عليه فسكن علي هناك وإن كان خلّف الحسن والحسين حارسين لعثمان رضي الله عن الجميع.

ومسجد المحرم تعهده الخلفاء بالبناء والتجديد منذ عمر بن عبد العزيز وحتى المملكة العربية السعودية التي بنته بناء حديثًا وجميلاً وفرشته بالسجاد الفاخر وجعلت فيه ثريات الإضاءة وجعلت له ما يلزمه من مرافق: دورات مياه، طرق مرصوفة فجزاهم الله خيرًا. ا.هـ.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره المؤرخون قديمًا في تحديد ذي الحليفة، وذو الحليفة موضع مشهور يعرفه الحجاج والمعتمرون الذين يأتون

من طريق المدينة، فهو ميقات حجهم، ومهما اختلف العلماء في تحديده فإن شهرته باقية وموقعه ثابت لم يتغير.

وقال عاتق البلادي: ذو الحليفة قرية بظاهر المدينة على طريق مكة بينها وبين المدينة تسعة أكيال، تقع بوادي العقيق عند سفح جبل عير الغربي، ومنها تخرج في البيداء تجاه مكة، وتعرف اليوم بأبيار علي ﵁، وهي ميقات أهل المدينة وما مرّ بها، ومسجد الشجرة بها معروف إلى الآن. بها مدارس ومساجد ومقاهٍ كثيرة. ا.هـ.

قال حمد الجاسر: الحليفة: بضم الحاء المهملة وفتح اللام وسكون المثناة التحتية بعدها فاء فهاء - من الأسماء المشتركة، أشهرها ذو الحليفة الميقات (آبار علي) وصله عمران المدينة.

والحليفة: ماء لبني جشم لرهطٍ منهم حلفاء لبني خفاجة، أي: في جنوب نجد، لا في بلاد بني جشم الواقعة غربه.

الحليفات: بالتصغير - موضع، نقل ياقوت (في معجم البلدان) عند السيِّد عليّ ابن عيسى بن وهّاس - وابن وهّاس هذا خبير بالمواضع القريبة من وادي الرمة:

الحليفات: بالتصغير موضع، فيظهر أنه يقصد الحليفتين المعروفتين في أعلى هذا الوادي، وهما قريبتان شرق حرّة الحائط، في أعلى وادي الرمة، حينما تنحدر فروعه من الحرّة، وتسهّل الأرض وتتّسع، تقع في الجنوب الغربي من حائل على مسافة ٢٢١ من الأكيال على الطريق المتجه من حائل إلى المدينة.

والحليفتان فيهما سكان ونخل وفيهما مدرسة بين القريتين تلاميذها ٣٥، والحليفة الشرقية سكانها آل جليدان من بني رشيد وتدعى الغربية الجنوبية وهي العليا، حليفة ابن شميلان من شيوخ بني رشيد وهم سكان الحليفتين، وقد يخالطهم غيرهم من شمّر وغيرهم. ا.هـ.

الحليفة: بضم المهملة وفتح اللام وسكون المثناة، مصغّر: شعب يسيل في وادي نخب من الجنوب بعد الحامضة للخارج من الطائف، رأسه يعانق رأس اليسرى (الضيقة) لوقدان أن من طفيح من عتيبة، قاله عاتق البلادي.

الخلصة (ذو الخلصة): بخاء معجمة مفتوحة ولام مفتوحة وصاد مهملة مفتوحة وآخره هاء. صنم كان لخثعم في تبالة.

روى البخاري بسنده عن قيس عن جرير ابن عبد الله: كان في الجاهلية بيت يقال له ذو الخلصة، وكان يقال له الكعبة اليمانية أو الكعبة الشامية فقال لي رسول الله ﷺ هل أنت مريحي من ذي الخلصة؟ قال: فنفرت إليه في خمسين ومائة فارس من أحمس، قال فكسرناه وقتلنا مَنْ وجدنا عنده فأتيناه فأخبرناه فدعا لنا ولأحمس.

قال ابن حجر: ذو الخلصة: بفتح الخاء المعجمة واللام بعدها مهملة، وحكى ابن دريد فتح أوله وإسكان ثانيه، وحكى ابن هشام ضمها، وقيل: بفتح أوله وضمّ ثانيه والأول أشهر، وذو الخلصة اسم للبيت الذي كان فيه الصنم، وقيل: اسم البيت الخلصة واسم الصنم ذو الخلصة، وحكى المبرّد أن موضع ذي الخلصة صار مسجدًا جامعًا لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم، ووهم مَنْ قال إنه كان في بلاد فارس. قوله: كان بيت في الجاهلية يقال له ذو الخلصة، وفي الرواية التي بعدها أنه كان في خثعم بمعجمة ومثلثة

وزن جعفر قبيلة شهيرة ينتسبون إلى خثعم ابن أنمار، بفتح أوله وسكون النون أي: ابن إراش بكسر أوله وتخفيف الراء في آخره معجمة ابن عنز بفتح المهملة وسكون النون بعدها زاي ابن وائل ينتهي نسبهم إلى ربيعة بن نزار إخوة مضر بن نزار جدّ قريش، وقد وقع ذكر ذي الخلصة في حديث أبي هريرة عند الشيخين في كتاب الفتن مرفوعًا لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة وكان صنمًا تعبده دوس في الجاهلية، والذي يظهر لي أنه غير المراد في حديث الباب، وإن كان السهيلي يشير إلى اتحادهما، لأن دوسا قبيلة أبي هريرة وهم ينتسبون إلى دوس ابن عدثان بضمّ المهملة وبعد الدال الساكنة مثلثة ابن عبد الله بن زهران، ينتهي نسبهم إلى الأزد، فبينهم وبين خثعم تباين في النسب والبلد.

وذكر ابن دحية أنّ ذا الخلصة المراد في حديث أبي هريرة كان عمرو بن لحيّ قد نصبه أسفل مكة، وكانوا يلبسونه القلائد ويجعلون عليه بيض النّعام ويذبحون عنده. وأمّا الذي لخثعم فكانوا قد بنوا بيتًا يضاهون به الكعبة فظهر الافتراق وقوى التعدد والله أعلم.

والكعبة اليمانية والكعبة الشامية كذا فيه. قيل وهو غلط والصواب اليمانية فقط، سمّوها بذلك مضاهاة للكعبة، والكعبة البيت الحرام بالنسبة لمن يكون جهة اليمن شامية، فسموا التي بمكة شامية والتي عندهم يمانية تفريقًا بينهما. ا.هـ.

قال ابن إسحاق: وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة، ومَنْ كان ببلادهم من العرب بتبالة.

وقال ابن هشام: ويقال: ذو الخلصة. قال رجل من العرب:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

قال: وكان أبوه قتل فأراد الطلب بثأره فأتى ذا الخلصة، فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم بنهيه عن ذلك، فقال هذه الأبيات، ومن الناس مَنْ ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندي، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير ابن عبد الله البجلي فهدمه. ا.هـ.

وقال السهيلي: ذو الخلصة: وهو بيت دوس، والخلص في اللغة: نبات طيب الريح يتعلق بالشجر، له حبّ كعنب الثعلب، وجمع الخلصة: خلص. وذكر أن الذي استقسم بالأزلام هو: امرؤ القيس بن حجر، ولم يستقسم أحد عند ذي الخلصة بعد حتى جاء الإسلام، وموضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم. ذكره المبرّد عن أبي عبيدة.

وذكرت بعث جرير البجلي إلى هدم الخلصة، وذلك قبل وفاة النبي ﷺ بشهرين أو نحوهما، قال جرير: بعثني رسول الله ﷺ في مائة وخمسين راكبًا من أحمس إلى ذي الخلصة.

وذو الخلصة: بضم الخاء واللام في قول ابن إسحاق، وبفتحهما في قول ابن هشام وهو صنم سيعبد في آخر الزمان ثبت في الحديث أنه: لا تقوم الساعة حتى تصطفق أليات نساء دوس وخثعم حول ذي الخلصة. ا.هـ.

قلت: فيما قال ابن إسحاق وما قاله السهيلي خلط بين ذي الخلصة الذي في بلاد دوس الذي ورد في حديث أبي هريرة، وبين ذي الخلصة الذي في بلاد خثعم الذي ورد في حديث جرير بن عبد الله البجلي، فجعل ما ورد في صنم دوس وفي صنم خثعم لصنم واحد.

وقد نبّه ابن حجر في حديثه على الخلط من بعض المؤرخين بين الصّنمين، وجعلهما صنمًا واحدًا ـ كما سلف.

وسوف أتحدث عن صنم خثعم الواقع في تبالة ثم أتلوه بالحديث عن صنم دوس الواقع في بلادها.

قال ياقوت: الخلصة: مضاف إليه ذو، بفتح أوله وثانيه، ويروى بضم أوله وثانيه، والأول أصح، والخلصة في اللغة: نبت طيّب الريح يتعلق بالشجر، له حبّ كعنب الثعلب، وجمع الخلصة خلص: وهو بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومَنْ كان ببلادهم من العرب بتبالة، وهو صنم لهم فأحرقه جرير بن عبد الله البجلي حين بعثه النبي ﷺ، وقيل: كان لعمرو بن لحيّ بن قمعة نصبه، أعني: الصنم بأسفل مكة حين نصب الأصنام في مواضع شتّى، فكانوا يلبسونه القلائد ويعلّقون عليه بيض النّعام ويذبحون عنده، وكان معناهم في تسميتهم له بذلك أن عبّاده والطائفين به خلصة، وقيل: هو الكعبة اليمانية التي بناها أبرهة بن الصبّاح الحميري، وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم، وقيل: كان ذو الخلصة يسمى الكعبة اليمانية، والبيت الحرام الكعبة الشامية.

وقال أبو القاسم الزمخشري: في قول مَنْ زعم أن ذا الخلصة بيت كان فيه صنم نظر؛ لأنَّ (ذا) لا يضاف إلا إلى أسماء الأجناس، وقال ابن حبيب في محبّره: كان ذو الخلصة بيتًا تعبده بجيلة وخثعم والحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مرّ بن أدّ وبنو هلال بن عامر، وكانوا سدنته بين مكة واليمن بالعبلات على أربع مراحل من مكة، وهو اليوم بيت قصّار فيما أخبرت، وقال المبرّد موضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم، وقال أبو المنذر: ومن أصنام العرب ذو الخلصة وكانت مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج وكانت بتبالة بين مكة، واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة وكان سدنتها بني أمامة من باهلة بن أعصر، وكانت تعظّمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السّراة ومَنْ قاربهم من بطون العرب ومن هوازن، ففيها يقول خداش بن زهير العامري لعثعث ابن وحشيّ الخثعمي في عهد كان بينهم فغدر بهم:

وذكّرته بالله بيني وبينه
وما بيننا من مدّة لو تذكّرا
وبالمروة البيضاء ثم تبالة
ومجلسة النعمان حيث تنصّرا

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها قدم عليه جرير بن عبد الله مسلما، فقال له: يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة؟ فقال: بلى، فوجّهه إليه فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة فسار بهم إليه فقاتلته خثعم وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر ابن خثعم وظفر بهم وهزمهم، وهدم بنيان ذي الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق، فقالت امرأة من خثعم:

وبنو أمامة بالوليّة صرّعوا
شملا يعالج كلّهم أنبوبا
وجاؤوا لبيضتهم فلاقوا دونها
أسداً يقبّ لدى السيوف قبيبا
قسم المذلّة بين نسوة خثعم
فتيان أحمس قسمة تشعيبا

قال: وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة، قال: وبلغنا أنّ رسول الله ﷺ، قال لا تذهب الدنيا حتى تصطك أليات نساء بني دوس على ذي الخلصة يعبدونه كما كانوا يعبدونه... وقال القاضي عياض المغربي:

ذو الخلصة بالتحريك وربما روي بضمها والأول أكثر، وقد رواه بعضهم بسكون اللام، وكذا ابن دريد، وهو بيت صنم في ديار دوس، وهو اسم صنم لا اسم بنية. ا.هـ.

قلت: تضمن ما ذكره ياقوت أقوالاً مختلفة لطائفة من العلماء، منها بل أغلبها خلط بين صنم ذي الخلصة الذي في بلاد دوس وبين ذي الخلصة الذي في بلاد خثعم، وتكاد هذه الأقوال تتفق على أن ذا الخلصة صنم في بلاد خثعم في تبالة، وقد اختلفت هذه الأقوال في وصف صنم ذي الخلصة وفي تحديد موقعه من تبالة، فقال بعضهم: كان بأسفل مكة نصبه فيها عمرو بن لحيّ وقال بعضهم هو الكعبة اليمانية التي بناها أبرهة بن الصبّاح الحميري، وقال أحدهم في وصفه؛ ذو الخلصة بيت كان فيه صنم، وقال أحدهم: موضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم، قلت: وهذا القول فيه غرابة وبعد عن الصّواب.

وكان أدنى ما قيل فيه إلى الصواب ما قاله أبو المنذر: ومن أصنام العرب ذو الخلصة وكانت مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج، وكانت تبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة. إلى آخر ما قاله، وقد لاحظ أبو القاسم الزمخشري في قول مَنْ زعم أنّ ذا الخلصة بيت كان فيه صنم، وقال: هذا قول فيه نظر؛ لأنَّ «ذو» لا يضاف إلا إلى أسماء الأجناس.

قلت: وفي نص حديث أبي هريرة الذي في صحيح البخاري دلالة على أنَّ في بلاد دوس صنماً يعبدونه ينسب إليهم، وفي نص الحديث: ذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية، وفي نص حديث جرير بن عبد الله البجلي دليل على أن لخثعم صنما اسمه ذو الخلصة في بلادهم في تبالة يعبدونه وهو الذي بعث إليه النبي ﷺ جرير ابن عبد الله لتدميره وقتال من يعبده من خثعم.

وقد بيّن ابن حجر في تعليقه على حديث جرير بن عبد الله البعد بين قبيلتي دوس وخثعم نسبًا وبلدًا ـ وقد تقدم ـ وقبيلة دوس قبيلة عربية ما زالت مستقرة في مواطنها القديمة لم تتحول عنها في غرب السّروات مما يلي تهامة، تابعة لإمارة الباحة، وقبيلة خثعم قبيلة عربية عريقة في بلادها وما زالت مقيمة فيها في تبالة في سفوح السّروات الشرقية مما يلي نجدًا، تابعة لإمارة عسير، عن طريق محافظة بيشة.

قلت: وقد زرت تبالة يوم الأربعاء ٤ذي القعدة ويوم الخميس الذي بعده سنة ١٤٠١هـ، وزرت موقع الصنم ذي الخلصة واطلعت على ما بقي من آثاره، وزرت بلدة تبالة القديمة التي تقع على الأكمة واستعنت بأهل الخبرة من سكان تبالة في التعرّف على معالم هذه البلدة وما فيها من آثار عمرانية ودينية قديمة، وتبيّن لي بعد البحث والمعاينة أن صنم ذي الخلصة يقع على جبل أسود ممتد من الجنوب إلى الشمال، طرفه الجنوبي يطل على ضفة وادي تبالة الشمالية، ويمتد شمالاً إلى أن ينتهي طرفه الشمالي بجبالٍ مطلّة على وادي صروم الأسفل، أحد روافد وادي تبالة الشمالية، حجارته سوداء من الصخور النارية القديمة، والصعود إلى متنه صعب إلا من الطرق المعمورة للوصول إلى الصنم. ويقع موضع الصنم في قمّة منه مطلّة على بطن وادي تبالة مرتفعة نسبيًا، وحول موقع الصنم صخور كبيرة وفيه غرف من الناحية الغربية مصطفة من الشمال إلى الجنوب، مبنية من صخور الجبل نفسه وغير مسقّفة، وجوانبها الغربية مفتوحة وليس فيها آثار أسس قديمة تقفلها، وفي

الناحية الشرقية كذلك غرف غير أنها أقل من الغربية، وفي هذه القمة بقايا نقوش يسيرة، وصخرة فيها كتابة سبئية قديمة، وفيها صخور بيضاء مكسّرة ربما كانت بقايا الصخرة البيضاء التي كانت تمثل الصنم.

أما الطريق: الذي يصعد منه إلى الصنم فإنه كان من الجهة الشرقية، وكان مرصوفًا ومسهّلاً ويقابله من الشرق سهل فسيح على ضفة وادي تبالة، يرى فيه آثار دارسة لمساكن أو معابد قديمة، وكان حول الصنم رجمان متناوحان قائمان من الحجارة أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله.

ويبعد موقع الصنم عن بلدة تبالة القديمة مسافة عشرة أكيال تقريبًا.

وحدثني بعض أهل الخبرة من كبار السن من أهل تبالة: أنهم أدركوا الرجمين المنتصبين في موضع الصنم وهما قائمان يريان من بُعْد، كما بلغني أنّ كثيرًا من معالم المباني وكذلك الطرق المرصوفة المؤدية إلى الصنم قد تعاقبت عليها الهيئات الدينية في السنوات الأخيرة وغيّروا كثيرًا منها، بالهدم والتكسير، كما أنه كان فيه حجر كبير فيه نقش، وأنّ بعض المشايخ أتى بعدد من الرجال فقلبوه على وجهه، وأصبح هذا الحجر مجهولاً بين الأحجار الكثيرة.

وفي وقت زيارتي وجدت أنّ أحد الرّجمين قد أزيل كله ولم يبق له أثر، أمّا الآخر فإنه ما زال باقيًا منه جزء يسير، أمّا الطريق المسهّل الذي يصعد إلى موقع الصنم فإنه قد أصبح مهدّمًا لا يرى فيه بقية من التعمير.

ومما تحسن الإشارة إليه: هو أن أهل تلك الناحية أصبحوا يعرفون الجبل الذي كان عليه الصنم باسم (عرق الطاغوت)، وبعضهم يسميه (عرق الشيطان)، وبهذا أصبحوا يعرفونه في هذا العهد.

قلت: وكان مع مرور السنين وتطاول الزمن أنْ أُعيد شأن الصنم ذي الخلصة في تبالة، وأحييت زيارته بين سكان تلك الناحية إلى أن هدم في زمن الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود وقد أشار إلى ذلك ابن بشر في مقدمة كتابه، فقال في حديثه عن أئمة الدولة السعودية: وهدّموا القباب والمواضع الشركية، وعمروا المساجد بالصلوات والدروس والأذكار، وكسّروا الصنم ذا الخلصة في تبالة، بعد ما اضطربت عليه أليات النساء، وقال في حوادث سنة (١٢٣٠هـ) ثم إنّ محمد علي وعساكره رحلوا من تربة في الحال وساروا إلى بيشة ونازلوا أكلب وأطاعوا لهم، ثم سار فيها إلى تبالة، وهي البلد الذي هدّم المسلمون فيها ذات الخلصة، زمن عبد العزيز بن محمد ابن سعود، وهو الصنم الذي بعث إليه النبي ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدّمه، فلمّا طال الزمن أعادوه وعبدوه. ا.هـ.

قلت: لهذا السبب ـ أي إعادة إحياء هذا الصنم ـ اهتمت الهيئات الدينية في السنوات الأخيرة بطمس معالمه وهدم الطرق المؤدية إلى موضعه كما تقدم، خشية إعادته مع مرور الزمن مرة أخرى.

أما الصخرة البيضاء التي كان صنم ذي الخلصة منصوبًا عليها، وذكروا أنها بعد إزالته نقلت إلى أحد مساجد تبالة.

قال ياقوت: (وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة) وأثناء زيارتي للبحث والتحقيق في معالم هذه البلاد وتاريخها، زرت موضع ذي الخلصة، ثم زرت المسجد الأثري الذي هو جامع البلدة القديمة التي تقع في هضبة

تبالة ويترجّح أنّ هذه البلدة هي أقدم بلدة في تبالة وأن مسجدها هو أقدم المساجد فيها، وقد أصبحت هذه القرية مهجورة خالية من السكان، وكذلك مسجدها، وأخذ الخراب يدبّ في مساكنها، وقد استعنت بذي خبرة من أهالي تبالة في زيارة هذه القرية ومسجدها وبعد جولة في البلدة وزيارة مسجدها، وجدت أن الصخرة المشار إليها ليست منصوبة عتبة لباب المسجد بالطريقة المعتادة ولكنها مخفاة في باطن الأرض في داخل المسجد بجانب عتبته الداخلية، وأهل البلدة لا يعلمون عنها شيئًا ولا يعرفون صلتها بالصنم، وبعد أن هجرت القرية أصبح السيل يندفع مع باب المسجد بقوة حتى أزال عتبته، وأخذ يجرف مدخل المسجد ويخرج من فتحة كبيرة أوجدها في حائط المسجد المقابل فينحدر إلى الوادي، وبعد هذا الجرف المتتالي كشف عن أطرافٍ من هذه الصخرة، وعندئذٍ حفر عنها وأخرجت، وهي الآن موجودة في ذلك المسجد.

وهي صخرة بيضاء طولها متر، وعرضها قريب من ذلك، وسمكها يزيد عن عشرين سنتيمتر، وهي مصقولة الجانبين، ولم أر فيها أثرًا لكتابة أو نقش، ولونها مخالف للون جبال هذه البلد، مما يدل على أنها كانت منقولة إلى هذه البلدة من مكان آخر، ـ فجبال تبالة كلها سوداء، وهذه الصخرة بيضاء، وهذا هو صنم ذي الخلصة الذي في بلاد خثعم في تبالة، وهو الذي بعث إليه رسول الله ﷺ جرير ابن عبد الله البجلي.

وقد قال ابن حجر في شرح حديث أبي هريرة: وفي معنى هذا الحديث ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: لا تقوم الساعة حتى تدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخلصة. ولم يبيّن ابن حجر أي الصنمين المقصود بهذا، ويعلّق عليه حمد الجاسر بقوله: وإن يكن في إيراده في سياق شرح حديث أبي هريرة ما يفهم منه أن المقصود صنم دوس، غير أنني أرى ذا الخلصة المذكور في أثر ابن عمر هو صنم خثعم، وذلك أن بني عامر كانوا من عبّاده وبنو هلال منهم كانوا سدنته على أحد القولين.

قلت: ما قاله حمد الجاسر في تعليقه على هذا الأثر أدنى إلى الصّواب.

ذو الخلصة: كالذي قبله: صنم لقَبيلة دوس في بلادها.

روى البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية.

قال ابن حجر: قوله على ذي الخلصة: في رواية معمر عن الزهري عند مسلم: حول ذي الخلصة. قوله: وذو الخلصة طاغية دوس: أي صنمها، وكان صنمًا تعبدها دوس، زاد معمر: بتبالة، وتبالة: قرية بين الطائف واليمن بينهما ستة أيام، وهي التي يضرب بها المثل فيقال: أهون من تبالة على الحجّاج.

وذلك أنها أول شيء وليه. فلمّا قرب منها سأل مَنْ معه عنها فقال: هي وراء تلك الأكمة. فرجع فقال: لا خير في بلد يسترها أكمة، وكلام صاحب المطالع يقتضي أنهما موضعان: أو أن المراد في الحديث غير تبالة الحجّاج.

وقد زار حمد الجاسر موقع ذي الخلصة في بلاد دوس، وكانت زيارته في يوم الأربعاء الموافق ٢٣ صفر سنة ١٣٩٠هـ وكان بدء رحلته للبحث والتحقيق من قرية المندق ـ وفيها

مقر إمارة بلاد زهران قال: وبعد أن بلغنا قرية ثروق كان ما قطعنا من مسافة بلغ أربعة عشر ميلاً من المندق إلى ثروق، وبعد مسيرة ما يقرب من ميلين في أرض ثروق وصلنا إلى أكبر قرية فيها، وتدعى (رمس). اخترقنا قرية رمس سيرًا على الأقدام، متجهين صوب الشمال الغربيّ، وبعد سير خمس دقائق انحدرنا في وادٍ فيه مزارعِ وآبار يدعى (شعب ذي الخلصة) وهذا الشعب ينحدر من فرعة ثروق، ويطلقون عليه أيضًا وادي ثروق، ثم اتّجهنا نحو الغرب وخرجنا من الشعب. . .
وبعد اجتياز الوادي بما يقرب من ٣٠٠ متر صعدنا تلا صخريًا مرتفعًا، واقعًا بين منخفضات، من الشرق شعب ذي الخلصة، ومن الغرب تهامة، ومن الشمال والجنوب منخفضان يجري سيلهما إلى شعب ذي الخلصة.
فوق هذا التل الصخري (الجبيل) كان يقوم صنم ذي الخلصة على ما يرى كثير من الباحثين المعاصرين.
لم نشاهد فوق هذا التل سوى صخور منها ما هو مكسّر، ومنها ما هو باقٍ على حالته بعد استعماله في البناء، بشكلٍ مستطيل، حيث تزيد الصخرة على الذّراع طولاً وعلى نصف الذّراع عرضًا، وما هو أكبر من ذلك، ولم نر في شيء من تلك الصخور الباقية أي آثار من كتابة أو نقوش، ولم نميّز من معالم البناء سوى صخرتين كبيرتين بينهما ما يقارب الذراع، قال لنا أحد مَنْ معنا من أهل القرية: إن هذا هو الباب، ويتصل به مكان مستطيل يقارب طوله ثمانية أذرع، في عرض ثلاثة، تبدو على جوانبه صخور كبيرة بعضها مكسّر، قيل إنه هو بيت ذي الخلصة، وإنْ كانت الآثار الباقية من الصخور المكسّرة تدل على أن ما حول ذلك المكان كان محاطًا ببناء، بحيث يشمل التل الصخري الذي تبلغ مساحته ٦٠×٦٠ مترًا تقريبًا (طوله من الغرب إلى الشرق ٥٨ خطوة وهو مربّع تقريبًا، وكأنه وضع ليكون سياجًا للبناء المستطيل الذي سبق ذكره.
يطل هذا التل على تهامة، على أرض واسعة تدعى الجرداء، من بلاد بنى علي من منهب من دوس، وتشاهد منه الجبال في تهامة والأودية، كما يشاهد جبل إبراهيم في بلاد بني مالك.
وتهامة تحد هذا الموضع من الجهة الغربية، أمّا من الجهة الشرقية، فإن الوادي المعروف بـ (شعب ذي الخلصة) يفصل بينه وبين قرية (الحِبَشَة) بكسر الحاء وفتح الباء وبالشين المعجمة المفتوحة، وهي من قرى بني منهب من دوس، الذين يشمل بلادهم قسمًا من السّراة وما يلي من تهامة (الجرداء).
لا شك أن هذا هو موقع ذي الخلصة الصنم التي كانت قبيلة دوس تعبده قبل ظهور الإسلام، فهل هو الذي أرسل النبي ﷺ جرير بن عبد الله البجلي لهدمه فأحرقه؟ لا أرى ذلك، بل أرى أنّ اسم ذو الخلصة يطلق على أصنام متعددة أشهرها ذو الخلصة الذي أحرقه جرير وكان في تبالة في بلاد خثعم، وذو الخلصة هذا الذي في بلاد دوس، وقد هدم حينما هدمت أصنام دوس بعد إسلامهم، وقبل إحراق جرير لذي الخلصة الذي في تبالة.
والمغايرة بين صنمي دوس وخثعم قال بها الحافظ ابن حجر في كتابه (فتح الباري شرح صحيح البخاري).
وقد تحدث حمد الجاسر عن صنمي ذي الخلصة حديثًا شاملاً، لا يتّسع مقامنا هذا لذكر كل ما جاء فيه، وختم حديثه بقوله: لا داعي للإطالة، فما تقدم يكفي لإثبات صنمين

متعددين، كل واحد منهما يدعى ذا الخلصة، أحدهما لدوس، والثاني لخثعم وغيرهم من العرب، وهو الذي هدمه جرير[١].

قال رشدي صالح ملحس: ولمّا استولى جلالة الملك عبد العزيز الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية على الحجاز في عام ١٣٤٣هـ، عيّن عبد العزيز بن إبراهيم أميرًا على مقاطعة الطائف، وانتدبه لقيادة حملة سيّرها جلالته لإخضاع القبائل القاطنة في سراة الحجاز.

وبعد أن أخضعت الحملة قبائل زهران النازلة في الوادي المعروف باسمها خرجت إلى جبال دوس وذلك في شهر ربيع الثاني من عام ١٣٤٤هـ، وكان في دسكرة (ثروق) جدران بنيان ذي الخلصة لا تزال قائمة، وبجانبها شجرة العبلاء فأحرقت الحملة الشجرة، وهدّمت البيت، ورمت بأنقاضه إلى الوادي فعفى بعد ذلك رسمها وانقطع أثرها. ويقول أحد الذين رافقوا الحملة: إن بنيان ذي الخلصة كان ضخمًا بحيث لا يقوى على زحزحة الحجر الواحد منه أقل من أربعين شخصًا، وإن متانته تدل على مهارة وحذق في البناء.

وقال لنا أحد شيوخ بني زهران إنَّ بنيان الخلصة كان تامًا، ولمّا استولى الإمام سعود الكبير على عسير في الربع الأول من القرن الثالث عشر هدم قسمًا منه، وبقيت جدرانه قائمة إلى عام ١٣٤٤هـ كما ذكرنا[٢].

قلت: وفيما تقدم إيضاح كاف لتحقيق أن (ذا الخلصة) كان اسمًا لصنم في بلاد دوس، وصنم في بلاد خثعم في تبالة، وفيه بيان للدور الذي قامت به الدولة السعودية في هدم ما بقي من آثار هذين الصنمين في مكانيهما وإزالته.

وهذا لا يمنع من أنه كان في أسفل مكة صنم يعبد اسمه ذو الخلصة، وضعه عمرو ابن لحيّ.

ذو طُوى: بضم الطاء المهملة بعدها واو وآخره ألف مقصور: وادٍ في مكة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان ينزل بذي طوى ويبيت حتى يصبح ويصلي الصبح حين يقدم مكة.

قال ابن حجر: ذو طوى: بضم الطاء للأكثر وبه جزم الجوهري، وفي رواية الحموي والمستملي (بذي الطّوى) بزيادة ألف ولام قيّده الأصيلي بالكسر، وحكى عياض وغيره الفتح أيضًا.

قال الحربي: وهو يصف الطريق من التنعيم إلى المسجد الحرام: قال عن مالك بن دينار عن القاسم عن عائشة أن النبي ﷺ أعمرها من التنعيم، ثم مسجد عائشة بعده بنحو ميلين دون مكة بأربعة أميال، وفخ بعد مسجد عائشة بنحو من ميلين، وعقبة المدنيين بعد فخ يسرة، وطريق طوى قبالته، ثم ذي طوى، منه إلى المسجد الحرام نصف ميل.

وقال بسنده عن أسماء قالت: لمّا كان عام الفتح نزل رسول الله ﷺ بذي طوى. وقال في موضع آخر وهو يصف الطريق من مكة إلى جدة: إذا أردت جدة، تخرج من مكة فتهبط في ذي طوى، ثم تأخذ يسرة ثم تأخذ في

---

(١) في سراة غامد وزهران ٣٣٣ ـ ٣٥٠.

(٢) أخبار مكة ١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

بساتين وسقايات معمورة حتى ترد المرحلة، واسمها قُرين الثعلب، وهي قرية بها آبار، ثم تخرج منها إلى حدّة عشرين ميلاً.

وعلّق حمد الجاسر: على هذه المواضع بقوله ذو طوى: أصبح الآن داخل بيوت مكة، تجاوز البنيان مسافات، وموقعه الشارع الذي في طرفه الشمالي قديمًا منزل الشيخ عبد الله ابن سليمان وزير المالية ممتدًا جنوبًا حتى يلتقي بالشارع المقبل من ريع الكحل إلى جهة الحجون، وقال: ذو طوى لا يزال معروفًا في محلة (جرول) بداخل مكة الآن.

وعلّق على حَدّة بقوله: بالحاء المهملة المفتوحة، أصبحت الآن بلدة كبيرة تبعد عن مكة ٣٥ كيلاً تقريبًا. ا.هـ.

وقال الأزرقي: بكة الكعبة والمسجد المبارك للناس، ومكة ذو طوى، وهو بطن مكة الذي ذكره الله عزّ وجلّ في سورة الفتح.

وروى بسنده عن عبد الله بن الزبير قال: إن كانت الأمة من بني إسرائيل لتقدم مكة، فإذا بلغت ذا طوى، خلعت نعالها تعظيمًا للحرم.

وروى بسنده عن عبد الله بن عمر: أنّ رسول الله ﷺ كان ينزل بذي طوى فيبيت به حتى يصلي الصبح حين يقدم مكة.

قال الأزرقي: بطن ذي طوى: ما بني مهبط ثنية المقبرة التي بالمعلاة إلى الثنية القصوى التي يقال لها: الخضراء، تهبط على قبور المهاجرين دون فخ.

وعلّق عليه المحقق بقوله: وادي ذي طوى بين مقبرة الحجون بالمعلاة وريع الكحل المسمى بالثنية الخضراء. وكان وادي طوى يسمى (وادي ضبع) أما اليوم فيعرف ببير الهندي. ا.هـ.

قال الفاكهي: بئر أم النّعمان بذي طوى: كان الناس يشربون منها في الفتنة زمن إسماعيل ابن يوسف الطالبي.

وعلّق عليه المحقق بقوله: لعلها بئر ذي طوى المشهورة اليوم بجرول وتقابل مبنى مستشفى الولادة، ويقوم عليها بناء عثماني قديم كتب عليه: بئر طوى.

وروى الفاكهي بسنده عن نافع، أن ابن عمر رضي الله عنهما، كان إذا قدم مكة نزل بذي طوى.

وقال الفاكهي: ثنية كُدَى: بضم الكاف، التي يهبط منها إلى ذي طوى، وهي التي دخل منها قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه يوم الفتح، وخرج منها رسول الله ﷺ إلى المدينة.

وعلّق عليه المحقق بقوله تعرف اليوم بريع الرسّام، سُمّيت بذلك لأنّ الذي يأخذ الرسم الضريبة على القادم من جدة يقعد هناك، فسمّي الريع به.

وروى الفاكهي بسنده عن نافع قال: إن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا قدم مكة نزل بذي طوى، فإذا أصبح اغتسل هو وأصحابه يأمرهم بذلك ثم يدخل مكة فيستلم الحجر ثم يطوف بالبيت.

وفي ذي طوى يقول الشاعر:

إذا جئت أقصى ذي طوى وشعبه
فقل لهما جاد الربيع عليكما
وقل لهما ليت الركاب التي مضت
إلى أهل سلع قد رجعن إليكما

وقال شاعر يذكرهم أيضًا:

سقى واسطاً فالمنحني من أراكه
مصيفًا بأعلى ذي طوى ومربّعا

وقال الفاكهي: بطن ذي طوى: ما بين مهبط ثنية المقبرة التي بالمعلاة إلى الثنية القصوى التي يقال لها: الخضراء.

وعلّق عليه المحقق بقوله: يسمى اليوم العتيبيّة. والثنية الخضراء هي ريع الكحل.

وقال ياقوت: طوى: بالفتح والقصر، والطوى: الجوع: قال صاحب المطالع: طوى بفتح الطاء والأصيلي بكسرها وقيّدها كذلك بخطّه، ومنهم مَنْ يضمها والفتح أشهر: وادٍ بمكة، وقال الداودي: هو الأبطح، وليس كما قال، وقال أبو علي القالي عن أبي زيد هو منون على فعل معرّف، وعند المستملي ذو الطواء، ممدود. وقال الأصمعي: هو مقصور... فأما الذي في القرآن فيضم ويكسر لغتان وهو مقصور لا غير.

وقال الجوهري: ذو طوى، بالضم موضع عند مكة، وقيل: هو طوى بالفتح وقد ذكر، قال الشاعر:

إذا جئت أعلى ذي طوى قف ونادها
عليك سلام اللّه يا ربّة الخدر
هل العين ريّا منك أم أنا راجع
بهمٍّ مقيم لا يريم عن الصّدر

وقال البكري: ذو طوى: بفتح أوله، مقصور منون، على وزن فعل: وادٍ بمكة.

وقال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن النبي ﷺ لمّا انتهى إلى ذي طوى عام الفتح، وقف على راحلته متعجرًا بشقّة برد حبرة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرّحل.

وروى الواقدي بسنده: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: دخل رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء، ورايته، ولواؤه أسود، حتى وقف بذي طوى وتوسّط الناس وإنّ عثنونه ليمس واسطة الرّحل أو يقرب منه تواضعًا لله تعالى، حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين. ثم قال: العيش عيش الآخرة، قال: وجعلت الخيل تمعج بذي طوى في كلّ وجه، ثم ثابت وسكنت حيث توسّطهم رسول الله ﷺ.

قلت: فيما تقدم نرى أن العلماء اختلفوا في ضبط ذي طوى، بين ضمّ الطاء وفتحها وكسرها، غير أنهم لم يختلفوا في تحديد موقع ذي طوى، ولا في وصفه، بل إن ما قالوه يكمّل بعضه بعضًا، وهذا الوادي الذي كان في عهد النبي ﷺ خارجًا عن عمران مدينة مكة قد أصبح في هذا العهد في وسط العمران، ولم يبق من معالمه التي يعرف بها ـ محتفظًا باسمه ـ إلا هذه البئر التي ما زالت باقية، وبناؤها العثماني الذي أقيم عليها، مكتوبًا عليها (بئر طوى)، وتقدّم وصفها وتحديد موقعها.

طوى: ورد في القرآن الكريم في سورة طه وفي سورة النازعات.

قال ياقوت: وهو اسم أعجمي للوادي المذكور في القرآن الكريم، يجوز فيه أربعة أوجه: طوى بضم أوله بغير تنوين وبتنوين، فمن نوّنه فهو اسم الوادي وهو مذكور على فعل نحو حطم وجرد ومن لم ينوّنه ترك صرفه من جهتين إحداهما أن يكون معدولاً عن طاو فيصير كعمر المعدول عن عامر فلا ينصرف كما لا ينصرف عمر، والجهة الأخرى أن يكون اسمًا للبقعة كما قال تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ويقرأ بالكسر مثل معيً وطلّي فينوّن ومن لم ينوّن جعله اسمًا للمبالغة.

وسئل المبرّد عن وادٍ يقال له طوى أتصرفه فقال: نعم؛ لأن إحدى العلتين قد انخزمت عنه، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو طوى، وأنا بغير تنوين، وطوى أذهب بغير تنوين وقرأ الكسائي وحمزة وعاصم وابن عامر طوى

منونًا في السورتين، وقال بعضهم وطُوى وطِوى بمعنى واحد وهو: الشيء المثنى، ومنه قول عدي بن زيد:

أعادل إن اللوم في غير كنهه
عليّ الطوى من غيّك المتردد

يروى بالكسر والضم، يعني أنك تلومني مرة بعد مرة فكأنك تطوي غيّك عليّ مرة بعد مرة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه، الآية: ١٢]، أي طوي مرتين أي قدّس، وقال الحسن ابن أبي الحسن: ثنيت في البركة والتقديس مرتين فعلى هذا ليس إلا صرفه: وهو موضع بالشام عند الطور. ا.هـ.

وقال البكري: طوى: بضم أوله وكسره، مقصورة: اسم وادٍ في أصل الطّور بالشام، وهو المذكور في التنزيل، وقيل: بل طوى: جبل هناك.

وقال أبو عمر الزاهد: سئل محمد بن يزيد - وأنا أسمع - عن طوى اسم واد أيصرف؟ قال: نعم؛ لأن إحدى العلّتين قد انخزمت عنه، وبالتنوين قرأه الكوفيّون وابن عامر. ا.هـ

قلت: هذا ما قاله العلماء في التعريف بهذا الوادي المقدّس الذي ورد ذكره في القرآن الكريم. وقد استوفيت الحديث عنه في معجم الأمكنة الواردة في القرآن، فانظره.

ذو قرد (القرد): بقاف مثناة مفتوحة وراء مهملة مفتوحة وآخره دال: جبل يبعد عن المدينة شمالاً شرقيًا خمسة وثلاثين كيلاً تقريبًا.

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى بأصحابه في الخوف في الغزوة السابعة غزوة ذات الرقاع، وقال ابن عباس صلّى ﷺ صلاة الخوف بذي قرد.

وعن يزيد بن سلمة غزوت مع النبي ﷺ يوم القرد.

قال ابن حجر: ذو قَرَد: بفتح القاف والراء وهو موضع على نحو يوم من المدينة مما يلي بلاد غطفان.

قال الواقدي في خبر غزوة الغابة: إن المسلمين لمّا تلاحقوا هم والعدو، وقتل منهم محرز بن نضلة وخرج أبو قتادة في وجهه فقتل أبو قتادة مسعدة، وقتل أوثار وعمرو ابن أوثار، قتلهما عكاشة بن محصن، وأن حبيب بن عيينة كان على فرس له، هو وخرقة بن مالك بن حذيفة بن بدر قتلهم المقداد بن عمرو، قالوا: وتلاحق الناس بذي قرد، وصلّى بهم النبي ﷺ صلاة الخوف...

قال وأقام رسول الله ﷺ بذي قرد يومًا وليلة يتحسّب الخبر.

وقال ياقوت: قرد: بالتحريك، مرتجل، وقيل: القرد الصوف الرديء، ورواه أبو محمد الأسود قرد بضمتين أيضًا. هكذا يقول أئمة العلم ذو قرد: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر، وكان رسول الله ﷺ انتهى إليه لمّا خرج في طلب عيينة حين أغار على لقاحه، قال أبان بن عثمان صاحب المغازي: وذو قرد ماء لطلحة بن عبيد الله اشتراه فتصدّق به على مارة الطريق، قال عياض القاضي: جاء في حديث قبيصة في الصحيح أن بذي قرد كان سرح جمال رسول الله ﷺ الذي أغارت عليه غطفان، وهذا غلط وإنما هو بالغابة قرب المدينة، قال: وذو قرد حيث انتهى المسلمون آخر النهار وبه باتوا ومنه انصرفوا فسمّيت به الغزوة، وقد بيّنه في حديث سلمة بن الأكوع في السير، وقال بعض شيوخ مسلم في آخر حديث قتيبة: فلحقهم بذي قرد يدل على ذلك لأنهم لم

يأخذوا السّرح ويقيموا بمكانهم حتى لحق بهم الطلب، **قال القاضي** وبين ذي قرد والمدينة نحو يوم، وقال محمد بن موسى الخوارزمي: غزوة الغابة هي غزوة ذي قرد كانت في سنة ست ذُكرت في الغابة، قال حسان بن ثابت:

أخذ الإله عليهم بحزامة
وَلَعزّة الرّحمٰن بالأسداد
كانوا بدار ناعمين فبدّلوا
أيام ذي قرد وجوه عبادي

وقال العمراني: وغزوة ذي قرد لرسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق في خبر غزوة ذي قرد: وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد وتلاحق به الناس، فنزل رسول الله ﷺ به وأقام عليه يومًا وليلة.

قلت: وقع فيما تقدّم اختلاف بين العلماء في وصف ذي قرد، منهم من قال موضع، ومنهم مَنْ قال: ماء، ومنهم من قال: جبل، وقد صرح ابن هشام في حديثه عن غزوة ذي قرد بأن ذا قرد جبل، وللجمع بين هذه الأقوال يمكن القول: إن ذا قرد اسم للجبل ولماء فيه، كما اختلفوا على تحديد المسافة بينه وبين المدينة ويؤخذ من سير غزوة النبي ﷺ أن هذا الموضع لا يبعد عن المدينة أكثر من مسيرة يوم جاد للغزاة.

وقد حدّد عاتق البلادي المسافة بين قرد والمدينة فقال: قرد: جبل بأعلى وادي النقمي شمال شرقي المدينة على قرابة (٣٥) كيلاً، قلت: وهذا التحديد يتّفق مع قول أحدهم مسيرة يوم من المدينة.

قلت: وبما أن هذا الموضع ما زال معروفًا باسمه فإنني أكتفي من أقوال المؤرخين بما تقدم، وفي رسم الغابة زيادة إيضاح، فانظره.

ذو المجاز: ميم مفتوحة وجيم معجمة مفتوحة بعدها ألف وآخره زاي معجمة: موضع قريب من عرفات.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية فلمّا جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة، الآية: ١٩٨]، في مواسم الحج.

قال ابن حجر: ذو المجاز: بفتح الميم وتخفيف الجيم وفي آخره زاي، وهو بلفظ ضدّ الحقيقة.

وقال البكري: كان ذو المجاز سوقًا من أسواق العرب، وهو عن يمين الموقف بعرفة قريبًا من كبكب، وهي سوق متروكة.

وقال ياقوت: المجاز: بالفتح، وآخره زاي، يقال جزت الطريق جوزًا ومجازًا وجوازًا، والمجاز: الموضع وكذلك المجازة. وذو المجاز: موضع سوق بعرفة، على ناحية كبكب عن يمين الإمام، على فرسخ من عرفة: كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام.

وقال الأصمعي: ذو المجاز ماء من أصل كبكب، وهو لهذيل وهو خلف عرفة، وقال حسّان بن ثابت يخاطب أبا سفيان في شأن أبي أزيهر وكان الوليد بن المغيرة المخزومي قتله، وكان أبو سفيان صهره فأراد حقن الدماء وأدى ديته ولم يطالب بدمه، فقال:

غدا أهل ضوجى ذي المجاز كليهما
وجاء ابن حرب بالمغمّس ما يغدو
ولم يمنع العير الضروط ذماره
وما منعت مخزاة والدها هندُ
كساك هشام بن الوليد ثيابه
فأبل وأخلق مثلها جددا بعدُ

وقال المتوكّل الليثي:

للغانيات بذي المجاز رسومُ
في بطن مكة عهدهن قديمُ
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيمُ

وقال ابن الأثير: كان عكاظ وذو المجاز ومجنّة أسواقًا تجتمع بها العرب كل عام، إذا حضر الموسم فيأمن بعضهم بعضًا، حتى تنقضي أيامها، وكانت مجنّة بالظهران، وكانت عكاظ بين نخلة والطائف، وكان المجاز بالجانب الأيسر إذا وقفت على الموقف.

وفي التاج: ذو المجاز: موضع: قال أبو ذؤيب:

وراح بها من ذي المجاز عشية
يبادر أولى السابقات إلى الحبل

وقال الجوهري: موضع بمنى كانت به سوق في الجاهلية، وقال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وما
قدّم فيه العهود والكفلاء

وقال غيره: ذو المجاز سوق كانت لهم على فرسخ من عرفة بناحية كبكب، سُمّي به لأن إجازة الحاج كانت فيه.

وقال لغدة: ذو المجاز: ماء من أصل كبكب، وهو لهذيل، وقال أبو عبد الله الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف، وذو المجاز خلف عرفة، ومجنّة بمرّ الظهران، وهذه أسواق قريش والعرب.

قال حمد الجاسر: ذو المجاز: يسمى المجاز - الآن - وهو وادٍ عظيم يحف كبكب من غربيه ثم يمرّ بعرفات، وفيه مياه ومزارع على المطر، وسكانه هذيل.

وقال عاتق البلادي: المجاز: شعب يسيل من جبل كبكب من جهته الغربية فيتجه غربًا حتى يدفع في وادي عرنة، عند التقائه بوادي حنين، على ثمانية أكيال من علمي طريق نجد شرقًا، وطول هذا الشعب لا يزيد عن عشرة أكيال.

هذا هو موقع سوق ذي المجاز الشهير، ويقع المجاز شمال عرفة على نصف المسافة تقريبًا بينها وبين الشرائع.

وقال محمد بن بليهد: ذو المجاز: واقع في وادي المغمّس، إذا قطعت وادي الشرائع المعروف وأنت قاصد مكة أتيت وادي المغمّس في الطريق على يسارك فإذا أنت حاذيت كبكب فهو هناك، فيه آثار قديمة، لا تزال ماثلة إلى هذا العهد، وهو سوق من أسواق الجاهلية المشهورة.

قلت: هذا ما ذكره المؤرخون في تحديد سوق ذي المجاز والتعريف بموقعه، وكلهم متفقون على أنه في جانب كبكب وكبكب ما زال معروفًا باسمه، وكذلك ذو المجاز، وبما أن هذا الموضع ما زال باسمه والمواضع التي حدّد بها: كبكب، عرفة، المغمّس، ما زالت معروفة بأسمائها مشهورة فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عن مكان سوق ذي المجاز، غير أنّ هذا السوق قد زال نشاطه التجاري وانقطع التجّار عنه منذ ظهور الإسلام.

باب الرّاء

الرَّبَذَة: براء مهملة مفتوحة وباء موحدة مفتوحة وذال معجمة مفتوحة وآخره هاء: قرية تقع بين السليلة وبين ماوان على طريق الحجّ العراقي القديم، تابعة للمدينة.

روى البخاري بسنده قال حدّثنا سليمان ابن حرب قال: حدّثنا شعبة عن واصل عن المعرور قال لقيت أبا ذرّ بالرّبذة وعليه حلّة وعلى غلامه حلّة فسألته عن ذلك فقال إنّي سابت رجلاً فعيّرته بأمه فقال لي النبي ﷺ يا أبا ذرّ أعيّرته بأمّه إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم.

قال ابن حجر: الرّبذة، هو بفتح الراء والموحدة والمعجمة: موضع بالبادية، بينه وبين المدينة ثلاث مراحل.

قال الحربي: عن أبي قيس الكلابي: سُمّيت الرّبذة، بربذة جبل أحمر صخرة حمراء، على ميل من الرّبذة مما يلي المغرب فارع أحمر، وقال: اسمه ربذ، وقال في تحديد المسافة بين الرّبذة وبين ماوان وبينها وبين السّليلة: ومن مغيثة الماوان إلى الرّبذة عشرون ميلاً، ومن الرّبذة إلى السليلة ثلاثة وعشرون ميلا ونصف، وبها قصر ومسجد، ومسجد لأبي ذرّ صاحب رسول الله ﷺ.

وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أسكنه الرّبذة، وذلك لأن أبا ذرّ اختارها.

وروى بسنده عن أمّ ذرّ قالت: لمّا حضرت أبا ذرّ الوفاة قال لي: اذهبي فانظري لعلّ ركباً يمرّون فتخبريهم، قالت: فكنت أخرج كل يوم من الرّبذة أعلو جبلاً حتى مرّ بي ركب، فألحت لهم بثوبي، فأقبلوا فقلت: يا هؤلاء رجل من المسلمين يموت، تشهدونه، قالوا: مَنْ هو؟ قلت: أبو ذرّ، قالوا: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، ففدوه بآبائهم وأمهاتهم، وذكر حديثًا طويلاً، وقال: فتولّينا أمره ودفنّاه بها، في نفر كلّهم يمان، منهم حجر بن الأدبر ومالك بن الأشطر.

والرّبذة لقوم من ولد الزبير بن العوّام، وكانت لفزارة وبها بركتان يسرة، إحداهما مدوّرة ولها مصفاة، والأخرى من المنزل على أقل من ميل مربعة.

وبها آبار كثيرة، وخيارها بئر تعرف بأبي ذرّ، وبئر تعرف ببني المنذر، وبئران يعرفان بالمهدي بينهما حوض، وبئر تعرف ببئر المسجد وهي بئر أبي ذرّ، وبئر تعرف بأبي السّعب غليظة الماء، وبئر تعرف بقوطة، وبئر صغيرة تعرف ببئر عبد الرحمٰن، وبئر في الشرق مطوية بالحجارة تعرف بعيسى ابن موسى، وبئر تعرف بابن مهير على ميل ونصف من الرّبذة. ا.هـ.

وقال الهجري: الرّبذة: بفتح أوله وثانيه وبالذال المعجمة هي التي جعلها عمر ﵁ حمى لإبل الصّدقة، وكان حماه الذي أحماه بريدًا في بريد، ثم تزودت الولاة في الحمى أضعافًا، ثم أبيحت الأحماء في أيام المهدي، فلم يحمها أحد بعد ذلك. ثم واصل حديثه عن حدود حمى الرّبذة وأعلامه وعن المياه التي دخلت فيه حديثًا شاملاً لا يتّسع مقامنا هذا لذكره. ا.هـ.

وقال لغدة: بلاد محارب ما بين الخيالات إلى أريك إلى جانب الدّاهنة إلى جوف الرّبذة، والخيالات أجبال النقرة التي بينها وبين مطالع الشمس، إلى جنب طمية، ثم لهم ما بين الرّبذة إلى فران، وهو حذاء السليلة، ومن جبالهم ماوان وهو جبل أسود ضخم، قال المحاربي:

وإن يبد ماوان فقد طال شوقنا
إلى الركن من ماوان إن كان باديا
ولو كلّفتني قود ماوان قدته
قياد البعير أو قطعت فؤاديا

وفي جنبه بئر، يقال لها بئر ماوان، يقول الشاعر:

شربن من ماوان ماء مرّاً
ومن سنام مثله أو شرّا

وسنام هذا جبيل قريب من الربذة[١].

وقال ياقوت: الرّبذة: بفتح أوله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضًا: من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق، على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذرّ الغفاري ﵁، واسمه جندب بن جنادة، وكان قد خرج إليها مغاضبًا لعثمان بن عفان ﵁، فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢هـ.

وقرأت في تاريخ أبي محمد عبيد الله ابن عبد المجيد بن سيران الأهوازي قال: وفي سنة ٣١٩هـ خربت الرّبذة باتصال الحروب بين أهلها وبين أهل ضريّة، ثم استأمن أهل ضريّة إلى القرامطة فأنجدوهم عليهم فارتحل عن الرّبذة أهلها فخربت، وكانت من أحسن منزل في طريق مكة.

وقال الأصمعي يذكر نجدا: والشّرف كبد نجد، وفي الشّرف الرّبذة، وهي الحمى الأيمن.

وفي كتاب نصر: الرّبذة من منازل الحاج بين السليلة والعمق[٢].

وينسب إلى الرّبذة قوم منهم: أبو عبد العزيز موسى بن عبيدة بن نشيط الرّبذي، وأخواه محمد وعبد الله، روى عبد الله عن جابر عن عقبة بن عامر، وروى عنه أخوه موسى وقتله الخوارج سنة ١٣٠هـ وغيره، ثم ذكر أسماء عدد من العلماء والمحدثين الذين ينسبون إلى بلدة الرّبذة. ا.هـ

قال البكري: وبالربذة مات أبو ذرّ لمّا نفي من المدينة، ليس معه إلا امرأته وغلام له، كما أنذره رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك، وأن أبا ذرّ لمّا أبطأ عليه بعيره أخذ متاعه على ظهره ثم سار يتّبع أثر رسول الله ﷺ، فنظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذرّ»، فلمّا تأمل القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذرّ، فقال: يرحم

---

(١) النقرة: طميّة، السليلة، ماوان، بئر ماوان (الماوية)، سنام: كل هذه الأعلام باقية على أسمائها معروفة بها.

(٢) قوله عن نصر: بين السليلة والعمق: غير صحيح، والصواب بين السليلة، وماوان.

الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

قلت: ومما ذكره ياقوت وغيره يتّضح لنا أن الرّبذة واقعة في الشّرف، في عالية نجد، وأنها كانت بلدة مزدهرة، وأنها أحسن منازل الحاج في طريق مكة من العراق، وأنها خربت وأصبحت خالية من أهلها بسبب الحروب التي وقعت بين أهلها وبين أهل ضريّة.

أما كيف نجمع بين وصف الرّبذة ـ في وقت وفاة أبي ذرّ رضي الله عنه ـ الذي يفيد خبر وفاته أنه توفي وليس فيها أحد غيره هو وزوجته وغلامه، والخبر يفيد أنه توفي فيها عام ٣٢هـ وهي في ذلك الزمن لم تعد أن كانت مراعي لإبل الصّدقة، حماها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لها، وحماها بعده الخلفاء، ويبدو أنها لم ينم فيها عمران إلا بعد أن رسم عليها طريق حاج العراق، واتخذت منزلاً من منازل الحاج، وحفرت فيها الآبار وعمّرت البرك، وشيّد إلى جانب البرك والآبار في منازل الحاج قصور، يسكنها المحافظون على هذه الآبار والبرك، ومَنْ يتعهدون لصيانتها، فقامت أعمال تجارية في هذه المنازل مع الحاج وعمّرت فيها القرى، فكان للرّبذة النّصيب الأوفر من العمران بين منازل الحاج، حتى قال المؤرخون: إنها من أحسن منازل الحاج.

قلت: وفي أثناء زيارتي لهذه القرية ـ وكنّا ثلاثة حمد الجاسر، ومحمد العبودي، وأنا ثالثهم ـ تأكّد لنا أن هذا الموضع الذي نحن في زيارته هو بلدة الرّبذة، وذلك بعد مشاهدته وتطبيق ما ذكره المؤرخون عن وصفه ووصف الأعلام المحيطة به.

وهذه البلدة ـ أعنى الرّبذة ـ تقع على ضفّة وادٍ يأتي من صوب مطلع الشمس، يتّجه صوب مغيب الشمس مزدحم بشجر الرّمث وفيه طلح كثير وسلم، وله رافد يأتي من الشرق ويلتقي به عند القرية، ومن هذا الرّافد تمتلىء البركة المدوّرة الكبيرة.

والقرية واقعة على ضفّة الوادي الشرقية، واضحة المعالم على امتداد الوادي، فيها آبار متهدّمة، وفيها بئر واحدة مطويّة بالحجارة عامرة، وفي ناحيتها الشمالية والغربية مقبرة كبيرة على ضفّة الوادي الشرقية، وفيها قبور أخرى في موضع آخر، بين البئر العامرة وبين البركة العامرة، وإلى جانبها بئر واسعة ومنازل متهدّمة قديمة، وفي ناحيتها الشمالية الشرقية شمال البئر العامرة آثار قرية قديمة، لم يبق منها إلا تل كبير من الأتربة والحجارة، وحطام الأواني الفخارية الملوّنة والزّجاجية، التي أثّرت في تلوينها وتشكيلها عوامل القدم، وبجانب البئر العامرة من الغرب مسجد كبير بادي المعالم، يطل على الوادي من الشرق، وفيها بركة مدوّرة عامرة، ولها مصفى مربّع بجانبها الغربي، وهذه البركة ما زالت عامرة، وفي وضع جيّد، وطول قطرها ٢٢٠ قدمًا.

وقد رسم الهمداني: منازل طريق الحج من مكة إلى العراق فقال: من أخذ الجادّة إلى معدن النّقرة، فمن مكة إلى البستان تسعة وعشرون ميلاً، ومنه إلى ذات عرق أربعة وعشرون ميلاً، ومنها إلى الغمرة عشرون ميلاً، ومنها إلى حرّة بني سليم ستة وعشرون ميلاً، ومنها إلى العمق اثنان وعشرون ميلاً، ومنه إلى السليلة ثلاثة عشر ميلاً، ومنها إلى الرّبذة ثلاثة وعشرون ميلاً، ومنها إلى الماوان ستة وعشرون ميلاً ومنها إلى معدن النّقرة ثلاثة وعشرون ميلاً، وهي ملتقى الطريقين،

فهذا تقدير طريق العراق على ما عمله بعض علماء العراق ا.هـ[1].

أما الطريق من الرّبذة إلى المدينة، فقد أوضحه الحربي فيما قال: يعدل من الرّبذة إلى أبرق العزّاف عشرين ميلاً، ومن أبرق العزّاف إلي الستار خمسة وعشرون، وبذي القصّة مياه كثيرة ومن ذي القصّة إلى المدينة ثلاثون ميلاً وتخرج على بئر السائب وبينها وبين المدينة خمسة أميال، وكان الرشيد يسلك هذا الطريق وهو مائة ميل وميلان بين الرّبذة والمدينة، وقد حدّده بعضهم.

وقد ذكر الحربي في (كتاب المناسك) رسما لطريق حاج العراق مرتّبا من بغداد إلى مكة، مارًا بالرّبذة، وذكر المسافة بين كل منزل وآخر من منازل الحاج، وأورد أرجوزة في رسم هذا الطريق من العراق إلى مكة للمصعد، أذكر فيما يلي ما يخص تحديد موقع الرّبذة منها، ابتداءً من مغيثة الماوان، قال الناظم:

ثم إلى مغيثة الماوان
قدما قطرناهنّ بالأرسان
وقام بالأشعار حاديان
عن وصف من تعرف بالإحسان
ومن كساها المجد والدان
عاشا وما مثلهما اثنان
ثم توجّهنا نريد الرّبذة
ومنزلاً في قرية منتبذة
لدى طريق غانم من أخذه
لا يندم الدهر به من نفذه
وبيننا بنت الملوك البذذة
لمن مضى من الملوك الأخذة
ثم ترحّلنا إلى السّليلة
مرحلة مياهها قليلة
تعجز عن رفقتها النزيلة
فأنجدت ذات اليد الجميلة
ببذل أموال لها جزيلة
فاستخرج الماء بكل حيلة
ثم توجّهنا نريد العمقا
منزل صدق لم يزل مرتفقا
ببئر ماء طاب منها المستقى
والعيس تسرى في الظلام حزقا
وراكبوها يصلون الأرقا
والنور في القبّة يجلو الأفقا

قلت: وممّا تقدّم من أقوال العلماء في تحديد موقع الرّبذة ووصف طريقها ومعالمها، يتأكد أنّ هذا الموضع الذي قمنا بزيارته ووصفناه هو قرية الرّبذة، وفيه ردّ على مَنْ يقول إنّ الرّبذة هي قرية الحناكية.

هذا خلاصة ما ذكرته عن الرّبذة في كتابي (معجم عالية نجد)، وقد استوفيت الحديث عنها من كل جوانبه مبسّطاً، وكذلك خبر سكنى أبي ذرّ فيها ووفاته رضي الله عنه.

الرَّجيع: براء مهملة مفتوحة وجيم معجمة بعدها ياء مثناة ساكنة وآخره عين مهملة: ماء لهذيل بين مكة وعسفان.

قال البخاري: باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، وحديث عضل والقارة وعاصم ابن ثابت وخبيب وأصحابه، وروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سريّة عينا وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحيّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصّوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً

(١) هذا البيان يؤكد أنَّ البرذة غير قريبة من ذات عرق.

نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابة لجؤوا إلى فدفد، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أمّا أنا فلا أنزل في ذمّة كافر اللهم أخبر عنّا نبيّك فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق فلمّا أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلمّا استمكنوا منهم حلّوا أوتار قسيّهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أو الغدر فأبى أن يصحبهم فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة فاشترى بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبًا وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا على قتله... صلى ركعتين فكان أوّل من سنّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أيّ شقّ كان للّه مصرعي
وذلك في ذات الإلٰه وإن يشا
يبارك على أوصال شلو ممزّعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله.

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة ﵁ قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة عينًا فأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جدّ عاصم ابن عمر بن الخطاب حتى إذا كانوا بالهدّة بين عسفان ومكة ذكروا لحيّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان فنفروا لهم.

قال ابن حجر: الرَجِيع ـ بفتح الراء وكسر الجيم، هو في الأصل الرّوث، سمي بذلك لاستحالته، والمراد هنا اسم موضع من بلاد هذيل كانت الوقعة بقربه فسمّيت به.

وقال الواقدي: وفي صفر على رأس ستة وثلاثين شهرًا، بعث رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع عيونًا إلى مكة ليخبروه خبر قريش فسلكوا على النجدية حتى إذا كانوا بالرجيع فاعترضت لهم بنو لحيان.

وقال في رواية: فخرجوا حتى إذا كانوا بماء لهذيل يقال له الرجيع قريب من الهدّة خرج النفر واستصرخوا عليهم أصحابهم، وذكر الخبر بتمامه.

وقال ياقوت: رجيع: على فعيل، ورجيع الشيء رديئه، والرجيع: الروث، والرجيع من الدواب: ما رجّعته من سفر وهو الكال، وكل شيء يردّد لأن معناه مرجوع.

والرجيع: هو الموضع الذي غدرت فيه عضل والقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله ﷺ... وقد ذكره أبو ذؤيب فقال:

رأيت وأهلي بواد الرجيـ
ـع من أرض قيلة برقا مليحة

وقال ابن إسحاق والواقدي: الرجيع ماء لهذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف.

وقال حسّان بن ثابت:

صلّى الإلٰه على الذين تتابعوا
يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا
رأس السّرية مرثد وأميرهم
وابن البكير أمامهم وخبيبُ
وابن لطارق وابن دثنة منهم
وافاه ثَمّ حمامه المكتوبُ
والعاصم المقتول عند رجيعهم
كسب المعالي إنه لكسوبُ
منع المقادة أن ينالوا ظهره
حتى يجالد إنه لنجيبُ

وقال البكري: الرجيع: بفتح أوله وبالعين المهملة في آخره: ماء لهذيل، لبني لحيان منهم، بين مكة وعسفان بناحية الحجاز، من صدر الهدأة قاله ابن إسحاق وغيره، قال أبو ذؤيب:

أصبح من أم عمرو بطن مرّ فأجـ
زاع الرجيع فذو سدر فأملاح

وبالرجيع قتل بنو لحيان من هذيل عاصم ابن ثابت وأصحابه.

قلت: بهذا يتّضح أن الرجيع الموضع الذي غدر فيه بنو لحيان بأصحاب النبي ﷺ، ماء لهذيل بين مكة وعسفان من صدر الهدأة.

أما قول ياقوت قرب الطائف: فإنه وهم منه بسبب أن الرجيع ذُكر قريبًا من الهدّة، ولم يتّضح لياقوت أن الهدة اسم لموضعين، أحدهما قرب الطائف، وهذا الموضع بالدال المخفّفة ـ وهو ما زال معروفًا باسمه هذا.

أما الموضع الآخر فإنه بتشديد الدال المهملة، وذكر بالهمزة بعد الدال أيضًا، وهذا الموضع هو القريب من الرجيع ومن عسفان، وما زال معروفًا باسمه وهو الذي غدر فيه بنو لحيان بأصحاب النبي ﷺ، كما جاء في بعض الروايات.

وأقوال العلماء متفقة على تحديد الرجيع الذي وقع فيه الغدر بأصحاب النبي ﷺ بأنه بين مكة وعسفان بقرب الهدّة، وهذه المواضع الثلاثة: عسفان، والرجيع، والهدّة متقاربة، وفي رسم الهدّة مزيد من الإيضاح، فانظره.

وقال عاتق البلادي: ويعرف الرجيع اليوم بالوطيّة (الوطأة) هو ماء شرق عسفان يسار الخارج من عسفان إلى مكة، يفرق طريقه على ١٣ كيلاً من عسفان، ويبعد عن الطريق قرابة سبعة أكيال في لحف حرّة الجابريّة، ماء دائم لا يغور، تكرعه الإبل بأعناقها، ويغترف منه الوارد بالمغاريف.

والرجيع من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها مواضع متعددة، منها الرجيع المتقدّم ذكره، ومنها الرجيع: وادٍ نزله النبي ﷺ في طريقه إلى خيبر حين غزاها، ذكر ابن إسحاق في خبر غزوة خيبر أنه ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عصر فبني له فيه مسجد، ثم على الصهباء ثم أقبل حتى نزل بوادٍ يقال له الرجيع، فنزل بينهم ـ يعني يهود خيبر ـ وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر فعسكر به، وكان يروح لقتال خيبر منه وخلّف الثقل بالرجيع والنساء والجرحى.

وذكر ابن سعد في خبر غزوة خيبر أنّ عامر ابن الأكوع دفن هو ومحمود بن مسلمة من شهداء خيبر في غار واحد بالرجيع بخيبر.

الرّوحاء: براء مهملة مفتوحة بعدها واو ساكنة ثم حاء مهملة وآخره ألف ممدودة، وشرف الرّوحاء ما ارتفع من أرضها: قرية على طريق الحج من المدينة إلى مكة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر وفي حجّته حين حجّ تحت سمرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة وكان إذا رجع من غزو كان في تلك الطريق أو في حجّ أو عمرة هبط من بطن واد فإذا ظهر من بطن واد أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشّرقية فعرّس ثَمّ حتى يصبح ليس عند المسجد الذي بحجارة ولا على الأكمة التي عليها المسجد كان ثمّ خليجٌ يصلّي عبد الله عنده في بطنه كثيبٌ كان رسول الله ﷺ يصلّي، فيه وأن عبد الله بن عمر حدّث أن النبي ﷺ صلّى حيث المسجد الصغير الذي

دون المسجد الذي بشرف الرّوحاء، وقد كان عبد الله يعلم المكان الذي كان صلّى فيه النبي ﷺ.

قال ابن حجر: شرف الرّوحاء: هي قرية جامعة على ليلتين من المدينة، وهي آخر السّيالة للمتوجّه إلى مكة، والمسجد الأوسط هو في الوادي المعروف الآن بوادي بني سالم.

وفي الآذان من صحيح مسلم أن بينهما ستة وثلاثين ميلاً.

وقال المجد: الرّوحاء: موضع قريب من المدينة، من اعمال الفرع، على نحو من أربعين ميلاً من المدينة.

وفي صحيح مسلم بن الحجّاج: على ستة وثلاثين ميلاً، وفي كتاب ابن أبي شيبة على ثلاثين ميلاً.

وقال أبو عبيد البكري: قبر مضر بن نزار بالرّوحاء، على ليلتين من المدينة بينهما واحد وأربعون ميلاً.

وسئل كثير: لِمَ سُمّيت الرّوحاء الرّوحاء: قال لانفتاحها وروحها، وبقعة روحاء: أي طيّبة ذات رائحة.

قالت أعرابيّة:

فإن حال عرض الرّمل يا صاح دونهم
فقد يطلب الإنسان ما ليس لاقيا
يرى اللّه أن القلب أضحى ضميره
بما قابل الرّوحاء والعرج قاليًا

والنسبة إليها روحاوي، قال ابن الرّضية:

أفي كل يوم أنت رام بلادها
بعينين إنسانا هما غرقان
إذا اغرورقت عيناي قال صحابتي
لقد أولعت عيناك بالهملان
ألا فاحملاني بارك اللّه فيكما
إلى حاضر الرّوحاء ثم ذراني

وروى ابن شبّه بسنده عن كثير بن عبد الله ابن عمرو المزني، عن أبيه، عن جدّه قال: صلّى رسول الله ﷺ في المسجد الذي ببطن الرّوحاء عند عرق الظبية، ثم قال: هذا سجاسج: وادٍ من أودية الجنة.

قال الحربي: من المدينة إلى ذي الحليفة خمسة أميال ونصف، ومن ذي الحليفة إلى الحفير ستة أميال، ومن الحفير إلى ملل ستة أميال، ومن ملل إلى السيّالة سبعة أميال، ومن المدينة إلى السّيالة ثلاثة وعشرون ميلاً ومن السّيالة إلى الرّوحاء أحد عشر ميلاً ومن الرّوحاء إلى الرويثة ثلاثة عشر ميلاً، ومن السّيالة إلى الرويثة أربعة وعشرون ميلاً.

وبالرّوحاء آبار سوانٍ وحياض وهي لمزينة، وبها قصران كبير وصغير، وبها آبار كثيرة معروفة منها بئر لعثمان بن عفان، وبئر لعمر ابن عبد العزيز، وبركتان تعرف بمحمد ابن زبيدة.

وروى بسنده عن ابن عمر أنه كان يصلي عند العرق الذي عند منصرف الرّوحاء وذلك أن العرق انتهى طرفه على حافة الطريق، دون المسجد الذي بينه وبين المنصرف وأنت ذاهب إلى مكة، وقد ابتنى ثمّ مسجد فلم يكن عبد الله يصلّي في ذلك المسجد، وكان يتركه عن يساره ووراءه، يصلّي إلى العرق نفسه.

وروى عن ابن جميع عن نادر أن المسجد الذي من الرّوحاء على ميلين مسجد رسول الله ﷺ، وبلغني أن ذلك المسجد يقال له مسجد المنصرف، جبل منقطع عن يسارك ينصرف عنه. ا.هـ.

وقال ابن حجر: منصرف الرّوحاء: بفتح الراء أي آخرها.

قال الواقدي في خبر حجّة الوداع: أصبح رسول الله ﷺ يوم الأحد بملل، ثم راح

فتعشّى بشرف السيّالة، وصلّى بالشرف المغرب والعشاء، وصلّى الصبح بعرق الظبية بين الروحاء، والسّيالة، وهو دون الرّوحاء في المسجد الذي على يمين الطريق، ثم نزل رسول الله ﷺ الروحاء ثم راح ﷺ من الرّوحاء فصلّى العصر بالمنصرف، ثم صلّى المغرب والعشاء وتعشّى به، وصلّى الصبح بالأثاية.

وقال البكري: الرّوحاء: بفتح أوله، وبالحاء المهملة، ممدود: قرية جامعة لمزينة، على ليلتين من المدينة بينهما واحد وأربعون ميلاً، والنّسب إليها روحاني على غير قياس، وقد قيل روحاوي، على القياس، وقال كثير:

دوافع بالرّوحاء طورًا وتارة
مخارم رضوى خبتها فرمالها

قلت: هذا ما ذكره المؤرخون المتقدّمون عن وصف الرّوحاء وتحديد موقعها، والمسافة بينها وبين المدينة، ولم يختلفوا في ضبط اسمها، ولا في تحديد مكانها، ووقع اختلاف بينهم في تحديد المسافة بينها وبين المدينة.

قال حمد الجاسر: الرّوحاء: لا تزال معروفة وكانت لها شهرة قديمة، ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال وهو في وادي الرّوحاء مشيرًا إلى الجبل العظيم الممتد عن يسار المتجه إلى مكة: ما اسم هذا الجبل؟ فقالوا: (ورقان) فقال: اسمه (حمت) جبل من جبال الجنة، اللّهم بارك لنا فيه وبارك لأهله فيه، أتدرون ما اسم هذا الوادي يعني وادي الرّوحاء؟ هذا سجاسج لقد صلّى في هذا المسجد قبلي ٧٠ نبيّاً، ولقد مرّ بها ـ يعني الرّوحاء ـ موسى ابن عمران في ٧٠ ألفًا من بني إسرائيل عليه عباءتان قطوانيتان على ناقة له ورقاء ولا تقوم الساعة حتى يمر بها عيسى بن مريم حاجّاً أو معتمرًا، والحديث من رواية ابن زبالة ومعروف مقامه عند المحدثين.

ولقدم الرّوحاء نشأت فكرة وجود قبر مضر ابن نزار فيها، كما أشار إلى ذلك البكري في (معجم ما استعجم).

ويشاهد المرء غرب البئر والمسجد آثار بناء قديم ومقابر كثيرة هناك، وتبعد الرّوحاء هذه عن المدينة بما يقارب ٨٠ كيلاً، وبعد الرّوحاء بأربعة أكيال يمر المسافر بطرف جبل عن يمينه يسمّى عرق الظبية بجواره مسجد متهدّم وآثار قبور بطرف المسجد، وللمسجد هذا ذكر عند المتقدمين حيث يعدّونه هو ومسجد الرّوحاء من المساجد النبوية، والذي يعنينا من هذا هو الإشارة إلى قدم هذه المواضع.

ومن الرّوحاء إلى المسيجيد القرية الكبيرة الآن ٨ أكيال، والمسيجيد اسم حديث، ويعرف قديمًا باسم المنصرف، بفتح الصاد وفيه مسجد يعرف بمسجد الغزالة لا يزال معروفًا وهو قديم أيضًا ذكره البخاري في صحيحه.

وسيل وادي الرّوحاء يفضي إلى المنصرف ولهذا يسمّى منصرف الرّوحاء، ويجتمع مع أودية النازيّة ورحقان ووادي الجيّ ثم تفيض هذه الأودية على الصفراء.

والطريق القديم ينصرف من المنصرف ذات اليسار متّجهًا صوب الجنوب تاركًا الطريق المعروف الآن بيمينه ا.هـ[1].

وقال عاتق البلادي: الرّوحاء: قرية صغيرة على (ثلاثة وسبعين) كيلاً من المدينة على طريق مكة، ظلت محطة للجمال، فلمّا جاءت

---

(١) مجلة العرب ١ - ٨٥٥ - ٨٥٦.

السيارات تأخرت وقلّ نُزُلها، ويوجد بها اليوم مقهيان، وليس بها زرع، يشرف عليها من مطلع الشمس جبل ورقان أمغر ذو شناخيب، ويأتيها من الشمال وادٍ صغير يعرف بشنوكة، ويشرف عليها مباشرة من الجنوب جبل الجَرف، بفتح الجيم، ومنها ترى عرق الظبية شمالاً إلى الشرق يمر به الطريق قبلها، وهي المرحلة الثانية من المدينة، وكانت الأولى السيّالة ثم صارتِ الفريش، ولمّا عمرت المسيجيد التي تقع بعد الرّوحاء بسبعة أكيال بدأت الرّوحاء في التلاشي. أهلها عوف من حرب أو الحجلة تجتمع ديارهم فيها.

روضة خاخ: واحدة الرياض، خاخ: بخاء معجمة بعدها ألف ثم خاء أخرى معجمة: روضة على الطريق بين مكة والمدينة، قريبة من المدينة.

روى البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب ﵁ يقول بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنَّ بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لنقلبنّ الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله ﷺ.

قال ابن حجر: روضة خاخ: بمعجمتين، ومَنْ قالها بمهملة ثم جيم فقد صحّف.

قال المجد: خاخ، بخاءين معجمتين: موضع بين الحرمين يقال له روضة خاخ، وهو بقرب قرية حمراء الأسد من المدينة.

وروي عن علي ﵁ أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ والزبير والمقداد ﵄ فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه فأتوني به.

قالوا: وخاخ مشترك بين جماعة، فيه منازل لمحمد بن جعفر بن محمد، وعلي بن موسى الرّضا، وغيرهم من الناس وقد أكثر الشعراء من ذكره.

قال مصعب الزبيري: حدثني عبد الرحمٰن ابن عبد الله بن حفص بن عاصم بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما قال لمّا قال الأحوص:

يا موقد النار بالعلياء من إضمِ
أوقد فقد هجت شوقًا غير مضطرمِ
يا موقد النار أوقدها فإنَّ لها
سنا يهيج فؤاد العاشق السلمِ
نار يضيء سناها إذ تشبّ لنا
سعديّة، وبها تشفى من السّقمِ
وما طربت لشجو أنت نائله
ولا تنوّرت تلك النار من أممِ
ليست لياليك في خاخ بعائدة
كما عهدت ولا أيام ذي سلمِ

غنّى فيه معبد وشاع الشعر بالمدينة، فأنشدت سكينة، وقيل عائشة بنت أبي وقاص قول الشاعر في خاخ، فقالت: قد أكثر الشعراء في خاخ ووصفه، لا والله ما انتهى حتى أنظر إليه، فبعثت إلى غلامها فند، فحملته على بغلة وألبسته ثياب خزّ من ثيابها، وقالت: امض بنا نقف على خاخ فمضى بها، فلما رأته قالت: ما هو إلا ما أرى؟ قال: ما هو إلا هذا. فقالت: والله لا أريم حتى أوتى بمن يهجوه. فجعلوا يتذاكرون شاعرًا قريبًا، لكي يرسلوا إليه إلى أن قال فند: والله أنا أهجوه، قالت: أنت؟ قال: أنا، قالت: قل: فقال خاخ، خاخ، خاخ، أخ أخ، ثم تفل عليه كأنه يتنخّع

فقالت: هجوت وربّ الكعبة، لك البغلة وما عليك من الثياب.

وذكر ابن الفقيه: خاخ في حدود العقيق، وقال: هو بين الشوطي والناصفة، وأنشد للأحوص:

طربت وكيف تطرب أم تصابي
ورأسك قد ترشّح بالقتيرِ
لغانية تحلّ هضاب خاخ
فأسقف فالدوافع من حصيرِ

وروى أبو عوانة عن البخاري: خاج: بالجيم في آخره وهو سهو بلا شك.

قيل: إنه موضع قريب من مكة وهو غلط أيضًا.

وقال ياقوت: خاخ بعد الألف خاء معجمة أيضًا: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة، وذُكر في أحماء المدينة جمع حمى ـ ثم ذكر ما قاله المجد نصًا ولم يزد عليه.

قال الهجري: حمراء الأسد، هي التي ورد فيها أن رسول الله ﷺ، لمّا كانت الغد من يوم أحد تبعهم إلى حمراء الأسد، وبالحمراء قصور لغير واحد من القرشيين. وفي شقّ الحمراء الأيسر منشد، وفي شقّها الأيمن أيضًا شرقيًا خاخ، الذي روى علي ابن أبي طالب فيه أن رسول الله ﷺ بعثه هو والزبير والمقداد، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، واتوني به. الحديث. وقال الأحوص بن محمد:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلّدا
فقد غلب المحزون أن يتجلّدا
نظرت رجاء بالموقّر أن أرى
أكاريس يحتلّون خاخا فمشندا

وقال أيضًا:

ولها منزل بروضة خاخ
ومصيف بالقصر قصر قباء

وخاخ للعلويين وغيرهم من الناس.

قال ابن أذينة:

جاد الربيع بشوط رسم منزله
أحب من حبّها شوطى فألجاما
فبطن خاخ فأجزاع العقيق لها
نهوى ومن جوّذي عيرين أهضاما
دارًا توهمّتها من بعد ما بليت
فاستودعتك رسوم الدار أسقاما

قلت: هذه الأمكنة التي وردت في الشعر مع خاخ كلها قريبة من المدينة وبعضها قريب من بعض

وقال السمهودي: خاخ، بلد به منازل لمحمد بن جعفر بن محمد، وعلي بن موسى الرضا وغيرهما، وبئر محمد بن جعفر وعلي بن موسى ومزارعهما تعرف بالحضر، وقال الواقدي: روضة خاخ بقرب ذي الحليفة، على بريد من المدينة.

وقال السهيلي: خاخ، بخاءين منقوطتين، وكان هُشيم يرويه: حاج، بالحاء والجيم، وهو مما حُفظ من تصحيف هُشَيم.

قال حمد الجاسر: روضة خاخ تقع في أسفل النقيع بينه وبين المدينة، على مسافة أقلّ من يوم من المدينة بسير الماشي[١].

قال عاتق البلادي: خاخ، وادٍ يصب في النقيع من الشرق بين رواوة والغصن ـ واديان ـ يأخذ من حرّة النقيع، فيه وسعة طيّبة المرعى تعرف بروضة خاخ.

---

(١) مجلة العرب، ٦/ ٤٦١.

قلت: وبما تقدّم من أقوال العلماء في تحديد موقع روضة خاخ يتبيّن أنها قريبة من المدينة، والمواقع التي حددت فيها ما زالت معروفة بأسمائها القديمة.

رومية: براء مضمومة بعدها واو ساكنة ثم ميم مكسورة فياء مثناة مفتوحة وآخره هاء: مدينة في بلاد الروم.

وفيما **رواه البخاري** عن ابن عباس في حديث أبي سفيان مع هرقل ملك الروم، قال: كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي.

قال ابن حجر: رومية: بالتخفيف، وهي مدينة معروفة للروم.

قال القزويني: رومية: مدينة رئاسة الروم وعلمهم، وهي في شمال غرب، القسطنطينية، وبينهما مسيرة خمسين يومًا وهي في يد الفرنج، ويقال لملكهم ملك ألمان، وبها يسكن البابا الذي تطيعه الفرنج، وهو عندهم بمنزلة الإمام الذي يكون واجب الطاعة.

ومدينة رومية من عجائب الدنيا لعظم عمارتها، وكثرة خلقها خارج عن العادة إلى حدّ لا يصدّقه السامع، ذكر الوليد بن مسلم الدمشقي أن استدارة رومية أربعون ميلاً، وفي كل ميل منها باب مفتوح، فمن دخل من الباب الأول يرى سوق البياطرة، ثم يصعد درجة فيرى سوق الصيارفة والبزّازين، ثم يدخل المدينة فيرى وسطها برجًا عظيمًا واسعًا، وفي أحد جوانبه كنيسة قد استقبل بمحرابها المغرب، وبابها المشرق، وفي وسط البرج بركة مبطنة بالنحاس، يخرج منها ماء المدينة كلّه.. وثلاثة جوانب المدينة في البحر، والرابع في البر، ولها سوران من رخام وبين السورين فضاء طوله مائتا ذراع، وعرض السور ثمانية عشر ذراعًا، وارتفاعه اثنان وستون ذراعًا. بها نهر بين السورين يدور ماؤه في جميع المدينة، وهو ماء عذب يدور على بيوتهم ويدخلها، وعلى النهر قنطرة بدفوف النحاس كل دقّة منها ستة وأربعون ذراعًا، إذا قصدها عدوّ رفعوا تلك الدفوف فيصير بين السورين بحر لا يرام، وعمود النهر ثلاثة وتسعون ذراعًا في عرض ثلاثة وأبعين ذراعًا، وبين باب الملك إلى باب الذهب اثنا عشر ميلاً، وسوق ممتد من شرقيها إلى غربيها بأساطين النحاس، وسقفه أيضًا نحاس، وفوقه سوق آخر في الجميع للتجّار وأصحاب الأمتعة.

وذكر أن بين يدي هذا السوق سوقًا آخر على أعمدة نحاس، كل عمود منها ثلاثون ذراعًا وبين هذه الأعمدة نقير من السفن فتجيء السفينة في هذه النقرة، وفيه الأمتعة حتى تجتاز على السوق بين يدي التجّار فتقف على تاجر تاجر فيختار منها ما يريد، ثم ترجع إلى البحر.

قلت: ثم بعد هذا تحدّث عن ما فيها من الكنائس والأديرة والعلماء والفلاسفة والمنجمين وفنون العمران، وذكر أنه نقل هذه الأخبار من كتاب ابن الفقيه، وهو محمد ابن أحمد الهمذاني، ولا يتّسع مقامنا هذا لذكر ما قاله عن هذه المدينة.

وقال ياقوت: **رومية**: بتخفيف الياء من تحتها نقطتان كذا قيّده الثقاة. وهما روميتان: إحداهما بالروم، والأخرى بالمدائن، بنيت وسُمّيت باسم ملك، ثم استرسل ياقوت في الحديث عن رومية التي في بلاد الروم، وذكر

عنها مثل ما ذكره القزويني في وصفها وتحديد موقعها ا. هـ.

وقال الحميري: **رومة**، مدينة عظيمة للنصارى، هي ركن من أركانهم وكرسي من كراسيهم، وكانت دار مملكة الروم، نزلها من ملوكهم تسعة وعشرون ملكًا، وهي مدينة الحكام.

وهي في سهلٍ من الأرض تحيط بها الجبال على بعد عنها منها جبل عوذية، بينها وبينه ستة أميال، ودور مدينة رومة أربعون ميلا، وقطرها اثنا عشر ميلاً، يشقّها نهر يسمّى تيبرس وينقسم قسمين ثم يلتقيان آخرها وفي وسط هذه المدينة حصن يُسمّى منت أقوط في صخرة مرتفعة لم يظفر بهذا الحصن عدوّ قط، وبين رومة والبحر الشامي اثنا عشر ميلاً، وكذلك بينها وبين البحر الجوفي، وأهل رومة أجبن خلق الله تعالى، ويدبّر أمرهم برومة البابا.

ثم تحدّث عن عمران هذه المدينة وأحيائها، وديانة أهلها وعاداتهم، وما فيها من العجائب على نحو مما ذكره ياقوت وغيره.

رومة أيضًا: رومية المدائن: قال في الروض المعطار: هي إحدى بلدان المدائن التي كان ينزلها كسرى ملك الفرس بالعراق، يقال لها رومية المدائن، والمدائن على مسافة بعض يوم من بغداد، ويشتمل مجموعها على مدائن متصلة على جانبي دجلة شرقًا وغربًا، ودجلة يشق بينها، ولذلك سُمّيت المدائن.

وفي رومية كان إيقاع أبي جعفر المنصور بأبي مسلم بالقتل سنة ست وثلاثين ومائة. ا. هـ.

وذكر البلاذري: أن هذه المدينة فتحها سعد ابن أبي وقّاص صلحًا، فقال: لمّا فرغ سعد ابن أبي وقّاص من وقعة القادسية توجّه إلى المدائن، فصالح أهل الرومية وبهر سير، ثم افتتح المدائن، وأخذ أسبانير وكرد بنذاذ عنوةً فأنزلها جنده فاجتووها.

قال ياقوت: وكان فتح المدائن كلها على يد سعد بن أبي وقّاص في صفر سنة ١٦هـ. في أيام عمر بن الخطاب ﷺ، وذكر أن رومية من بين مدنها التي فتحها سعد بن أبي وقّاص.

قلت: يلحظ أنَّ الحميري - في الروض المعطار - ذكر رومية، الرومية بدون ياء (رومة)، بينما ذكرها غيره من المؤرخين بالياء المثناة بعد الميم (رومية)، وهاتان المدينتان هما اللتان تعرفان بهذا الاسم: رومية الروم، ورومية المدائن، ورومية المدائن هي التي فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ كما تقدّم.

الرويثة: براء مضمومة بعدها واو مفتوحة بعد الواو ياء مثناة ساكنة بعدها ثاء مثلثة مفتوحة وآخره هاء: موضع على طريق الحج بين مكة والمدينة.

وجاء فيما **رواه البخاري** عن نافع أن عبد الله حدّثه أن النبي ﷺ كان ينزل تحت سرحة ضخمة دون الرّويثة عن يمين الطريق ووجاه الطّريق في مكان بطح سهل حتى يفضي من أكمة دوين بريد الرّويثة بميلين.

قال ابن حجر: الرّويثة: بالراء والمثلثة مصغّرًا، قرية جامعة بينها وبين المدينة سبعة عشر فرسخًا.

وقال المجد: الرّويثة: بضم الراء، وفتح الواو وسكون المثناة، وفتح المثلثة آخره هاء: موضع على ليلة من المدينة.

وقال ابن السكّيت: الرّويثة متعشّى بين العرج والرّوحاء.

وقال الأزهري: رويثة منهل من المناهل، بين المسجدين يعني: الحرمين.

وقال ابن الكلبي: لمّا رجع تبّع من قتال أهل المدينة يريد مكة، نزل الرويثة وقد أبطأ في مسيره. فسمّاها الرويثة، من راث يريث، إذا أبطأ، وهي على ليلة من المدينة.

وروى الحربي بسنده: عن نافع أن عبد الله ابن عمر حدّثه أن رسول الله ﷺ كان ينزل ـ أراه قال ـ تحت شجرة دون الرّويثة عن يمين الطريق، وجاه الطريق في مكان بطح سهل حين يفضي من أكمة دون بريد الرّويثة بميلين.

وروى عن ابن جميع عن زياد قال: ومسجد في وادي الرّويثة. قال أبو إسحاق البكري: هي من بلاد مزينة.

ومن الرويثة إلى السقيا واحد وثلاثون ميلاً. ومن الرّويثة إلى جيّ أربعة أميال، وبالرويثة آبار كثيرة، ويقال للجبل الذي في أولها الحمراء، والذي في آخرها الحسناء. ومن جيّ إلى العرج عشرة أميال.

وذكر الحربي: أن المسافة بين الرويثة وبين الرّوحاء المنزلة التي قبلها ممّا يلي المدينة ثلاثة عشر ميلا.

وقال البكري: الرّويثة: بضم أوله وفتح ثانيه وبالثاء المثلثة، على لفظ التصغير: قرية جامعة، وبين الرّويثة والمدينة سبعة عشر فرسخًا، ومن الرّويثة إلى السقيا عشرة فراسخ، وعقبة العرج على أحد عشر ميلاً من الرّويثة، بينها وبين العرج ثلاثة أميال.

قال ياقوت: الرويّثة: تصغير روثة، واحدة روث الدواب أو روثة الأنف وهو طرفه..

قال ابن السكّيت الرّويثة معشّى بين العرج والرّوحاء، قال السلفي: الرّويثة ماء لبني عجل بين طريق الكوفة والبصرة إلى مكة، وقال الأزهري: رويثة اسم منهلة من المناهل التي بين المسجدين، يريد: مكة والمدينة.

قلت: ما قاله ياقوت عن السلفي لا ينطبق على موقع الرّويثة الموضع الذي نتحدّث عنه.

قلت: هذا بعض ما ذكره المؤرخون المتقدّمون في وصف الرّويثة، وتحديد المسافة بينها وبين المواضع التي بينها وبين المدينة والمواضع التي بينها وبين مكة، وهي أقوال بعضها يكمل بعضًا، ويوضّح بعضًا، أما تحديد المسافة بينها وبين المدينة بليلة فإنه تحديد غير صحيح.

قال حمد الجاسر: ومن الأمكنة القديمة التي كان يمر بها هذا الطريق ـ يعني الطريق من المدينة إلى مكة ـ: الرّويثة، وكانت، من أشهر منازله فيها آبار وحياض، ويقع بقربها جبلان يدعى الشرقي منهما (الحسناء) ويدعى الغربي (الحمراء) ولا تزال آثار قرية الرّويثة باقية، بعد أن ينزل المرء في الوادي يشاهد تلك الآثار عن يمينه، ويحدّد المتقدّمون المسافة بينها وبين الرّوحاء بـ ١٥ ميلاً على وجه التقريب.

ومن الرويّثة إلى السقيا وهذه درس اسمها، وتعرف الآن باسم (أم البرك). وقبل السقيا هذه يمر المسافر بوادٍ عظيم هو وادي الجيّ.

وجاء في رسالة عرّام بن الأصبغ السلمي: ورقان جبل أسود عظيم ينقاد من سيالة إلى المتعشّى بين العرج والرّويثة، ويقال للمتعشّى الجيّ، وبسفح ورقان من عن يمين: سيالة ثم الرّوحاء ثم الرّويثة ثم الجيّ[1].

قال عاتق البلادي: الرّويثة: اليوم محطة مهجورة على (١٧) كيلاً من المسيجيد جنوبًا، في فم واد من روافد الجيّ اليسرى يسمّى:

(١) مجلة العرب ١/ ٨٥٦.

خلصًا، فيها حوانيت باقية على بنائها وآبار ما زالت تورد وآثار ظاهرة، وهي في منتصف المسافة تمامًا بين شرف الأثاية والمنصرف، وأهل البلاد يسمّونها محطة خلص؛ لأنَّ واديها اسمه خلص، وهي عند ملتقاه بالجيّ.

باب الزاي

الزاوية: بفتح الزاء المعجمة بعدها ألف وبعد الألف واو مكسورة فياء مثناة مفتوحة وآخره هاء: موضع خارج مدينة البصرة على فرسخين.

قال البخاري في صحيحه: كان أنس ﵁ في قصره أحيانًا يجمّع وأحيانًا لا يجمّع بالزاوية على فرسخين.

قال ابن حجر: الزاوية موضع ظاهر البصرة معروف، كانت فيه وقعة كبيرة بين الحجّاج وابن الأشعث، قال أبو عبيد البكري: هو بكسر الواو موضع دانٍ من البصرة، وقوله على فرسخين: أي من البصرة. وهذا وصله ابن أبي شيبة من وجه آخر عن أنس أنه كان يشهد الجمعة من الزاوية وهي على فرسخين من البصرة، وهذا يردّ على مَنْ زعم أنّ الزاوية موضع بالمدينة النبوية كان فيه قصر لأنس على فرسخين منها. ا.هـ.

وقال البكري: الزاوية: بكسر الواو: موضع دان من البصرة بينهما فرسخان، قال البخاري: كان أنس بن مالك في قصره بالزاوية أحيانًا يجمّع وأحيانًا لا يجمّع.

قال الحميري: الزاوية بالعراق، عند البصرة بينهما فرسخان، قال البخاري: كان أنس ابن مالك ﵁ في قصره بالزاوية أحيانًا يجمّع وأحيانًا لا يجمع.

وبالزاوية هذه كانت الوقعة بين الحجّاج ابن يوسف وبين عبد الرحمٰن بن محمد ابن الأشعث بن قيس، وكان عبد الرحمٰن قد خلع الحجّاج وعبد الملك وبايعه الناس على ذلك، وبايعه عليه أهل الفضل والقرّاء وقاموا منكرين لأمر الحجّاج فكانت بينهم وقائع كثيرة هذه منها وذلك سنة اثنتين وثمانين، أو في سنة ثلاث وثمانين.

وفي الإصابة: كانت إقامته ـ يعني أنسًا ـ بعد النبي ﷺ بالمدينة ـ ثم شهد الفتوح ثم قطن البصرة ومات بها، قال علي بن المديني كان آخر الصحابة موتًا بالبصرة، وكان عمره مائة سنة إلا سنة، وقيل: إن موته كان سنة اثنتين وتسعين، وقيل: سنة ثلاث وتسعين.

وفي الاستيعاب: مات أنس بن مالك في قصره بالطف على فرسخين من البصرة، سنة إحدى وتسعين ودفن هناك. وعن أبي عمر ﵁ أنه آخر مَنْ مات بالبصرة من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقال ياقوت: الزاوية موضع قرب المدينة فيه كان قصر أنس بن مالك ﵁ وهو على فرسخين من المدينة.

قلت: ما قاله مردود بما تقدّم من أقوال العلماء التي تؤكّد أن قصر أنس بن مالك، ﵁، كان في الزاوية قرب البصرة في العراق، وأنه ﵁ توفي هناك.

وقال ياقوت: الزاوية: بلفظ زاوية البيت، عدّة مواضع، منها: قرية بالموصل من كورة بلد.

والزاوية: موضع قرب البصرة كانت به الوقعة المشهورة بين الحجّاج وعبد الرحمٰن ابن محمد بن الأشعث قتل فيها خلق كثير من الفريقين، وذلك في سنة ثلاث وثمانين للهجرة.

والزاوية: بين واسط والبصرة، قرية على شاطىء دجلة.

والزاوية: من أقاليم أكشونية بالأندلس.

قلت: وبهذا يتبيّن أن الزاوية التي وردت في صحيح البخاري، والتي كان فيها قصر أنس ابن مالك رضي الله عنه هي الزاوية المعروفة قرب البصرة في العراق.

الزّوراء: بزاي معجمة مفتوحة بعدها واو ساكنة ثم راء مهملة وآخره ألف ممدودة: موضع في المدينة النبوية.

روى البخاري بسنده عن السائب بن يزيد قال كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلمّا كان عثمان رضي الله عنه وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزّوراء.

قال ابن حجر: الزّوراء: بفتح الزاي وسكون الواو وبعدها راء ممدودة، وعند ابن خزيمة وابن ماجة بلفظ: زاد النداء الثالث على دار في السوق يقال لها الزّوراء.

وفي صحيح مسلم في حديث أنس أنّ نبي الله وأصحابه كانوا بالزّوراء، والزّوراء بالمدينة عند السوق.

وروى ابن شبّة بسنده قال: حدّثنا أبو غسّان عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، قال أخبرني يحيى بن محمد بن الحكم بن ميناء قال: أدركت سوقًا بالزّوراء يقال له (سوق الحرص) كان الناس ينزلون إليها بدرج، يعني: في المدينة.

وقال المجد: الزّوراء: بالفتح، موضع قرب سوق المدينة مرتفع، وقيل: اسم لسوق المدينة.

والزّوراء أيضًا: اسم دار عثمان بن عفّان رضي الله عنه

وقال البكري: الزّوراء: بفتح أوله ممدود: وهو اسم يقع على عدّة مواضع، فمنها الزّوراء المتصلة بالمدينة، التي زاد عليها عثمان النداء الثالث يوم الجمعة لمّا كثر الناس.

وقال ياقوت: زوراء، تأنيث الأزور، وهو المائل، والازورار عن الشيء: العدول عنه والانحراف، والزّوراء موضع عند سوق المدينة قرب المسجد، قال الداودي: هو مرتفع كالمنارة، وقيل: بل الزّوراء سوق المدينة نفسه، ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنه، أنه سمع صياح أهل الزّوراء، وإيّاه عنى الفرزدق:

تحنّ بزوراء المدينة ناقتي
حنين عجول تركب البوّ رائم
ويا ليت زوراء المدينة أصبحت
بزوراء فلج أو بسيف الكواظم

وقال السمهودي: الزّوراء بالفتح ثم السكون. قال ابن شبّة في دور العباس: منها الدار التي بالزّوراء سوق المدينة عند أحجار الزيت.

وقال عبد الحميد العباسي: الزّوراء: بالفتح ثم السكون موضع قرب سوق المدينة مرتفع وقيل: اسم سوق المدينة، والزّوراء أيضًا اسم دار عثمان بن عفّان رضي الله عنه، التي جعل النداء عليها، الذي أحدثه يوم الجمعة.. في ناحية بقيع الخيل، وبه مسجد أصحاب العباء، وهنالك كانت أحجار الزيت من سوق المدينة لا بقيع الغرقد.

قلت: هذا ما ذكره المؤرخون في تحديد موقع الزّوراء التي في المدينة، التي ينادى فيها

لصلاة الجمعة وهذا الموضع ـ الزّوراء ـ أصبح غير معروف في هذا العهد.

وروى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتي النبي ﷺ ـ بإناء وهو بالزّوراء ـ فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم، قال قتادة: قلت لأنس كم كنتم، قال: ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة.

قال ابن حجر: الزّوراء: بتقديم الزاي على الراء وبالمد، مكان معروف بالمدينة عند السوق. وزعم الداودي أنه كان مرتفعًا كالمنارة، وكأنه أخذه من أمر عثمان بالتأذين على الزّوراء وليس ذلك بلازم، بل الواقع أنّ المكان الذي أمر عثمان بالتأذين فيه كان بالزوراء، لا أنه الزوراء نفسها، ووقع في رواية همّام عن قتادة عن أنس: شهدت النبي ﷺ مع أصحابه عند الزّوراء، أو عند بيوت المدينة، أخرجه أبو نعيم. وعند أبي نعيم من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس أنه هو الذي أحضر الماء، وأنه أحضره إلى النبي ﷺ من بيت أم سلمة، وأنه ردّه بعد فراغهم إلى أمّ سلمة وفيه قدر ما كان فيه أولاً، ووقع عنده في رواية عبيد الله بن عمر عن ثابت عن أنس، أن النبي ﷺ خرج إلى قباء، فأتي من بعض بيوتهم بقدح صغيرة، ووقع في حديث جابر الآتي التصريح بأن ذلك كان في سفر، ففي رواية نبيح العنزي عند أحمد عن جابر قال سافرنا مع رسول الله ﷺ فحضرت الصلاة فقال رسول الله ﷺ: «أما في القوم من طهور»؟ فجاء رجل بفضلة في إداوة فصبّه في قدح فتوضأ رسول الله ﷺ ثم إن القوم أتوا ببقية الطهور فقالوا: تمسّحوا فسمعهم رسول الله ﷺ فضرب بيده في القدح في جوف إناء ثم قال: أسبغوا الطهور، قال جابر: فوالذي أذهب بصري لقد رأيت الماء يخرج من بين أصابع رسول الله ﷺ حتى توضؤوا أجمعون، قال حسبته قال: كنّا مائتين أو زيادة.

قلت: هكذا وقع الاختلاف في الزّوراء التي ذكرت في هذا الحديث، هل هي الزّوراء المعروفة في المدينة، أو أنه موضع آخر خارج المدينة مرّ به النبي ﷺ في أحد أسفاره، ولم أر ذكرًا لهذا الموضع في كتب السير التي تحدثت عن أسفار النبي ﷺ وتذكر المواضع التي يمرّ بها في طريقه في سفره.

قلت: وقد ذكر ياقوت عدّة مواضع تُسمّى بهذا الاسم وقال:

الزّوراء: أرض كانت لأحيحة بن الجلّاح، وفيها يقول:

استغن أو مت ولا يغررك ذو نسب
من ابن عم ولا عم ولا خالِ
يلوون ما عندهم من حقّ جارهم
وعن عشيرتهم والمال بالوالي
فاجمع ولا تحقرنّ شيئًا تجمّعه
ولا تضيعنّه يومًا على حالِ
إنّي أقيم على الزّوراء أعمرها
إنّ الحبيب إلى الإخوان ذو المالِ
بها ثلاث بناء في جوانبها
فكلّها عقب تسقى بإقبالِ
كلّ النّداء إذا ناديت يخذلني
إلا ندائي إذا ناديت يا مالي
ما إن أقول لشيء حين أفعله
لا أستطيع ولا ينبو على حالِ

سُمّيت ببئر كانت فيها، والزّوراء: البئر البعيدة القعر، وأرض زوراء: بعيدة.

والزّوراء أيضًا: دار عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة.

والزّوراء: أرض بذي خيم في قول تميم ابن مقبل:

من أهل قرن فما اخضلّ العشاء له
حتى تنوّر بالزوراء من خيّم

قال الأزهري: ومدينة الزّوراء ببغداد في الجانب الشرقي، سُمّيت الزوراء لازورار في قبلتها، وقال غيره: الزّوراء مدينة أبي جعفر المنصور، وهي في الجانب الغربي، وهو أصح مما ذهب إليه الأزهري بإجماع أهل السّير، قالوا: إنما سُمّيت الزّوراء؛ لأنه لمّا عمّرها جعل الأبواب الداخلة مزورّة عن الأبواب الخارجة، أي: ليست على سمتها، وفيها يقول بعضهم.

ودّ أهل الزّوراء زور فلا
تغترر بالوداد من ساكنيها
هي دار السّلام حسب فلا
يطمع منها بغير ما قيل فيها

والزّوراء: دار بناها النعمان بن المنذر بالحيرة، قال ابن السكّيت: وحدّثني مَنْ رآها وزعم أنَّ أبا جعفر المنصور هدمها، وفيها يقول النابغة:

وأنت ربيع ينعش الناس سيبه
وسيف أعيرته المنيّة قاطع
وتسقي إذا ما شئت غير مصرّد
بزوراء في أكنافها المسك كارع

قال ابن السكّيت: في قول النابغة:

ظلّت أقاطيع أنعام مؤبّلة
لدى صليب على الزّوراء منصوب

الزّوراء: ماء لبني أسد، وقال الأصمعي: الزّوراء هي رصافة هشام وكانت للنعمان وفيها كان يكون، وإليها كانت تنتهي غنائمه، وكان عليها صليب؛ لأنه كان نصرانيًا، وكان يسكنها بنو حنيفة، وكانت أدنى بلاد الشام إلى الشيح والقيصوم، قال وليس للزّوراء ماءٌ لكنهم سمعوا قول القائل:

ظلّت أقاطيع أنعام مؤبّلة
لدى صليب على الزّوراء منصوب

فظنّوا أنّه ماء لهم، وليس هناك ماء وإنّما نصبوا الصليب تبرّكًا به.

وزوراء فلج، وفلج: ماء بين الرحيل إلى المجازة، وهي أول الدهناء.

وزلفة وزوراء: ماءان لبني أسد، وقال الحسين بن مطير.

ألا حبّذا ذات السلام وحبّذا
أجارع وعساء التّقي فدورها
ومن مرقب الزّوراء أرض حبيبة
إلينا محاني متنها وظهورها
وسقيا لأعلى الواديين وللرّحى
إذا ما بدا يومًا لعينيك نورها
تحمّل منها الحيّ لمّا تلهّبت
لهم وغرة الشعرى وهبّت حرورها

باب السين

السّاحل (سيف البحر): بالسين المهملة بعدها ألف وبعد الألف حاء مهملة مكسورة وآخره لام: ساحل البحر الأحمر.

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ﵁ أنه قال بعث رسول الله ﷺ بعثًا قِبلَ الساحل وأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجرّاح وهم ثلاثمائة فخرجنا وكنّا ببعض الطريق فني الزّاد فأمر أبو عبيدة بن الجرّاح بأزواد الجيش فجمع فكان مزْودَي تمر فكان يقوتنا كل يوم قليل قليل حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت: ما تغني عنكم تمرة فقال لقد وجدنا فقدها حين فنيت ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظّرب فأكل منها القوم ثماني عشرة ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة فرحلت ثم مرّت تحتهما فلم تصبهما.

قال ابن حجر: الساحل: وقع في رواية عبادة بن الوليد بن عبادة (سيف البحر) قال ابن إسحاق: وحدّثني عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصّامت عن أبيه عن جدّه عبادة ابن الصّامت قال: بعث رسول الله ﷺ سريّة إلى سيف البحر، عليهم أبو عبيدة بن الجرّاح، وزوّدهم جرابًا من تمر، فجعل يقوتهم إيّاه حتى صار إلى أن يعدّه عليهم عددًا قال: ثم نفذ التمر حتى كان يعطي كل رجل منهم كل يوم تمرة قال: فقسّمها يومًا بيننا.

قال: فنقصت تمرة عن رجل، فوجدنا فقدها ذلك اليوم. قال: فلمّا جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابّة من البحر، فأصبنا من لحمها وودكها وأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سمنّا وابتللنا وأخذ أميرنا ضلعًا من أضلاعها فوضعها على طريقه، ثم أمر بأجسم بعير معنا فحمل عليه أجسم رجل منّا. قال: فجلس عليه قال: فخرج من تحتها وما مسّت رأسه. قال فلمّا قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها وسألناه عمّا صنعنا في ذلك من أكلنا إيّاه فقال: رزق رزقكموه الله.

وتحدّث الواقدي عن هذه الغزوة وسمّاها سريّة الخبط، وقال إنها وقعت في رجب سنة ثمان، وقال: حدّثني داود بن قيس، ومالك ابن أنس، وإبراهيم بن محمد الأنصاري من ولد ثابت بن قيس بن شماس، وخارجة ابن الحارث وبعضهم قد زاد في الحديث. قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجرّاح في سرّية فيها المهاجرون والأنصار، وهم ثلاثمائة رجل إلى ساحل البحر، إلى حيّ من جهينة. وأصابهم جوع شديد فأمر أبو عبيدة بالزاد فجمع حتى إذا كانوا ليقتسمون التّمرة، فقيل لجابر: فما يغني ثلث تمرة؟ قال: لقد وجدوا فقدها: قال ولم تكن معهم حمولة إنما كانوا على أقدامهم، وأباعر يحملون عليها زادهم، فأكلوا الخبط. وهو يومئذٍ ذو مشرة، حتى إن شدق أحدهم بمنزلة مشفر البعير العضّة،

فمكثنا على ذاك حتى قال قائلهم لو لقينا عدوًا ما كان بنا حركة إليه، لما بالناس من الجهد. فقال قيس بن سعد: مَنْ يشتري منّي تمرًا بجزر، يوفيني الجزر ها هنا وأوفيه التمر بالمدينة؟ فجعل عمر يقول: واعجباه لهذا الغلام، لما له يدّان في مال غيره، فوجد رجلاً من جهينة، فقال قيس بن سعد: بعني جزرا وأوفيك سقة من تمر المدينة، قال الجهني: والله ما أعرفك، ومن أنت؟ قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دليم، قال الجهني: ما أعرفني بنسبك، أما إنّ بيني وبين سعد خلّة سيّد أهل يثرب فابتاع منهم خمس جزر كلّ جزور بوسقين من تمر، يشترط عليه البدوي، تمر ذخيرة مصلّبة من تمر آل دليم، قال: يقول قيس نعم. فقال الجهني فأشهد لي فأشهد له نفراً من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين، قال قيس: أشهد مَنْ تحب. فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب ﵁، فقال عمر: لا أشهد هذا يدّان ولا مال له، إنما المال لأبيه، قال الجهني: والله ما كان سعد ليخنى بابنه في سقة من تمر، وأرى وجهًا حسنًا وفعالاً شريفًا... وأخذ قيس الجزر فنحرها لهم في مواطن ثلاثة، كل يوم جزورًا، فلمّا كان اليوم الرابع نهاه أميره وقال: أتريد أن تخفر ذمّتك ولا مال لك؟.

... وبلغ سعد ما كان أصاب القوم من المجاعة فقال: إن يكن قيس كما أعرفه فسوف ينحر للقوم فلمّا قدم قيس لقيه سعد فقال: ما صنعت في مجاعة القوم حيث أصابهم؟ قال: نحرت، قال: أصبت قال: ثم ماذا؟ قال: نحرت قال: أصبت قال: ثم ماذا؟ قال: ثم نحرت، قال: أصبت أنحر قال ثم ماذا؟ قال: نهيت. قال: ومَنْ نهاك؟ قال: أبو عبيدة بن الجرّاح أميري. قال: ولِمَ؟ قال: زعم أنه لا مال لي وإنّما المال لأبيك، فقلت: أبي يقضي عن الأباعد ويحمل الكلّ، ويطعم في المجاعة، ولا يصنع هذا بي... وقدم البدويّ مع قيس فأوفاه سقته وحمله وكساه فبلغ النبي ﷺ فعل قيس فقال: إنه في بيت جود.

قلت: هذا موجز ما ذكره الواقدي عن هذه الغزوة، وما فعله قيس بن سعد فيها ﵁.

وقد سمّيت هذه الغزوة غزوة الخبط؛ لأن الغزاة لمّا نفذ ما معهم من أزواد، أخذوا يأكلون ورق العضاة ـ الذي كان يخبط علفًا للبهائم ـ إلى أن جزر لهم قيس إلى أن وجدوا الحوت.

وذكروا أنّ هذه الغزوة كانت إلى بلاد جهينة، وبلاد جهينة تقع على ساحل البحر الأحمر، أشهر مدنها ينبع، وأشهر جبالها رضوى.

وهذا خلاصة ما ذكروه عن غزوة سيف البحر (غزوة الساحل).

سجستان: بكسر السين المهملة بعدها جيم معجمة مكسورة ثم سين مهلمة ساكنة بعدها تاء مثناة وآخره ألف ونون: ناحية كبيرة وولاية واسعة في شرق آسيا.

وفي **صحيح البخاري** قيل لإبراهيم: إنّ بعض النخاسين يسمّي آرية خراسان وسجستان، فيقول: جاء أمس من خراسان، جاء اليوم من سجستان فكرهه كراهة شديدة.

قال ابن حجر: آريّ، بفتح الهمزة الممدودة وكسر الراء وتشديد التحتانية؛ هو مربط الدّابة وقيل: معلفها، وردّه ابن الأنباري، وقيل: هو حبل يُدْفن في الأرض ويبرز طرفه تشدّ به الدابّة.

قال القزويني: سجستان: ناحية كبيرة واسعة، تنسب إلى سجستان بن فارس أرضها كلها

سبخة رملة، والرياح فيها لا تسكن أبدًا حتى بنوا عليها رحيّهم وكل طحنهم من تلك الرحى، وهي بلاد حارة بها رحى على الريح ونخل كثير، وشدّة الريح تنقل الرمل من مكان إلى مكان، ولا يصاد في أرضهم قنفذ ولا سلحفات؛ لأن أرضهم كثيرة الأفاعي وأنها تقتل الأفعى. قال ابن الفقيه: لا يرى بسجستان بيت إلا وتحته قنفذ.

وأهلها من خيار الناس، قال محمد بن بحر الذهبي: لم تزل سجستان مفردة بمحاسن لم تعرف لغيرها من البلدان، وما في الدنيا سوقة أصحّ معاملة ولا أكثر مجاملة منهم، ثمّ مسارعتهم إلى إغاثة اللهيف ومواساة الضعيف، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ولو كان فيه جدع الأنوف وأجلّ من هذا كلّه أنهم امتنعوا على بني أميّة أن يلعنوا علي بن أبي طالب على منبرهم، ومن عادتهم أن لا تخرج المرأة من منزلها أبدًا، فإذا أرادت زيارة أهلها فبالليل.

وفي الروض المعطار قال الحميري: سجستان: بلد جليل له من الكور مثل ما بخراسان وأكثر، غير أنها منقطعة متصلة ببلاد السند والهند، وكان يضاهي خراسان.

وهم ينتفعون بالقنافذ وفي عهد سجستان لا يقتل قنفذ في بلادهم؛ لأنّ بلدهم كثيرة الرمل بناه ذو القرنين في مطافه، وهو كثير الأفاعي والحيّات، ولولا كثرة القنافذ لتلف مَنْ هنالك.

قال أصحاب المغازي: قصد عاصم بن عمرو سجستان، ولحقه عبد الله بن عمير فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، ثم اتّبعوهم حتى حصروهم بزرنج، ومخر المسلمون سجستان ما شاء الله، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما اجتازوه من الأراضين فأعطاهم ذلك المسلمون، وكان فيما شرطوه من صلحهم أن قنافذها حمى، فكان المسلمون إذا خرجوا تناذروها خشية أن يصيبوا منها فيخفر، وأقيم أهل سجستان على الخراج، وكان سجستان أعظم من خراسان، وأبعد خروجا يقاتلون القندهار والترك وأممًا كثيرة، وكانت فيما بين السند إلى نهر بلخ بحيالة، فلم تزل أعظم البلدين وأصعب الفرجين وأكثرهما عددًا وجندًا حتى كان زمن معاوية، فهرب الشاه من أخيه رتبيل إلى بلد فيها يدعى آمل، ودانوا لسلم بن زياد وهو يومئذٍ عامل سجستان، ففرح بذلك وعقد لهم وأنزلهم تلك البلاد، وكتب إلى معاوية بذلك يرى أنه قد فتح عليه، فقال معاوية: إن ابن أخي ليفرح بأمر إنه يحزنني وينبغي له أن يحزنه، قالوا ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن آمل بلدة بينها وبين زرنج صعوبة ومضايق، وهؤلاء قوم غدر نكر، فيضطرب عليهما الحبل غدًا، فأهون ما يجيء منهم أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها، وتم لهم على عهد ابن زياد، فلمّا وقعت الفتنة بعد معاوية كفر الشاه وغلب على آمل وخافه أخوه، فاعتصم منه بمكانه الذي هو به اليوم، ولم يرضه ذلك حين تشاغل الناس عنه حتى طمع في زرنج فغزاها، فحصرهم حتى أتتهم الأمداد من البصرة. قالوا: وصار رتبيل والذين جاؤوا معه فنزلوا تلك البلاد فلم تنتزع إلى اليوم، وقد كانت البلاد مذلّلة إلى أن مات معاوية.

ومن سجستان أبو داود سليمان بن الأشعث ابن إسماعيل بن بشير بن شدّاد الأزدي السجستاني صاحب (كتاب السنن). توفي في البصرة سنة خمس وسبعين ومائتين.

قال ياقوت: سجستان: بكسر أوله وثانيه وسين أخرى مهملة، وتاء مثناة من فوق،

وآخره نون: وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة، ذهب بعضهم إلى أن سجستان اسم الناحية، وأن اسم مدينتها زرنج، وبينها وبين هراة عشرة أيام ثمانون فرسخًا، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملة سبخة، والرياح فيها لا تسكن أبدًا ولا تزال شديدة تدير رحيّهم، وطحنهم كلّه على تلك الرحى.

قال الأصطخري: أرض سجستان سبخة ورمال حارة، بها نخيل ولا يقع بها الثلج، وهي أرض سهلة لا يرى فيها جبل، وأقرب جبال منها من ناحية فَرَة، وتشتد رياحهم وتدوم على أنهم قد نصبوا عليها أرحية تدور بها وتنقل رمالهم من مكان إلى مكان، ولولا أنهم يحتالون فيها لطمست على المدن والقرى، وبلغني أنهم إذا أحبّوا نقل الرمل من مكان إلى مكان من غير أن يقع على الأرض التي إلى جانب الرمل جمعوا حول الرمل مثل الحائط من حطب وشوك وغيرهما، بقدر ما يعلو على ذلك الرمل وفتحوا إلى أسفله بابا فتدخله الريح فتطير الرمال إلى أعلاه مثل الزوبعة فيقع على مدّ البصر حيث لا يضرهم، وكانت مدينة سجستان قبل زرنج يقال لها رام شهرستان، وبسجستان نخل كثير وتمر، وفي رجالهم عظم خلق وجلادة ويمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة... وهم فرس وليس بينهم مِن المذاهب غير الحنفية من الفقهاء إلا قليل نادر، ولا تخرج امرأة من منزل أبدًا وإن أرادت زيارة أهلها فبالليل، وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه، ويفتخرون به عند المعاملة، وهم يتزيون بغير زيّ الجمهور فهم معروفون مشهورون، وبها بليدة يقال لها كركوية كلّهم خوارج، وفيهم الصوم والصلاة والعبادة الزائدة، ولهم فقهاء وعلماء على حدة.

وقال محمد بن بحر الرهني: سجستان إحدى بلدان المشرق ولم تزل لقاحًا على الضيم، ممتنعة من الهضم، منفردة بمحاسن، متوحّدة بمآثر لم تعرف لغيرها من البلدان، مافي الدنيا سوقة أصحّ منهم معاملة، ولا أقل منهم مخاتلة.. ثم مسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف، ثم أمْرهم بالمعروف ولو كان فيه جدع أنوف.

وبين سجستان وكرمان مائة وثلاثون فرسخًا ونهرها المعروف بالهند مند، يقول أهل سجستان: إنه ينصب إليه مياه ألف نهر فلا تظهر فيه، وينشق منه ألف نهر فلا يرى فيه نقصان.

قال عبيد الله بن قيس الرّقيات:

نضّر اللّه أعظمًا دفنوها
بسجستان طلحة الطلحات
كان لا يحرم الخليل ولا يعـ
ـتلّ بالبخل طيّب العذرات

وقال بعضهم يذمّ سجستان:

يا سجستان قد بلوناك دهرًا
في حراميك من كلا طرفيك
أنت لولا الأمير فيك لقلنا
لعن اللّه مَنْ يصير إليك

وقال آخر:

يا سجستان لا سقتك السحاب
وعلاك الخراب ثم اليباب
أنت في القرّ غصة واكتئاب
أنت في الصيف حيّة وذباب
وبلاء موكّل ورياح
ورمال كأنهنّ سقاب
صاغك اللّه للأنام عذابا
وقضى أن يكون فيك عذاب

وقال القاضي أبو علي المسبحي:

حلولي سجستان إحدى النّوب
وكوني بها من عجيب العجب
وما بسجستان من طائل
سوى حسن مسجدها والرطب

قلت: وقد ذكر ياقوت عددًا من العلماء والمحدّثين الذي عاشوا في سجستان لا يتسع مقامنا هذا لذكرهم.

سدّ الرّوحاء: بسين مهملة مفتوحة بعدها دال مشدّدة مفتوحة، موضع بين المدينة وخيبر،

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﵁ قال: قدم النبي ﷺ خيبر فلمّا فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفيّة بنت حيّي ابن أخطب وقد قتل زوجها وكانت عروسًا فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه فخرج بها حتى إذا بلغنا سدّ الرّوحاء حلّت فبنى بها.

وفي رواية أخرى **للبخاري** عن أنس بن مالك ﵁ قال: قدمنا خيبر فلمّا فتح الله عليه الحصن ذكر له جمال صفيّة بنت حيي ابن أخطب وقد قُتل زوجها وكانت عروسًا فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه فخرج بها حتى بلغ بها سدّ الصهباء حلّت فبنى بها رسول الله ﷺ.

قلت: هكذا وقع الاختلاف بين هاتين الروايتين عن أنس بن مالك في المكان الذي بنى به رسول الله ﷺ بصفيّة بنت حيي ابن أخطب، مرجعه من خيبر، وقد وقع في روايات أخرى وكذلك في كتب السيرة والأخبار أن النبي ﷺ بنىٰ بصفيّة بنت حيي ابن أخطب بسدّ الصهباء، والصهباء هو المكان المعروف في طريق خيبر من المدينة.

أما الرّوحاء: فإنّه اسم غير معروف في طريق المدينة من خيبر، وقد أوضحت الصّواب في رسم الرّوحاء ـ وقد تقدّم ـ وسيأتي مزيد من الإيضاح في رسم الصّهباء، إن شاء الله.

سَرِف: بسين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وآخره فاء موحدة: موضع على طريق الحج من المدينة إلى مكة، بين وادي فاطمة وبين التنعيم، قريب من مكة.

روى البخاري: بسنده عن عائشة ﵂ تقول: خرجنا لا نريد إلا الحج، فلمّا كنّا بسرف حضت فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي فقال: مالك أنفست؟ قلت: نعم.

قال الحربي: من بطن مرّ[1] إلى مكة ثلاثة عشر ميلاً، وبها بركة للسيل، وعين لعبيد الله ابن عبد الله العلوي تعرف بالعقيق وعلى أربعة أميال من مرّ، بئر تعرف بالبحار.

ومسجد سرف على سبعة أميال من مرّ وبه بنى النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث.

وروى الحربي بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ تزوّج ميمونة، وأقام بمكة ثلاثًا، فأتاه حويطب بن عبد العزّى في نفر من قريش في اليوم الثالث فقالوا له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا، قال: وما عليكم لو تركتموني فعرّست بين أظهركم وصنعت لكم طعامًا فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا بطعامك، اخرج، فخرج بميمونة حتى عرّس بها بسرف.

روى الأزرقي بسنده عن مخرش الكعبي أن النبي ﷺ، خرج ليلاً من الجعرانة حين المساء معتمرًا، فدخل مكة ليلاً فقضى عمرته ثم خرج من تحت ليلته فأصبح بالجعرانة كبايت، حتى

(١) مرّ: يعرف اليوم بوادي فاطمة.

إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن سرف حتى جامع الطريق، طريق المدينة بسرف[1]، قال مخرش: فلذلك خفيت عمرته على كثير.

قال أبو الوليد: وقبر ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبي ﷺ وهي خالة عبد الله ابن عباس على الثنية التي بين وادي سرف وبين أضاة بني غفار، ماتت بسرف فدفنت هناك.

وروى بسنده عن عطاء: قال: حضرت مع ابن عباس جنازة ميمونة زوج النبي ﷺ بسرف، فقال ابن عباس هذه زوج رسول الله ﷺ فإذا رفعتم نعشها فلا تزلزلوا ولا تزعزعوا وارفعوا إذا حملتم.

وقال السهيلي: تزوّج رسول الله ﷺ ـ بميمونة بنت الحارث الهلالية، وأمّها هند بنت عوف الكنانيّة... وأن حويطب بن عبد العزّى، قال للنبي ﷺ في اليوم الثالث: اخرج عنّا، وقد كان أراد أن يبتني بميمونة في مكة، ويصنع لهم طعامًا، فقال له حويطب: لا حاجة لنا بطعامك اخرج عنّا، فقال له سعد: يا عاضّا ببظر أمه أأرضك وأرض أمّك؟ هي دونه؟ فأسكته النبي ﷺ، وخرج وفاء لهم بشرطهم، وابتنى بها بسرف، وبسرف كانت وفاتها رضي الله عنها حين ماتت، وذلك سنة ثلاث وستين، وقيل: سنة ست وستين، وصلّى عليها ابن عباس، ويزيد بن الأصم، وكلاهما ابن أخت لها.

قال الواقدي: انصرف رسول الله ﷺ إلى الجعرانة من ليلته فكان كبائت بها، فلمّا رجع إلى الجعرانة خرج يوم الخميس فسلك وادي الجعرانة وسلك معه حتى خرج على سرف، ثم أخذ الطريق حتى انتهى إلى مرّ الظهران.

وفي الإصابة: تزوّج رسول الله ﷺ ميمونة بسرف وبنى بها في قبّة لها وماتت بسرف ودفنت في موضع قبّتها وكانت وفاة ميمونة سنة إحدى وخمسين، ونقل ابن سعد عن الواقدي أنها ماتت سنة إحدى وستين قال وهي آخر مَنْ مات من أزواج النبي ﷺ.

وقال البكري: سرف: بفتح أوله وكسر ثانيه، بعده فاء: على ستة أميال من مكة، من طريق مرّ وقيل: سبعة، وتسعة، واثني عشر، وليس بجامع اليوم، وهناك أعرس رسول الله ﷺ بميمونة مرجعه من مكة، حين قضى نسكه. وهناك ماتت ميمونة؛ لأنها اعتلّت بمكة، فقالت: أخرجوني من مكة، لأنّ رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بها. فحملوها حتى أتوا بها سرفًا إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها، في موضع القبّة، فماتت هناك سنة ثمان وثلاثين، وهناك عند قبرها سقاية.

وروى الزهري أن عمر حمى السّرف والرّبذة هكذا ورد الحديث: السّرف، بالألف واللام ذكره البخاري. وبسرف كان منزل قيس ابن ذريح الكناني الشاعر، ولذلك قال حين نقلت لبنى عنه:

الحمد للّه قد أمست مجاورة
أهل العقيق وأمسينا على سرفِ
حيّ يمانون والبطحاء منزلنا
هذا لعمرك شكل غير مؤتلفِ
قد كنت آليت جهدًا لا أفارقها
أفّ لأكثر ذاك القيل والحلفِ

---

(١) سرف: يسمى اليوم النوارية، وهو واقع بين التنعيم ووادي فاطمة ـ محقق.

حتى تكنّفني الواشون فافتلتت
لا تأمننْ أبدًا إفلات مكتنفِ

وقال الأحوص:

إنّي وإن أصبحت ليست تلائمني
أحتلّ خاخا وأدنى دارها سرف

قلت: فيما ذكره البكري خلط بين سرف ـ الموضع الذي نتحدّث عنه ـ وهو في تهامة قريب من مكة، وبين حمى الرّبذة الذي يقع في شرف نجد، وقد تقدّم الحديث عنه في رسم الرّبذة.

قال ياقوت: سرف: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وآخره فاء، قال أبو عبيد: السّرف الجاهل، وأنشد لطرفة بن العبد:

إنّ امرأً سرف الفؤاد يرى
عسلا بماء سحابة شتمي

وهو موضع على ستة أميال من مكة وقيل: سبعة وتسعة واثني عشر، تزوّج به رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث، وهناك بنى بها، وهناك توفيت، وفيه قال عبيد الله بن قيس الرّقيات:

لم تكلّم بالجلهتين الرسومُ
حادث عهد أهلها أم قديمُ؟
سرف منزل لسلمة فالظهـ
ـران منّا منازل فالقصيمُ

قال القاضي عياض: وأمّا الذي حمى فيه عمر رضي الله عنه فجاء فيه أنه حمى السّرف والرّبذة، كذا عند البخاري بالسين المهملة، وفي موطأ ابن وهب الشّرف؛ بالشين المعجمة وفتح الراء، وكذا رواه بعض رواة البخاري وأصلحه وهذا الصّواب. وأما سرف فلا يدخله الألف واللام، وقال الحربي في تفسير الحديث: ما أحب أن أنفخ في الصلاة وأنّ لي ممرّ الشّرف، بالشين المعجمة كذا ضبطه وقال: خصّه بجودة نعمه والله أعلم.

وقال الحازمي: سرف بفتح السين وكسر الراء وآخره فاء: موضع قرب مكة، به تزوج رسول الله ﷺ ميمونة، وهناك بنى عليها وهناك توفّيت، وقال ابن قيس الرقيّات:

سرف منزل لسلمة فالظهرا
ن منها منازل فالقصيمُ

قلت: هذا بعض ما ذكره المؤرخون المتقدّمون في ضبط سرف وتحديد مكانه ولم يختلفوا في شيء من ذلك، كما اتفقوا على أن النبي ﷺ بنى بميمونة في سرف وأنها توفّيت في سرف ودفنت فيه، غير أنهم اختلفوا في سنة وفاتها، والله أعلم.

قال عاتق البلادي: وادي سرف: به زواج رسول الله ﷺ بميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها به بنى بها، وبه توفّيت، ولا يزال مكان قبرها معروفًا في طرفه الشمالي وعنده ثلاث آبار، ومقبرة صغيرة.

يأخذ سرف أعلى روافده من جبل أظلم المشرف على بئر الجعرانة من الشمال الشرقي، ومن جبل الستار المشرف على علمي طريق نجد من الشمال حيث تسيل الأشقاب، وهما: شقاب الأعلى، يسيل من الشمال فيفيض قرب الجعرانة، وشقاب الأسفل ليس بعيدًا عنه، ولهما فرعان بطرف الستار من الشمال، قال اللهيّ:

فالهاوتان فكبكب فتحاوب
فالبوص فالأفراغ من أشقاب

ويسمّى أعلاه وادي الجعرانة، ثم يستمر إلى أن يصل بستانًا فيه نخل يسمّى وادي زاوية السنوسي، على بعد خمسة أكيال غربًا من الجعرانة، فيسمّى سرف هنا وادي الزاوية، فإذا تجاوزها سُمّي وادي الروشيقة، وهذه عادة أهل الحجاز يسمّون الوادي في كل مثناة باسم، وكذلك الجبل قد يحمل كل جنب

عندهم اسماً وفي سرف عشر آبار عليها آلات ضخ زراعية، إلا أنّ مزارعها صغيرة. فإذا اجتاز هذه الآبار وقرب من طريق مكة ـ المدينة، سُمّي سرفًا.

ويمر على بعد عشرة أكيال من عمرة التنعيم من الشمال، وبه قريتان لبني لحيان بن هذيل وهم أهل هذه الأرض، بين مكة ومرّ الظهران، وتسمّى: الليحانية نسبة إلى بني لحيان. وبه منهل صغير على الطريق، به مدرسة ومسجد وحانوت، وهذا المنهل كان عامرًا عندما كانت مصانع النورة مزدهرة، ويقع الجبل الذي تستخرج منه حجارة النورة بجانب هذا المنهل من الغرب، ويسمى: جبل النوارية نسبة إلى النورة، وقد أطلق العامة هذا الاسم على وادي سرف أيضًا فيقال: وادي النوارية، ولا يكاد يعرف عند العامة إلا بهذا الاسم، أمّا صناعة النورة فقد تلاشت الآن ولم يبق إلا القليل من تلك المصانع، ثم يستمر الوادي إلى أن يدفع في مرّ الظهران، بين قريتي دف زينى ودف خزاعة. وطوله (٣٦) كيلاً تقريبًا.

قلت: هذا وصف جغرافي شامل لوادي سرف من بدايته من جبل أظلم وجبل الستار إلى أن يدفع سيله في مرّ الظهران، وهو وصف شامل لهذا الوادي ومراحل سيره كتبه عاتق البلادي عن معرفة بهذا الوادي[1].

السّقيا: بسين مهملة مضمومة بعدها قاف مثناة ساكنة ثم ياء مثناة، وآخره ألف مقصور: قرية على طريق الحج بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن أبي قتادة قال انطلق أبي عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم يحرم، وحدّث النبي ﷺ أن عدوّا يغزوه فانطلق النبي ﷺ فبينما أنا مع أصحابي يضحك بعضهم إلى بعض فنظرت فإذا أنا بحمار وحش فحملت عليه فطعنته فأثبته واستعنت بهم فأبوا أن يعينوني فأكلنا من لحمه وخشينا أن نقتطع فطلبت النبي ﷺ أرفع فرسي شأوا، وأسير شأوا فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل قلت: أين تركت النبي ﷺ؟ قال تركته بتعهن وهو قائل السقيا.

قال ابن حجر: السقيا بضم المهملة وإسكان القاف بعدها تحتانية مقصورة: قرية جامعة بين مكة والمدينة.

قال الحربي: من العرج إلى السقيا سبعة عشر ميلاً، وبالعرج آبار كثيرة، وقبل السقيا بنحو من ميل وادي العائد، وقال عن كثيّر عزّة: إنما سميت السّقيا لما سقوا من الماء العذب، ومن السقيا إلى الأبواء سبعة عشر ميلاً، وبالسّقيا مسجد للنبي ﷺ إلى جنب الجبل وعنده عين وهي تجري إلى صدقات الحسين، عليها نخل كثير.

وعلى ميل من القرية بموضع يقال له عسكر مزارع نخل صدقات الحسين بن زيد فيها من الآبار المطوية بالخشب، يزرع عليها أصناف الخضر ثلاثون بئرًا وهناك مما أحدث في خلافة المتوكّل خمسون بئرًا أخرى، ماؤها عذب وهي قريبة الماء وعلى ثلاثة أميال من السقيا عين ماء خربة يقال لها تعهن.

قال المحقّق: أقول: تعرف السقيا الآن باسم أمّ البرك لكثرة ما فيها منها، وهي قرية كانت قبل سنتين ـ يعني من زيارته ـ قوية لكونها على طريق مكة ـ المدينة، ولكن الطريق هذا عدل إلى الساحل، فأصبح المرور بها قليلاً.

---

(١) مجلة العرب ٧/ ٨٨ ـ ٨٩.

قال المجد: السقيا بالضم، وسكون ثانيه: اسم من سقاه الغيث، وأسقاه: وهو اسم لقرية جامعة من عمل الفرع، على يومين من المدينة.

وروينا من حديث عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يستقي الماء العذب من بيوت السقيا، وفي حديث آخر كان يستعذب الماء العذب من بيوت السقيا.

وفي النهاية: السقيا منزل بين مكة والمدينة قيل على يومين من المدينة، ومنه الحديث: أنه كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا، وقول أبي بكر بن موسى: السقيا بئر بالمدينة منها كان يستسقى لرسول الله ﷺ، محمول على هذا؛ لأن الفرع من عمل المدينة.

وأما البئر التي على باب المدينة بينها وبين ثنية الوداع، على يسار السالك إلى ذي الحليفة، ويظنها أهل المدينة أنها هي السقيا المذكورة في الحديث، فالظاهر أنه وهم.

ومما يؤكد ذلك قوله في الحديث: من بيوت السقيا، ولم يكن عند هذه البئر بيوت في وقت، ولم يلق ذلك وأيضًا إنما استعذب له الماء من السقيا لما استوخموا آبار المدينة، وهذه البئر التي ذكرناها كانت لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، فيما حكاه الشيخ جمال الدين المطري، قال: ونقل أن النبي ﷺ عرض جيش بدر بالسقيا التي كانت لسعد، وصلّى في مسجدها ودعا هنالك لأهل المدينة أن يبارك لهم في مدّهم وصاعهم، وأن يأتيهم بالرزق من هنا، وهنا، وهنا، وشرب ﷺ من بئرها ويقال لأرضها الفُلجان، بضم الفاء والجيم وهي اليوم معطّلة، وكانت مطمومة، فأصلحها بعض فقراء العجم في هذه السنين.

وقال ابن الفقيه: السقيا من أسافل أودية تهامة، وقال ابن الكلبي: لمّا رجع تبّع من المدينة يريد مكة، نزل السقيا وقد عطش فأصابه بها مطر فسمّاها السقيا، وقال الخوارزمي: السقيا قرية قريبة من البحر على مسيرة يوم وليلة.

قلت: فيما قاله المجد خلط بين السقيا التي في المدينة ـ وهي التي عرض رسول الله ﷺ جيش بدر فيها وهي التي يستسقى الماء منها لرسول الله ﷺ، وبين السقيا التي على الطريق بين مكة والمدينة على بعد يومين من المدينة ـ وهو الموضع الذي نتحدّث عنه ـ وقد اجتهد في الجمع بين الأقوال وحمل بعضها على بعض ليجعلهما موضعًا واحدًا.

وقال ياقوت: سُقْيا: بضم أوله وسكون ثانيه، يقال: سقيت فلانًا وأسقيته أي: قلت له سقيا بالفتح وسقاه الله الغيث وأسقاه، والاسم السّقيا بالضم، وسئل كثير لِمَ سميت السقيا سقيا؟ فقال: لأنهم سقوا بها عذبًا، حدّثنا عبد العزيز بن الأخضر، أنبأنا يحيى ابن ثابت بن بندار قال حدّثنا البرقاني قال: حدّثني أبو بكر بن جميل الهروي، أنبأنا عبد الله ابن عروة، أنبأنا صالح ابن حرزة قال: قال أحمد بن حنبل: عبد العزيز بن محمد الدراوردي ضعيف الحديث، روى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يستسقي الماء العذب من بيوت السقيا، وفي حديث آخر: كان يستعذب الماء من بيوت السقيا، والسقيا: قرية جامعة من عمل الفرع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلاً، وفي كتاب الخوارزمي: تسعة وعشرون ميلاً، وقال ابن الفقيه: السقيا من أسافل أودية تهامة. قلت: وهكذا نرى أن

ياقوتًا خلط بين الموضعين، كما خلط المجد بينهما.

قلت: هذا ما ذكره بعض المؤرخين المتقدّمين في التعريف بقرية السقيا، الواقعة على طريق الحج بين مكة والمدينة، التي أصبحت في هذا العهد تعرف باسم أم البرك جمع بركة.

قال عاتق البلادي: أمّ البرك، جمع بركة: بلدة كانت تعرف بالسقيا، ظلّت محطة للقوافل بين مكة والمدينة ثم سُمّيت: أم البرك، لما أنشىء فيها من السقايات، ثم مرّت بها السيارات في أول عهدها، وبعد أن تحوّل الطريق إلى الساحل تأخرت البلدة، فظهرت لي سنة ١٣٩٣هـ. كثيرة الخراب قليلة النزل، فيها مدرسة ابتدائية ومبرقات وأهلها العبدة، وإدارتها تابعة لوادي الفرع على (٥٣) كيلاً، تبعد أمّ البرك عن بئر مبيريك (٣٩) كيلاً، وعن مستورة (١٢) كيلاً شمالاً شرقيًا.

وقال حمد الجاسر: أم البرك، جمع بركة، وهي قرية كانت كبيرة، إلا أنها ضعفت الآن وكانت تدعى قديمًا: السّقيا، بالسين المهملة المشدّدة المضمومة بعدها قاف ساكنة فياء مثناة تحتية مفتوحة ممدودة، وهي سقيا بني غفار قبيلة معروفة قديمًا كانت من مساكنها في القديم، وأعالي السقيا تبتدىء من مكان يبعد عن أمّ البرك بما يقارب ٤٥ كيلاً بعد أمّ البرك للمتوجّه إلى المدينة، عند محل يدعى: الرّصفة، وهو جبل منحوت قديمًا لسلوك المسافرين أرضه مرصوفة.

السقيا: كالذي قبله، قال الواقدي: وخرج رسول الله ﷺ بمن معه حتى انتهى إلى نقب بني دينار، ثم نزل البقع وهي بيوت السقيا، البقع نقب بني دينار بالمدينة، والسقيا متّصل ببيوت المدينة يوم الأحد لاثنتي عشرة خلت من رمضان، فضرب عسكره هناك وعرض المقاتلة.

وروى بسنده عن أبي قتادة عن أبيه، أن رسول الله ﷺ صلّى عند بيوت السقيا، ودعا يومئذٍ لأهل المدينة فقال: اللّهم، إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة، وإني محمد عبدك ونبيّك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدّهم وثمارهم، اللهم حبّب إلينا المدينة واجعل ما بها من الوباء بخمّ، اللهم قد حرّمت ما بين لابتيها، كما حرّم إبراهيم مكة، وخمّ على ميلين من الجحفة.

وقال وقدم على رسول الله ﷺ علي ابن أبي الزّغباء، وبسبس بن عمرو من بيوت السقيا قالوا: وجاء عبد الله بن عمرو بن حرام إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ. فقال يا رسول الله قد سرّني منزلك هذا وعرضك فيه أصحابك، وتفاءلت به، وإن هذا منزلنا ـ بني سلمة ـ حيث كان بيننا وبين أهل حسيكة ما كان حسيكة، الذباب والذباب جبل بناحية المدينة، وكان بحسيكة يهود، وكان لهم بها منازل كثيرة، ـ فعرضنا ها هنا أصحابنا، فأجزنا مَنْ كان يطيق السلاح ورددنا مَنْ صغر على حمل السلاح، ثم سرنا إلى يهود حسيكة وهم أعزّ يهود كانوا يومئذٍ، فقتلناهم كيف شئنا، فذلّت لنا سائر يهود إلى اليوم، وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقي نحن وقريش فيقرّ الله عينك منهم.

وكان خلاد بن عمرو بن الجموح يقول: لمّا كان من النهار رجع إلى أهله بخزبى، فقال له أبوه عمرو بن الجموح: ما ظننت إلا أنكم قد سرتم، فقال: إن رسول الله ﷺ يعرض الناس بالبقع، قال عمرو: نعم الفأل، والله إنّي لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركي قريش،

إن هذا منزلنا يوم سرنا من حسيكة، قال: فإنّ رسول الله ﷺ قد غيّر اسمه وسمّاها السقيا، قال: فكانت في نفسي أن أشتريها، حتى اشتراها سعد بن أبي وقاص ببكرين، ويقال بسبع أواق، قال: فذكر للنبي ﷺ أن سعدًا اشتراها، فقال: ربح البيع.

قالوا: وراح رسول الله ﷺ عشيّة الأحد من بيوت السقيا لاثنتي عشرة مضت من رمضان، وخرج المسلمون معه، وهم ثلاث مائة وخمسة، وثمانية تخلّفوا فضرب بهم بسهامهم وأجورهم، وكانت الإبل سبعين بعيرًا.

وقال المطري: السقيا كانت لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، ونقل أن النبي ﷺ عرض جيش بدر بالسقيا التي كانت لسعد، وصلّى في مسجدها ودعا هنالك لأهل المدينة أن يبارك لهم في مدّهم وصاعهم، وأن يأتيهم الرزق من هنا وهنا وهنا، وشرب ﷺ من بئرها، ويقال لأرضها الفلجان، وهي اليوم معطّلة خراب، وهي بئر مليحة كبيرة منقورة في الجبل.

ونقل الحافظ عبد الغني أنه عرض جيشه على بئر عنبة بالحرّة فوق هذا البئر إلى الغرب، ويقال إنها على ميل من المدينة.

وروى ابن شبّة بسنده، عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يستسقى له الماء العذب من بئر السقيا، وقال هارون من بيوت السقيا.

وروى بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال أبي: يا بني إنّا اعترضنا ها هنا بالسقيا حتى قابلنا اليهود بحسيكة، فظفرنا بهم ونحن نرجو أن نظفر بهم، ثم عرضنا النبي ﷺ بها متوجّهًا إلى بدر، فإن سلمت ورجعت ابتعتها، وإن قتلت فلا تفوتنك، قال: فخرجت أبتاعها فوجدتها لذكوان بن عبد قيس، ووجدت سعد ابن أبي وقاص قد ابتاعها، وسبق إليها، وكان اسم أرضها الفلجان، واسم البئر السقيا.

قال: سألت عبد العزيز بن عمران: أي حسيكة؟ فقال: ناحية أرض ابن ماقية، إلى قصر ابن أبي عمرو الرّامض، إلى قصر ابن المشمعلّ إلى أداني الجرف كلّه. قال: وفيها يقول الشاعر:

صبحناهم بالسفح يوم حسيكة
صفائح بصري والردينيّة السّمرا
فما قام منهم قائم لقراعنا
ولا ناهبونا يوم نزجرهم زجرا

قال أبو غسّان: وأخبرني عبد العزيز ابن عمران، عن راشد بن حفص، عن أبيه قال: اسم أرض السقيا الفلج، واسم بئرها السقيا، وكانت لذكوان بن عبد قيس الزّرقي، فابتاعها منه سعد بن أبي وقاص ببعيرين.

وقال السمهودي: روى الواقدي من حديث سلمة امرأة أبي رافع قالت: كان أبو أيوب ـ حين نزل عنده النبي ﷺ ـ يستعذب له الماء من بئر مالك بن النضر والد أنس، ثم كان أنس وهند وحارثة أبناء أسماء يحملون الماء إلى بيوت نسائه من بيوت السقيا، وكان رباح الأسود عنده ﷺ يستسقى له من بئر غرس مرّة، ومن بيوت السقيا مرّة.

وروى الترمذي: وقال حسن صحيح عن علي بن أبي طالب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنّا بحرّة السقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: «ائتوني بوضوء فتوضأ، فقام ثم قام فاستقبل القبلة، الحديث».

قال السمهودي: وبئر السقيا هذه هي التي ذكر المطري أنها في آخر منزلة النقاء على يسار السالك إلى بئر علي بالمحرم، قال: وهي بئر مليحة، كبيرة منقورة في الجبل، وقد تعطّلت

وخربت، وعلى جانبها الشمالي - يعني من جهة المغرب بناء مستطيل مجصص. والظاهر أنه كان حوضًا أو بركة لورود الحجّاج، كانوا ينزلون بها أيام عمارة المدينة، ولهذا سمّى المطري محلّها منزلة النّقا، وكان بعض فقراء العجم قد جدّدها وعمّرها في سنة ثمان وسبعين وسبع مائة فصارت تعرف ببئر الأعجام، كما رأيته بخط الزّين المراغي.

وقد تهدّمت وتشعّثت بعد ذلك فجدّدها الجناب الخواجك البدري بدر الدين بن عليبة سنة ست وثمانين وثمانمائة تقبّل الله منه وأثابه الجنّة بمنّه وكرمه.

قلت: وقد أطال السمهودي الحديث عن هذه البئر - وهذا بعض ما قاله - وفصّل في حديثه عنها ردًا على حديث المجد ومَنْ تبعه، في الخلط بين هذه البئر التي في المدينة وبين السقيا التي على طريق الحج بين مكة والمدينة، وجعلهما موضعًا واحدًا.

وقال أحمد العباسي: السقيا بالضم ثم السكون، تأنيث اسم من سقاه الغيث وأسقاه، وهو اسم لقرية جامعة من أعمال الفرع على يومين من المدينة، سُمّيت بذلك لأنهم سقوا بها ماء عذبًا، وبها عين وآبار، وقيل: عطش تبّع إذ نزلها فأمطر فسمّاها السقيا. والسقيا بئر بالمدينة، تسمّى السقيا، ويقال لأرضها الفلجان بضم الفاء.

قلت: وفيما تقدّم من أقوال المؤرخين كفاية في التعريف ببئر السقيا التي في المدينة، وفيه ردّ على مَنْ قال بخلاف ذلك.

وقال عبد القدوس الأنصاري: بئر السقيا: موقع هذه البئر بجنوبي بناية محطة السكة الحديدية يفصل بينهما طريق مكة، وتسمّى البقعة التي فيها البئر بالفلجان، وكانت منازل الحجاج الزائرين للمدينة عند هذه البئر، ولتجديدها من قِبلَ بعض العجم: (الفرس) عام ٧٧٨ هـ عُرفت في بعض تواريخ المدينة ببئر الأعجام. وهي عميقة منحوتة في الصخر، قطرها ستة أمتار، وعمقها أربعة عشر مترًا وبجنوبها مزرعتها.

وبئر السقيا مأثورة، شرب الرسول ﷺ من مائها وتوضأ منه، وعلى أرضها الفلجان عرض الجيش الذاهب إلى بدر، وكانت لذكوان الزّرقي، واشتراها منه سعد ابن أبي وقاص.

وقال الشنقيطي: في حديثه عن حرّة المدينة الغربية توجد منطقة النّقا، وهي مكان اعتدال هذه الحرّة، وتتميّز بنقاء جوّها وعذوبة ماء آبارها، فتوجد بها أرض سعد بن أبي وقاص التي يشتمل سور محطة السكة الحديدية على معظمها، وبداخل هذه السور ومن جهته الجنوبية يوجد مسجد السقيا ذو القباب الثلاث والوسطى أكبرها، وبنى هذا المسجد في مكان قبّة الرسول ﷺ حين خروجه لغزوة بدر واستعرض جيشه... وهذا المسجد مرمّم الآن ونظيف وفيه إمام من قِبلَ وزارة الأوقاف، وإلى الشرق من هذا المسجد كانت توجد بئر السقيا، التي كان يستعذب منها لرسول الله ﷺ.

السقيا أيضًا: قال: ياقوت: قال الأصمعي في كتاب جزيرة العرب وذكر مكّة وما حولها فقال: السقيا المسيل الذي يفرغ في عرفة ومسجد إبراهيم.

وفي كتاب أبي عبيد السكّوني: السقيا بركة وأحساء غليظة دون سميراء للمصعد إلى مكة، وبين السقيا وسميراء أربعة أميال.

والسقيا: قرية على باب منبج، ذات بساتين كثيرة ومياه جارية، وهي وَقْف على ولد أبي عبادة البحتري إلى الآن.

وسقيا الجزل: موضع آخر مات فيه طويس الخنّث المغنى، قال يعقوب: سقيا الجزل من بلاد عذرة قريب من وادي القرى.

سلع: بسين مهملة مفتوحة ولام ساكنة وآخره عين مهملة: جبل في المدينة.

روى البخاري عن أنس بن مالك أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول الله ﷺ قائم يخطب - فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا فقال: يا رسول الله هلكت المواشي، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم أسقنا، اللهم أسقنا، اللهم أسقنا، قال أنس ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت قال: والله ما رأينا الشمس سبتًا.

قال ابن حجر: سلع: بفتح المهملة وسكون اللام معروف في المدينة، وقد حكى أنه بفتح اللام.

وقال البكري: سلع بفتح أوله وإسكان ثانيه، بعده عين مهملة: جبل متّصل بالمدينة، وبحديث الاستسقاء عن يحيى بن سعيد عن أنس بن مالك: فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم أغثنا». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلمّا توسّطت انتشرت ثم أمطرت.

والسّلع والسّلع لغتان شقّ في الجبل كهيئة الصّدع، قال الأعشى:

كحيّة سلع من القاتلات
تقدّ الصّرامة عنها لقميصا

وقال ياقوت: سلع، بفتح أوله وسكون ثانيه، السّلوع: شقوق في الجبال، وإحداها سلع وسلّع، وقال أبو زياد: الأسلاع طرف في الجبال يسمّى الواحد منها سلعًا.

وسلع: جبل بسوق المدينة، قال الأزهري: سلع موضع بقرب المدينة.

حدّث أبو بكر بن دريد عن الثوري عن الأصمعي قال: غنّت حبّابة جارية يزيد ابن عبد الملك وكانت من أحسن الناس وجهًا ومسموعًا وكان شديد الكلف بها وكان منشأها المدينة:

لعمرك إنّي لأحبّ سلعا
لرؤيته ومن أكناف سلع
تقرّ بقربه عيني وإنّي
لأخشى أن يكون يريد فجعي
حلفت بربّ مكّة والمصلّى
وأيدي السابحات غداة جمع
لأنت على التنائي فاعلميه
أحبّ إليّ من بصري وسمعي

والشعر لقيس بن ذريح، ثم تنفّست الصّعداء، فقال لها: لِمَ تنفّسين؟ والله لو أردته لقلعته إليك حجرًا، فقالت: وما أصنع به إنّما أردت ساكنيه، وقال ابن السلماني: وكان إبراهيم ابن عربي والي اليمامة قُبِض عليه وحُمل إلى المدينة مأسورًا فلمّا مرّ بسلع قال:

لعمرك إنّي يوم سلع للائم
لنفسي ولكن ما يردّ التلوّم؟
أمكنت من نفسي عدوّي ضلّه
ألهفًا على ما فات لو كنت أعلم
لو أن صدور الأمر يبدون للفتى
كأعقابه لم تلفه يتندّم
لعمري لقد كانت فجاج عريضة
وليل سخاميّ الجناحين مظلم

إذْ الأرض لم تجهل عليّ فروجها
وإذ لي من دار المذلّة مرغم

وروى الواقدي بسنده عن أبي بكر ابن عبد الله بن جهم أن رسول الله ﷺ ركب فرسًا له ـ ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ـ مرتادًا موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب إلى راتج يعني: في غزوة الخندق.

وروى عن محمد بن يحيىٰ بن سهل عن أبيه عن جدّه، قال: كنت أنظر إلى المسلمين والشباب ينقلون التراب، والخندق بسطة أو نحوه، وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رؤوسهم في المكاتل، وكان إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة، يأتون بها من جبل سلع، وكانوا يجعلون التراب مما يلي النبي ﷺ وأصحابه، وكانوا يسطرون الحجارة مما يليهم كأنها حبال التمر، وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها.

وقال العباسي: سلع: بالفتح ثم السكون آخره عين مهملة، جبل سوق المدينة، غربي مشهد النفس الزكية، وبمحاذاته على طرفه الغربي كهف بني حرام شرقي بطحان، وتحت الكهف مسجد بالقاع مسجد بني حرام على يمين المار إلى مساجد الفتح بالطريق الغربية، وبغرب هذا الكهف جبل بني عبيد وحصن خل، ونخل جابر بن عبد الله.

قلت: هذا هو جبل سلع الواقع في المدينة، وصفًا وتحديدًا، اتفقت فيه أقوال المؤرخين، وهو ما زال معروفًا باسمه، ومرسومًا به على خرائط المدينة، وقد وصفه عبد القدوس الأنصاري وحدّد موقعه فقال: جبل سلع: جبل عظيم شامخ مرتفع في شمال المدينة ويبعد عنها بنحو خمس دقائق، وحجارة هذا الجبل سود بوجه الإجمال تتفتّت من ضغطها باليد، وفي شرقيّه دكّة جلال، بناها شخص يدعى بهذا الاسم، في سفحه الغربي كهف بني حرام الذي كان الرسول ﷺ يبيت فيه قبل نزول آية العصمة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٦٧]. وبشمال هذا الكهف في سفح الجبل أيضًا مسجد الفتح.

قلت: قوله: ويبعد عنها بنحو خمس دقائق، هذا كان في الوقت الذي أُلّف فيه كتابه، وذلك قبل أن يمتدّ عمران المدينة ويتوسع في أنحائها.

وقال الشنقيطي: سلع جبل يقع إلى الشمال الغربي من جبل سليع تفصلهما ثنية العثعث التي يقع في منحناها الشرقي مستشفى الأطفال وأمراض النساء، الذي يمتد شماليه سهل مستو يسمى العطل حتى ثنية الوداع الشمالية، وفي جنوب جبل سلع شعب ينحدر سيله إلى السيح (بطحان) وفيه الآن المدرسة الناصرية الابتدائية، وفي سفح جبل سلع الغربي وعلى يمين الذاهب إلى مساجد الفتح يوجد كهف بني حرام في نهاية شعبهم الشرقية، وكان النبي ﷺ يبيت به محروسًا أيام غزوة الخندق؛ لأنها كانت قبل أن يترك الحرّاس، وفي شعب بني حرام الذي لا يزال يعرف الآن بالعمّاري نسبة إلى رجل كان يمتلك أرضه في عصرنا وباعها على الساكنين، في هذا الشعب يوجد مسجد بني حرام الذي ما زال معروفًا، وجُدّد وتقام الآن فيه الصلوات الخمس بإمام من وزارة الأوقاف، وممّا قيل فيه من الشعر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بسلع ولم تغلق عليّ دروبُ

وقال أخر:

ولحيّ بين العريض وسلع
حيث أرسى أوتاده الإسلامُ

كـان أشـهـى إلـيّ قـرب جـوار
مـن نـصـارى فـي دورهـا الأصـنـامُ

سلع أيضًا: قال ياقوت: سلع حصن بوادي موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس.

وسلع جبل في ديار هذيل، قال البريق الهذلي:

سقى الرحمٰن حزم ينابعات
من الجوزاء أنواء غزارا
بمرتحز كأن على ذراه
ركاب الشام يحملن البهارا
يحط العصم من أكناف شعر
ولم يترك بذي سلع حمارا

وعلّق عليه عاتق البلادي فقال: سلع المذكور في ديار هذيل: هو جبل بطرف وادي عرنة من الغرب جنوب علمي طريق نجد يظلّله الطارقي في العشيّ، وهو من حدود الحرم الشرقية وحدود المغمّس الغربية، وأهله اليوم قريش وهو يُنْطَق اليوم بكسر السين، أمّا شعر الذي ورد ذكره في شعر البريق، فقال عنه: جمع شعراء وهي جبال متّصلة قرب سلع هذيل أو قريش اليوم من الجنوب.

سلع: قال ياقوت بالتحريك: وذو سلع موضع بين نجد والحجاز، وقال أبو دؤاد الإيادي:

وغيث توسّن منه الريا
ح جونا عشاء وجونا ثقالا
إذا كركرته رياح الجنو
ب ألقحن منه عجافا حيالا
فحلّ بذي سلع بركة
تخال البوارق فيه الذبالا. ا.هـ

وسلع أيضًا: بسكون اللام، قال عاتق البلادي: ينطقونه بكسر السين، جبل شرق الوجه بثلاث مراحل، كان يطؤه طريق الوجه إلى البدع فيه عقبة صعبة جدًا تسمى: البوق، وهو من ديار بلى.

قلت: سلع الريّان: طريق يفري جبل ثهلان من الشرق إلى الغرب، جنوب بلدة الشعراء على بعد خمسة أكيال تقريبًا.

سُمّي باسم ماء الريّان الواقع بجواره في شرق ثهلان.

السُنح: بسين مهملة ونون موحدة ساكنة وآخره حاء مهملة: موضع في عوالي المدينة.

روى البخاري بسنده أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلّم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمّم النبي ﷺ وهو مسجّى ببرد حبرة فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبّله.

قال ابن حجر: السنح: بضم المهملة وسكون النون بعدها حاء مهملة منازل بني الحارث ابن الخزرج، وكان أبو بكر متزوجًا فيهم.

وقال ياقوت: سُنْح: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره حاء مهملة وقد يضم ثانيه فيقال سُنُح في الموضع والجمع: وهي إحدى محالّ المدينة كان بها منزل أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه حين تزوّج مليكة، وقيل: حبيبة بنت خارجة ابن زيد بن زهير بن مالك بن امرىء القيس ابن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج ابن الحارث بن الخزرج من الأنصار، وهي: في طرف من أطراف المدينة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة، وبينها وبين منزل النبي ﷺ، ميل، ينسب إليها أبو الحارث حبيب بن عبد الرحمٰن بن حبيب ابن يساف الأنصاري المديني، يروي عن حفص ابن عاصم، روى عن مالك بن أنس وشعبة ابن الحجّاج وغيرهما.

وقال البكري: السُنُح: بضم أوله وثانيه، بعده حاء مهملة: منازل بني الحارث بن الخزرج

بالمدينة، بينها وبين منزل رسول الله ﷺ ميل، وبالسنح ولد عبد الله بن الزبير، وكان أبو بكر هناك نازلاً.

وقال العباسي: السنح: بضم أوله وسكون ثانيه: محلّة من محالّ المدينة كان بها منزل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وزوُجت عائشة رضي الله عنها فيه لما روي عنها أنها قالت: لمّا قدمت المدينة نزلت في بني الحارث بن الخزرج بالسنح الحديث، حين تزوج مليكة قبل وحبيبة بنت خارجة بن زيد من الأنصار، وهو في طرف من أطراف المدينة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج من الأنصار بعوالي المدينة وبينها وبين منزل النبي ﷺ ميل، وكان بها أطم يقال لها السنح وبه سُمّيت تلك الناحية السنح.

قلت: هذا ما ذكره المؤرخون في التعريف بالسنح الواقع في عوالي المدينة، الوارد في حديث البخاري، والعوالي حيّ من أحياء المدينة ما زال معروفًا باسمه، يقع في الجنوب الشرقي من المدينة، معروفًا بهذا الاسم ومرسومًا به على خرائط المدينة.

السنح أيضًا: موضع بنجد قرب جبل طيّء نزله خالد في حرب الردّة فجاءه عديّ ابن حاتم بإسلام طيء وحسن طاعتهم، قاله ياقوت وغيره.

باب الشين

الشام: بفتح الشين المثلثة بعدها ألف وآخره ميم: البلد المعروف بهذا الاسم.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس أخبر: أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجّارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّاً فيها أبا سفيان وكفّار قريش.

قال البكري: الشّأم مهموز بالألف وقد لا يهمز: وهو البلد المعروف قيل: إنه سُمّي بشامات هناك حمر وسود، ولم يدخلها سام ابن نوح قط، كما قال بعض الناس إنه أول من اختطّها فسُمّيت به، واسمه سام بالسين المهملة فعرّب فقيل: شام بالشين المعجمة.

وكانت العرب تقول مَنْ خرج إلى الشام نقص عمره، وقتله نعيم الشام، قاله أبو عمر قال وأنشد ثعلب:

يقولون إن الشأم يقتل أهله
فمن لي إن لم آته بخلود
تفرّق آبائي فهلّ صراهم
عن الموت إن لم يشأموا وجدود

وقال ياقوت: الشأم: بفتح أوله وسكون همزته، والشأم بفتح همزته، مثل نَهْر ونَهَر لغتان، ولا تمد، وفيها لغة ثالثة وهي الشّآم بغير همز. كذا يزعم اللغويون، وقد جاءت في شعر قديم ممدودة، قال زامل بن غفير الطائي يمدح الحارث الأكبر:

وتأبى بالشآم مفيدي
حسرات يقددن قلبي قدًا

وكذا جاء به أبو الطيّب في قوله:

دون أن يشرق الحجاز ونجد
والعراقان بالقنا والشّآم

وأنشد أبو علي القالي في نوادره:

فما اعتاض المعارف من حبيب
ولو يعطى الشّآم مع العراق

وقد تُذكّر وتؤنّث، ورجل شأميّ وشآم، هاهنا بالمدّ على فعال وشآمي أيضًا، حكاه سيبويه. ولا يقال شأم لأنّ الألف عوض عن ياء النسبة فإذا زال الألف عادت الياء، وما جاء من ضرورة الشعر فمحمول على أنه اقتصر من النسبة على ذكر البلد، وامرأة شاميّة بالتشديد، وشآمية بتخفيف الياء، وتشآمّ الرجل بتشديد الهمزة نسب إلى الشام كما يقال تقيّس وتكوّف وتنزّر إذا انتسب إلى قيس والكوفة ونزار، وأشأم إذا أتى الشام، وقال بشر ابن أبي خازم:

سمعت بنا قيل الوشاة فأصبحت
صرمت حبالك في الخليط المشئم

وقال أبو بكر الأنباري: في اشتقاقه وجهان: يجوز أن يكون مأخوذًا من اليد الشّومى وهي اليسرى، ويجوز أن يكون فعلى من الشّوم قال أبو القاسم: قال جماعة من أهل اللغة يجوز أن لا يهمز فيقال الشّام يا هذا فيكون جمع شامة سُمّيت بذلك؛ لكثرة قراها، وتداني

بعضها من بعض فشُبِّهت بالشّامات، وقال أهل الأثر: سُمْيت بذلك لأنّ قومًا من كنعان بن حام خرجوا عند التفريق فتشاءموا إليها، أي: أخذوا ذات الشمال فسُمّيت بالشام لذلك.

وقال آخرون من أهل الأثر منهم الشرقي: سُمّيت الشام بسام بن نوح عليه السلام، وذلك أنه أول مَنْ نزلها فجعلت السين شينًا لتغيّر اللفظ العجمي.

وقرأت في بعض كتب الفرس في قصة سنحاريب: أن بني إسرائيل تمزّقت بعد موت سليمان بن داود عليه السلام، فصار منهم سبطان ونصف سبط في بيت المقدس فهم سبط داود، وانخزل تسعة أسباط ونصف إلى مدينة يقال لها شامين، وبها سُمّيت الشام، وهي بأرض فلسطين وكان بها متجر العرب وميرتهم، وكان اسم الشام الأول سورى فاختصرت العرب من شامين الشام وغلب على الصقع كلّه...

قال ياقوت: الأقوال المتقدّمة حسنة جميعها. وأمّا حدّها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصريّة، وأما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم وما يسامت ذلك من البلاد.

وبها من أمهات المدن: منبج، وحلب، وحماة، وحمص، ودمشق، والبيت المقدّس، والمعمّرة، وفي الساحل أنطاكية، وطرابلس، وعكّا، وصور، وعسقلان وغير ذلك.

وهي خمسة أجناد: جند قنّسرين، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وجند حمص، ويعدّ في الشام أيضًا الثغور: وهي المصيصة، وترسوس، وأذنة، وأنطاكية، وجميع العواصم من مرعش، والحديث، وبغراس، والبلقاء وغير ذلك.

وطولها من الفرات إلى العريش نحو شهر، وعرضها نحو عشرين يومًا.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال الشام صفوة الله من بلاده وإليه يجتبي صفوته من عباده. يا أهل اليمن عليكم بالشام فإن صفوة الله من الأرض الشام إلا من أبى فإن الله ﷺ قد تكفّل لي بالشام.

وقال أبو الحسن المدائني: افترض أعرابي في الجند فأرسل في بعث إلى الشام ثم إلى ساحل البحر فقال:

أأنصر أهل الشام ممّن أكاءهم
وأهلي بنجد ذاك حرص على النصرِ
براغيث تؤذيني إذ الناس نوّم
وليل أقاسيه على ساحل البحرِ
فإن يك بعثٌ بعدها لم أعد له
ولو صلصلوا للبحر منقوشة الحمرِ

قلت: هذا بعض ما ذكره ياقوت في حديثه عن بلاد الشام، وقد أورد في حديثه كثيرًا من الأخبار والأشعار لا يتّسع مقامنا هذا لذكرها، وقد تم فتح جميع بلاد الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على يد عدد من القادة، منهم سعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين.

وقد تحدث البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) عن فتح بلاد الشام، وتحدّثت عن فتح كل مدينة من مدنه في رسمها.

وهكذا نرى فيما ذكره المؤرخون أن اسم الشام كان شاملاً لما بين الفرات إلى العريش، غير أن تقسيمه إلى أربع دول هي: سوريا، والأردن، وفلسطين، ولبنان، جاء متأخرًا بعد الحروب الصليبية التي مزّقت بلاد الشام إلى إمارات لتحقيق أطماع الأمراء الصليبيين الغاصبين، وتسهيل السيطرة على

هذه البلاد، وأكتفي بهذا القدر عن بلاد الشام لشهرتها وتوفّر ما أُلّف عنها من الكتب التي تتحدّث عنها في ماضيها وفي حاضرها.

شامة: بشين معجمة بعدها ألف، وبعد الألف ميم مفتوحة وآخره هاء: جبل في مكة:

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال فكان أبو بكر يقول إذا أخذته الحمّى:

كل امرىء مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمّى يرفع عقيرته فيقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليله
بوادٍ وحولي إذخر وجليلُ
وهل أردن يومًا مياه مجنّة
وهل يبدونّ لي شامة وطفيلُ

قال الأزرقي: شامة وطفيل جبلان مشرفان على مجنّة.

وقال الفاكهي: شامة وطفيل جبلان خارجان من مكة على نحو ثلاثين ميلاً من مكة

وقال ياقوت: شامة: بلفظ الشامة، وهو اللون المخالف لما يجاوره، يشترط أن يكون قليلاً في كثير: جبل قرب مكة يجاوره آخر يقال له طفيل، وفيهما يقول بلال، وقد هاجر مع النبي ﷺ فاجتوى المدينة:

ألا ليت شعري هل أبيتّن ليلة
بفخّ وحولي إذخر وجليلُ
وهل أردن يومًا مياه مجنّة
وهل يبدونّ لي شامة وطفيلُ

وقال لغدة: رخمة لبني الديل خاصة، وهو بجبل يقال له طفيل، وشامة جبيل بجنب طفيل.

وقال حمد الجاسر: وعندما يتجاوز حجّاج اليمن ميقات الإحرام المعروف قديمًا باسم يلملم وحديثًا باسم السّعدية ولملم، عندما يجتازون محل الإحرام يسهّلون في خبت واسع يشاهدون منه على يسارهم جبلاً صغيرًا في الخبت يدعى طفيلاً، بينه وبين البحر جبل أسود شامخ يسمّى (شامة) (رسم في الخريطة حرّة شمّا، خطأ).

قلت: هذا هو جبل شامة الذي ورد في الحديث الشريف، وورد في شعر بلال رضي الله عنه مقرونًا بجبل طفيل المجاور له ـ وما زالا معروفين باسميهما.

وقد أخطأ مَنْ ذكره بباء موحّدة بدلاً من الميم، (شابة) والواقع أن شابة جبل غير هذا، ما زال باسمه واقعًا في عالية نجد، بين الرّبذة والسّليلة قريبًا من طريق الحجّ العراقي، وهو الذي عناه الشاعر بقوله:

ألا ليت شعري هل تغيّر بعدنا
أروم وآرام وشابة والحضرُ
وهل تركت أبلى سواد جبالها
وهل زال بعدي عن قنينته الحجرُ

وأروم وآرام وشابة جبال متجاورة ومعروفة بأسمائها، وكذلك أبلى والحضر والحجر.

وقال عاتق البلادي: في تحديد جبل شامة ووصفه: شامة جبل جنوب غرب مكة، على قرابة تسعين كيلاً، يمر سيل وادي البيضاء شماله ووادي آدام يصب عليه وعلى طفيل، ويمر جنوبه وادي يلملم، تجاوره حرّة تسمّى طفيلاً، على وزن كبير، وتقرن دائمًا معه فيقال: شامة وطفيل، وشامة وطفيل تقعان في ديار الجحادلة من بني شعبة من بقايا كنانة، فهي من ديارهم قديمًا وحديثًا، وهذان الجبلان يشرفان غربًا على خبت محيرمة الذي

يمتد إلى البحر، وإذا وقفت بسفح أحدهما من الغرب ترى السّواعي في البحر.

قلت: وفي رسم طفيل مزيد من الإيضاح، فانظره.

شامة أيضًا، ويقال: الشامات جمع شامة، قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأنزلنا البيوت بذي طلوح
إلى الشامات ننفي الموعد ينا

وقد مررت بهذه الشامات عام ١٣٩٥هـ في رحلتنا بصحبة حمد الجاسر، وشاهدنا معالمها بعد خروجنا من هجرة (الأجفر) متّجهين صوب الشرق مع طريق الحج القديم قطعنا عرق الأبيتر، ثم هبطنا في (خبّ الحسك) وهو صحراء مستوية، ثم قطعنا عرق الأشعلي وهبطنا في شامة زرود، ثم قطعنا عرق لزّام وبعده شامة مغيليث، وتتّصل بها شامة أكباد، ثم هبطنا من عرق المظهور على ماء البدع (الثعلبية) قديمًا.

وقد تحدّث حمد الجاسر عن هذه الشامات فقال: الشامات: جمع شامة وهي أرض جلدة بين حبال الدهناء، صخرية تنبت العرفج، كما تنبت أنواع العشب، وأشهر الشامات هي:

١ ـ شامة زرود، وفيها منهل زرود، والوسيط، والهاشمية، وتمتد بامتداد عرق لزّام حتى تقف عند منهل تربة، وامتدادها طولاً نحو ٣٠ كيلاً، وعرضًا ١٠ أكيال في أوسع اتّساعها.

٢ ـ شامة مغيليث: تقع بين عرق لزّام وعرق المظهور، ويتّصل بها شامة أكباد، وهي قور في غربيّها، واحدها كبد، وعنيتيت يقع في غربيّها.

شرف الرّوحاء (شرف السّيالة): بشين معجمة مفتوحة وراء مهملة مفتوحة وآخره فاء موحدة: موضع على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن موسى بن عقبة قال رأيت سالم بن عبد الله يتحرّى أماكن من الطريق فيصلّي فيها، ويحدّث أن أباه كان يصلّي فيها وأنّه رأى النبي ﷺ يصلّي في تلك الأمكنة. وحدّثني نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يصلّي في تلك الأمكنة وسألت سالمًا فلا أعلم إلا وافق نافعًا في الأمكنة كلها إلا أنّهما اختلفا في مسجد بشرف الرّوحاء.

قال ابن حجر: شرف الرّوحاء: هي قرية جامعة على ليلتين من المدينة، وهي آخر السّيالة للمتوجّه إلى مكة.

وقال الواقدي: قالت عائشة: وأصبح رسول الله ﷺ يوم الأحد بملل، ثم راح فتعشّى بشرف السّيالة، وصلّى بالشّرف المغرب والعشاء، وصلّى الصبح بعرق الظبية بين الرّوحاء والسّيالة ـ وهو دون الرّوحاء ـ في المسجد الذي عن يمين الطريق ثم نزل رسول الله ﷺ بالرّوحاء.

وقال المراغي: في ذكر المساجد التي صلّى فيها النبي ﷺ بين مكة والمدينة: ومسجد بشرف الرّوحاء، فبسند ابن الزبير إلى عبد الله قال: صلّى رسول الله ﷺ بشرف الرّوحاء عن يمين الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، وعن يسارها وأنت مقبل من مكة.

واعلم أن شرف الرّوحاء هو آخر السّيالة وأنت متوجّه إلى مكة، وأول السّيالة إذا قطعت فرش ملل وأنت راجع منها، وكانت الصّخيرات صخيرات اليمام عن يمينك وهبطت من ملل ثم رجعت على يسارك واستقبلت القبلة فهذه السيّالة، وكانت قد تجدّد فيها بعد النبي ﷺ عيون وسكان، وكان لها وال من جهة، وإلى المدينة ولأهلها أخبار وأشعار وآثار البناء بها والأسواق، وآخرها الشرف المذكور وعنده

المسجد، وبقربه قبور قديمة ولعلّها مدفن أهل السّيالة. ثم تهبط في وادي الرّوحاء ويعرف اليوم بوادي بني سالم، بطن من حرب عرب الحجاز.

وفي المغانم المطابة قال المجد: الشّرف: محرّكة، للمكان العالي: موضع بين ملل والرّوحاء بقرب المدينة.

وفي حديث عائشة ﵂: أصبح رسول الله ﷺ يوم الأحد بملل، على ليلة من المدينة ثم راح فتعشّى بشرف السيّالة وصلّى الصبح بعرق الظبية.

وقال الحربي: أخبرني عبد الله بن عمرو ابن جُميع، عن نادر الأسود قال: صلّى النبي ﷺ في مسجد السّيالة عند شجرة طلح.

والسّيالة لولد حسين بن علي ﵁، وغيرهم.

ومن السّيالة لولد الحسين بن علي ﵁، وغيرهم.

ومن السّيالة إلى الرّوحاء أحد عشر ميلاً، وبالسّيالة آبار كثيرة معروفة الأسماء. . .

وحدّثني ابن أبي سعد عن محمد بن إسحاق، عن أبي ضمرة عن موسى بن عقبة عن نافع أن ابن عمر حدّث أنّ رسول الله ﷺ صلّى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي يشرف على الرّوحاء، وكان ابن عمر يعلم المكان الذي صلّى فيه رسول الله ﷺ.

وقال ياقوت: شرف السّيالة: بين ملل والرّوحاء، وذكر حديث عائشة المتقدم.

وقال السمهودي: الشّرف محرّك: الموضع العالي، وهو شرف الرّوحاء وشرف السّيالة؛ لكونه آخر السّيالة، وأوّل وادي الرّوحاء.

قلت: وهكذا اتّفقت أقوال العلماء في تحديد موقع الشرف والمسافة بينه وبين المدينة، كما يتّضح من أقوالهم: أنَّ شرف الرّوحاء هو شرف السّيالة، ولكونه واقعًا بينهما ممثلاً لنهاية كل واحدة منهما مما يلي الأخرى، لذلك فإنه ينسب إلى الرّوحاء تارة وينسب إلى السّيالة تارة أخرى.

وقال عاتق البلادي: وشرف السّيالة، يعرف اليوم بالشّرفة: ريع يأتي بلدة السيالة من الجنوب، سيله الجنوبي في رغيبة فإلىٰ السّدارة من وادي الصّفراء، والشّمالي في تلعة تُسمّى الشّرفة أيضًا، وهو نفس وادي السّيالة، وتكون رأس وادي الغميس الذي يمر سيله بصخيرات اليمام.

قلت: وبما تقدّم يتّضح موقع شرف السّيالة، شرف الرّوحاء، وهو ما يعرف اليوم بالشّرفة على الطريق بين مكة والمدينة، وقد تقدّم في رسم (السقيا) ورسم (الرّوحاء) مزيد من الإيضاح.

وقد ذكر المؤرخون عددًا من الأمكنة التي تسمّى شرفًا.

شرف: بالتحريك وهو المكان العالي، قال ياقوت: قال الأصمعي: الشرف كبد نجد، وكانت منازل بني آكل المرار من كندة الملوك، قال: وفيها اليوم حمى ضريّة، وفي الشّرف الرّبذة وهي الحمى الأيمن، والشّريف إلى جنبها يفصل بينهما التسرير، فما كان مشرّقًا فهو الشّريف، وما كان مغرّبًا فهو الشّرف.

قلت: وقد تقدّم شيء من الإيضاح عن هذا الشّرف في رسم الرّبذة.

الشّرف قال ياقوت: ماء لبني كلاب ويقال لباهلة.

الشّرف: قال ياقوت: قلعة حصينة باليمن قرب زبيد بين جبال لا يوصل إليها إلا في مضيق لا يسع إلا رجلاً واحدًا مسيرة يوم وبعض الآخر، ودونه حراج وغياض، أوى إليه علي بن المهدي الحميري المستولي على

زبيد في سنة ٥٥٠، وهذا الحصن لبني خيوان من خولان، يقال له شرف قِلحاح بكسر القاف.

شرف البياض: قال ياقوت: من بلاد خولان من جهة صعدة باليمن.

شرف الأرطى، قال ياقوت: من منازل تميم.

الشرف: بشين معجمة مفتوحة وراء مهملة مفتوحة وآخره فاء موحدة: بلاد واسعة في عالية نجد.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الصعب بن جثّامة قال إنَّ رسول الله ﷺ قال: لا حمى إلا لله ولرسوله، وقال: بلغنا أن رسول الله ﷺ حمى النقيع، وأن عمر حمى الشرف والربذة.

قلت: الشرف: بلاد واسعة، فيها جبال وهضاب وأودية ومياه وتلال، وهي من أطيب البلاد مرعى، وهي كبد نجد كما يقوله متقدمو العرب، وهو ما بين وادي الرشا (التسرير) قديمًا وبين الحرير (الجريب قديمًا)، وبحبوحته حمى ضرية.

قال الهجري: وروى الزهري أن عمر حمى الشرف والربذة، ذكره البخاري.

قلت: حمى الربذة يقع غرب الشرف، وقد وسّع عثمان في حمى الربذة كما وسّعه الولاة من بعده حتى دخلت فيه بلاد واسعة، وقد استوفيت الحديث عنه في رسمه، فانظره.

وقال ياقوت: شرف: بالتحريك، وهو: المكان العالي، قال الأصمعي: الشرف كبد نجد، وكانت منازل بني آكل المرار من كندة الملوك، قال: وفيها اليوم حمى ضرية، وفي الشرف الربذة وهي الحمى الأيمن، والشريف، إلى جنبها يفصل بينهما التسرير، فما كان مشرّقًا فهو الشريف وما كان مغرّبًا فهو الشرف، قال الراعي:

أفي أثر الأظعان عينك تلمح
نعم لا تهنأ، أن قلبك متيح

ظعائن مئناف إذا ملّ بلدة
أقام الجمال باكر متروّح

تسامى الغمام الغر، ثم مقيله
من الشرف الأعلى حساء وأبطح

قال: وإنما قال الأعلى؛ لأنه بأعلى نجد.

وقال غيره: الشرف الحمى الذي حماه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وقال نصر: الشرف كبد نجد، وقيل وادٍ عظيم تكتنفه جبال حمى ضرية.

وقال الأصمعي: كان يقال: من تصيّف الشرف، وتربّع الحزن، وتشتّى الصمّان فقد أصاب المرعى.

قلت: قول ياقوت فيما ذكره: وفي الشرف الربذة، يبدو لي أن هذا اجتهاد منه، إذ المعروف أن حمى الربذة غير حمى الشرف، وإن لم يكن أحدهما بعيدًا من الآخر، هذا على اعتبار أن الشرف هو ما بين التسرير والجريب.

وقال البكري: الشرف: بفتح أوله وثانيه بعده فاء، ماء لبني كلاب، وقيل: لباهلة، وقال أوس بن حجر وذكر ناقة:

شرفيّة مما توارد منهلا
بقرينة أو غير ذات قرين

نسبها إلى الشرف، يريد أنها من إبل أعدائهم التي يغلبونهم عليها ينبؤك أن الشرف من الحمى قول عدي بن زيد:

للشرف العود وأكنافه
ما بين جمران فينصوب

خير لها أن خشيت حجرة
من ربّها زيد بن أيوب

مـتـكـئًـا تـخـفـق أبـوابـه
يـسعـى عـلـيـه الـعـبـد بـالـكـوب

يعني أباه، وكانت له إبل بعث بها ابنه عديّاً إلى الحمى فردّها زيد، فأغارت خيل لأهل الشام فاستاقوها، وأتى الصريخ زيدًا فوجده يشرب فوثب فأتى ابنه عديًّا، فأخبره الخبر، فأتى عديّ بأناس من الصنائع، فاستنقذها، وقال في ذلك هذا الشعر.

وجمران: جبل هناك، وينصوب: أرض.

قلت: ذكر البكري أن الشرف ماء لبني كلاب أو لباهلة، والواقع أنه بلاد واسعة فيها مياه كثيرة لهؤلاء ولغيرهم من القبائل، أما جمران فإنه جبل ما زال معروفًا باسمه يقع شمال مدينة الدوادمي وعنده ماء يسمّى باسمه، وبهذا يتبيّن لنا الكثير من معالم الشرف وموقعه من بلاد نجد.

أمّا في هذا العهد فإن معظم بلاد الشرف واقعة في بلاد الروقة من قبيلة عتيبة، وفي نواحيه الشمالية حقوق لقبيلة حرب، وأسفله تابع لمحافظة الدوادمي، وأعلاه تابع لمحافظة عفيف، وجانبه الشمالي تابع لإمارة القصيم.

الشعب: بكسر الشين المثلثة وسكون العين المهملة وآخره باء موحدة: شعب بين عرفة ومزدلفة عادلاً عن الطريق.

روى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما يقول: دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله، فقال: الصلاة أمامك فركب فلمّا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلّى المغرب.

وفي رواية: لـمّا أفاض من عرفة عدل إلى الشعب فقضى حاجته، قال أسامة: فجعلت أصبّ عليه الماء ويتوضأ.

قال ابن حجر: الشعب: بكسر الشين المعجمة هو: الطريق في الجبل.

قال ياقوت: شعب: بالكسر، قال ابن شميل الشعب، بالكسر مسيل الماء في بطن من الأرض له جرفان مشرفان وأرضه بطحة، وقد يكون بين سندي جبل. وقال الجوهري: الشِّعب والشّعب بالكسر والضم: الطريق في الجبل، والجمع الشعاب، وقال أبو منصور: ما انفرج بين جبلين فهو شعب.

قلت: هذا ما عرّف به العلماء الشعب، وأمّا الشعب الذي نتحدّث عنه الذي قضى فيه النبي ﷺ حاجته، فإنّه يتبيّن من نص الحديث أنّه واقع بين عرفة ومزدلفة، على جانب الطريق، واسم الجنس لا يتضح الموقع الذي يسمّى به ما لم يكن مضافًا إلى ما يعرف به، أو موصوفًا بما يميّزه عن غيره.

وقد ذكر ياقوت عددًا من الأمكنة التي تسمّى شعبًا غير أن أكثرها معرّفًا بإضافته، منها: شعب أبي دبّ بمكة، ومنها شعب أبي يوسف في مكة، ومنها شعب الحيس في بلاد فزارة بنجد، ومنها شعب الخوز بمكة، ومنها شعب العجوز، بظاهر المدينة، وغير ذلك من المواضع.

باب الصّاد

الصخرة: بصاد مهملة مفتوحة وخاء معجمة ساكنة وراء مهملة مفتوحة وآخره هاء: صخرة موسى عليه السلام وفتاه.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦٣].

وروى البخاري بسنده عن أبيّ بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر فسأل موسى السبيل إليه فجعل الله له الحوت آية وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، وكان يتّبع أثر الحوت في البحر فقال موسى لفتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره.

وروى ابن جرير بسنده عن محمد بن معقل، يحدّث عن أبيه، أنّ الصخرة التي أوى إليها موسى هي الصخرة التي دون نهر الذئب على الطريق.

وروى بسنده عن ابن عباس، قال: جعل الحوت لا يمسّ شيئًا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، فجعل نبيّ الله ﷺ يعجب من ذلك.

وقال ياقوت: صخرة موسى عليه السلام التي جاء ذكرها في الكتاب العزيز في بلد شروان، قرب الدربند.

وقال في رسم دربند: هو باب الأبواب، وقال في رسم باب الأبواب: ويقال له الباب غير مضاف، والباب، والأبواب وهو الدربند، دربند شروان، وشروان مدينة من نواحي باب الأبواب الذي تسميه العرب الدربند، بناها أنو شروان فسمّيت باسمه ثم خُفّفت بإسقاط شطر اسمه، وبين شروان وباب الأبواب مائة فرسخ، خرج منها جماعة من العلماء، ويقولون بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التي نسي عندها الحوت في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، قالوا فالصخرة صخرة شروان والبحر بحر جيلان والقرية باجروان، حتى لقيه غلام فقتله، قالوا في قرية جيزان، وكل هذه من نواحي أرمينيّة قرب الدربند.

وقيل: شروان ولاية قصبتها شماخى وهي قرب بحر الخزر، نسب المحدّثون إليها قومًا من الرواة.

وباب الأبواب على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر، وهي مدينة تكون أكبر من أدربيل نحو ميلين في ميلين، ولهم زروع كثيرة، وعلى المدينة سور من الحجارة ممتّد من الجبل طولاً في غير ذي عرض، لا مسلك على جبلها إلى بلاد المسلمين لدروس الطرق وصعوبة المسالك من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين.

وأمّا حديثها أيام الفتوح فإن سلمان بن ربيعة الباهلي قد غزاها في أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وتجاوز الحصنين وبلنجر، ولقيه خاقان ملك الخزر في جيشه خلف نهر بلنجر فاستشهد سلمان بن ربيعة وأصحابه، وكانوا أربعة آلاف، فقال عبد الرحمٰن بن جمانة الباهلي يذكر سلمان بن ربيعة، وقتيبة بن مسلم الباهليين يفتخر بهما.

وإن لنا قبرين: قبر بلنجر
وقبر بصين استان يالك من قبر
فهذا الذي بالصين عمّت فتوحه
وهذا الذي يسقى به سبل القطر

يريد أن الترك أو الخزر لمّا قتلوا سلمان ابن ربيعة وأصحابه كانوا يبصرون في كل ليلة نورًا عظيمًا على موضع مصارعهم، فيقال: إنهم دفنوهم وأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت وسيّروه إلى بيت عبادتهم، فإذا أجدبوا وأقحطوا أخرجوا التابوت وكشفوا عنه فيسقون.

ووجدت في موضع آخر أن أبا موسى الأشعري لمّا فرغ من غزو أصبهان في أيام عمر بن الخطاب في سنة (١٩) أنفذ سراقة ابن عمرو وكان يدعى ذا النون إلى الباب، وجعل في مقدّمته عبد الرحمٰن بن ربيعة، وكان أيضًا يدعى ذا النون، وسار في عسكره إلى الباب ففتحه بعد حروب جرت، فقال سراقة ابن عمرو في ذلك:

ومن يك سائلاً عنّي فإنّي
بأرض لا يواتيها القرارُ
بباب الترك ذي الأبواب دارٌ
لها في كل ناحية مغارُ
نذود جموعهم عمّا حوينا
ونقتلهم إذا باح السّرارُ
سددنا كلّ فرج كان فيها
مكابرة إذا سطع الغبارُ
وألحمنا الجبال جبال فيج
وجاور دورهم منّا ديارُ
وبادرنا العدوّ بكلّ فجّ
نناهبهم وقد طار الشرارُ
على خيل تعادي كلّ يوم
عتادا ليس يتبعها المهارُ

وقد ذكر ياقوت عددًا من العلماء ينسبون إلى مدينة الأبواب، وفي رسم (مجمع البحرين) في هذا الكتاب مزيد من الإيضاح عن الصخرة.

صِرَار: أوله صاد: مهملة مكسورة بعدها راء مهملة بعدها ألف وآخره راء مهملة: موضع في ناحية المدينة.

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله قال: اشترى منّي النبي ﷺ بعيرًا بوقّيتين ودرهم أو درهمين، فلمّا قدم صرارًا أمر ببقرة فذبحت فأكلوا منها، فلمّا قدم المدينة أمرني أن آتي المسجد فأصلي ركعتين ووزن لي ثمن البعير. صرار موضع بناحية المدينة.

قال ابن حجر: صِرار ـ بكسر المهملة والتخفيف، ووهم مَنْ ذكره بمعجمة أوله، وهو موضع بظاهر المدينة على ثلاثة أميال منها من جهة المشرق.

وقال ياقوت: صرار بكسر أوله، وآخره مثل ثانيه، وهي الأماكن المرتفعة التي لا يعلوها الماء يقال لها صرار، وصرار: اسم جبل قال جرير:

إن الفرزدق لا يزال لؤمة
حتى يزول عن الطريق صرار

وقيل: صرار موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق، قاله الخطابي، وقال بعضهم.

لعل صرارًا أن تجيش بيارها

وقال نصر: صرار ماء قرب المدينة محتفر جاهلي على سمت العراق، وقيل: أطم لبني عبد الأشهل، له ذكر كثير في أيام العرب وأشعارها، وإليه ينسب محمد بن عبد الله الصّراري، يروي عن عبد الله ابن عبد الرحمٰن بن أبي حسين، وروى عنه يزيد ابن الهاد، وبكر بن نصر.

وقال العمراني: صرار اسم جبل، أنشدني جار الله العلاّمة للأفطس العلوي، وفي الأغاني أنهما لأيمن بن خزيم الأسدي:

كأن بني أمية يوم راحوا
وعرّى من منازلهم صرارُ
شماريخ الجبال إذا تردّت
بزينتها وجادتها القطارُ

وقال: هو من جبال القبلية، قال: وصرار أيضًا بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق، وقيل موضع بالمدينة.

وفي المغانم المطابة: ذكر المجد صرارًا، وأورد ما ذكره ياقوت وزاد عليه، قال حكيم ابن عكرمة الدّيلي بتشوّق إلى المدينة:

لعمري للبلاط وجانباه
وحرّة واقم ذات المنارِ
فجمّاء العقيق فعرصتاه
فمفضى السيل من تلك الحرارِ
إلى أحد فذي حرض فمبنى
قباب الحي من كنفي صرارِ
أحبّ إليّ من فجّ ببصرى
بلا شك هناك ولا ائتمارِ
ومن قريات حمص وبعلبك
لو اني كنت أجعل بالخيارِ

قال البكري: صِرار: بكسر أوله وبالراء المهملة أيضًا في آخره: بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة تلقاء حرّة واقم قال زيد ابن أسلم: خرجت مع عمر بن الخطاب ﵁ حتّى إذا كنّا بحرّة واقم، إذا بنار تؤرث بصرار، فسرنا حتى أتيناها، فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضّوء، وكره أن يقول يا أهل النّار، أدنو؟ فقيل له ادن بخير أودع. وإذا بهم ركب قصّر بهم الليل والبرد والجوع، وإذا امرأة وصبيان، فنكص على عقبيه، وأقبل يهرول حتى أتى دار الدّقيق، فاستخرج عدل دقيق وجعل فيه كبّة من شحم، ثم حمله حتى أتاهم فقال للمرأة: ذري وأنا أحرّ لك، يريد أتّخذ لك حريرة.

وقال: حسّان بن ثابت يذكر إخراج الأوس والخزرج يهودًا من يثرب:

فسرنا إليهم بأثقالنا
على كلّ فحل هجان فطم
فلمّا أناخوا بجنبي صرار
وشدّوا السّروج بليّ الحزم

وقال الواقدي: في خبر غزوة قرارة الكدر: حدّثني عبد الصّمد بن محمد السّعديّ عن حفص بن عمر بن أبي طلحة عمّن أخبره عن أبي أروى الدّوسي قال: كنت في السريّة وكنت ممّن يسوق النّعم، فلمّا كنّا بصرار ـ على ثلاثة أميال من المدينة ـ خمس النعم، وكانت النعم خمسمائة بعير.

وقال في خبر غزوة ذات الرقاع: خرج رسول الله ﷺ ليلة السبت لعشر خلون من المحرّم على رأس سبعة وأربعين شهرًا، وقدم صرارًا يوم الأحد لخمس بقين من المحرّم وغاب خمسة عشر.

وقال في خبر منصرفهم من هذه الغزوة: قال جابر: وجعلت أتحدث مع رسول الله ﷺ ثم

قال: يا أبا عبد الله، أتزوجت؟ قلت: نعم قال: بكرًا أم ثيبًا؟ فقلت ثيّبا. فقال: ألا جارية تلاعبها وتلاعبك، فقلت: يا رسول الله بأبي وأمي إن أبي أصيب يوم أحد وترك تسع بنات، وتزوجت امرأة جامعة تلمّ شعثهن وتقوم عليهنّ، قال: أصبت، ثم قال: إنّا لو قدمنا صرارًا أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها. قال: قلت والله يا رسول الله ما لنا نمارق، قال: أما إنها ستكون، فإذا قدمت فاعمل عملاً كيّسًا، قال: قلت: أفعل ما استطعت. قال: ثم قال: بعني جملك هذا يا جابر. قلت بل هو لك يا رسول الله، قال: لا، بل بعنيه قال: قلت نعم سمني به، قال: فإني آخذه بدرهم قال قلت: تغبنني يا رسول الله، قال: لا لعمري، قال جابر فما زال يزيدني درهمًا درهمًا حتى بلغ أربعين درهمًا ـ أوقيّة ـ فقال: أما رضيت؟ فقلت: هو لك، فقال: فظهره لك حتى تقدم المدينة، قال: ويقال: إنه قال: آخذه منك بأوقية وظهره لك، فباعه على ذلك قال: فلمّا قدمنا صرارًا أمر بجزور فنحرت، فأقام به يومه ثم دخلنا المدينة.

وقال السمهودي: صرار ـ ككتاب، وروي بالضاد المعجمة وهو وهم، قال الخطّابي: هي بئر قديمة على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق، وقال عياض: ويدل لكونها اسم موضع غير بئر لكن بها بئارًا قول الشاعر:

لعل صرارًا أن تجيش بيارها

قال السمهودي: إن أناسًا من اليهود كانوا بالجوّانية وكان لهم بها الأطم الذي يقال له صرار، وبه سمّيت تلك الناحية صرارًا، ولهم الريّان أيضًا، وصار لبني حارثة، قال ابن زبالة: وله يقول نهيك ابن سيّاف:

لعلّ صرارًا أن جيش بئاره
ويسمع بالريّان تبنى مسار به

فصرار: أطم شاميّ المدينة من جهة الحرّة ومنازل بني حارثة.. وكانوا مع بني عبد الأشهل في دارهم، ثم أجلوهم إلى خيبر، ثم رقّ لهم حضير بن سماك الأشهلي لمّا عناه خفاف بن ندبة بقوله:

فإن خضيرًا والذي قد أرادها
حضير كرائي حتفه وهو شاربه
لعلّ صرارًا أن تغور بئاره
ويسمع بالريّان تعوي ثعالبه
فإن يهلكوا تهلك وإن تدن دارهم
تكون حبًا خير أصابك خاصبه

فقال: إن هذا لهكذا، إنّي والله إن هلكتُ هلكتْ بنو حارثة، وإن يهلكوا نهلك ولا مانع أن يكون في طريق العراق ماء يسمّى بصرار أيضًا ويدل له قول نصر: صرار ماء بقرب المدينة محتفر جاهلي، له ذكر كثير على سمت العراق... والمراد من حديث أمره ﷺ بنحر بقرة لمّا قدم صرارًا إنّما هو صرار الذي بالمدينة، ولهذا قال البخاري: صرار موضع ناحية المدينة.

قلت: وممّا تقدّم من أقوال العلماء يتبيّن أن صرارًا اسم مشترك لعدد من الأمكنة، منها مكان بناحية المدينة، وهو الذي ورد في حديث زيد بن أسلم، وخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وورد في شعر أيمن بن خزيّم الأسدي وشعر حكيم بن عكرمة الدّيلي، وشعر حسّان، وغيرها من الأشعار.

الثاني: صرار: بئر على ثلاثة أميال من المدينة وهو الذي ورد في حديث جابر رضي الله عنه وفي خبر غزوة قرارة الكدر، وغزوة ذات الرّقاع.

الثالث: اسم جبل، قالوا: إنه من جبال القبلية.

الصّفراوات: بصاد مهملة مفتوحة بعدها فاء موحدة ساكنة فراء مهملة بعدها ألف ثم واو بعدها ألف وآخره تاء، جمع صفراء: موضع في الطريق بين مكة والمدينة.

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان ينزل في المسيل الذي في أدنى مرّ الظّهران قبل المدينة حين يهبط من الصّفراوات ينزل في بطن ذلك المسيل عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة.

قال ابن حجر: الصّفراوات: بفتح المهملة وسكون الفاء جمع صفراء، وهو مكان بعد مرّ الظهران.

وقال المراغي في ذكر المساجد التي صلّى فيها النبي ﷺ، بين مكة والمدينة: ومسجد في المسيل الذي بوادي مرّ الظّهران، حين تهبط من الصّفراوات مسجد بوادٍ عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، ومرّ الظّهران هو بطن مرّ المعروف، وليس المسجد بمعروف اليوم.

وقال ياقوت: الصّفراوات: جمع صفراء، موضع بين مكة والمدينة قريب من مرّ الظّهران.

وفي القاموس وشرحه: الصّفراوات: موضع بين الحرمين الشريفين قرب مرّ الظّهران.

وقال عاتق البلادي: إن الصّفراوات تسمّى اليوم (موقدات) وهي أضلع صفر تشرف على الجموم من الشمال.

وقال في رسم الجموم: كانت عينًا متدفقة غزيرة المياه في مرّ الظّهران، على طريق مكة إلى المدينة على (٢٢) كيلاً، كانت محطة رئيسة للحجاج، فتكونت عليها قرية ذات سوق عامرة، انقطعت العين.. ولكن البلدة لم تتأثر لانقطاع عينها، وفيها إمارة مرّ الظّهران تابعة لمكة.

قلت: هذا ما تيسّر ذكره عن موضع الصّفراوات، الواقعة على الطريق بين مكة والمدينة، وهي إلى مكة، أقرب وقد حدّدت بقرب مرّ الظّهران، ومرّ الظّهران مستوفى الحديث عنه في رسمه، وهو ما يعرف اليوم بوادي فاطمة.

صفّين: بصاد مهملة مكسورة وفاء موحدة مشدّدة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره نون موحدة: موضع بقرب الرقّة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي.

وروى البخاري بسنده عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله، فقال: كنّا بصفين، فقال: رجل ألم تر الذين يدعون إلى كتاب الله تعالى؟ فقال عليّ: نعم، فقال سهل بن حنيف اتّهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا.

قال ابن حجر: صفّين: هي مدينة قديمة على شاطىء الفرات بين الرقّة ومنبج، كانت بها الواقعة المشهور بين علي ومعاوية.

قال ياقوت: صفّين: بكسرتين وتشديد الفاء، وحالها في الإعراب حال صريفين، وقد ذكرت في هذا الباب أنها تعرب إعراب الجموع وإعراب ما لا ينصرف، وهي موضع بقرب الرقّة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقّة وبالس، وكانت وقعة صفين بين علي رضي الله عنه ومعاوية في سنة ٣٧هـ في غرّة صفر... وقد أكثرت الشعراء من وصف صفّين في أشعارهم، فمن ذلك قول كعب ابن جعيل يرثي عبيد الله بن عمر بن الخطاب وقد قتل بصفّين:

ألا إنّما تبكي العيون لفارس
بصفّين أجلت خيله وهو واقف
فأضحى عبيد اللّه بالقاع مسلمًا
تمجّ دمًا منه العروق النوازف
ينوء وتعلوه سبائب من دم
من الموت شهباء المناكب شارف
جزى اللّه قتلانا بصفّين ما جزى
عبادًا له إذ غودروا في المزاحف

وقال البكري: صفّين: بكسر أوله وثانيه وتشديده: موضع معروف بالشام، الذي كانت فيه الحرب بين أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ومعاوية، ويقال أيضًا صفّون، كما يقال قنّسرون وماردون، وقنّسرين وماردين. والأغلب على صفّين التأنيث.

وقيل لأبي وائل سقيق بن سلمة: أشهدت صفّين؟ قال: نعم وبئست الصّفون، وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني:

كما بلغت أيام صفّين نفسه
تراقيه والشاميّ شهود

وفي هذا الموضع هزم سيف الدولة علي الحمداني الأخشيد محمد بن طفح، وتملّك الشام، وقال الشاعر في ذلك:

أو ما ترى صفّين يوم أتيتها
وانجاب عنها العسكر الغربي
فكأنه جيش ابن حرب رعته
حتى كأنّك يا عليّ عليّ

وقال الحميري: صفّين موضع بالعراق معروف على الفرات، ويقال فيه صفون أيضًا، فهو يقال صفين في حال الرفع والنصب والجر، ومنهم مَنْ يقول صفون في الرفع والأغلب على صفين التأنيث... وهي صحراء ذات كدى وأكمات، وبها كانت الوقيعة العظيمة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وأهل العراق وأهل الشام، والتي جاء في الحديث المتفق على صحته لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين، وقيل: في ربيع الآخر.

قلت: وقد تحدّث صاحب (الروض المعطار) عمّا دار في صفّين من المعارك بين علي رضي الله عنه وبين معاوية رضي الله عنه حديثًا طويلاً شاملاً، لا يتّسع مقامنا هذا لذكره.

وصفّين من البلاد التي فتحت في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وشهرتها تغني عن الإطالة في ذكرها.

صنعاء: بفتح الصاد المهملة وسكون النون الموحدة والعين مهملة بعدها ألف ممدود: مدينة معروفة في اليمن.

وروى البخاري بسنده عن خبّاب بن الأرتّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا، قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين وما يصدّه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصدّه ذلك عن دينه والله ليتمنّ هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون.

قال ياقوت: صنعاء: منسوبة إلى جودة الصنعة في ذاتها، كقولهم امرأة حسناء وعجزاء وشهلاء، والنسبة إليها صنعانيّ على غير قياس كالنسبة إلى بهراء بهرانيّ، وصنعاء: موضعان أحدهما باليمن وهي العظمى، وأخرى قرية بالغوطة من دمشق.

فأما اليمانيّة فقال أبو القاسم الزجّاجيّ: كان اسم صنعاء في القديم أزال، قال ذلك الكلبي والشرقي وعبد المنعم فلما وافتها الحبشة قالوا نعم نعم فسمّى الجبل نعم أي أنظر، فلمّا رأوا مدينتها وجدوها مبنيّة بالحجارة حصينة فقالوا هذه صنعة ومعناه حصينة فسمّيت صنعاء لذلك، وبين صنعاء وعدن ثمانية وستون ميلاً، وصنعاء قصبة اليمن وأحسن بلادها، تشبّه بدمشق لكثرة فواكهها، وتدفّق مياهها فيما قيل.

وقيل: سُمّيت بصنعاء بن أزال بن يقطن ابن عابر بن شالخ وهو الذي بناها، وقيل: كانت تسمّى أزال، قال ابن الكلبي: إنّما سُمّيت صنعاء لأن وهرز لمّا دخلها قال: صنعة صنعة، يريد أن الحبشة أحكمت صنعتها قال: وإنّما سُمّيت باسم الذي بناها وهو صنعاء ابن أزال بن عبير بن عابر بن شالخ فكانت تعرف بأزال وتارة بصنعاء.

وقال محمد بن أحمد الهمداني الفقيه: صنعاء طيّبة الهواء كثيرة الماء، يقال: إن أهلها يشتون مرتين، ويصيّفون مرتين، وكذلك أهل فران ومأرب وعدن والشّحر... وبنى أبرهة بصنعاء القلّيس وأخذ الناس بالحج إليه وبناه بناء عجيبًا، وقدم يزيد بن عمرو الصّعق صنعاء ورأى أهلها وما فيها من العجائب، فلمّا انصرف قيل له: كيف رأيت صنعاء؟ قال:

ومن ير صنعاء الجنود وأهلها
وجنود حمير قاطنين وحميرا
يعلم بأن العيش قسّم بينهم
حلبوا الصّفا فأنهلوا ما كدّرا
ويرى مقامات عليها بهجة
يأرجن هنديًا ومسكًا أذفرا

وقال الحميري: صنعاء: مدينة عظيمة باليمن كان اسمها القديم أزال، فلمّا وافتها الحبشة ونظروا إلى مدينتها فرأوها مبنيّة بالحجارة قالوا: هذه صنعة، وتفسيرها بلسانهم حصينة، فسمّيت صنعاء.

قالوا: والذي أسس غمدان وابتدأ بنيانه واحتفر بئره ـ الذي هو اليوم سقاية بمسجد جامع صنعاء ـ سام بن نوح عليه السلام ... وصنعاء مدينة كثيرة الخيرات، متصلة العمارات، ليس في بلاد اليمن أقدم منها عهدًا ولا أكبر منها قطرًا، ولا أكثر ناسًا، وهي معتدلة قاطبة تنزل بها، وهي ديار العرب، وكان لملوكها بها بناء كبير عظيم الذكر، وهو قصر غمدان فهدّم وصار كالتّل العظيم، وأكثر بنيانها في هذا الوقت بالخشب، وبها دار لعمل الثياب المنسوبة إليها، وهي قاعدة اليمن وهي على نهر صغير يأتي إليها من جبل في شمالها فيمرّ نازلاً إلى مدينة ذمار ويصبّ في البحر اليماني، ومن صنعاء إلى ذمار ثمانية وأربعون ميلاً.

ولمّا ظهر أمر الأسود العنسي الكذّاب بصنعاء بعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد أو من خزاعة في أمر الأسود، فدخل صنعاء مختفيًا فنزل على داذويه الأبنائي فأخفاه عنده، وتواترت الأنباء في قتل الأسود، فتحرّك في قتله نفر منهم قيس بن عبد يغوث المكشوح، وفيروز الديلمي وداذويه، وكانت المرزبانة زوجه قد أبغضته إذ كان تزوّجها قصرًا، وكانت من عظام فارس، فوعدتهم موعدًا أتوا لميقاته وقد سقته الخمر حتى سكر، فسقط نائمًا كالميّت، فدخل عليه قيس وفيروز ونفر معهما فوجدوه على فراش عظيم من ريش، قد غاب فيه، وأشفق فيروز أن يتمادى عليه السيف أن ضرب به، فوضع ركبته على صدر الكذّاب ثم فتل عنقه فحوّلها حتى حوّل وجهه من قبل ظهره، وأمر فيروز قيسًا فاحتزّ رأسه

فرمى به إلى الناس، ففضّ الله ﷻ الذين اتّبعوه، وألقى عليهم الخزي والذلّة، وأتى الخبر بذلك إلى رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقال ﷺ وذكر الأسود: قتله الرجل الصالح فيروز الديلمي وداذويه والأمر إلى قيس بن المكشوح، وأخرج الأبناء من صنعاء فلم يبق بها أحد إلا في جوار، وبلغ خالد ابن سعيد بن العاصي رضي الله عنه ردّة أهل صنعاء فسار يومها إلى أن كان من أمره وأمر قيس ثم إسلامه ما هو مذكور.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره ياقوت وصاحب (الروض المعطار) عن مدينة صنعاء، وهي مدينة مشهورة بقدمها وتاريخها، وهي عاصمة بلاد اليمن قديمًا وحديثًا، وما زالت ولها شهرة في ماضيها وفي حاضرها تغني عن إطالة الحديث في وصفها، وهي التي ورد ذكرها في كتب السنّة.

صنعاء أيضًا: قرية علي باب دمشق دون المزّة مقابل مسجد خاتون خريت، وهي اليوم مزرعة وبساتين، قال أبو الفضل: صنعاء قرية على باب دمشق خربت الآن، وقد نسب إليها جماعة من المحدّثين.

وقد ذكر ياقوت عددًا كبيرًا من المحدّثين الذين ينسبون إلى هذه البلدة.

الصّهباء: بصاد مهملة مفتوحة وهاء ساكنة بعدها باء موحدة وآخره ألف ممدود: موضع على طريق خيبر من المدينة.

وروى البخاري بسنده عن سويد بن النعمان أنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر حتى إذا كان بالصّهباء وهي أدنى خيبر فصلّى العصر ثم دعا بالأزواد فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثرى فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا ثم صلّى ولم يتوضأ.

قال الواقدي ـ وهو يرسم الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ـ: خرج رسول الله ﷺ من المدينة فسلك ثنيّة الوداع، ثم أخذ على الزّغابة، ثم على نقمى، ثم سلك المستناخ، ثم كبس الوطيح، ومعهم دليلان من أشجع، خرج على عصر وبه مسجد ثم على الصّهباء.

وقال الواقدي في خبر انصراف النبي ﷺ من خيبر: قال أنس: انصرفنا مع رسول الله ﷺ من خيبر وهو يريد وادي القرى، ومعه أمّ سلمة بنت ملحان، وكان بعض القوم يريد أن يسأل رسول الله ﷺ صفيّة، حتى مرّ بها فألقى عليها رداءه، ثم عرض عليها الإسلام فقال: أن تكوني على دينك لم نكرهك، فإن اخترت الله ورسوله اتخذتك لنفسي، فقالت: بل أختار الله ورسوله، قال: فأعتقها فتزوجها وجعل عتقها مهرها فلمّا كان بالصّهباء قال لأمّ سليم: انظري صاحبتك هذه فأمشطيها، وأراد أن يعرّس بها هناك، فقالت أم سليم ـ قال أنس: وليس معنا فساطيط ولا سرادقات ـ فاتخذت كساءين وعباءتين فسترت بهما عليها إلى شجرة فمشطتها وعطّرتها وأعرس بها رسول الله ﷺ هناك، وكان رسول الله ﷺ لمّا خرج من خيبر، وقرّب بعيرها وقد سترها النبي ﷺ بثوبه، أدنى فخذه لتضع رجلها عليها، فأبت ووضعت ركبتها على فخذه، فلمّا بلغ ثبارًا أراد أن يعرّس بها هناك، فأبت عليه حتى وجد في نفسه، حتى بلغ الصّهباء فمال إلى دومة هناك فطاوعته، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت حين أردت أن أنزل بثبار ـ وثبار على ستة أميال والصّهباء على اثني عشر ميلاً»، قالت:

يا رسول الله خفت عليك قرب اليهود، فلمّا بعدت أمنت، فزادها عند النبي ﷺ خيرًا، وعلم أنها قد صدقته.

وقال المراغي: في ذكر المساجد التي صلّى فيها النبي ﷺ: اعلم أنَّ من مشهور المساجد (مسجد العصر): موضع على مرحلة من المدينة صلّى فيه النبي ﷺ عند خروجه إلى خيبر، (ومسجد الصّهباء) وهي أدنى خيبر، روى مالك بسنده إلى سويد بن النعمان رضي الله عنه أنّه خرج مع النبي ﷺ عام خيبر حتى إذا كانوا بالصّهباء وهي أدنى من خيبر نزل فصلّى العصر.

وقال المجد: الصّهباء، بلفظ اسم الخمر: موضع بين المدينة وخيبر، وبين الصهباء وخيبر روحة.

وقال البكري: الصّهباء، على لفظ تأنيث أصهب، روى مالك بسنده عن سعيد ابن النعمان أنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتى إذا كانوا بالصّهباء، وهي من أدنى خيبر، نزل فصلّى العصر.

وقال ياقوت: الصّهباء، بلفظ اسم الخمر، وسمّيت بذلك لصهوبة لونها وهو حمرتها أو شقرتها: وهو اسم موضع بينه وبين خيبر روحة، له ذكر في الأخبار.

وقال عاتق البلادي: الصّهباء: جبل يطلّ على خيبر من الجنوب، ويسمّى اليوم جبل عطوة، يشرف على بلدة الشريف قاعدة خيبر من الجنوب، وكذلك هو بالنسبة لخيبر... وهو أحمر جميل على شكل سلسلة طرفها الشمالي يشرف على خيبر، والجنوبي يشرف على وادي الدوم.

قلت: هذا ما ذكره المؤرخون عن الصّهباء، ووصفوها به وحدّدوا به المسافة بينها وبين خيبر، وقد تغيّر اسمها القديم ـ كما جاء ذلك فيما قاله عاتق البلادي الذي زار هذه الأمكنة وشاهد معالمها ـ وفيما قدّمته كفاية للتعريف بهذا الموضوع.

باب الضاد

ضجنان: بفتح الضاد المعجمة وسكون الجيم بعدها نون موحدة وآخره ألف بعدها نون موحدة: موضع بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن نافع قال: أذّن ابن عمر في ليلة باردة بضجنان ثم قال صلّوا في رحالكم، فأخبرنا أن رسول الله ﷺ كان يأمر مؤذّنًا ثم يقول على أثره ألا صلّوا في الرحال في الليلة الباردة، أو المطيرة في السفر.

قال ابن حجر: ضجنان: هو بفتح الضاد المعجمة وبالجيم بعدها نون على وزن فعلان غير مصروف، قال صاحب الصحاح وغيره: هو جبل بناحية مكة. وقال أبو موسى في ذيل الغربيين: هو موضع أو جبل بين مكة والمدينة، وقال صاحب المشارق ومَنْ تبعه: هو جبل على بريد من مكة. وقال صاحب الفائق: بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلاً، وبينه وبين وادي مريسيعة أميال. وهذا القدر أكثر من بريدين، وضَبْطه بالأميال يدل على مزيد اعتناء، وصاحب الفائق ممّن شاهد تلك الأماكن واعتنى بها، خلاف مَنْ تقدّم ذكره ممّن لم يرها أصلاً ويؤيّده ما حكاه أبو عبيد البكري: قال: وبين قديد وضجنان يوم، قال معبد الخزاعي.

قد جعلت ماء قديد موعدي
وماء ضجنان لها ضحى الغد

وقال ابن القيّم: قال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ نازلاً بين ضجنان وعسفان محاصرًا للمشركين، فقال المشركون إن لهؤلاء صلاة هي أحبّ إليهم من أبنائهم وأموالهم، أجمعوا أمركم ثم ميلوا عليهم ميلة واحدة، فجاء جبريل فأمره أن يقسم أصحابه نصفين.

وروى الواقدي بسنده عن مجمع بن جارية، قال: لمّا كنّا بضجنان راجعين من الحديبية رأيت الناس يركضون فإذا هم يقولون: أنزل على رسول الله ﷺ قرآن، فركضت مع الناس حتى توافينا عند رسول اللّه ﷺ وهو يقرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [سورة الفتح، الآية ١].

وقال الحازمي: ضجنان: بعد الصاد المفتوحة جيم ساكنة: جبل قرب مكة في طريق المدينة له ذكر كثير في الحديث والمغازي.

وقال البكري: ضجنان: بفتح أوله وإسكان ثانيه، بعده نون وألف، على وزن فعلان: جبل بناحية مكة على طريق المدينة. قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر بسورة براءة، فلمّا بلغ أبو بكر ضجنان سمع بغام ناقة علي، وفي حديث عمر بن الخطاب أنه مرّ بضجنان، فقال له: لقد رأيتني بهذا الجبل أحتطب مرّة وأحتطب أخرى، على حمار للخطّاب، وكان شيخًا غليظًا، فأصبحت والناس بجنبتي ليس فوقي أحد.

ويدلّك أن بين ضجنان وقديد ليلة، قول معبد بن أبي معبد الخزاعي، وقد مرّ برسول الله ﷺ في غزوة ذات الرّقاع:

قد نفرت من رفقتي محمدِ
وعجوة من يثرب كالمنجدِ
تهوي على دين أبيها الأتلدِ
قد جعلت ماء قديد موعدِ
وماء ضجنان لنا ضحى الغدِ

وقال ياقوت: ضجنان: بالتحريك، ونونين، قال أبو منصور: لم أسمع فيه شيئًا مستعملاً غير جبل بناحية تهامة يقال له ضجنان، ولست أدري ممّ أخذ، ورواه أبو دريد بسكون الجيم، وقيل: ضجنان جبيل على بريد من مكة، وهناك الغميم في أسفله مسجد صلّى فيه رسول الله ﷺ، وله ذكر في المغازي وقال الواقدي: بين ضجنان ومكّة خمسة وعشرون ميلاً، وهي لأسلم وهذيل وغاضرة، ولضجنان حديث في حديث الإسراء حيث قالت له قريش: ما آية صدقك؟ قال: لمّا أقبلت راجعًا حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير فلان فوجدت القوم ولهم إناء فيه ماء فشربت ما فيه، وذكر القصّة.

وقال عاتق البلادي: ضجنان: حرّة مستطيلة من الشرق إلى الغرب ينقسم عنها سيل وادي الهدة، ويمرّ بها الطريق من مكة إلى المدينة بنصفها الغربي على (٥٤) كيلاً من مكة، ويعرف هذا النصف اليوم بخشم المحسنيّة، وكذلك الحرّة ولها نصف آخر ينقض شمالاً غربيًا، أبرق يغطيه الرمل، ذلك هو كراع الغميم بعد الأول شمالاً ببضعة أكيال، ويعرف الأخير ببرقاء الغميم.

قلت: هذا هو ضجنان الذي ورد ذكره في كتب السنّة وفي الأخبار وقد اتفقت أقوال العلماء على وصفه وتحديده، لكنهم اختلفوا في تحديد المسافة بين ضجنان وبين مكة، غير أن ما قاله ابن حجر عن صاحب (الفائق) وما قاله ياقوت عن الواقدي يتفقان على أن المسافة بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلاً، وهذا يتفق تقريبًا مع ما حدّده به عاتق البلادي، وهذا التحديد أرجح من غيره لتوافق أقوال العلماء عليه، وفي رسم كراع ما يؤيّد صحّة ما قاله عاتق بن غيث البلادي.

باب الطاء

الطائف: بطاء مهملة بعدها ألف وبعد الألف همزة وآخره فاء موحدة: مدينة معروفة في الحجاز.

وروى البخاري بسنده عن السائب بن زيد قال: كنت قائمًا في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال اذهب فأتني بهذين فجئته بهما قال: مَنْ أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

قال البكري: الطائف التي بالغور لثقيف: وإنّما سُمّيت بالحائط الذي بنوا حولها، وأطافوه به تحصينًا لها، وكان اسمها وجّ، قال أميّة بن أبي الصلت:

نحن بنينا طائفًا حصينًا
يقارع الأبطال عن بنينا

وقال ياقوت: الطائف بعد الألف همزة في صورة الياء ثم فاء، وبالطائف عقبة وهي مسيرة يوم للطالع من مكة، ونصف يوم للهابط إلى مكة عمّرها حسين بن سلامة وسدّها ابنه، وهو عبد نوبي وزر لأبي الحسين بن زياد صاحب اليمن في حدود سنة ٤٣٠ فعمّر هذه العقبة عمارة يمشي طائفًا بحائطها المبني حولها المحدق بها، والطائف هو وادي وجّ وهو بلاد ثقيف، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخًا... قال عرّام: والطائف ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكه وبها مياه جارية، وجلّ أهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش، وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان قبائل هذيل. وقال ابن عباس: سُمّيت الطائف لأن إبراهيم عليه السلام. لمّا أسكن ذرّيته مكة وسأل الله أن يرزق أهلها من الثمرات أمر الله عزّ وجلّ قطعة من الأرض أن تسير بشجرها حتى تستقرّ بمكان الطائف، فأقبلت وطافت بالبيت ثم أقرّها الله بمكان الطائف فسمّيت الطائف لطوافها بالبيت، وهي مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف وادٍ وهي محلّتان: إحداهما على هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف، والأخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط، والوادي بين ذلك، وبيوتها لاطئة حرجة، وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان، وأمّا زبيبها فيضرب بحسنه المثل وهي طيّبة الهواء شمالية، ربما جمد فيها الماء في الشتاء، وفواكه أهل مكة منها والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان.

وروى أبو صالح: ذكرت ثقيف عند ابن عباس فقال: إنّ ثقيفًا والنخع كانا ابني خالة فخرجا منتجعين، معهما أعنز لهما وجدي فعرض لهما مصدّق لبعض ملوك اليمن فأراد أخذ شاة منهما فقالا: خذ ما شئت إلا هذه الشاة الحلوب فإنّا من لبنها نعيش وولدها، فقال: لا آخذ سواها فرفقا به فلم يفعل، فنظر

أحدهما إلى صاحبه وهمّا بقتله ثم إنّ أحدهما انتزع له سهمًا فلق به قلبه فخرّ ميتًا، فلمّا نظرا إلى ذلك قال أحدهما لصاحبه: إنّه لن تحملني وإيّاك الأرض أبدًا، فإمّا أن تغرّب وأنا أشرّق وإمّا أن أغرّب وتشرّق أنت فقال ثقيف: فإنّي أغرّب وقال النخع: فأنا أشرّق وكان اسم ثقيف قسيًا واسم النخع جسرًا، فمضى النخع حتى نزل ببيشة من أرض اليمن ومضى ثقيف حتى أتى وادي القرى فنزل على عجوز يهودية لا ولد لها فكان يعمل نهارًا ويأوي إليها ليلاً فاتخذته ولدًا لها واتخذها أمّا له، فلمّا حضرها الموت قالت له: يا هذا إنّه لا أحد لي غيرك وقد أردت أن أكرمك لألطافك إيّاي، انظر إذا أنا متّ وواريتني فخذ هذه الدنانير فانتفع بها، وخذ هذه القضبان فإذا نزلت واديًا تقدر فيه على الماء فاغرسها، فإنّي أرجو أن تنال من ذلك فلاحًا بيّنًا، ففعل ما أمرته به فلمّا ماتت دفنها وأخذ الدنانير والقضبان ومضى سائرًا حتى إذا كان قريبًا من وجّ، وهي الطائف، إذا هو بأمة حبشية ترعى مائة شاة، فطمع فيها وهمّ بقتلها وأخذ الغنم فعرفت ما أراد فقالت: إنّك أن أسررت فيّ طمعًا لتقتلني وتأخذ الغنم ولئن فعلت ذلك لتذهبنّ نفسك ولا تحصل من الغنم شيئًا لأن مولاي سيّد هذا الوادي وهو عامر بن الضرب العدواني، إلى آخر ما ذكره. وقد أطال ياقوت في الحديث عن الطائف وذكر أخبارًا كثيرة لا يتّسع مقامنا هذا لذكرها.

وقال مرداس بن عمرو الثقفي:

فإنّ اللّه لم يؤثر علينا
غداة يجزّىء الأرض اقتساما
عرفنا سهمنا في الكفّ يهوى
كذا نوح وقسّمنا السّهاما
فلمّا أن أبان لنا اصطفينا
سنام الأرض أنّ لها سناما
فأنشأنا خضارم مشجرات
يكون نتاجها عنبا تؤاما
ضفادعها فرائح كلّ يوم
على جوب يراكضن الحماما
وأسفلها منازل كلّ حيّ
وأعلاها ترى أبدًا حراما

ولمّا جاء الإسلام غزا رسول الله ﷺ الطائف فافتتحها في سنة تسع من الهجرة صلحًا، وكتب لهم كتابًا بذلك في شوال سنة ثمان من الهجرة.

قلت: هذا بعض ما ذكره ياقوت عن الطائف المدينة المعروفة، وقد أصبح لهذه المدينة شهرة في تقدّمها الحضاري والعمراني بين مدن المملكة العربية السعودية، وشهرة هذه المدينة تغني عن الإطالة في الحديث عنها.

طابة (طيبة): أوله: طار مهملة بعدها ألف بعدها باء موحدة مفتوحة وآخره هاء: اسم من أسماء المدينة.

وجاء فيما **رواه البخاري** بسنده عن أبي حميد الساعدي - في خبر رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة - قال النبي ﷺ إنّي متعجّل إلى المدينة فمن أراد منكم أن يتعجّل معي فليتعجّل، فلمّا قال ابن بكّار كلمة معناها أشرف على المدينة قال هذه طابة، فلمّا رأى أحدًا قال: هذا جبل يحبّنا ونحبّه.

وقال ابن حجر: ووقع في بعض طرقه طابة، وفي بعضها طيبة، وروى مسلم من حديث جابر بن سمرة مرفوعًا: إنّ الله سمّى المدينة طابة، وروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة بن سماك: كانوا يسمّون المدينة يثرب، فسمّاها النبي ﷺ طابة، وأخرجه أبو عوانة،

والطّاب والطّيب لغتان بمعنى واحد، واشتقاقهما من الشيء الطّيب، وقيل لطهارة تربتها، وقيل: لطيب مساكنها، وقيل: من طيب العيش بها. وقال بعض أهل العلم: وفي طيب ترابها وحيطانها رائحة طيّبة لا تكاد توجد في غيرها... وللمدينة أسماء غير ما ذكر: منها ما رواه عمر ابن شبّة في أخبار المدينة من رواية زيد بن أسلم قال: قال النبي ﷺ: للمدينة عشرة أسماء هي المدينة، وطابة، وطيبة، والمطيّبة، والمسكينة، والدار، وجابرة، ومجبورة، وميرة، ويثرب.

قال ابن القيّم: ولمّا قدم النبي ﷺ المدينة، واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم غيّره بطيبة، لما زال عنها مافي لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطيب استحقّت هذا الاسم وازدادت به طيبًا آخر فأثّر طيبها في استحقاق الاسم، وزادها طيبًا إلى طيبها.

قلت: هذه هي طابة وطيبة، التي ورد ذكرها في الحديث الشريف، وفي رسم المدينة مزيد من الإيضاح عن هذه البلد الطيّبة.

طابة أيضًا: قال ياقوت: طابة: موضع في أرض طيّء، قال زيد الخيل:

سقى اللّه ما بين القفيل فطابة
فما دون أرمام فما فوق منشد

وذكر حمد الجاسر في معجم شمال المملكة هذا الموضع وقال: طابة الآن قرية في سفح جبل سلمى من الجنوب، جنوب مدينة حائل بنحو ١٣٠ كيلاً، فيها مدرستان للبنين والبنات ومركز من مراكز إمارة حائل.

طريق الشجرة: أوله طاء مهملة مفتوحة فراء مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة وآخره قاف مثناة: طريق يخرج منه النبي ﷺ من المدينة إلى مكة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشجرة ويدخل من طريق المعرّس، وأن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى مكة يصلّي في مسجد الشجرة، وإذا رجع صلّى بذي الحليفة ببطن الوادي.

قال ابن حجر: طريق الشجرة ـ قال عياض: هو موضع معروف على طريق مَنْ أراد الذهاب إلى مكة من المدينة، وكلّ من الشجرة والمعرّس على ستة أميال من المدينة، لكن المعرّس أقرب.

قال ياقوت: الشجرة: بلفظ واحدة الشجر: وهي الشجرة التي ولدت عندها أسماء بنت محمد بن أبي بكر، رضي الله عنه بذي الحليفة، وكانت سمرة، وكان النبي ﷺ ينزلها من المدينة ويحرم منها، وهي على ستة أميال من المدينة.

وقال الحربي: ذو الحليفة، وهي: الشجرة، وروى بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى مكة صلّى في مسجد الشجرة.

وروى بسنده عن عبد الله بن عمر أيضًا أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر، وفي حجّته حين حجّ تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة، وكان إذا قدم راجعًا من غزو، كان في تلك الطريق، أو حجّ، أو عمرة هبط بطن الوادي فإذا ظهر من بطن الوادي، أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية فعرّس ثمّ حتى يصبح، فيصلّي الصبح ليس عند المسجد الذي من حجارة ولا على الأكمة التي عليها المسجد كان ثمّ خليج يصلّي عبد الله عنده في بطنه كثيب.

ومن المدينة إلى ذي الحليفة خمسة أميال ونصف.

وقال المطري فيما روى الزبير بن بكّار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر وبحجّته حين يحجّ تحت سمرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة، قال المطري: هذا المسجد هو المسجد الكبير الذي هناك، وكان فيه عقود في قبلته ومنارة في ركنه الغربي الشمالي فتهدّم على طول الزمان والبئر في جهته شمالية، وهو مبني في موضع الشجرة التي كانت هناك، وبها سُمّي مسجد الشجرة.

وقال المراغي: وروى الزبير بن بكّار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّى في مسجد الشجرة إلى جهة الاسطوانة الوسطى واستقبلها، وكان موضع الشجرة التي كان النبي ﷺ صلّى بها.

قلت: وبهذا يتبيّن أن طريق الشجرة هو الطريق الذي يمرّ بالشجرة التي كانت في ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة، وقد تقدّم الحديث مستوفى عن ذي الحليفة في رسمه، وفيه كفاية إن شاء الله.

أمّا الشجرة التي ورد ذكرها في القرآن، في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[سورة الفتح، الآية: ١٨]، فإن هذه الشجرة كانت في الحديبية، وقد تقدّم في رسم الحديبية ما يفيد في التعريف بهذه الشجرة.

طريق المعرّس: بطاء مفتوحة مهملة وراء مكسورة مهملة وياء مثناة ساكنة وآخره قاف مثناة، والثاني بضم الميم وفتح العين وراء مشدّدة مفتوحة آخره سين مهملة: طريق بين مكة والمدينة، غير بعيد من المدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشجرة ويدخل من طريق المعرّس، وأن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى مكة يصلّي في مسجد الشجرة، وإذا رجع صلّى بذي الحليفة ببطن الوادي وبات حتى يصبح.

قال ابن حجر: وقال عياض: طريق الشجرة هو: موضع معروف على طريق مَنْ أراد الذهاب إلى مكة من المدينة، كان النبي ﷺ يخرج منه إلى ذي الحليفة ليبيت بها، وإذا رجع بات بها أيضًا ودخل على طريق المعرّس: بفتح الراء المثقلة وبالمهملتين، وهو مكان معروف أيضًا، وكلّ من الشجرة والمعرّس على ستة أميال من المدينة لكن المعرّس أقرب.

وقال ياقوت: المعرّس: بالضم ثم الفتح، وتشديد الراء وفتحها: مسجد ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة، كان رسول الله ﷺ يعرّس فيه، ثم يرحل لغزاة أو غيرها، والتعريس نومة المسافر بعد إدلاجه من الليل، فإذا كان وقت السّحر أناخ ونام نومة خفيفة ثم يثور مع انفجار الصبح لوجهه.

قال المراغي: روينا في مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذي الحليفة أهلّ فقال: (لبيك) وأتمها، والأولى أنْ لا يتعدى الحاج في نزوله المسجد المذكور وما حوله من القبلة والغرب والشام بل يحرص على أن لا يبعد عن النزول حول المسجد، وكثير من الحجاج يتجاوزون ما حول المسجد إلى جهة الغرب ويصعدون في البيداء فيتجاوزون الميقات (بيقين) وتحصل الإساءة.

قال ابن عمر رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من حج أو عمرة وكان بذي الحليفة هبط بطن الوادي (وادي العقيق) وإذا ظهر من بطن

الوادي أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية عرّس ثمّ حتى يصبح فيصلّي الصبح ليس عند المسجد الذي هناك ولا على الأكمة التي عليها المسجد، كان ثمّ خليج يصلي عنده عبد الله في بطنه كثيب كان رسول الله ﷺ يصلّي ثم فدحا السيل فيه بالبطحاء حتى دفن ذلك المكان الذي كان عبد الله يصلّي فيه.

قلت: وقد تقدّم في رسم (ذي الحليفة) ورسم (طريق الشجرة) مزيد من الإيضاح لهذا الطريق الذي كان رسول الله ﷺ يدخل المدينة منه في عودته إليها من سفر حج أو عمرة أو غيره.

وقد أصبح ذو الحليفة في هذا العهد يسمى (أبيار علي) وهو ميقات الإحرام لأهل المدينة ولمن أتى عليها من غير أهلها لحجّ أو عمرة.

طفيل: بفتح الطاء المهملة وفاء موحدة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره لام: جبل في أسفل مكة.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول:

كـل امـرىء مـصـبـح فـي أهـلـه
والـمـوت أدنـى مـن شـراك نـعـلـه

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا لـيـت شعـري هـل أبيتـن لـيـلـة
بـوادٍ وحـولـي إذخـر وجـلـيـلُ
وهـل أردن يـومـا مـيـاه مـجـنّـة
وهـل يـبـدون لـي شـامـة وطـفـيـلُ

قال الفاكهي: شامة وطفيل: جبلان خارجان عن مكة على نحو من ثلاثين ميلاً من مكة.

قال عرّام: يتّصل بهرشى خبت، في وسطه جبيل صغير أسود شديد السّواد يقال له: طفيل.

قلت: هذا الجبيل الذي ذكره عرّام في خبت هرشى لم أر له ذكرًا غير ما قاله عرّام، ويلحظ أن هرشى بعيدة في الشمال بين مكة والمدينة عن موقع طفيل الذي يذكر مقرونًا بشامة، وهو الذي نتحدّث عنه.

وقال ياقوت: طفيل بفتح أوله وكسر ثانيه وآخره لام، من الطفل بالتحريك، وهو بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب كأنّ هذا الجبل كان يحجب الشمس فصار بمنزلة مغيبها، فعيل بمعنى فاعل، مثل سليم بمعنى سالم، وعليم بمعنى عالم. وشامة وطفيل جبلان على نحو عشرة فراسخ من مكة.

وقال الخطابي: كنت أحسبهما جبلين حتى تبيّنت أنهما عينان، قال ياقوت: فإن كانتا عينين فتأويله أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول مثل: قتيل بمعنى مقتول، فيكون هناك يحجب عنهما الشمس فكأنهما مطفولان، والمشهور أنهما جبلان مشرفان على مجنة على بريد من مكة. وقال أبو عمر: قيل إنّ أحدهما بجدّة، ولهما ذكر في شعر بلال. وقال الأصمعي في (كتاب الجزيرة): ورخّم ما لبني ما الدؤل خاصة، وهو بجبل يقال له طفيل، وشامة جبيل بجنب طفيل.

قلت: قول ياقوت: مشرفان على مجنّة على بريد من مكة غير صحيح؛ لأنّ طفيلاً وشامة واقعان في الجنوب الغربي من مكة على بعد (٧٥) كيلاً، أما مجنّة فإنّه يقع شرق مكة.

وقال عاتق البلادي: طفيل حرّة في تهامة جنوب غربي مكة مشرفة على السّاحل، بين وادي السّعديّة ووادي الأبيار عند مفيضهما في الساحل، فيها وادي طفيل يزرع فيه الحبحب عثريًا، ولحبحبه شهرة في مكة وطعمه لذيذ، أهلها الجحادلة من بني شعبة، يجاورها شمالاً جبل شامة الذي قرن بلال معها في

شعره، تبعد قرابة (٧٥) كيلاً على الجانب الغربي من طريق اليمن المعبّد.

وقال حمد الجاسر: وبعد ما يتجاوز حجّاج اليمن الإحرام المعروف قديمًا باسم يلملم، وحديثًا باسم السّعدية ولملم، عندما يتجاوزون محلّ الإحرام يسهّلون في خبت واسع يشاهدون منه على يسارهم جبلاً صغيرًا في الخبت يدعى طفيلاً، بينه وبين البحر جبل أسود شامخ يسمّى (شامة) رسم في الخريطة حرّة شمّا خطأ.

قال محمد بن بليهد: تعليقًا على شعر بلال رضي الله عنه: شامة وطفيل في تهامة، بين الليث وجدّة، جبيلات لم تتغيّر أسماؤها إلى هذا العهد.

وقال في موضع آخر من كتابه تعليقًا على ما ذكر ياقوت في تحديد طفيل: لقد اطّلعت على هذه الروايات وتضاربها واختلافها، وإذا أردت الاطّلاع على صحة خبرها وتحديد موقعها فهو في الخبت من تهامة، بين جدة ومحيرمة، وبين البحر وسلسلة الجبال... وهما: جبلان متقابلان، أحدهما مما يلي مطلع الشمس، والآخر ممايلي مغربها، فأمّا طفيل فهو جبيل له سنام وفيه أبارق، وأما شامة فهي قطعة حرّة سوداء.

قلت: وفيما ذكر في الموضعين شيء من الاختلاف، ولم يفهم منه تحديد واضح لهذين الجبلين، وبما أنّ هذين الجبلين ما زالا معروفين باسميهما فإن بقاءهما على ذلك يسهّل معرفة موقعهما في تهامة، بين مكة وبين السّعيدة، الموضع الذي يحرم منه حاجّ اليمن.

الطور: بالطاء المهملة وسكون الواو وآخره راء مهملة: جبل اختلف في تحديده، كما يأتي.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٦٣].

وروى البخاري بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أوّل مَنْ يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور.

قال ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٦٣]. وأمّا (الطور) فإنه الجبل في كلام العرب، ومنه قول العجّاج:

دانـي جنـاحـيـه مـن الـطـور فـمـرّ
تـقـضّـي الـبـازي إذا الـبـازي كـسـر

وقيل: إنه اسم جبل بعينه، وذكر أنه الجبل الذي ناجى عليه موسى.

وقيل: إنه من الجبال ما أنبت دون ما لم ينبت.

وروى بسنده عن مجاهد قال: رفع الجبل فوقكم كالسحابة، فقيل لهم: لتؤمننّ أو ليقعنّ عليكم فآمنوا.

والجبل بالسريانيّة الطور

وروى بسنده عن قتادة: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٦٣] قال: الطور الجبل.

اقتلعه فرفعه فوقهم، فقال: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧١] فأقرّوا بذلك.

وبسنده عن عكرمة قال: الطور الجبل.

وبسنده عن ابن زيد: الجبل بالسريانيّة الطور.

وقال آخرون: (الطور) اسم للجبل الذي ناجى الله موسى عليه.

وبسنده عن ابن عباس: الطور الجبل الذي أنزلت عليه التوراة - يعني على موسى - وكانت بنو إسرائيل أسفل منه.

وقال آخرون: الطور من الجبال ما أنبت خاصة.
وبسنده عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: (الطور) قال: الطور من الجبال ما أنبت، وما لم ينبت فليس بطور.
قال ابن كثير: الطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار مثل الذي كلّم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى، ومالم يكن فيه شجر لا يسمّى طورًا، وإنّما يقال له جبل.
قال القرطبي: واختلف في الطور، فقيل: الطور اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره، وروى ابن جريج عن ابن عباس. وروى الضحّاك عنه أن الطور ما أنبت من الجبال خاصة دون ما لم ينبت، وقال مجاهد وقتادة: أي جبل كان. إلا أن مجاهد قال: هو اسم لكل جبل بالسريانيّة، وقاله أبو العالية.
وقال القرطبي في موضع آخر من تفسيره: الطور اسم الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، أقسم الله به تشريفًا له وتكريمًا وتذكيرًا لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنّة. وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل ابن أويس قال: حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة أجبل من جبال الجنّة وأربعة أنهار من أنهار الجنّة، وأربعة ملاحم من ملاحم الجنّة» قيل: فما الأجبل؟ قال: «جبل أحد يحبّنا ونحبّه والطور جبل من جبال الجنّة، ولبنان جبل من جبال الجنّة، والجوديّ جبل من جبال الجنّة» وذكر الحديث.
قال مجاهد: الطور بالسريانيّة: الجبل، والمراد به طور سيناء. وقاله السدّي، وقال مقاتل ابن حيّان: هما طوران يقال لأحدهما طور سيناء والآخر طور زيتا؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون، وقيل هو جبل بمدين واسمه زبير، قال الجوهري: والزّبيري الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام.
قال القرطبي: ومدين الأرض المقدّسة وهي قرية شعيب عليه السلام.
وطور سيناء من أرض الشام وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام، قاله ابن عباس وغيره.. وقال ابن زيد: هو جبل بيت المقدس ممدود من مصر إلى أيلة، واختلف في سيناء، فقال قتادة: معناه الحسن، وقال مجاهد: معناه: مبارك. وقال معمر عن فرقة: معناه شجر، وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول جبل أحد.
وقال البكري: الطور: جبل بيت المقدس، ممتد ما بين مصر وأيلة، سُمّي بطور ابن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وهو الذي نودي منه موسى، قال تعالى: ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [سورة القصص، الآية: ٤٦]، وهو طور سيناء قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٢٠]. **وقال** تعالى ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [سورة التين، الآيتان: ١ و٢]، ومعناهما واحد.
قال أبو الفدا: جبل الطور من اللغة العبرانية اسم لكل جبل، ثم صار علمًا لجبال بعينها: منها طور زيتا أيضًا: جبل بالقدس، وطور جبل بعينه مطل على طبرية، وطور سيناء: اختلفوا فيه فقيل: هو جبل بقرب أيلة، وقيل: جبل بالشام، وقيل: سيناء حجارته وقيل شجر فيه، وطور هارون: علم لجبل عالٍ مشرف في قبلة القدس، قُبر هارون في رأسه.
وقال أيضًا: ومن بلاد مصر الطور وهو فرضة أهله، وبها سوق ويقصدها التجار وهي بين القلزم وبين أيلة، وعلى مرحلة من الطور المذكور طور سيناء، وهو دير كبير هناك،

وجبال الطور داخلة في بحر القلزم حتى يصير بين الطور وبين بر مصر البحر، وعلى طرف لسان البحر الداخل بين الطور وبين بلاد مصر مدينة القلزم.

الجبل.. وقيل سمّي طورًا بطور بن إسماعيل عليه السلام ويقال لجميع بلاد الشام الطور. وقال أهل السير: سُمّيت بطور بن إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام، وكان يملكها فنسبت إليه. وذكر بعض العلماء أن الطور هذا الجبل المشرف على نابلس ولهذا يحجّه السّامرة.. والطور: جبل بعينه مطل عل طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ. والطور أيضًا جبل عند كورة تشتمل على عدّة قرى تعرف بهذا الاسم بأرض مصر القبلية وبالقرب منها جبل فاران، هذا ما بلغنا في الطور غير مضاف.

وطور زيتا: بلفظ الزيت من الأدهان وفي آخره ألف: علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور، على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر ولذلك سُمّي طور زيتًا.

وطور سيناء: بكسر السين ويروى بفتحها، وهو فيهما ممدود، قال الليث: طور سيناء جبل، وقال أبو إسحاق: قيل إن سيناء حجارة، والله أعلم.

وهو جبل بقرب أيلة، وعنده بليد فُتح في زمن النبي ﷺ سنة تسع صلحًا على أربعين دينارًا، ثم فورقوا على دينار كل رجل فكانوا ثلاثمائة رجل، وقال الجوهري: طور سينين، قال الأخفش: السينين شجر واحدتها سينينة، قال: وقرىء سيناء وسِيناء بالفتح والكسر، والفتح أجود في النحو؛ لأنه بني على فعلاء، والكسر رديء في النحو؛ لأنه ليس في أبنية العرب فعلاء ممدود مكسور الأول غير مصروف إلا أن تجعله أعجميا.

قلت: وبما تقدّم يتبيّن أن الطور اسم مشترك، يشترك فيه عدد من الأمكنة، وقد اختلف العلماء في أيّ هذه الأمكنة عنى بالآيات الكريمة من القرآن، غير أنهم لم يختلفوا في أنّ الطور، وطور سيناء، وطور سينين، جبل واحد، ويفهم من أقوال العلماء أن هذا الجبل واقع في بلاد الشام، أو فيما بينها وبين مصر.

طوى: بضم الطاء المهملة بعدها واو مفتوحة وآخره ألف مقصورة: وادٍ في بلاد الشام.

قال البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [سورة طه، الآية: ١٢]: قال ابن عباس: المقدّس المبارك، طوى اسم الوادي.

قال ابن كثير: طوى، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو اسم للوادي، وكذا قال غير واحد.

وقال القرطبي: طوى: اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وقال الضحاك: هو واد عميق مستدير مثل الطّويّ، وقرأ عكرمة: طوى، والباقون طُوى، قال الجوهري: طوى: اسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة، ومَنْ لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة، طوى مرتين أي قدّس.

وقال البكري: طوى: بضم أوله وكسره، مقصورة: اسم وادٍ في أصل الطّور بالشام، وهو المذكور في التنزيل، وقيل: بل طوى: جبل هناك، قال أبو عمر الزاهد: سئل محمد بن زيد، وأنا أسمع عن طوى اسم واد أيصرف؟ قال: نعم؛ لأن إحدى العلّتين قد انخرمت عنه، وبالتنوين قرأ الكوفيون وابن عامر.

وقال ياقوت: طوى: اسم أعجمي للوادي، المذكور في القرآن الكريم، يجوز فيه أربعة أوجه: طوى بضم أوله بغير تنوين وبتنوين، فمن نوّن فهو اسم الوادي وهو مذكر على فُعل نحو حطم وصرد ومَنْ لم ينوّنه ترك صرفه من جهتين إحداهما أن يكون معدولاً عن طاو فيصير كعمر المعدول عن عامر فلا ينصرف كما لا ينصرف عمر، والجهة الأخرى أن يكون اسما للبقعة كما قال: في البقعة المباركة من الشجرة، ويقرأ بالكسر مثل معي وطلي فينوّن، ومَنْ ينوّن جعله اسما للمبالغة، وسئل المبرّد عن وادٍ يقال له طوى أتصرفه فقال: نعم؛ لأن إحدى العلّتين قد انخرمت عنه، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو طوى، وقرأ الكسائي وحمزة وعاصم وابن عامر طوى منوّنًا في السورتين.

وقال بعضهم: وطوّى وطِوى بمعنى وهو الشيء المثنى، ومنه قول عدي بن زيد:

أعاذل إن اللوم في غير كنهه
علي طوى من غيّك المتردد

ويروى بالكسر والضم يعني: أنك تلومني مرة بعد مرة، فكأنك تطوي غيك عليّ مرة بعد مرة..

وقوله عزّ وجلّ: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [سورة طه، الآية: ١٢] أي طوى أي: قدّس، وقال الحسن بن أبي الحسن: ثنّيت فيه البركة والتقديس مرّتين، فعلى هذا ليس إلا صرفه: وهو موضع بالشام عند الطور.

قلت: هذا ما ذكره العلماء في ضبط وتحديد موقعه - ويرى اختلاف بينهم في ضبط كلمة طوى وتحديد موقعه - ويرى اختلاف بينهم في ضبط كلمة طوى وفي إعرابها - غير أنهم لم يختلفوا في تحديد موقعه في بلاد الشام.

وذو طوى موضع في مكة سبق الحديث عنه مستوفى في رسمه.

باب الظاء

ظفار (أظفار): أوله ظاء معجمة مفتوحة بعدها فاء موحدة بعد الفاء ألف وآخره راء مهملة: مدينة في اليمن شمال مدينة صنعاء.

وروى البخاري بسنده عن عائشة ﵂ في حديث الإفك قالت: حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلمّا قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

وروى البخاري بسنده عن عائشة ﵂ في حديث الإفك قالت: حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلمّا قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه.

قلت: هكذا ورد في روايات في البخاري في مواضع أخرى: ظفار وأظفار.

قال ابن حجر: أظفار: قال ابن التين صوابه ظفار، كذا قال، ولم أر هذا في هذه الرواية لكن حكاه صاحب (المشارق) ووجهه بأنه منسوب إلى ظفار مدينة معروفة بسواحل اليمن، وحكى في ضبط ظفار وجهين كسر أوله وصرفه، أو فتحه والبناء بوزن قطام، ووقع في رواية مسلم في هذا الوجه (أظفار).

قال ياقوت: ظفار: بفتح أوله والبناء على الكسر، بمنزلة قطام وحذام وقد أعربه قوم، وهو بمعنى أظفر أو معدول عن ظافر: وهي مدينة باليمن في موضعين إحداهما قرب صنعاء وهي التي ينسب إليها الجزع الظفاري وبها مسكن ملوك حمير، وفيها قيل: مَنْ دخل ظفار حمّر. قال الأصمعي: دخل رجل من العرب على ملك من ملوك حمير وهو على سطح له مشرف فقال له الملك: ثب، فوثب فتكسّر.

فقال الملك: ليس عندنا عربيت، مَنْ دخل ظفار حمّر.

قوله: ثب أي: اقعد بلغة حمير، وقوله: عربيت يريد: العربية فوقف على الهاء بالتاء، وهي لغة حمير أيضًا في الوقف.

ووجد على أركان سور ظفار مكتوبًا: لمن ملك ظفار، لحمير سيحار، أي يرجع إلى اليمن، وقد قال بعضهم: إن ظفار هي صنعاء نفسها، ولعل هذا كان قديمًا.

فأما ظفار المشهورة اليوم فليست إلا مدينة على ساحل بحر الهند، بينها وبين مرباط خمسة فراسخ، وهي من أعمال الشّحر وقريبة من صحار بينها وبين مرباط.

وحدّث رجل من أهل مرباط أنّ مرباط فيها المرسى، وظفار لا مرسى بها، وقال لي: إن

اللّبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار، وهو غلّة لسلطانها، وإنه شجر ينبت في تلك المواضع مسيرة ثلاثة أيام في مثلها، وعنده بادية كبيرة نازلة ويجتنبه أهل تلك البادية وذاك أنهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار، فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم قسطهم، ولا يقدرون أن يحملوه إلى غير ظفار أبدًا وإن بلغه عن أحد منهم أنه يحمله إلى غير بلده أهلكه.

قال البكري: ظفار: بفتح أوله وآخره راء مهملة مكسورة، مبني على الكسر، قاله أبو بكر عن أبي عبيدة: مدينة باليمن، هذا قول أبي عبيدة. وقال غيره سبيلها سبيل المؤنث لا تنصرف، والحجّة لهذا القول قول الفند الزماني:

إنّما قحطان فينا حطب
ونزار في بني قحطان نار
فارجعوا منّا فلولاً واهربوا
عائذين ليس تنجيكم ظفار

والجزع الظفاري منسوب إلى هذا البلد، قال الشاعر:

أوابد كالجزع الظفاري أربع
حماهن جون الطرّتين مولّع

وقال المرقّش الأصغر:

تحلين ياقوتًا وشذرًا وصيغة
وجزعًا ظفاريًا دُرّا توائما

قال: والجزع النّقميّ أيضًا نفيس: وللجزع أيضًا معادن بظهر وسعوان وعذيقة مخلاف خولان، والجزع السّماريّ هو العشاريّ من وادي عشار، والعقيق الجيّد من الهان، ومن شهارة، جبل بالمغرب من ديار همدان، قال: والبلّور في كلّ هذه المواضع... وقصر المملكة بظفار قصر ذي ريدان. ويقال إن الجن بنت غمدان وظفار وسلحين وبينون وصرواح. وقال امرؤ القيس في ريدان:

وأبرهة الذي زالت قواه
على ريدان إذ حان الزّوال

وقال الفرزدق:

وعندي من المعزى تلاد كأنّها
ظفارية الجزع الذي في الترائب

وفي حديث الإفك: (فانقطع عقد لها من جزع ظفار، فحبس الناس ابتغاء عقدها).

قال الحميري في (الروض المعطار): ظفار مدينة باليمن، وهو اسم مبني على الكسر قاله أبو عبيدة، وقيل سبيلها سبيل المؤنث لا ينصرف... وهو قصبة اليمن وقاعدة ملوك حمير في الزمن الأقدم وبها كان نزولهم، ملكها من حمير سبعة وثلاثون ملكًا.. وآخر ملوكهم معدي كرب، كان ملكه إلى أن قتلته حرابته من الحبشة أربع سنين.

وهي الآن خراب قد تهدّم بناؤها، وقلّ ساكنها، وإنما بها الآن بقايا من أهلها، وهي على ثلاث مراحل من مأرب.

قلت: هذه هي مدينة ظفار الواقعة في شماليّ اليمن، شمال مدينة صنعاء، وقد رسمت على خريطة اليمن الجغرافية، ووضعت عليها علامة المناطق الأثرية. أمّا ظفار التي في جنوب اليمن فإنه جاء فيما رواه البخاري بسنده عن أم عطيّة قالت: وقد رخّص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من محيضها في نبذة من كست أظفار.

قال ابن حجر: كذا في هذه الرواية، قال ابن التين صوابه: قسط ظفار. ووجهه بأنه منسوب، أظفار مدينة معروفة بسواحل اليمن يجلب إليها القسط الهندي.

قال في (المشارق): القسط بخور معروف، وقال صاحب (العين): الكُسْت بضم الكاف وسكون المهملة بعدها مثناة هو القسط.

قلت: وبهذا يتبيّن أن كلتا المدينتين ورد ذكرهما في الحديث الشريف في صحيح البخاري. وكلتاهما مشهورتان في تاريخ اليمن وأخباره.

باب العين

العراق: بكسر العين المهملة بعدها راء مهملة ثم ألف وآخره قاف مثناة: قطر معروف بهذا الاسم قديمًا وفي هذا العهد.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسلمة قال: قرأت على مالك بن شهاب أنّ عمر ابن عبد العزيز أخّر الصلاة يومًا، فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخّر الصلاة يومًا، وهو بالعراق فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة أليس قد علمت أن جبريل صلوات الله وسلامه عليه نزل فصلّى فصلّى رسول الله ﷺ، وذكر الحديث.

قال ابن حجر: في الموطأ رواية القعنبي وغيره عن مالك: وهو بالكوفة، وكذا أخرجه الإسماعيلي عن أبي خليفة عن القعنبي، والكوفة من العراق، فالتعبير بها أخص من التعبير بالعراق، وكان المغيرة إذ ذاك أميرًا عليها من قِبَل معاوية بن أبي سفيان.

وقال ياقوت: العراق: مياه لبني سعد ابن مالك وبني مازن. والعراق أيضًا: محلّة كبيرة عظيمة بمدينة إخميم بمصر.

فأما العراق المشهور فهي بلاد. والعراقان: الكوفة والبصرة، سُمّيت بذلك من عراق القربة وهو الخرز المثنّى الذي في أسفلها، أي: أنها أسفل أرض العرب، وقال أبو قاسم الزجّاجيّ: قال ابن الأعرابي: سُمّي عراقًا لأنه سفل عن نجد، ودنا من البحر، أخذ من عراق القربة، وهو الخرز الذي في أسفلها، وأنشد:

تكشّري مثل عراق الشّنّة

وأنشد أيضًا:

لمّا رأين دردري وسنّي
وجبهتي مثل عراق الشّن
مت عليهنّ ومتن منّي

قال: ولا يكون عراقها إلا أسفلها من قربة أو مزادة، قال: وقال غيره: العراق في كلامهم الطير قالوا: وهو جمع عرقة، والعرقة ضرب من الطير، ويقال البحر وفيه سباخ وشجر، يقال: استعرقت إبلهم إذا أتت ذلك الموضع. وقال الخليل: العراق شاطىء البحر، وسُمّي العراق عراقًا؛ لأنه على شاطىء دجلة والفرات مدّا حتى يتصل بالبحر على طوله، قال: وهو مشبه بعراق القربة وهو الذي يثنى منها فيخرز.

وقال الأصمعي: هو معرب عن إيران شهر، وفيه بعد عن لفظه وإن كانت العرب قد تتغلغل في التعريب بما هو مثل ذلك، ويقال: بل هو مأخوذ من عروق الشجر والعراق: من منابت الشجر كأنه جمع عرق، وقال سمر: قال أبو عمرو سمّيت العراق عراقًا لقربها من البحر، قال: وأهل الحجاز يسمّون ما كان قريبًا من البحر عراقًا، وقال أبو صخر الهذلي يصف سحابًا.

سنا لوحه لمّا استقلّت عروضه
وأحيا ببرق في تهامة واصبِ
فجرّ على سيف العراق ففرشه
وأعلام ذي قوس بأدهم ساكبِ
فلمّا علا سود البصاق كفافه
تهب الذّرى فيه بدهم مقاربِ
تجلّل ذا عير ووالى رهامه
وعن مخمص الحجّاج ليس بناكبِ
فحلّت عراة بين نقرى ومنشد
وبعّج كلف الحنتم المتراكبِ
ليروي صدى داود واللحد دونه
وليس صدى تحت التراب بشاربِ

فهذا لم يرد العراق الذي هو علم لأرض بابل، بل إنّما هو يصف الحجاز وهذه المواضع كلّها بالحجاز، فأراد أن هذا السّحاب خرج من البحر يعني: بحر القلزم، ومرّ بسيف ذاك البحر وسمّاه عراقًا اسم جنس، ثم وصف كلّ شيء مرّ به من جبال الحجاز حتى سقى قبر ابنه داود، وقد صرّح بذلك مليح الهذلي فقال:

تربّعت الرياض رياض عمق
وحيث تضجّع الهطل الجرورُ
مساحلة عراق البحر حتى
رفعن كأنما هنّ القصورُ

وقال حمزة في (الموازنة): وواسطة مملكة الفرس العراق، والعراق تعريب إيراف، بالفاء ومعناه مغيض الماء وحدور المياه، وذلك أن دجلة والفرات وتامرًا تنصب من نواحي أرمينية وبند من بنود الروم إلى أرض العراق، وبها يقرّ قرارها فتسقى بقاعها، وكانت دارا الملك من أرض العراق، إحداهما عبر دجلة، والأخرى عبر الفرات وهما: بافيل وطوسفون، فعرّب بافيل على بابل وعلى بابلون أيضًا، وطوسفون على طيسفون وطيسفونج، وقيل: سُمّيت بذلك لاستواء أرضها حين خلت من جبال تعلو أودية تنخفض.

وأمّا حدّه فاختلف فيه، قال بعضهم: العراق هو السّواد، وذهب آخرون فيما ذكر المدائني فقالوا: حدّه حفر أبي موسى من نجد وما سفل عن ذلك يقال له العراق، وقال قوم: العراق الطور والجزيرة والعبر، والطور، ما بين ساتيدما إلى دجلة والفرات ـ وذكر أقوالاً كثيرة في تحديد أرض العراق، وختم الأقوال بقوله: والعراق هي بابل فقط.

هذا بعض ما ذكره ياقوت عن العراق القطر العربي المعروف.

قلت: وقد تم فتح العراق في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ، وبما أن العراق قطر عربي معروف تقوم به دولة عربية، وقد أُلّفت عنه كتب خاصة بتاريخه، وصُممّت له خرائط جغرافية خاصة به، فإنني أكتفي بما تقدّم من الحديث عنه، وشهرته تغنى عن الإطالة في وصفه.

العرج: بعين مهملة مفتوحة بعدها راء مهملة ساكنة وآخره جيم معجمة: موضع على الطريق بين مكة والمدينة.

جاء فيما رواه **البخاري** في صحيحه عن نافع أن ابن عمر حدّثه أن النبي ﷺ صلّى في طرف تلعة من وراء العرج وأنت ذاهب إلى هضبة عند ذلك المسجد.

وقال ابن حجر: العرج: بفتح المهملة وسكون الراء بعدها جيم: قرية جامعة بينها وبين الرويثة ثلاثة عشر أو أربعة عشر ميلاً.

قال الحربي: ومن العرج إلى الطلوب أحد عشر ميلاً، ومن الطلوب إلى السقيا ستة أميال، فمن العرج إلى السقيا سبعة عشر

ميلاً، وبالعرج آبار كثيرة، وبه قبر المعيدي على مقدار نصف ميل من العرج، وعنده مسجد وبئر وحوض ماء. والمنبجس في أدنى العرج فيه عين ربّما كان فيه ماء، وهو عن يسار الطريق في شعب بين الجبلين، وعلى ثلاثة أميال من العرج.

وقال ياقوت: العرج: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وجيم، قال ابن الكلبي: لمّا رجع تبّع من قتال أهل المدينة يريد مكة رأى دواب تعرج فسماها العرج، وقيل لكثيّر: لِمَ سمّيت العرج عرجًا؟ قال: يعرج به عن الطريق، وهي قرية جامعة في وادٍ من نواحي الطائف إليها ينسب العرجي الشاعر وهو عبد الله ابن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهي أول تهامة، وبينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلاً، وهي في بلاد هذيل، ولذلك يقول أبو ذؤيب:

هم رجعوا بالعرج والقوم شهّد
هوازن تحدوها حماة بطارق

وقال الأصمعي في كتاب (جزيرة العرب) وذكر نواحي الطائف: وادٍ يقال له النخب، وهو من الطائف على ساعة، وواد يقال له العرج، قال: وهو غير العرج الذي بين مكة والمدينة، والعرج عقبة بين مكة والمدينة على جادّة الحاج، تذكر مع السقيا.

قلت: فيما تقدم نجد أنهم خلطوا بين موضعين: العرج الذي بين مكة والمدينة وهو الموضع الذي نحن بصدد الحديث عنه، والعرج الذي في ناحية الطائف.

قال البكري: العَرْج: بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده جيم: قرية جامعة على طريق مكة من المدينة، بينها وبين الرويثة أربعة عشر ميلاً، وبين الرويثة والمدينة واحد وعشرون فرسخًا، ووادي العرج يدعى المنبجس فيه عين عن يسار الطريق في شعب بين جبلين، وعلى ثلاثة أميال منها مسجد النبي ﷺ يدعى مسجد العرج... ومن العرج إلى السقيا سبعة عشر ميلاً، والعرج من بلاد أسلم.

وقال الواقدي في خبر غزوة الفتح: فلمّا نزل رسول الله ﷺ العرج، والناس لا يدرون أين توجّه رسول الله ﷺ، إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف، فهم يحبّون أن يعلموا، فجلس في أصحابه بالعرج وهو يتحدّث فقال كعب بن مالك: آتي رسول الله ﷺ فأعلم لكم علم وجهه. فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه، ثم قال:

قضينا من تهامة كلّ ريب
وخيبر ثم أجمعنا السّيوفا
نسائلها ولو نطقت لقالت
قواطعهنّ دوسا أو ثقيفا
فلست لحاضر إن لم تروها
بساحة داركم منّا ألوفا
فننتزع الخيام ببطن وجّ
ونترك دورهم منها خلوفا

أنشدنيها أيوب بن النعمان، عن أبيه قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك.

قلت: ممّا تقدّم يتبيّن أن العرج من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها عدد من الأمكنة، غير أنّ أشهر هذه الأمكنة هما: العرج الواقع على الطريق بين مكة والمدينة، والعرج الواقع قريبًا من الطائف.

وقد وصف عاتق البلادي هذين الموضعين أثناء زيارته لهما وصفًا جغرافيًا قال فيه وهو يصف العرج الواقع بين مكة والمدينة: العرج وادٍ من أودية الحجاز الغربية متعدّد الروافد، قليل الزراعة، يسيل من جبال شرف الأثاية، حيث يقطعه طريق الحاج القديم من رأسه، ثم ينحدر غربًا فيسمّى الملف، وكانت السيارات

في أول عهدها تأخذه، ويمرّ الملف بين سلسلتين جبليتين ثافل الأكبر من الجنوب، وفعرى من الشمال، فإذا تجاوز هذه الجبال توسّع الوادي وبعدت عنه الجبال نوعًا ما فسمّي (غيقة) وفيه بئار ابن حصاني، ثم ينحدر فيضيق مرّة ثانية عند مروره بين جبل (كراش) وقوز حسنى، ثم يدفع في الخبت بطرف صحراء البزواء من الشمال. . . وسكان العرج صبح من بني سالم من حرب، ويسمّى في هذا العهد وادي النظيم.

وعرج الطائف هو وادي وجّ إذا تجاوز الطائف، وانحدر بين جبل دمة وجبال الحمى، سُمّي بالعرج حتى يصير في بلاد عدوان عند جبال مدسوس، ثم يسمّى وادي الأخيضر لقرية هناك بهذا الاسم، ثم يدفع سيله مع شرب في المبعوث.

والعرج أيضًا: وادٍ كبير يسيل من الشمال الشرقي من مهد الذهب، فينحدر غربًا حتى يلائم سيل الشعبة فينتهي ماؤهما إلى المدينة المنورة عن طريق الخنق وقناة.

قلت: وهذا الوادي ما زال معروفًا باسمه، وكذلك وادي الشعبة.

والعرج أيضًا: وادٍ من نواحي الليث، فيه زراعة وقرى آهلة بالسكان، وله إمارة وشرطة وفيه مدارس ومساجد.

قلت: وبهذا يتبيّن أن العرج اسم لأمكنة متعدّدة غير أن العرج الذي ورد ذكره في الحديث الشريف والسيرة النبوية هو العرج الواقع بين مكة والمدينة.

العرصة: بعين مهملة مفتوحة وراء ساكنة مهملة بعدها صاد مهملة مفتوحة وآخره هاء: وهي كل جوبة متّسعة ليس بها بناء.

روى البخاري بسنده عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طويّ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال.

قلت: العرصة في هذا الحديث الشريف اسم جنس وليست اسم مكان معيّن، والعرصة اسم لمكان معروف في المدينة، ويحسن هنا أن أتحدث بإيجاز عن عرصتي المدينة.

قال ياقوت: عَرْصة: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وصاد مهملة: وهما عرصتان بعقيق المدينة، قال الأصمعي: كل جوبة متّسعة ليس فيها بناء فهي عرصة، وقال غيره: العرصة ساحة الدار سُمّيت لاعتراض الصبيان فيها أي: للعبهم فيها، وقال: إن تبّعا مرّ بالعرصة وكانت تسمى السليل فقال: هذه عرصة الأرض، فسمّيت العرصة، كأنه أراد ملعب الأرض أو ساحة الأرض، والعرصتان: بالعقيق من نواحي المدينة من أفضل بقاعها وأكرم أصقاعها.

ذكر محمد بن عبد العزيز الزهري عن أبيه أن بني أميّة كانوا يمنعون البناء في العرصة عرصة العقيق ضناً بها، وأن سلطان المدينة لم يكن يقطع بها قطيعة إلا بأمر الخليفة.

وقال البكري: العرصة: بفتح أوله، على لفظ عرصة الدار، وهو على ثلاثة أميال من المدينة، وهناك كان قصر سعيد بن العاصي ابن سعيد بن العاصي، وفيه مات، وهو القصر الذي عنى أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بقوله:

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جيرون

قال المراغي: ونقل ابن زبالة أن رسول الله ﷺ قال: نِعْم المنزلة العرصة لولا كثرة الهوام.

وبسند الزبير قال: خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى العرصة من ناحية العقيق فلمّا رآها قال: لو علمنا هذه أولاً لكانت المنزل.
وقد رووا أن بني أميّة كانوا يمنعون البناء في العرصة ضنّاً بها، وكان نخلها أبكر شيء بالمدينة، وكانت تسمى عرصة الماء، وأن سلطان المدينة لم يكن يقطع بها قطيعة إلا بإذن الخليفة.
قلت: والعرصتان كانا موضعين معروفين بعقيق المدينة، غير أن العمران قد امتدّ إليها فلم يعودا موضعين خاليين، بل أصبحا ضمن أحياء المدينة، وقد رسم موقعهما على خريطة المدينة التي أعدّها عبد القدوس الأنصاري ووضعها في كتابه (آثار المدينة المنورة).

عرفات (عرفة): أوله عين مهملة مفتوحة بعدها راء مهملة مفتوحة ثم فاء موحدة بعدها ألف وآخره تاء مثناة: مكان الوقوف في الحج.
ورد في القرآن الكريم بصيغة الجمع، وورد في الأحاديث بصيغة المفرد والجمع. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٨].
وروى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله، فقال: الصلاة، أمامك، فركب فلمّا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلّى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله.
قال ابن جرير: واختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله قيل لعرفات: (عرفات) فقال بعضهم: قيل لها ذلك من أجل أن إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه، لمّا رآها عرفها بنعتها الذي كان لها عنده، فقال: قد عرفت. فسمّيت عرفات بذلك.
وروى بسنده عن السدّي قال: لما أذن إبراهيم في الناس بالحجّ فأجابوه بالتلبية، وأتاه مَنْ أتاه، أمره الله أن يخرج إلى عرفات فخرج فلمّا بلغ الشجرة عند العقبة، استقبله الشيطان يردّه، فرماه وكبّر، فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبّر. فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز، فلذلك سمّي: (ذا المجاز).
ثم انطلق حتى وقع بعرفات، فلمّا نظر إليها عرف النعت، قال: (قد عرفت) فسمّي: (عرفات). فوقف إبراهيم بعرفات، حتى إذا أمسى أزلف إلى جمع، فسمّيت: (المزدلفة)، فوقف بجمع.
قال ابن كثير: إنّما صرف عرفات وإن كان علمًا على مؤنث؛ لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سُمّي به بقعة معيّنة فروعي فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير وعرّفه: موضع الوقوف في الحج وهي عمدة أفعال الحج.
قال ياقوت: عرفات: بالتحريك، وهو واحد في لفظ الجمع، قال الأخفش: إنما صرف؛ لأنَّ التاء صارت بمنزلة الياء والواو في مسلمين، لا أنه تذكيره، وصار التنوين بمنزلة النون فلمّا سُمّي به ترك على حاله، وكذلك القول في أذرعات وعانات.
وقال الفرّاء: عرفات لا واحد لها بصحة، وقول الناس اليوم يوم عرفة مولّد ليس بعربي محض.
والذي يدل على ما قاله الفرّاء أن عرفة وعرفات اسم لموضع واحد، ولو كان جمعًا لم يكن لمسمّى واحد ويحسن أن يقال: إن كل موضع منها اسم عرفة ثم جمع ولم يتنكر

لما قلنا إنها متقاربة مجتمعة فكأنها مع الجمع شيء واحد.

وقيل: إن الاسم جمع والمسمّى مفرد فلم يتنكّر، والفصيح في عرفات وأذرعات الصرف، قال امرؤ القيس.

تنورتها من أذرعات

وإنما صرفت لأن التاء فيها لم تخصّص للتأنيث بل هي أيضًا للجمع فاستبهت التاء... وعرفة وعرفات واحد عند أكثر أهل العلم وليس كما قال بعضهم إن عرفة مولّد، وعرفة حدّها من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفة، وقرية عرفة: موصل النخل بعد ذلك بميلين، وقيل في سبب تسميتها بعرفة إن جبرائيل عليه السلام، عرّف إبراهيم عليه السلام المناسك، فلمّا وقفه بعرفة قال له: عرفت؟ قال: نعم فسمّيت عرفة، ويقال: بل سُمّيت بذلك لأن آدم وحواء تعارفا بها بعد نزولهما من الجنة، ويقال: إن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف، وقيل: بل سُمّي بالصبر على ما يكابدون في الوصول إليها؛ لأن العرف الصبر، قال الشاعر:

قل لابن قيس أخي الرقيات
ما أحسن العرف في المصيبات

وقال ابن عباس: حدّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة، وقال البشاري: عرفة قرية فيها مزارع وخضر ومطابخ، وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطىء، وبها سقايات وحياض وعَلَم قد بني يقف عنده الإمام.

قلت: وبما أن عرفات مكان له شهرة إسلامية ومكانة في نفوس جميع المسلمين، وأنّ موقعه معروف ومحدّد يقف به المسلمون في كل عام في حجّهم، وأن العلماء قد حدّدوا هذا المكان وكثرت المؤلفات التي تحدّده وتصفه، وتتحدّث عن فضله وما يتعلّق به من أحكام الحج، فإنني أكتفي بما تقدّم؛ لأنَّ مقامنا لا يتّسع لذكر ما قاله العلماء عن هذا المكان الطاهر، وبالله التوفيق.

العرم (السدّ): بعين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وآخره ميم، والسدّ المقصود به سدّ مأرب.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سورة سبأ، الآية: ١٦].

قال البخاري: قال مجاهد: العرم السدّ ماء أحمر أرسله الله في السدّ، فشقّه وهدّمه وحفر الوادي ولم يكن الماء أحمر من السدّ ولكن عذابًا أرسله الله عليهم من حيث شاء.

روى ابن جرير بسنده عن وهب بن منبّه اليماني قال: لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيًا، فكذّبوهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ يقول تعالى ذكره: فثقبنا عليهم حين أعرضوا عن تصديق رسلنا سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول. والعرم: المسناة التي يحبس الماء، واحدها: عرمة، وإيّاه عنى الأعشى بقوله:

ففي ذاك للمؤتسي أسوة
ومأرب عفّى عليه العرم
رجام بنته لهم حمير
إلى جاء ماؤهم لم يرم

وكان العرم فيما ذكر مما بنته بلقيس:

وروى بسنده عن أبي ميسرة في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.

قال: المسناة بلحن اليمن.

وبسنده عن مجاهد في قوله: ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ قال: شديد. وقيل: إن العرم: اسم واد كان لهؤلاء القوم.

وبسنده عن قتادة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ ذكر لنا أن سيل العرم وادٍ كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتّى، فعمدوا فسدّوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة، وجعلوا عليه أبوابًا، وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه، ويسدّون عنهم ما لم يعنوا به من مائه.

وبسنده عن ابن عباس، قوله: ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ يقول: الشديد، وكان السبب الذي سبّب الله لإرسال ذلك السيل عليهم فيما ذكر لي جرذاً ابتعثه الله على سدّهم فثقّب فيه ثقبًا.

قال ابن كثير: وكان من أمر السدّ أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدّا عظيمًا محكمًا حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، كما ذكر غير واحد من السلف ـ منهم قتادة ـ أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف؛ لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السدّ بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسدّ مأرب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: المراد بالعرم: المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الجرذ، وقيل الماء الغزير. . وذكر غير واحد ـ منهم ابن عباس ووهب بن منبّه وقتادة والضحّاك ـ أن الله عزّ وجلّ لمّا أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السدّ دابّة من الأرض، يقال لها: الجرذ نقبته، قال وهب ابن منبّه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذه السدّ هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السّنانير برهة من الزمان، فلمّا جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت إلى السدّ فنقبته فانهار عليهم.

وقال قتادة وغيره: الجرذ هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى، وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرّب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطّمت.

وقال السهلي: كان هذا السدّ من بناء سبأ ابن يشجب بن يعرب، وكان ساق إليه سبعين واديًا، ومات قبل أن يستتمّه فأتمّه ملوك حمير بعده.

وقال المسعودي: بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخاً، وجعل له ثلاثين مثقبًا.

وقال الأعشى:

وفي ذاك للمؤتسي أسوة
ومأرب عفّى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير
إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها
على سعة ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادي ما يقدرو
ن منه على شرب طفل فطم

وقال القزويني: مأرب: كورة بين حضرموت وصنعاء، لم يبق بها عامرًا إلا ثلاث قرى يسمّونها الدروب، كل قرية منسوبة إلى قبيلة من اليمن، وهم يزرعون على الماء الذي جاء من ناحية السدّ، يسقون أرضهم سقية واحدة، ويزرعون عليه ثلاث مرّات في كل عام،

فيكون بين زرع الشعير وحصاده في ذلك الموضع نحو شهرين، وكان بها سيل العرم الذي جرى ذكره في سبأ.

وذكروا أن مياه جبالها تجتمع هناك وسيول كثيرة، ولها مخرج واحد، فالأوائل قد سدّوا ذلك المخرج بسدّ محكم، وجعلوا لها مثاعب يأخذون منها قدر الحاجة، فاجتمعت المياه بطول الزمان وصار بحرًا عظيمًا خارج السدّ، وداخله عمارات وبساتين ومزارع، فسلّط الله الجرذ على السدّ يحفره بأنيابه ويقلعه بمخاليبه حتى لم يبق إلا ما كان على رؤوس الجبال، وذهبت الحدائق والجنان والضياع والقصور، وجاء السيل بالرمل فطمّها، وهي على ذلك إلى اليوم كما أخبره الله ﷻ فجعلهم الله أحاديث، ومزّقهم كلّ ممزّق.

وتحدّث ياقوت عن مأرب وعن سد مأرب حديثًا طويلاً، لا يتّسع مقامنا هذا لذكره، وما فيه عن السدّ لا يخرج عمّا تقدّم في هذا من أقوال العلماء.

قلت: هذا هو سدّ مأرب، الواقع في بلاد سبأ، وقد قصّ الله خبر هذا السدّ وما حلّ به من الدّمار، وما جرى لأهل تلك البلاد من التمزّق والتفرّق في البلاد، عبرةً للمعتبرين وعظةً للمتعظين، والآيات التي تقصّ خبرهم في سورة (سبأ).

عسفان: بضم العين المهملة وسكون السين المهملة وفاء موحدة بعدها ألف وآخره نون موحدة: بلدة على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن سعيد بن المسيّب قال: اختلف عليّ وعثمان رضي الله عنهما وهما بعسفان في المتعة، فقال: على ما تريد إلى أن تنهى عن أمر فعله النبي ﷺ، فلمّا رأى ذلك عليّ أهلّ بهما جميعًا.

قال الحربي: قال أبو إسحاق السكّري: عسفان لبني المصطلق من خزاعة، ومن عسفان إلى بطن مرّ ثلاثة وعشرون ميلاً، وبعسفان آبار كثيرة وعلى ميل منها عين لولد جعفر بن سليمان، وبها بركة في آخر عسفان، وغدير الأشطاط على ميلين ونصف من عسفان.

وعلى اثني عشر ميلا من عسفان موضع يقال له وادي الكراع، فيه آبار وفيه بئر القريتين.. وعسفان إلى جنابذ بني صيفي تسعة عشر ميلاً، وقبل ذلك بميل بئر ضبيع وقبله بئر القرشي.

قال ياقوت: عُسْفان بضم أوله وسكون ثانيه ثم فاء، وآخره نون، فعلان من عسفت المفازة وهو يعسفها وهو: قطعها بلا هداية ولا قصد، قال: سُمّيت عسفان لتعسف السيل منها، قال أبو منصور: عسفان منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. وقال غيره: عسفان بين المسجدين وهي من مكة على مرحلتين، وقيل: عسفان قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكة وهي حدّ تهامة، ومن عسفان إلى ملل يقال له الساحل، وملل على ليلة من المدينة وهي لخزاعة ثم البحر، وتذهب عند الجبال الغرف.

وقال السكري: عسفان على مرحلتين من مكة على طريق المدينة والجحفة على ثلاث مراحل، غزا النبي ﷺ بني لحيان بعسفان وقد مضى لهجرته خمس سنين وشهران وأحد عشر يومًا، وقال أعرابي:

لقد ذكرتني من حباب حمامة
بعسفان أهلي في الفؤاد حزين
فويحك كم ذكرتي اليوم أرضنا
لعلّ حمامي بالحجاز يكون

فواللّه لا أنساك ما هبّت الصبا
وما اخضرّ من عود الأراك فنون

وقال البكري: عُسْفان بضم أوله وإسكان ثانيه: قرية جامعة وهي لبني المصطلق من خزاعة، وهي كثيرة الآبار والحياض. وروى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ، صلّى صلاة الخوف بين عسفان وضجنان. وروى جابر أنَّ النبي ﷺ. كان بعسفان والمشركون بينهم وبين القبلة، فصلّى بهم صلاة الخوف.

وروى عطاء عن ابن عباس قال: حاضرو المسجد الحرام عسفان وضجنان ومرّ الظهران. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: لمّا افتتح رسول الله ﷺ مكّة صام حتّى أتى عسفان ثم أفطر. وروى نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ مرّ في عسفان بوادي المجذّمين، فأسرع المشي، وقال ابن مقبل في قتل عثمان.

فعسفان إلا أن كلّ ثنيّة
بعسفان يأويها مع الليل مقنب

وقال الواقدي في خبر غزوة بني لحيان: حدّثني عبد الملك بن وهب أبو الحسن الأسلمي، عن عطاء بن أبي مروان، قال: خرج رسول الله ﷺ لهلال ربيع الأول سنة ستّ فبلغ غرّان وعسفان، وغاب أربع عشرة ليلة.

حدّثني معمر عن الزّهري عن ابن كعب ابن مالك، وحدّثني يحيى بن عبد الله ابن أبي قتادة، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما قد حدّثني، وقد زاد أحدهما على صاحبه، قالوا: وجد رسول الله ﷺ على عاصم بن ثابت وأصحابه وجدًا شديدًا، فخرج في مائتي رجل ومعه عشرون فرسًا في أصحابه فنزل بمضرب القبّة من ناحية الجرف، فعسكر في أول نهاره وهو يظهر أنه يريد الشام، ثم راح مبرّدًا فمرّ على غرابات ثم على بيّن حتى خرج على صخيرات الثمام، فلقي الطريق هناك، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غرّان حيث كان مصابهم فترحّم عليهم وقال: هنيئًا لكم الشهادة، فسمعت بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال فلم نقدر منهم على أحد، فأقام يومًا أو يومين وبعث السّرايا في كلّ ناحية، فلم يقدروا على أحد ثم خرج حتى عسفان.

وقال عرّام: عسفان على ظهر الطريق لخزاعة خاصة، بها منبر ونخيل ومزارع كثيرة.

وقد وصف عاتق البلادي عسفان وصفًا جغرافيًا قال فيه: عسفان بلدة عامرة تقع شمال مكة على ثمانين كيلاً على المحجّة إلى المدينة، على التقاء وادي فيدة بوادي الصّغو، فيها آبار عذبة قديمة مجصّصة ومرقبة.

وفي عسفان مركز إمارة تابع لمرّ الظهران، سكانها بشر من بني عمرو من حرب، ورئيس المركز ابن حماديّ أمير بشر، ويتبعها من الأنحاء فيدة، والصّغو، وشاميّة بن حمادي، والغولاء.

ويشرف عليها من جميع نواحيها حرار سود، وتخرج منها ثلاث طرق: إلى المدينة يأخذ ثنيّة غزال إلى خليص، وإلى مكة على الصغو فضجنان، وإلى جدّة يخرج جنوبًا غربيًا، وتعدّ عسفان عقدة مواصلات هامة ومنهلًا من مناهل البادية، وزراعتها قليلة، وقيل إن ماءها غزير، وفي الفترة الأخيرة حفر الأهلون بئارًا خرج ماؤها غزيرًا عذبًا، فكثر زرعها على ضيق في الأرض.

قلت: هذه هي عسفان التي ورد ذكرها في السنّة وفي السّير، ما زالت باقية على اسمها معروفة به، عامرة بالسكان، تابعة لإمارة مكة.

العقبة: بفتح العين المهملة والقاف المثناة والباء الموحدة وآخره هاء:

مرمى الجمرة الكبرى بمنى

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أسامة بن زيد كان ردف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى قال: فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة.

قال ياقوت: عقبة: بالتحريك، وهو الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه، وهو طويل صعب إلى صعود الجبل.

والعقبة التي بويع فيها النبي ﷺ بمكة، عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين، وعندها مسجد ومنها ترمى جمرة العقبة، وكان من حديثها أن النبي ﷺ كان في بدء أمره يوافي الموسم بسوق عكاظ وسوق المجاز ومجنّة، ويتتبّع القبائل في رحالها يدعوهم إلى أن يمنعوه ليبلّغ رسالات ربّه فلا يجد أحدًا ينصره، حتى إذا كانت سنة إحدى عشرة من النبوة لقي ستة نفر من الأوس عند هذه العقبة فدعاهم ﷺ إلى الإسلام، وعرض عليهم أن يمنعوه فقالوا: هذا والله النبي الذي تعدنا به اليهود يجدونه مكتوبًا في توراتهم فآمنوا به وصدّقوه... وانصرفوا إلى المدينة، وذكروا أمر رسول الله ﷺ فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام، ثم لمّا كانت سنة اثنتي عشرة من النبوة وافى الموسم منهم اثنا عشر رجلاً هؤلاء الستة وستة آخرون. فلمّا كانت سنة ثلاث عشرة من النبوة أتى منهم سبعون رجلاً وامرأتان... فإذا رأيت من الأنصار مَنْ يقال له بدريّ فهو منسوب إلى أنّه شهد مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، وإذا قيل عقبّي فهو منسوب إلى مبايعة النبي ﷺ في هذا المكان.

قلت: هذا بعض مايخص عقبة الجمرة الكبرى في منى، وبما أن هذا الموضع ما زال معروفًا بهذا الاسم عند جميع المسلمين، وأنّه من المشاعر المقدسة التي يرتادها المسلمون كل عام، وأنّ هذه المشاعر قد حدّدها علماء المسلمين ووصفوها وأطالوا في الحديث عنها بما لا يتّسع له مقامنا هذا، فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنها، وقد تقدّم في رسم الجمرة شيء من الإيضاح فانظره.

وقد تغيّر كثير من معالم هذه العقبة وما حولها بسبب الإصلاحات التي تقوم بها الدولة السعودية الثالثة بين حين وآخر، لتيسير رمي الجمرات، وتسهيل عبور الحجّاج حولها.

والعقبة من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها أكثر من مكان، وقد ذكر ياقوت بعضًا من هذه الأمكنة فقال:

العقبة: في طريق مكة بعد واقصة وقبل القاع لمن يريد مكة، وهو ماء لبني عكرمة من بكر بن وائل.

عقبة السّير: بالثغور قرب الحدث وهي عقبة ضيّقة طويلة.

والعقبة وراء نهر عيسى قريبة من دجلة بغداد محلّة، ينسب إليها عدد من المحدّثين.

وعقبة الرّكاب قرب نهاوند، قال سيف: لمّا توجّه المسلمون إلى نهاوند وقد ازدحمت ركابهم في هذه العقبة سمّوها عقبة الركاب.

عُكاظ: أوله عين مهملة مضمومة بعدها كاف وآخره ظاء معجمة:

مكان يقع شمالاً شرقيًا عن مدينة الطائف

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت

عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب.

قال ياقوت: عُكاظ: بضم أوله وآخره ظاء معجمة، قال السّهيلي: سمّى عكاظ عكاظاً؛ لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضًا بالفخار أي: يدعك، وعكظ فلان خصمه باللّدد والحجج عكظا. وقال غيره: عكظ الرجل دابته يعكظها عكظًا إذا حبسها، وتعكظ القوم تعكّظا إذا تحبّسوا ينظرون في أمورهم، قال: وبه سُمّيت عكاظ.

وحكى السهيلي: كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا ويقال: عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة، فسمّيت عكاظ لذلك.

وعكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاخرون فيها، ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوه من الشعر ثم يتفرّقون.

قال الأصمعي: عكاظ نخل في وادٍ بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الأثيداء، وبه كانت أيام الفجار، وكانت هناك صخور يطوفون بها ويحجّون إليها.

قال الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف وذو المجاز، خلف عرفة ومجنّة بمرّ الظهران، وهذه أسواق قريش والعرب، ولم يكن فيه أعظم من عكاظ، قالوا: كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنّة فتقيم فيها عشرين يومًا من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه أيام الحج.

قلت: وقد كتب المتأخرون بحوثًا تحدّثوا فيها عن موقع سوق عكاظ على ضوء ما قاله المتقدّمون، أورد خلاصة هذه البحوث علي حافظ في كتاب صدر مطبوعًا ضمن سلسلة المكتبة الصغيرة، يمثّل الرقم الثامن عشر منها قال فيه:

اختلفت الروايات التي حاولت تعيين موقع سوق عكاظ، ولكن ما استقرّ عليه رأي السيد رشدي ملحس، وابن بليهد في عكاظ: أنها كانت متنقلة على أرض تمتد من جنوب عشيرة إلى السيل الصغير والحويّة.

وكتب حمد الجاسر بحثًا مستفيضًا عن موضع سوق عكاظ فذكر في البحث أقوال المتقدّمين والمتأخرين وأورد ما له صلة من أرجوزة الرداعي بالأسماء والأماكن التي وصف فيها طريقه لعكاظ، وقال: إن الأقوال تتلخّص بأن موقع عكاظ في أعلى نجد وليس في تهامة، ولا في الحجاز، ولا في اليمن، ولذلك عدّه ابن خرداذبة في كتاب (المسالك) وابن رستة في (الأعلاق النفيسة)، والبكري في (معجم ما استعجم) من مخاليف مكة النجدية.

وقال: إن جميع الأوصاف المتقدّمة تنطبق انطباقًا تامًا على الأرض الواسعة في شرق الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيفة به، وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة (٣٥) كيلاً تقريبًا، ويحدّها غربًا جبال بلاد بني عدوان ـ العقرب، شرب العبيلاء ـ وشرقًا صحراء ركبة، وشمالاً طرف ركبة والجبال الواقعة شرق وادي قرّان، وتشمل هذه الأرض، وادي الأخيضر، وهو المعروف قديمًا بوادي عكاظ، ووادي شرب حينما يفيضان في الصحراء، ويخرجان من الجبال وما بينهما من الأرض، وما اتّصل بهما من طرف ركبة.

غير أنَّ علي حافظ قال: وأعتقد أن عكاظ كانت متنقلة في هذه الأراضي الواسعة التي يشملها التحديدان، كما حقّق الأستاذ ملحس وابن بليهد.

قلت: هذا بعض ما ذكره المؤرخون من الأقوال الكثيرة في تحديد موقع سوق عكاظ، وهذا السوق من الأسواق التي تقام في الجاهلية، وتعرض فيها الأشعار والخطب، وتظهر فيها المفاخرات، وتشرب فيها الخمور، وكثيرًا ما تتبارى فيها العصبيات القبلية وتظهر النخوات الجاهلية وتنتهي بحروب، فلمّا جاء الإسلام أبطل هذه الأسواق، وأبطل ما كان يقوم فيها من مظاهر الجاهلية فاندرست آثارها واختفت معالمها، واختلف الباحثون في تحديد مواقعها دون أن يصلوا إلى اتّفاق فيما قالوه.

العوالي (العالية): بالعين المهملة المفتوحة بعدها واو وبعد الواو ألف ولام آخره ياء مثناة، جمع عال: حيّ من أحياء المدينة، يقع في الجنوب الشرقي منها.

روى البخاري بسنده عن عمر قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أميّة بن زيد وهي من عوالي المدينة، وكنّا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك.

وروى بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسّنح، قال إسماعيل: يعني بالعالية.

قال ياقوت: العوالي: بالفتح، وهو جمع العالي ضد السافل: وهو ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال، وقيل ثلاثة، وذلك أدناها وأبعدها ثمانية.

قال الواقدي في خبر غزوة الخندق: كان رجال من أهل العوالي يطلعون إلى أهليهم، فيقول لهم رسول الله ﷺ: «إني أخاف عليكم بني قريظة، فإذا ألحّوا في كثرة ما يستأذنونه يقول: «مَنْ ذهب منكم فيأخذ سلاحه فإنّي لا آمن بني قريظة هم على طريقكم»، وكان كل مَنْ يذهب منهم إنّما يسلكون على سلع حتى يدخل المدينة، ثم يذهبون إلى العالية.

قال المراغي: وذكر أنه صلَّىٰ ﷺ في مسجد بني أميّة بن زيد، بالعوالي في الكباء، عند مال نهيك بن أبي نهيك، ويقال إن دارهم شرقي دار بني الحارث بن الخزرج، وفيهم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه نازلاً بامرأته الأنصارية أم عاصم بنت ـ أو أخت ـ عاصم ابن ثابت ابن أبي الأقلح كما في الصحيح.

قال السمهودي: والمعروف أن ما كان في جهة قبلة المدينة على ميل أو ميلين فأكثر من المسجد النبوي فهو عالية المدينة، وقال عياض: والعوالي من المدينة على أربعة أميال، وقيل: ثلاثة أميال وهذا حدّ أدناها، وأبعدها ثمانية أميال.

قلت: وظاهر الأحاديث أنّ عوالي المدينة يشمل قباء وما حولها من الأحياء، وبما أن هذه الجهة من المدينة ما زالت معروفة باسمها (العوالي)، وقد رسمت على خرائط المدينة الجغرافية بهذا الاسم فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عن تحديد هذا المكان.

عير (عائر): بعين مهملة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره راء مهملة: جبل في المدينة معروف.

روى البخاري بسنده عن إبراهيم التّيميّ عن أبيه قال: خطبنا عليّ فقال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله وما في هذه الصحيفة،

فقال: فيها الجراحات وأسنان الإبل، والمدينة حرام ما بين عير إلى كذا.

وورد في بعض روايات الحديث: (عائر) بعين مهملة بعدها ألف وبعد الألف همزة مكسورة وآخره راء.

وقال المراغي: وروي عن أنس ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: لمّا تجلّى الله لجبل طور سيناء تشظى منه شظايا فنزلت بمكة ثلاث: حراء وثبير وثور، وبالمدينة أُحد، وعير، وورقان، ونقل رزين أيضًا: رضوى وهو على أربعة برد من المدينة.

فأُحد هذا المعروف، وعير يقابله من قبلة المدينة وهي بينهما، وورقان قبلي شعب علي ﷺ ما بين الشعب والرّوحاء إلى القبلة.

وقال ياقوت: عَيْر: بفتح أوله، وسكون ثانيه بلفظ حمار الوحش، وذكر لي بعض أهل الحجاز أنَّ بالمدينة جبلين، يقال لأحدهما: عير الوارد، والآخر عير الصادر، وهما متقاربان، وفي الحديث أن النبي ﷺ حرّم ما بين عير إلى ثور وهما جبلان: عير بالمدينة وثور بمكة وهذه رواية لا معنى لها؛ لأن ذلك بإجماعهم غير محرم.

وقال السمهودي: عير بالفتح وسكون المثناة تحت آخره راء: اسم للجبل الذي في قبلة المدينة شرقي العقيق، وفوقه جبل آخر يسمّى باسمه، ويقال له عير الصادر، وللأول عير الوارد، ولهذا قال الزبير في أودية العقيق: ثم شعار الحمراء والغراة وعيرين، قال: وفي عيرين يقول الأحوص:

أقوت رواوة من أسماء فالجمدُ
فالنّعف فالسّفح من عيرين فالسّندُ

وقال الهجري: إن سيل العقيق يفضي لثنية الشريد، ثم قال ويحفّ الثنية شرقيًا عير الوارد، وغربيًا جبل يقال له: الفراة، ثم يفضي إلى الشجرة التي بها المحرم وقال: إن عرارًا وعيرًا جبلان أحمران.

وقال عبد القدوس الأنصاري: عير وثور هما اسما جبلين من جبال المدينة أولهما: عظيم شامخ، يقع بجنوبي المدينة على مسافة ساعتين عنها تقريبًا بسير الأقدام غير المستعجل.

وثانيهما: أحمر صغير يقع شمال أحد، ويحدّان حرم المدينة جنوبًا وشمالاً. وقد صعدت إلى أعلى جبل عير في أحد شهور عام ١٣٤٧هـ فإذا هو منبسط فسيح بارد تخفق فيه الرياح مع أن الموسم كان صيفًا.

قلت: ممّا تقدّم يتّضح أن عيرًا جبل بالمدينة معروف واقع في ناحيتها الجنوبية وأنه مازال معروفًا باسمه.

وبما أن هذا الجبل ما زال معروفًا باسمه هذا قديمًا وفي هذا العهد، وقد ورد له ذكر كثير من الأحاديث الشريفة وفي السّير والأخبار، وأنه يمثّل الحد الجنوبي لحرم المدينة وأن له شهرة، وقد رسم على خرائط المدينة، الجغرافية، فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنه، وفي شهرته ما يغني عن الإطالة في الحديث عنه.

عين التمر: بعين مفتوحة وياء مثناة ساكنة وآخره نون موحدة، على لفظ العين المبصرة: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.

وروى البخاري بسنده عن أنس ابن سيرين قال: استقبلنا أنسًا حين قدم من الشأم، فلقيناه بعين التمر فرأيته يصلّي على حمار، ووجهه من ذا الجانب يعني: عن يسار القبلة.

قال ابن حجر: عين التمر: هو موضع بطريق العراق مما يلي الشام، وكانت به وقعة شهيرة في آخر خلافة أبي بكر بين خالد بن الوليد

والأعاجم، ووجد بها غلمانًا من العرب كانوا رهنًا تحت يد كسرى منهم جدّ الكلبي المفسّر، وحمران مولى عثمان، وسيرين مولى أنس.

وقال ياقوت: عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثًا، منها يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جدًا، وهي على طرف البرية وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ للهجرة، وكان فتحها عنوةً فسبى نساءها وقتل رجالها، فمن ذلك السبي والدة محمد ابن سيرين، وسيرين اسم أمّه، وحمران بن أبان مولى عثمان بن عفان، فيه يقول عبيد الله ابن الحرّ الجعفي في وقعة كانت بينه وبين أصحاب مصعب:

ألا هل أتى الفتيان بالمصر أنني
أسرت بعين التمر أروع ماجدا
وفرّقت بين الخيل لمّا تواقفت
بطعن امرىء قد قام مَنْ كان قاعدا

وقال البلاذري: أتى خالد عين التمر فألصق بحصنها، فحصرهم خالد والمسلمون حتى سألوا الأمان، فأبى أن يؤمنهم، وافتتح عنوة وقتل وسبى، ووجد في كنيسة هناك جماعة سباهم، فكان من ذلك السبي حمران ابن أبان، وكان للمسيّب بن نجبة الفزاري فاشتراه منه فأعتقه، وسيرين أبو محمد ابن سيرين واخواته وهم موالي أنس بن مالك الأنصاري، وكان من ذلك السبي أيضًا أبو عمرة جدّ عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر، ويسار جدّ محمد بن إسحاق صاحب السيرة، وهو مولى قيس بن مخرمة بن المطّلب ابن عبد مناف.

وقيل: إن خالدًا صالح أهل حصن عين التمر، وأن هذا السبي وجد في كنيسة ببعض الطسوج.

وعن الشعبي قال: صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة وأهل عين التمر، وكتب بذلك إلى أبي بكر فأجازه.

وذكر البلاذري عددًا من السبي غير ما تقدّم، وذكر بعض مَنْ أُصيب فيها من المسلمين.

قلت: هذه هي عين التمر التي ورد ذكرها في الحديث الشريف، وعين من الأسماء المشتركة التي تسمّى بها أمكنة متعدّدة، غير أن ماكان منها يذكر مضافًا إلى ما يميّزه عن غيره من الأسماء، وقد ذكر ياقوت عددًا من هذه الأسماء المضافة مثل: عين أباغ، وعين البقر، وعين جارة، وعين جمل، وعين ظبي، وغيرها من المواضع التي تسمى بهذا الاسم مضافة لتمييز بعضها عن بعض.

عَيْنين: بعين مهملة مفتوحة وياء مثناة ساكنة بعدها نون موحدة مفتوحة ثم ياء مثناة ساكنة وآخره نون، على لفظ مثنّى عين: اسم جبل بالمدينة بحيال جبل أحد.

روى البخاري بسنده عن عمرو بن أميّة الضمري قال: خرجت مع عبيد الله بن علي ابن الخيار، فلمّا قدمنا حمص قال لي عبيد الله بن علي: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة؟ قلت نعم: فجئنا وقفنا عليه فسلّمنا فردّ السلام ثم قال عبيد الله: ألا تخبرنا بقتل حمزة قال نعم إنّ حمزة قتل طعيمة ابن علي بن الخيار ببدر فقال لي مولاي جبير ابن مطعم إن قتلت حمزة بعمّي فأنت حرّ، قال فلمّا أنْ خرج الناس عام عينين، وعينين جبل بحيال أحد بينه وبينه وادٍ، خرجت مع الناس إلى القتال، فلمّا أن اصطفّوا للقتال خرج

سباع فقال: هل من مبارز قال فخرج إليه حمزة بن عبد المطّلب فقال: يا سباع يا ابن أمّ أنمار مقطّعة البظور أتحاد الله ورسوله ﷺ قال ثم شدّ عليه فكأنه كأمس الذاهب قال وكمنت لحمزة تحت صخرة فلمّا دنا منّي رميته بحربتي.

قال ابن حجر: عام عينين: أي سنة أحد، وقوله: عينين جبل بحيال أحد، أي من ناحية أحد، يقال فلان حِيال كذا بالمهملة المكسورة بعدها تحتانية خفيفة أي مقابله، وهو تفسير من بعض رواته. والسبب في نسبة وحشي العام إليه دون أحد أن قريشًا كانوا نزلوا عنده، قال ابن إسحاق: نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة.

وقال المراغي: وقبلي مشهد حمزة رضي الله عنه جبلٌ صغير يسمى عينين ـ بالعين المهملة المفتوحة وكسر النون الأولى ـ والوادي بينهما كان عليه الرّماة يوم أحد، وقيل: لأحد ذي عينين فكأنه لهذا، والله أعلم.

وقال المطري: وقبلي مشهد حمزة رضي الله عنه جبلٌ صغير يسمّى عينين ـ بالعين المعملة المفتوحة وبكسر النون الأولى ـ والوادي بينهما كان عليه الرّماة يوم أحد، عنده مسجدان، أحدهما مع ركنه الشرقي يقال: إنّه الموضع الذي طعن فيه حمزة رضي الله عنه . . . والمسجد الآخر شمالي هذا المسجد على شفير الوادي يقال: إنه مصرع حمزة رضي الله عنه، وأنّه مشى بطعنته إلى هناك فصرع رضي الله عنه .

وقال العباسي: عينان: تثنية العين اسم لجبل أحد، ويقال لجبلين عند أحد، وفي مغازي ابن إسحاق: وأقبلوا يعني المشركين حتى نزلوا بعينين ببطن السبخة من قناةٍ على شفير الوادي، ويقال: إنه مصرع حمزة رضي الله عنه، وأنّه مشى بطعنته إلى هناك فصرع.

وتحدّث ياقوت عن جبل عينين فقال: عينان: ثنية العين، وهو: هضبة جبل أحد، ويقال: جبلان عند أحد ويقال ليوم أحد يوم عينين، وفي حديث ابن عمر لمّا جاءه رجل يخاصمه في عثمان قال: وإنه فرّ يوم عينين، الحديث، وقيل: عينين جبل من جبال أحد بينهما وادٍ يسمّى عام أحد وعام عينين، كذا ذكره البخاري في حديث وحشي، وقيل: عينان جبل بأحد قام عليه إبليس ونادى أن رسول الله ﷺ قد قتل، وفي مغازي ابن إسحاق: وأقبل أبو سفيان بمن معه حتى نزلوا بعينين ببطن السبخة من قناةٍ على شفير الوادي مقابل المدينة.

وقال عبد القدوس الأنصاري: جبل عينين، أو جبل الرّماة: هو جبل صغير يغلب على لونه الاحمرار، يقع جنوبي ضريح سيّد الشهداء رضي الله عنه، ويفصل بينهما وادي قناة، وقد قستُ مسافة ما بينهما فإذا هي نحو ٦٢ مترًا.

وفي ركن الجبل الشرقي مسجد صغير مأثور، وهو مكشوف ومبني بالحجارة غير المنحوتة وبالجير طوله ٥ أمتار و٩٠ سنتيمترًا في عرض ٤أمتار و٤٠ سنتيمترًا، وارتفاع جداره ٧٠ سنتيمتراً، وتعلو الجبل اليوم في كل أماكنه بيوت وحوانيت لبعض أهل المدينة، وكان مصرع عم الرسول ﷺ في موضع المسجد المشار إليه آنفا. وتقول بعض الروايات إنّ النبي ﷺ صلّى في هذا الموضع، أمّا ضريحه الحالي فهو على ربوة يفصل بينها وبين جبل الرّماة وادي قناة. . . وقد وضع له سياج هو وقبر مصعب بن عمير ومن معهما مَن شهداء أحد وذلك لصيانتهما.

وعلى جبل عينين وضع النبي ﷺ ٥٠ راميا من أصحابه في غزوة أحد، وأمرهم بعدم التحرّك منه على أي حال.

ومن هذا جاءته التسمية بجبل الرّماة، وبهذا الاسم يعرف اليوم، ولست أدري ممّ اشتق اسم (عينين) اللّهم إلا إذا كان قد لوحظ في الاسم وجود عينين عنده.

وقال: في حاشيته: لعلّه سُمّي باسم: جبل عينين ـ تثنية عين ـ لوجود قنطرة عين كانت عنده، ولوجود عين الشهداء أيضًا عنده، وحينما اجتمعت لديه العينان المذكورتان سُمّي جبل عينين، وسُمّي جبل الرّماة لأن النبي ﷺ وضع فوقه الرّماة يوم أحد.

قلت: نرى فيما تقدّم اختلافًا بين المؤرخين في ضبط اسم (عينين)، وضبطه بعضهم بياءين بينهما نون موحدة مكسورة، وضبطه بعضهم بفتح النون الموحّدة، وأعربه آخرون إعراب المثنى، غير أنهم اتفقوا في وصفه وفي تحديد موقعه في المدينة، وهذا الجبل ما زال ـ كما تقدّم ـ يعرف باسمه هذا، وباسمه جبل الرّماة، وهو باسمه جبل الرّماة في هذا العهد أكثر شهرة، وهو مرسوم على خريطة المدينة باسمه جبل عينين.

عينين كالذي قبله قال ياقوت: وهو تثنية عين، ولكن بعضهم يتلفظ به على هذه الصيغة في جميع أحواله، قال الأزهري: عينين جبل أحد... قال أبو عبيدة في قول البعيث؛

ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ولم ننب في جدود عن الأسل

قال: أمّا يوم عينين بالبحرين فكانت بنو منقر بن عبد الله بن الحارث، والحارث هو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد، خرجوا ممتارين فعرضت لهم بنو عبد القيس فاستعانوا بني مجاشع فحموهم حتى استنقذوهم، وقال الحفصي: عينين بالبحرين، وأنشد:

يتبعن عودًا قاليا لعينين
راج وقد ملّ ثواء البحرين
ينسلّ منهنّ إذا تدانين
مثل انسلال الدمع مع جفن العين

وإليها يضاف خليد عينين الشاعر، وقال الراعي:

يحثّ بهنّ الحاديان كأنّما
يحثّان جبّارًا بعينين مكرعا

قال ثعلب: عينين مكان بشقّ البحرين به نخل، والمكرع: الذي يشرع في الماء.

قلت: عينين مدينة معروفة على ساحل الخليج العربي في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

وتحدّث حمد الجاسر عن مدينة عينين: حديثًا شاملاً أطال فيه، وجاء فيما قاله: وبلدة عينين كانت معروفة بهذا الاسم إلى منتصف القرن الماضي، حيث عرفت باسم الجبيل ـ لجبيل صغير كان بقربها ـ ثم لمّا ازداد عمرانها أزيل فشملت أرضه وما حولها منازل البلدة.

وتقع بلدة عينين (الجبيل) على ساحل الخليج العربي شمال القطيف... وفي شمالها رأس من البر داخل في البحر يدعى رأس (أبو علي) فيه جزائر صغيرة، وجنوب الجبيل موضع على الساحل يدعى الدوسرية، عثر فيه على آثار عمران قديم، يدل على أن المنطقة كانت معمورة.

وكانت عينين أشهر ميناء في شرق الجزيرة هي والعقير، إلا أن ميناء عينين كانت أقرب إلى وسط نجد، وأبعد عن الأماكن التي تنتشر فيها الحمّى في واحتي القطيف والأحساء، ولذلك كان ارتياد قوافل التجارة لها أكثر.

ثم ضعف أمر هذا الميناء بعد فتح الحجاز حيث حلّت جدّة محله لاتجاه الدولة إلى هذه الجهة، وازداد ضعفًا حين أنشئت موانىء في الخبر وفي رأس تنورة، ثم انشىء ميناء الدمام، أعظم الموانىء الشرقية، وبقيت عينين (الجبيل) بلدة نالت جانبًا من العمران يسيرًا؛ لقربها لحقول النفط ومعامله.

وفي العشر الموفية للقرن الماضي قرّرت الدولة الاهتمام بعمران الجبيل، بإقامة مصانع في هذه البلدة وبمد أنابيب للغاز منها إلى غرب المملكة، تصل إلى ميناء ينبع الواقعة على البحر الأحمر، فأنشىء في بلدة الجبيل كثير من المباني الضخمة المتعدّدة الأغراض، وخططت أرض المنطقة لإقامة ما يتطلبه المشروع الصناعي من مرافق ومنازل.

وفي شهر ذي القعدة سنة ١٣٩٧هـ قام الملك خالد بن عبد العزيز ـ حفظه الله بافتتاح أعمال التصنيع في بلدة الجبيل.

وبالإجمال فإن تلك البلدة التي كانت تعرف باسم (عينين) وأصبحت الآن مدينة تدعى الجبيل قد شملها العمران، كما عمّ غيرها من مدن المملكة، فاتّجهت إليها الأنظار، وتهافت عليها طلاب الثراء.

قلت: هذا بعض ما ذكره حمد الجاسر عن مدينة عينين، وشهرتها تغني عن الإطالة في الحديث عنها.

باب الغين

الغابة: بغين معجمة بعدها ألف وبعد الألف باء موحدة مفتوحة وآخره هاء: موضع في شمال المدينة.

روى البخاري بسنده عن أبي حازم قال: سألوا سهل بن سعد من أيّ شيء المنبر؟ فقال ما بقي بالناس أعلم مني هو من أثل الغابة عمله فلان مولى فلانة لرسول الله ﷺ.

قال ابن حجر: الغابة: بالمعجمة والموحّدة: موضع معروف من عوالي المدينة.

قال ياقوت: الغابة: الوطأة من الأرض التي دونها شرفة وهو الوهدة، وقال أبو جابر الأسدي: الغابة: الجمع من الناس، والغابة الشجر الملتف الذي ليس بمرتوب لاحتطاب الناس ومنافعهم، وهو موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة، وهو المذكور في حديث السباق: من الغابة إلى موضع كذا ومن أثل الغابة، وفي تركة الزبير اشتراها بمائة ألف وسبعين ألفًا، وبيعت في تركته بألف ألف وستمائة ألف، وقد صحّفه بعضهم فقال الغاية.

وقال الواقدي: الغابة بريد من المدينة على طريق الشام وصنع منبر رسول الله ﷺ من طرفاء الغابة. وروى محمد بن الضحاك عن أبيه قال: كان العباس بن عبد المطلب يقف على سلع فينادي غلمانه وهم بالغابة فيسمعهم وذاك من آخر الليل، وبين سلع والغابة ثمانية أميال.

وقال الواقدي في خبر غزوة الغابة: حدّثني عبد العزيز بن عقبة بن سلمة بن الأكوع عن إياس بن سلمة عن أبيه، قال: أغار عيينة ليلة الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ست، وغزونا مع رسول الله ﷺ في طلبه يوم الأربعاء فغبنا خمس ليال ورجعنا ليلة الاثنين، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أمّ مكتوم.

وحدّث بسنده عن يحيى بن عبد الله ابن أبي قتادة وعلي بن يزيد وغيرهم، قالوا: كانت لقاح رسول الله ﷺ عشرين لقحة، وكانت في الغابة تصيب من أثلها وطرفائها وتغدو في الشجر... فكان الراعي يؤوب بلبنها كلّ ليلة عند المغرب... قال: فكان سلمة بن الأكوع يقول: غدوت أريد الغابة للقاح رسول الله ﷺ لأبلغه لبنها حتى ألقى غلامًا لعبد الرحمٰن بن عوف كان في إبل لعبد الرحمٰن بن عوف، فأخطؤوا مكانها واهتدوا إلى لقاح رسول الله ﷺ، فأخبرني أن لقاح رسول الله ﷺ قد أغار عليها عيينة ابن حصن في أربعين فارسًا.

قال: سلمة: فأحضرت قوسي راجعًا إلى المدينة حتى وافيت على ثنيّة الوداع، فصرخت بأعلى صوتي: يا صباحاه ثلاثًا، أسمع من بين لابتيها، وخرج سلمة بن الأكوع على رجليه يعدو ليسبق الخيل مثل السبع قال سلمة: حتى لحقت القوم فجعلت أرميهم

بالنبل وأقول حين أرمي: خذها مني وأنا ابن الأكوع، فتكرّ عليّ خيل من خيلهم، فإذا وجّهت نحوي انطلقت هاربًا فأسبقها، وأعمد إلى المكان المعور فأشرف عليه وأرمي بالنبل إذا أمكنني الرمي وأقول:

خـــذهـــا وأنـــا ابـــن الأكـــوع
والـــيـــوم يـــوم الـــرضّـــع

فما زلت أكافحهم وأقول: قفوا قليلاً، يلحقهم أربابكم من المهاجرين والأنصار فيزدادون عليّ حنقًا فيكرّون عليّ فأعجزهم هربًا حتى انتهيت بهم إلى ذي قرد، ولحقنا رسول الله ﷺ والخيول عشاء... قال: وأقام رسول الله ﷺ بذي قرد يومًا وليلة يتحسّب الخبر وقسم في كل مائة من أصحابه جزورًا ينحرونها وكانوا خمسمائة ويقال كانوا سبعمائة قالوا: وأقام سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة خمس ليال حتى رجع النبي ﷺ، وبعث إلى النبي ﷺ بأحمال تمر وبعشرة جزائر بذي قرد.

وقتل في هذه الغزوة من المسلمين رجل واحد، وقتل من المشركين أربعة رجال. هذا بعض ما ذكره الواقدي في خبر غزوة الغابة. (غزوة ذي قرد).

وقال ابن هشام في خبر غزوة ذي قرد: أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، في خيل من غطفان على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة وفيها رجل من بني غفار وامرأة له فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح.

قال ابن إسحاق: كان أول مَنْ نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، غدا يريد الغابة، موشّحاً قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة ابن عبيد الله معه فرس له يقوده، حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف في ناحية سلع ثم صرخ: واصباحاه، ثم خرج يشتد في آثار القوم، وكان مثل السبع حتى لحق بالقوم فجعل يردّهم بالنبل ويقول إذا رمى:

خـــذهـــا وأنـــا ابـــن الأكـــوع
والـــيـــوم يـــوم الـــرضّـــع

قال: وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة الفزع الفزع، فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ.. فخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا.

قال ابن هشام: وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم... واستنقذوا بعض اللقاح، وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد، وتلاحق به الناس فنزل رسول الله ﷺ به، وأقام عليه يومًا وليلة فقسّم رسول الله ﷺ في أصحابه في كل مائة جزورًا، وأقاموا عليها ثم رجع رسول الله ﷺ قافلاً حتى قدم المدينة.

قلت: هذا بعض ما ذكره ابن هشام في خبر غزوة الغابة (غزوة ذي قرد).

قال العباسي: الغابة: بالموحّدة لم يزل معروفًا بأسفل سافلة المدينة من جهة الشام، وقد تكرّر ذكره في حديث السباق وغيره، ووهم مَنْ قال إنها من عوالي المدينة، كيف وهو مفيض أوديتها بعد مجتمع الأسايل ـ كما قال الزبير بن بكّار والهجري وغيره ـ الموطأة من الأرض التي دونها، والغابة: المجمع من الناس، والغابة: الشجر الملتف... وهي اسم موضع قرب المدينة على نحو بريد، وقيل: على ثمانية أميال من المدينة على نحو بريد من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة.

قال المجد: وفي زماننا ملاكها الأشراف بنو حسين لا يشاركهم في شيء منها غيرهم من العامّة اللّهم إلا نفر من غلمانهم، لهم فيها قسط معلوم قد ورثوا، وهذه الغابة المذكورة

في حديث السباق. . . من الغابة إلى موقع كذا، وصُنع منبر رسول الله ﷺ من طرفاء الغابة أو من أثل الغابة.

قلت: الغابة موضع مشهور في شمال المدينة وما زالت معروفة بهذا الاسم مرسومة به على خرائط المدينة الجغرافية، وشهرتها تغني عن الإطالة في الحديث عنها، أمّا القول بأنها في عوالي المدينة فإنه قول مخالف لما جاء في الأخبار، ومخالف للواقع الجغرافي لهذه البلاد.

غار ثور: بغين معجمة بعدها ألف وآخره راء، مضاف إلى ثور، بثاء مثلثة مفتوحة بعدها واو ساكنة وآخره راء مهملة: غار في جبل ثور الواقع في أسفل مكة.

قال الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة، الآية: ٤٠].

قال ابن جرير: قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، يقول إنَّ رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه في الغار. والغار النقب العظيم في الجبل.

وروى بسنده عن قتادة: وأما الغار فجبل بمكة يقال له: (ثور).

وقال القرطبي: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، الغار: ثقب في الجبل، يعني: غار ثور.

وجاء فيما **رواه البخاري** عن عائشة رضي الله عنها في هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، قالت: فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور فتواريا فيه فكان عامر بن فهيرة غلامًا لعبد الله بن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها، وكانت لأبي بكر منحة فكان يروح بها ويغدو عليهم. ا.هـ

قال الأزرقي: ثور: جبل بأسفل مكة على طريق عرنة فيه الغار الذي كان رسول الله ﷺ مختبيًا فيه هو وأبو بكر، وهو الذي أنزل الله سبحانه وتعالى فيه، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ ومنه هاجر النبي ﷺ وأبو بكر إلى المدينة. ا.هـ

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج - يعني من مكة إلى المدينة مهاجرًا - أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهارًا ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

قال ابن هشام: وحدّثني بعض أهل العلم، أن الحسن بن أبي الحسن البصري قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر قبل رسول الله ﷺ، فلمس الغار، لينظر فيه سبع أو حيّة، يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر رضي الله عنه . ا.هـ.

قال السهيلي: وهو غار في جبل ثور، وهو الجبل الذي ذكره في تحريم المدينة، وأنها حرام ما بين عير إلى ثور، وهو وهمٌ في الحديث؛ لأن ثورًا من جبال مكة، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين عير إلى كذا، كأن المحدّث قد نسي اسم المكان، فكنّى عنه بكذا.

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث أنّ رسول الله ﷺ ـ لمَّا دخل وأبو بكر معه أنبت الله على بابه الرّاءة: قال قاسم: وهي شجرة معروفة فحجبت عن الغار أعين الكفار.

وفي مسند البزّار: أن الله ﷻ أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقعتا على وجه الغار، وأن ذلك مما صدّ المشركين عنه.

وفي الصحيح عن أنس: قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ ـ وهما في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ: «ما ظنّك باثنين، الله ثالثهما»، وروى أيضًا أنه لمّا عمي عليهم الأثر جاؤوا بالقافة، فجعلوا يقفون الأثر، حتى انتهوا إلى باب الغار وقد أنبت الله عليه ما ذكرناه في الحديث قبل هذا، فعندما رأى أبو بكر رضي الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: «إن قتلتَ فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكتْ الأمة»، فعندها قال له رسول الله: «لا تحْزن إنّ الله معَنَا». ا.هـ.

قال ياقوت: ثور: بلفظ الثور فحل البقر: اسم جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى فيه النبي ﷺ: قال أبو طالب عمّ النبي ﷺ:

أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن
علينا بشر أو مخلّق باطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعينة
ومنْ مفتر في الدين ما لم يحاول
وثور ومن أرسى ثبيرًا مكانه
وعير وراق في حراء ونازل

وقال الجوهري: ثور جبل بمكة وفيه الغار المذكور في القرآن، يقال له أطحل، وقال الزمخشري: ثور أطحل من جبال مكة بالمفجر من خلف مكة على طريق اليمن...

وتحدث ابن جبير في رحلته عن جبل ثور في موضعين:

ـ الأول حدّد فيه الجبل وذكره باسم (أي ثور)، قال: ومن الجبال التي فيها أثر كريم، ومشهد عظيم الجبل المعروف بأبي ثور، وهو في الجهة اليمنية من مكة على مقدار فرسخ أو أزيد. وفيه الغار الذي أوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق رضي الله عنه، حسبما ذكر الله ﷻ في كتابه العزيز.

ـ وفي الموضع الثاني وصف الغار وذكره باسم (جبل ثور) وقال: وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال صعدنا إلى جبل ثور، لمعاينة الغار المبارك الذي أوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق، رضي الله عنه، حسبما جاء في محكم التنزيل العزيز، وصفته أولاً في هذا التقييد: وولجناه من الموضع الذي يعسر الولوج منه على البعض من الناس... لأن مدخل النبي ﷺ كان منه.

ـ وهذا الجبل صعب المرتقى جدًا يقطع الأنفاس تقطيعًا لا يكاد يبلغ منتهى إلا وقد ألقى بالأيدي إيعاء وكلالاً. وهو من مكة على مقدار ثلاثة أميال وطول الغار ثمانية عشر شبرًا وسعته أحد عشر شبرًا في الوسط منه أو في حافيته ثلثًا شبر وعلى الوسط منه يكون الدخول، وسعة الباب الثاني المتّسع مدخله خمسة أشبار أيضًا؛ لأن له بابين.

وفي مرآة الحرمين: وصف لجبل ثور وللغار قال مؤلفه: ولمّا بلغنا الغار وجدناه صخرة مجوّفة في قنّة الجبل، أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى، ولها فتحتان في مقدّمها واحدة وفي مؤخرها أخرى، وقد دخلت من الغربية زاحفًا على بطني مادًا ذراعي إلى الأمام، وخرجت من الشرقية التي تتّسع عن الأولى قليلاً... والفتحة الصغيرة عرضها

ثلاثة أشبار في شبرين تقريبًا، وهي الفتحة الأصلية التي دخل منها النبي ﷺ، وهي في ناحية الغرب، أما الفتحة الأخرى فهي في الشرق، ويقال: إنها محدثة ليسهل على الناس الدخول إلى الغار والخروج منه، والغار من الجبل في الناحية الموالية لمكة.

وارتفاع جبل ثور يزيد على (٥٠٠) متر، والواقف في أعلاه يشرف على ما حوله من الجبال، ويرى مكة وما حولها واضحة ظاهرة(١).

قلت: هذا هو جبل ثور الذي بمكة، الذي اختفى النبي ﷺ ورفيقه أبو بكر في غاره، معروف باسمه هذا في مكة قديمًا وما زال معروفًا به. أمّا جبل ثور الذي في المدينة فإن الحديث عنه سبق مستوفى في رسمه.

غار حراء: بغين معجمة بعدها ألف فراء مهملة، وحراء بكسر أوله، وآخره همزة ممدود: غار مشهور في جبل حراء، في أعلى مكة.

وروى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه، وهو التعبّد. الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد بمثلها، حتى جاءه الحقّ وهو في غار حراء.

قلت: قد تقدّم الحديث مستوفى عن هذا الغار ـ وصفًا وتحديدًا ـ في رسم حراء فانظره.

غدير الأشطاط: بغين معجمة مفتوحة بعدها دال مهملة مكسورة وبعد الدال ياء مثناة ساكنة وآخره راء مهملة: مكان على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالاً: خرج النبي ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه فلمّا أتى ذا الحليفة قلّد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينًا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه.

وجاء فيما رواه الواقدي: ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ـ يعني عينه الذي أرسله ـ فلقيه بغدير ذات الأشطاط، من وراء عسفان.

وله في حديث آخر: وجاءته أسلم وهو بغدير الأشطاط.

وقال ياقوت: غدير: بفتح أوله وكسر ثانيه، وأصله من غادرت الشيء: إذا تركته، وهو فعيل بمعنى مفعول كأن السيل غادره في موضعه فصار كل ماء غودر من ماء المطر في مستنقع صغيرًا كان أم كبيرًا غير أنه لا يبقى إلى القيظ سُمّي غديرًا.

والأشطاط: بالفتح والطاءان مهملان، يجوز أن يكون جمع شطّ وهو البعد، أو جمع الشّطط وهو الجور. ومجاوزة القدر.

غدير الأشطاط قريب من عسفان، قال عبيد الله بن قيس الرقيّات:

لم تكلّم بالجلهتين الرسومُ
حادث عهد أهلها أم قديمُ
سرف منزل لسلمة فالظهـ
ـران منّا منازل فالقصيمُ
فغدير الأشطاط منها محل
فبعسفان منزل معلومُ

---

(١) مرآة الحرمين ١/ ٦٢ ـ ٦٣.

صدروا ليلة انقضى الحج فيهم
حرّة زانها أغرّ وسيمُ
يتّقي أهلها النفوس عليها
فعلى نحرها الرّقى والتميمُ

وقال البكري: غدير الأشطاط: بفتح أوله وإسكان ثانيه، بعده طاء مهملة، وألف وطاء أخرى: على وزن أفعال، تلقاء الحديبية، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم، وقوله فيه: حتى إذا كان بغدير الأشطاط لقيه عينه الخزاعي، وهو عويمر ابن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي.

وقال الحربي: ومن عسفان إلى بطن مرّ ثلاثة وعشرون ميلاً، وبعسفان آبار كثيرة.. وبها بركة بآخر عسفان، وغدير الأشطاط على ميلين ونصف من عسفان.

وقال الهجري: سألت أبا محمد إبراهيم ابن عبد الله بن داود بن جعفر بن إبراهيم الجعفري عن غدير الأشطاط، من حديث بريدة الأسلمي، حين قال له النبي ﷺ: أين تركت أهلك؟ قال: بغدير الأشطاط، قال: هو بملتقى الطريقين من عسفان للخارج إلى مكة على يمينك بمقدار ميلين وربّما اجتمع فيه الماء، وليس ثمّ غدير غيره، ويذكره ابن ذي الرقيّات في شعره كثيرًا.

قلت: ممّا تقدّم من أقوال المؤرخين يتبيّن أن غدير الأشطاط يقع على بعد ميلين تقريبًا من عسفان على الطريق ممّا يلي مكة، وعسفان بلد ما زال معروفًا باسمه هذا، وقد تقدّم الحديث عنه في رسمه، وهو تابع لإمارة مكة.

الغميم: بغين معجمة مفتوحة وميم مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة وآخره ميم: موضع على الطريق بين مكة والمدينة، غير بعيد من الحديبية.

وروى البخاري بسنده عن المسور بن مخرمة ومروان، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إنَّ خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين.

قال ابن حجر: الغميم: بفتح المعجمة، وحكى عياض فيها التصغير.

قال المحبّ الطبري: يظهر أن المراد كراع الغميم، وهو موضع بين مكة والمدينة، وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريبًا من الحديبية.

وقال ياقوت: الغميم: بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت وميم أخرى، وهو الكلأ الأخضر تحت اليابس، والغميم فعيل بمعنى مفعول أي مغموم، وهو الشيء المغطّى، كراع الغميم: موضع بين مكة والمدينة، والغميم موضع له ذكر كثير في الحديث والمغازي، وقال نصر: الغميم موضع قرب المدينة بين رابغ والجحفة قال كثيّر.

قم تأمّل فأنت أبصر منّي
هل ترى بالغميم من أجمال
قاضيات لبانة من مناخ
وطواف وموقف بالجبال
فسقى اللّه منتوى أمّ عمرو
حيث أمست به صدور الرحال

أقطعه رسول الله ﷺ أوفى بن موالة العنبري، وشرط عليه إطعام ابن السبيل والمنقطع وكتب له كتابًا في أديم أحمر.

وقال ياقوت في رسم كراع الغميم: وكراع الغميم موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو وادٍ أمام عسفان بثمانية أميال،

وهذا الكراع جبل أسود في طرف الحرّة يمتد إليه.

وقال البكري: الغميم: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وكراع الغميم، إليه منسوب، وقال ابن حبيب: الغميم بجانب المراض، والمراض بين رابغ والجحفة.

قال جرير:

أنّى نكلّف بالغميّم حاجة
نهيًا حمامة دونها وحفير

مصغرة، وقال الشمّاخ: فصغره أيضًا:

لليلى بالغميم ضحوة نار
تلوح كأنها الشّعرى العبورُ

وقال الشّميذر الحارثيّ:

بني عمّنا لا تذكروا الشّعر بعدما
دفنتم بصحراء الغميم القوافيا

ويروى بصحراء الغُميم مصغّرا.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة فصام، حتى بلغ كراع الغميم فأفطر، وكراعه: طرف من الحرّة تمتد إليه.

وفي مغازي الواقدي: أنه لمّا بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ إلى مكة راعهم ذلك واجتمعوا له وشاوروا فيه ذوي رأيهم... فأجمعوا أمرهم على أن يقدموا مائتي فارس إلى كراع الغميم، ويستعملوا عليها رجلاً جلدًا، كان ذلك في غزوة الحديبية.

وقال الحربي: من عسفان إلى بطن مرّ ثلاثة وعشرون ميلاً، وغدير الأشطاط على ميلين ونصف من عسفان، ومسجد العدني على سبعة أميال من عسفان، وبعده بميل كراع الغميم، والغميم وادٍ والكراع جبل أسود عن يسار الطريق شبيه بالكراع، فيه آثار وفيه بئر القريتين.

قلت: ممّا تقدّم من أقوال العلماء يبدو أن الغميم يذكر مكبّرًا ومصغّرًا، وأنه اسم لموضعين: أحدهما الوادي القريب من عسفان وله كراع يسمّى: كراع الغميم، وهو المكان الذي له ذكر كثير في الأحاديث الشريفة وفي كتب السّير والمغازي، وهو الذي نحن بصدد الحديث عنه.

والآخر: موضع بين رابغ والجحفة.

وقال عاتق البلادي: الغميم: يعرف المكان اليوم ببرقاء الغميم، وهي برقاء على كراع من الحرّة يسار طريق الصادر من عسفان على (١٦) كيلاً تقريبًا، تقع بين وادي راين وشاميّة ابن حمادي، وبرقاء الغميم هذه نعف من حرّة ضجنان ينقاد شمالاً غربيًا. وذكر مواضع أخرى في الحجاز تسمّى الغميم.

غيقة: بغين معجمة مفتوحة بعدها ياء مثناة ساكنة ثم قاف مثناة مفتوحة وآخره هاء: مكان على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن أبي قتادة أنّ أباه حدّثه قال انطلقنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأحرم أصحابه ولم أحرم، فأنبئنا بعدوّ بغيقة فتوجّهنا نحوهم.

وقال الواقدي في خبر هزيمة قريش يوم بدر: قالوا: وكان خباث بن أشيم الكناني يقول: شهدت مع المشركين بدرًا وإنّي لأنظر إلى قلّة أصحاب محمد في عيني، وكثرة ما معنا من الخيل والرجال، فانهزمت فيمن انهزم، فلقد رأيتني وإنّي لأنظر إلى المشركين في كلّ وجه، وإنّي لأقول في نفسي: ما رأيت مثل هذا الأمر فرّ منه إلا النساء، وصاحبني رجل فبينا هو يسير معي إذ لحقنا من خلفنا، فقلت لصاحبي: أبك نهوض؟ قال: لا والله، ما هو بي. قال: وعقر عاقرًا وترفعت، فلقد صبّحت غيقة ـ عن يسار السقيا بينها وبين الفرع ليلة،

والمدينة ثمانية برد قبل الشمس، وكنت هاديًا بالطريق ولم أسلك المحاجّ[1].

قال ياقوت: غيقة: بالفتح ثم السكون ثم القاف ثم الهاء، الغاقة والغاق: من طير الماء وغاق: حكاية صوت الغراب فيجوز أن يسمّى الموضع الذي يكثر ذلك فيه الغيقة، قال أبو محمد الأسود: إذا أتاك عيقة في شعر هذيل فهو بالعين المهملة، وإذا أتاك في شعر كثيّر فهو بالغين المعجمة: وهو موضع بظهر حرّة النار لبني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، قال كثيّر:

فلمّا بلغن المنتقى بين غيقة
ويليل مالت فاحزألت صدورها

وقيل: غيقة بين مكة والمدينة في بلاد غفار، وقيل: غيقة خبت في ساحل بحر الجار فيه أودية ولها شعبتان؛ إحداهما ترجع فيها، والأخرى في يليل وهو بوادي الصفراء.

قال ابن السكّيت: غيقة حساء على شاطىء البحر فوق العذيبة، وقال في موضع آخر: في غيقة عليها نخل بطرف جبل جهينة الأشعر، وغيقة أيضًا: سرّة وادٍ لبني ثعلبة، وقال كثيّر:

عفت غيقة من أهلها فجنوبها
فروضة حسنى قاعها فكثيبها
منازل من أسماء لم يعف رسمها
رياح الثريّا خلفة فضريبها

خلفة أي ريح تخلف الأخرى والضريب الجليد.

قال البكري: غيقة بفتح أوله، وإسكان ثانيه بعده قاف: موضع قال ابن حبيب: هو لبني غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف ابن كنانة، وهو بين مكة والمدينة، قال كثيّر:

عفت غيقة من أهلها فحريمها
فبرقة حسنى قاعها فصريمها

قال ابن دريد: لا يكون مع غيقة إلا حسنى، فإذا ذكر صاعه أو طريق الشام فهي حسمى.

قال يعقوب: غيقة قليب لبني ثعلبة حذاء النواشر، والنواشر: قارات بأعلى وادي المياه، ووادي المياه لهم ولأشجع، وأنشد لمزرّد.

تحنّ لقاح الثّعلبي صبابة
لأوطانها من غيقة فالفدافد

قال: والفدافد روابٌ في أرض جهاد بين رحرحان وبين الخشبة، لبني ثعلبة بن سعد ابن ذبيان أيضًا، وقال صخر الغيّ الهذليّ:

إلى عمرين إلى غيقة
فيليل يهدي ربحلا زخوفا

وهذه مواضع متدانية.

قلت: ممّا تقدّم يتبيّن أن غيقة اسم مشترك يسمّى به عدد من المواضع، غير أن غيقة التي ورد ذكرها في الحديث الشريف هي: غيقة التي حدّدها الواقدي عن يسار السقيا بينها وبين الفرع ليلة وكذلك وصفها ياقوت بقوله: لها شعبتان إحداهما ترجع فيها والأخرى في يليل وهو بوادي الصفراء.

وقد وصفها عاتق البلادي وصفًا جغرافيًا يتّفق مع ما تقدّم فقال: غيقة: مكان من أسفل العرج سهل واسع يحفّ به من الجنوب الشرقي جبل صبح (ثافل الأكبر)، ومن الشمال الشرقي جبل فعرى، وترى منه غربًا جبل كراش، نصفًا بين غيقة وبدر، وفيه يجري سيل وادي العرج الذي يسمّى فوق غيقة الملف وأسفل منها المعرج، ويصل بين غيقة ووادي الصفراء طريق الخائع، شعبتان بينهما ريع تصب إحداهما شمالاً في وادي الصفراء قرب الواسطة (الصفراء)، والأخرى بغيقة

(١) الفرع: بلدة عامرة تعرف باسمها هذا، تابعة لإدارة المدينة.

قرب القصية، وفي غيقة بئار ابن حصاني قامت عليها محطة جمال فصارت بلدة عامرة فسمّيت أيضًا غيقة، ولمّا ظهرت السيارات اندثرت القرية، وما زالت الآبار باقية يستقى منها، وقد وقفت عليها في رحلة في طريق الهجرة... وكل الأماكن التي ذكرت معها في الشعر ما زالت ماثلة هنا، مثل: بينه، والخائع، وحسنى، والملف، وثافل، وفعرى.

قال الهجري: بينه: التي يذكرها كثّير موضعان، فأحدهما وادٍ يصب من ثافل في غيقة ثم في البحر، والأخرى من الجيّ جيّ النصائب.

باب الفاء

فَدْفَد: بفاء موحدة مفتوحة بعدها دال مهملة ساكنة ثم فاء موحدة مفتوحة وآخره دال مهملة.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﵁ قال: بعث النبي ﷺ سريّة عينًا وأمّر عليهم عاصم ابن ثابت، وهو جدّ عاصم بن عمر ابن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحيٍّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزوّدوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم فلمّا انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد، وجاء القوم فأحاطوا بهم.

قال ابن حجر: فدفد: بفاءين مفتوحتين ومهملتين، الأولى ساكنة وهي الرابية المشرفة، ووقع عند أبي داود إلى قردد بقاف وراء ودالين، قال ابن الأثير هو الموضع المرتفع، ويقال الأرض المستوية، والأول أصحّ.

قلت: فدفد في هذا الحديث اسم جنس، وليس اسم موضع بعينه.

وقال البكري: الفدافد: على لفظ جمع فدفد رواب مذكور في رسم غيقة، وقال في رسم غيقة المزرّد.

تحنّ لقاح الثعلبيّ صبابة
لأوطانها من غيقة فالفدافد

قال: والفدافد روابٍ في أرض جهاد، بين رحرحان وبين الخشبة لبني ثعلبة بن سعد ابن ذبيان.

قلت: الفدافد: في شعر مزرّد جمع فدفد ويفيد هذا الشعر أنها اسم لموضع بعينه في بلاد بني ذبيان.

فدك: بفاء موحدة ودال مهملة مفتوحة وآخره كاف: قرية في شرقي حرّة خيبر.

وروى البخاري بسنده عن عائشة ﵂ قالت: كانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها ممّا ترك رسول الله ﷺ من خيبر، وفدك، وصدقة بالمدينة.

قال ابن حجر: فدك: بفتح الفاء المهملة بعدها كاف: بلدة بينها وبين المدينة ثلاث مراحل.

قال ابن إسحاق: في خبر فدك: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، قذف الله الرّعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله ﷻ بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بعد ما قدم المدينة فقبل ذلك منهم وكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف عليها خيل ولا ركاب.

وقال الواقدي: لمّا أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيّصة بن مسعود إلى

فدك يدعوهم إلى الإسلام، ويخوّفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر ويحلّ بساحتهم... فجعلوا يتربّصون ويظنون، أن اليهود تمتنع، فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم ففتّ ذلك في أعضادهم... قال محيّصة وقدم معي رجل من رؤسائهم يقال له: نون بن يوشع في نفر من اليهود، صالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلّوا بينه وبين الأموال ففعل، ويقال: عرضوا على رسول الله ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبي ﷺ عليهم من الأموال شيء، وإذا كان جذاذها جاءوا فجذوها، فأبى النبي ﷺ أن يفعل ذلك وقال لهم محيّصة: مالكم منعة ولا رجال ولا حصون لو بعث رسول الله ﷺ إليكم مائة رجل لساقوكم إليه، فوقع الصلح بينهم أن لهم نصف الأرض بتربتها لهم، ولرسول الله ﷺ فوقع نصفها، ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وهذا أثبت القولين. فأقرّهم رسول الله ﷺ على ذلك ولم يبلغهم، فلمّا كان عمر بن الخطاب وأجلى يهود خيبر، بعث عمر إليهم من يقوّم أرضهم، فقوّموا لهم النخل والأرض فأخذها عمر ابن الخطاب ودفع إليهم نصف قيمة النخل بتربتها، وأجلاهم عمر إلى الشام.

وقال البكري: فَدَك: بفتح أوله وثانيه: معروفة، بينها وبين خيبر يومان، وحصنها يقال له: الشمروخ، أكثر أهلها أشجع، وأقرب الطرق من المدينة إليها من النقرة وهي قرية لولد الرضا، وهي كثيرة الفاكهة والعيون.

وقال حمد الجاسر: فدك ـ بالفاء والدال المهملة مفتوحتين وآخره كاف ـ: وادٍ ذو نخيل وعيون يعرف الآن باسم (الحائط) على اسم حائط النخل من قرى حرة خيبر، ويضاف إليه الجزء الشرقي من الحرّة فيسمّى حرة فدك، وسكان الحائط كلهم من بني رشيد، وهو واقع في شرقي حرّة خيبر، في الحرّة نفسها... وشرب أهله من عيون تجري من الحرّة لا يعرفون أقصى مجاريها، وفي الحائط آثار كثيرة من أبنية ومقابر وحصون.

ولعل اسم الحائط نشأ عن كون نخيل ذلك الوادي لتشابكها واجتماعها تشبه الحائط الواحد، أو لأنْ يعتبر حائطًا لفاطمة بنت رسول الله ﷺ.

والحائط مقرّ إمارة القرى الواقعة في الحرّة وسفوحها الشرقية، وتبعد بلدة الحائط عن مدينة حائل نحو (٢٥٠) كيلاً في الجنوب الغربي منها، وهي تابعة لإمارتها.

قلت: وقد زرت هذه البلدة في شهر محرم سنة ١٣٩٣هـ زيارة توجيهية في مدارسها، وكان فيها مدرسة ابتدائية ومدرسة متوسطة للبنين ومدرسة للبنات، وفيها مركز إدارة ما حولها من القرى والهجر، وفيها محكمة شرعية ومستوصف، وفي يوم ٢١ ربيع أول سنة ١٣٩٥هـ زرتها مرة ثانية برفقة حمد الجاسر، وخلال هاتين الزيارتين اطّلعت على كثير من معالمها الأثرية، وشاهدت فيها كثيرًا من الكتابات القديمة المحفورة على الصخور بخطوط مختلفة، وهي مرتبطة بإمارة حائل في كل شؤونها، وتبلغ المسافة بينها وبين مدينة حائل ٢٧٠ كيلاً تقريبًا.

باب القاف

القاحة: بقاف مثناة بعدها ألف وحاء مهملة مفتوحة وآخره هاء: مكان على الطريق بين مكة والمدينة.

وروى البخاري بسنده عن أبي قتادة قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بالقاحة من المدينة على ثلاث، ومنّا المحرم ومنّا غير المحرم، فرأيت أصحابي يتراءون شيئًا، فنظرت فإذا حمار وحش يعني وقع سوته فقالوا: لا نعينك عليه بشيء، إنّا محرمون فتناولته فأخذته ثم أتيت الحمار من وراء أكنة فعقرته فأتيت به أصحابي.

قال ابن حجر القاحة ـ بالقاف والمهملة: وادٍ على نحو ميل من السقيا إلى جهة المدينة، ويقال لواديها: وادي العباديد، وقد بيّن البخاري أنها من المدينة على ثلاث مراحل، قال عياض: رواه الناس بالقاف إلا القابسي فضبطوه عنه بالفاء وهو تصحيف.

قال البكري: القاحة: بالحاء المهملة موضع على ثلاث مراحل من المدينة قبل مكة.

قال ياقوت: القاحة: بالحاء المهملة، قاحة الدار وباحتها واحد، وهو وسطها، وقاحة: مدينة على ثلاث مراحل من المدينة قبل السقيا بنحو ميل، قال نصر: موضع بين الجحفة وقديد، وقال عرّام: القاحة في ثافل الأصغر وهو جبل، . . دوار في وسطه يقال له: القاحة وفيها بئران عذبتان غزيرتان(١).

قال ابن هشام في خبر طريق هجرة النبي ﷺ: ثم أجاز بهما ـ يعني دليلهما ـ مدلجة لقف ثم استبطن بهما مدلجة محاج ويقال مجاج، ثم سلك بهما مرجح مجاج، ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين، ويقال: العضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما مرجح مجاج، ثم تبطّن بهما مرجح من ذي الغضوين، وقال: العضوين ـ ثم بطّن ذي كشر ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعدا مدلجة تعهن ثم على العبابيد ويقال: العبابيب، ويقال: العبابيد يريد العبابيب، ثم أجاز بهما القاجة، ويقال: القاحة، ثم هبط بهما العرج.

قال عاتق البلادي: القاحة: بتخفيف الحاء المهملة: وادٍ كبير من أودية الحجاز قليل الزراعة كثير الذكر في كتب المتقدّمين؛ لأن طريق الحج يمر به، يأخذ وادي القاحة عن السفوح الغربية لسلسلة جبال قدس التي تعرف اليوم بجبال عوف، ثم يتّجه جنوبًا مع ميل تدريجي إلى الغرب، بخلاف أودية الحجاز الغربية التي تكون القاعدة جريانها غربًا. ويستمر جريانه بين سلسلتين عظيمتين، هما:

---

(١) فيما قاله ياقوت عن عرّام شيء من الخلط بين موضعين.

سلسلة جبال قدس في الشرق، وسلسلة جبال ثافل في الغرب، وبوجود هاتين السلسلتين يكون سيله جارفًا فلا يترك أراضي قابلة للزراعة، ويبلغ طول وادي القاحة حتى يجتمع مع الفرع قرابة (٩٠) كيلاً، وسكانها في أعلاه عوف، وأسفله العبدة من بني عمرو، وروافده الغربية في أعلاه لصبح.

وله روافد عديدة كبار منها: تعهن من الشرق، والعائد من الغرب، والقاحة من الشرق، ويدوم من الغرب، وتقيب من الشرق، ووادي المياه من الغرب وغيرها. وفيه أمّ البرك (السقيا) تعد من مستورة (٧٢) كيلاً شرقًا مع ميل إلى الشمال، وقد ظلّ هذا الوادي ممرًا وطريقًا رئيسة لقوافل الحج من لدن محمد ﷺ إلى ما بعد ١٣٧٠هـ، حين تحوّل عنه طريق السيارات إلى بدر فوادي الصفراء، فتأخرت السقيا، وقلّ نزلها، ونزل معظم سكان القاحة - من عوف - مكة فاستوطنوها.

وعلّق عاتق البلادي على قول نصر: بأن القاحة بين الجحفة وقديد: بأنه خطأ، وذلك أن القاحة بين المدينة والجحفة، وأن قديدًا بين الجحفة ومكة، قلت: هو الصواب.

وعلّق على قول ياقوت: إنها دوار في جوف ثافل الأصغر فقال: إنه نوع من الروايات غير المتقنة التي تعودناها منه، فهي تمر بسفوح ثافل من الشرق وتستوعب مياهها الشرقية، ولكن لا وجود لدوار هناك، ولا تقرب من جوف ثافل الأصغر، بل لا تمر به إلا عند ناهيتها، فهي قبله بقرابة ٧٠ كيلاً.

وعلّق على قول ياقوت: قبل السقيا بنحو ميل، فهو قول تنقصه الدّقّة؛ لأن السقيا هي مدينة القاحة، والقاحة وادٍ قبل السقيا وبعدها.

وقال حمد الجاسر: فيما قاله رداً على كتاب (بنو سليم) - ويحسن أن نورد وصفًا موجزًا لوادي القاحة كما هو معروف اليوم، وكما شاهدته أثناء رحلتي لتحقيق طريق الهجرة النبوية (من يوم الأحد ٣/ ١١/ ١٣٨٦هـ إلى يوم الأربعاء ٦/ ١١/ ١٣٨٦هـ).

١- فرعا وادي القاحة ووادي الجيّ متقاربان لا يفصل بينهما أقل من ميل، فالجي يتجّه شمالاً، والقاحة يجنب

٢- يبتدىء وادي القاحة من موضع يدعى الرّصفة، ثنيّة منحوتة في جبل هو طرف ملتقى جبل قدس وورقان.

٣- يتّجه وادي القاحة جنوبًا فيلتقي به من الجهة الغربية الشمالية وادٍ يدعى وادي المياه، ينحدر من جبل ثافل المعروف الآن باسم (جبل صبح) وتأتي من الشرق سيول جبل قدس (جبل عوف) وعند التقاء سيول جبل ثافل وجبل قدس بالوادي يتّسع، حيث توجد آبار، ومزارع وقرى صغيرة منها بئر صالح وبئر قيطى، وتوجد هذه الآبار على بعد ١٧ كيلاً من مبدأ الوادي.

٤- وعلى بعد ٥٠ كيلاً من أعلى الوادي تقع قرية (أم البرك) جمع بركة، وهي السقيا قديمًا - سقيا غفار - في متّسع من الوادي فيه بساتين وآبار، ماؤها قريب من وجه الأرض، وكانت من أقوى قرى الوادي، ولكنها ضعفت بعد انحراف الطريق.

٥- وعلى مقربة من السقيا - رأي العين - يلتقي بالقاحة وادي تعهن، وأهل هذه الجهة يكسرون التاء والعين والهاء مع تشديدها - وهو وادٍ له ذكر في حديث الهجرة النبوية، ينحدر من قِبَل قدس أيضًا.

٦- وعلى بعد ١٩ كيلاً من السقيا (أم البرك) ينحدر في وادي القاحة وادي ثقيب - بفتح

الثاء المثلثة بعدها قاف مكسورة فياء مثناة تحتية فباء موحدة ـ وهو وادٍ ينحدر من أسافل جبال الفرع ومن جنوب غربي جبل قدس، ويأتي وادي القاحة من الشمال، ولوادي ثقيب روافد منها أجيرد ـ تصغير أجرد ـ وأم كشد، وأم سلمة، وفي ثقيب موضع يدعى البستان فيه بستان، ومن ثقيب طريق يتّجه إلى الفرع.

٧ـ وعلى بعد أحد عشر كيلاً من بستان ثقيب يصبّ في القاحة وادٍ صغير يدعى نعا ـ بنون مفتوحة بعدها عين مهملة مفتوحة ممدودة ـ وعند التقائه بوادي القاحة توجد آثار أبنية قديمة.

٨ـ وقبل التقاء وادي القاحة بوادي الأبواء يلتقي بها وادي النّخل، وهو من أعظم الأودية تنحدر فيه أكثر أودية الفرع مثل: مجاح، ولقف، وغيرهما.

وملتقى وادي النخل بوادي القاحة يبعد عن السقيا (أمّ البرك) ٣٩ كيلاً، وفي ملتقى الواديين تتّسع الأرض، وتوجد هناك آثار عمران من أبنية ومزارع، بقرب بئر مبيريك. وطول الوادي من الرّصفة إلى هذه البئر يبلغ ٨٥ كيلاً.

٩ـ ثم ينحرف الوادي بعد اجتماعه بوادي النخل الذي تأتيه من الشرق، ينحرف نحو الغرب حيث يسمّى وادي الأبواء، ثم يخترق الجبال حيث يتفرق فروعًا في الخبت بقرب ميناء مستورة.

١٠ـ ويسير الطريق مع الوادي وبقربه يمينًا وشمالاً من فرعه حتى ينحرف غربًا نحو قرية الأبواء بعد بئر مبيريك؛ إذ الطريق يتجّه جنوبًا إلى ثنيّة هرشى، وهناك طريق أخر يتّجه غربًا إلى الأبواء فودّان (مستورة).

قلت: هذا خلاصة ما ذكره حمد الجاسر في حديثه عن وادي القاحة وصفًا وتحديدًا، وهو حديث مستوفٍ لوصف وادي القاحة وتحديده.

وأكتفي بما قدمته عن هذا الوادي من أقوال المؤرخين، لشهرة هذا الوادي ووضوح موقعه فيما تقدّم.

القاحة أيضًا: وسعة على شكل دوار في حرّة الروقة، يطؤها درب الحاج القديم بين مكة والعراق، يدفع بها واديا جقاب، ثم ينتهي سيلها إلى الرّصن، تبعد عن مكة قرابة (١٤٠) كيلاً في الشمال الشرقي.

وقد ذكرها عبد القدوس الأنصاري في كتابه (بنو سليم) متوهّماً على أنها القاحة التي بين مكة والمدينة، فردّ عليه الجاسر ولكن لم يعثر على تحديدها؛ لعدم خبرته في هذه الديار، ـ قاله عاتق.

القادسية: بقاف مثناة مشدّدة مفتوحة وآخره هاء: مدينة في العراق.

روى البخاري بسنده عن عبد الرحمٰن ابن أبي ليلى قال: كان سهل بن حنيف وقيس ابن سعد قاعدين بالقادسية فمرّوا عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي: من أهل الذمّة، فقالا: إن النبي ﷺ مرّت به جنازة فقام فقيل له: إنها جنازة يهوديّ، فقال: أليست نفسًا.

قال ياقوت: قال أبو عمرو: القادس السفينة العظيمة، وبينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا، وبينهما وبين العذيب أربعة أميال، قيل: سُمّيت القادسية بقادس هراة، وقال المديني: كانت القادسيّة تسمى قديسًا.

وروى ابن عيينة قال: مرّ إبراهيم بالقادسية فرأى زهرتها ووجد هناك عجوز فغسلت رأسه فقال: قدّست من أرض، فسميت القادسية.

وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد ابن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، في سنة ١٦ من الهجرة وكانت من أعظم وقائع المسلمين، وأكثرها بركة.

وتحدّث ابن الأثير عن فتح القادسية حديثًا طويلاً: فصلّ فيه عن أحداثها وما لقي المسلمون فيها من شدّة الحرب، وضراوة القتال إلى أن فتح الله عليهم وأمدّهم بنصره في صباح الليلة الرابعة من ليالي الزّحف وأيّامه، فقال في مستهلّ حديثه:

لـمّا رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسّواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل فارس: لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهّنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوّهم، ولم يبلغ من أمركما أن تقركما على هذا الرأي وأن تعرّضاها للهلكة، ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن، والله لتجتمعانّ أو لنبدأنّ بكما، ثم نهلك وقد اشتفينا منكما.

فجاؤوا بيزد جرد من ولد شهريار بن كسرى فملّكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة واجتمعوا عليه، فاطمأنت فارس واستوثقوا، وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته فسمّى الجنود لكل مسلحة وثغر... وبلغ ذلك من أهل السّواد، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد مَنْ كان له عهد ومن لم يكن له عهد، فخرج المثنى حتى نزل بذي قار ونزل الناس بالطف في عسكر واحد، ولـمّا وصل كتاب المثنى إلى عمر قال: والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيسًا ولا ذا رأي وذا شرف وبسطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلاّ رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم.

وكتب عمر إلى المثنى ومَنْ معه يأمرهم بالخروج من بين العجم، والتفرق في المياه التي تلي العجم، وأن لا يدعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحدًا من أهل النجدات، ولا فارسًا إلا أحضروه إما طوعًا أو كرهًا.

وأرسل عمر في ذي الحجة من السنة مخرجه إلى الحج إلى عمّاله على العرب أن لا يدعو مَنْ له نجدة، أو فرس أو سلاح، أو رأي إلا وجّهوه إليه، فأمّا مَنْ كان على النصف ما بين المدينة والعراق فجاء إليه بالمدينة لمّا عاد من الحج، وأما مَنْ كان أقرب إلى العرب فانضم إلى المثنى بن حارثة، وجاءت أمداد العرب إلى عمر.

ولمّا اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة ـ كان ذلك سنة ١٤هـ ـ ونزل على ماء يدعى صرار، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقيم؟ وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمٰن ابن عوف، فإن لم يقدر هذان على علم شيء مما يريد ثلثّوا بالعباس بن عبد المطلب، فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامّة: سر وسر بنا معك، فدخل معهم في رأيهم وقال: اغدوا واستعدّوا فإنّي سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من هذا، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وأرسل إلى عليّ وكان استخلفه على المدينة، فأتاه وإلى طلحة، وكان على المقدّمة، فرجع إليه. وإلى الزبير وعبد الرحمٰن وكانا على المجنبتين، فحضرا ثَمّ، فاستشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح، وإلا أعاد رجلاً وبعث آخر ففي ذلك غيظ العدوّ.

فجمع عمر الناس وقال لهم: إنّي عزمت على المسير حتى صرفني ذو الرأي منكم، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً فأشيروا عليّ برجل.

وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن، فكتب إليه عمر بانتخاب ذوي الرأي والنجدة والسلاح فجاءه كتاب سعد ـ وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه ـ يقول: قد انتخبت لك ألف فارس، كلّهم له نجدة، ورأي، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم.

فلمّا وصل كتابه قالوا لعمر: قد وجدته، قال: من هو؟ قالوا: الأسد عاديًا سعد بن مالك، فانتهى إلى قولهم فأحضروه وأمّره على حرب العراق ووصّاه وقال: لا يغرنّك من الله أنْ قيل خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيىء بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس في ذات الله سواء، الله ربهم، وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه، ووصّاه بالصبر وسرّحه فيمن اجتمع إليه من نفر المسلمين، وهم أربعة آلاف: فيهم حميصة بن النعمان بن حميصة على بارق، وعمرو بن معدي كرب، وأبو سبرة بن ذؤيت على مذحج، ويزيد بن الحارث الصدائي على صداء، وحبيب ومسلمة وبشر بن عبد الله الهلالي في قيس عيلان.

ثم إن عمر أخذ بوصيتهم وبعظمتهم ثم سيّرهم، وأمد عمر سعدًا بعد خروجه بألفي يمانيّ وألفي نجديّ، وكان المثنى بن حارثة في ثمانية آلاف، وسار سعد والمثنى ينتظر قدومه، فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحة انتقضت عليه، واستخلف على الناس بشير بن الخصاصية، وسعد يومئذ بزرود وقد اجتمع معه ثمانية آلاف، وأمر عمر بني أسد أن ينزلوا على حدّ أرضهم بين الحزن والبسيطة فنزلوا في ثلاثة آلاف.

وسار سعد إلى شراف فنزلها، ولحقه بها الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن، فكان جميع مَنْ شهد القادسية بضعة وثلاثين ألفًا، وجميع من قسم عليه فيؤها نحو من ثلاثين ألفًا.

ولم يدع عمر ذا رأي ولا شرف، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا، ولا وجيهًا من وجوه الناس إلا سيّره إلى سعد.

وجمع سعد مَنْ كان بالعراق من المسلمين من عسكر المثنى، فاجتمعوا بشراف فعبّأهم وأمّر الأمراء وعرّف عى كل عشرة عريفًا، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وولّى الحروب رجالاً على ساقتها ومقدّمتها ورجلها وطلائعها ومجنّباتها، ولم يفصل إلا بكتاب عمر، فجعل على المقدّمة زهرة بن عبد الله ابن قتادة بن الحويّة، فانتهى إلى العذيب، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم، وكان من الصحابة أيضًا، واستعمل على الميسرة شرحبيل ابن السمط الكندي، وجعل خليفته خالد ابن عرفطة حليف بني عبد شمس، وجعل عاصم بن عمرو التميمي على الساقة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهليّ على المجردّة، وعلى الرجّالة حمّال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الحنفيّ، وجعل عمر على القضاء بينهم عبد الرحمٰن ابن ربيعة الباهليّ، وعلى قسمة الفيء أيضًا،

وجعل رائدهم وداعيتهم سلمان الفارسيّ، والكاتب زياد بن أبيه.
وكان مع سعد تسعة وتسعون بدرياً، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شعد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة.
وكتب عمر إلى أبي عبيدة ليصرف أهل العراق ومَنْ اختار أن يلحق بهم إلى العراق. . .
وسار سعد من شراف فنزل العذيب، ثم سار حتى نزل القادسية بين العتيق والخندق بحيال القنطرة، وقديس أسفل منها بميل. . . وبثّ سعد الغارات والنهب بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما استكفوا به زمانًا، وكان مقام سعد بالقادسية شهرين وشيئًا حتى ظفر.
وسار رستم القائد الأعلى لجيش الفرس، من ساباط، وجمع آلة الحرب وبعث على مقدّمته الجالينوس في أربعين ألفًا، وخرج هو في ستين ألفًا، وفي ساقته عشرون ألفًا، وجعل في ميمنته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران ابن بهرام الرازي، وقال رستم للملك يشجعه بذلك: إن فتح الله علينا القوم فوجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة.
فلما وصل رستم القادسية وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس، فما زالوا يتلاحقون حتى أعتموا من كثرتهم، والمسلمون ممسكون عنهم.
وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً، منها فيل سابور الأبيض، وكانت الفيلة تألفه، فجعل في القلب ثمانية عشر فيلاً، وفي المجنبتين خمسة عشر فيلاً.
وقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقالوا: بل اعبروا إلينا. . . وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إليهم شأنكم والعبور، ولمّا ركب رستم ليعبر كان عليه درعان ومغفر، وأخذ سلاحه ووثب فإذا هو على فرسه لم يضع رجله في الركاب.
لمّا عبر الفرس العتيق جلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة وعبّى في القلب ثمانية عشر فيلاً، عليها صناديق ورجال، وفي المجنبتين ثمانية وسبعة، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته، والفيرزان بينه وبين ميسرته.
وأخذ المسلمون مصافهم وكان بسعد دماميل وعرق النساء فلا يستطيع الجلوس، إنما هو مكبّ على وجهه، في صدره وسادة على سطح القصر، يشرف على الناس والصفّ في أصل حائطه، لو أعراه الصفّ فواق ناقة لأخذ برمّته فما كرثه هول تلك الأيام شجاعة.
ونزل سعد إلى الناس وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه، فعذره الناس وعلموا حاله، ولمّا عجز عن الركوب استخلف خالد ابن عرفطة على الناس، وخطب الناس يومئذ، وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة، وحثّهم على الجهاد، وذكّرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد.
وكان صفّ المشركين على شفير العتيق، وكان صفّ المسلمين مع حائط قديس والخندق، فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد، وهي الأنفال، فلما قرئت هشّت قلوب الناس وعيونهم، وعرفوا السكينة مع قراءتها، فلمّا فرغ القرّاء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلّوا الظهر، فإذا صلّيتم فإنّي مكبّر تكبيرة فكبّروا، واستعدّوا، فاذا سمعتم الثانية فكبرّوا والبسوا عدتكم، ثم إذا كبرّت الثالثة، فكّبروا ولينشط فرسانكم الناس، فإذا كبّرت الرابعة فازحفوا جميعًا

حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلمّا كبّر سعد الثالثة برز أهل النجدة فأنشبوا القتال، وخرج إليهم من الفرس أمثالهم، فاعتوروا الطعن والضرب.
وقُتل في اللقاء الأول عددٌ من فرسان الفرس وقادتهم، وكبّر سعد التكبيرة الرابعة وزحف إليهم المسلمون... واقتتلوا حتى غربت الشمس، ثم حتى ذهبت هدأة من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء، وهذا اليوم الأول وهو يوم أرماث.

ولما أصبح القوم ـ اليوم الثاني هو يوم أغواث ـ وكلّ سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم، فسلّم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وأما القتلى فدفنوا هنالك على مشرّق، وهو: وادٍ بين العذيب وعين شمس.
وتجدّد القتال في هذا اليوم، وكثرت المبارزات بين شجعان المسلمين وشجعان الفرس وكان النصر حليف شجعان المسلمين، وقتل في المبارزة من الفرس ذو الحاجب والفيرزان والبنذوان، وهم من أشهر أمرائهم وشجعانهم، واشتدّ القتال بالسيوف إلى المساء... وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يزل للمسلمين في يوم أغواث الظفر، وقتلوا فيه عامة الفرس.

وفي اليوم الثالث ـ وهو يوم عماس ـ أصبحوا على مواقفهم، وبين الصفّين من قتلى المسلمين ألفان من جريح وميّت، ومن المشركين عشرة آلاف، فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر، والجرحى إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وكان على الشهداء حاجب بن زيد، وأمّا قتلى المشركين فبين الصفّين لم ينقلوا، وكان ذلك مما قوّى المسلمين.

وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدًا، العرب والعجم فيه سواء... واستمر القتال فيه إلى الليل.

وفي الليلة الآتية ـ وهي ليلة اليوم الرابع ـ وتسمّى ليلة الهرير، وسُمّيت بذلك؛ لأنهم تركوا الكلام، وإنما كانوا يهرّون هريرًا... وتزاحفت الصفوف وقال سعد: إذا كبّرت ثلاثًا فاحملوا، وتقدّمت بعض القيادات قبل أن يكبّر الثالثة فقال اللّهم اغفرها لهم وانصرهم، ولمّا كبّر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضًا، وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالاً بعدما صلوا العشاء، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم إلى الصباح، وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغًا، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله قط، وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وأقبل سعد على الدعاء، فلمّا كان الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون.

وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالي وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها، فقال القعقاع: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإنّ النصر مع الصبر، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح، فحمل المسلمون وقاتلوا حتى قام قائم الظهيرة، فكان أول مَنْ زال الفيرزان والهرمزان فتأخر وثبتا حيث انتهيا، وانفرج القلب وركد عليهم النقع، وهبّت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق، ومال الغبار عليهم، وانتهى القعقاع ومَنْ معه إلى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال

فهي واقفة، فاستظل في ظل بغل وحمله وضرب هلال بن علفة الحمل الذي تحته رستم فقطع حباله، ووقع عليه أحد العدلين، ولا يراه هلال ولا يشعر به، فأزل عن ظهره فقارا.

وضربه هلال ضربة فنفحت مسكًا، ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله، ثم ألقاه بين أرجل البغال ثم صعد السرير وقال: قتلت رستم وربّ الكعبة، إليّ إليّ، فأطافوا به وكبّروا، فنفّله سعد سلبه، وكان قد أصابه الماء ولم يظفر بقلنسوته، وبعد أن نادى هلال بقتل رستم انهزم قلب المشركين.

فتعقبهم المسلمون بالسيوف يقتلون حتى قتل منهم مقتلة عظيمة، وقتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف، وقتل من المشركين أكثر من عشرة آلاف.

وجمعت الأسلاب والأموال فجمع منها شيء لم يجمع قبله ولا بعده مثله.

وتعقّب المسلمون فلول المشركين ومَنْ ثبتوا بعد الهزيمة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم خلقًا كثيرًا، وكتب سعد إلى عمر ابن الخطاب ﵁ يبشّره بالفتح وبعدّة مَنْ قتلوا، وبعدّة مَنْ أصيب من المسلمين.

وقيل: كانت وقعة القادسية سنة ست عشرة، قال: وكان بعض أهل الكوفة يقول: إنها كانت خمس عشرة، وقد تقدّم أنها كانت سنة أربع عشرة.

قلت: هذا هو خلاصة ما ذكره المؤرخون عن يوم القادسية.

قباء: بقاف مثناة مضمومة بعدها باء موحدة وآخره ألف ممدود: ضاحية معروفة في المدينة.

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كلّ سبت ماشيًا وراكبًا، وكان عبد الله ﵁ يفعله.

قال ابن حجر: قباء: بضم القاف ثم موحدة ممدودة عند أكثر أهل اللغة، وأنكر البكري قصره، ولكن حكاه صاحب العين، قال البكري: من العرب من يذكره فيصرفه، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه، وفي المطالع: هو على ثلاثة أميال من المدينة، وقال ياقوت: على ميلين على يسار قاصدي مكة، وهو من عوالي المدينة، وسُمّي باسم بئر هناك.

وقال المراغي: وروى ابن النجار بسنده إلى عويم بن ساعدة أن النبي ﷺ قال لأهل قباء: إنّ الله قد أحسن الثناء عليكم في كتابه العزيز: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٨].

وقال المراغي: ولم يزل مسجد قباء على ما بناه رسول الله ﷺ إلى أن بناه عمر ابن عبد العزيز ﵀ عند بناء مسجد المدينة على هذه الحالة التي هو عليها اليوم، فتشعّث على طول الزمان فتهدّم فجدّده في سنة خمس وخمسين وخمسمائة الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي المنصور الأصبهاني المعروف بالجواد، والصحيح أن قباء على ثلاثة أميال من المدينة، وقال الباجي: على ميلين، وقال القاضي عياض: بنو عمرو ابن عوف على ثلثي فرسخ، قال ابن النجار: ذرعت مسجد قباء فكان طوله ثمانية وستين ذراعًا يشف قليلاً، وعرضه كذلك، وارتفاعه في السماء عشرون، وطول منارته من سطحه

إلى رأسها اثنان وعشرون، والمنارة على يمين المصلّى، وهي مربعة والله أعلم.
وقال المطري: مسجد قباء في بني عمرو ابن عوف، وكان مربدًا لكلثوم بن الهدم فأعطاه رسول الله ﷺ فبناه مسجدًا، وأسّسه وصلّى فيه قبل أن يأتي المدينة.
ولم يزل مسجد قباء على ما بناه رسول الله ﷺ إلى أن بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند بناء مسجد المدينة على هذه الحالة التي هو عليها اليوم، فتشعّث على طول الزمان وتهدّم فجدّده الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور الأصفهاني وزير بني زنكي. . . وذلك في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقباء على ثلاثة أميال من المدينة، وقال الباجي: هو على ميلين وقال القاضي عياض: بنو عمرو ابن عوف على ثلثي فرسخ، والصحيح الأول وهو مروي عن مالك رحمه الله.
وقال ياقوت: قُباء: بالضم وأصله اسم بئر هناك عرّفت القرية بها، وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الأنصار، وألفه واو يمد ويقصر، يصرف ولا يصرف، ولم يحك فيه القالي سوى المدّ، قال الخليل: هو مقصور، قال ياقوت: فمن قصره جعله جمع قبوة وهو بالضم والجمع في لغة أهل المدينة.
وقال أبو حنيفة: رحمه الله في اشتقاق قباء: إنه مأخوذ من القبو وهو الضم والجمع، ولم يذكر أهو جمع أو مفرد؟ وهي: قرية على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة بها أثر بنيان كثير، وهناك مسجد التقوى عامر، قدّامه رصيف وفضاء حسن، وآبار ومياه عذبة، وبها مسجد الضرار يتطوع العوام بهدمه، كذا قال البشّاري، وذكر كثيراً من فضائل مسجد قباء، وعددًا ممن ينسب إليها من العلماء والمحدّثين.

قال السَرّي بن عبد الرحمٰن بن عتبة ابن عويمر بن ساعدة الأنصاري:

ولها مربع ببرقة خاخ ... ومصيف بالقصر قصر قباء
كفنوني إن مت في درع أروى ... واغسلوني من بئر عروة مائي
سخنة في الشتاء باردةُ الصيـ ... ـف سراج في الليلة الظلماء

قلت: وقد أكثر المتقدّمون من المؤرخين من ذكر قباء وتحديد موقعها، وفضائل مسجدها وأطالوا في أحاديثهم في وصف ذلك، وبما أن قباء ناحية من عوالي المدينة المعروفة بهذا الاسم قديمًا وفي هذا العهد، وأن مسجدها قد استمر عمرانه من عهد النبي ﷺ، ولم تنقطع الصلاة فيه إلى هذا العهد فإنني أكتفي من أقوال المتقدّمين بما تقدّم.
وكذلك فإن المؤرخين المتأخرين قد تحدثوا عن قباء وعن مسجدها، وأكثروا من الحديث في ذلك، وسأذكر هنا بعضًا ممّا ذكروه.
قال عبد القدوس الأنصاري: يقع مسجد قباء في الجنوب الغربي للمدينة، وشكله مربع، وضلعه ٤٠ مترًا، وعدّة أساطينه ٢٩، وفيه محراب ومنبر رخاميّ عتيق، كان الأشرف قايتباي أهداه للمسجد النبوي ليوضع في مكان المنبر المحترق، وذلك في سنة ٨٨٨هـ، وبعد أن بعث السلطان مراد العثماني بالمنبر الحالي إلى المسجد النبوي نقل هذا المنبر إلى مسجد قباء.
ولمسجد قباء مئذنة، وفيه رحبة محصبة فيها قبّة يقال: إن بها مبرك ناقة النبي ﷺ، وفي الرحبة بئر، وبجدار المسجد القبلي في شرقيّه محراب يقال له: (طاقة الكشف) وفيه يقول صاحب مرآة الحرمين: ولا أدري كشف أيّ شيء.

وممّا يسترعي الانتباه من آثار هذا المسجد هذا الحجر المنقوش بالخط الكوفي القديم، فإنه ينطق بعمارة المسجد من قِبَل أحد الأشراف عام ٤٣٥هـ وكأنه نقل في بعض تعميرات المسجد من بابه إلى هذا المحراب ونصب عليه.

والقسم المسقّف من المسجد قباب، وعدّة أروقته ستة، وفي الرواقين اللذين بمؤخره غرفة لوضع أمتعته وفرشه، وله دعائم خارجية في جنوبه وشماله وشرقه؛ لتقوية جدرانه من هذه الجهات نظر الانخفاض ما يجاورها من الأرض. ويبعد عن المدينة بنحو (٤٠) دقيقة بالمشي المعتدل باعتبار مبدأ السير من باب قباء. ثم تحدّث عبد القدّوس الأنصاري عن عمران هذا المسجد وعن الطرق المؤدية إليه من عهد النبي ﷺ إلى هذا العهد الذي انتهى بعمارته في سنة ١٣٨٨هـ في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود أثابه الله.

هذا موجز لما ذكره عبد القدّوس الأنصاري في كتابه (آثار المدينة المنورة).

وقال الشنقيطي: وكان مسجد قباء يبعد ثلاثة أميال من المسجد النبوي، ولكن العمران اتصل به من المدينة، وأصبحت قباء حياً وسط عمران المدينة فقد انسابت المباني جنوبه وغربه بشكل عجيب، وبغربيّه كانت توجد الحديقة التي فيها بئر أريس التي سقط فيها خاتم النبي ﷺ من يد عثمان رضي الله عنه، وقد أدركت هذه البئر وبها ماء وعليها عريش مظلّ، ثم تحوّل مكانها ومكان النخيل من حولها إلى ساحة فسيحة لوقوف السيارات.

وفي عهد الملك فهد بن عبد العزيز أمر بتوسعة هائلة لمسجد قباء على نفقته الخاصة، وهي من الجهة الشمالية والعمل فيها جارٍ الآن على قدم وساق، أعني: في شهر رمضان عام ١٤٠٥هـ.

قلت: هذا بعض ما ذكره الشنقيطي عن مسجد قباء.

قُباء: كالذي قبله ـ وينطقه العامة بإسكان القاف مسبوقة بهمزة مكسورة، وبالقصر ـ: ماء عدّ، قديم يقع في ناحية حرّة كشب الشرقية، وهو ماء مشهور وفير الماء يمر به طريق حاج العراق القديم، قال ياقوت: قبا: موضع بين مكة والبصرة. وقال الهجري: الخارج من ضرية يريد مكة، يشرب بالجديلة، ثم فلحة، ثم الدثينة، ثم قباء، ثم مران، ثم وجرة، ثم ذات عرق، ثم البستان، ثم مكة.

ويلحظ أنه ورد في عبارة الهجرى ممدودًا.

أمّا البكري فإنه ذكره ممدودًا. وأنكر من ذكره بالقصر، قال: قباء: بضم أوله، ممدود، على وزن فُعال، من العرب من يذكره ويصرفه، ومنهم مَنْ يؤنثه ولا يصرفه، وهما موضعان: موضع في طريق مكة من البصرة، وقباء آخر في المدينة، قال ابن الزّبعرى في صرفه:

حين حكّت بقباء بركها
واستحرّ القتل في عبد الأشل

وقال الأصفهاني في ذكر مراحل طريق الحجّ: ترد الدّثينة، وهي قرية في طريق البصرة إلى مكة، فترد قاعًا يقال له: قاع الجنوب، ثم ترد قباء، ثم مرّان، وهو ماء وقرية غنّى كبيرة ونخل.

ـ وقال الهمداني: قباء عليه بهش ونخل وخراب، وهو لعامر بن ربيعة، ومرّان نخل وبهسن وحصين، وهو بين قباء والشبيكة زائغ في الحرّة.

وقال الحربي: أخبرني ابن أبي سعد عن النوفلي عن أبيه قال: قباء في الحرّة، ومن الدّثينة إلى قباء سبعة وعشرون ميلاً، وبقباء

آبار قريبة الماء وماء كثير، وعلى ثمانية أميال من قباء متعشّى يقال له: بلد، فيه آبار عذبة، ثم مرّان.

ومن قصيدة وهب بن جرير في منازل حاجّ العراق، ذكرها الحربي:

حتى إذا مرّت على الدّثينة
وقد ونت، وهنّ قد ونينه
تشكو الحفا وهن قد حفينه
فلم تعرّج ومضت عشاء
بنا نقود أنيقا رواء
فوردت قبل الضحى قباء
فنزل القوم به عجالا
قد أقّدوا وأنصبوا الأجمال
فأوردوا لم يضعوا الرّحالا
ثم مضت مصعدة في الحرّة
لأزمة للقصد والمجرّة
عجلاء تجري قصدها مسرّة
لاغبة بين رذايا لغب
وهي إذا حرّكتها كالقرهب
تهوي إذا انحطّت هوّي الكوكب
فصبّحت قبل الشروق مرّان
بين حراجيج ضعاف الأركان
تعسف أجواز الفلا بالرّكبان

قلت: وقباء لا يزال معروفًا باسمه هذا، وقد استوفيت الحديث عنه في كتابي (معجم عالية نجد) في رسمه، فانظره.

قباء كالذي قبله أيضًا، قال ياقوت: مدينة كبيرة من ناحية فرغانة قرب الشاش، نسب إليها قوم من أهل العلم بكل فن، عن ابن طاهر، وذكر ياقوت عددًا من المنسوبين إليها من العلماء.

قلت: هكذا نرى أن قباء من الأسماء المشتركة، يسمّى به عدد من المواضع أشهرها: قباء الذي في المدينة؛ لشرفه وأهميّته الإسلامية.

القدوم: بقاف مثناة مفتوحة بعدها دال مهملة مضمومة ثم واو ساكنة وآخره ميم، وروى بتشديد الدال: قرية بالشام.

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدّوم.

وقال ابن حجر: حديث أبي هريرة (اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم): رويناه بالتشديد عن الأصيلي والقابسي، ووقع في رواية غيرهما بالتخفيف، قال النووي: لم يختلف الرواة عند مسلم في التخفيف، وأنكر يعقوب بن شيبة التشديد أصلاً.

واختلف في المراد به فقيل: هو اسم مكان، وقيل اسم آله النجار، فعلى الثاني هو بالتخفيف لا غير، وعلى الأول ففيه اللغتان، هذا قول الأكثر، وعكسه الداودي، وقد أنكر ابن السكّيت التشديد في الآلة، ثم اختلف فقيل: هي قرية بالشام، وقيل ثنيّة بالسراة، والراجح: أن المراد في الحديث الآلة، فقد روى أبو يعلى من طريق علي ابن رباح قال: أمر إبراهيم بالختان فاختتن بقدّوم فاشتد عليه فأوحى الله إليه أن عجلت قبل أن نأمرك بآلته، فقال: يا ربّ كرهت أن أأخر أمرك.

قلت: يتبيّن فيما تقدم اختلاف بين العلماء في القدوم، هل هي القدوم آلة النجار؟ أم أنها قرية في الشام، أو أنها ثنيّة في السّراة.

ويترجّح فيما قاله ابن حجر أن القدوم المقصود في حديث الختان هو: القدوم آله النجار.

وقال ياقوت: القدوم: بالفتح، وتخفيف الدال، وواو ساكنة وميم، وهو في لغة العرب

الفأس التي ينحت بها الخشب، وجمعها قدم، قال:

فقلت:

أعيراني القدوم لعلّني
أخط بها قبرًا لأبيض ماجد

قال أبو منصور: قال ابن شميل في قول النبي ﷺ، «أول من اختتن إبراهيم بالقدوم» قال: قطعه بها فقيل له يقولون قدوم قرية بالشام، فلم يعرفها وثبت على قوله، وقال أبو الحسن الخوارزمي: القدّوم، بتشديد الدال اسم قرية بالشام ختن بها إبراهيم الخليل عليه السلام، نفسه.

وعن جار الله العلاّمة: القدّوم، بالألف واللام والتشديد وهي: الفأس العظيمة، قال: وأمّا قدّوم بغير ألف ولام غير مصروف، فهو اسم البلد.

وقدّوم أيضًا: اسم ثنيّة بالسّراة، وقدم، بالتخفيف: موضع من نعمان، وقدوم حصن باليمن.

قال أبو بكر بن موسى: قدوم، بتخفيف الدال، قرية كانت عند حلب، وقيل: كان اسم مجلس إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام، وفي الحديث: اختتن إبراهيم بالقدوم.

وقدوم بالتخفيف: موضع من نعمان، أنبأنا ابن كليب عن ابن نبهان أذنا عن أبي الحسين الصابي عن الرّمّاني عن الحلواني قال: قال محمد بن الحسن عن عبد الله بن إبراهيم الجمحي: كانت بنو ظفر من بني سليم وبنو خناعة حربًا، فدلّ رجل من بني خناعة بني ظفر علي بني واثلة بن مضحل وهم بالقدوم من نعمان فبيتّوهم فقتلوا من بني واثلة خالدًا ومخلدًا وصبيًا بثلاثة من بني خراق، فقال المعترض بن حبواء الظفري:

قتلنا مخلدًا با بني خراق
وآخر جحوشًا فوق الفطيم
وخالدًا الذي تأوي إليه
أرامل لا يؤين إلى حميم
وإمّا تقتلوا نفرًا فإنّا
فجعناكم بأصحاب القدوم

والقدوم: اسم جبل بالحجاز قرب المدينة، وفي حديث قريعة بنت مالك قالت: خرج زوجي في طلب أعلاج له إلى طرف القدوم، قال: قدّوم، بتشديد الدال، أنبأنا ابن حيويّة قال أنبأنا أبو بكر الأنصاري قال: سمعت أبا العباس أحمد ابن يحيى يقول القدّوم، بتشديد الدال اسم موضع، قال أبو بكر بن موسى: إن أراد أبو العباس أحد هذين الموضعين اللذين ذكرناهما فلا يتابع على ذلك؛ لاتفاق أئمة النقل على خلافه، وإن أراد موضعًا ثالثًا صحّ ما قاله ويكون تمام الباب.

قلت: هذا ما ذكره ياقوت من أقوال العلماء في التعريف بالقدوم، وهي أقوال تدل على أن القدوم اسم مشترك يسمّى به عدد من المواضع المختلفة.

قدوم ضان: بقاف مثناة مفتوحة ودال مهملة مضمومة بعدها واو وآخره ميم: جبل في بلاد دوس.

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بخيبر بعدما افتتحوها فقلت: يا رسول الله، أسهم لي، فقال بعض بني سعيد بن العاص: لا تسهم له يا رسول الله، فقال أبو هريرة: هذا قاتل ابن قوقل، فقال ابن سعيد بن العاص: واعجباه لوبر تدلّى علينا من قدوم ضأن ينعى عليّ قتل رجل مسلم أكرمه الله على يديّ.

قال ابن حجر: قدوم: بفتح القاف للأكثر أي طرف، ووقع في رواية الأصيلي بضم القاف، وأما الضان فقيل هو رأس الجبل؛ لأنه في الغالب موضع مرعى الغنم، وقيل هو بغير همز، وهو جبل لدوس قوم أبي هريرة.

وقال ياقوت: قال القاضي عياض المغربي في كتاب (مطالع الأنوار): قدوم ضأن ويروى ضان، غير مهموز مفتوح القاف مخفّف الدال، وعند المروزي بضم القاف، وفي كتاب (المغازي): من رأس ضان، قال الحربي: هو جبل ببلاد دوس. وقدومه ثنيّة، بفتح القاف على رواية المروزي يكون قدوم من قدم من سفره، ويردّ هذا رواية مَنْ روى رأس ضأن، وكذلك يرد قول الحربي إنه ثنيّة الجبل، ووقع في موضع آخر رأس ضال، باللام، وهي رواية ابن السكيت القابسي والهمذاني، وزاد في رواية المستعلي والضال السدر، وهو وهم وما تقدّم من تفسير الحربي أولى أنه ثنيّة جبل، وأن ضالاً جبل.

وقال بعضهم يقال في الجبل ضان وضال، وتأوله بعضهم على أن الضأن من الغنم، وجعل قدومها رؤوسها المتقدّمة منها، وفيه تعسّف، وأمّا الذي قال في حديث إبراهيم عليه السلام فلم يختلف في فتح قافه، واختلف في تشديد داله وأكثر الرواة على تشديدها، حكاه الباجي، وهو رواية الأصيلي والقابسي في حديث قتيبة، قال الأصيلي: وكذا قرأها علينا أبو زيد وأنكر يعقوب بن شيبة التشديد.

قال البكري: وهو قول أكثر أهل العلم، وهي قرية بالشام حيث اختتن إبراهيم عليه السلام، وقد قيل إنها الآلة للنجار، وأنه لا يجوز تشديد الدال منه.

وأما طرف القدّوم: موضع إلى جنب القريعة، بفتح القاف وتشديد الدال في قول الأكثر، وقد خفّف بعضهم، ورواه أحمد بن سعيد الصدفي أحد رواة الموطأ بضم القاف وتشديد الدال: ثنيّة جبل من بلاد دوس، وهذا آخر قول عياض.

فانظر رعاك الله، إلى هذا التخبيط والحيرة والتخليط، ونص هذا على ما يخالفه هذا واعتماد هذا على ما يضعف وشارك في الحيرة.

قلت: فيما ذكره ياقوت دليل على الاختلاف بين العلماء، وكثرة التعسّف في الأقوال في تعريف (قدوم الضأن) الوارد في حديث أبي هريرة.

غير أن مفهوم نص الحديث وإلى جانبه بعض أقوال العلماء يفهم منه أن قدوم ضأن مكان في بلاد دوس.

وأنه جبل، لأنَّ في متن الحديث (وبر تدلى من قدوم ضأن) ومعروف أن الوبر لا يعيش إلاّ في جبل، ويدل قوله: تدلّى على معنى انحدر، ومثله قول امرىء القيس (عقاب تدلت من شماريخ ثهلان) أي: انحدرت من قمم جبل ثهلان.

قُديد: بقاف مثناة مضمومة ودال مهملة مفتوحة بعدها ياء مثناة ساكنة وآخره دال مهملة: موضع على الطريق بين مكة والمدينة، وهو إلى مكة أقرب.

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس ـ في خبر غزوة الفتح ـ قال: صام رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ الكديد، الماء الذي بين قديد وعسفان أفطر، فلم يزل مفطرًا حتى انسلخ الشهر.

وفي رواية **للبخاري** عن سفيان ـ قال سفيان: مناة بالمشلّل من قديد.

وقال الواقدي: بعث رسول الله ﷺ غالب ابن عبد الله الليثي أحد بني كلب بن عوف في

سريّة كنت فيهم، وأمره أن يشن الغارة على بني الملوّح بالكديد، وهم من بني ليث، فخرجنا حتى إذا كنّا بقديد لقينا الحارث ابن مالك بن البرصاء فأخذناه، فقال إنّما جئت أريد الإسلام.

وقال ياقوت: قديد: تصغير القدّ من قولهم قددت الجلد، أو من القدِّ بالكسر، وهو: قد السخلة، أو يكون تصغير القدد من قوله تعالى: ﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [سورة الجن، الآية: ١١]، وهي: الفرق، وسئل كثير فقيل له: لِمَ سمّي قديد قديدًا؟ ففكر ساعة ثم قال: ذهب سيله قددًا، وقديد اسم موضع قرب مكة، قال ابن الكلبي: لمّا رجع تبّع من المدينة بعد حربه لأهلها نزل قديدًا فهبّت ريح قدّت خيم أصحابه فسُمّي قديدًا، وبذلك قال عبد الله ابن قيس الرقيّات:

قل لفند تشيّع الأظعانا
ربّما سرّ عيشنا وكفانا
صادرات عشيّة من قديد
واردات مع الضّحى عسفانا

وذكر ياقوت عددًا ممن ينسبون إلى قديد من العلماء والمحدّثين.

وقال البكري: قديد: بضم أوله على لفظ التصغير: قرية جامعة، وهي كثيرة المياه والبساتين.

... وبين قِديد والكديد ستة عشر ميلاً، الكديد أقرب إلى مكة، وسُمّيت قديدًا لتقدّد السيول بها، وهي لخزاعة وبقديد كانت وقعة الخارجيّ الذي يقال له طالب الحقّ مع أهل المدينة، فقالت المدنيّة ترثيهم:

يا ويلنا وويلالي
أفنت قديد رجالي

والمشلّل: من قديد، وبالمشلّل كانت مناة التي كانوا يعبدونها، وقال مالك: كانت حذو قديد، وكان الأنصار قبل أن يسلموا يهلّون بمناة الطاغية.

وروى ابن سعد بسنده عن جندب بن مكيث الجهني قال: بعث رسول الله ﷺ غالب ابن عبد الله الليثي ثم أحد بني كلب بن عوف في سرّية، فكتب فيهم وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني الملوّح بالكديد، وهم من بني ليث، قال: فخرجنا حتى إذا كنّا بقديد لقينا الحارث بن البرصاء الليثي فأخذناه.

وقال ابن سعد في خبر غزوة الفتح: وخرج يوم الأربعاء لعشر ليالٍ خلون من شهر رمضان بعد العصر ـ يعني رسول الله ﷺ ـ ثم سار، فلمّا كان بقديد عقد الألوية والرايات، ودفعها إلى القبائل، ثم نزل مرّ الظهران عشاء.

وقال ابن سعد في ترجمة القاسم بن محمد: قال يزيد بن هارون عن عمر بن حسين، قال: شهدت موت القاسم، ومات بقديد، ودفن بالمشلّل، وبين ذلك نحو من ثلاثة أميال.

وقال الحربي: قال كثيّر عزّة: إنّما سمّيت قديد لتقدّد السيول بها، قال أبو إسحاق البكري: هي لخزاعة، ... ومن قديد إلى عسفان ثلاثة وعشرون ميلاً، ومن قديد إلى خليص عين ابن بزيع ثمانية أميال، وبقديد آبار كثيرة العدد، وبها بركة وعلى ميل من القربة أربعة آبار مطوية بالخشب، وعلى ميل ونصف من القرية عين تعرف بالعوبر انقطعت، ووراء قديد بأكثر من ميلين وادي غزال.

والعقبة قبل خليص بثلاثة أميال، وهي ثنية لقف، عندها مسجد النبي ﷺ.

قلت: هذا بعض ما ذكره المتقدّمون في تحديد قديد ووصفه، وهذا الموضع له شهرة في كتب السير والمغازي، وهو ما زال باقيًا على اسمه لم يتغيّر، ومن أقوال المتأخرين:

قال عاتق البلادي: قديد: وادٍ فحل من أودية الحجاز، خصيب كثير العيون والمزارع فهي (٢٥) عينًا اندثر بعضها، يأخذ أعلى مساقط من مياهه من حرّة ذرة، وهي جزء من حرّة الحجاز العظيمة التي تكون بسّ طرفها الجنوبي، وحرّة واقم طرفها الشمالي.
ثم ينحدر غربًا بين وادي الأخرم جنوبًا، ودوران شمالاً، وكلاهما يقصر عنه فيسمّى قسمه العلوي ستارة، حتى إذا وصل إلى البحول وهو سوق قديد الرئيس سمّى الوادي قديدًا حتى يدفع في البحر الأحمر عند بلدة القضيمة، ويبلغ طوله قرابة (١٥٠) كيلاً، نصفه ستارة ونصفه قديد، وسكان ستارة بنو سليم، وسكان قديد زبيد من حرب، والحدّ بينهما الظّبيّة، وله روافد كبيرة: منها نخب وطابة والفلق، وحورة، حملوق، ظفر، ومرخ وتضمري، وطلحة، وكلها تصبّ في ستارة، ويحفّ بقديد من الشمال (القديديّة) حرّة نسبت إلى الوادي، كان اسمها المشلّل، يمر سيل قديد على (١٣٠) كيلاً شمالاً من مكة، يقطعه الطريق هناك، وقد وهم حمد الجاسر حين قال: هو قرية ضعيفة بين خليص وعسفان، ووجه الوهم هنا:
١ـ ليس قديد قرية، إنّما هو وادٍ عظيم كثير القرى، يزيد عدد قراه عن أربعين قرية.
٢ـ ليس هو بين خليص وعسفان إنّما يمر شمال خليص، وخليص شمال عسفان، فهو بين خليص ورابغ.
قلت: وبما أن المكان احتفظ باسمه عبر القرون، وأنه ما زال معروفًا فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنه.

قرن الثعالب: بقاف مثناة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وآخره نون موحدة، ثعالب جمع ثعلب: جبيل مطل على منى.
وروى البخاري بسنده عن عائشة ﵂ زوجة النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبديا ليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب.
قال ابن حجر: قرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل أيضًا، وهو على يوم وليلة من مكة، وقرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير، وحكى عياض أن بعض الرواة ذكره بفتح الراء قال: هو غلط، وحكى القابسي أن مَنْ سكّن الراء أراد الجبل، ومن حركّها أراد الطريق التي بقرب منه.
وقال الأزرقي في ذكر ذرع منى والجمار ومأزمي مني إلى محسّر: ومن مسجد منى إلى قرن الثعالب ألف ذراع وخمسمائة وثلاثون ذراعًا.
وقال في ذكر عدد الأميال من المسجد الحرام إلى موقف الإمام بعرفة وذكر مواضعها: وموضع الميل الرابع دون الجمرة الثالثة التي تلي مسجد الخيف بخمسة عشر ذراعًا، وموضع الميل الخامس وراء قرين الثعالب بمائة ذراع، وموضع الميل السادس في جدر حايط محسّر.
وقال الفاكهي: قرن الثعالب جبل مشرف على أسفل منى، بينه وبين مسجد منى ألف وخمسمائة ذراع، وقيل له: قرن الثعالب؛ لكثرة ما كان يأوي إليه من الثعالب.

وقال ابن سعد: أخبرنا الفضل بن دكين قال: أخبرنا حفص عن جعفر عن أبيه أن علي ابن حسين كان يمشي إلى الجمار، وكان له منزل بمنى، وكان أهل الشام يؤذونه فتحوّل إلى قرين الثعالب أو قريب من قرين الثعالب، وكان يركب فإذا أتى منزله مشى إلى الجمار.

وقال ياقوت: قال القاضي عياض: قرن المنازل وهو قرن الثعالب، بسكون الراء: ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة، وهو قرن أيضًا غير مضاف، وأصله الجبل الصغير المستطيل المنقطع عن الجبل الكبير، ورواه بعضهم بفتح الراء وهو غلط، إنما قرن قبيلة من اليمن.

قال البكري: قرن الثعالب: جمع ثعلب: موضع تلقاء مكة قال نصيب:

أجارتنا في الحج أيام أنتم
ونحن نزول عند قرن الثعالب

قلت: وبما تقدّم يتبيّن لنا أمران:

أحدهما: أن مَنْ قال إن قرن الثعالب هو قرن المنازل ميقات أهل نجد فإنه وهم في ذلك، وخلط بين الموضعين.

الثاني: أن قرن الثعالب كان جبيلاً صغيرًا في أسفل منى، وقد ذكره بعضهم مصغّرًا، ووقوعه في تحديد المسافات في منى لا يدع شكاً في أنه واقع في منى، وهو منزل من منازل علي بن الحسين في منى أيام منى.

وفي شعر نصيب ما يدل على أن قرن الثعالب كان منزلاً من منازل الحجاج في منى.

وقال عاتق البلادي: قرن الثعالب كان بمنى، أكيمة صغيرة ثم أزيلت.

قلت: أزيل هذا الجبيل بسبب الإصلاحات التي تقوم بها الدولة السعودية لتوسيع الطرق والمنازل في منى لراحة الحجاج.

وفي رسم قرن المنازل مزيد من الإيضاح، فانظره.

قرن (قرن المنازل): بقاف مثناة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وآخره نون: ميقات الإحرام لأهل نجد.

روى البخاري بسنده عن زيد بن جبير أنه أتى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في منزله وله فسطاط وسرادق فسألته: من أين يجوز أن أعتمر؟ قال: فرضها رسول الله ﷺ لأهل نجد قرنًا، ولأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة.

وروى بسنده أيضًا عن ابن عباس قال: إن النبي ﷺ وقّت لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم.

قال ابن حجر: المنازل بلفظ جمع المنزل، والمركّب الإضافي هو اسم المكان، ويقال له: قرن أيضًا بلا إضافة، وهو بفتح القاف وسكون الراء بعدها نون، وضبطه صاحب الصّحاح بفتح الراء وغلّطوه، وبلغ النووي فحكى الاتفاق على تخطئته في ذلك، لكن حكى عياض تعليق القابسي أن مَنْ قاله بالإسكان أراد الجبل، ومَنْ قاله بالفتح أراد الطريق، والجبل المذكور بينه وبين مكة من جهة المشرق مرحلتان.

وقال الفاكهي: قرن المنازل: وهو وقت من الأوقات التي وقّت رسول الله ﷺ يقال إن رسول الله ﷺ أحرم منها حين أقبل من الطائف بعمرة.

وقال الرّداعي في أرجوزته:

حتى إذا أدنى الرّكاب مدني
بقوّة المنعم لا بالوهن

استبدلت بالخوف دار الأمن
وجاءت الميقات وادي قرن
ومسجداً حفّ بزّي الحسن
به يهلّ الحجّ قبل الرّكن
والمشعرون البدن أهل البدن
ويزجر المرفث كي لا يخنى

قال الهمداني: بقرن مسجد النبي ﷺ وبئره، وهو وادٍ ونخل وحصون وهو على رأس البوباة، والبوباة أرض منقالة إلى وادي نخلة ومصعدها إلى قرن كثيب لا تكاد تعدوه الرذّايا والأنضاء.

قال ياقوت: قال الأصمعي: القرن جبل مطل بعرفات، وقال الغوري: هو ميقات أهل اليمن والطائف يقال له: قرن المنازل، قال عمر ابن أبي ربيعة:

ألم تسأل الربّع أن ينطقا
بقرن المنازل قد أخلقا

وقال القاضي عياض: قرن المنازل وهو قرن الثعالب، بسكون الراء، ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة، وهو قرن أيضًا غير مضاف، وأصله الجبل الصغير المستطيل المنقطع عن الجبل الكبير، ورواه بعضهم بفتح الراء، وهو غلط إنما قرن قبيلة من اليمن.

وفي تعليق عن القابسي: مَنْ قال قرن بالإسكان أراد: الجبل المشرف على الموضع، ومَنْ قال قرن بالفتح أراد الطريق الذي يفترق منه فإنه موضع فيه طرق مختلفة مفترقة.

وقال الحسن بن محمد المهلبي: قرن قرية بينها وبين مكة واحد وخمسون ميلاً، وهي ميقات أهل اليمن، بينها وبين الطائف ذات اليمين ستة وثلاثون ميلاً.

قلت: ما نقله ياقوت عن الأصمعي في قوله: جبل مطل بعرفات: هذا الجبل قرن صغير مطل على الموقف بعرفات يقف عنده الحجاج يوم عرفة، ويُسمّى في هذا العهد: القُرين تصغير قرن، ويسمّى أيضًا جبل الرحمة، أمّا ما نقله عن القاضي عياض في قوله: قرن المنازل وهو قرن الثعالب، فإن فيه خلطاً بين موضعين متباعدين، وقد تقدّم إيضاحه في رسم (قرن الثعالب)، وقد اتّفقت أقوال العلماء في تحديد موقع قرن المنازل بين مكة والطائف وذكر المسافة بينه وبين كل واحدة منهما كما أنهما اتفقوا على أنه ميقات أهل نجد وأهل الطائف وأهل اليمن - يعنون بذلك أهل اليمن الذين يأتون عن طريق الطائف - وهذا الموضع الذي يحرم منه أهل نجد أصبح يسمى: السيل الكبير، ويعرف أيضًا باسمه القديم.

وقد وصف عاتق البلادي هذا الموضع وصفًا جغرافيًا شاملاً قال فيه: السيل الكبير: بلفظ سيل الوادي من الماء بلدة بين نخلتين، الشاميّة واليمانيّة، في حزم مرتفع، غير أن عمرانها قد يمتد في قرن المنازل من نخلة الشامية، وماؤه منها يمرّ فيها طريق الطائف إلى مكة المارّ بنخلة اليمانية المسمّى (طريق اليمانية) تبعد عن مكة ثمانين كيلاً شرقًا، وعن الطائف (٥٣) كيلاً شمالاً غربيًا، كانت تعرف بقرن المنازل، وهي ميقات أهل نجد ومَنْ مرّ بها من غيرهم، ويطلق اسم قرن اليوم على الوادي في أعلاها إلى المحرم على طريق الطائف المار بالهدأة الوادي قرن، والبلدة السيل الكبير، تمييزًا لها عن السيل الصغير، سُمّيت السيل؛ لأن واديها كان يسيل ماؤه على وجه الأرض، وفيها اليوم مدرسة ابتدائية ومسجدان تقام في أحدهما صلاة الجمعة وفيها هيئة للأمر بالمعروف، وفي مثناة نخلة الشامية التي تطل عليها البلدة شرقًا زراعة

متأخرة جلّها نخل، وسكانها الثّبتة من عتيبة، وأرضها حزم جرد مرتفع عما حوله، وهواؤها نقي.

والطريق منها إلى مكة ينحدر انحدارًا في أرض بيضاء دمثة تسمّى البهيتة، كانت تعرف بالبوباة ولدماثة أرضها تتعب السيارات أثناء الصعود من مكة.

قلت: وفي هذا العهد نمت بلدة السيل الكبير، ميقات أهل نجد وظهرت فيها مبانٍ حديثة للمقاهي والمطاعم واستراحات للحجاج وسوق تجارية، وأقامت الدولة فيها مسجدًا كبيرًا تقام فيه الجمعة، وأنشأت حوله حمامات كثيرة موصل فيها الماء والكهرباء، وعنده مواقف واسعة للسيارات يقف فيها الحجاج للإحرام، وتوافرت فيها كلّ المرافق الاجتماعية من قِبَل الدولة.

وقرن من الأسماء المشتركة التي يسمى بها عدد كبير من المواضع ذكر منها ياقوت عددًا متفرقًا في البلاد، وذكر عاتق البلادي كذلك عددًا منها في الحجاز، ويميّز بعضها عن بعض بالإضافة إلى ما يعرفه اسمًا أو وصفًا، ولا يتّسع مقامنا هذا للحديث عن هذه المواضع، التي يسمى كل منها قرنًا، وإنما يعنينا في هذا المقام: قرن المنازل، وقرن الثعالب، وقرن المطل على عرفة، وقد اشتمل حديثنا على التعريف بكلٍّ من هذه الثلاثة.

قصر بني خلف: بقاف مثناة مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وآخره راء مهملة، وخلف بفتح الخاء المعجمة واللام وآخره فاء موحدة: قصر بالبصرة، ينسب إلى خلف آل طلحة الطلحات.

روى البخاري بسنده عن حفصة قالت: كنّا نمنع عواتقنا أن يخرجن في العيدين فقدمت امرأة فنزلت قصر بني خلف فحدّثت عن أختها وكان زوج أختها غزًا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة، وكانت أختي معه في ستّ قالت: كنّا نداوي الكلمى، ونقوم على المرضى فسألت أختي النبي ﷺ، أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها جلباب ألا تخرج؟ قال لتلبسها صاحبتها من جلبابها ولتشهد الخير ودعوة المسلمين.

قال ابن حجر: قصر بني خلف كان بالبصرة، وهو منسوب إلى طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات، وقد ولي إمرة سجستان.

وقال ياقوت: قصر بني خلف بالبصرة، ينسب إلى خلف آل طلحة الطلحات بن عبد الله ابن خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن سبيع ابن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو بن ربيعة وهو خزاعة.

قلت: قصر، من الأسماء المشتركة التي يسمى بها قصور كثيرة متفرقة في أنحاء البلاد، يميز بعضها عن بعض بالإضافة، وقد ذكر ياقوت عددًا كثيرًا منها، وذكر صاحب (الروض المعطار) عددًا كثيرًا منها مذكورة مميّزة بالإضافة.

قطر: بفتح القاف المثناة وطاء مهملة: قطر عربي معروف، يقع على ساحل الخليج.

روى البخاري بسنده عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها وعليها درع قطر ثمن خمسة دراهم فقالت: ارفع بصرك إلى جاريتي انظر إليها فإنها تزهى أن تلبسه في البيت.

قال ابن حجر: القِطْر بكسر القاف وسكون المهملة بعدها راء، وفي رواية المستعلي والسرخس بضم القاف وآخره نون، والقطريّة ثياب من غليظ القطن وغيره، وقيل من القطن

خاصة، وحكى ابن قرقول إنه في رواية ابن السكن والقابسي بالفاء المكسورة آخره راء، وهو ضرب من ثياب اليمن تعرف بالقطرية فيها حمرة.

قال البنّاسي: والصواب بالقاف، وقال الأزهري: الثياب القطرية منسوبة إلى قطر قرية في البحرين فكسروا القاف للنسبة وخفّفوا.

وقال ياقوت: قطر: بالتحريك، وآخره راء، قال أبو عبيدة: القطريّة نوع من البرود وأنشد:

كساك الحنظلي كساء صوف
وقطرياً فأنت به تفيد

وقال البكري: البرود القطرية حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة، وقال خالد بن جنبة هي: حلل تعمل في مكان لا أدري أين هو، وهي جياد وقد رأيتها وهي حمر تأتي من قِبَل البحرين، قال أبو منصور: في أعراض البحرين على سيف الخط بين عمان والعقير قرية يقال لها قطر، وأحد الثياب القطرية تنسب إليها، وقالوا قِطريّ فكسروا القاف وخفّفوا كما قالوا دهريّ، وقال جرير:

لدى قطريّات إذا ما تغوّلت
بها البيد غاولن الحزوم الفيافيا

كذا روى الأزهري أراد بالقطريات نجائب نسبها إلى قطر؛ لأنه كان بها سوق لها في قديم الدّهر، وقال الراعي فجعل النعام قطرية:

الأوب أوب نعائم قطريّة
والآل آل نحائص حقب

نسب النعام إلى قطر؛ لاتصالها بالبر ورمال يبرين، والنعام تبيض فيها فتصاد وتحمل إلى قطر، وأول بيت جرير:

وكائن ترى في الحيّ من ذي صداقة
وغيران يدعو ويله من حذاريا

إذا ذكرت هند أتيح لي الهوى
على ما ترى من هجرتي واجتنابيا

خليلي لولا أن تظنّا بي الهوى
لقلت سمعنا من سكينة داعياً

كفى واسمها صوت المنادي فإنه
قريب وما دانيت بالودّ دانيًا

ألا طرقت أسماء لا حين مطرقٍ
أحمّ عمانيًا وأشعث ماضيا

لدى قطريات إذا ما تغوّلت
بها البيد غاولن الحزوم الفيافيا

كذا روى السكري من خط ابن أخي الشافعي، ومما يصحّح أنها بين عمان والبحرين قول عبدة ابن الطيب:

تذكّر سادتنا أهلكم
وخافوا عمان وخافوا قطر

وخافوا الرّواطي إذا عرضت
ملاحس أولادهن البقر

الرّواطي: ناس من عبد القيس لصوص.

قلت: قَطَر قُطْر عربي ما زال معروفًا بهذا الاسم، يقع في شبه جزيرة على ساحل الخليج العربي، تقوم فيه دولة عربية مستقلة، عضو في مجلس التعاون الخليجي، تعرف في هذا العهد بهذا الاسم (قطر).

وبما أن هذا القطر ما زال معروفًا باسمه، ولدولته شهرتها واعتبارها فإن ذلك يغني عن الإطالة في الحديث عنها، وقد أُلّفت مؤلّفات خاصة في تاريخ هذه الدولة القطرية ومراحل نموّها.

وما ذكره المتقدّمون في تحديد قطر ينطبق تمام الانطباق على موضع هذه الدولة القائمة في هذا العهد.

قُعيقعان: بقاف مثناة مضمومة وعين مهملة مفتوحة وياء مثناة ساكنة وقاف مثناة مكسورة

وعين مهملة بعدها ألف وآخره نون، بلفظ التصغير: جبل معروف في مكة.

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: لمّا قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال أرملوا ليرى المشركين قوتهم، والمشركون من قِبلَ قعيقعان.

قال الأزرقي في خبر قدوم تبّع لمكة ـ ثم سار تبّع حتى قدم مكة فكانت سلاحه بقعيقعان فيقال: فبذلك سُمّي قعيقعان.

قال الفاسي: قعيقعان: الذي قيل إنه أحد أخشبي مكة، قال ياقوت في تعريفه لمّا ذكر المواضع التي سُمّيت قعيقعان: بضم القاف وفتح العين.

وذكر النووي ما يوافق ذلك؛ لأنه قال بعد أن ذكر محله من الروضة هو: بضم القاف الأولى وفتح العين وبعدها ياء مثناة من تحت ساكنة وكسر القاف الثانية: وهو جبل مكة المعروف، ومقابل لأبي قبيس.

وقوله: قول ياقوت في تعريف قعيقعان هذا: إنه مقابل أبي قبيس يفهم منه أنه أخشب مكة الآخر، والله أعلم.

والأخشب في اللغة كل جبل خشن غليظ، ذكر ذلك ابن الأثير، وهو في صحاح الجوهري بمعنى ذلك، وسُمّي قعيقعان لقعقعة سلاح مضاض بن عمرو الجرهمي وقومه فيه لمّا خرجوا لقتال قطور. وقيل لقعقعة سلاح تبّع لمّا قدم مكة لتعظيم حرمة البيت بعد أن كان له فيه رأي غير ذلك.

وقال ياقوت: قعيقعان: بالضم ثم الفتح، بلفظ تصغير: وهو اسم جبل بمكة، قيل: إنما سمّي بذلك لأن قطوراء وجرهم لمّا تحاربوا قعقعت الأسلحة فيه، وعن السّدّى أنه قال: سمّي الجبل الذي بمكة قعيقعان؛ لأن جرهم كانت تجعل فيه قسيّها وجعابها ودرقها، فكانت تقعقع فيه.

والواقف على قعيقعان يشرف على الركن العراقي إلا أن الأبنية قد حالت بينهما، قال البلخي، وقال عمر بن أبي ربيعة:

قامت تراءى بالصِّفاح كأنها
كانت تريد لنا بذاك ضرارا
سقيت بوجهك كل أرض جئتها
ولمثل وجهك أسقى الأمطارا
من ذا نواصل إن صرمت حبالنا
أو من نحدّث بعدك الأسرارا
هيهات منك قعيقعان وأهلها
بالحزنتين فشط ذاك مزارا

وبالأهواز جبل يقال له قعيقعان، منه نحتت أساطين مسجد البصرة، سُمّي بذلك؛ لأنّ عبد الله بن الزبير بن العوّام ولّى ابنه حمزة البصرة فخرج إلى الأهواز، فلمّا رأى جبلها قال: كأنه قعيقعان فلزمه ذلك، قال أعرابيّ:

لا ترجعنّ إلى الأهواز ثانية
قعيقعان الذي في جانب السوق

وقال عاتق البلادي: قعيقعان: هو الجبل الضخم المشرف على المسجد الحرام من الشمال الغربي، ممتدًا بين ثنيتي كداء، وكديّ، مشرفًا على وادي ذي طوى غربًا.

ولا يعرف اليوم باسم قعيقعان، ويسمّى بأسماء كثيرة: طرفه الشمالي الغربي يسمّى جبل العبّادي، والشرقي المشرف على ثنية كداء ومقبرة المعلاة يسمّى جبل السّليمانيّة، أما الجزء الأكبر منه في الجنوب فيسمّى جبل هندي، وشرقه المتصل بريع الفلق إلى جوفة غيلم فيسمّى جبل الفلق، ويسمى طرفه المشرف على حارة الباب (جبل المطابخ) وطرفه المشرف على ثنية كدي (ريع الرسّام) يسمى قرنًا، وسمعت أيضًا أن طرفه الغربي

ممايلي بئر طوى يسمى جبل السودان، لم أتمكن من تحقيق هذا القول، ومنه أيضًا جبل فلفلة، وجبل النقاء، وجبل القرارة، وكلها أحياء من مكة.

قلت: وقد تقدّم في رسم الأخشبين مزيد من الإيضاح عن هذا الجبل العظيم الذي هو أحد أخشبي مكة.

قناة (الشّظاة): بقاف مثناة مفتوحة ونون موحدة بعدها ألف وآخره تاء: وادٍ في المدينة.

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا فرفع يديه وما نرى في السماء من قزعة فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى صار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ... وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهرًا.

قال ابن شبّة: مسيل وادي قناة يأتي من وجّ، وبلغنا عن شريح بن هانىء الشيباني ـ هكذا قال أبو غسان ـ أنه قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه امرأته أم الغمر، فأسلمت ففرّق بينهما عمر رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين اردد عليّ زوجتي. فقال: إنها قد أسلمت ولا تحل لك إلا أن تسلم فأردها عليك. فنزل شريح بقناة، فأقام بها وقال:

ألا يا صاحبيّ ببطن وجّ
رواحًا لا أرى لكما مقامًا
ألا تريان أم الغمر أمست
قريبًا لا أطيق لها كلامًا

فجعل بطن قناة بطن وجّ؛ لأن السيل يأتي منه.

قال ياقوت: قناة: بالفتح، والقناة: القامة، ومنه: فلان صلب القناة، وكل خشبة عند العرب قناة كالعصا والرمح، وجمعها قنا، وقنى جمع الجمع، قاله ابن الانباري.

وقال الأزهري: القناة ما كان ذا أنابيب من القصب، وبذلك سُمّيت الكظائم التي تجري تحت الأرض قنى، والقناة: آبار تحفر تحت الأرض ويخرق بعضها إلى بعض حتى تظهر على وجه الأرض كالأنهار.

وقناة وادٍ بالمدينة، وهي أحد أوديتها الثلاثة عليه حرث ومال، وقد يقال: وادي قناة، قالوا: سُمّي قناة؛ لأن تبّعاً مرّ به فقال: هذه قناة الأرض، وقال أحمد بن جابر: أقطع أبو بكر رضي الله عنه، الزبير ما بين الجرف إلى قناة، وقال المدائني: وقناة وادٍ يأتي من الطائف، ويصبّ في الأرحضية وقرقرة الكدر، ثم يأتي بئر معاوية، ثم يمر على طرف القدوم في أصل قبور الشهداء بأحد، قال أبو صخر الهذلي:

قضاعية أدنى ديار تحلّها
قناة وأنّى من قناة المحصّب؟

وقال: النعمان بن بشير، وقد ولي اليمن يخاطب زوجته:

أنّى تذكرها وغمرة دونها
هيهات بطن قناة من برهوت
كم دون بطن قناة من متلدّد
للناظرين وسربخ مرّوت

وقال السمهودي: وادي قناة، وتسمّى الشظاة، وفي القاموس: أن هذا الوادي عند المدينة أي: ما حاذاها منه تسمّى قناة، وما أعلى منها عند السدّ الذي أحدثته نار الحرّة تسمّى بالشظاة، وقال ابن زبالة: إن سيول قناة إذا اجتمعت تأتي من الطائف، يأتي

وادي قناة من المشرق حتى يصل السدّ الذي أحدثته نار الحجاز.

قال المطري: وادي الشظاة يأتي من شرقي المدينة من أماكن بعيدة عنها إلى أن يصل إلى السدّ الذي أحدثته النار، نار الحرّة التي ظهرت في المدينة الشريفة في جمادي الآخرة من سنة أربع وخمسين وستمائة، ظهرت من وادي يقال له وادي أحيلين في الحرّة الشرقية، وسارت من مخرجها إلى جهة الشمال مدة ثلاثة أشهر تدبّ دبيب النمل، تأكل كلّ ما مرّت عليه من جبل وحجر، ولا تأكل الشجر فتثير كلما مرّت عليه فيصير سدًا لا مسلك فيه لإنسان ولا دابة إلى منتهى الحرّة من جهة الشمال، فقطعت في وسط وادي الشظاة المذكور إلى جهة جبل وعيرة فسدّت الوادي المذكور بسدّ عظيم، بالحجر المسبوك بالنار، وانقطع وادي الشظاة بسببه، وصار السيل إذا سال ينحبس خلف السدّ المذكور، وهو وادٍ عظيم فتجتمع خلفه المياه، حتى يصير بحرًا مدّ البصر عرضًا وطولاً، ـ شاهدته كذلك في شهر رجب من سنة سبع وعشرين وسبعمائة ـ وانخرق هذا السدّ من تحته في سنة تسعين وستمائة لتكاثر الماء من خلفه وجرى في الوادى المذكور سنة كاملة سيلاً يملأ ما بين جانبي الوادي، ثم انخرق مرّة أخرى في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، وكان ذلك بعد تواتر أمطار عظيمة في الحجاز في تلك السنة وكثر الماء من جانبي السدّ ومن دونه مما يلي جبل وعيرة وتلك النواحي، فجاء سيل طام لا يوصف، ومجراه على مشهد حمزة ﵁، وحفر واديًا آخر قبلي الوادي ومشهد حمزة وقبلي جبل عينين، وبقي المشهد الشريف وجبل عينين في وسط السيل أربعة أشهر أو نحو ذلك، ثم استقرّ في الوادي بين القبلي الذي أحدثه، والشمالي قريبًا من سنة، وكشف عن عين قديمة قبلي الوادي، فجدّدها الأمير صاحب المدينة، ويصبّ وادي الشظاة في رومة بمجتمع السيول.

وقال: ذكر ابن زبالة ـ أن تبّعاً لما وصل إلى المدينة كان منزله بقناة، وأنه لمّا شخص عن منزله بقناة قال: هذه قناة الأرض، فسمّيت قناة.

قلت: هذا بعض ما ذكره المتقدّمون من المؤرخين عن وادي قناة ـ وصفه وتحديده بداية ونهاية، وأثر نار الحرّة على مجراه ـ ومنه يتبيّن أن ما كان أعلى من سدّ الحرّة من هذا الوادي يسمّى (الشظاة) وما كان أسفل من السدّ يسمّى (قناة).

وقال عبد القدوس الأنصاري: وادي قناة: يجيء هذا الوادي من شرقي المدينة، وأعلى مصادر وادي قناة من وجّ بالطائف، ويشق الحرّة الشرقية في قسمها المحترق، ويمضي هابطًا حتى يفضي إلى محاذاة أُحد من ناحيته الجنوبية، ويستمر حتى يصبّ في زغابة.

ويطلق عليه في عرف أهل المدينة الحاضر، اسم سيل سيدنا حمزة، وقد بنيت سدود متعدّدة شرقي ضريح سيّد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ، وشكل هذه السدود يدل على أنها من آثار دولة بني عثمان.

ويبعد عن المدينة في أقرب جهاته بنحو ثلاثين دقيقة بالمشي المتوسط وهذه الجهة هي الواقعة بين المدينة وضريح حمزة عمّ النبي ﷺ.

قلت: هذه المسافة كانت في الزمن الذي كتب فيه عبد القدوس الأنصاري كتابه منذ ما يزيد على نصف قرن، أما في هذا العهد فإن عمران المدينة قد تجاوز هذا الوادي شمالاً إلى

أكناف جبل أُحد وتوسّع شرقًا وغربًا في تلك الجهة.

وعلّق عاتق البلادي على قولهم: يأتي من الطائف حتى يصب في الأرحضية ـ يعني سيل قناة ـ فقال: وهو وهم وقع فيه حتى بعض المتأخرين، لأن مياه الطائف لا تصل إلى هناك ولا تقرب المدينة، ولا شك أن الأقدمين كانوا غير قادرين على تتبّع مثل هذا فظنّوا ذلك، وقناة هو: الوادي الذي يمر بين المدينة وأحد أعلى الخنق. والخنق يأخذ سيل الشعبة: وادٍ يأتي من شرف نجد من جهات ضريّة.

وقد ردّ حمد الجاسر على عاتق البلادي بقوله: إن المرء عندما يُلْقي نظرة على الخريطة يشاهد أن الأودية الواقعة شمال الطائف غرب الحوية، كوادي قرّان وغيره تتجه شمالاً حتى تصب في العقيق على مقربة من عشيرة، أي أنها تبتدىء من قرب الدرجة ٢٨/ ٤٠° طولاً، و٤٥/ ٢١° عرضًا، ويستمر المجرى بارزًا فوق (الخريطة) إلى الدرجة ٣٠/ ٢٤° عرضًا شماليًا بقرب المدينة، وهذا الوادي عندما يمر بمنهل عشيرة يتّجه صوب الشمال الشرقي حتى يمر بالبركة، وهو العقيق الذي قال فيه الإمام الشافعي عن حجّاج العراق: لو أهلّوا من العقيق كان أحب إليّ، وذلك أنه يقع شرق ذات عرق بـ ٢٠ ميلاً تقريبًا، وبعد مجاوزة البركة يمر بالمسلح، حيث تجتمع به من الغرب أودية المسلح وبيضان وحاذة وارن، وكثير من أودية الحرة المشرّقة، ويأتيه من جهة الشرق سيول أودية الجبال الواقعة شرقه مثل كيوان والستار وغيرهما، ثم يستمر مشملاً حيث تجتمع فيه أودية صفينة والسوارقية، ثم يسير متّجهًا صوب الشمال الشرقي مارًا بمهد الذهب (معدن بني سليم قديمًا)، وبعد أن يجوزه تأتيه من الشرق سيول جبل شروري وصائد أصواب ووادي العمق، ثم ينعطف اتجاهه صوب الشمال الغربي بانعطاف الحرة، فتمدّه أودية شرقية كثيرة مع أودية الحرّة الشرقية، ويسير في اتجاهه حتى يلتقي به وادي الشقرة الذي تجتمع فيه أودية الحناكية (نخل قديمًا)، والصويدرة (الطرف قديمًا) وقبل هذا الوادى تسيل فيه الأودية الواقعة غرب رحرحان، وأظلم وغيرهما، وبعد اجتماع هذه الأودية فيه يفيض في قاع حضوضى بقرب الدرجة ٠٥/ ٤٠° طولاً و١٥/ ٢٤° عرضًا، ومن هذا القاع يمتد مجرى وادي العقيق مغرّبًا تاركًا جبل الصّعبية وجبل تيام (تيأب قديمًا) شماله، وحرّة المدينة جنوبه حتى يجتمع بوادي قناة بقرب مطار المدينة، ولا تزال آثار المجرى واضحة.

قلت: يتلخّص ما قاله حمد الجاسر في أن سيول الأدوية الواقعة شمال الطائف غرب الحويّة تلتقي بعقيق عشيرة ثم تتّجه إلى المدينة، ملتقية بأودية كثيرة متعددة وقاطعة مسافات شاسعة حتى تصل إلى وادي قناة في المدينة، غير أنه لم يثبت أن سيل وادي وجّ يلتقي بهذه الأودية أو يتّجه إلى المدينة ـ بل لم يتعرض لذكره في هذا الحديث ـ وقد اعتمد في حديثه على الخريطة الجغرافية، بينما كان عاتق البلادي في حديثه عن وادي وجّ معتمدًا على مشاهدته في زيارة ميدانية لهذا الوادي.

قال في وصف وادي وجّ: وتحديدة هو وادي الطائف، وادٍ فحل يأخذ من شفا هذيل حيث يقاسم نعمان وضيم الماء فيتجه شرقًا فتأخذ عن يساره نخلة الشامية وعن يمينه ليّة، فيمرّ في طرف مدينة الطائف من الجنوب الغربي ثم الجنوب ثم الشرق. يسمّي أعلاه المخاضة ووسطه المثناة وأسفله العرج، ويجتمع سيله

مع سيل عقيق الطائف في المبعوث شرق عكاظ، وفيه من القرى العامرة: الوهط، وشواحط والأخيضر، وبالأخيضر يسمّى الوادي إذا مرّ به قرب اجتماعه بالعقيق.

سكانه في أعلاه الطلحات من هذيل، ووسطه ثقيف، وأسفله عتيبة وعدوان.

أما عقيق الطائف فإنه واد يأخذ من جبل الغمير الذي يظلّل الطائف وقت الأصيل، ثم يمر بطرف الطائف من الغرب والشمال، وعليه أحياء من الطائف، ثم يعدل شمالاً وفيه قرى، منها: المليساء، ولقيم وأم الحمضة، فإذا وصل إلى الحويّة سُمّي شرب، وملّاكه الأشراف وخاصة العبادلة، وفيه أخلاط من عتيبة من ثقيف ملاكه الأصليين. ووادي شرب يجتمع بوادي العرج ثم في المبعوث.

أما وادي المبعوث: فإنه مجمع أودية العرج وشرب والمهيد، فيصب في سهول ركبة في سيوح هناك، يقطعه طريق الطائف المنجد على قرابة (٦٠) كيلاً، ويقول البعض: إن سيوله إذا كثرت تصبّ في عقيق عشيرة. جُلّ سكانه اليوم من قريش.

باب الكاف

كَداء: بكاف مفتوحة ودال مهملة وآخره ألف ممدود: ثنية في أعلى مكة.

روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ دخل مكة من كداء من الثنية العليا التي بالبطحاء، ويخرج من الثنية السفلى.

قال ابن حجر: كداء: بفتح الكاف والمدّ، قال أبو عبيدة: لا يصرف، وهذه الثنية هي التي ينزل منها إلى المعلى مقبرة أهل مكة، وهي التي يقال لها: الحَجُون بفتح المهملة وضم الجيم، وكانت صعبة المرتقى فسهّلها معاوية، ثم عبد الملك، ثم المهدي على ما ذكره الأزرقي.

قال عياض والقرطبي وغيرهما: اختلف في ضبط كداء وكدى فالأكثر على أن العليا بالفتح والمد والسفلى بالضم والقصر، وقيل: بالعكس، قال النووي: وهو غلط.

قال الفاكهي: ومن ثنية المقبرة دخل رسول الله ﷺ في حجة الوداع. قال بعضهم: إن ثنية المقبرة هو اسمها، يقال لها: ثنية المقبرة، ويقال: اسمها كداء، وهي ثنية المعلاة.

وقال الفاكهي: كداء: الجبل المشرف على المقبرة، والوادي، وله يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه - يوم الفتح:

عدمت بنيتي إن لم تروها
تثير النقع عن كنفي كداء(١)

وفي كداء يقول شاعر من العرب:

كرهت كتيبة الجمحي لمّا
رأيت الموت سال على كداء

وروى الفاكهي بسنده عن ابن عمر -رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ يدخل من ثنية كداء، ويخرج من ثنية كدى.

قال المحقق: يتحصّل ممّا ذكره الفاكهي لهذه الثنية من أسماء ستة وهي: ثنية المدنيين، ثنية كداء، وثنية المقبرة، والثنية العليا، وثنية العقبة، وثنية المعلاء.

وقال الفاسي: كداء: الموضع الذي يستحب للمحرم دخول مكة منه، وهو الثنية التي بأعلى مكة التي يهبط منها إلى المقبرة المعروفة بالأبطح، ويقال لها الحجون الثاني، وما ذكرناه في تعريف كداء هذا، ذكر الفاكهي ما يوافقه؛ لأنه قال في تعريفه: لما في شق معلاة مكة الشامي: كداء الجبل الشارع على المقبرة والوادي... وفي كلام غير واحد من المتأخرين تسمية هذه الثنية بكداء، منهم

---

(١) ويروى:

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع موعدها كداء

سليمان بن خليل، والمحبّ الطبري، والنووي، وقال المحبّ: هي بالفتح والمد تصرف على إرادة الموضع، ويتركه على إرادة البقعة.

وقال ياقوت: كداء: بالفتح والمدّ، وكُديّ بالتصغير وكدى مقصور، كما يذكر اختلاف، ولا بد من ذكرها سوياً في موضع ليفرّق بينها، قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: كداء، الممدودة بأعلى مكة عند المحصّب دار النبي ﷺ من ذي طوى إليها، وكُدىً، بضم الكاف وتنوين الدال: بأسفل مكة عند ذي طوى بقرب شعب الشافعيين، ومنها دار النبي ﷺ إلى المحصّب، فكأنه ضرب دائرة في دخوله وخروجه، بات بذي طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها وفي خروجه خرج من أسفل مكة ثم رجع إلى المحصّب.

وأمّا كدي، مصغّرًا: فإنما هو لمن خرج من مكة إلى اليمن وليس من هذين الطريقين في شيء، أخبرني بذلك كله أبو العباس أحمد ابن عمر بن أنس العذري عن كل مَنْ لقى من مكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث الواردة في ذلك، هذا آخر كلام ابن حزم، وغيره يقول: الثنية السفلى هي كداء، ويدل عليه قول عبيد الله بن قيس الرقيّات:

أقفرت بعد عبد شمس كداءُ
فكديّ فالركن فالبطحاءُ
فمنى فالجمار من عبد شمس
مقفرات فبلدح فحراءُ
فالخيام التي بعسفان فالجـ
ـفة منهم فالقاع فالأبواءُ
موحشات إلى تعاهن فالسقـ
ـيا قفار من عبد شمس خلاءُ

قال الأحوص:

رام قلبي السلوّ من أسماء
وتعزّى وما به من عزاء
إنني والذي يحج قريش
بيته سالكين نقب كداء
لم ألمّ بها وإن كنت منها
صابرًا كالذي وردت بداء

كذا قال أبو بكر بن موسى ولا أرى فيه دليلاً، وقد أطال ياقوت في حديثه عن هذه المواضع الثلاثة - كداء وكُدى وكديّ - وذكر اختلافًا بين العلماء في المدّ والقصر بالنسبة لهذه الأسماء، وكذلك جواز صرفها ومنعه، غير أن أجود ما ذكره هو ما تقدّم عن ابن حزم.

قلت: هذا بعض ما ذكره المؤرخون عن تحديد ووصف كداء، وهم متفقون على أن ثنية كداء هي الثنية التي تعرف في هذا العهد (بالحجون) وبعض العامة يقلبون النون لامافيقولون: ريع الحجول.

وهذه الثنية (ريع الحجون) معروفة في مكة، وشهرتها تغني عن الإطالة في وصفها، وقد تقدّم في رسم الثنية، العليا مزيد من الإيضاح لهذه الثنية - فانظره.

كُداء (كُدَىً): بضم الكاف ودال مهملة وآخره ألف ممدود: ثنية بأسفل مكة.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عام الفتح من كداء وخرج من كداء من أعلى مكة.

وقد علّق ابن حجر على هذا الحديث موضّحا قوله من أعلى مكة بأنه وهم وقع فيه أحد رواة الحديث كما سيأتي.

وروى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ دخل مكة من كداء من الثنية

العليا التي بالبطحاء، ويخرج من الثنية السفلى.

قال البخاري كَداءوكُداء موضعان.

قال ابن حجر: الثنية السفلى: ذكر في ثاني حديث الباب: وخرج من كُدى، وهو بضم الكاف مقصور وهي عند باب شبيكة، بقرب شعب الشاميين من ناحية قعيقعان، وكان بناء هذا الباب عليها في القرن السابع، قوله (من أعلى مكة): كذا رواه أبو أسامة فقلبه والصّواب ما رواه عمرو وحاتم عن هشام: دخل مكة من كداء من أعلى مكة، ثم ظهر لي أن الوهم فيه ممن دون أبي أسامة، فقد رواه أحمد عن أبي أسامة على الصواب.

وقال عياض والقرطبي وغيرهما: اختلف في ضبط كداء وكدى فالأكثر على أن العليا بالفتح والمد، والسفلى بالضم والقصر، وقيل: بالعكس. قال النووي: وهو غلط.

وحكى الحميدي عن أبي العباس العذري أن بمكة موضعًا ثالثًا يقال له: كُديّ، وهو بالضم والتصغير يخرج منه إلى جهة اليمن، قال المحبّ الطبري: حقّقه العذري عن أهل المعرفة بمكة، قال: وقد بني عليها باب مكة الذي يدخل منه أهل اليمن.

قلت: ثنية كديّ ـ بالتصغير ـ ما زالت معروفة في جنوب مكة بهذا الاسم.

وقال الفاكهي: ثنية كدى: التي يهبط منها إلى ذي طوى، وهي التي دخل منها قيس ابن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ يوم الفتح، وخرج منها رسول الله ﷺ.

وروى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يدخل من ثنية كداء، ويخرج من ثنية كدى.

قال الفاسي: كدى: الموضع الذي يستحب الخروج منه لمن كان في طريقه، هو الثنية التي بأسفل مكة، التي بني عليها بابها المعروف بباب الشبيكة، على ما يقتضيه كلام المحبّ الطبري في شرح الثنية؛ لأنه قال فيه: وكُدى التي يخرج منها الحاج مضمومة مقصورة، وقد بني عليها باب مكة الذي يتوجّه منه إلى عمرة التنعيم.

وباب مكة الذي أشار إليه المحبّ هو باب الشبيكة؛ لأن الناس تتوجّه منه إلى عمرة التنعيم غالبًا، وذكر النووي ما يؤيّد ما ذكره المحبّ الطبري في ضبطها ومكانها؛ لأنه قال في الإيضاح، في الباب الثالث: الرابعة السنّة أن يدخل مكة من ثنية كَداء بفتح الكاف والمدّ وهي بأعلى مكة ينحدر منها إلى المقابر، وإذا خرج راجعًا إلى بلده خرج من ثنية كُدى بالضم والقصر والتنوين، وهي بأسفل مكة بقرب جبل قعيقعان وإلى صوب ذي طوى.

وبأسفل مكة ثنية يقال لها: كُديّ، بالضم وتشديد الياء وتنوينها، يخرج منها إلى جهة اليمن ذكر ذلك المحب الطبري قال: وقد بني عليها باب مكة يدخل منه أهل اليمن ويخرجون، هكذا قال في شرح التنبيه.

قال عاتق البلادي: كُدى: بالضم والتنوين: ثنية بمكة يخرج منها الطريق من الحرم إلى جرول، تفصل بين نهاية قعيقعان في الجنوب الغربي وجبل الكعبة جعل فيها في زمن الأشراف مركز لرسم البضائع الآتية من جدة فسمّيت (ريع الرسّام) والعامة تقول: الرسان خطأ، ولا تعرف اليوم إلا بريع الرسّام. ومثله قال عبد الملك بن دهيش: تعرف اليوم (ريع الرسّام)، سميت بذلك؛ لأن الذي يأخذ الرسم ـ الضريبة ـ على القادم من جدة يقعد هناك، فسمّي الريع به.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره العلماء في التعريف بهذه الثنية (كُدى)، وقد اختلفوا في

ضبط اسم هذه الثنية بين فتح أوله ومدّ آخره، وبين ضم أوله وقصر آخره، والذي يترجّح من أقوالهم أنه بضم أوله وقصر آخره.
وقد تقدّم في رسم الثنية السفلى مزيد من الإيضاح لهذه الثنية، فانظره.

كَديد: بفتح الكاف ودال مهملة مكسورة وياء مثناة ساكنة وآخره دال مهملة: موضع على الطريق بين مكة والمدينة، بين عسفان وأمج.
روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام، حتى إذا بلغ الكديد أفطر فأفطر الناس، قال أبو عبد الله: والكديد ماء بين عسفان وقديد.
قال ابن القيّم: ثم مضى رسول الله ﷺ وهو صائم والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد ـ وهو الذي تسمّيه الناس اليوم قديدًا ـ أفطرو أفطر الناس معه ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران.
قلت: في هذا القول خلط بين موضعين مختلفين، فالكديد بالكاف موضع بعينه، وقديد بالقاف المثناة موضع آخر.
قال ابن حجر: الكديد: بفتح الكاف وكسر الدال المهملة مكان معروف، وقع تفسيره في نفس الحديث؛ لأنه بين عسفان وقديد، يعني: بضم القاف على التصغير، وقع في رواية المستعلي وحده نسبة هذا التفسير للبخاري، وبين الكديد ومكة مرحلتان.
وقال ياقوت: الكديد: فيه روايتان رفع أوله وكسر ثانيه، وياء وآخره دال أخرى، وهو التراب الدقاق المركّل بالقوائم، وقيل: الكديد ما غلظ من الأرض، وقال أبو عبيدة: وهو موضع بالحجاز ويوم الكديد من أيام العرب، وهو موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة، وقال ابن إسحاق: سار النبي ﷺ إلى مكة في رمضان فصام وصام أصحابه حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر.
وقال البكري: الكديد بفتح أوله وكسر ثانيه بعده دال وياء مهملة أيضًا: موضع بين مكة والمدينة، بين منزلتي أمج وعسفان، وهو ماء عين جارية عليها نخل كثير لابن محرز المكّي.
وقال الواقدي في خبر سريّة غالب بن عبد الله إلى كديد ـ في صفر سنة ثمان: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي أحد بني كلب بن عوف، في سريّة وأمره أن يشنّ الغارة على بني الملوّح بالكديد ـ وهم من بني ليث ـ قال الراوي: فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن مالك بن البرصاء، فأخذناه فقال إنما جئت أريد الإسلام، فقلنا: لا يضرك رباط ليلة إن كنت تريد الإسلام، وإن يكن غير ذلك نستوثق منك فشددناه وثاقًا. . . ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس، فكمنّا ناحية الوادي فبعثني أصحابي ربيشة لهم فخرجت فأتيت تلاً مشرفًا على الحاضر يطلعني عليهم فرآني رجل منهم فأرسل سهمًا فوالله ما أخطأ به جنبي، فانتزعته فوضعته وثبتُ مكاني فقال لامرأته: والله لو كان زائله لتحرّك بعد، لقد خالطه سهمي، ثم دخل خباءه وراحت ماشية الحيّ من إبلهم وأغنامهم، فحلبوا وعطّشوا فلما اطمأنوا وهدؤوا شنينا عليهم الغارة، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، واستقنا النّعم والشّاء فخرجنا نحدوها قبل المدينة. . . وخرج صريخ القوم في قومهم فجاءنا ما لا قِبلَ لنا به، ونظروا إلينا وبيننا وبينهم الوادي وهم موجّهون إلينا، فجاء الله بالوادي من حيث شاء بماء ملأ جنبيه ـ وأيم الله ما رأينا قبل ذلك سحابًا ولا مطرًا ـ

فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه، فلقد رأيتهم وقوفًا ينظرون إلينا، وقد أسندنا في المشلّل وفتناهم، فهم لا يقدرون على طلبنا، فما أنسى رجز أميرنا غالب:

أبى أبو القاسم أن تعزّ بي
وذاك قول صادق لم يكذب
في خضل نباته مغولب
صفر أعاليه كلون المذهب

ثم قدمنا المدينة.

وقال الحربي: من أمج إلى الروضة أربعة أميال، وهي عين وحوض لأبي طلحة يسرة عن الطريق، وبعد الروضة بميلين عين يقال لها الكاملية، ماؤها كثير، عليها نخل لابن محرز المكي.

ومن خليص إلى الكديد ثمانية أميال، وهي عين جارية ونخل كثير لابن محرز المكي يمنة الطريق.

وروى الحربي بسنده عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ في سفر عام الفتح، لعشر مضين من رمضان، فصام وصام الناس معه، حتى إذا أتى الكديد ماء بين عسفان وأمج أفطر.

ومن الكديد إلى عسفان سبعة أميال، تكون من خليص إلى عسفان خمسة عشر ميلاً.

قلت: ومما تقدّم يتّضح أن الكديد واقع بين أمج وبين عسفان وأمج وعسفان مازالا معروفين باسميهما.

وقال عاتق البلادي: الكديد يعرف اليوم بالحمض؛ لكثرة نبات العصلاء فيه، وهو مكان من أسفل غرّان قبل مصبّه في وادي أمج، كثير الرمال، يزرع فيه الدخن عثريًا، ومياهه مالحة لا تصلح للزرع، والطريق بين الدّف وعسفان يطأ طرف الكديد الغربي على (٩٢) كيلاً من مكة، و(١٧) كيلاً من عسفان، وأهله زبيد من حرب وهو ـ فعلاً ـ بين أمج وعسفان.

كُراع هرشى: بضم الكاف وراء مهملة بعدها ألف وآخره عين مهملة، وهرشى آخره شين معجمة وألف مقصورة: موضع على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ نزل عند سرحات عن يسار الطريق في مسيل دون هرشى ذلك المسيل لاصق بكراع هرشى، بينه وبين الطريق قريب من غلوة.

قال ابن حجر: هرشى: بفتح أوله وسكون الراء بعدها شين معجمة مقصور: قال البكري: هو جبل على ملتقى طريق المدينة والشام قريب من الجحفة، وكراع هرشى طرفها.

وقال الحربي: وعلى ثمانية أميال من الأبواء عقبة هرشى، وهي عقبة صعبة المنحدر، وسهلة المصعد والطريق من جنبيها.

وروى بسنده عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نزل عند سدرات عن يسار الطريق في مسيل دون هرشى، وذلك المسيل لاصق بكراع هرشى، بينه وبين الطريق قريب من غلوة سهم.

وبين عقبة هرشى وبين الجار ساحل البحر أميال، وبحذاء العقبة عين بها زرع ونخل لجعفر بن سليمان على أحد عشر ميلاً من الأبواء.

وقال ياقوت في آخر حديثه عن كراع الغميم: وكراع هرشى موضع آخر.

قلت: هذا ما ذكره بعض المؤرخين عن كراع هرشى، وفي رسم (هرشى) مزيد من الإيضاح، فانظره.

كَرمان: بفتح الكاف وسكون الراء المهملة وميم بعدها ألف وآخره نون موحدة: ولاية بين فارس (إيران) ومكران (أفغانستان).

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال من السنّة أن لا يحرم بالحج، إلا في أشهر الحج وكره عثمان رضي الله عنه أنْ يحرم من خراسان أو كرمان.

قال ياقوت: كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة، وكرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة، ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، فشرقيّها مكران ومفازة ما بين مكران والبحر من وراء البلوص، وغربيّها أرض فارس، وشماليها مفازة خراسان، وجنوبيّها بحر فارس، وهي بلاد كثيرة النخيل والزرع والمواشي والضرع تشبّه بالبصرة في كثرة التمور وجودتها، وسعة الخيرات.

وقد أطال ياقوت الحديث عنها واصفًا جميع جوانبها الجغرافية والاقتصادية وتحدّث عن أهلها وعن علمائها حديثًا واسعًا لا يتسع مقامنا هذا لذكره.

وقال البلاذري: ـ في حديثه عن كور فارس وكرمان ـ وأما كرمان فإن عثمان ابن أبي العاص الثقفي لقي مرزبانها في جزيرة أبركاوان وهو في خف فقتله، فوهن أمر أهل كرمان في طلب يزد جرد فأتى بيمند فهلك جيشه بها.

ثمّ لما توجّه ابن عامر يريد خراسان ولّى مجاشعًا كرمان، ففتح بيمند عنوةً، واستبقى أهلها، وأعطاهم أمانًا، وبها قصر يعرف بقصر مجاشع.

وفتح مجاشع بروخروة، وأتى الشيرجان وهي مدينة كرمان، وأقام عليها أيامًا يسيرة، أهلها متحصنون وقد خرجت لهم خيل، فقاتلهم ففتحها عنوة وخلّف بها رجلاً، ثم إن كثيرًا من أهلها جلوا عنها.

وقد كان أبو موسى الأشعريّ وجّه الربيع ابن زياد ففتح ما حول الشيرجان، وصالح أهل بمّ والاندغار، فكرّ أهلها ونكثوا، فافتتحها مجاشع بن مسعود وفتح جيرفت عنوة وسار في كرمان فدوّخها.

وأتى القفص وجمع له بهرموز خلق ممن جلا من الأعاجم فقاتلهم، فظفر بهم وظهر عليهم. وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران، وأتى بعضهم سجستان، فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم، فعمروها وأدّوا العشر فيها، واحتفروا القنيّ في مواضع منها.

وولى الحجّاج قطن بن قبيضة بن مخارق الهلاّلي فارس وكرمان، وهو الذي انتهى إلى نهر فلم يقدر أصحابه على إجازته فقال: مَنْ جاز فله ألف درهم، فجازوه، فوفّى لهم فكان ذلك أوّل يوم سُمّيت الجائزة فيه.

قال الشاعر وهو الجحاف بن حكيم:

فدى للأكرمين بني هلال
على علاتهم أهلي ومالي
هم سلبوا الجوائز في معدّ
فصارت سنّة أخرى الليالي
رماحهم تزيد على ثمان
وعشر حين تختلف العوالي

وكان قبيصة بن مخارق من أصحاب النبي ﷺ.

وفي قطن يقول الشاعر:

كم من أمير قد أصبت حباءه
وآخر حظّي من إمارته الحزن
فهل قطن إلاّ كمن كان قبله
فصبرًا على ما جاء يومًا به قطن

قالوا: وكان ابن زياد ولّى شريك بن الأعور الحارثي، وهو شريك بن الحارث، كرمان، وكتب يزيد بن زياد بن ربيعة بن مفرّغ الحميريّ إليه فأقطعه أرضًا بكرمان، فباعها بعد هرب ابن زياد من البصرة.

وولّى الحجّاج بن الحكم بن نهيك الهجيميّ كرمان بعد أن كان ولّاه فارس، فبنى مسجد أرجان ودار إمارتها.

وقال المجد: أرض كرمان متّصلة بأرض فارس، وبأرض مكران قالوا: وهي ثمانون فرسخًا في مثلها، وحدّها في الشرق أرض مكران، وفي الغرب أرض فارس، وفي الشمال مفازة خراسان وسجستان، وفي الجنوب بحر فارس. ومدينة كرمان الشيرجان، وهي التي ينزلها الوالي، وبنى سورها أيام الرشيد، ولها ثمانية أبواب.

وبالشيرجان التي هي مدينة كرمان الدواوين، وبها أسواق كثيرة عامرة بالناس، وأهلها مياسير ذو أموال كثيرة، وشُرْب أهلها من الآبار، وهي أكبر مدينة بكرمان وفي أهلها عفّة وخير ظاهر، وفي تجّارهم حسن معاملة وانقياد للحق، ولهم نزاهة عن كثير من أخلاق السّوقة.

وذكر المدائني أن الذي فتح كرمان عبد الله ابن بديل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ثم أتى الطبسين من كرمان، ثم قدم على عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي افتتحت الطبسين فأقطعنيهما فأراد أن يفعل، فقيل لعمر رضي الله عنه إنهما رستاقان عظيمان، فلم يقطعه إيّاهما، وهما بابا خراسان.

وسمّيت كرمان بكرمان بن فلوج من ولد لمطي بن يافث بن نوح عليه السلام.

قلت: هذا موجز لبعض ما ذكره المؤرخون عن كرمان، وهو إقليم مشهور في كتب السير والأخبار.

الكُوفة: بضم الكاف وسكون الواو وفاء موحدة مفتوحة وآخره هاء: مدينة معروفة في العراق.

وروى البخاري بسنده عن جابر بن سمرة قال: شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر رضي الله عنه فعزله، واستعمل عليها عمّارًا.

قال ابن حجر: كان عمر بن الخطاب أمر سعد بن أبي وقاص على قتال الفرس، في سنة أربع عشرة، ففتح الله العراق على يديه، ثم اختطّ الكوفة سنة سبع عشرة واستمرّ عليها أميرًا إلى سنة إحدى وعشرين في قول خليفة ابن خيّاط، وعند الطبري سنة عشرين، فوقع له مع أهل الكوفة ما ذكر فاستعمل عليهم عمّارًا.

قال البلاذري: عن عبد الحميد بن جعفر وغيره: أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد ابن أبي وقاص يأمره أن يتّخذ للمسلمين دار هجرة، وألّا يجعل بينه وبينهم بحرًا. فأتى الأنبار وأراد أن يتّخذها منزلاً، فكثر على الناس الذباب، فتحوّل إلى موضع آخر فلم يصلح، فتحول إلى الكوفة فاختطها وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها وذلك في سنة سبعة عشرة.

قال: وحدّثني علي بن المغيرة الأثرم قال: حدّثني أبو عيدة معمر بن المثنى عن أشياخه، قال: وأخبرني هشام بن الكلبي عن أبيه، ومشائخ الكوفيين، قالوا: لمّا فرغ سعد ابن أبي وقاص من وقعة القادسية توجّه إلى المدائن فصالح أهل الروميّة وبهر سير، ثم افتتح المدائن وأخذ أسبانبر وكرد بنداذ عنوة فأنزلها جنده فاجتووها، فكتب إلى سعد أن

حوّلهم فحوّلهم إلى سوق حكمة، وبعضهم يقول: حوّلهم إلى كويفة دون الكوفة. وقال الأثرم: وقد قيل: التكوّف: الاجتماع، وقيل أيضًا: إن الموضع المستدير من الرمل يسمّى كوفاني. وبعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفة.

قالوا: فأصابهم البعوض فكتب سعد إلى عمر يعلّمه أن الناس قد بعضوا وتأذّوا بذلك، فكتب إليه عمر: أن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل، فارتد لهم موضعًا عدنا، ولا تجعل بيني وبينهم بحرًا. وولى الاختطاط للناس أبا الهيّاج الأسدي عمرو بن مالك بن جنادة ثم إن عبد المسيح ابن بقيلة أتى سعدًا وقال له: أدلّك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن السباق، فدله على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال لها: سورستان.

فلما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلاً فغلا بسهم قِبَل مهب القبلة فأعلم على موقعه، ثم غلا بسهم آخر قِبَل مهبّ الشمال وأعلم على موقعه، ثم غلا بسهم قبل مهب الجنوب واعلم على موقعه، ثم غلا بسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه، ثم وضع مسجدها ودار إمارتها في مقام الغالي وما حوله، وأسهم لنزار وأهلِ اليمن بسهمين على أنه مَنْ خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر، وهو خيرهما فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقيّ، وصارت خط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات، وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الإمارة.

ثم إن المغيرة بن شعبة وسّعه وبناه زياد فأحكمه، وبنى دار الإمارة، وكان زياد يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانية عشر مائة. وبنى فيها عمرو ابن حريث المخزومي بناء، وكان زياد يستخلفه على الكوفة إذا أشخص إلى البصرة، ثم بنى العمال فيها فضيّقوا رحابها وأفنيتها.

وعن الشعبي قال: كنّا ـ يعني أهل اليمن ـ اثني عشر ألفًا. وكانت نزار ثمانية آلاف، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي؟

وقال أبو عبيدة: وكان تكويف الكوفة في سنة ثماني عشرة قال: وكان زياد اتخذ في مسجد الكوفة مقصورة، ثم جدّدها خالد بن عبد الله القسري.

وحدّثني الهيثم بن علي الطائي: فقام المسلمون بالمدائن واختطوها وبنوا المساجد فيها ثم إن المسلمين استوخموها واستوبؤوها، فكتب بذلك سعد بن أبي وقاص إلى عمر: فكتب إليه عمر أن ينزلهم منزلاً غربيًا، فارتاد كويفة بن عمر فنظروا فإذا الماء محيط بها، فخرجوا حتى أتوا موضع الكوفة فانتهوا إلى الظهر، وكان يدعى خدّ العذراء ينبت الخزامى، والأقحوان، والشيح والقيصوم، والشقائق فاختطوها.

قال ياقوت: الكوفة: بالضم: المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسميها قوم خدّ العذراء، قال أبو بكر محمد بن القاسم: سُمّيت الكوفة؛ لاستدارتها أخذًا من قول العرب: رأيت كوفانا، وكوفانا، بضم الكاف وفتحها للرميلة المستديرة.

وقيل: سُمّيت الكوفة كوفة؛ لاجتماع الناس بها من قولهم: قد تكوّف الرمل.

ويقال: أخذت الكوفة من الكوفان، يقال: هم في كوفان أي في بلاء وشرّ، وقيل: سُمّيت الكوفة؛ لأنها قطعة من البلاد، من قول العرب: قد أعطيت فلانًا كيفًا أي: قطعة.

وذكر ياقوت تعليلات أخرى لتسمية الكوفة، غير ما ذكر.

وقال: وأمّا تمصير الكوفة وأوليته فكانت في أيام عمر بن الخطاب ﷺ، في السنة التي مصّرت فيها البصرة، وهي سنة (١٧)، وقال قوم: إنها مصّرت بعد البصرة بعامين في سنة (١٧)، وقيل: سنة (١٨)، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، لمّا فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة رستم بالقادسية، وضمّن أرباب القرى ما عليهم بعث من أحصاهم ولم يسهم حتى يرى عمر فيهم رأيه، وكان الدهاقين ناصحوا المسلمين ودلّوهم على عورات فارس، وأهدوا لهم، وأقاموا لهم الأسواق، ثم توجّه سعد نحو المدائن إلى يزد جرد وقدم خالد بن عرفطة حليف بني زهرة بن كلاب فلم يقدر عليه سعد حتى فتح خالد ساباط المدائن، ثم توجّه إلى المدائن فلم يجد معابر فدلوه على مخاضة عند قرية الصيادين أسفل المدائن فأخاضوها الخيل حتى عبروا وهرب يزد جرد إلى إصطخر فأخذ خالد كربلاء عنوةً، وسبا أهلها فقسّمها سعد بين أصحابه، ونزل كل قوم في الناحية التي خرج بها سهمه فأحيوها، فكتب بذلك سعد إلى عمر فكتب إليه عمر: أن حوّلهم، فحوّلهم إلى سوق حكمة، ويقال: إلى كويفة ابن عمر دون الكوفة فنقضوا، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فكتب إليه: أن العرب لايصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة والبعير، فلا تجعل بيني وبينهم بحرًا، وعليك بالريف، فأتاه ابن بقيلة فقال له: أدلّك على أرض انحدرت عن الفلاح وارتفعت عن المبقّة، قال: نعم، فدلّه على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال له: سورستان، فانتهوا إلى موضع مسجدها فأمر غالبًا فرمى بسهم قبل مهب القبلة فعلّم على موقعه، ثم علّم دار إمارتها ومسجدها في مقام الغالي وفيما حوله، ثم أسهم لنزار وأهل اليمن سهمين، فمن خرج اسمه أولاً فله الجانب الشرقي وهو خيرهما، فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك الغايات والعلامات، وترك ما دون تلك العلامات فخط المسجد ودار الإمارة فلم يزل على ذلك.

قال ابن عباس: كانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبني أخصاصًا من قصب إذا غزوا خلعوها وتصدّقوا بها، فإذا عادوا بنوها فكانوا يغزون ونساؤهم معهم، فلمّا كان في أيام المغيرة ابن شعبة بنت القبائل باللبن من غير ارتفاع، ولم يكن لهم غرف، فلما كان في أيام إمارة زياد بنوا أبواب الآجرّ، فلم يكن في الكوفة كثر أبواب الآجرّ من مراد والخزرج، وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن اختط موضع المسجد الجامع على عدة مقاتلتكم، فخطّ على أربعين ألف إنسان، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف إنسان، وجاء بالآجر وجاء بأساطينه من الأهواز.

قلت: وقد تحدّث ياقوت عن الكوفة حديثًا شاملاً أطال فيه عن وصفها وعلمائها وسكانها، وذكر طائفة مما قيل فيها من الشعر، لا يتّسع مقامنا هذا لذكر كل ما جاء فيه، ومدينة الكوفة ما زالت معروفة باسمها هذا، مرسومة به على الخرائط الجغرافية لدولة العراق.

باب اللّام

لابتاها: أوله لام بعدها ألف وباء موحدة بعدها تاء مثناة ثم ألف وهاء بعدها ألف: مثنى لابة، المقصود به: حرّتا المدينة الشرقية والغربية.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﵁: أن النبي ﷺ قال: حرم ما بين لابتي المدينة على لساني.

قال ابن حجر: المراد بذلك المدينة؛ لأنها بين لابتين شرقية وغربية، ولها لابتان: أيضًا من الجانبين الآخرين إلا أنهما يرجعان إلى الأولين لاتّصالهما بهما، والحاصل: أن جميع دورها كلها داخل ذلك.

قال ياقوت: اللابتان: تثنية لابة وهي الحرّة، وجمعها لاب، وفي الحديث: أنّ النبي ﷺ، حرّم ما بين لابتيها، يعني: المدينة؛ لأنها بين الحرّتين.

قال الأصمعي: اللاّبة الأرض التي ألبستها الحجارة السود، وجمعها لابات ما بين الثلاث إلى العشر، فإذا كثرت فهي اللاّب واللّوب.

وقال الهجري: أوصاف الحرّة قال: اللاّبة، وهي الحرشاء وهي الرجلاء التي لا يسلك فيها راجل ولا راكب، وهي خرشة بالشين بالمعجمة، والحرشاء غير معجمة تمشق الرجلين حارة، يجد حرّها في رجله، لا يعلوها المال ولا يدّب فيها روحاني.

قلت: هذا ما وصف به العلماء اللابة، وهي الحرّة، وقد سبق التعريف بلابتي المدينة في رسم (الحرّة) مشتملاً على تعريف وافٍ لكل واحدة من الحرّتين، فانظره.

لحي جمل: بلام مفتوحة وحاء مهملة وياء مثناة، وفتح الجيم المعجمة والميم من الثانية: موضع على الطريق بين مكة والمدينة.

وروى البخاري بسنده عن ابن بحينة ﵁: احتجم النبي ﷺ وهو محرم بلحي جمل في وسط رأسه.

قال ابن حجر: لحي جمل: بفتح اللام وحكى كسرها وسكون المهملة، وبفتح الجيم والميم: موضع بطريق مكة، وذكر البكري في معجمه ـ في رسم العقيق ـ قال: هي بئر جمل التي ورد ذكرها في حديث أبي جهم في التيمّم. وقال غيره: هي عقبة الجحفة على سبعة أميال من السقيا. وورد في رواية أبي ذر: بلحي جمل بصيغة التثنية، ولغيره بالإفراد. ووهم مَنْ ظنّه فكّي الجمل الحيوان المعروف، وأنه كان آلة الحجم، وجزم به الحازمي وغيره بأن ذلك كان في حجة الوداع.

وقال المجد: لحيا جمل: بالفتح ثم السكون تثنية اللحى، وهما: العظمان اللذان فيهما الأسنان من كلّ ذي لحى، وجمل بالجيم: البعير.

وفي الحديث: احتجم النبي ﷺ بلحي جمل، وهي عقبة على سبعة أميال من السقيا، وفي كتاب مسلم أنه ماء. ويروى بلحى جمل على الإفراد، ويروى بكسر اللام والفتح والفتح أشهر.

قال الحربي: وخلف أبضة بثلاثة أميال ونصف عن يسار الطريق هضبات أبضة، على بعضهن صخرتان منفردتان ليس يمسكهما شيء لم يزالا على ذلك، تسمّى أحدهما جمل والأخرى جميلة، ثم لحى جمل على ستة أميال من الأخرجة، وبينهما بئران وأبيات الأعراب، ومن لحى جمل إلى بريد أرمام خمسة أميال ونصف.

وعلّق حمد الجاسر عليه بقوله: لحيا جمل: جبل بطريق فيد على ستة أميال من الأخرجة، قال الأسدي سميّا بذلك لأنهما نشرا وامتدّا واقترب ملتقاهما فشبّها باللحيين.

وفي كتاب نصر: لحى جمل موضع بين المدينة، وفيد على طريق غير الجادّة، بينه وبين فيد ٣٠ ميلاً.

وقال الحربي في موضع آخر: ومن الطلوب إلى السقيا ستة أميال، وبها بئر فتحتها ثلاثة أذرع ماؤها غليظ، وعلى ميل من الطلوب مسجد النبي ﷺ وهو بين لحى جمل.

وروى بسنده عن سعيد بن المسيّب أن رسول الله ﷺ احتجم بلحى جمل، وقيل السقيا بنحو من ميل وادي العابد ينسب إلى القاحة لبني غفار.

وروى بسنده عن سفيان أن النبي ﷺ احتجم بالقاحة.

وعلّق عليه حمد الجاسر في حاشيته وأورد نصًا عن مصدر رمز له - بـ(ب)، وقال: يحسن إيراده بنصّه كاملاً، فقال: على سبعة أميال من السقيا بئر الطلوب وهي بئر عادية، وهي التي اطّلع فيها معاوية فأصابته لقوة، فأغذّ السير إلى مكة، وكان نضلة بن عمرو الغفاري ينزل بئر الطلوب، وعلى إثر الطلوب لحى جمل، ماء وهو الذي احتجم فيه رسول الله ﷺ وسط رأسه وهو محرم، وفي رواية: وهو صائم، وفي أخرى: وهو صائم محرم، **روى البخاري**: قال محمد بن سواء أنبأنا هشام عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ احتجم بلحى جمل وهو محرم، على وسط رأسه عن شقيقة كانت به، وكان ينزل لحي جمل عبد الله بن أرقم البلوي من أصحاب رسول الله ﷺ، وقيل السقيا بنحو ميل وادي العبابيد وهو القاحة.

قلت: دلّ ما تقدّم من أقوال العلماء على أن لحي جمل اسم لموضعين؛ أحدهما: هضبات واقعة على طريق الحج العراقي الذي يمرّ ببلدة فيد، البلدة المعروفة في الجنوب الشرقي من مدينة حائل.

والثاني: ماء يقع على الطريق بين المدينة ومكة، وهو الذي احتجم فيه النبي ﷺ قريبًا من السقيا ومن الطلوب، وقد تقدّم التعريف بالسقيا في رسمه، فانظره.

باب الميم

مجنّة: بميم مفتوحة وجيم معجمة ونون مشدّدة مفتوحة وآخره هاء: مكان يقام فيه سوق من أسواق العرب في آخر شهر ذي القعدة قريبًا من مكة.

وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول:

كل امرىء مصبح في أهله
والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمّى يرفع عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنّة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

قال ياقوت: مجنّة: بالفتح وتشديد النون، اسم سوق للعرب كان في الجاهلية، وكان ذو المجاز ومجنة وعكاظ أسواقًا في الجاهلية، قال الأصمعي: وكان مجنة بمرّ الظهران قرب جبل يقال له: الأصفر، وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها، وكانت تقوم عشرة أيام من آخر ذي القعدة والعشرون منه قبلها بسوق عكاظ، وبعد مجنّة سوق ذي المجاز ثمانية أيام من ذي الحجة، ثم يعرّفون في التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية. وقال الداودي: مجنّة عند عرفة، وقال أبو ذؤيب.

سلافة راح ضمنتها إداوة
مقيرة ردف لمؤخرة الرحل
تزوّدها من أهل بصرى وغزة
على جسرة مرفوعة الذيل والكفل
فوافى بها عسفان ثم أتى بها
مجنة تصفو في القلال ولا تغلى

وقيل: هي بلد على أميال من مكة، وهي لبني الدؤل خاصة، وقال الأصمعي: مجنة جبل لبني الدؤل خاصة بتهامة بجنب طفيل، وإيّاه أراد بلال فيما كان يتمثّل:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يومًا مياه مجنّة
وهل يبدونّ لي شامة وطفيل

وقال البكري: مجنة بفتح أوله وثانيه، بعده نون مشددة: ماء مذكور في رسم عكاظ، ومجنّة على أميال يسيرة من مكة بناحية مرّ الظهران، قال أبو ذؤيب:

فوافى بها عسفان ثم أتى بها
مجنة تطفو في القلال ولا تغلى

قال أبو الفتح: يحتمل أن تسمّى مجنّة ببساتين تتصل بها، وهي الجنان، وأن تكون فعلة من مجن يمجن، سُمّيت بذلك؛ لأن ضربًا من المجون كان بها، هذا ما توجبه صنعة علم العربية فأما لأي الأمرين وجبت التسمية؟ فهذا أمر طريقة الخبر.

قال غيره: مجنّة على بريد من مكة، وهي لكنانة وبأرضها شامة وطفيل، جبلان مشرفان عليها وتركت منذ حديث من الدهر هي وذو المجاز استغناءً عنها بأسواق مكة ومنى وعرفة، قال أبو عبيدة: مجنّة والظهران إلى جبل يقال له الأصفر.

وقال الأصفهاني: وذو المجاز ماء من أصل كبكب وهو لهذيل. وقال أبو عبد الله الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف، وذو المجاز خلف عرفة، ومجنّة بمرّ الظهران، وهذه أسواق قريش والعرب.

قال ابن إسحاق ـ في خبر غزوة بدر الآخرة ـ: خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنّة من ناحية الظهران، وبعض الناس يقول: قد بلغ عسفان ثم بداله في الرجوع.

وقال إسحاق ـ في خبر عمرة الرسول من الجعرانة ـ: ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمرًا، وأمر ببقايا الفيء فحبس بمجنّة بناحية مرّ الظهران.

وتحدث عاتق البلادي عن مجنّة وقال: وكنت انتهيت إلى أن مجنّة بلدة بحرة اليوم، بين جدة ومكة، وما استندت إليه أن بحرة هي مجنّة:

١ـ كونها أسفل مرّ الظهران، ولا يعد أسفل مرّ الظهران حتى يتجاوز سروعة، شمال حدّاء.

٢ـ كونها من بلاد بني كنانة، وحدّ كنانة من الشرق كان قريبًا من الحميمة، على أكيال من سروعة شرقًا.

٣ـ الجبل الأصفر موجود يشرف على بحرة من الغرب.

٤ـ قال لي شيخ هناك: إن أسفل وادي الشعبة الذي يصب على بحرة من المغرب بينها وبين الجبل الأصفر كان يعرف بمجنّة.

٥ـ لم تعرف بحرة حتى القرن السادس الهجري، ولم يذكرها ابن جبير في رحلته حين مرّ هناك، وقال إن المحطة كانت تسمى القرين، وهو مكان لا زال معروفًا أكمة في بلدة بحرة على بقايا قلة، ذكر ابن الحجّار أن الأمير بناها فحفر أحدهم بئرًا فخرجت غزيرة الماء، فسمّوها بحرة لغزارتها.

٦ـ موقعها أصلح مكان هناك ليكون سوقًا، فأرضها عزاز، والماء متوفّر، وهي قريبة من ديار القبائل المجاورة كهذيل وخزاعة.

٧ـ ماؤها عذب يضرب بعذوبته المثل... ولعلّه سرّ تغنّي بلال ﷺ بماء مجنّة... وأن السوق ثابت أنه في ديار كنانة، وفي ديار بني الدئل منهم خاصة، وكان لبني الدئل: سروعة وجبل ضاف المشرفة على حدّاء من الشمال.

قلت: اختلف العلماء في تحديد موقع مجنّة المكان الذي يقام فيه سوق للعرب في آخر شهر ذي القعدة، ويترجّح من أقوالهم أنه في مرّ الظهران، قريب من الجبل الأصفر، قاله الأصمعي وأبو عبيدة، ومرّ الظهران هو الوادي الذي يعرف في هذا العهد (بوادي فاطمة).

وفيما ذكر عاتق بن غيث البلادي في تحديد موقع مجنّة ـ وقد جزم أن بلدة بحرة المعروفة بين مكة وجدة هي مجنّة ـ ما يرجّح أن مجنّة في أسفل وادي مرّ الظهران، وأن الأدلة التي استدل بها على أن مجنّة هي بلدة بحرة فيها شيء من الصّواب، والله أعلم.

مجمع البحرين: بميم مفتوحة وجيم معجمة ساكنة بعدها ميم مفتوحة وآخره عين مهملة، والبحرين مثنى بحر أضيف إليه: موضع اختلف العلماء في تحديده.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦٠].

وروى البخاري بسنده عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: قام موسى النبي ﷺ خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال ابن كثير: قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس ممّا يلي المشرق، وبحر الروم ممّا يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني: في أقصى بلاد المغرب.

وقال القرطبي: ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: ملتقاهما، قال قتادة: وهو بحر فارس والروم، وقال مجاهد: قال ابن عطية: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين ممّا يلي برّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول.

وقال السدّي: الكرّ والرّس بأرمينية، وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر الميحط، وحكاه النقّاش، وهذا ممّا يذكر كثيرًا.

وقال فرقة: إنّما هو موسى والخضر، وهذا قول ضعيف. وحكى عن ابن عباس ولا يصحّ، قال: الأمر بيّن من الأحاديث أنه إنّما وسم له بحر ما.

وقال ابن جرير: وقيل: عني بقوله: ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ اجتماع بحر فارس والروم، والمجمع: مصدر من قولهم: جمع يجمع.

وروى بسنده عن قتادة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ والبحران: بحر فارس وبحر الروم. وبحر الروم مما يلي المغرب، وبحر فارس مما يلي المشرق.

وروى بسنده عن مجاهد ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قال: بحر الروم، وبحر فارس، أحدهما قِبَل المشرق، والآخر قِبَل المغرب.

وبسنده عن محمد بن كعب في قوله: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ قال طنجة.

وقال ابن سعدي: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: لا أزال مسافرًا وإنْ طالت عليّ الشقّة، ولحقتني المشقّة حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى الله إليه أنّك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالمين، عنده من العلم ماليس عندك، أو أمضى حقبا أي: مسافة طويلة

المعنى: أن الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: هو وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦١] وكان معهما حوت يتزودّان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فثَم ذلك العبد الذي قصدته، فاتخذ ذلك الحوت سبيله أي: طريقه في البحر سربًا، وهذا من الآيات.

قال المفسّرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزوّدان أن منه لمّا وصلا إلى ذلك المكان أصابه بلل البحر فانسرب بإذن الله في البحر وصار مع حيواناته حيّا، فلمّا جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين قال موسى لفتاه ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لن يجدا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدّالة لموسى على وجود مطلبه.

قلت: فيما قاله المفسّرون في تحديد موقع مجمع البحرين اختلاف كبير بينهم، غير أن بعض أقوالهم تشير إلى أنّ مجمع البحرين: هو ملتقى نهر الكرّ ونهر الرّس بأرمينية، قاله السدّي، وقال ابن عطية: هو من وراء أذربيجان، وملتقى الرّس والكرّ وراء أذربيجان بينه وبين أرمينية، وهذا ما اتّجه إليه المؤرخون.

قال ابن الفقيه: وحدّ أذربيجان إلى الرس والكرّ بأرمينية، ومخرج الرّس من قاليقلاء، ويمرّ بأران فيصبّ فيه نهر أران، ثم يمرّ بورثان، ويمرّ بالمجمع فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان، ويمرّان جميعًا فيصبّان في بحر جرجان.

وقال الشيخ الرّبوة: ومدينة أرمية، وبها كان الجدار الذي أقامه موسى بن عمران مع العبد الصالح الذي في صحبته. ومدينة موقان وتسمّى موغان وبها نسي نبيّنا موسى الحوت وهو ببحر الخزر، ويقال إنها من بناء موقان بن كاشح بن يافث بن نوح.

وقال ابن خرداذبة: وفي قصص موسى عليه السلام ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦٣] والصخرة: صخرة شروان، والبحر: بحر جيلان، والقرية: قرية باجروان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [سورة الكهف، الآية: ٧٤] في قرية خيران. وخراج أرمينية أربعة آلاف درهم، وقال: ومخرج الرّس نهر أرمينية من قاليقلاء، ويمرّ بأران ويصبّ فيه نهر أران، ثم يمرّ بورثان حتى يبلغ المجتمع وهو مجمع البحرين الذي ذكره الله جلّ وتقدّس، فيجتمع هو والكرّ وبينهما مدينة البيلقان، فإذا اجتمعا مرّا حتى يصبّا في بحر جرجان.

وقال ياقوت: الرّس وادي أذربيجان، وحدّ أذربيجان ما وراء الرّس، ومخرج الرّس من قاليقلاء، ويمرّ بأران ثم يمرّ بورثان ثم يمرّ بالمجمع هو الكرّ، وبينهما مدينة البيلقان ويمرّ الكرّ والرّس جميعًا فيصبّان في بحر جرجان.

قلت: هذا ما قاله المؤرخون في تحديد موقع مجمع البحرين الذي التقى فيه موسى بالخضر عليهما السلام، غير أننا لا نجد اتفاقًا بين العلماء على تحديد هذا المكان، وإنْ كان الوضع الجغرافي لنهر الرّس ونهر الكرّ وملتقاهما ومصبّهما في بحر الخزر (قزوين) يكاد يوحي بأن هذا المكان هو المراد بالآية الكريمة.

ويفهم من مدلول الآية الكريمة ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ٦٠] أنّ سفر موسى عليه السلام وغلامه كان سفرًا طويلاً نائبًا عن البلاد التي انطلق منها لسفره، وأنه كان سفرًا شاقًا.

هذا يؤيّد قول بعض العلماء إن مجمع البحرين كان في منطقة قزوين، والله أعلم، وفي رسم (الرّس) مزيد من المعلومات عن هذا الموضع.

المحصّب (الحصبة): بميم مضمومة وحاء مهملة مفتوحة وتشديد الصاد المهملة وآخره باء: موضع في مكة.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت في خبر حجّتها مع رسول الله ﷺ: فخرجنا في حجّته حتى قدمنا منى فطهرت، ثم خرجت من منى فأفضت بالبيت، قالت: ثم خرجت معه في النفر الآخر حتى نزل المحصّب ونزلنا معه.

قال ابن حجر: ليلة الحصبة: هي الليلة التي نزلوا فيها في المحصّب، وهو المكان الذي نزلوا بعد النفر من منى خارج مكة.
قلت: وقد استوفيت الحديث مفصّلاً عن المحصّب في رسم الحصبة، بما فيه كفاية، فانظره.

المدائن: بفتح الميم ودال مهملة بعدها ألف وبعد الألف همزة وآخره نون موحدة: بلفظ جمع مدينة: مدينة بين دجلة والفرات في العراق.
وروى البخاري بسنده عن ابن أبي ليلى قال: كان حذيفة بالمدائن فاستسقى فأتاه دهقان بقدح فضة فرماه به، فقال: إنّي لم أرمه إلا أنّي نهيته فلم ينته.
قال ابن حجر: والمدائن: اسم بلفظ جمع مدينة، وهو بلد عظيم على دجلة، بينها وبين بغداد سبعة فراسخ، كانت مسكن ملوك الفرس، وبها إيوان كسرى المشهور، وكان فتحها على يد سعد بن أبي وقاص في خلافة عمر سنة ست عشرة، وقيل: قبل ذلك، وكان حذيفة عاملاً عليها في خلافة عمر ثم عثمان إلى أن مات بعد قتل عثمان.
قال ياقوت: المدائن: بالفتح جمع المدينة، تهمز ياؤها ولا تهمز، قال يزد جرد أمّا أنوشروان بن قباب وكان أجلّ فارس حزما ورأيًا وعقلاً وأدبًا فإنه بنى المدائن وأقام بها هو ومَنْ كان بعده من ملوك بني ساسان إلى أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد ذكر في سير الفرس أن أول مَنْ اختطّ مدينة في هذا الموضع أرد شير بن بابك، قالوا: لمّا ملك البلاد سار حتى نزل في هذا الموضع فاستحسنه فاختطّ به مدينة، قال: وإنّما سمّيت المدائن؛ لأن زاب الملك الذي بعد موسى عليه السلام، ابتناها بعد ثلاثين سنة من ملكه وحفر الزوابي وكوّرها وجعل المدينة العظمى المدينة العتيقة، فهذا ما وجدته مذكورًا عن القدماء، ولم أر أحدًا ذكر لِمَ سُمّيت بالجمع؟ والذي عندي فيه أن هذا الموضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم، فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسمّاها باسمه، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب كما ذكرنا، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون من مدائنها، ثم أسفانير، ثم مدينة يقال لها: روميّة، فسميت المدائن لذلك والله أعلم.
وكان فتح المدائن كلها على يد سعد ابن أبي وقاص في صفر سنة ست عشرة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
وإنما سمتها العرب المدائن؛ لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، وآثارها وأسماؤها باقية، فلمّا ملك العرب ديار الفرس واختطت الكوفة والبصرة انتقل إليها الناس عن المدائن وسائر مدن العراق، ثم اختطّ الحجاج واسطًا فصارت دار الإمارة، فلمّا زال ملك بني أمية اختطّ المنصور بغداد فانتقل إليها الناس، ثم اختطّ المعتصم سامورًا فأقام الخلفاء بها مدّة ثم رجعوا إلى بغداد، فهي الآن أم بلاد العراق، وأما في وقتنا هذا فالمسمّى بهذا الاسم بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ، وأهلها فلاّحون يزرعون ويحصدون، والغالب على أهلها التشيّع على مذهب الإماميّة.
وذكر ياقوت في حديثه أنّ موقعها بين دجلة والفرات.
قال رجل من مراد:

دعوت كريبًا بالمدائن دعوة
وسيّرت إذ ضمّت عليّ الأظافر

فيال بني سعد علام تركتما
أخاً لكما يدعوكما وهو صابر
أخاً لكما أن تدعواه يجبكما
ونصركما منه إذا ريع فاتر
وقال عبدة بن الطيب:
هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول؟
وللأحبة أيّام تذكّرها
وللنوى قبل يوم البين تأويل
حلّت خويلة في دار مجاورة
أهل المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ظاهرة
منها فوارس لا عزل ولا ميل
من دونها لعتاق العيس ان طلبت
خبت بعيدة نياط الماء مجهول
وقال رجل من الخوارج: كان مع الزبير ابن الماخور، وكانوا أوقعوا بأهل المدائن فقال:
ونجّى يزيدًا سابح ذو علالة
وأفلتنا يوم المدائن كردم
وأقسم لو أدركته إذ طلبته
لقام عليه من فزارة مأتم

قال ياقوت: والمدائن أيضًا: اسم قريتين من نواحي حلب في نقرة بني أسد، إليها فيما أحسب ينسب أبو الفتح أحمد بن علي المدائني الحلبي.

قال البلاذري في خبر فتح المدائن: حدّثني عفان بن مسلم قال: أخبرنا هشيم قال: أخبرنا حصين قال: أخبرنا أبو وائل قال: لمّا انهزم الأعاجم من القادسية اتّبعناهم، فاجتمعوا بكوثى، فاتّبعناهم ثم انتهينا إلى دجلة فقال المسلمون: ما ننتظر بهذه النطفة أن تخوضوها فخضناها؟ فهزمناهم.

حدّثنا محمد بن سعيد عن الواقدي، عن ابن أبي سبرة، عن ابن عجلان، عن أبان ابن صالح قال: لمّا انهزم الفرس من القادسية قدم فلهّم المدائن، فانتهى المسلمون إلى دجلة وهي تطفح بماء لم ير مثله قط، وإذا الفرس قد رفعوا السفن والمعابر إلى الجيزة الشرقية، وحرّقوا الجسر، فاغتم سعد والمسلمون إذ لم يجدوا إلى العبور سبيلاً، فانتدب رجل من المسلمين فسبّح فرسه وعبر فسبح المسلمون، ثم أمروا أصحاب السفن فعبروا الأثقال، فقالت الفرس: والله ما تقاتلون إلا جنّاً، فانهزموا.

قال الواقدي: كان فراغ سعد من المدائن وجلولا في سنة ست عشرة.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره المؤرخون عن فتح المدائن في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، على يد القائد الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعن أصحابه، سنة ست عشرة من الهجرة.

مدين: بميم مفتوحة ودال مهملة ساكنة وياء مثناة مفتوحة وآخره نون: بلاد مدين الواقعة في شمال غرب الجزيرة العربية.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: [سورة هود، الآية: ٨٤].

قال البخاري: قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: إلى أهل مدين لأن مدين بلد.

قال ابن كثير: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبًا من معان، بلاد تعرف بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيبًا وكان من أشرافهم نسبًا.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل في مدين: اسم بلد وقطر، وقيل: اسم قبيلة كما يقال: بكر وتميم، وقيل: هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فمن رأى

أن مدين اسم رجل لم يصرفه، قال المهدويّ: ويروى أنه كان ابن بنت لوط. وقال مكّي كان زوج بنت لوط.

واختلف في نسبه، فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما: وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر ابن مدين بن إبراهيم عليه السلام . . وأمه ميكائيل بنت لوط.

قال ياقوت: مَدْين: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون، قال أبو زيد: مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام، لسائمة شعيب، قال: ورأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت، وماء أهلها من عين تجري، ومدين اسم القبيلة، وهي مدينة قوم شعيب سُمّيت بمدين بن إبراهيم عليه السلام .

قال القاضي أبو عبد الله القضاعي: مدين وحيذها من كورة مصر القبيلة، وقال الحازمي: بين وادي القرى والشام، وقيل: مدين تجاه تبوك بين المدينة والشام على ست مراحل، وبها استقى موسى عليه السلام لبنات شعيب، وبها بئر قد بني عليها بيت. . .

وقيل: مدين اسم القبيلة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

وقيل: مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية، وعندها أيضًا البئر والصخرة، قال كثيّر:

رهبان مدين والذين عهدتهم
يبكون من حذر العقاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها
خرّوا لعزّة ركّعًا وسجودا

وقال كثيّر أيضًا:

يا أم خرزة ما رأينا مثلكم
في المنجدين ولا بغور الغائر
رهبان مدين لو رأوك تنزلوا
والعصم في شعف الجبال الفادر

وقال ابن هرمة يمدح عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك:

ومعجب بمديح الشعر يمنعه
من القبيح ثواب المدح والشفق
لأنت والمدح كالعذراء يعجبها
مسّ الرجال ويثني قلبها الفرق
لكن بمدين من مفضي سويمرة
من لا يذم ولا يشنى له خلق
أهل المدائح تأتيه فتمدحه
والمادحون إذا قالوا له صدقوا
يكاد بابك من جود ومن كرم
من دون بوّابة للناس يندلق

وقال الحميري: مدين: بالشام على ساحل بحر القلزم، وهو أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى موسى عليه السلام لسائمة شعيب عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [سورة القصص، الآية: ٢٣]، ويحكى أنها بئر مغطاة، وسمّيت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب عليه السلام وفيها معايش ضيّقة وتجارات كاسدة، ومن مدين إلى أيلة خمس مراحل.

ومدين الذي سمّيت به البلدة هو مدين ابن إبراهيم عليه السلام وفي القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٨٥] وقال بعضهم: لم يكن شعيب عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام، وإنما هو من ذرية بعض مَنْ آمن به، وهم أصحاب الأيكة من ولد مدين ابن إبراهيم، وسلّط الله على قومه حرّاً شديدًا أخذ بأنفاسهم، ثم بعث الله سحابة فوجدوا لها بردًا، فلما صاروا تحتها جميعًا أرسلها عليهم نارًا فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٨٩] فاحترقوا

كما يحترق الجراد في المقلى، وكانوا أهل كفر بالله، وبخس في المكيال والميزان.
وزعم قوم أن أهل مدين بعث الله إليهم شعيبًا من العرب العاربة والأمم الداثرة، وليسوا من ولد مدين بن إبراهيم.
ومدين في الطريق من مدينة الرسول ﷺ إلى مصر، وهي بين جبال شامخة متكائدة، وبقرب من مدين البئر التي استقى منها موسى عليه السلام، قد بني على أسسها بيت من صخر فيه قناديل معلّقة، وبها كهف شعيب كان يؤوي إليه غنمه، وفي الجبال التي هناك بيوت منقورة في صخر صمّ قد حفر في البيوت قبور، وفي تلك القبور عظام بالية كأمثال عظام الإبل، يكون مقدار كل بيت عشرين ذراعًا أو نحوها، ولتلك البيوت روائح خبيثة لا يدخل الداخل فيها حتى يضع يده على أنفه من شدة النتن، يقال: إنهم لمّا أخذهم عذاب يوم الظلّة دخلوا فيه فهلكوا، وبقرب هذه البيوت تلال تراب عظيمة، قيل: إنها كانت مواضعهم عامرة فخسف بها.
ومع يهود مدين كتاب يزعمون أن النبي ﷺ كتبه لهم وهم يظهرونه للناس وحتى الآن، وهو في قطعة أديم قد اسودّت لطول الزمن عليها، إلا أن خطّه بيّن، وفي آخره: وكتبه عليّ بن أبي طالب، غير معرب، وقال قوم: إنه بخط معاوية بن أبي سفيان ولم يذكر عليّا، وهو عند أهل قرية من ساحل مدين يقال لها: مسى، ومن هناك لا تزال تسير والجبال تيامنك، والبحر بيسارك حتى تفضي إلى أيلة.
قلت: ويبدو من أقوال العلماء أن مدين منزل قوم شعيب، كانت واقعة في شمال الحجاز ـ بين المدينة والشام ـ ويحددّها بعضهم بمحاذاة منطقة تبوك من الشمال على بحر القلزم وهذا هو أرجح الأقوال، ويرى بعضهم أن مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية، غير أن الأخبار لم تختلف في تحديدها في شمال غرب الجزيرة العربية، وقد تقدّم في رسم (الأيكة) شيء من الإيضاح، فانظره.

مدينة قيصر: بفتح الميم وسكون الدال المهملة وفتح الياء المثناة وآخره نون، والثانية بفتح القاف المثناة والصاد المهملة: مدينة القسطنطينية.
وروى البخاري بسنده عن أمّ حرام: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا، قالت أم حرام: قلت يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم، ثم قال النبي ﷺ: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله قال: لا.
ـ **قال ابن حجر**: قوله يغزون مدينة قيصر: يعني القسطنطينية، قال المهلب: في هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول مَنْ غزا البحر، ومنقبة لولده يزيد؛ لأنه أول مَنْ غزا مدينة قيصر، وتعقبه ابن التين، بماحاصله: أنه لا يلزم من دخوله في ذلك العموم ألا يخرج بدليل خاص؛ إذ لا يختلف أهل العلم أن قوله ﷺ لهم مشروط بأن يكونوا من أهل المغفرة حتى لو أنْ ارتدّ واحد ممن غزاها بعد ذلك لم يدخل في ذلك العموم اتفاقًا، فدلّ على أن المراد مغفور لمن وجد شرط المغفرة فيه منهم، وأمّا قول ابن التين يحتمل أن يكون لم يحضر مع الجيش فمردود، إلا أن يزيد لم يباشر القتال فيمكن فإنه كان أمير ذلك الجيش بالاتفاق، وجوّز بعضهم أن المراد بمدينة قيصر: المدينة التي كان بها يوم قال النبي ﷺ تلك المقالة وهي حمص وكانت دار مملكته إذ ذاك، وهذا يندفع بأن في الحديث أن الذين

يغزون البحر قبل ذلك وأن أم حرام فيهم، وحمص كانت قد فتحت قبل الغزوة التي كانت فيها أمّ حرام، والله أعلم.

قال ابن حجر: وكانت غزوة يزيد المذكورة في سنة اثنتين وخمسين من الهجرة، في تلك الغزاة مات أبو أيوب الأنصاري فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، وأن يعفى قبره ففعل به ذلك، فيقال إن الروم بعد ذلك يستسقون به.

وقال محمد فريد المحامي في كتابه (تاريخ الدولة العلية العثمانية)، في ذكر فتح مدينة القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح: ثم أخذ يستعدّ لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية، حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدوّ مهاجم أو صديق منافق، لكنه قبل التعرض لفتح القسطنطينية أراد أن يحصن بوغاز البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون، وذلك أن يقيم قلعة على شاطىء البوغاز من جهة أوروبا لتكون مقابلة للحصن الذي أنشأه السلطان بايزيد بلدرم ببر آسيا، ولمّا بلغ الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يقرّرها، فرفض طلبه وسعى في إيجاد سبب لفتح باب الحرب، ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدّي الجنود العثمانية على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم، وقتل البعض من الفريقين فحاصر السلطان المدينة في أوائل أبريل سنة ١٤٥٣م من جهة البر، بجيش يبلغ المائتين وخمسين ألف جندي، ومن جهة البحر بعمارة مؤلفة من مائة وثمانين سفينة، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية، وضع بها مدافع جسيمة صنعها صانع مجرى شهير اسمه (أوربان)، كانت تقذف كرات من الحجر زنة كلّ واحدة منها اثنا عشر قنطارًا إلى مسافة ميل، وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد حين حصار القسطنطينية في سنة ٥٢هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي، وبعد الفتح بني له مسجد جامع، وجرت العادة بعد ذلك أن كل سلطان يتولى يتقلّد سيف عثمان الغازي الأول بهذا المسجد، وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج عند ملوك الإفرنج، ولم تزل هذه العادة متّبعة حتى الآن.

ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الروم هذه الاستعدادات استنجد بأوروبا فلبّى طلبه أهالي جنوة، وأرسلوا له عمارة بحرية تحت إمرة جوستنياني، فأتى بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء قسطنطينية فعارضته السفن العثمانية، ونشبت بينهما حرب هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢١ أبريل سنة ١٤٥٣م انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء، بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديدية التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها، ثم أعيدت بعد مروره كما كانت، وبعدها أخذ السلطان يفكّر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برّاً وبحرًا، فخطر بباله فكر غريب في بابه، وهو أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعه، وتم هذا الأمر المستغرب بأن مهّد طريقًا على البر اختلف في طوله، والمرجّح أنه فرسخان أي: ستة أميال، ورصّت فوقه ألواح من الخشب صبّت عليها، كمية من الزيت والدهن لسهولة زلق المراكب عليها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة في ليلة واحدة حتى إذا أصبح النهار ونظرها المحصورون أيقنوا ألاّ مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل

ازدادوا إقدامًا وصمّموا على الدفاع عن أوطانهم حتى الممات، وفي يوم ١٥ جمادى الأولىٰ سنة ٨٥٧ هـ الموافق ٢٤مايو سنة ١٤٥٣م أرسل السلطان محمد إلى قسطنطين يخبره أنه لو سلّم إليه طوعًا يتعهّد بعدم مسّ حرية الأهالي أو أملاكهم، وأن يعطيه جزيرة مورة فلم يقبل قسطنطين ذلك، بل آثر الموت على تسليم المدينة، فعند ذلك نبّه السلطان جيوشه بالاستعداد بالهجوم في يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م ووعد الجيوش بمكافأتهم عند تمام النصر، وإقطاعهم أراضي كثيرة، وفي الليلة السابقة لليوم المحدّد أشعلت الجنود العثمانية الأنوار أمام خيامها بالاحتفال بالنصر المحقق لديهم، وظلّوا طول ليلهم يهللون ويكبّرون حتى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم فهجم مائة وخمسون ألف جندي، وتسلّقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فجّ، وأعلنوا السيف فيمن عارضهم ودخلوا كنيسة القدّيسة صوفيًا، حيث كان يصلي فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الأهالي... وقد أرخّ بعضهم هذا الفتح المبين (بلدة طيبة) سنة ٨٥٧هـ، وسُمّيت المدينة إسلامبول أي: تحت الإسلام، أو مدينة الإسلام.

أما قسطنطين فقاتل حتى مات في الدفاع عن وطنه، وبعد فتحها جعلت عاصمة للدولة ولم تزل كذلك إن شاء الله، ولنذكر هنا أن المسلمين حاصروا القسطنطينية إحدى عشرة مرة قبل هذه المرة الأخيرة: منها سبعة في القرنين الأولين للإسلام، فحاصرها معاوية في خلافة عليّ سنة ٣٤هـ (٦٥٤م)، وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧هـ (٦٦٧م) في خلافة عليّ أيضًا، وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٥٢هـ (٦٧٢م) وفي سنة ٩٧هـ (٧١٥م) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي، وحوصرت أيضًا في خلافة هشام سنة ١٢١هـ (٧٣٩م) وفي المرة السابعة حاصر أحد قوّاد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٢هـ (٧٦٨م). هذا ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره، فأصدر أوامره بمنع كلّ اعتداء، فساد الأمن حالاً، ثم زار كنيسة أيا صوفيا، وأمر بأن يؤذّن فيها بالصلاة إعلانًا بجعلها مسجدًا جامعًا للمسلمين.

قلت: هذا موجز لبعض ما ذكره المؤرخون عن تاريخ هذه المدينة الشهيرة مدينة ـ قيصر ـ قسطنطينية، إسلامبول ـ وهي مدينة لها شهرة معروفة، وما زالت عامرة مشهورة بعراقتها ومكانتها التاريخية قبل دخول الإسلام إليها وبعده.

وقد ذكر ابن حجر خلافًا بين العلماء في المدينة المقصودة بقول النبي ﷺ مدينة قيصر، هل هي مدينة حمص التي كان قيصر يسكنها حين قال النبي ﷺ ما قاله؟ أم هي مدينة القسطنطينية التي سكنها قيصر بعد ذلك؟ ورجّح ابن حجر بما استنتجه من الحديث أن المقصود بذلك مدينة القسطنطينية، والله أعلم.

المدينة: بميم مفتوحة ودال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة ثم نون موحدة مفتوحة وآخره هاء: المقصود به: المدينة المنورة مهاجر النبي ﷺ.

في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٨].

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ﵁ يقول: قال رسول الله ﷺ أمرت بقرية تأكل القرى تقولون يثرب، وهي المدينة تنفي الناس، كما ينفي الكير خبث الحديد.
وروى بسنده عن أبي حميد ﵁ قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة فقال: هذه طابة.
وروى بسنده عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال إن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحيّة إلى جحرها.
وروى بسنده عن سعد ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يكيد أهل المدينة أحد إلا ينماع كما ينماع الملح في الماء.
وروى بسنده عن أبي بكرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجّال، لها يومئذٍ سبعة أبواب على كلّ باب ملكان.
قال ابن القيّم: ولمّا قدم النبي ﷺ المدينة واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم، غيّره بطيبة، لما زال عنها مافي لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطيب، واستحقت هذا الاسم وازدادت به طيبًا آخر، فأثّر طيبها في استحقاق الاسم، وزادها طيبًا إلى طيبها.
وروى ابن شبّة بسنده عن زيد بن أسلم قال: قال النبي ﷺ للمدينة عشرة أسماء: هي، المدينة، وطيبة، وطابة، ومسكينة، وجبار، ومجبورة، ويندد، ويثرب.
وروى بسنده عن جعفر بن أبي طالب قال: سَمّى الله المدينة: الدار والإيمان، قال فجاء في الحديث الأول ثمانية أسماء، وجاء هذا اسمان فالله أعلم، أهما تمام العشرة الأسماء التي في الحديث الأول أم لا؟
قال ابن يحيى: لم أزل أسمع أنّ للمدينة عشرة أسماء في التوراة كما يقال والله أعلم، قال: هي المدينة، وطيبة، وطابة، والطيبة، والمسكينة، والعذراء، والجابرة، والمجبورة، والمحبة، والمحبوبة.
ـ **وقال ابن النجار**: قال ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد بن موسى بن عقبة، عن عطاء بن مروان عن أبيه عن كعب، قال: نجد في كتاب الله الذي نزل على موسى أن الله ﷻ قال للمدينة: يا طيبة، يا طابة، يا مسكينة لا تقبلي الكنوز، ارفعي أحاجيرك على أحاجير القرى، قال عبد العزيز بن محمد، وبلغني أن لها في التوراة أربعين اسماً، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله ﷻ سَمّى المدينة طابة، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: هي المدينة، يثرب، وقال أبو عبيدة معمر ابن المثنى: يثرب اسم أرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها، وقال ابن زبالة: كانت يثرب أم قرى المدينة، وهي مابين طرف قناة إلى طرف الجرف، وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى زبالة.
وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة، قيل كان فيها ثلاثمائة صانع من اليهود، وقيل: إن تبّعاً لمّا قدم المدينة بعث رائدًا ينظر إلى مزارع المدينة فأتاه فقال: قد نظرت فأما قناة فحبّ ولا تبن، وأمّا الحرار فلا حبّ ولا تبن، وأمّا الجرف فالحبّ والتبن.
وقال أهل السّير: كان أوّل مَنْ نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قومٌ يقال لهم: صعل وفالج، فغزاهم داود النبي ﷺ فأخذ منهم مائة ألف عذراء وقال: وسلّط الله عليهم الدّود في أعناقهم فهلكوا، فقبورهم هذه التي في السهل والجبل قال: وكانت العماليق قد انتشروا في البلاد فمكثوا بمكة والمدينة والحجاز كلّه، وعتوا عتواً فبعث الله إليهم موسى ـ على نبيّنا

و عَلَيْهِ السَّلَامُ - جندًا من إسرائيل فقتلوهم بالحجاز وأفنوهم.

وقال ابن النجار: وإنّما كان سكن اليهود بلاد الحجاز أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمّا أظهره الله على فرعون وأهلكه وجنوده، وطىء الشام وأهلك مَنْ بها، وبعث بعثًا من اليهود إلى الحجاز وأمرهم ألاّ يستبقوا من العماليق أحدًا بلغ الحلم فقدموا عليهم وقتلوا ملكهم (نبنما) وكان يقال له الأرقم بن أبي الأرقم، وأصابوا ابناً له شابًا من أحسن الناس فظنوا به عن القتل وقالوا: نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم: فلمّا سمع الناس بقدومهم تلقّوهم فسألوهم عن أمرهم فأخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا لم نستبق منهم أحدًا إلا هذا الفتى، فإنا لم نر شابًا أحسن منه فاستبقيناه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه فقالت لهم بنو إسرائيل: إن هذه لمعصية لمخالفتكم نبيكم، لا والله لا يدخلوا علينا بلادنا، فحالوا بينهم وبين الشام، فقال الجيش: ما بلد إن منعتم بلدكم خيرٌ من البلد الذي خرجتم منه، قال: وكانت الحجاز أكثر بلاد الله مشجراً وأظهر ماء؛ وقالوا: وكان هذا أول سكن اليهود الحجاز، بعد العماليق، وهم يجدون في التوراة أن نبيًا يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرّتين فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد، فنزل طائفة تيماء وتوطّنوا نخلاً، ومضى طائفة فلمّا رأوا خيبر ظنوا أنها البلدة التي يهاجر إليها فأقام بعضهم بها، ومضى أكثرهم وأشرفهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرّة ونخلاً قالوا: هذا البلد الذي يكون مهاجر النبي إليها فنزلوه، فنزل النضير بمن معه بطحان، فنزلوا منها حيث شاؤوا وكان جميعهم بزهرة، وهي محل بين الحرّة والسّافلة ممّا يلي القف، وكانت لهم الأموال بالسافلة، ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول، سيل بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلي زغابة، قال: وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هدل، وهدل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن التوم بن السبط ابن اليسع بن العتين بن عيد بن خيبر بن النجار ابن ناحوم بن عازر بن هارون بن عمران، والنصر بن النجار بن الخزرج بن الصريح بعد هؤلاء فتبعوا آثارهم فنزلوا بالعلية، على واديين يقال لهما، مذينيب ومهزور، فنزلت بنو النضير على مذينيب واتّخذوا عليه الأموال، ونزل قريظة وهذل على مهزور واتخذوا عليه الأموال وكانوا مَنْ احتفر بها الأبار واغترس الأموال وابتنوا الآطام والمنازل، قالوا: فجميع ما بنى اليهود في المدينة تسعة وخمسين أطمًا.

قالوا: وكان بالمدينة قرى وأسواق من يهود بني إسرائيل، وكان قد نزلها عليهم أحياء من العرب فكانوا معهم، وابتنوا الآطام والمنازل قبل نزول الأوس والخزرج، وهم بنو أنيف من حي من بلي، ويقال إنهم من بقية العماليق وبنو مزيد حي من بلى وبنو معاوية بن الحارث ابن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان وبنو الجلعاء حي من اليمن قالوا: وكانت الآطام عز أهل المدينة ومنعتهم التي يتحصنون فيها من عدوهم فكان منها ما يعرف اسمه، ومنها ما ذكر في الشعر، ومنها ما لم يذكر، وكان ما بنى من الآطام للعرب بالمدينة ثلاثة عشر أطمًا.

قالوا: فلم تزل اليهود العالية بها الظاهرة عليها حتى كان من سيل العرم ما كان وما قص الله في كتابه، فلحقت بنو عمرو بن ثعلبة وهم

الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر بيثرب وهي المدينة، وقالوا: فأقامت الأوس والخزرج بالمدينة، ووجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود، ووجدوا العدد والقوّة معهم فمكث الأوس والخزرج معهم ما شاء الله، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم وبينهم جوارًا وحلفًا يأمن به بعضهم من بعض، ويمنعون به مَنْ سواهم فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا، فلم يزالوا على ذلك زمنًا طويلاً، وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد، فلمّا رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوا على دورهم وأموالهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم، وكانت قريظة والنضير أعدوا وأكثروا، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود حتى نجم مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج.

قالوا: ولمّا نجم مالك بن العجلان سدّد الحيان عليهما، فبعث هو قومه إلى مَنْ وقع بالشام من قومهم يخبرونهم حالهم، ويشكون إليهم غلبة اليهود عليهم، وكان رسولهم الدمق بن زيد بن امرىء القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج، وكان قبيحًا دميمًا شاعرًا بليغًا فمضى حتى قدم الشام على ملك من ملوك غسان الذين ساروا من يثرب إلى الشام يقال له: أبو جبيلة من ولد حفنة ابن عمرو بن عامر، وقيل: كان أحد بني جشم ابن الخزرج وكان قد أصاب ملكًا بالشام وشرفًا، فشكى إليه الدمق حالهم وغلبة اليهود عليهم وما يتخوفون منهم، وأنهم يخشون أن يخرجوهم، فأقبل أبو جبيلة في جمع كبير لنصرة الأوس والخزرج وعاهد الله لا يبرح حتى يُخْرج مَنْ بها من اليهود، أو يذلّهم ويصيرّهم تحت يد الأوس والخزرج فساروا وأظهر أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة وهي يومئذٍ يثرب فلقيه الأوس والخزرج وأعلمهم ما جاء به، فقالوا: إنْ علم القوم ما تريد تحصّنوا في آطامهم فلم تقدر عليهم، ولكن تدعوهم للقائك وتتلطف بهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتتمكن منهم، فصنع لهم طعامًا وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه، وجعل الرجل منهم يأتي بخاصته وحشمته، رجاء أن يحبوهم الملك، وقد كان بنى لهم حيزًا وجعل فيه قومًا وأمرهم مَنْ دخل عليهم منهم أن يقتلوه حتى أتى على وجوههم ورؤسائهم، فلما فعل ذلك عزّت الأوس والخزرج في المدينة، واتّخذوا الديار والأموال، وانصرف أبو جبيلة راجعًا إلى الشام، وتفرّقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها، وبعضهم جاء إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه فنزل منهم مَنْ لجأ إلى قرية من قراها، واتخذوا الأموال والآطام، فكان ما ابتنوا من الآطام مائة وتسعة وعشرين أطماً، وأقاموا كلمتهم وأمرهم مجتمع ثم دخلت بينهم حروب عظام، وكانت لهم أيام ومواطن وأشعار فلم تزل الحروب بينهم إلى أن بعث الله نبيه ﷺ وأكرمهم باتّباعه.

قال ابن النجار في خبر فتح المدينة بالقرآن، قال ابن النجار: وذلك أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه في كل موسم على قبائل العرب ويقول (ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا قد منعوني أنْ أبلّغ كلام ربّي حتى لقي في بعض السنين عند العقبة نفرًا من الأوس والخزرج قدموا في المنافرة التي كانت بينهم، فقال لهم مَنْ أنتم؟ قالوا: نفر من الأوس والخزرج قال: من موالي اليهود؟ قالوا: نعم،

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى)، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، وكانوا أهل شرك وأوثان، وكان إذا كان بينهم وبين اليهود الذين معهم بالمدينة شيء، قالت اليهود لهم: وكانوا أصحاب كتاب قد علمنا أن نبيّا يبعث الآن قد أظلّ زمانه فنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم، فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي وعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه فاغتنموه، وآمنوا به فأجابوه فيما دعاهم إليه وصدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم، وقالوا: إنّا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشرّ وما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدّقوا وكانوا ستة. . .

فلمّا قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ وما جرى لهم، ودعوهم إلى الإسلام ففشى فيهم حتى لم يبق بيت ولا دار من دور الأنصار إلا لرسول الله ﷺ فيها ذكر، فلمّا كان العام المقبل وافى منهم اثنا عشر رجلاً فقابلوا رسول الله ﷺ بالعقبة، وهي العقبة الأولى فبايعوه فلمّا انصرفوا بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير إلى المدينة، وأمره أنْ يقرأهم ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم في الدين، وكان منزله على أسعد ابن زرارة، ولقيه في الموسم الآخر سبعون رجلاً من الأنصار ومعهم امرأتان، فبايعوه وأرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى المدينة، ثم خرج إلى الغار بعد ذلك وتوجّه هو وأبو بكر إلى المدينة.

وروى **ابن النجار** بسنده عن محمد ابن عبد الله بن خزيمة بن ثابت أن تبعًا لمّا قدم المدينة وأراد إخرابها جاءه حِبران يقال لهما تحيت ومنبه من قريظة فقالا: أيها الملك، انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة، وإنها مهاجر نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد، يخرج آخر الزمان فأعجبه ما سمعه وصدّقهما وكفّ عن أهل المدينة.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: رأيت في المنام أنّي مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهمي إلى اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، وذكر **البخاري** في صحيحه: أن النبي ﷺ لمّا ذكر هذا المنام لأصحابه هاجر مَنْ هاجر منهم قِبَل المدينة، ورجع عامة مَنْ كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهّز أبو بكر قِبَل المدينة فقال له ﷺ «على رسلك فإنّي أرجو أن يؤذن لي» فقال له: أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده الخبط أربعة أشهر، قالت عائشة ﵂: بينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنّعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، قال أبو بكر: فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر أخرج مَنْ عندك، فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، فإني قد أُذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت وأمي يا رسول الله، خذ إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: بالثمن، قالت عائشة فجهّزناهما أحث

الجهاز، ووضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فقال رسول الله ﷺ: إنَّ لها به نطاقين في الجنّة، فبذلك سُمّيت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرًا يكاد ان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من لبن فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل هاديًا ماهرًا بالهداية، وهو على دين كفار قريش فأمنّاه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق السواحل أسفل من عسفان، ثم عارض الطريق على أمج، ثم لقي الطريق بناحية فنزل في خيام أم معبد بنت الأشقر الخزاعية بأسفل ثنية لفت، وواصل السير حتى انتهى إلى بني عمرو بن عوف بظاهر قباء، فنزل عليهم على كلثوم بن الهدم بن امرىء القيس بن الحارث وكان سيّد الحيّ، وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه، ولقي رسول الله ﷺ في ركب من المسلمين كانوا تجّارًا قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة خروج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة ينظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة فانقلبوا يومًا بعد أن طال انتظارهم فلمّا أووا إلى بيوتهم رقي رجل من اليهود أطماً من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرونه، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا فطفق مَنْ جاء من الأنصار ممّن آمن برسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، ولمّا أقبل النبي ﷺ إلى المدينة كان مردفًا لأبي بكر وأبو بكر، شيخ يعرف، ونبي الله شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل الذي يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه يعني: الطريق وإنما يعني سبيل الخير، ولبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة، وأسّس المسجد الذي أسس على التقوى وصلّى فيه، ثم ركب راحلته فصار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلّي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مربدًا للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد ابن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته: هذه إن شاء الله المنزل، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجدًا فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجدًا.

وعن ابن عباس: أقام رسول الله ﷺ بقباء يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وركب من قباء يوم الجمعة فجمّع في بني سلمة فكانت أول جمعة جمّعها في

الإسلام، وكان يمرّ بدور الأنصار دارًا دارًا فيدعونه إلى المنزل والمواساة فيقول لهم خيرًا ويقول: خلوّها فإنها مأمورة، حتى انتهى إلى موضع مسجده اليوم وكان المسلمون قد بنوا مسجدًا يصلّون فيه فبركت ناقته ونزل، وجاء أبو أيوب الأنصاري فأخذ رحله، وجاء ابن زرارة فأخذ بزمام راحلته، فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد تعلّقت به الأنصار فقال: المرء مع رحله، فنزل على أبي أيوب الأنصاري خالد بن يزيد بن كليب، ومنزله في بني غنم بن النجار.

قلت: هكذا: تم سفر رسول الله ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة.

قال ياقوت: مدينة يثرب: هي مدينة الرسول ﷺ، نبدأ أولاً بصفتها مجملاً ثم نفصّل، أمّا قدرها فهي في مقدار نصف مكة، وهي في حرّة سبخة الأرض، ولها نخيل كثيرة ومياه، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد، وللمدينة سور والمسجد في نحو وسطها، وقبر النبي ﷺ في شرقي المسجد، وهو بيت مرتفع ليس بينه وبين سقف المسجد إلا فرجة وهو مسدود لا باب له، وفيه قبر النبي ﷺ وقبر أبي بكر وقبر عمر، والمنبر الذي كان يخطب عليه رسول الله ﷺ قد غشي بمنبر آخر، والروضة أمام المنبر، وبين القبر ومصلّى النبي ﷺ الذي كان يصلّي فيه الأعياد في غربي المدينة داخل الباب، وبقيع الغرقد خارج المدينة من شرقيها، وقباء خارج المدينة على نحو ميلين ممّا يلي القبلة، وهي شبيهة بالقرية، وأُحد جبل في شمال المدينة وهو أقرب الجبال إليها مقدار فرسخين، وبقربها مزارع فيها نخيل وضياع لأهل المدينة، ووادي العقيق فيما بينها وبين الفرع، والفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبيها، وبها مسجد جامع غير أن أكثر هذه الضياع خراب، وكذلك حوالي المدينة ضياع كثيرة أكثرها خراب، وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق.

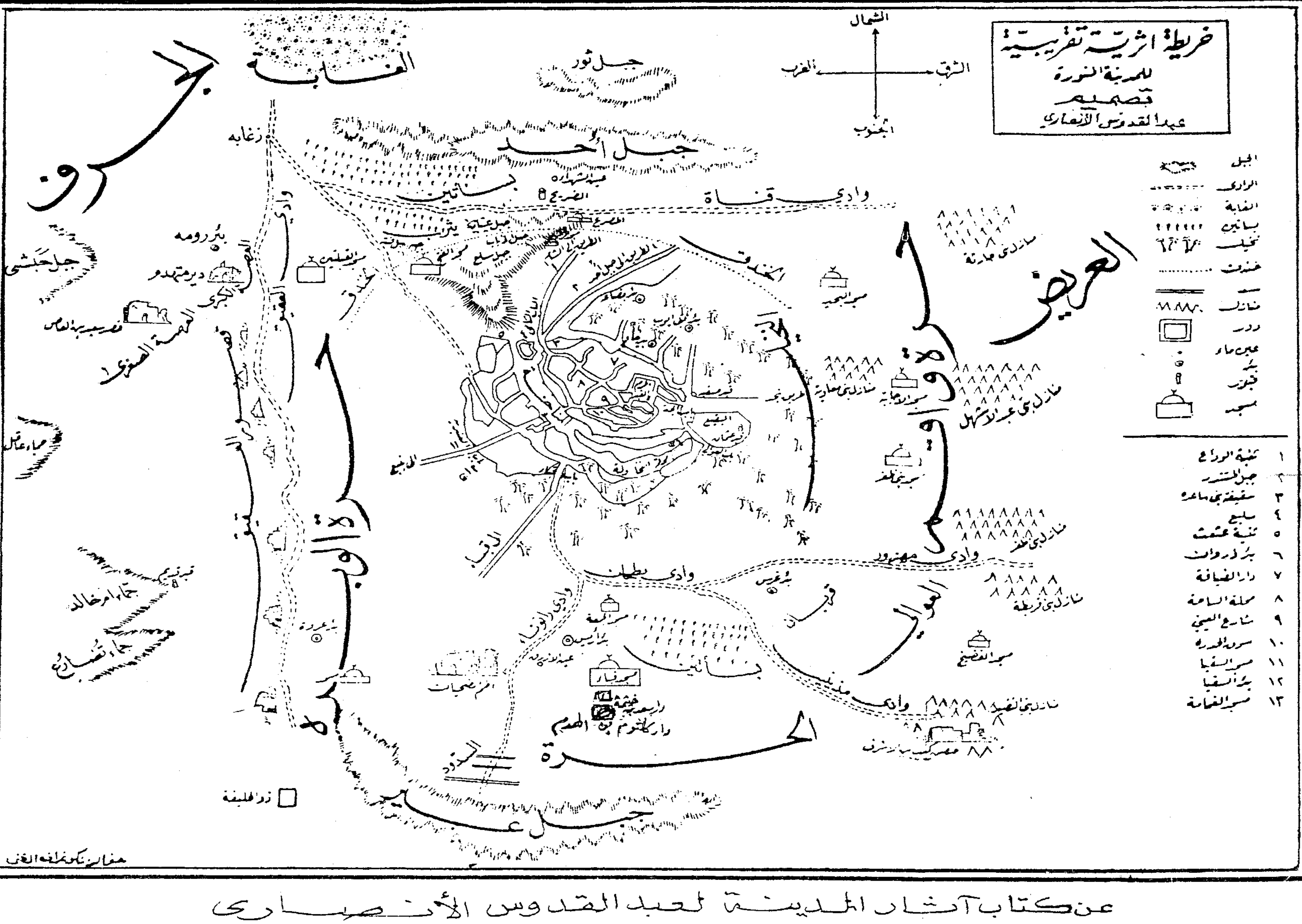
وللمدينة تسعة وعشرون اسمًا، وهي: المدينة، وطيبة، وطابة، والمسكينة، والعذراء، والجابرة، والمحبّة، والمحبّبة، والمجبورة، ويثرب، والناجية، والموفية، وأكّالة البلدان، والمباركة، والمحفوفة، والمسلمة، والمجنّة، والقدسيّة، والعاصمة، والمرزوقة، والشافية، والخيرة، والمحبوبة، والمرحومة، وجابر، والمختارة، والمحرمة، والقاصمة، وطابة.

وروى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ـ حين توجه إلى الهجرة ـ اللّهم إنك قد أخرجتني من أحبّ أرضك إليّ، فأنزلني أحبّ أرض إليك فأنزله المدينة».

قلت: هذا موجز لما وصف به ياقوت المدينة، وقد أطال في حديثه عنها إطالة لا يتّسع مقامنا هذا لذكر ما جاء فيها.

والحديث عن المدينة ـ طيبة الطيبة ـ حديث ذو شجون وشجون لا يتّسع له مقامنا هذا، وقد ألّف عنها علماء المسلمين مؤلفات كثيرة خاصة بها، تتحدّث عن تاريخها من كلّ جوانبه قديمًا وحديثًا.

وفي هذا العهد امتدّ عمران المدينة واتّسعت مرافقها، وشملها النمو الاجتماعي والعمراني والاقتصادي الذي شمل كثيرًا من مدن المملكة العربية السعودية، وكثر سكانها وعبدّت إليها الطرق من أنحاء البلاد، وازدهرت مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وقد ألّف في ذلك كلّه كتب خاصة بها، ولذلك فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عن هذه المدينة المقدّسة، وقد مرّ



عن كتاب آثار المدينة لعبد القدوس الأنصاري

الحديث مفصّلاً عن كلّ معالمها الجغرافية، كل منها في رسمه في هذا الكتاب.

مربد الغنم: بميم مكسورة وراء ساكنة مهملة وباء موحدة مفتوحة وآخره دال مهملة، مضاف إلى الغنم: بغين معجمة مفتوحة ونون موحدة مفتوحة وآخره ميم: موضع قريب من المدينة بينها وبين الجرف.

وقال البخاري: وأقبل ابن عمر من أرضه بالجرف فحضرت العصر بمربد الغنم فصلى ثم دخل المدينة والشمس مرتفعة فلم يعد.

قال ابن حجر: والمِربد بكسر الميم وسكون الراء بعدها موحدة مفتوحة، وحكى ابن التين أنه روي بفتح أوله وهو من المدينة على ميل.

قال ياقوت: وفي حديث النبي ﷺ: أن مسجده كان مربدًا ليتيمين في حجر معاذ ابن عفراء فاشتراه منهما معوّذ بن عفراء فجعله للمسلمين، فبناه رسول الله ﷺ مسجدًا. قال الأصمعي: المربد كل شيء حبست فيه الإبل، ولهذا قيل مربد النعم بالمدينة، وبه سُمّي مربد البصرة.

ومربد النعم: موضع على ميلين من المدينة، وفيه تيمّم ابن عمر.

وقال السمهودي: مربد النعم، تيمّم ابن عمر عنده كما في البخاري، وترجم عليه بالتيمم في الحضر، ورواه الشافعي بسند صحيح بلفظ: أن ابن عمر أقبل من الجرف حتى إذا كان بالمربد تيمم وصلّى العصر، فقيل له: أتتيمّم وجدران المدينة تنظر إليك؟ فقال: أو أحيا حتى أدخلها، ثم دخل المدينة والشمس حيّة مرتفعة ولم يعد الصلاة.

وقال الهجري: مربد النعم على ميلين من المدينة، وقال غيره على ميل وهو الأقرب، قال الواقدي في الاصطفاف في وقعة الحرّة على أفواه الخنادق: كان يزيد بن هرمز في موضع ذباب إلى مربد النعم معه الدّهم من الموالي وهو يحمل رايتهم، وقال الواقدي: مربد النعم كانت النعم تحبس فيه زمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

قلت: فيما تقدم يتبين الاختلاف في اسم هذا الموضع بين رواية البخاري وبين غيرها من الروايات، فرواية البخاري جاء فيها: (مربد الغنم) وفي الروايات الأخرى لغير البخاري (مربد النعم)، وهذا الموضع واقع فيما بين المدينة وبين الجرف الذي يقع في الشمال الغربي من المدينة، وموقع هذا المكان أصبح داخلاً ضمن عمران المدينة، وقد اختلف في تحديد المسافة بينه وبين المدينة فجاء في بعض الروايات: بينه وبين المدينة ميل، وفي روايات أخرى: بينه وبين المدينة ميلان، ويبدو أن الرواية الأولى هي الأصحّ والله أعلم.

والمربد أيضًا: موضع في المدينة اشتراه النبي ﷺ من أصحابه عند مقدمه المدينة، وأقام عليه مسجده.

والمربد أيضًا: حيّ من أحياء البصرة، له شهرة في كتب التاريخ والأدب.

مرّ الظهران: بميم مفتوحة وراء مهملة مشدّدة والثاني بظاء معجمة وهاء ساكنة وآخره ألف ونون: وادٍ معروف يمرّ به الطريق من المدينة إلى مكة، وهو إلى مكة أقرب.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر: أن النبي ﷺ كان ينزل في المسيل الذي في أدنى مرّ الظهران قبل المدينة حين يهبط من الصفراوات، ينزل في بطن ذلك المسيل عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، ليس بين

منزل رسول الله ﷺ وبين الطريق إلا رمية حجر.

قال ابن حجر: مرّ الظهران: بفتح الميم وتشديد الراء وبفتح الظاء المعجمة وسكون الهاء، هو الوادي الذي تسمّيه العامة بطن مرّ بإسكان الراء بعدها بطن مرو بإسكان الراء، وآخره واو، قال البكري: بينه وبين مكة ستة عشر ميلاً، وقال أبو غسان: سُمّي بذلك؛ لأنَّ في بطن الوادي كتابة بعرق من الأرض أبيض هجاء مر، الميم منفصلة عن الراء، وقيل سُمّي بذلك لمرارة مائه.

قال ياقوت: مرّ: بالفتح ثم التشديد، والمرّ والممرّ والمرير: الحبل الذي قد أحبك فتله، وأنشد ابن الأعرابي:

ثم شددنا فرقه بمرّ

ويجوز أن يكون منقولاً عن الفعل من مرّ يمرّ ثم صُيّر اسمًا، وذكر عبد الرحمٰن السهيلي في اشتقاقه شيئًا عجيبًا قال: وسُمّي مرًا؛ لأنه فيه عرق من الوادي من غير لون الأرض شبه الميم المدوّرة بعدها راء خالفت كذلك، ويذكر عن كثيّر أنه قال: سُمّيت مرّ لمرارتها، قال: ولا أدري صحة هذا.

ومرّ الظهران: ويقال مرّ ظهران موضع على مرحلة من مكة له ذكر في الحديث.

وقال عرّام: مرّ القرية، والظهران هو الوادي، وبمرّ عيون كثيرة ونخل وجميّز هو لأسلم وهذيل وغاضرة، قال أبو صخر الهذلي يصف سحابا:

وأقبل مرّاً إلى مجدل
سياق المقيّد يمشي رسيفًا

أي أستقبل مرّا، قال الواقدي: بين مرّ وبين مكة خمسة أميال، ويقال إنما سمّيت خزاعة ابن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الغطريف من الأزد؛ لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من مأرب يريدون الشام فنزلوا بمرّ الظهران أقاموا بها، أي: انقطعوا عنهم، قال عونم بن أيوب الأنصاري الخزرجي في الإسلام:

فلمّا هبطنا بطن مرّ تخزّعت
خزاعة منّا في حلول كراكر
حمت كل وادٍ من تهامة واحتمت
بصمّ القنا والمرهفات البواتر
خزاعتنا أهل اجتهاد وهجرة
وأنصارنا جند النبي المهاجر
وسرنا إلى أن قد نزلنا بيثرب
بلا وَهَنٍ منّا وغير تشاجر
وسارت لنا سيارة ذات منظر
بكوم المطايا والخيول الجماهر
يرومون أهل الشام حتى تمكنوا
ملوكًا بأرض الشام فوق المنابر
أولاك بنو ماء السماء توارثوا
دمشق بملك كابرًا بعد كابر

وقال البكري: مرّ الظهران: بفتح أوله، وتشديد ثانيه يضاف إلى الظهران، بالظاء المعجمة المفتوحة، وبين مرّ والبيت ستة عشر ميلاً، وردّ عمر بن الخطاب الذي ترك الطواف لوداع البيت من مرّ الظهران.

قال سعيد بن المسيّب: كانت منازل علكّ مر الظهران، وقال كثيّر عزّة: سميت مرّ لمرارتها، وقال أبو غسّان: سُمّيت بذلك؛ لأن في بطن الوادي مرّاً ونخلة كتابة بعرق من الأرض أبيض: هجاء مر، إلا أن الميم غير موصولة بالراء.

وكان رسول الله ﷺ ينزل بالمسيل الذي في أدنى مرّ الظهران حين يهبط من الصفراوات، ينزل في بطن ذلك المسيل عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، ليس بين منزل رسول الله ﷺ وبين الطريق إلا مرمى حجر،

وهناك نزل عند صلح قريش، وببطن مرّ تخزّعت خزاعة عن إخوتها فبقيت بمكة، وسارت إخوتها إلى الشام أيام سيل العرم، قال حسّان بن ثابت:

فلمّا هبطنا بطن مرّ تخزّعت
خزاعة منّا في الحلول الكراكر

وقال الواقدي في خبر فتح مكة: واجتمع المسلمون بمرّ الظهران، ولم يبلغ قريشًا حرف واحد من مسير رسول الله ﷺ إليهم، فقد اغتمّوا وهم يخافون يغزوهم رسول الله ﷺ، فلمّا نزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران عشاء أمر أصحابه أن يوقدوا النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار، فأجمعت قريش بعثة أبي سفيان بن حرب يتحسب الأخبار وقالوا: إنْ لقيت محمدًا فخذ لنا منه جوارًا) إلا أن ترى رقّة من أصحابه فآذنه بالحرب.

وذكر المراغي المساجد التي بين مكة والمدينة وقال: ومسجد في المسيل الذي بوادي مرّ الظهران، حين تهبط من الصفراوات مسجد بواد عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة، ومرّ الظهران هو بطن مرّ المعروف، وليس المسجد بمعروف اليوم.

ـ **قلت**: اختلف العلماء في اشتقاق اسم مرّ ولم يختلفوا في تحديده، وقد أصبح هذا الوادي يسمّى (وادي فاطمة) وهو وادٍ مشهور يقع شمال مكة المكرمة.

وتحدّث عاتق البلادي عن وادي مرّ الظهران، ووصفه وصفًا جغرافيًا قال فيه: مرّ الظهران: وادٍ فحل من أكبر أودية الحجاز، يأخذ أعلى مساقط مياهه من السفوح الشرقية للسّرات غرب الطائف، وله هناك رافدان هما: نخلة الشامية التي تسيل من السفح الشرقي لجبل الحبلة، ثم يدفع ماؤها شرقًا وشمالاً، ويُسمّى ذلك الوادي في رحلته بأسماء مختلفة، ونخلة اليمانية التي تأخذ مياه هدأة الطائف ومياه حبلتي السعايد والثبتة، ثم يجتمعان، (النخلتان) ويسمى الوادي وادي الزبارة، وفيه قرى عبيدة منها: الزبارة، والريّان، والمبارك، والقشاشية، وترفده أودية كبار منها: وادي مرّ يأتيه من الشمال، ووادي نبع يأتيه من الجنوب، ووادي علاف يأتيه من الشمال أيضًا.

فإذا تعدّى قرية أبي حصاني سُمّي وادي فاطمة، وفيه قرى عديدة منها: الجحود قصبة الوادي، ودفّ زيني، ودفّ خزاعة.

وبأسفله قرية حدّاء العامرة بين مكة وجدة، وبلدة بحرة التي صارت اليوم مدينة صغيرة.

وتصبّ فيه أودية عظيمة منها: سرف، ويأجج، وفخ، وكلها من الضفة الجنوبية، سكانه اليوم خليط من الناس، ففي النخلتين أعلاهما لثقيف وجلها لهذيل، ووادي الزبارة يشترك فيه هذيل والأشراف المناعمة، وغيرهم ووادي فاطمة كاد يكون للأشراف مع أخلاط قلّة، غير أنه أصبح يشترك فيه أفناء من حرب وغيرهم.

ويسمّى الوادي أيضًا وادي الشريف وذلك أن الشريف أبا نمي الذي حكم مكة ستين سنة من ٩٣٢ـ ٩٩٢هـ كان قد امتلك جُلّ هذا الوادي فنسب إليه.

أما نسبته إلى فاطمة فهي زوجة بركات بن أبي نمي وأمه لا أذكر الآن ذلك. ونسبة الوادي إليها كنسبته إلى الشريف، وكان يقال إن في مرّ الظهران (٣٠٠) عين، وقد أدركت أنا (٣٦) عينًا.

وقد انقطع معظم عيون وادي فاطمة، وبقيت عيون وادي الزبارة والنخلتين، وسبب قطعها ضرب ارتوازات في أبي حصاني، مدّ ماؤها إلى جدّة التي تكاد اليوم تتجرّع مياه جميع

الأودية المحيطة بها، بالإضافة إلى مياه البحر.

أما القرى ففي وادي مرّ الظهران اليوم ما يزيد على أربعين قرية، وطوله يبلغ قرابة مائتين وثمانية كيلوات بقياس أطول روافده وهي نخلة الشامية، ثم يصبّ في البحر جنوب جدة غير بعيد منها.

ومرّ الظهران يمر على مرحلة من مكة قصيرة شمالاً و(٢٤) كيلاً على جادّة المدينة المنورة، وصار اليوم بعض أهل مكة يختط فيه ويسكنه.

قلت: هذا هو وادي مرّ الظهران، الذي أصبح اليوم مشتهرًا باسم (وادي فاطمة)،

مُريسيع: بضم الميم وفتح الراء المهملة وياء ساكنة وسين مهملة بعدها ياء مثناة وآخره عين مهملة: ماء لبني المصطلق من خزاعة بناحية قديد جنوب المدينة.

قال البخاري: غزوة بني المصطلق من خزاعة وهي غزوة المريسيع، قال ابن إسحاق: وذلك سنة ست، وقال موسى بن عقبة سنة أربع، وقال النعمان بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع.

وقال ياقوت: المريسيع: بالضم ثم الفتح، وياء ساكنة ثم سين مهملة مكسورة وياء أخرى وآخره عين مهملة في الأشهر، ورواه بعضهم بالغين المعجمة كأنه تصغير المرسوع، وهو الذي انسلقت عينه من السّهر: وهو اسم ماء في ناحية قديد إلى الساحل، سار النبي ﷺ في سنة خمس، وقال ابن إسحاق: في سنة ست، إلى بني المصطلق من خزاعة لمّا بلغه أن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي قد جمع له جمعًا فوجدهم على ماء يقال له: المريسيع فقاتلهم وسباهم، وفي السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعي زوجة النبي ﷺ، وفي هذه الغزوة كان حديث الإفك.

قال ابن إسحاق ـ في خبر غزوة بني المصطلق ـ غزا رسول الله ﷺ بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست.

قال ابن هشام: استعمل على المدينة أبا ذرّ الغفاري ويقال: نميلة بن عبد الله الليثي.

قال ابن إسحاق: وقد بلغ رسول الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله ﷺ، فلمّا بُلِّغ رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق، وقتل مَنْ قتل منهم، ونفّل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه.

قال الواقدي: في سنة خمس خرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلتين خلتا من شعبان وقدم المدينة لهلال رمضان، وغاب شهرًا إلا ليلتين.

وذلك أن بني المصطلق من خزاعة كانوا ينزلون ناحية الفرع وهم حلفاء في بني مدلج، وكان رأسهم وسيّدهم الحارث بن أبي ضرار، وكان قد سار في قومه ومَنْ قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فابتاعوا خيلاً وسلاحًا وتهيأوا للمسير إلى رسول الله ﷺ، وجعلت الركبان تقدم من ناحيتهم فيخبرون عن مسيرهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوّهم، فأسرع الناس للخروج وقادوا الخيول وهي ثلاثون فرسًا، في المهاجرين منها عشرة، وفي الأنصار عشرون، ولرسول الله ﷺ فرسان.

وخرج مع رسول الله ﷺ بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها، ليس لهم رغبة في الجهاد إلا أن يصيبوا من عرض الدنيا وقرب عليهم السفر، فخرج رسول الله ﷺ حتى سلك على (الحلائق).

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى (المريسيع) وهو الماء فنزله وضُرب لرسول الله ﷺ قبّة من أدم ومعه من نسائه عائشة وأم سلمة، وقد اجتمعوا على الماء وأعدّوا وتهيؤوا للقتال، فصفّ رسول الله ﷺ أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر رضي الله عنه، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، ويقال: كان مع عمّار ابن ياسر رضي الله عنه راية المهاجرين ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنادى في الناس قولوا: لا إله إلاّ الله تمنعون بها أنفسكم وأموالكم، ففعل عمر رضي الله عنه فأبوا فكان أول مَنْ رمى رجل منهم بسهم فرمى المسلمون ساعة بالنبل، ثم إن رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا فحملوا حملة رجل واحد ما أفلت منهم إنسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول الله ﷺ الرجال والنساء والذريّة، وغنمت النعم والشاة وما قتل أحد من المسلمين إلا رجل واحد.

قلت: وذكر ابن هشام في هذه الغزوة أحداثًا من أهمها:

١ـ خبر ابن أبيّ: حين قال ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٨] ونزول سورة المنافقين.

٢ـ تنبّؤ الرسول ﷺ بموت رفاعة بن زيد ابن التابوت أحد بني قينقاع، وكان عظيمًا من عظماء اليهود، وكهفًا للمنافقين.

٣ـ زواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار سيّد بني المصطلق.

٤ـ وقوع قصة الإفك، التي قصّ الله أمرها في سورة النور.

قلت: هذا هو خلاصة ما ذكره ابن إسحاق والواقدي عن غزوة المريسيع.

والمريسيع: اسم للماء الذي جرت فيه المعركة بين النبي ﷺ وأصحابه وبين بني المصطلق، نسبت هذه الغزوة إليه تارة، ونسبت إلى بني المصطلق تارة أخرى؛ لأنهم هم المقصودون بالغزوة.

والمريسيع: تقدّم تحديد موقعه وجهته بالنسبة للمدينة.

وقد وصفه عاتق البلادي فقال: المريسيع: كأنه تصغير المرسوع، مثناة من وادي حورة أحد روافد ستادة، فيه آبار زراعية ونزلة، وماؤه يسحّ على وجه الأرض وهم يقلبون السين صادًا، وهي لهجتهم.

ويبعد شرق الطريق العام بما يقرب من (٥٠) كيلاً على طريق غير معبّدة، وهو بعيد عن الساحل، في الداخل بما يقرب من ثمانين كيلاً عن سيف البحر.

قلت: والمواضع التي جاء ذكرها في تحديد المريسيع: الفرع، وقديد كلاهما ما زالا معروفين باسميهما، وقد تقدّم الحديث عنهما في كتابنا هذا مستوفى في رسمه.

مزدلفة: بضم الميم وسكون الزاي المعجمة ودال مهملة مفتوحة ولام مكسورة بعدها فاء موحدة مفتوحة وآخره هاء: مكان معروف بين منى وعرفات، فيه المشعر الحرام، وتسمّى جمعًا.

روى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل وبال ثم توضّأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله،

فقال: الصلاة أمامك، فركب فلمّا جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلّى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله ثم أقيمت العشاء صلّى ولم يصلّ بينهما.

قلت: وقد استوفيت الحديث عن مزدلفة (جمع) من كل جوانبه في رسم (جمع) في هذا الكتاب فانظره ففيه كفاية إن شاء الله.

مسجد بني زريق: أحد المساجد المعروفة في المدينة، مضاف إلى بني زريق، بضم الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة وسكون الياء المثناة وآخره قاف مثناة: وهم حيّ من الأنصار.

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي أضمرت من الحفياء وأمدها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمّر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها.

قال ابن شبّة: حدّثنا أبو غسّان عن ابن أبي يحيى عن أبي بكر بن يحيى بن التمر، عن أبيه أن النبي ﷺ لم يصلّ في المسجد الذي في دار الأنصار، ولا في مسجد بني زريق، ولا في مسجد بني مازن.

وعن ابن أبي يحيى، عن يحيى بن عبد الله ابن رفاعة الزرقي، عن معاذ بن رفاعة: أنَّ النبي ﷺ دخل مسجد بني زريق وتوضأ فيه وعجب من قبلته ولم يصلّ فيه، وكان أول مسجد قرىء فيه القرآن.

وقال المراغي: مسجد بني زريق من الخزرج، ذكر ابن زبالة وغيره: أنه أول مسجد قرىء فيه القرآن قبل هجرة النبي ﷺ، وذكر أن النبي ﷺ توضأ فيه ولم يصلّ وعجب عن اعتدال قبلته.

واعلم أن قرية بني زريق قبلي سور المدينة اليوم وقبلي المصلّى، وبعضها كان من داخل السور اليوم بموضع يعرف بذروان، أو ذي أروان التي وضع لبيد بن الأعصم ـ وهو من يهود بني زريق ـ السّحر في راعوفة بئرها والحديث مشهور.

وقال السمهودي: روى ابن زبالة عن عمر ابن حنظلة أن مسجد بني زريق أول مسجد قرىء فيه القرآن، وأن رافع بن مالك الزرقي لمّا لقي رسول الله ﷺ بالعقبة أعطاه رسول الله ﷺ ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، قال: فقدم به رافع المدينة ثم جمع قومه فقرأه عليهم في موضعه وهو يومئذٍ كوم، قال: وعجب النبي ﷺ من اعتدال قبلته.

وعن مروان بن عثمان بن المعلّى قال: أول مسجد قرىء فيه القرآن مسجد بني زريق.

وعن يحيى بن عبد الله بن رفاعة قال: توضّأ رسول الله ﷺ فيه، وعجب من اعتدال قبلته ولم يصلّ فيه.

وروى ابن شبّة عن معاذ بن رفاعة الزرقي: أن رسول الله ﷺ دخل في مسجد بني زريق، وتوضأ فيه، وعجب من قبلته ولم يصلّ فيه، وكان أول مسجد قرىء فيه القرآن.

وقال السمهودي: محلّ قرية بني زريق في قبلة المصلّى وما والاها في المشرق داخل السّور وخارجه، وهذا المسجد كان في قبلة الدور التي عن يمين السالك من درب سويقة قريبة منه، وهو المذكور في حديث السباق بين الخيل التي لم تضمّر، وقال عياض: وبينه وبين ثنية الوداع ميل أو نحوه.

قال السمهودي: وبين ثنية الوداع وبين الموضع الذي ذكرناه نحو الميل هو قريب من جهة محاذاة ثنية الوداع من جهة القبلة.

وقد حدث في جهة قبلة المصلى ممّايلي المغرب مسجدان أحدثهما شمس الدين محمد ابن أحمد السلاوي بعد الخمسين وثمانمائة، الأول منهما على شفير وادي بطحان على عدوته الشرقية، والثاني بعده في جهة القبلة على رابية مرتفعة من الوادي أيضًا في غربيّه في مقابلة المطرية، وكان موضعه في تلك الرابية. . . وإنما نبّهت على ذلك لئلاّ يتقادم العهد بهما فيظن أن أحدهما مسجد بني زريق لكون ذلك بالناحية المذكورة، والله ﷻ أعلم.

قلت: مسجد بني زريق من المساجد القديمة التي اندثرت آثارها وانطمست معالمها، وتفيد الأخبار أن بني زريق كانت مساكنهم في ذروان، وموقع ذروان مازال معروفًا بين أحياء المدينة، وقد تقدّم في رسم (ذروان) مزيد من الإيضاح في تحديد حيّ ذروان ووصفه.

مسجد ذي الحليفة: أحد المساجد، مضاف إلى ذي الحليفة، وتقدّم ضبط ذي الحليفة والتعريف به في رسمه.

روى البخاري بسنده عن سالم بن عبد الله: أنه سمع أباه يقول: ما أهلّ رسول الله ﷺ إلا من عند المسجد، يعني: مسجد ذي الحليفة.

روى ابن شبّة بسنده: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ أناخ بالبطحاء التي بذي الحليفة فصلّى بها، قال: وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل ذلك.

وعن ابن يحيى، عمن سمع ثابت بن مسحل يحدث عن أبي هريرة ﷺ : أن النبي ﷺ صلّى في مسجد الشجرة إلى الأسطوانة الوسطى واستقبلها، وكانت موضع الشجرة التي كان النبي ﷺ يصلّي إليها.

وروى بسنده عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صلّى بالشجرة بالمعرّس ومصلاّة بالشجرة في مسجد ذي الحليفة.

وفي المناسك قال الحربي: ذو الحليفة، وهي: الشجرة، وروى بسنده عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا خرج إلى مكة صلّى في مسجد الشجرة.

وعن نافع أن عبد الله بن عمر أخبر أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر وفي حجته حين حجّ، تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة، وكان إذا قدم راجعًا من غزو وكان في تلك الطريق، أو حجّ أو عمرة، هبط بطن الوادي، فإذا أناخ بالبطحاء التي على شفير الوادي الشرقية فعرّس ثَمّ حتى يصبح، فيصلّى الصبح ليس عند المسجد الذي من حجارة، ولا على الأكمة التي عليها المسجد، كان ثَمّ خليجُ يصلّي عبد الله عنده في بطنه كثيب، كان رسول الله ﷺ ثَمّ يصلّي، فدخل السيل بالبطحاء حتى دفن ذلك المكان الذي كان عبد الله يصلّي فيه.

ومن المدينة إلى ذي الحليفة خمسة أميال ونصف، وبها عدّة آبار.

والمسجدان لرسول الله ﷺ، المسجد الكبير الذي يحرم الناس منه، وهو على يمين المصعد، والآخر مسجد المعرّس، وهو دون مصعد البيداء، ناحية عن هذا المسجد يسرة فيه عرس رسول الله ﷺ بعد منصرفه من مكة.

ثم البيداء فوق ذي الحليفة إذا أصعدت من الوادي في أولها بئر، ومن ذي الحليفة أحرم رسول الله ﷺ.

وروى بسنده عن ابن عمر: أنه كان يلقى البيداء ويقول: إنما أهلّ رسول الله ﷺ من المسجد.

قال المراغي: مسجد ذي الحليفة: ماء لبني جشم على أربعة أميال من المدينة، وقيل: ستة أميال: وهي المعروفة ببيار علي، والله أعلم، وهي محرم الحجّاج وميقات أهل المدينة ومَنْ مرّ بها كما في الصحيح.

وروينا في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: بات رسول الله ﷺ بذي الحليفة مبدأه، وصلّى في مسجدها.

وروى الزبير بن بكّار بسنده إلى نافع: أنّ ابن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي الحليفة فيقال إنه المسجد الكبير هناك، وكان فيه عقود قبلته ومنارة في ركنه الغربي الشمالي فتهدّم على طول الزمان، وهو مبني في موضع الشجرة التي كانت هناك وبها سُمّي (مسجد الشجرة)، وفي قبلة هذا المسجد مسجد آخر أصغر منه ولا يبعد أن يكون النبي ﷺ صلّى فيه أيضًا، وبينهما قدر رمية سهم أو أكثر قليلاً.

وروى الزبير بن بكّار أيضًا رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صلّى في مسجد الشجرة إلى جهة الاسطوانة الوسطى واستقبلها، وكان موضع الشجرة التي كان النبي ﷺ صلّى إليها.

وروينا في مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذي الحليفة أهّل فقال: (لبّيك) وأتمّها، والأولى أن لا يتعدّى الحاج في نزوله المسجد المذكور وما حوله من القبلة والغرب والشام، بل يحرص على أن لا يبعد عن النزول حول المسجد، وكثير من الحاج يتجاوزون ما حول المسجد إلى جهة الغرب، ويصعدون إلى البيداء فيتجاوزون الميقات وتحصل الإساءة.

وقال السمهودي: مسجد الشجرة، ويعرف بمسجد ذي الحليفة أيضًا، والحليفة: الميقات المدني، ويعرف اليوم ببئر علي.

روينا في صحيح مسلم عن ابن عمر قال: بات رسول الله ﷺ بذي الحليفة مبدأه، وصلّى في مسجدها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ في مسجد الشجرة إلى الاسطوانة الوسطى واستقبلها، وكانت موضع الشجرة التي كان النبي ﷺ يصلّى إليها.

قال السمهودي: المعنى بذلك موضع المسجد المذكور، فإنه كان موضع نزوله وبني في موضع الشجرة التي كانت هناك، وبها سُمّي مسجد الشجرة، وهي الشجرة التي ذكر في حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ كان ينزل تحتها بذي الحليفة كما في الصحيح.

ويتحصّل من صحيح الروايات: أنه ﷺ خرج لحجته نهارًا، وبات بذي الحليفة، وأحرم في اليوم الثاني من عند المسجد فيظهر أن صلواته ﷺ في تلك المدة كانت كلها به.

قلت: هذا ما ذكره العلماء في تحديد مسجد ذي الحليفة (مسجد الشجرة) ولم يختلفوا في تحديده ولا في وصفه، والمفهوم من أقوال العلماء: أن مسجد ذي الحليفة هو مسجد الشجرة وقد أوضحوا ذلك من مدلول الروايات، وذو الحليفة أصبح يسمى بيار علي ـ كما تقدّم ـ وقد تقدّم في رسم ذي الحليفة في هذا الكتاب مزيد من الإيضاح، فانظره.

مسجد الشجرة: واحد المساجد ـ مضاف إلى الشجرة واحد الشجر ـ بفتح الشين المعجمة المشدّدة والجيم المعجمة والراء المهملة وآخره هاء: مسجد في ذي الحليفة ميقات إحرام أهل المدينة، ومَنْ مرّ بها من غيرهم.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ كان يخرج من طريق الشجرة ويدخل من طريق المعرّس، وأن رسول الله ﷺ كان إذا خرج إلى مكة يصلّي في مسجد الشجرة، وإذا رجع يصلي بذي الحليفة ببطن الوادي وبات حتى يصبح.

قلت: مسجد الشجرة هو المسجد المعروف بمسجد (ذي الحليفة) وقد استوفيت الحديث عنه في رسم مسجد ذي الحليفة بما فيه كفاية ـ إن شاء الله ـ فانظره.

المشلّل: بضم الميم وفتح الشين المعجمة ولام مشدّدة مفتوحة وآخره لام ثانية: موضع على الطريق بين مكة والمدينة.

وروى البخاري بسنده عن عروة قال: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أرأيت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [سورة البقرة، الآية ١٥٨] فوالله ما على أحد جناح أن يطوّف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن اختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يطوّف بهما، ولكنها أُنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل.

قال ابن حجر: المشلّل: بضم أوله وفتح المعجمة ولامين، الأولى مفتوحة مثقلة: هي الثنية المشرفة على قديد، زاد سفيان عن الزهري: المشلل من قديد، أخرجه مسلم وأصله للمصنف... وكانت مناة ببطن قديد أي: مقابله، وقديد بقاف مصغر: قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثيرة الماء، قاله أبو عبيد الله البكري.

وقال الحربي: المشلّل قبل قديد بثلاثة أميال ـ يعني لمن أتى من المدينة ـ وهي التي كانت عندها مناة الطاغية في الجاهلية، وقبل قديد مسجد النبي ﷺ، ويقال: كانت عنده بيت أم معبد.

قال ياقوت: المشلّل: بالضم ثم الفتح، وفتح اللام أيضًا، والشلّ الطّرد: وهو جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر، قال العرجي:

ألا قل لمن أمسى بمكة قاطنًا
ومن جاء من عمق ونقب المشلّل

قال البكري: المشلّل: بضم أوله وفتح ثانيه، وفتح اللام وتشديدها، وهي ثنية مشرفة على قديد، وقال مزرّد:

تدبّ مع الركبان لا يسبقونها
وحلّت بجنبي عزور والمشلّل

قال يعقوب: عزور وادٍ قريب من المدينة، والمشلّل: جبل وراءه على موطىء الطريق. قال نصيب:

عفا سرب الحبل الدميث المحلّل
ففرش الجبيل بعدنا فالمشلّل
فذو سلم فالسفح إلا منازلاً
به من مغانيها حديث ومحول

وقال عمر بن أبي ربيعة:

هاجني منها على النأي دمنة
لها بقديد دون نعف المشلّل

قال الواقدي: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث السّرايا، فبعث خالد بن الوليد إلى العزى، وبعث إلى ذي الكفين ـ صنم عمرو ابن حممة ـ الطفيل بن عمرو الدوسي، فجعل يحرقه بالنار ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا أقدم من ميلادكا
أنا حششت النار في فؤادكا

وبعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل فهدّمه.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج، ومَنْ دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد.

قلت: يفهم من أقوال العلماء المتقدّمة أن المشلّل قريب من قديد، ولم يختلفوا في ذلك، وقديد بلدة ما زالت معروفة عامرة، والمشلّل كذلك ما زال معروفًا باسمه، وهو غير بعيد من قديد.

وقد وصفه عاتق البلادي وصفًا جغرافيًا، وحدّد المسافة بينه وبين قديد من خلال زيارته لهذه المواضع، قال: المشلّل: وتعرف حرّة المشلّل اليوم بالقديديّة، نسبة إلى قديد الوادي المعروف، تراها على يمينك وأنت تتجاوز القضيمة، ذاهبًا إلى المدينة، مستطيلة من المشرق إلى المغرب مع انحراف إلى الجنوب، وثنية المشلّل بأسفل هذه الحرّة يمر طريق مكة إلى المدينة اليوم على مرأى فيها يدعها يمينه، لا زالت جادتها ماثلة للعيان، تهبط جنوبًا على خيمتي أمّ معبد، وبها أكمة كثيرة حجارة المرو.

قلت: وقد ذكر الحربي أن بين المشلّل وقديد ثلاثة أميال، ـ وقديد محدّد وموصوف في رسمه فانظره.

مصر: بميم مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وآخره راء مهملة: قطر عربي إسلامي مشهور بهذا الاسم.

روى البخاري بسنده عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر حجّ البيت فرأى قومًا جلوسًا فقال: مَنْ هؤلاء القوم؟ قال: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر ـ الحديث.

وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية ٦١].

وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الآية بشأن صرف (مصر) كما اختلفوا في المقصود بهذه الآية، هل هو مصر القطر المعروف، مصر فرعون؟ أم أنه أيّ مصر من الأمصار؟.

ورجّح ابن عباس أن المقصود في هذه الآية: أيّ مصر من الأمصار دخلوا.

ولم يختلف المفسّرون في الآيات الأخرى التي ورد فيها ذكر مصر بأن المقصود فيها هو مصر القطر المعروف، كقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٩٩].

وقد فتحت بلاد مصر في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عمرو ابن العاص رضي الله عنه.

قال البلاذري: قالوا: وكان عمرو بن العاص حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك، ثم استخلف عليها ابنه حين ولّى يزيد بن أبي سفيان، ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة فغضب عمر لذلك، وكتب إليه يوبّخه ويعنّفه على افتياته عليه برأيه، وأمره بالرجوع إلى موضعه إلى أن وافاه كتابه دون مصر، فورد الكتاب عليه وهو بالعريش.

وقيل أيضًا إن عمر كتب إلى عمرو بن العاصي يأمره بالشخوص إلى مصر فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية، وكان الذي أتاه شريك ابن عبدة، فأعطاه ألف دينار فأبى شريك قبولها، فسأله أن يرد ذلك ولا يخبر به عمر.

قالوا: وكان مسير عمرو إلى مصر في سنة تسع عشرة فنزل العريش، ثم أتى الفرماء وبها قوم مستعدون للقتال، فحاربهم وهزمهم وحوى عسكرهم، ومضى قدماً إلى الفسطاط، فنزل حنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط وكان اسم المدينة اليونة، فسمّاها المسلمون فسطاطاً؛ لأنهم قالوا: هذا فسطاط القوم ومجمعهم، وقوم يقولون: إن عمرًا ضرب بها فسطاطًا فسمّيت بذلك.

قالوا: ولم يلبث عمرو بن العاص وهو محاصر أهل الفسطاط أن ورد عليه الزبير ابن العوام بن خويلد في عشرة آلاف، ويقال في اثني عشر ألفًا فيهم خارجة بن حذافة العدوي، وعمير بن وهب الجمحي، وكان الزبير قد همّ بالغزو وأراد إتيان أنطاكية فقال له عمر: يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر، فقال: لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهدًا وللمسلمين معاونًا، فإن وجدت عمراً قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به، وإن وجدته في جهاد كنت معه، فسار على ذلك.

وقالوا: وكان الزبير يقاتل من وجه، وعمرو ابن العاص من وجه، ثم إن الزبير أتي بسلّم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن، وهو مجرِّد سيفه فكبّر وكبّر المسلمون واتّبعوه، ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون مافيه، وأقرّ عمرو أهله على أنهم ذمة، ووضع عليهم الجزية في رقابهم والخراج في أرضهم، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجازه، واختط الزبير بمصر وابنتى دارًا معروفة، وبها نزل عبد الله بن الزبير حين غزا إفريقية مع ابن أبي سرح، وسلّم الزبير باق في مصر.

قال: وبعث الزبير بن العوام إلى مصر فقيل له: إن بها الطعن والطاعون، فقال: إنما جئنا للطعن والطاعون، قال: فوضعوا السلاليم فصعدوا عليها.

قال: ودخل عمرو بن العاص مصر ومعه ثلاثة آلاف وخمسمائة، وكان عمر بن الخطاب قد أشفق لمّا أخبر به من أمرها، فأرسل الزبير ابن العوام في اثني عشر ألفاً، فشهد الزبير فتح مصر واختط بها.

قال: ولما فتحوا مصر بغير عهد قام الزبير فقال: اقسمها يا عمرو، فأبى، فقال الزبير: والله لنقسمنّها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر، فكتب عمرو إلى عمر في ذلك، فكتب إليه عمر: أقرّها حتى يغزو منها حبل الحبلة.

وقد اشتبه على الناس أمر مصر فقال قوم: فتحت عنوة، وقال آخرون: فتحت صلحًا، وقال عبيد الله بن عمرو: إن أبي قدمها فقاتله أهل اليونة ففتحها قهرًا وأدخلها المسلمين، وكان الزبير أول مَنْ علا حصنها، فقال صاحبها لأبي: إنه قد بلغنا عملكم بالشام، ووضعكم الجزية على النصارى واليهود، وإقراركم الأرض في أيدي أهلها يعمرونها ويؤدّون خراجها، فإن فعلتم بنا مثل ذلك كان أرد عليكم من قتلنا وسبينا وإجلائنا قال: فاستشار أبي المسلمين، فأشاروا عليه بأن يفعل ذلك إلاّ نفرًا منهم سألوه أنْ يقسم الأرض بينهم، فوضع على كلّ حالم دينارين جزية، إلا أن يكون فقيرًا، وألزم كلّ ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل، وقسطي خلّ رزقًا للمسلمين تجمع في دار الرزق وتقسم فيهم، وأحصى المسلمون فألزم أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفّين في كل عام، أو عدل جبة الصوف ثوبًا

قبطيًا وكتب عليهم بذلك كتابًا، وشرط لهم إذا وفّوا بذلك ألاّ تباع نساؤهم وأبناؤهم، ولا يسبوا وأن تقرّ أموالهم وكنوزهم بأيديهم، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فأجازه، وصارت الأرض أرض خراج، إلا أنه لمّا وقع هذا الشرط والكتاب ظنّ بعض الناس أنها فتحت صلحًا.

ولمّا فرغ ملك اليونة من أمر نفسه ومَنْ معه في مدينته صالح عن جميع أهل مصر على مثل صلح اليونة. فرضوا به وقالوا: هؤلاء الممتنعون قد رضوا وقنعوا بهذا فنحن به أقنع؛ لأننا فرش لا منعة لنا، ووضع الخراج على أرض مصر، فجعل على كلّ جريب دينارًا وثلاثة أرادب طعامًا، وعلى رأس كل حالم دينارين وكتب بذلك إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

قال: وصالح المقوقس عمرو بن العاص على أن يسير من الروم مَنْ أراد. ويقرّ مَنْ أراد الإقامة من الروم على أمر سمّاه، وأن يفرض على القبط دينارين، فبلغ ذلك ملك الروم فتسخّطه وبعث الجيوش فأغلقوا باب الإسكندرية.

قال: ولمّا فتح عمرو الفسطاط وجّه عبد الله ابن حذافة السهمي إلى عين شمس، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجّه خارجة بن حذافة العدوي إلى القيوم والأشمونين وأخميم والبشرودات، وقرى الصعيد، ففعل مثل ذلك، ووجّه عمير بن وهب الجمحي إلى تنّيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير، ففعل مثل ذلك، ووجّه عقبة بن عامر الجهني ويقال مولاه ورد إلى سائر قرى أسفل الأرض ففعل مثل ذلك، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر، فصارت أيضًا أرض خراج.

وفتح عمرو بن العاص مصر سنة عشرين ومعه الزبير بن العوام، فلمّا فتحها صالحه أهل البلد على وظيفة وظفها عليهم، وهي ديناران على كل رجل، وأخرج النساء والصبيان من ذلك، فبلغ خراج مصر في ولايته ألفي ألف دينار، فكان بعد ذلك يبلغ أربعة آلاف ألف دينار.

ولمّا افتتح عمرو بن العاص مصر أقام بها، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه يأمره بذلك، فسار إليها في سنة إحدى وعشرين، واستخلف على مصر خارجة بن حذافة بن غانم، وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمّعوا له وقالوا: نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية، فلقيهم بالكربون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكان فيهم من أهل سخًا، وبلهيت، والخيس، وسلطيس، وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها مستعدين لقتاله، إلا أن القبط في ذلك يحبون الموادعة، فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدّة، فأبى عمرو ذلك، فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات وجوههنّ إلى داخله، وأقام الرجال بالسلاح مقبلين وجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل إليه عمرو: إنا قد رأينا ما صنعت، وما بالكثرة غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان، فقال المقوقس لأصحابه: قد صدق هؤلاء القوم، أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان، فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديدًا وحصروهم ثلاثة أشهر، ثم إن عمرًا فتحها بالسيف، وغنم فيها

واستبقى أهلها ولم يسب وجعلهم ذمة كأهل اليونة، فكتب إلى عمر بالفتح مع معاوية ابن حديج الكندي ثم السكوني، وبعث إليه معه بالخمس.

ويقال إنَّ المقوقس صالح عمر على ثلاثة عشر ألف دينار، على أن يخرج من الإسكندرية مَنْ أراد الخروج، ويقيم بها من أحبّ المقام، وعلى أنْ يفرض على كل حالم من القبط دينارين فكتب لهم بذلك كتابًا، ثم إن عمرو ابن العاص استخلف على الإسكندرية عبد الله ابن حذافة بن قيس بن عديّ بن سعد ابن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي في رابطة المسلمين، وانصرف إلى الفسطاط، وكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل وقد كان الملك يومئذٍ، يخبرونه بقلّة مَنْ عندهم من المسلمين وبما هم فيه من الذلّة وأداء الجزية فبعث رجلاً من أصحابه يقال له منويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة، فدخل الإسكندرية وقتل مَنْ بها من روابط المسلمين الا من لطف للهرب فنجى، وذلك في سنة خمس وعشرين، وبلغ عمروًا الخبر فسار إليهم في خمسة عشر ألفًا، فوجد مقاتليهم قد خرجوا يعيثون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر، فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة، والمسلمون متترّسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم إن أولئك الكفرة ولّوا منهزمين، فلم يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصّنوا بها ونصبوا العرّادات فقاتلهم عمرو عليها أشدّ قتال، ونصب المجانيق فأخرب جدرها، وألحّ بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوةً فقتل المقاتلة وسبى الذرية، وهرب بعض رومها إلى الروم، وقتل عدوّ الله منويل، وهدم عمرو والمسلمون جدار الإسكندرية، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلنّ ذلك.

وقال بعض الرواة: إن هذه الغزاة كانت في سنة ثلاث وعشرين، وروى بعضهم أنهم نقضوا في سنة ثلاث وعشرين، وسنة خمس وعشرين، والله أعلم.

قلت: وبهذا الفتح الإسلامي أصبح مصر قطرًا إسلاميًا عربيًا، وكانت له شهرة سياسية وثقافية واقتصادية، وما زالت شهرته ومكانته قائمة إلى هذا العهد، وقد أُلّف في تاريخه مؤلفات خاصة به قديمًا وحديثًا، ولما لهذا القطر الإسلامي العربي من شهرة، ولما لتاريخه من مصادر شاملة فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنه.

المصّيصة: بميم مفتوحة وصاد مهملة مشدّدة مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة، وبعد الياء صاد مهملة مفتوحة وآخره هاء: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم.

وروى البخاري بسنده قال: حدّثنا الحسن ابن منصور أبو علي حدثنا حجاج بن محمد الأعور بالمصّيصة، حدّثنا شعبة عن الحكم قال: سمعت أبا جحيفة قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء فتوضّأ ثم صلّى الظهر ركعتين والعصر ركعتين، وبين يديه عنزة.

قال البلاذري: قال: غزا معاوية غزوة عمارية في سنة خمس وعشرين وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنّسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحرّ العبسي الصائفة وأمره، ففعل مثل ذلك، وكانت الولاة تفعله. . . وفي

كتاب (مغازي معاوية) أنه غزا سنة إحدى وثلاثين من ناحية المصّيصة فبلغ درولية، فلمّا رجع جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه.

قال: ولمّا كانت سنة أربع وثمانين غزا على الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان، فدخل من درب أنطاكية وأتى المصّيصة، فبنى حصنها على أساسه القديم، ووضع بها سكانًا من الجند فيهم ثلاثمائة رجل انتخبهم من ذوي البأس والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجدًا فوق تلّ الحصن، ثم سار في جيشه حتى غزا حصن سنان ففتحه.

وقال: وكان أول مَنْ ابتنى حصن المصّيصة في الإسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله بن عبد الملك في سنة أربع وثمانين على أساسها القديم، فتم بناؤها وشحنها في سنة خمس وثمانين، وكانت في الحصن كنيسة جعلت هريًا، وكانت الطوالع من أنطاكية تطلع عليها في كلّ عام فتشتو بها ثم تنصرف.

وشخص عمر بن عبد العزيز حتى نزل هرى المصّيصة، وأراد هدمها وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية، وقال: أكره أن يحاصر الروم أهلها، فأعلمه الناس أنها إنما عمرت ليدفع مَنْ بها من الروم عن أنطاكية، وأنه إن أخرجها لم يكن للعدوّ ناهية دون أنطاكية، فأمسك وبنى لأهلها مسجدًا جامعًا من ناحية كفربيا، واتّخذ فيه صهريجًا، وكان اسمه عليه مكتوبًا، ثم إن المسجد خرب في عهد المعتصم بالله وهو يدعى مسجد الحصن.

فلمّا استخلف أبو العباس فرض بالمصّيصة لأربعمائة رجل زيادة في شحنتها وأقطعهم، ثم لمّا استخلف المنصور فرض بالمصّيصة لأربعمائة رجل، ثُمّ لمّا دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة، أمر بعمران مدينة المصّيصة، وكان حائطها متشعثًا من الزلازل، وأهلها قليل في داخل المدينة، فبنى سور المدينة وأسكنها أهلها سنة أربعين ومائة وسمّاها: المعمورة، وبنى فيها مسجدًا جامعًا في موضع هيكل كان بها، وجعله مثل مسجد عمر مرّات، ثم زاد فيه المأمون أيام ولاية عبد الله بن طاهر بن الحسين المغرب، وفرض المنصور فيها لألف رجل، ثم نقل أهل الخصوص، وهم فرس وصقالبة وأنباط نصارى، وكان مروان أسكنهم إيّاها وأعطاهم خططًا في المدينة عوضًا عن منازلهم على ذرعها، ونقص منازلهم وأعانهم على البناء، وأقطع الفرض قطائع ومساكن، ولمّا استخلف المهدي فرض بالمصيصة لألفي رجل ولم يقطعهم؛ لأنها قد كانت شحنت من الجند والمطوعة، ولم تزل الطوالع تأتيها من أنطاكية في كل عام حتى وليها سالم البرلّسي، وفرض موضعه لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير فكثر مَنْ بها وقووا، وذلك في خلافة المهدي.

قال: وألحّت الروم على أهل المصّيصة في أول أيام الدولة المباركة حتى جلوا عنها، فوجّه صالح بن علي جبريل بن يحيى البجلي فعمرها وأسكنها الناس في سنة أربعين ومائة.

قلت: هذا موجز لما ذكره البلاذري في حديثه عن مدينة (المصيصة) أحد مدن الثغور.

وقال ياقوت: المصّيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى: كذا ضبطه الأزهري وغيره من اللغويين بتشديد الصاد الأولى هذا لفظه، وتفرّد الجوهري وخالد الفارابي بأنْ قالا: المصيصة بتخفيف الصادين والأول أصحّ.

وهي مدينة على شاطئي جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، وهي الآن بيد ابن ليون وولده بعده منذ أعوام كثيرة، وكانت من مشهور ثغور الإسلام قد رابط بها الصالحون قديمًا، وبها بساتين كثيرة يسقيها جيحان، وكانت ذات سور وخمسة أبواب، وهي مسماة ـ فيما زعم أهل السّير ـ باسم الذي عمرها وهو مصيصة بن الروم ابن اليمن بن سام بن نوح عليه السلام.

قال المهلبي: ومن خصائص الثغر أنه كانت تعمل ببلدة المصيصة الفراء تحمل إلى الآفاق، وربما بلغ الفرو منها ثلاثين دينارًا.

والمصيصة أيضًا: قرية من قرى دمشق، قرب بيت لهيا، قال أبو القاسم: يزيد بن أبي مريم الثقفي المصيصي من أهل مصيصة دمشق ولاّه هشام بن عبد الملك عاربة الشجر ولم تكن ولايته محمودة فعزله، وينسب إلى المصيصة كثير من كتاب النسب للسمعاني.

قلت: ممّا تقدّم يتبيّن أن المصّيصة اسم لبلدتين، إحداهما ثغر من أشهر الثغور الإسلامية بين بلاد الشام وبلاد الروم، والأخرى قرية من قرى دمشق بالشام، وذكر ياقوت أنه ينسب إلى هذه القرية عدد من الفقهاء والمحدّثين، وأورد بعض أسمائهم في حديثه عن هذه البلدة.

مكة: بميم مفتوحة وكاف مشدّدة مفتوحة وآخرها هاء: المقصود به مكة البلد الحرام.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الفتح، الآية: ٢٤].

قال ابن جرير: يقول تعالى لرسول الله ﷺ، والذين بايعوا بيعة الرضوان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ يعني: أن الله كف أيدي المشركين الذي كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية، يلتمسون غرّتهم ليصيبوا منهم، فبعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى، فخلّى عنهم رسول الله ﷺ، ومنّ عليهم ولم يقتلهم، فقال الله للمؤمنين: وهو الذي كفّ أيدي هؤلاء المشركين عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة، من بعد أن أظفركم عليهم.

وروى بسنده عن عبد الله بن مغفّل أن رسول الله ﷺ كان جالسًا في أصل شجرة بالحديبية، وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة فرفعتها عن ظهره، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه، وسهيل بن عمرو، وهو صاحب المشركين، فقال رسول الله ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم»، فأمسك سهيل بيده فقال: ما نعرف الرحمٰن، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» فكتب فقال: «هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بيده، فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولاً، اكتب في قضيّتنا ما نعرف قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب وأنا رسول الله» فخرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنافدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال لهم رسول الله ﷺ، «هل خرجتم في أمان أحد» قال: فخلّى عنهم، قال: فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

روى البخاري بسنده عن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيّها الأمير، أحدّثك قولاً قام به

النبي ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي، ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلّم به، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس، فلا تحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنّما أذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلّغ الشاهد الغائب.

قال ياقوت: قال ابن الأنباري: سُمّيت مكة لأنها تمكّ الجبّارين، أي: تذهب نخوتهم، ويقال: إنّها سُمّيت مكة لازدحام الناس بها من قولهم: قد امتكّ الفصيل ضرع أمّه إذا مصّه مصّاً شديدًا.

وسُمّيت بكة لازدحام الناس بها.

قال أبو عبيدة وأنشد:

إذا الشريب أخذته أكّة
فخلّه حتى يبكّ بكّة

ويقال: مكة اسم المدينة، وبكّة اسم البيت.

ـ **وقال آخرون:** مكة هي بكة والميم بدل من الباء كما قالوا: ما هذا بضربة لازب ولازم.

وقال أبو القاسم: هذا الذي ذكره أبو بكر في مكة.

وقال الشرقي بن القطامي: إنما سُمّيت مكة؛ لأن العرب في الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجّنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكّ فيه، أي: نصفّر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفّرون ويصفّقون بأيديهم إذا طافوا بها، والمكّاء بتشديد الكاف: طائر يأوي الرياض، قال أعرابي: ورد الحضر فرأى مكّاء يصيح فحنّ إلى بلاده فقال:

ألا أيّها المكّاء مالك هاهنا
ألاء ولا شيح فأين تبيض

فاصعد إلى أرض المكاكي واجتنب
قرى الشام لا تصبح وأنت مريض

والمكاء، بتخفيف الكاف والمدّ: الصّفير، فكأنّهم كانوا يحكون صوت المكاء، ولو كان الصفير هو الغرض لم يكن مخفّفًا.

وقال قوم: سِمّيت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك، والمكوك عربي أو معرّب قد تكلّمت به العرب، وجاء في أشعار الفصحاء.

قال الأعشى:

والمكاكي والصّحاف من الفضّـ
ـة، والضّامرات تحت الرّحال

قال: وأمّا قولهم: سُمّيت مكة لازدحامهم فيها من قولهم: قد امتكّ الفصيل مافي ضرع أمّه إذا مصّه مصّاً شديدًا فغلط في التأويل، لا يشبّه مصّ الفصيل الناقة بازدحام الناس، وإنما هما قولان:

يقال: سُمّيت مكة لازدحام الناس فيها، ويقال أيضًا: سُمّيت مكة؛ لأنها عبّدت الناس فيها فيأتونها من جميع الأطراف من قولهم: امتكّ الفصيل أخلاف الناقة إذا جذب جميع ما فيها جذبًا فلم يبق فيها شيئًا، وهذا قول أهل اللغة.

وقال آخرون: سُمّيت مكة؛ لأنها لا يفجر فيها أحد إلا بكّت عنقه، فكان يصبح وقد التوت عنقه.

وقال الشرقي: روي أنَّ بكّة اسم القرية، ومكة مغزى بذي طوى لا يراه أحد ممّن مرّ من أهل الشام والعراق واليمن والبصرة، وإنما هي أبيات في أسفل ذي طوى.

وقال آخرون: بكة موضع (لبيت) وما حول البيت مكة، قال: وهذه خمسة أقوال في مكة غير ما ذكره ابن الأنباري.

قال: وقال عبيد الله الفقير إليه: ووجدت أنها إنما سُمّيت مكة من مكّ الثدّي، أي مصّه، لقّلة مائها؛ لأنهم كانوا يمتكون الماء أي: يستخرجونه.

وقيل: إنها تمكّ الذنوب كما يمكّ الفصيل ضرع أمّه فلا يبقي فيه شيئًا.

وقيل: سُمّيت مكة؛ لأنها تمكّ من ظلم أي تنقصه، وينشد قول بعضهم:

يا مكة الفاجر مكّي مكّا
ولا تمكّي مذحجاً وعكّا

وروي عن مغيرة بن إبراهيم قال: بكة موضع البيت، وموضع القرية مكة. وعن يحيى ابن أبي أنيسة قال: بكّة موضع البيت، ومكة هو الحرم كلّه.

وقال زيد بن أسلم: بكة الكعبة والمسجد، ومكة ذي طوى وهو بطن الوادي الذي ذكره الله ﷻ في سورة الفتح، ولها أسماء غير ذلك وهي:

مكة، وبكة، والنسّاسة، وأم رحم، وأم القرى، ومعاد، والحاطمة؛ لأنها تحطّم مَنْ استخفّ بها، وسُمي البيت العتيق؛ لأنه عتق من الجبابرة.

والرأس لأنها مثل رأس الإنسان، والحرم، وصلاح البلد الأمين، والعرش، والقادس؛ لأنها تقدس من الذنوب أي: تطهّر، والمقدّسة، والناسية، والباسة، بالباء الموحدة؛ لأنها تبّس أي: تحطّم الملحدين، وقيل تخرجهم، وكوثى باسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار، والمذهب في قول بشر ابن أبي خازم:

وما ضمّ حياد المصلّى ومذهب

وسمّاها الله ﷻ أم القرى، فقال: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [سورة الشورى، الآية: ٧].

وسمّاها الله ﷻ البلد الأمين في قوله ﷻ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ③﴾ [سورة التين، الآية: ١، ٢، ٣].

وقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ②﴾ [سورة البلد، الآية: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٩٧].

وقال ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ﴾. [سورة إبراهيم، الآية: ٣٥]

وقال ﷻ أيضًا على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٣٧].

ولمّا خرج رسول الله ﷺ من مكة وقف على الحزّورة قال: «إنّي لأعلم أنك أحبّ البلاد إليّ، وأنك أحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّ المشركين أخرجوني منك ما خرجت».

قلت: لأهمية مكة بالنسبة للمسلمين، فإنه قد كتب في تاريخها مؤلفات كثيرة تتحدّث عن تاريخها من كلّ جوانبه، من أشهرها كتاب (أخبار مكة للأزرقي)، وكتاب (أخبار مكة للفاكهي)، وكتاب (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي)، وغيرها من المؤلفات.

وبما أن مكة لها شهرة إسلامية وتاريخية وحضارية تغني عن الحديث عنها، فإنني أكتفي بهذا القدر، ولا يتّسع مقامنا هذا لذكر كلّ ما هو هام من أخبار بيت الله الحرام.

المناصع: بميم مفتوحة بعدها نون موحدة وبعد النون ألف ثم صاد مهملة مكسورة وآخره عين: موضع في المدينة.

روى البخاري بسنده عن عائشة: أن أزواج النبي ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزّن إلى المناصع وهو صعيد أفيح فكان عمر يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصًا على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب.

قال ابن حجر: المناصع: بالنون وكسر الصاد المهملة بعدها عين مهملة جمع منصع بوزن مقعد، وهي: أماكن معروفة من ناحية البقيع، قال الداودي: سُمّيت بذلك لأن الإنسان ينصع فيها أي: يخلص، والظاهر أن التفسير بقول عائشة.

قال ياقوت: المناصع: بالفتح والصاد مهملة، والعين مهملة، قال أبو منصور: قال أبو سعيد المناصع المواضع التي تتخلى فيها النساء لبول أو حاجة، والواحد منصع، قال: وقرأت في حديث أهل الإفك: وكان متبرّز النساء بالمدينة قبل أن سويت الكنف المناصع، وأرى أن المناصع موضع بعينه خارج المدينة. كان النساء يتبرزّن إليه بالليل على مذهب العرب في الجاهلية، قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي عن المناصع من أي شيء أخذت؟ فلم يعرفه. قال أبو محمد: المناصع موضع بالمدينة، قال: وسمعت أبي قال: سألت نوح ابن ثعلب عن المناصع أي شيء هي؟ ضحك وقال: تلك والله المجالس.

قال السمهودي: المناصع: متبرز النساء بالمدينة ليلاً، قبل اتّخاذ الكنف بالبيوت، على مذهب العرب، وهو ناحية بئر أبي أيوب ولعلّها المعروفة اليوم ببئر أيوب، شرق سور المدينة شامي بقيع الغرقد.

قال الشنقيطي: موقع المناصع شرقي الحرم النبوي ويشمل مدرسة العلوم الشرعية حتى الرومية وفندق التيسير، وما يتخلّل ذلك من أسواق، وكان موضع المناصع خلاء يذهب إليه للتبرّز كما ورد عن عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك حين خرجت إلى المناصع مع أمّ مسطح إلى آخر ما ورد، ويسمى مكان المناصع اليوم بالرومية، ولعلّ سبب ذلك أن عمر بن عبد العزيز أسكن هناك عمال الروم الذين كانوا يعملون في بناء المسجد في عمارة الوليد بن عبد الملك التي أشرف عليها عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه، فحبذا لو سُمّي الحيّ باسمه القديم، والمناصع تقع شرقي الحرم إلى الشمال قليلاً، وقد تقرّرت إزالة الحي الواقع في حيّ المناصع لتوسعة الحرم النبوي في العام القادم ١٤٠٦هـ.

قلت: المناصع من مواضع المدينة التي شملها النمو العمراني، وتغيرت معالمها، وتغيّرت أسماؤها على مرّ العصور، وتغيّر العمران، غير أن الأخبار دلّت على أن المناصع مكان أفيح واقع شرقي المسجد الحرام شمال بقيع الغرقد، كما دلّت على أن هذا الخلاء الأفيح كان ينتابه الناس للتبرّز على طريقة العرب القديمة.

مِنى: بميم مكسورة ونون موحدة وآخره ألف مقصور: موضع شرق مكة بين العقبة غربًا، ومحسّر شرقًا.

روى البخاري بسنده عن عبيد الله بن عمرو ابن العاص: أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه.

قال ياقوت: منى: بالكسر والتنوين في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمى فيه الجمار من الحرم، سُمّي بذلك لما يمنى به من الدماء

أي يراق، من منى يمنى، وقيل: لأن آدم عليه السلام تمنّى فيها الجنة، قيل: منى من مهبط العقبة إلى محسّر، وموقف المزدلفة من محسّر إلى أنصاب الحرم، وموقف عرفة في الحلّ لا في الحرم، وهو مذكر مصروف، وقد امتنى القوم إذا أتوا منى، عن يونس وقال ابن الأعرابي: أمنى القوم ومنى الله الشيء قدره وبه يسمى منى.

وقال ابن عيينة: أخذ من المنايا: وهي بليدة على فرسخ من مكة، طولها ميلان، تعمّر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها، وقلّ أن يكون في الإسلام بلد مذكور إلا ولأهله بمنى مضرب، وعلى رأس منى من نحو مكة عقبة ترمى عليها الجمرة يوم النحر، ومنى شعبان بينهما أزقّة، والمسجد في الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة، وبها مصانع وآبار وخانات وحوانيت، وهي بين جبلين مطلين عليها، وكان أبو الحسن الكرخي يحتج بجواز الجمعة بها؛ لأنها ومكة كمصر واحد، فلمّا حجّ أبو بكر الجصاص ورأى بُعْد ما بينهما استضعف هذه العلّة وقال: هذه مصر من أمصار المسلمين تعمّر وقتاً وتخلو وقتاً، وخلوّها لا يخرجها عن حدّ الأمصار، وعلى هذه العلّة يعتمد القاضي أبو الحسن القزويني، قال البشّاري: وسألني يوماً كم يسكنها وسط السنة من الناس؟ قلت: عشرون إلى ثلاثين رجلاً قلّما تجد فيه مضرباً إلا وفيه امرأة تحفظه، فقال: صدق أبو بكر وأصاب فيما علّل، قال: فلمّا لقيت الفقيه أبا حامد البغوي بنيسابور حكيت له ذلك فقال: العلّة ما نصّ به الشيخ أبو الحسن، ألا تري إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [سورة الحج، الآية: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٩٥] وإنما يقع النحر بمنى.

وقد ذكر منى الشعراء فقال بعضهم:

ولما قضينا من مني كلَّ حاجة ... ومسّح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

وروى الأزرقي بسنده عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أين منى؟ قال: من العقبة إلى محسّر، قال عطاء: فلا أحب أن ينزل أحد إلا فيما بين العقبة إلى محسّر، حدّثنا أبو الوليد قال: حدّثنا جدّي، أخبرنا مسلم عن ابن جريج قال: أخبرنا نافع قال: كان ابن عمر يقول قال عمر: لا يبيتنّ أحد من الحاج وراء العقبة حتى يكونوا بمنى، ويبعث مَنْ يدخل مَنْ ينزل من الأعراب من وراء العقبة حتى يكونوا بمنى، وبه أخبرنا مسلم عن ابن جريج قال: قال عطاء: سمعنا أنه يكره أن ينزل أحد دون العقبة هلّم إلينا - يعني إلى مكة.

وقال الفاكهي: حدّثنا الزبير بن أبي بكر، قال: حدّثني يحيى بن محمد بن ثوبان عن رباح عن الزنجي بن خالد، عن يحيى ابن جريج عن عطاء قال: حدّ منى من رأس العقبة ممّا يلي منى إلى المنحر(١).

وقال: سُمّيت منى لاجتماع الناس بها، والعرب تقول لكل مكان يجتمع فيه الناس منى.

واسم الجبل الذي مسجد الخيف بأصله: الصائح، ويقال: اسم الصائح: ضبّ، واسم

(١) وقد استدرك عليه الفاسي فقال قوله: «إلى المنحر» تصحيف صوابه: محسر؛ لأنه حدّ منى من جهة المزدلفة.

الجبل الذي على وجاهه على يسارك إذا أتيت منى: القابل.
وحدثنا الزبير بن أبي بكر، قال: حدّثني يحيى بن محمد عن سليم عن ابن جريج أنه قال: كل منى إذا هبطت من محسّر ما صعدت في بطن المسيل فأنت في منى إلى العقبة عند جمرة العقبة.
حدّثنا محمد بن أبي عمر قال: حدّثنا عبد الرزّاق قال، أنبأنا معمر عن محمد ابن المنكدر عن أبي هريرة ﵁، قال: إن رسول الله ﷺ قال: منى كلها منحر، وفجاج مكة كلها منحر.
قلت: وبهذا يتبيّن موقع منى وحدوده، وبما أن منى مشعر من المشاعر المقدّسة التي يرتادها المسلمون في كل عام لإكمال مناسك الحج، وأن لها شهرة تاريخية وشهرة إسلامية معروفة عند علماء المسلمين، وقد أكثر العلماء من الحديث عنها وعن كل ما يتعلق بها من الأحكام، فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنها.
ومنى بلفظ الذي قبله: ويقال له أيضًا (منية): جبل أحمر كبير، وفيه مورد ماء، وهو واقع شمال جبل حلّيت، وشمالاً غربيًا من بلدة نفي، وهو من أعلام حمى ضرية قديمًا، في بلاد غنى، وقد ذكره أصحاب المعاجم وحدّدوه تحديدًا واضحًا، غير أنهم اختلفوا في ضبط اسمه، فذكروه بهذا الاسم (منى) وذكروه بزيادة الهاء (منية) ومنهم من قال بكسر أوله، ومنهم من قال بضمه، قال الهجري: ثم يلي حلّيت منى، وهو جبل أحمر عظيم ليس بالحمى جبل أطول منه، وهو يشرف على ما حوله من الجبال، وفي أصله ماء لبني زبان أرض غنى، وقد ذكره لبيد فقال:

عفت الدّيار محلها فمقامها
بمنى تأبّد غولها فرجمها

ومنى عن يسار طريق أهل البصرة إلى مكة للمصعد ينظر إليه الحاج حين يصدرون إلى امّرة وقبل أن يردوها.
وفي وفاء الوفاء: كبد منى قنّة عظيمة مفردة شرقي جبل يسمّى: منية، ثم هضب الريّان.
وقال الأصفهاني: الريان وادٍ بين الجبال والرمل، ومنى جبل.
قال الشاعر:

أتبعتهم مقلة أنسانها غرق
كالفصّ في رقرقان الدمع مغمور
حتى تواروا بشعب والجمال بهم
عن هضب غول وعن جنبي منى زور

قال ياقوت: منى لفظ منى الرجل: ماء بقرب ضرية، في سفح جبل أحمر، من جبال بني كلاب ثم للضباب منهم.
وقال الهمداني: منى بمكة غير منون، ومنى منوّن من ديار غنى قريب من طخفة، وهو في حمى ضرية.
قلت: كبد منى تسمّى في هذا العهد: منية السمراء، وهي قنّة سوداء كبيرة واقعة شمالاً شرقيًا من منى الحمراء قريبة منها.
قلت: لا خلاف فيما ذكره المؤرخون في وصف جبل منية وفي تحديد موقعه، فهو قريب من طخفة ومن حلّيت ومن الريّان وكذلك من ضرية.
وفي هذا العهد منى واقع في بلاد الروقة من عتيبة التابعة لمحافظة الدوادمي، وتبعد عن مدينة الدوادمي شمالاً مائة كيل تقريبًا.

منصرف الروحاء: بضم الميم وسكون النون الموحدة وفتح الصاد المهملة والراء المهملة وآخره فاء موحدة، مضاف إلى الروحاء وقد

تقدّم ضبط الروحاء في رسمه وهو موضع على الطريق بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب.

روى البخاري عن نافع: أنّ ابن عمر كان يصلي على العرق الذي عند منصرف الروحاء وذلك العرق انتهاء طرفه على حافة الطريق دون المسجد الذي بينه وبين المنصرف وأنت ذاهب إلى مكة.

قال ياقوت: المنصرف: بالضم، وفتح الراء: موضع بين المدينة وبدر بينهما أربعة برد، قال ابن إسحاق: ثم ارتحل في سجسج بالروحاء حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار ذات اليمين على النازية يعني: طريق النبي ﷺ.

قال الواقدي فيما رواه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أصبح رسول الله ﷺ يوم الأحد بملل، ثم راح فتعشى بشرف السيّالة... وصلى الصبح بعرق الظبية بين الروحاء والسيالة... ثم نزل رسول الله ﷺ الروحاء... ثم راح رسول الله ﷺ فصلّى العصر بالمنصرف.

وروى الحربي بسنده عن ابن عمر أنه كان يصلّي عند العرق الذي عند منصرف الروحاء، وذلك أن العرق انتهى طرفه عند حافة الطريق.

قال الأسدي: وعلى ثلاثة أميال من الروحاء ـ يعني وأنت قاصد مكة ـ مسجد لرسول الله ﷺ في سند الجبل، يقال له: مسجد المنصرف، جبل عن يسارك تنصرف منه في الطريق.

قال حمد الجاسر: وهذا الموضع الذي فيه المسجد يسمى الآن (المسيجيد) قرية كبيرة، ومنه في القديم ينصرف الطريق ذات اليسار إلى الرويثة، بينما يتّجه منه طريق الصفراء فبدر قصداً.

قال عاتق بن غيث: المسيجيد: تصغير مسجد، على غير قياس: بلدة عامرة بوادي الصفراء في أعلاه، بين الروحاء والخيف، فيها مدارس للبنين والبنات، وإمارة تابعة للمدينة المنورة.

هي المرحلة العاشرة من مكة على نظام القوافل القديم، فيها تلتقي جميع الطرق التي تفترق من مستورة ما عدا طريق الفرع، وهي طريق بدر، وطريق غيقة، وطريق السقيا.

ومنها يفترق طريقان: أحدهما من الحمراء، والآخر إلى الشّفية شفية العرج جنوبًا، تبعد المسيجيد (٨٠) كيلاً عن المدينة على طريق مكة السلطاني، كانت تعرف باسم المنصرف.

وسكانها الحجلة من حرب، ويساكنهم فيها بعض الأحامدة، وأصل تسمية المسيجيد معدّلة من المسييد تصغير مسيد، وهي لغتهم في مسجد، وهو إبدال معروف في لغة العرب، وسبب التسمية وجود مسجد صغير في طرف البلدة من الشمال في مصب شعب معروف هنا، هذا المسجد ينسب إلى رسول الله ﷺ، وهو معروف معلوم لديهم.

قلت: تبيّن ممّا تقدّم من أقوال أهل العلم التعريف بمنصرف الروحاء، موقعه والبعد بينه وبين المدينة وسبب تسميته بهذا الاسم، كما تبيّن أن هذا الموضع قد تغيّر اسمه وأنه أصبح بلدة عامرة في هذا العهد تسمّى (المسيجيد) وقد أوضح بعضهم سبب هذا التغيّر وتسميته بهذا الاسم، والله أعلم.

مَهِيعة: بميم مفتوحة وهاء ساكنة وياء مثناة مفتوحة وعين مهملة مفتوحة وآخره هاء: هي الجحفة، وقد تقدّم ضبط الجحفة وتحديدها في رسمه.

روى البخاري بسنده عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: مهلّ أهل المدينة ذو الحليفة، ومهلّ أهل الشام مهيعة، وهي الجحفة، وأهل نجد قرن.

قال ابن حجر: مهيعة: بوزن علقمة وقيل: بوزن لطيفة، وسُمّيت الجحفة؛ لأن السيل أجحف بها.

قال ياقوت: الجحفة... كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمرّوا على المدينة، فإن مرّوا بالمدينة فميقاتهم ذو الحليفة وكان اسمها مهيعة، وإنما سُمّيت بالجحفة؛ لأن السيل اجتحفها، وحمل أهلها في بعض الأعوام، وهي الآن خراب.

قلت: وقد استوفيت الحديث عن مهيعة من كل جوانبه في رسم الجحفة في هذا الكتاب.

باب النون

نجد: بفتح النون الموحدة وسكون الجيم المعجمة وآخره دال مهملة: بلاد واسعة في جزيرة العرب.

وروى البخاري بسنده عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دويّ صوته ولا نفقه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام.

قلت: (نجد) بلاد مشهورة في المعاجم، وكتب التاريخ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها ووصف بقاعها، الجبال والأودية والرياض والدارات والمياه والتلال وغيرها، وسأتحدث عن حدودها من خلال أقوال أصحاب المعاجم والباحثين، و(نجد) اسم لعدد من البلاد المتفرقة في جزيرة العرب، غير أن أوسعها وأشهرها نجد الحجاز، وهو الذي سأتحدث عنه، وقد ذكر ياقوت مواضع متعددة يسمى كل منها نجدًا، وحدّد بعضًا منها، وبعضًا لم يحدّده، وقد اختلف المؤرخون وأصحاب المعاجم في تحديد نجد، وكثرت في ذلك أقوالهم.

قال ياقوت: قال النضر: النجد قفاف الأرض وصلابها وما غلظ منها وأشرف، والجماعة النجاد، ولا يكون إلا قفّاً أو صلابة من الأرض في ارتفاع من الجبل معترضًا بين يديك يردّ طرفك عمّا وراءه، يقال: أعلا هاتيك النجاد وهذاك النجاد بوجه. وقال: ليس بالشديد الارتفاع.

وقال الأصمعي: هي نجود عدّة، منها: نجد برق وادٍ باليمامة، ونجد خال، ونجد عفر، ونجد كبكب، ونجد مريع، قال: وكل ما ارتفع عن تهامة فهو نجد، فهي ترعى بنجد، وتشرب بتهامة.

وقال الأصمعي: وسمعت الباهلي يقول: كل ما وراء الخندق الذي خندقه كسرى، وقيل: نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها الطرق والشام.

وقال السكري: حدّ نجد ذات عرق من ناحية الحجاز، كما تدور الجبال معها إلى جبال المدينة وما وراء ذات عرق من الجبال إلى تهامة فهو حجاز كله، فإذا انقطعت الجبال من نحو تهامة فما وراءها إلى البحر فهو الغور، والغور وتهامة واحد.

وقال عمارة بن عقيل: ما سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق، وحدّ نجد أسافل الحجاز، وما سال من ذات عرق موليًا إلى المغرب فهو الحجاز إلى أن تقطعه تهامة، وحجاز يحجز أي: يقطع بين تهامة ونجد.

قلت: هذا بعض ما ذكره ياقوت من الأقوال في تحديد نجد.

وقال البكري: وأمّا نجد فما بين جرش إلى سواد الكوفة، وآخر حدوده ممّايلي المغرب الحجازان: حجاز الأسود، وحجاز المدينة، والحجاز الأسود سراة شنوءة، ومن قبل

المشرق بحر فارس، مابين عمان إلى بطيحة البصرة، ومن قِبل يمين القبلة الشامي: الحزن حزن الكوفة، ومن العذيب إلى الثعلبية إلى قلّة بني يربوع عن يسار طريق المصعد إلى مكة، ومن يسار القبلة اليمنى ما بين عمل اليمن إلى بطيحة البصرة.

وقال عمارة بن عقيل: ما سال من الحرّة: كل ما وراء الخندق خندق كسرى، الذي خندقه على سواد العراق، هو نجد إلى أن تميل إلى الحرّة، فإذا ملت إلى الحرّة فأنت في الحجاز حتى تغور، والغور: كل ما انحدر سيله مغربًا، فبذلك سُمّي الغور، وكل ما أسهل مشرّقا فهو نجد.

قال البكري: وذات عرق فصل مابين نجد وتهامة والحجاز، وقيل لأهل ذات عرق: أمتهمون أنتم أم منجدون؟ لا متهمون ولا منجدون، وقال الشاعر:

ونحن بسهب مشرف غير منجد
ولا متهم فالعين بالدمع تذرف

وأورد الحسن الأصفهاني قول عمارة ابن عقيل: ما سال من حرّة بني سليم وحرّة ليلى فهو الغور، حتى يقطعه البحر، وما سال من ذات عرق مغربًا فهو الحجاز إلى أن تقطعه تهامة، وهو حجاز أسود، يحجز بين نجد وتهامة، وما سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق.

قلت: ما تقدّم هو أشهر الأقوال في تحديد نجد، وهي أقوال متّفقة في مفهومها، وبعضها يكمل بعضًا.

هم يرون أن (نجداً) من الناحية اللغوية اسم للأرض المرتفعة.

أما من الناحية الجغرافية فإنهم يرون أن حدود نجد تبدأ من منحدرات جبال الحجاز الشرقية، وتمتد شرقاً إلى البصرة وسواد العراق، وبلفظ أعمّ: هو الأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها العراق والشام.

قد أدرك العرب بفطرتهم وتجربتهم انحدار بلادهم من الغرب، ومن الجنوب الغربي إلى الشرق، والشمال الشرقي فقسّموا نجداً إلى قسمين: العالية والسافلة، وقالوا لمن يسير من شرقها: إلى غربها: مصعد، ولمن يسير من غربها إلى شرقها منجد، وما زالت هذه المفاهيم معروفة معمولاً بها عند عامة أهل نجد، والعالية ما ولي الحجاز وتهامة.

قلت: على ضوء هذه العبارة التي قسّم فيها (نجد) إلى قسمين، غربي وشرقي، يمكن أن يقال: ما دفعته مرتفعات اليمامة وما صاقبها جنوبًا وشمالاً غربًا هو العالية، وما انحدر من اليمامة وما صاقبها شمالاً وجنوبًا شرقًا فهو السافلة.

أما ياقوت فإنه حدّد عالية نجد بمنازل القبائل التي تسكنها، وهو تحديد جيّد في زمن تلك القبائل، غير أنه يحتاج إلى أمرين: معرفة منازل القبائل القديمة أولاً، والتحركات التي طرأت عليها ثانيًا.

قال ياقوت: وقال قوم: العالية ما جازه الرمّة إلى مكة، وهم عكل وتميم، وطائفة من بني ضبّة، وعامر كلها، وباهلة، وطوائف من بني أسد، وعبد الله بن غطفان، ومن شقّه الشرقي أبان ابن دارم وهم علويون وأهل أمّرة من بني أسد وألمامهم، وطائفة من عوف بن كعب ابن سعد بن سليم، وعجز هوازن، ومحارب كلها وغطفان كلها، علويون نجديون.

ومن أهل الحجاز مَنْ ليس بنجدى ولا غوري، وهم: الأنصار ومزينة، ومَنْ خالطهم من كنانة ممن ليس من أهل السيف فيما بين خيبر إلى العرج مما يليه من الحرّة.

فإذا انحدرت إلى مدارج العرج وثنايا ذات عرق فأنت فيهم. ويقال: عالى الرجل وأعلى إذا أتى عالية نجد، ورجل معالٍ أيضًا، قال بشر بن أبي خازم:

معاليةٌ لا هَمّ إلا محجّر
وحرّة ليلى السّهل منها ولوبها

إذا هبّ علويّ الرياح وجدتني
يهش لعلوي الرياح فؤاديا

وإن هبت الريح الصبا هيجت لنا
عقابيل حزن لا يجدن مداويا

قلت: منازل القبائل التي حدّد بها ياقوت عالية نجد: وقد أدخل بلاد ضبّة وعامر كلها وغنّى وباهلة في عالية نجد، وبلاد ضبّة وغنّى داخلة في حمى ضرية وتمتد منه صوت الشرق، أمّا بلاد بني عامر فإنها تشمل بلادًا واسعة. فبني نمير منهم تمتد بلادهم من أضاخ شمالاً إلى جمح مأسل جنوبًا، ولهم جبل ثهلان وما حوله، ولهم مياه شرق بلدة القويعية، وبنو قشير بلادهم في الريب (الرين)، وتمتد شرقًا إلى نفوذ الخبراء وجنوب المرّوت، وتمتد جنوبًا إلى نفوذ الدّحى، ومنهم الحريش والعجلان ـ لهم عمايتان (حصاتا قحطان) ولهم بطن الركاء، وبلاد السوادة، ومنهم جعدة وعقيل ـ وهؤلاء لهم بلاد الدواسر، الأفلاج والوادي والهضب والحزم، أمّا قبيلة باهلة فإن موطنهم عرض شمام (سواد باهلة) وتمتد بلادهم غربًا إلى عرواء، وإلى صبحا (يذبل) وإلى غربي ثهلان.

ويفهم من هذا التحديد أن عالية نجد تشمل كل ما دفعه جبل طويق غربًا من البلاد إلى سفوح جبال الحجاز الشرقية.

وقد توسّع في حدود العالية جنوبًا فأدخل بلاد بني عامر كلها، فيدخل في ذلك رنية وتمتد إلى بيشة وتثليث، ومن ناحية الشمال أدخل بلاد غطفان، وهي ممتدة شمالاً إلى غرب القصيم، وتمتد إلى قرب حائل إلى حدود فزارة وحدود الحجاز، وباعتبار كلّ ما تقدّم عالية نجد فإنه يمكن اعتبار ما كان منه شرقًا وهو ما انحدر من مرتفعات طويق (اليمامة) صوب الشرق سافلة نجد.

وهذا التقسيم يتّفق مع ما تعارف عليه الناس في هذا العهد، غير أن المتقدمين يرون أن حدود نجد السفلى تمتد إلى حدود البصرة وغربي العراق، كما تقدم.

أما المتأخرون فإنهم يحدّدون سافلة نجد من الناحية الشرقية بامتداد حبال رمل الدهناء.

وفي مقدمة (معجم عالية نجد) استقصاء وتفاصيل وافية بالموضوع.

أمّا نجد فيما كتبه المتأخرون: لم يختلف المتأخرون عن المتقدمين إلا في حدود نجد الشرقية والشمالية، فهم يرون أن حدوده الشرقية تنتهي بالدهناء، وحدوده الشمالية تنتهي بالنفود الكبرى، ويحتمل أنهم كانوا متأثرين بما تعارف عليه عامة الناس في هذا العهد، أو أنهم حدّدوه على ضوء التطورات السياسية في نجد.

قال مصطفى الدبّاغ: هضبة نجد تشمل المنطقة الوسطى من جزيرة العرب، وتنحدر انحدارًا تدريجيًا نحو الشرق والشمال، وتمتد من صحراء النفود في الشمال إلى الربع الخالي في الجنوب، ومن حدود الأحساء شرقًا إلى حدود الحجاز وعسير غربًا.

وقال فؤاد حمزة: تطلق كلمة (نجد) على الأرض المرتفعة وتستعمل اصطلاحًا لتدل على المنطقة الوسطى من جزيرة العرب، وهي المنطقة الواقعة شرق الحجاز إلى الدهناء في الشرق، وقد اختلف الجغرافيون العرب في

تحديد المكان الذي تبدأ نجد فيه من جهة الحجاز، إلا أن المعترف به أنها تبدأ من ذات عرق (نخلة) وهو مكان يبعد عن وادي السيل المشهور في الحجاز ببضعة أميال، ويقال: إن مَنْ رأى حضنا فقد أنجد.

غير أننا نطلقها على المنطقة الواقعة بين الدرجة ٢٧ من العرض الشمالي، وبين الدرجتين ٤٣، ٤٧ من الطول الشرقي، وهذا التحديد يشمل الأرض التي يحدّها جبل شمّر من الشمال، ومنطقة الهضاب الحجازية شرقي سلسلة جبال الحجاز وعسير من الغرب، والصحراء الكبير (الربع الخالي) من الجنوب، والدهناء الفاصلة نجداً والحسا من الشرق.

وفي كتاب جغرافية الوطن العربي: وإلى الشرق من مرتفعات الحجاز توجد هضبة نجد، ومعناها: الأرض المرتفعة، ويحدّها من الشمال صحراء النفود، ومن الجنوب الربع الخالي، وإلى الشمال منها جبال شمّر، ويفصلها وادي الرمّة عن بقية أراضي نجد.

وتنحدر هضبة نجد تدريجيًا نحو سهول الأحساء، وفي شمال نجد توجد الكثبان الرملية التي تعرف باسم النفود، وهي تمتد إلى الجنوب حتى الربع الخالي وتتصل بصحراء الدهناء.

وقال عمر رضا كحالة: أما القسم الواقع شرقي جبال السّراة فيسمى نجدًا، ويتألف من مناطق مترامية الأطراف، مختلفة الأشكال والصفات، وتمتد من سفوح جبال السروات إلى الدهناء، التي تفصل بينها وبين ساحل الخليج العربي، والأقسام الجبلية التي ترتفع عن المستوى العمومي للمنطقة التي يطلق عليها اسم نجد، التي تبتدىء من شرقي جبال السروات تكاد تكون منحصرة في جبلي طيء (أجا وسلمى).

وتقسم نجد سلسلة من الجبال تسمى (العارض) تتجه من الشمال إلى الجنوب بشكل مقوّس تقريبًا، أما السهول والرمال والصحاري المحيطة بها فهي السهول النجدية، والنفود الكبير والدهناء والربع الخالي، وهي صحاري مترامية الأطراف.

قلت: هذه الأقوال أهم ما اطّلعت عليه مما كتبه المتأخرون في تحديد بلاد نجد، وهذه الأقوال متفقة في مدلولها الجغرافي وصفًا وتحديدًا، إلا ما قاله فؤاد حمزة، في الحدود الشمالية لنجد، فإنه قد اختلف مع الآخرين، حيث يرى أن جبلي طيء خارجان من حدود نجد، بينما يرى الآخرون أن نجداً تُحدّ من الشمال بالنفود الكبرى، وأن جبلي شمّر داخلان في حدود نجد، ولا مرجّح لما قاله فؤاد حمزة، إذ إن المعروف قديمًا، والمتعارف عليه في هذا العهد أن بلاد الجبلين ـ أجا وسلمى ـ داخلة ومعدودة من بلاد نجد.

أما محمد بن بليهد فإنه لم يتحدّث عن نجد من حيث الوصف والتحديد، واكتفى بقوله: نجد معروف وشهرته تغني عن تحديده.

وقال في موضع آخر من كتابه: واليمامة: جبل معترض في نجد الشرقية، كما قال عمرو بن كلثوم في صفته: وإنما يصف وجهه الغربي الشاهقة.

(كأسياف بأيدي مصلتينا)

قلت: نلحظ من قوله أنه يرى أن جبل اليمامة (طويق) واقع في شرقي نجد. وقد أكثر شعراء العرب قديمًا وحديثًا من ذكر نجد، أعلامه، وصحاراه. ورياضه، وداراته، وأوديته، وغدرانه، وأشجاره، وأعشابه، ونسائم ليله، وصفاء نهاره، وتشوقوا إليه، وحنّوا إلى ربوعه.

وقد أورد ياقوت في معجمه طائفة من هذه الأشعار، منها قول أحد الأعراب:

أكرِّر طرفي نحو نجد وإنني
إليه وإن لم يدرك الطرف أنظر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها
إذا مطرت عودٌ ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضه
ونور الأقاحي وشيُ برد محبّر
أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي
خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري من نحو نجد بنافعي
أجل، لا ولكنني إلى ذاك أنظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
لعينيك مجرى مائها يتحدّر
متى يستريح القلب إمّا مجاور
مجرب، وإمّا نازح يتذكّر

وقال آخر:

فيا حبّذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبّته بالعشى هواضبه
وريح صبا نجد إذا ما تنسّمت
ضحى، أو سرت جنح الظلام حنائبه
بأجرع ممراع كأن رياحه
سحابٌ من الكافور والمسك شائبه
وأشهد لا أنساه ما عشت ساعة
وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكن لوعة
بذاكره حتى يترك الماء شاربه

إلى غير ذلك من الأشعار التي تتضمن مثل هذه المعاني وتعبّر عنها، والحديث عن نجد وما قيل فيه من الشعر طويل يحتاج إلى تأليفٍ خاص به.

نجران: بنون موحدة مفتوحة وجيم معجمة ساكنة وراء مهملة بعدها ألف وآخره نون موحدة: بلد معروف بهذا الاسم يقع في جنوب المملكة العربية السعودية.

روى البخاري بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأهل نجران: لأبعثنَّ عليكم، يعني أمينًا حقّ أمين، فأشرف أصحابه، فبعث أبا عبيدة رضي الله عنه.

قال ياقوت: نجران بالفتح ثم السكون، وآخره نون: . . . ونجران في عدّة مواضع، منها: نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة، قالوا: سُمّي بنجران بن زيدان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ لأنه كان أول مَنْ عمرها ونزلها، وهو المرعف. . . وأمّا دخول أهلها في دين النصرانية، قال ابن إسحاق: حدّثني المغيرة بن لبيد مولى الأخنس عن وهب بن منبه اليماني أنه حدّثهم أن موقع ذلك الدين بنجران كان أنَّ رجلاً من بقايا أهل دين عيسى يقال له فيميون بالفاء ويروى بالقاف، وكان رجلاً صالحًا مجتهدًا في العبادة مجاب الدعوة، وكان سائحًا ينزل بالقرى، فإذا عرف بقرية خرج منها إلى أخرى، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه، وكان بنّاءً يعمل في الطين، وكان يعظّم الأحد فلا يعمل فيه شيئًا فيخرج إلى فلاة من الأرض فيصلّي بها حتى يمسي، ففطن لشأنه رجل من أهل قرية بالشام كان يعمل فيها فيميون عمله، وكان ذلك الرجل اسمه صالح فأحبّه صالح حبًّا شديدًا فكان يتبعه حيث ذهب ولا يفطن له فيميون، حتى خرج مرة يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع وقد اتّبعه صالح فجلس منه منظر العين مستخفيًا منه، فقام فيميون يصلّي فإذا قد أقبل نحوه تنّين، وهو الحيّة العظيمة، فلمّا رآها فيميون دعا عليها فماتت ورآها صالح ولم يدر ما أصابها فخاف عليه فصرخ: يافيميون التنّين قد أقبل نحوك،

فلم يلتف إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها، فخرج إليه صالح وقال: يافيميون يعلم الله أنني ما قد أحببت شيئًا قط مثل حبك، وقد أحببت صحبتك والكينونة معك حيث كنت، فقال: ما شئت، أمري كما ترى فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم، فلزمه صالح، وقد كان أهل القرية يفطنون لشأنه، وكان إذا جاءه العبد وبه ضرّ فدعا له فشفي، وكان إذا دعي لمنزل أحد لم يأته، وكان لرجل من أهل تلك القرية ولد ضرير، فقال لفيميون: إن لي عملاً فانطلق معي إلى منزلي، فانطلق معه فلما حصل في بيته رفع الرجل الثوب عن الصبي، وقال له: يافيميون عبد من عباد الله أصابه ما ترى، فادع الله له، فدعا له فقام الصبي ليس به بأس، فعرف فيميون أنه عرف فخرج من القرية واتّبعه صالح حتى وطئا بعض أراضي العرب فعدوا عليهما فاختطفهما سيارة من العرب فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران، وكان أهل نجران يومئذٍ على دين العرب يعبدون نخلة عظيمة لهم بين أظهرهم، لها عيد في كل سنة فإذا كان ذلك العيد علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلّي النساء، فخرجوا إليها يومًا وعكفوا عليها يومًا فابتاع فيميون رجل من أشرافهم، وابتاع صالحًا آخر، فكان فيميون إذا قام بالليل في بيت له أسكنه إياه سيّده استسرج له البيت نورًا حتى يصبح من غير مصباح، فأعجب سيّده ما رأى منه فسأله عن دينه فأخبره به وقال له فيميون: إنّما أنتم على باطل وهذه الشجرة لا تضر ولا تنفع، ولو دعوت عليها إلٰهي الذي أعبده لأهلكها، وهو الله وحده لا شريك له، فقال له سيّده: افعل، فإنك إن فعلت هذا دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه، فقام فيميون وتطهر وصلّى ركعتين ثم دعا الله ﷻ عليها فأرسل الله ريحًا فجعفتها من أصلها فألقتها فعند ذلك اتّبعه أهل نجران فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم، ثم دخلت عليهم الأحداث التي دخلت على غيرهم من أهل دينهم بكل أرض، فمن هناك كانت النصرانية في نجران من أرض العرب.

فسار إليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك والقتل فخدّ لهم الأخدود فحرّق من حرقّ في النار وقتل من قتل بالسيف، ومثّل بهم حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا، ففي ذي نواس وجنوده أنزل الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ [سورة البروج، الآيات ٤ - ٧].

قلت: هذا بعض ما ذكره ياقوت في حديثه عن نجران، وقد تحدّث عنه وذكر طريقًا أخرى لهذا الخبر.

وتحدث البلاذري عن صلح نجران فقال: حدّثنا بكر بن الهيثم قال: حدّثنا عبد الله ابن صالح عن الليث بن سعد بن يونس ابن يزيد الأيلي، عن الزهري قال: أتى رسول الله ﷺ السيّد والعاقب وافدا أهل نجران اليمن، فسألاه الصلح، فصالحهما عن أهل نجران على ألفي حلّة في صفر، وألف حلّة في رجب، ثمن كل حلّة أوقية، والأوقية وزن أربعين درهمًا، فإن أدّوا حلّة بما فوق الأوقيّة، حسب لهم فضل ذلك، وإن أدّوها بما دون الأوقية أخذ منهم النقصان، وعلى أنْ يأخذ منهم ما أعطوا من سلاح أو خيل أو ركاب أو عرض من العروض بقيمته قصاصًا من الحلل، وعلى أن يضيّفوا رسل رسول الله ﷺ شهرًا فما دونه، ولا يحبسوهم فوق شهر، وعلى أن عليهم عارية ثلاثين درعًا

وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا إن كان باليمن كيد، وأن ما هلك من تلك العارية فالرسل ضامنون له حتى يردّوه، وجعل لهم ذمة الله وعهده، وأن لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه، ولا يحشروا ولا يعشروا، واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به.

حدّثنا الحسين بن الأسد، حدّثنا وكيع قال: حدّثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا، إنّا قد أسلمنا قبلك فقال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام ثلاث: أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصّليب، وقولكما لله ولد، قالا: فمن أبو عيسى؟ ـ قال الحسن: وكان ﷺ لا يعجل حتى يأمره ربّه، فأنزل الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٦١] فقرأها رسول الله ﷺ عليهما، ثم دعاهما إلى المباهلة وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين، فقال أحدهما لصاحبه: اصعد الجبل ولا تباهله، فإنك إن باهلته بؤت باللعنة، قال: فما ترى؟ قال: أرى أن نعطيه الخراج ولا نباهله.

قلت: وصالحهم النبي ﷺ على الخراج وكتب لهم بذلك كتابًا، ولما توفّي النبي ﷺ أقرّهم أبو بكر رضي الله عنه على ذلك.

فلمّا استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصابوا الربا وكثروا، فخافهم على الإسلام فأجلاهم وكتب لهم:

أمّا بعد فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض، وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرض باليمن.

فتفرقوا فنزل بعضهم في الشام، ونزل بعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سُمّيت.

قلت: هذا ما ذكره البلاذري عن صلح وفد نجران، وما آل أمره في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وقال الحميريّ: نجران: ناحية من بلاد اليمن، سُمّيت بنجران بن زيد بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وممن كان في الفترة أصحاب الأخدود، وكانوا بنجران، وبلغ ذا نواس أن قومًا بنجران على دين المسيح، وكان هو يهوديًا فنهض إليهم بنفسه، وحفر لهم أخاديد وأضرمها نارًا، ثم دعاهم إلى اليهودية فمن أبى قذفه في الأخاديد، فأتى بامرأة معها طفل ابن سبعة أشهر فأبت أن ترجع عن دينها، فأدنيت من النار فجزعت فأنطق الله تعالى الطفل فقال: امضي على دينك فلا نار بعدها، فألقيت في النار، فسلّط الله عليهم الحبشة وغلبوهم على أرض اليمن إلى أن كان من أمر ابن ذي يزن واستجارته بكسرى أنوشروان ما كان.

وبنجران كان عبد الله بن الثامر من أهل دين عيسى عليه السلام، وكان بها بقايا من أهل دينه على الإنجيل أهل فضل واستقامة، وعبد الله ابن الثامر رأس لهم، وكان أصل ذلك الدين بنجران، مع أن العرب كانوا أصحاب أوثان، أن رجلاً من بقايا ذلك الدين يقال له فيميون وقع بين أظهرهم فحملهم عليه فدانوا به، وكان صالحًا مجتهدًا زاهدًا في الدنيا مجاب الدعوة.

قلت: ثم استوفى في حديثه خبر الرجل الصالح فيميون ورفيقه صالح كما أورده ياقوت في معجمه.

قلت: ومدينة نجران مدينة مشهورة في جنوب المملكة العربية السعودية، وهي إحدى مقاطعاتها الإدارية، فيها مركز الإدارة، ويتبعها عدد من المحافظات والمراكز، وقد

أخذت بنصيبها من النمو العمراني والاجتماعي في هذا العهد، كما أخذ غيرها من مقاطعات المملكة، وقد عمّرت الطرق الموصلة إليها من مختلف أنحاء المدن والقرى، وتأسّس فيها مطار جوى يربطها بالرياض وجدّة وغيرهما من مدن المملكة، وبما أن هذه المدينة لها شهرة في ماضيها وحاضرها، فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عنها.

وذكر ياقوت أن نجران من الأسماء المشتركة التي يُسمّى بها عدد من المواضع فقال:

ونجران أيضًا: موضع على يومين من الكوفة فيما بينهما وبين واسط على الطريق، يقال: إن نصارى نجران لمّا أُخرجوا سكنوا هذا الموضع، وسُمّي باسم بلدهم.

ونجران أيضًا: موضع بالبحرين فيما قيل.

ونجران أيضًا: موضع بحوران من نواحي دمشق، وهي بيعة عظيمة عامرة حسنة مبنية على العمد الرخام منمّقة بالفسيفساء.

نخل: بنون معجمة مفتوحة وخاء معجمة ساكنة وآخره لام: وادٍ يقع شرق المدينة المنورة على بعد مائة كيل تقريبًا، وقد أصبح يُسمّى الحناكية.

روى البخاري بسنده عن جابر قال: كنّا مع النبي ﷺ بنخل فذكر صلاة الخوف.

قال الواقدي: سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم، في ربيع الآخر سنة ست للهجرة... الجموم ما بين بطن نخل والنقرة.

وذكر ياقوت: أن نخلاً اسم لموضعين، فقال: نخل: بالفتح ثم السكون، اسم جنس النخلة: منزل من منازل بني ثعلبة من المدينة على مرحلتين، وقيل: موضع بنجد من أرض غطفان مذكور في غزاة ذات الرقاع، وهو موضع في طريق الشام من ناحية مصر، ذكره المتنبي فقال:

فمرّت بنخل وفي ركبها
عن العالمين وعنه غنى

وقيل في شرح قول كثيّر:

وكيف ينال الحاجبيّة آلف
بيليل ممساه وقد جاوزت نخلاً؟

نخل، منزل لبني مرّة بن عوف على ليلتين من المدينة، وقال زهير:

وإنّي لمهد من ثناء ومدحة
إلى ماجد تبقى إليه الفواضل
أحابى به ميتاً بنخل وأبتغي
إخاءك بالقيل الذي أنا قائل

قلت: لا تنافي بين الأقوال التي ذكرها ياقوت في تحديد نخل الذي يقع على ليلتين من المدينة، فكلها أقوال صحيحة.

قال البكري: نخل: على لفظ جمع نخلة، قال يعقوب: هي قرية يقال له بوادي شدخ لفزارة وأشجع وأنمار وقريش والأنصار، وقال ابن حبيب: هي لفزارة بن عوف على ليلتين من المدينة.

وقال السكوني: هي ماء بين القصّة والثامليّة، وبها ينزل المصدّق الذي يصدّق خضر محارب... وبنخل ضلّ سنان بن أبي حارثة المرّيّ، فلم يوجد بعدها، قال شاعرهم:

إن الركاب لتبتغي ذا مرّة
بجنوب نخل إذا الشهور أهلّت

وقال حمد الجاسر في تعليقه على شعر كثيّر: نخل: يعرف باسم الحناكية، وادٍ فيه قرى كثيرة، وبه يمر طريق حائل إلى المدينة.

قال البلادي: نخل: وادٍ كبير كثير شجر الدوم يأخذ سيل النخيل ـ أحد روافده ـ ثم يدفع في وادي الخنق من الشمال ـ انظر الحناكية ـ يجتمع مع أودية كثيرة منها: وادي الشّقرة،

ووادي نجار، ووادي مخيط في مكان يسمّى المخالط، حيث يختلط ماؤها، ثم تدفع في الخنق.

وفي رسم الحناكية قال: بلدة حجازية عامرة متقدّمة نسبيًا، تقع على طريق القصيم من المدينة المنورة على (١٠٠) كيل، سكانها قبيلة حرب.

قلت: هذا ما ذكره العلماء والباحثون المتقدّمون والمتأخرون في تحديد نخل، ويقال له أيضًا بطن نخل؛ لأنه وادٍ واسع غزير له بطن فسيح، وما ذكره العلماء والباحثون في وصف هذا الوادي والقرية التي نشأت فيه أقوال يكمل بعضها بعضًا، وقد أصبح هذا الوادي يسمّى الحناكية، ولم يعد يعرف باسمه القديم، وهو وادٍ مشهور تقطعه على الطريق وأنت ذاهب من بلاد القصيم إلى المدينة المنورة، وهو مشهور باسمه الحناكية.

هذا هو نخل الذي ورد ذكره في الحديث الشريف، وهو الواقع على بعد ليلتين من المدينة شرقًا.

وممّا تقدّم يتبيّن أن (نخل) أيضًا اسم لموضع على طريق الشام على ناحية مصر إلى المدينة، وهو الذي ورد ذكره في شعر كثيّر.

وقال محمد بن بليهد: ونخل باقٍ على اسمه إلى هذا العهد، إذا طلعت على وادي الحناكية وتركت رحرحان عن شمالك فعرّج على يمينك وسر أقلّ مَنْ ساعة تصل إلى وادي نخل، وفيهم من يصغّره فيسميّه (النّخيل) وهو يصبّ في وادي الحناكية، يقع منها في الجهة الشرقية.

قلت: وادي النخيل ـ تصغير النخل ـ وادٍ مشهور في هذا العهد، عامر بالسكان والزراعة، وهو أحد الروافد لوادي نخل، وقد تقدّم ذلك فيما ذكره البلادي.

نخلة: بنون معجمة مفتوحة وخاء معجمة ساكنة ولام مفتوحة وآخره هاء ـ على لفظ واحدة النخل ـ: وادٍ يقع شرق مكة المكرمة.

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجّهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ.

وذكر ابن هشام أن النبي ﷺ بعث سريّة بقيادة عبد الله بن جحش فقال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب، مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم، فلمّا نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه: أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومَنْ

كره ذلك فليرجع، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلّف عنه منهم أحد.

فمضى عبد الله بن جحش وأصحابه حتى نزل بنخلة، فمرّت به عير قريش تحمل زبيبًا وأدمًا، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، فلمّا رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكّاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلمّا رأوه أمنوا، وقالوا عمّار: لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم، فليمتنعنّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنّهم في الشهر الحرام، فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل مَنْ قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل ابن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

قال ابن إسحاق: فلمّا قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، قال ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنّوا أنهم قد هلكوا، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

فلمّا أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧].

فلمّا نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، فأمّا الحكم ابن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأمّا عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا.

فلمّا تجلّى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله: أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٨] فوضعهم الله عزّ وجلّ من ذلك على أعظم الرجاء.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره ابن إسحاق في حديثه عن سريّة عبد الله بن جحش رضي الله عنه وعن أصحابه إلى نخلة.

قال ياقوت: نخلة الشامية: واديان لهذيل على ليلتين من مكة يجتمعان ببطن مرّ وسبوحة، وهو وادٍ يصب من الغمير، واليمانية تصب من قرن المنازل، وهو على طريق اليمن مجتمعهما البستان وهو بين مجامعهما، فإذا اجتمعتا كانتا واديًا واحدًا فيه بطن مرّ، وإيّاهما عني كثيّر بقوله:

حلفت بربّ الموضعين عشيّة
وغيطان فلج دونهم والشقائق

يحثون صبح الحمر خوصاً كأنها
بنخلة من دون الوصيف المطارق
لقد لقيتنا أمّ عمرو بصادق
من الصّرم أو ضاقت عليه الخلائق

قلت: قال ياقوت: إن نخلة الشامية واديان يلتقيان، والواقع أن نخلة الشامية وادٍ واحد، وليست واديين، ونخلة اليمانية كذلك وادٍ واحد يسيران في اتجاه واحد ثم يلتقيان، كما سيأتي:

وقال البكري: نخلة على لفظ واحد النخل: موضع على ليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة، وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن، وقال ابن ولان: وهما نخلة الشامية، ونخلة اليمانية، فالشامية: وادٍ يصب من الغمير، واليمانية: وادٍ يصب من بطن قرن المنازل، وهو طريق اليمن إلى مكة، فإذا اجتمعا فكانا واديًا واحدًا، فهو المسدّ، ثم يضمّها بطن مرّ، وأنشد الأصمعي عن أبي عمرو لصخر:

لو أن أصحابي بنو معاوية
أهل جنوب النخلة الشامية
ما تركوني للكلاب العاوية

وبنخلة قتل عمرو بن الحضرمي.

وقال لغدة: ومن بلاد هذيل، في طريق مكة المكرمة، من مكة على ليلتين: نخلتان، نخلة اليمانية يصب فيها يدعان، وهو وادٍ به مسجد النبي ﷺ، وبه عسكرت هوازن يوم حنين، ونخلة الشامية: ومجتمعهما بطن مرّ، وسبوحة وادٍ يصب في نخلة اليمانية.

وتحدث عاتق البلادي عن نخلتين مفصّلاً في حديثه عنهما فقال:

نخلة الشامية: وادٍ فحل من أودية الحجاز، وهو أحد رافدي مرّ الظهران العظيمين يأخذ وادي نخلة هذا أعلى مساقط مائه من الجهة الشرقية لجبل الحبلة الضخم، ومن الجهات الغربية لجبل الغمير المشرف على الطائف من الغرب، ويسمى الوادي هناك وادي الغديرين، وله شعبتان يمنى وتسمى وادي الخشّ، ويسرى وتسمى وادي السّرب، فإذا اجتمعا سُمّي وادي الغديرين، فإذا قطعه طريق مكة سُمّي وادي المحرم؛ لأن الناس يحرمون فيه، وهو ميقات مَنْ جاء على هذا الطريق، فإذا انحدر سُمّي قرناً، حتى يقطعه طريق مكة إلى الرياض فيسمى السيل الكبير، فإذا انحدر قليلاً سُمّي بعجا، فإذا اجتمع به حراض مع الغرب سمي حراضًا، ثم ينحدر شمالاً غربيًا حتى يأتيه وادي الزرقاء من الشرق، ثم يأتيه وادي المضيق أو وادي الليمون، كل هذا نسبة إلى عين في وسطه تسمى المضيق، اشتهرت بإنتاج الليمون، ثم ينحدر فيجتمع مع سيل نخلة اليمانية فيسمى وادي الزبارة، وله فروع عديدة، سكانه في الغديرين قريش، وفي المحرق طويرق من ثقيف، وفي السيل وبعج الثبتة من عتيبة، وفي حراض والمضيق المطارفة من هذيل، وعين المضيق للأشراف الحرّث، وقبائل من هذيل.

ونخلة اليمانية: وادٍ فحل من أودية الحجاز، وهي إحدى شعبتي مرّ الظهران يأخذ وادي نخلة اليمانية مياه هدأة الطائف، فإذا اجتمعت مياهه سُمّي وادي الأغراف، فإذا اجتمع معه مظلم سُمّي الوادي تضاعًا، ومعظمه يسمى الشرقة، ثم الكفو في نخلة من الجنوب، ومن الشرق تأخذ سيل البوباة عند بلدة السيل الكبير، وهذا من الناحية الجغرافية يعدّ رأسها، وسيل جبلة الثبتة، ولها روافد متعددة، والوادي قاحل إلا في أسفله، حيث توجد عينا الزيمة وسولة، سكانه السعايد من هذيل، وأسفله القناوية والزواهرة، أما تضاع

فسكانه هذيل وطويرق من ثقيف، ويأخذ نخلة هذه طريق الطائف القديم وطريق نجد من مكة، وهي الطريق المطروقة على مر العصور، ثم إن نخلة اليمانية حفرت فيها آبار حديثة فظهر الماء كافيًا للزراعة.

وتحدّث محمد بن بليهد عن النخلتين فقال في حديثه: بطن نخلة في طريق السالك إلى نجد، وهما نخلتان: نخلة اليمانية، ونخلة الشامية.

أما نخلة اليمانية فتبتدىء من الزّيمة، وتنتهي على حدّ بهيته.

وأما نخلة الشامية فتبتدىء من عين المضيق وتنتهي في أرض واسعة يقال لها مكة، وسيول نخلة اليمانية أعلاها من وادي قرن، وتجتمع جميع الأودية في ذلك الوادي وتصب فيه، وتأتي عن طريق بطن نخلة اليمانية، وسيول نخلة الشامية تأتي من أودية الضريبة، وتسلك بطن نخلة الشامية، وسيول الواديين تجتمع في بستان ابن عامر، هذا اسمه القديم، وهو اليوم موقع عين الجديدة، وإذا اجتمعا سلكا وادي مرّ، المسمى اليوم وادي فاطمة، حتى يصبّ في البحر الأحمر.

قلت: لا خلاف بين العلماء المتقدمين والباحثين المتأخرين في تحديد نخلتين ووصفهما، بل إنما ذكروه يكمل بعضه بعضًا، وفيما قاله عاتق البلادي زيادة في الشمول والإيضاح لمصادر مياه هذين الواديين، وقد أصبح هذان الواديان يسمى كل جزء منهما باسم خاص به، وأخذ اسم نخلتين التاريخي يختفي، أما قول العلماء المتقدمين في تحديد المسافة بين مكة وبين نخلتين على ليلتين من مكة فإنهم يقصدون بذلك أعلى هذين الواديين.

نصيبين: بنون موحدة مفتوحة وصاد مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة وآخره نون موحدة: مدينة من مدن الجزيرة واقعة على الطريق بين الموصل والشام.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها فقال مَنْ هذا؟ فقال: أنا أبو هريرة، فقال ابغني حجارة أستنفض بها ولا تأتني بعظم ولا بروثة، فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي حتى وضعتها إلى جنبه ثم انصرفت حتى إذا فرغ مشيت معه فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: هما من طعام الجنّ، وإنه أتاني وفد جنّ نصيبين ونعم الجن.

قال ياقوت: نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح، ومن العرب من يجعلها في منزلة الجمع فيعربها في الرفع بالواو، وفي الجر والنصب بالياء، والأكثر يقولون نصيبين ويجعلونها بمنزلة مالا ينصرف من الأسماء.. وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام، وعليها سور كانت الروم بنته وأتمّه أنوشروان الملك عند فتحه إيّاها، ونصيبين مدينة وبئة لكثرة بساتينها ومياهها.. وسار عياض ابن غنم إلى نصيبين فامتنعت عليه فنازلها حتى فتحها على مثل صلح أهل الرّها، وقال سيف: بعث سعد بن أبي وقاص سنة ١٧ من الكوفة عياض بن غنم لفتح الجزيرة، وغير سيف يقول: إنما بعث أبو عبيدة من الشام فقدم عبد الله بن عبد الله بن عتبان فسلك على دجلة حتى إذا انتهى إلى الموصل عبر إلى بلد

وهي بلط، حتى إذا انتهى إلى نصيبين أتوه بالصلح فكتب بذلك إلى عياض فقبله فعقد لهم عبد الله بن عبد الله بن عتبان وأخذوا ما أخذوا عنوة، ثم أجروا مجرى أهل الذمّة، فقال عند ذلك ابن عيتان:

ألا من مبلغ عني بجيراً
فما بيني وبينك من تعادي
فإن تقبل تلاقي العدل فينا
فأنسى ما لقيت من الجهاد
وإن تدبر فمالك من نصيب
نصيبين فتلحق بالعباد
وقد ألقت نصيبين إلينا
سواد البطن بالخرج الشداد
لقد لقيت نصيبين الدواهي
بدهم الخيل والجرد الوراد

وقال بعضهم يذكر نصيبين:

وظاهرها مليح المنظر
باطنها قبيح المخبر

وقال آخر يذم نصيبين فقال:

نصيب نصيبين من ربها
ولاية كل ظلوم غشوم
فباطنها منهم في لظى
وظاهرها من جنان النعيم

وينسب إلى نصيبين جماعة من العلماء والأعيان.

قلت: ذكر ياقوت في حديثه عددًا من العلماء والأعيان الذين ينسبون إلى نصيبين، قال: ونصيبين أيضًا: قرية من قرى حلب، وتل نصيبين أيضًا: من نواحي حلب، ونصيبين أيضًا: مدينة على شاطىء الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم، بنيها وبين آمد أربعة أيام أو ثلاثة، ومثلها بينها وبين حران، ومَنْ قصد بلاد الروم من حرّان مرّ بها.

قلت: وفيما ذكره ياقوت يتبيّن أن نصيبين من الأسماء المشتركة التي يُسمّى بها عدد من المواضع.

وقال البلاذري فيما رواه عن الزهري قال: لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض ابن غنم، فتح حرّان، والرّها، والرقّة، وقرقيسيا، ونصيبين، وسنجار.

وقال الحميري: نصيبين: مدينة في ديار ربيعة العظمى، وهي من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي قديمة عظيمة، كثيرة الأنهار والجنّات والبساتين، ولها نهر عظيم يقال له: الهرماس عليه قناطر حجارة، وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلب، وهي في مستوٍ من الأرض، ذات سور حصين وأسواق عامرة وتجارات، وبها فعلة وصنّاع، وبها مياه كثيرة وعقارب قتّالة، وافتتحها عياض بن غنم الفهري في خلافة عمر رضي الله عنه سنة ثماني عشرة، وكانت مدينة رومية، فلمّا افتتحها عياض أسكنها المسلمين، وهي كبيرة، ونهرها الهرماس عليه بساتين وكروم، وبها مستقر الولاة، ومنها إلى دارا خمسة فراسخ، ويمتد أمام نصيبين وخلفها بسيط أخضر مدّ البصر، أجرى الله سبحانه وتعالى فيه مذانب من الماء تسقيه وتطّرد في نواحيه، وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار، وفيها مدرستان ومارستان واحد.

وقال سعيد بن جبير: نصيبين: شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتدّ أمامها وخلفها بسيط أخضر مدّ البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، وتطرّد في نواحيه، وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفّة الأشجار، يانعة الثمار، ينساب

بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السّوار، والحدائق تنتظم بحافتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فخارجها رياضي الشمائل، أندلسي الخمائل، يرفّ غضارة ونضارة، ويتألف عليه رونق الحضارة، وداخلها شعث البادية باد عليه، فلا مطمح للبصر إليه، لا تجد العين فيه فسحة مجال، ولا مسحة جمال، وهذا النهر ينسرب إليها من عين معينة منبعها من جبل قريب منها، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها، ويتخلّل البلد منها جزء فيتفرّق في شوارعها ويلج في بعض ديارها، ويصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه، وينصب في صهريجين، أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقي منه، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع، وعلى النهر المذكور جسر معقود من صمّ الحجارة يتصل بباب المدينة القبلي، وفيها مدرستان ومارستان واحد، وصاحبها معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل، ابنا أتابك.

قال ابن بطوطة: رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد، وهي على نهر عليه جسر مبني، وبها خان كبير، ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلحة، ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر، وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي، ولذلك سُمّيت جزيرة، أكثرها خراب. . . ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيبين، وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها، وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية، والبساتين الملتفة، والأشجار المنتظمة، والفواكه الكثيرة، وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة، والطيب، ويدور بها نهر ينعطف عليها انعطاف السّوار، منبعه من عيون جبل قريب منها، وينقسم انقسامًا فيتخلّل بساتينها، ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجري في شوارعها ودورها، ويخترق صحن مسجدها الأعظم، وينصبّ في صهريجين: أحدهما في وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقي، وبهذه المدينة مدرستان ومارستان، وأهله أهل صلاح ودين وصدق وأمانة.

قلت: هذا خلاصة ما ذكره بعض العلماء عن نصيبين وصفًا وتحديدًا، وأقوالهم متفقة في وصفها وتحديد موقعها وفتحها على يد عياض بن غنم في عهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

النقيع: بنون موحدة مفتوحة وقاف مثناة مكسورة بعدها ياء ساكنة وآخره عين مهملة: مكان يقع في أعلى وادي عقيق المدينة على بعد عشرين فرسخًا من المدينة جنوبًا.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الصعب بن جثامة قال إن رسول الله ﷺ قال لا حمى إلا لله ولرسوله، وقال: بلغنا أن رسول الله ﷺ حمى النقيع، وأن عمر حمى الشّرف والرّبذة.

قال ابن حجر: النقيع: بالنون المفتوحة، وحكى الخطابي: أن بعضهم صحّفه فقال بالموحدة، وهو على عشرين فرسخًا من المدينة، وقدره ميل في ثمانية أميال ذكر ذلك ابن وهب في موطئه، وأصل النقيع كل موضع يستنقع فيه الماء، وفي الحديث ذكر النقيع والخضمات، وهو الموضع الذي جمع فيه أسعد بن زرارة بالمدينة، والمشهور أنه غير النقيع الذي فيه الحمى، وحكى ابن الجوزي: أن بعضهم قال: إنهما واحد، قال والأول أصحّ.

قلت: وتحدّث ياقوت عن النقيع، وذكر أقوالاً كثيرة مختلفة في ضبط النقيع وفي الخلط بينه وبين نقيع الخضمات الذي في المدينة. قال:
قال ياقوت: النقيع: بالفتح ثم الكسر، وياء ساكنة، وعين مهملة، والنقيع في اللغة: القاع، عن الخطابي، والنقيع في قول غيره: الموضع الذي يستنقع فيه الماء، وبه سُمّي هذا الموضع، عن عياض، وقال الأزهري: هو نقيع الخضمات موضع حماه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لخيل المسلمين، وهو من أودية الحجاز يدفع سيله إلى المدينة يسلكه العرب إلى مكة منه، وحمى النقيع على عشرين فرسخًا أو نحو ذلك من المدينة.
وفي كتاب (نصر): النقيع موضع قرب المدينة كان الرسول الله ﷺ حماه لخيله، وله هناك مسجد يقال له: مقمّل وهو من ديار مزينة، وبين النقيع والمدينة عشرون فرسخًا، وهو غير نقيع الخضمات، وكلاهما بالنون والباء فيهما خطأ.
وعن الخطابي وغيره قال القاضي عياض: النقيع الذي حماه النبي ﷺ ثم عمر، هو الذي يضاف إليه في الحديث غرز النقيع، وفي حديث آخر: يقدح لهنّ من النقيع، وحمى النقيع على عشرين فرسخًا، كذا في كتاب عياض، ومساحته ميل في بريد، وفيه شجر يستجم حتى يغيب الراكب فيه، واختلف الرواة في ضبطه فمنهم مَنْ قيّده بالنون، منهم النسفي وأبو ذر القابسي، وكذلك قيّده في مسلم عن الصدف وغيره، وكذلك لابن ماهان، وكذا ذكره الهروي والخطابي.
قال الخطابي: وقد صحّفه بعض أصحاب الحديث بالباء، وإنما الذي بالباب مدفن أهل المدينة، قال: ووقع في كتاب (الأصيلي) بالفاء مع النون وهو تصحيف، وإنما هو بالنون والقاف، قال: وقال أبو عبيد البكري: هو بالباء والقاف مثل بقيع الغرقد.
قال المؤلف: وحكى السّهيلي عن أبي عبيد البكري بخلاف ما حكاه عنه عياض، قال السهيلي في حديث النبي ﷺ: إنه حمى غرز النقيع، قال الخطابي: النقيع. القاع، والغرز: نبت شبه الثمّام.
وفي رواية ابن إسحاق مرفوع إلى أبي أمامة: أن أول جمعة جمعت بالمدينة في حزم بني بياضة في بقيع يقال له: بقيع الخضمات، قال المؤلف: هكذا المشهور في جميع الروايات... ولم أر القاضي عياض والسهيلي فرّقا بينهما ولا جعلاهما موضعين، وهما موضعان لا شك فيهما، إن شاء الله، وروي عن ابن مراوح: نزل النبي ﷺ بالنقيع على مقمّل فصلّى وصليت معه وقال: حمى النقيع نعم مرتع الأفراس يحمي لهنّ ويجاهد بهنّ في سبيل الله، وقال عبد الرحمٰن ابن حسان في قاع النقيع:

أرقت البرق مستطير كأنه
مصابيح تخبو ساعة ثم تلمح
يضيء سناه لي شروري ودونه
بقاع النقيع أو سنا البرق أنزح

وقال محمد بن الهيصم المريّ: سمعت مشيخة مزينة يقولون: صدر العقيق ماء دفع في النقيع من قدس ما قبل الحرّة وما دبر من النقيع وثنية عمق ويصب في الفرع، وما قبل الحرّة الذي يدفع في العقيق يقال لها: بطاويح كلها أودية في المدينة تصب في العقيق.
وقال عبيد الله بن قيس الرقيات:

أأرحت الفؤاد منك الطروبا
أم تصابيت إذ رأيت المشيبا؟
أم تذكرت آل سلمة إذ خلـ
ـوا رياضاً من النقيع ولوبا

يوم لم يتركوا على ماء عمق
للرجال المشيعين قلوبا
وقال أبو صخر الهذلي:
قضاعية أدنى ديار تحلّها
قناة وأنّى من قناة المحصّب
ومن دونها قاع النقيع فأسقف
فبطن العقيق فالخبيت فعنبب

قلت: فيما ذكره ياقوت كثير من الأقوال التي تختلف في تحديد حمى النقيع، وقد أوضح ياقوت هذا الاختلاف وأنهى حديثه مؤكدًا أن نقيع الخضمات موضع غير النقيع الذي حماه النبي ﷺ، وهذا هو الصواب فيهما إن شاء الله.

وقال الهجري: النقيع: صدر وادي العقيق وهومتبدّى للناس ومتصيّد، وروي أن النبي ﷺ صلّى الصبح في المسجد وبأعلى عسيب، وهو جبل بأعلى قاع النقيع، ثم أمر رجلاً صيّتًا فصاح بأعلى صوته، فكان مدى صوته بريدًا، وهو أربعة فراسخ، فجعل ذلك حمى، طوله بريد وعرضه الميل، وفي بعضه أقل، في قاع مدر، طيّب، ينبت أحرار البقل والطرائف، ويستأجم حتى يغيب فيه الراكب، وفيه مع ذلك العضاة والعرفط والسدر والسّيال والسلم والطلح والسمر والعوسج والعرفج أشجار كثيرة.

وتحفّ هذا القاع الحرّة، حرّة بني سليم في شرقيّه، وفيها قيعان دوافع في بطن النقيع، وفي غربيّه الصحرة، وأعلام مشهورة، منها برام والوتدة وضاف، وقد ذكر أن أول أعلامه عسيب، فبرام جبل كأنه فسطاط، والوتدة في أسفل النقيع كأنه قرن منتصب، ومقمّل: جبل أحمر أفطح، بين برام والوتدة، شارع في غرب النقيع.

وروي أن رسول الله ﷺ أشرف على مقمّل، وصلّى عليه فمسجده هناك.

وبقاع النقيع غدر تصيّف، فأعلاه براجم، وأذكرها يلبن، وغدير سلامة أسفل من يلبن.

وبشرقي النقيع في الحرّة قلّتتان، يبقى ماؤهما ويصيف وهما أثب وأثيب، وقال كثيّر في يلبن:

أطلال دار من سعاد بيلبن
وقفت بها وحشًا كأن لم تدمّن
إلى تلعات الجزع غيّر رسمها
همائم هطال من الدلو، مدجن

وقال صخر بن الشريد وذكر عسيباً:

أجارتنا إن المنون قريب
من الناس كلّ المخطئين تصيب
أجارتنا لست الغداة بظاعن
ولكن مقيم ما أقام عسيب

وليس بإزاء النقيع ممّايلي الصحرة إلاماءة واحدة، وهي حفيرة لجعفر يفضي إلى قرار أملس، وهي أرض بيضاء جهاد، لا تنبت شيئًا، لها حمّى تحت الحافر، ويليها أسفل منها حضير، قاع يفيض عليه سيل النقيع، فيه آبار ومزارع ومرعى للمال، من عضاة ورمث وأشجار.

قلت: هذا ما ذكره الهجري في نوادره، وذكر مثله البكري في كتابه (معجم ما استعجم).

قال عاتق البلادي: وادي النقيع: وادٍ فحل من أودية الحجاز، أعلاه النقيع، ووسطه عقيق الحسا، وأسفله عقيق المدينة.

يأخذ من حرّة تعرف به حيث يتقاسم الماء مع وادي الفرع... يتجه شمالاً مع ميل تدريجي إلى الغرب... وهو وادٍ دمث حسن المراعي كثير القيعة، وله روافد متعددة... وهو اليوم قليل الزراعة إلى أن يصل بئر الماشي في أول

عقيق الحسا، وسكانه حرب، في أعلاه بنو عمرو، وفي أسفله عوف.

قلت: وفيما تقدّم وصف جغرافي لحمى النقيع الذي حماه النبي ﷺ لخيل المسلمين، وبيان لتحديد المسافة بينه وبين المدينة، وهو بالنسبة للمدينة يقع في الجنوب في أعلى وادي العقيق.

باب الواو

الواد: يراد به وادي ثمود، (وادي القرى).

قال الله ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [سورة الفجر، الآية: ٩].

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: بعت من أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه مالاً بالواد بمال له بخيبر.

قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ يقول: وثمود الذين خرقوا الصخر ودخلوه، فاتخذوه بيوتًا، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٢].

والعرب تقول: جاب فلان الفلاة يجوبها جوباً: إذا دخلها وقطعها، ومنها قول النابغة:

أتاك أبو ليلى يجوب به الدّجى
دجى الليل جوّاب الفلاة عميم

يعني بقوله: يجوب: يدخل ويقطع

وروى بسنده عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ يقول: فخرقوها.

وروى بسنده عن مجاهد، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾: جابوها ونحتوها بيوتًا.

وروى بسنده عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٠]، قال: أصحاب الوادي.

وقال الشوكاني: وقوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ متعلّق بجابوا، أو بمحذوف على أنه حال من الصخر. وهو وادي القرى.

وقال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ يعني: يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد، ومنه يقال: مجتابي النمار إذا خرقوها، واجتاب الثوب إذا فتحه ومنه الجيب أيضًا، وقال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [سورة الشعراء، الآية: ١٤٩] وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم هاهنا قول الشاعر:

ألا كل شيء ما خلا اللّه بائد
كما باد حيّ من شنيق ومارد
همو ضربوا في كل صماء صعدة
بأيدٍ شداد أيدات السواعد

وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى.

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

ثمود: هم قوم صالح، و(جابوا): قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد، أي: يقطعها، وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب، أي قطع، قال الشاعر، وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة، فكتب له بستين وسقاً يأخذها بالكوفة، فقال:

راحت رواحاً قلوصي وهي حامدة
آل الزبير ولم تعدل بهم أحدًا
راحت بستين وسقاً في حقيبتها
ما حملت حملها الأدنى ولا السددا
ما إن رأيت قلوصي وهي حامدة
آل الزبير ولم تعدل بهم أحدًا

أي: قطعت، قال المفسرون: أول مَنْ نحت الجبال والصور والرخام: ثمود، فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف، كلها من الحجارة، وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: ٨٢]، وكانوا لقوّتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم (بالوادي) أي: بوادي القرى.

وقال ابن حجر في شرح حديث عبد الله ابن عمر:

ونصّ الحديث (بعت من أمير المؤمنين عثمان مالاً بالوادي بمال له بخيبر، فلما تبايعنا رجعت على عقبي حتى خرجت من بيته خشية أن يرادّني البيع، وكانت السُنّة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرّقا، قال عبد الله: فلما وجب بيعي وبيعه رأيت أنّي قد غبنته بأني سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال، وساقني إلى المدينة بثلاث ليال).

الوادي: يعني وادي القرى، وقوله: (سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال) أي: زدت المسافة التي بينه وبين أرضه التي صارت إليه على المسافة التي كانت بينه وبين (أرضه التي باعها بثلاث ليال). وقوله: (وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) يعني: أنه نقص المسافة التي بيني وبين أرضي التي أخذ بها عن المسافة التي كانت بيني وبين أرضي التي بعتها بثلاث ليال، وإنما قال إلى المدينة؛ لأنهما جميعًا كانا بها، فرأى ابن عمر الغبطة في القرب من المدينة.

قلت: وبهذا يتبيّن مقدار المسافة بين المدينة وبين وادي القرى، وهي مسيرة ست ليال إلى أقرب مكان فيه، ويتبيّن أن المسافة بين المدينة وبين خيبر مسيرة ثلاث ليال.

وقد اتفق المفسّرون على أن (الوادي) الذي ورد ذكره في سورة (الفجر) أنه هو: وادي القرى.

وفي رسم (الحجر) مزيد من الإيضاح عن هذا الوادي.

وادي العقيق: بفتح العين المهملة وقاف مثناة مكسورة بعدها ياء مثناة ساكنة وآخره قاف مثناة: وادٍ مشهور في المدينة.

روى البخاري عن عمر ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق يقول: أتاني الليلة آت من ربّي فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة في حجّة.

قال ابن حجر: وادي العقيق، بقرب النقّيع بينه وبين المدينة أربعة أميال.

وتحدّث ابن شبّة عن العقيق وذكر فيه آثارًا كثيرة تدل على فضله، وروى بسنده عن سلمة ابن الأكوع ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ أين كنت؟ قلت: في الصيد قال: أين؟ فأخبرته بالناحية التي كنت فيها، فكأنه كره تلك الناحية وقال: لو كنت تذهب إلى العقيق لشيّعتك ذاهبًا، وتلقّيتك راجعاً.

وروى بسنده عن عروة بن الزبير قال، قال رسول الله ﷺ: العقيق وادٍ مبارك. وروى بسنده عن عبد الله بن أبي بكر قال: جاء بلال بن الحارث المزني إلى رسول الله ﷺ، فاستقطع أرضًا، فقطعها له طويلة عريضة،

فلمّا ولي عمر رضي الله عنه قال له: يا بلال إنك استقطعت رسول الله ﷺ أرضًا طويلة عريضة فقطعها لك، وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئًا سئله، وإنك لا تطيق مافي يدك، قال: أجل، قال: فانظر ما قويت عليه منها فأمسكه، ومالم تطق فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين، فقال: لا أفعل والله، شيء أعطانيه رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: والله لتفعلنّ، فأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسّمه بين المسلمين.

وقال المراغي: روينا في صحيح مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ـ بوادي العقيق ـ أتاني الليلة آتٍ فقال صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة في حجّة.

وكان عبد الله بن عمر ينيخ بالوادي يتحرّى معرّس النبي ﷺ ويقول: هو أسفل من المسجد الذي ببطن الوادي.

وبسند ابن النجار إلى سعد بن أبي وقاص قال: ركب رسول الله ﷺ إلى العقيق ثم رجع فقال: يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطئه، وأعذب ماءه، فقلت يا رسول الله: أفلا ننتقل إليه؟ فقال: كيف وقد ابتنى الناس.

وبسند الزبير قال: خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى العرصة من ناحية العقيق فلما رآها قال: لو علمنا هذه أولاً لكانت المنزل.

ونزل في العقيق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم منهم: سعد بن أبي وقاص ومات فيه، وسعيد بن زيد ومات فيه، وأبو هريرة، وسعيد بن العاص بن أميّة الجواد ومات فيه، ودفنوا في البقيع.

وكانت فيه قصور مشيّدة ومناظر رائقة، وآبار وحدائق طيّبة، ولأهله أخبار وأشعار مستحسنة حتى أفردت بالتصنيف، فخرب على طول الزمان، ولم يبق فيه اليوم إلا الآثار والآبار، ولهذا قال ابن النجار: ووادي العقيق اليوم ليس به مساكن، وفيه بقايا بنيان خراب، وآثار تجد النفس برؤيتها أنسًا.

وأصل مسيل العقيق من النقيع ـ بالنون والقاف والياء المثناة من تحت ـ قبلي المدينة الشريفة، بينه وبين قباء مقدار يوم ونصف، وهو معروف في طريق المشيان ويصل إلى بئر عليّ العلياء المعروفة بالخليقة ـ بالقاف والخاء المعجمة المفتوحة مع كسر اللام ـ ثم يأتي على غربي جبل عير ويصل إلى بئر عليّ بذي الحليفة محرم الحجّاج ثم يأتي مشرقًا إلى قريب الحرّة التي تطلع منها المدينة إلى المدينة، ثم يعرج يسارًا ومن بئر المحرم يسمّى العقيق.

ونقل ابن زبالة عن هشام بن عروة: أنه يسمّى عقيقًا من النقيع والله أعلم، فينتهي إلى غربي بئر رومة.

ونقل أيضًا عن سليمان بن عباس السعدي: إنّما سُمّي عقيقًا؛ لأن سيله عقّ في الحرّة، فعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل.

وقال المطري: وادي العقيق: أصل مسيله من النقيع بالنون والقاف والياء المثناة من تحت، قبلي المدينة الشريفة وهو في طريق المشيان بينه وبين قباء مقدار يوم ونصف، ويعرف اليوم بوادي النقيع ويصل إلى بئر العلياء المعروفة بالخليقة بالقاف والخاء المعجمة ـ ثم يأتي «على غربي جبل عير ويصل إلى بئر عليّ ذي الحليفة محرم الحاج، ثم يأتي مشرّقًا إلى قريب الحرّة التي يطلع منها إلى المدينة ثم يعرج يسارًا، ومن بئر المحرم يسمّيا العقيق، فينتهي إلى غربي بئر رومة، ثم وادي رانونا يأتي من شمال جبل عير المذكور إلى غربي مسجد قباء موضع يعرف بالعصبة، وهي منازل بني جحجبا من الأوس، وينتهي إلى مسجد

الجمعة منازل بني سليم بن عوف من الخزوج ثم يصب في بطحان ثم وادي جفاف وهو أعلى موضع بالعوالي إلى شرقي مسجد قباء، ثم وادي مذينيب وهو شرقي جفاف فوق مسجد الشمس المعروف قديمًا بمسجد الفضيخ، ثم يصبان في بطحان يلتقيان هما ورانونا ببطحان فيمرّان بالمدينة غربي المصلّى ويصلان إلى مساجد الفتح سيلاً واحدًا ويلتقي هو والعقيق عند بئر رومة ثم وادي مهزور وهو أيضًا شرقي العوالي شمالي مذينيب، ويشق في الحرّة الشرقية إلى العريض ثم يصبّ في وادي الشظاة، ثم وادي الشظاة يأتي من شرقي المدينة من أماكن بعيدة عنها ويصب وادي الشظاة، أيضًا في رومة، بمجتمع السيول فيها ـ سيل بطحان والعقيق والزغابة والنقمى وسيل غراب من جهة الغابة ـ فيصير سيلاً واحدًا ويأخذ في وادي الضيقة إلى أضم جبل معروف، ثم إلى منزلة أكرا من طريق مصر ـ وتصب في البحر المالح فهذه أودية المدينة الشريفة.

قال ياقوت: العقيق، بفتح أوله وكسر ثانيه وقافين بينهما ياء مثناة من تحت، قال أبو منصور: والعرب تقول لكل مسيل ماء شقّه السيل في الأرض فأنهره ووسّعه عقيق، قال: وفي بلاد العرب أربعة أعقّة، وهي أودية عاديّة شقّتها السيول.

وقال الأصمعي: الأعقة الأودية، قال: منها عقيق بناحية المدينة وفيه عيون ونخل، وقال غيره: هما عقيقان: الأكبر وهو مما يلي الحرّة مابين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراجل، ومما يلي الحمى مابين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان إلى قصر المراجل ثم اذهب بالعقيق صعدًا إلى منتهى البقيع[1].

والعقيق الأصغر ما سفل عن قصر المراجل إلى منتهى العرصة، وفي عقيق المدينة يقول الشاعر:

إنّي مررت على العقيق وأهله
يشكون من مطر الربيع نزورا
ما ضركم أن كان جعفر جاركم
أن لا يكون عقيقكم ممطورا

وفي هذا العقيق قصور ودور ومنازل وقرى.

وقال القاضي عياض: العقيق وادٍ عليه أموال أهل المدينة، وهو على ثلاثة أميال أو ميلين، وقيل ستة، وقيل سبعة، وهي أعقّة أحدها عقيق المدينة عقّ عن حرّتها أي: قطع، وهذا العقيق الأصغر وفيه بئر رومة، والعقيق الأكبر بعد هذا وفيه بئر عروة، وعقيق آخر أكبر من هذه وفيه بئر على مقربة منه. وهو من بلاد مزينة، وهو الذي أقطعه رسول الله ﷺ بلال ابن الحارث المزنى، ثم أقطعه عمر الناس، فعلى هذا يحمل الخلاف في المسافات ومنها العقيق الذي جاء فيه: إنك بوادٍ مبارك، وهو الذي ببطن وادي ذي الحليفة وهو الأقرب منها.

قلت: هذا هو وادي العقيق الذي في المدينة، وتقسيمه إلى عدّة أعقّة لا يمنع من كونه واديًا واحدًا، يتّصل بعض أقسامه ببعض حتى يصبح قبل نهايته واديًا واحدًا يلتقي مع أودية المدينة الأخرى في مجمع الأودية كما تقدّم.

والعقيق من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها أودية متعدّدة، بل إنه اسم جنس لكل وادٍ شقّه السيل وأنهره، وقد سُمّي بهذا أودية مشهورة ذكر ياقوت بعضًا منها قال عن الأصمعي:

(١) البقيع هنا: صحته «النقيع» بالنون الموحدة.

منها عقيق عارض اليمامة: وهو وادٍ واسع ممّا يلي العرمة يتدفّق في شعاب العارض، وفيه عيون عذبة الماء.

قال السكّوني: عقيق اليمامة لبني عقيل فيه قرى ونخيل كثيرة، ويقال له: عقيق تمرة، وهو عن يمين الفرط منقطع عارض اليمامة في رمل الجزء، وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين مَنْ يخرج من اليمامة يريد اليمن عليه أمير، وفيه يقول الشاعر:

تربّع ليلى بالمضيّح فالحمى
ونحفر من بطن العقيق السواقيا

قلت: هذا العقيق هو وادي الدواسر، وما زال أعلاه يسمّى العقيق، وتمرة التي نسب إليها بلدة ما زالت معروفة بهذا الاسم واقعة فيه.

وفيه يقول القحيّف بن حميّر العقيلي:

أأم ابن إدريس ألم يأتك الذي
صبحنا ابن إدريس به فتقطّرا
فليتك تحت الخافقين ترينه
وقد جعلت درعًا عليها ومغفرًا
يريد العقيق ابن المهير ورهطه
ودون العقيق الموت وردًا وأحمرًا
وكيف تريدون العقيق ودونه
بنوا المحصنات اللابسات السّنوّرا

ومنها العقيق: ماء لبني جعدة وجرم، وتخاصموا فيه إلى النبي ﷺ فقضى به لبني جرم.

ومنها عقيق البصرة: وهو وادٍ ممّا يلي سفوان:

ومنها عقيق آخر يدفع سيله في غورى تهامة، وإيّاه عنى فيما أحسب أبو وجزة السعدي بقوله:

يا صاحبيّ انظر هل تؤنسان لنا
بين العقيق وأوطاس بأحداج

وهو الذي ذكره الشافعي ﷺ، فقال: لو أهلّوا من العقيق كان أحب إليّ.

قلت: هذا العقيق قريب من أوطاس وقد أصبح يسمّى عقيق عشيرة، نسبة إلى ماء فيه، وقد تأسست فيه قرية عامرة تابعة لمحافظة الطائف على ماء عشيرة.

وقد ذكر ياقوت أودية أخرى تسمّى بهذا الاسم، وأورد أشعارًا كثيرة في هذه الأودية لا يتّسع مقامنا هذا لذكرها.

الوادي: بواو مفتوحة بعدها ألف ودال مهملة وآخره ياء: المقصود به وادي القرى الواقع شمال المدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: بعت من أمير المؤمنين عثمان مالاً بالوادي بمال له بخيبر، فلمّا تبايعنا رجعت على عقبي حتى خرجت من بيته خشية أن يرادّني البيع وكانت السُنّة أن المتبايعين بالخيار حتى يتفرّقا، قال عبد الله: فلمّا وجب بيعي وبيعه رأيت أنّي قد غبنته بأنّي سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال، وساقني إلى المدينة بثلاث ليال.

قال ابن حجر: الوادي: يعني وادي القرى، وقوله: (سقته إلى أرض ثمود بثلاث ليال) أي: زدت المسافة التي بينه وبين أرضه التي صارت إليه على المسافة التي كانت بينه وبين أرضه التي باعها بثلاث ليال. وقوله: (وساقني إلى المدينة بثلاث ليال) يعني: أنه نقص المسافة التي بيني وبين أرضي التي أخذ بها عن المسافة التي كانت بيني وبين أرضي التي بعتها بثلاث ليال، وإنّما قال إلى المدينة؛ لأنهما جميعًا كانا بها، فرأى ابن عمر الغبطة في القرب من المدينة.

قلت: وبهذا يتبيّن مقدار المسافة بين المدينة المنورة وبين وادي القرى، وهي مسيرة ست ليال إلى أقرب مكان منه.

وقد استوفيت الحديث عن وادي القرى في رسمه، فانظره.

وادي القرى: بواو مفتوحة بعدها ألف ثم دال مهملة مكسورة وآخره ياء مضاف إلى القرى، جمع قرية: وادٍ مشهور يقع شمال المدينة.

روى البخاري بسنده عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: غزونا مع النبي ﷺ غزوة تبوك فلمّا جاء وادي القرى إذا امرأة في حديقة لها، فقال النبي ﷺ لأصحابه: اخرصوا وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق، فقال لها: أحصي ما يخرج منها، فلمّا أتينا تبوك قال أما إنها ستهبّ الليلة ريح شديدة فلا يقومنّ أحد، ومَنْ كان معه بعير فليعقله فعقلناها، وهبّت ريح شديدة فقام رجل فألقته بجبل طيء، وأهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء وكساه برداً وكتب له ببحرهم، فلمّا أتى وادي القرى قال للمرأة: كم جاءت حديقتك؟ قالت: عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ.

وقال الواقدي: قال أبو هريرة: خرجنا مع رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى.. فلمّا نزل بوادي القرى انتهينا إلى اليهود وقد ضوى إليها أناس من العرب... وقد استقبلتنا اليهود بالرمي حيث نزلنا، ولم يكن على تعبية وهم يصيحون في آطامهم... وعبىّ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفّهم ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب ابن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عبّاد بن بشر ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم إنْ أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم وبرز إليه الزبير ابن العوام فقتله، ثم آخر فبرز إليه الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز عليّ فقتله، ثم برز آخر فبرز أبو دجانة فقتله، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله، حتى قتل رسول الله ﷺ منهم أحد عشر رجلاً، كلّما قتل رجل دعا مَنْ بقي إلى الإسلام، ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذٍ فيصلي رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم، وفتحها عنوةً، وغنّمه الله أموالهم وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا، وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقسّم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود وعاملهم عليها، فلمّا بلغ يهود تيماء ما وطيء به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم.

فلمّا كان زمن عمر رضي الله عنه أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى؛ لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام.

وانصرف رسول الله ﷺ من وادي القرى راجعًا بعد أن فرغ من خيبر ومن وادي القرى وغنّمه الله.

قال ياقوت: وادي القرى: وادٍ بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، والنسبة إليه واديّ، وإليه نسب عمر الوادي، وفتحها النبي ﷺ سنة سبع عنوة، صولحوا على الجزية.

قال أحمد بن جابر: في سنة سبع لمّا فرغ النبي ﷺ من خيبر توجّه إلى وادي القرى، فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا عليه وقاتلوه،

ففتحها عنوة وغنّم أموالها، وأصاب المسلمون منهم أثاثًا ومتاعًا فخمّس رسول الله ﷺ ذلك، وترك النخل والأرض في أيدي اليهود، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، فقيل: إن عمر رضي الله عنه، أجلى يهودها فيمن أجلى فقسّمها بين مَنْ قاتل عليها، وقيل: إنه لم يجلهم؛ لأنها خارجة عن الحجاز، وهي الآن مضافة إلى عمل المدينة، وكان فتحها في جمادى الآخرة سنة سبع.

وقال القاضي أبو يعلى عبد الباقي ابن أبي الحصين المعزّى:

إذا غبت عن ناضري لم يكد
يمرّ به، وأبيك، الكرى
فيؤلمني أنني لا أرا
ك إذا ما طلبتك فيمن أرى
لقد كذب النوم فيما استقل
بشخصك في مقلتي وافترى
وكيف وداري بأرض الشآم
ودارك أرض بوادي القرى
وبعد فلي أمل في اللقاء
لأنّي وإيّاك فوق الثرى

وقال جميل:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
بوادي القرى إنّي إذاً لسعيد
وهل أرين جملاً به وهي أيّم
وما رثّ من حبل الوصال جديد؟

وقد نسب إلى وادي القرى جماعة منهم: يحيى بن أبي عبيدة الواديّ، أصله من وادي القرى واسمه يحيى بن رجاء بن مغيث مولى قريش ثقة في الحديث، قال لنا أبو عروبة: كنيته أبو محمد، وقال: رأيته وسمعت منه، ومات في سنة ٢٤٠ في جمادى الأولى، هكذا ذكره علي بن الحسين بن علي ابن الحرّاني الحافظ في تاريخ الجزري.

وقال ياقوت في رسم القرى: وادي القرى: وادٍ بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة، وبها سُمّي وادي القرى.

قال أبو المنذر: سُمّي وادي القرى؛ لأن الوادي من أوّله إلى آخره قرى منظومة، وكانت من أعمال البلاد وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنّها كلّها في وقتنا هذا خراب، ومياهها جارية تتدفّق ضائعة لا ينتفع بها أحد.

قال أبو عبيد الله السكّوني: وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاعة ثم جهينة وعذرة وبلّى، وهي بين الشام والمدينة، يمرّ بها حاج الشام، وهي كانت قديمًا منازل ثمود وعاد، وبها أهلكهم الله، وآثارها إلى الآن باقية، ونزلها بعدهم اليهود، واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها، وغرسوا نخلها، فلمّا نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً، وكان لهم فيها علمًا إليهم طعمة وأكل في كل عام، ومنعوها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة.

وروي أن معاوية بن أبي سفيان مرّ بوادي القرى فتلا قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾ [سورة الشعراء، الآيات: ١٤٦ ـ ١٤٨] الآية، ثم قال: هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة، وهي بلاد ثمود فأين العيون؟ فقال له رجل: صدق الله في قوله، أتحب أن أستخرج العيون؟ قال: نعم، فاستخرج ثمانين عينًا، فقال معاوية: الله أصدق من معاوية.

وقال البلاذري: قالوا: أتى رسول الله ﷺ منصرفه من خيبر، وادي القرى، فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا، ففتحها رسول الله ﷺ عنوةً، وغنّمه الله أموال أهلها،

وأصاب المسلمون منهم أثاثًا ومتاعًا، فخمّس رسول الله ﷺ ذلك، وترك الأرض والنخل في أيدي اليهود، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر، فقيل: إن عمر أجلى يهودها وقسّمها بين مَنْ قاتل عليها، وقيل: إنه لم يجلهم؛ لأنها خارجة من الحجاز، وهي اليوم مضافة إلى عمل المدينة وأعراضها.

قالوا: ولمّا بلغ أهل تيماء ما وطيء به رسول الله ﷺ أهل وادي القرى صالحوه على الجزية، فأقاموا ببلادهم، وأرضهم في أيديهم، وولّى رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد ابن العاص بن أميّة وادي القرى، وولّى يزيد بن أبي سفيان بعد الفتح، وكان إسلامه يوم فتح تيماء.

قال: عن عمر بن عبد العزيز: إن عمر ابن الخطاب أجلى أهل فدك وتيماء وخيبر، قال: وكان قتال رسول الله ﷺ أهل وادي القرى في جمادى الآخرة سنة سبع.

وقال بسنده حدّثني العباس بن هشام الكلبي عن أبيه: عن جدّه قال: أقطع رسول الله ﷺ حمزة بن النعمان بن هوذة العذري رمية سوطة من وادي القرى، وكان سيّد بني عذرة، وهو أول أهل الحجاز قدم على النبي ﷺ بصدقة بني عذرة.

قال حمد الجاسر: وادي القرى: والعلا قديمًا من أشهر قرى وادي القرى المعروف باسم (وادي القرى) وهذا الوادي يمتد من الشمال نحو الجنوب بما يقارب مائة كيل وله فروع كثيرة.

ووادي القرى هو وادي العلا... وقد يطلق اسم وادي القرى على ما حوله من المواضع كوادي الجزل، ويلحظ أن المتأخرين من الرحّالين ومؤلفي كتب المواضع أطلقوا اسم وادي القرى على أسفل أودية المدينة حيث تجتمع السيول، فتخصب الأرض وتكثر هناك القرى، على مسافة تقرب من مسيرة يومين غرب المدينة ـ أي فيما يعرف قديمًا باسم وادي ذي خشب ـ ولهذا يحسن بالقارىء ملاحظة ذلك.

ووادي القرى الوارد ذكره في كتب التاريخ، والذي غزاه الرسول ﷺ هو: وادي العلا، وكان أشهر سكانه قبيلة بني عذرة.

وتحدّث حمد الجاسر عن فروع وادي القرى وقال: هذه الفروع تنحدر من الجبال الواقعة فيما بين العلا وخيبر.

أمّا فروع وادي الجزل ـ وهو من أعظم الأودية التي تنحدر إليه سيول حرّة ـ عويرض المتجهة صوب الغرب، وتجتمع هذه السيول الثلاثة التي هي: وادي القرى، ووادي الجزل، ووادي نخلة ثم تلتقي بها أودية كثيرة منها وادي عمودان، ووادي العيص، ووادي العين، وسيول أودية خيبر، ثم تأتيها سيول أودية المدينة فتكون كلّها واديًا واحدًا، يتّجه مغرّبا حتى يصبّ في البحر(١).

قلت: ووادي القرى لا يعني واديًا منتظبًا تسير فيه السيول في مجرى واحدة ـ كما هو المعروف عن كثير من الأودية ـ ولكنه يعني مجموعة من الأودية الكبيرة التي يلتقي بعضها ببعض، فيما بين مدينة العلا التي هي أشهر مدن وادي القرى وهي في ناحيته الجنوبية وبين مدينة تيماء التي في ناحيته الشمالية، ثم بعد أن تتجمع هذه الأودية تندفع إلى البحر الأحمر فتفرغ مياهها فيه.

(١) مجلة العرب، السنة ١٢، صفحة ١٦٢.

وقد تحدّث حمد الجاسر عن فروع هذه الأودية وعدّدها بأسمائها، وتحدّث عن بعض مافيها من القرى والمواضع حديثًا لا يتّسع مقامنا هذا لذكره.

وقد تقدّم في رسم (الوادي) أن بين هذا الوادي وبين المدينة مسافة ست ليال، يعني: - من المدينة إلى العلا، والوادي لا يعرف بهذا الاسم في هذا العهد وإنّما يعرف كلّ رافد من روافده باسم خاص به.

ودّان: بواو مفتوحة ودال مفتوحة مشدّدة بعدها ألف وآخره نون موحدة: موضع على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن الصعب بن جثامة الليثي أنه أهدى لرسول الله ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء وبودّان فردّه عليه، فلما رأى مافي وجهه قال إنّا لم نردّه إلا أنّا حرم.

قلت: وفي بعض الروايات أو بودّان.

قال ابن حجر: قوله: (أو بودّان): شك من الراوي، وهو بفتح الواو وتشديد الدال، وآخرها نون: موضع بقرب الجحفة، وفي حديث عمرو بن أميّة أنه كان بالجحفة، وودّان أقرب إلى الجحفة من الأبواء، فإنّ من الأبواء إلى الجحفة للآتي من المدينة ثلاثة وعشرين ميلاً، ومن ودّان إلى الجحفة ثمانية أميال، وبالشك جزم أكثر الرواة، وجزم ابن إسحاق وصالح بن كيسان عن الزهري بودّان، وجزم معمر وعبد الرحمٰن بن إسحاق ومحمد ابن عمرو بالأبواء، والذي يظهر لي أن الشك فيه من ابن عباس؛ لأن الطبراني أخرج الحديث من طريق عطاء عنه على الشك أيضًا.

قال الواقدي: غزا رسول الله ﷺ في صفر على رأس أحد عشر شهرًا، حتى بلغ الأبواء يعترض لعير قريش، فلم يلق كيدًا، وفي هذه الغزاة وادع بني ضمرة من كنانة على ألاّ يكثروا عليه، ولا يعينوا عليه أحدًا، ثم كتب بينهم كتابًا، ثم رجع، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

قلت: قال ابن إسحاق: غزوة ودّان وهي غزوة الأبواء.

وقال ياقوت: ودّان: كأنه فعلان، من الودّ وهو المحبة، ثلاثة مواضع: أحدها بين مكة والمدينة قرية جامعة من نواحي الفرع، بينها وبين هرشى ستة أميال، وبينها وبين الأبواء نحو من ثمانية أميال، قريبة من الجحفة، وهي لضمرة وغفار وكنانة، وقد أكثر نصيب من ذكرها في شعره، فقال لسليمان ابن عبد الملك:

أقول لركب قافلين عشيّة
قفا ذات أو شال ومولاك قارب
قفوا خبّروني عن سليمان إنني
لمعرفة من آل ودّان راغب
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وقرأت بخط كراع الهنائي على ظهر كتاب المنضّد من تصنيفه قال بعضهم: خرجت حاجاً فلما جزت بودّان أنشدت:

أيا صاحب الخيمات من بعد أرثد
إلى النخل من ودّان ما فعلت نعم

فقال لي رجل من أهلها: انظر هل ترى نخلاً؟ فقلت: لا، فقال:

هذا خطأ إنما هو النحل، ونحل الوادي: جانبه.

قال أبو زيد: ودّان من الجحفة على مرحلة، بينها وبين الأبواء على طريق الحاج في غربيها ستة أميال، وبها كان في أيام مقامي بالحجاز رئيس للجعفريين أعني: جعفر بن أبي طالب، ولهم بالفرع والسائرة ضياع كثيرة عشيرة،

وبينهم وبين الحسنيين حروب ودماء، حتى استولى طائفة من اليمن يعرفون ببني حرب على ضياعهم فصاروا حربًا لهم فضعفوا، وينسب إلى ودّان المدينة الصّعب بن جثّامة ابن قيس بن عبد الله بن وهب بن يعمر بن عوف ابن كعب بن عامر بن ليث بن بكر الليثي الودّاني كان ينزلها فنسب إليها، وهاجر إلى النبي ﷺ حديثه في أهل الحجاز، روى عنه عبد الله بن عباس وشريح بن عبيد الحضرمي، ومات في خلافة أبي بكر.

وودّان أيضًا: جبل طويل بين فيد والجبلين.

وودّان أيضًا: مدينة بإفريقية افتتحها عقبة ابن عامر في سنة ٤٦ أيام معاوية، وينسب إليها أبو الحسن علي بن أبي إسحاق الودّاني صاحب الديوان بصقلية، له أدب وشعر ذكره ابن القطاع وأنشد له:

مَنْ يشتري منّى النّهار بليلة
لا فرق بين نجومها وصحابي؟
دارت علي فلك السماء ونحن قد
درنا على فلك من الآداب
دان الصباح ولا أتى وكأنه
شيب أطلّ على سواد شباب

وقال البكري: ودّان: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، على وزن فعلان: قرية من أمهات القرى... وحدّث يعقوب بن حميد قال: أقبلت من مكة، فلمّا صرت بودّان لقيت صفراء من مولداتها، فقلت: يا جارية، ما فعلت نعم؟ فقالت: سل النصيب، تريد قوله:

ألا تسأل الخيمات من بطن أرثد
إلى النخل من ودّان ما فعلت نعم
أسائل عنها كل ركب لقيتهم
ومالي بها من بعد أن فارقت علم

وقال أبو الفتح: ودّان: فعلان من الودّ، فلا ينصرف، لزيادة الألف والنون.

وودّان: موضع آخر، مدينة في بلاد البربر، وهي من حيّز برقة، من بلاد إفريقية، يسكنها قوم من العرب، بينها وبين قصر ابن ميمون ستة أيام، وقصر ابن ميمون آخر عمل طرابلس.

قلت: مما تقدّم يتبيّن أن ودّان من الأسماء المشتركة التي يسمّى بها أكثر من موضع، كما يتبيّن أن المسافة التي ذكرها ابن حجر بين ودّان وبين الأبواء غير صحيحة بمخالفتها أقوال الآخرين المتفقة على قرب ودّان من الأبواء.

وقال عاتق البلادي: وظنّ بعض الباحثين أن ودّان هي ما يعرف اليوم بمستورة، وهذا خطأ، فقد اندثرت ودّان، وتوجد آثار ودّان على نعف حرّة الأبواء إذا أكنعت في السهل حيث يفترق عنها وادي حمامة ووادي أرثد (أسفل الأبواء) في المنتصف بين ثنية هرشى وبلدة مستورة وعلى (١٢) كيلاً من كل منهما، وتسمى الحرّة هناك العصعص، وإذا علوتها رأيت مستورة شمالاً غربيًا ولا زالت بقايا الآثار بيد أن الرمل ابتلع معظمها، وكان بها عين ونخل لا زالت قعورة ماثلة رموس منها.

قلت: والحديث عن الأبواء وعن الجحفة قد تقدّم في رسميهما، فانظره.

باب الهاء

هَجَر: بهاء مفتوحة وجيم معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة: بلاد واقعة في شرق الجزيرة العربية.

روى البخاري بسنده عن أبي موسى أراه عن النبي ﷺ قال: رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهمي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب.

قال ياقوت: هجر: بفتح أوله وثانيه، مدينة وهي قاعدة البحرين، وربما قيل الهجر بالألف واللام، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر، وهو الصواب.

قال ابن الكلبي عن الشرقي إنما سمّيت عين هجر بهجر بنت الملفف، وكانت من العرب المستعربة. وكان زوجها محلّم بن عبد الله صاحب النهر الذي بالبحرين، يقال له: نهر محلّم وعين محلّم، وينسب إليها هاجريّ على غير قياس، كما قيل حاريّ بالنسبة إلى الحيرة، قال العوف بن الجزع.

تشقّ الأحزّة أسلافنا
كما شقّق الهاجريّ الدّبارا

الدبار: المشارات التي تشقّ للزراعة.

وقال أبو الحسن الماوردي في (الحاوي): الذي جاء في الحديث ذكر القلال الهجرية، قيل إنها كانت تحلب من هجر إلى المدينة، وقال: بل عملت في المدينة على مثل قلال هجر، وقال قوم: هجر بلاد قصبتها الصّفا، بينها وبين اليمامة عشرة أيام، وبينها وبين البصرة خمسة عشر يومًا على الإبل.

وقد ذكر قوم من أهل الأدب أن هجر لا تدخله الألف واللام، وقال ابن الأنباري: الغالب عليه التذكير والصرف وربما أنثّوها ولم يصرفوها، قالوا: والهجر، بالألف واللام، موضع آخر وقد فتحت في أيام النبي ﷺ، قيل: في سنة ثمان، وقيل في سنة عشر، على يد العلاء بن الحضرمي، وقد ذكر ذلك في البحرين.

وقال ابن موسى: هجر قصبة بلاد البحرين. . . والهجر بلد باليمن بينه وبين عثّر يوم وليلة من جهة اليمن، وقال ابن الحائك: الهجر قرية ضمد وجازان.

وقال البكري: هَجَر: بفتح أوله وثانيه: مدينة البحرين، معروفة، وهي معرفة لا تدخلها الألف واللام، وهو اسم فارسي معرّب أصله هكر، وقيل: إنما سُمّيت بهجر بنت مكنف من العماليق، وقال الفرزدق فذكر هجر ولم يصرفها:

منهنّ أيام صدق قد عرفت بها
أيام فارس والأيام من هجر

قال لغدة: هجر منبر الأحساء أحساء هجر يدعى عليه لصاحب اليمامة، وواليها من قِبَل عامل اليمامة.

قلت: هجر اسم لمنطقة الأحساء الواقعة في شرق الجزيرة العربية، والبعض ما زالوا

يسمّونها هجر، فهي معروفة باسميها: هجر والأحساء وقصبتها مدينة الهفوف، وهي بلاد واسعة كثيرة التمور لها أسواق تجارية، ومن أشهر الصناعات القائمة فيها صناعة العبّي ومشالح الصوف وصناعة الفخار والصناعات القائمة على سعف النخل، وهي واقعة في منطقة البحرين، التي أصبحت في هذا العهد تسمّى المنطقة الشرقية بالنسبة للمملكة العربية السعودية، ومنطقة الأحساء لها شهرة تاريخية وتجارية وثقافية، وشهرتها تغني عن إطالة الحديث عنها.

الهدأة: بهاء مفتوحة ودال مهملة ساكنة بعدها همزة مفتوحة وآخره هاء: مكان بين مكة والمدينة بقرب عسفان.

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهطًا سريّة عينا وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ذكروا لحيّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبًا من مائتي رجل كلّهم رام فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا تزوّدوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب فاقتصّوا آثارهم فلمّا رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم.

وقال الواقدي في خبر عير قريش: فلمّا أفلت أبو سفيان بالعير ورأى أنْ قد أحرزها، أرسل إلى قريش قيس بن امرىء القيس ـ وكان من أصحاب العير، خرج معهم من مكة ـ فأرسله أبو سفيان يأمرهم بالرجوع، ويقول: قد نجت عيركم فلا تجزروا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيها وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم وقد نجّاها الله، فإن أبوا عليك، فلا يأبون خصلة واحدة، يردون القيان، فإن الحرب إذا أكلت نكّلت، فعالج قريشًا وأبت الرجوع، وقالوا: أما القيان فسنردّهن فردّوهن من الجحفة، ولحق الرسول أبا سفيان بالهدّة، والهدّة على سبعة أميال من عقبة عسفان على تسعة وثلاثين ميلاً من مكة، فأخبره بمضي قريش.

وقال البكري: هدأة: بهمزة مفتوحة بين الدال وهاء التأنيث: روى **البخاري** عن طريق عمرو بن أسيد، عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة عينا وأمّر عليهم عاصم ابن ثابت، جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدأة، بين عسفان ومكة، ذكروا لحيّ من هذيل، يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقرب من مائة رجل، فاقتصّوا آثارهم. وذكر الحديث في مقتل عاصم وأسر خبيب وابن الدثينة، هكذا رواها المحدّثون بالهمز، فلا أعلم هل هي هدة أو غيرها؟.

وقال ياقوت: الهدأة: كما ذكرها البخاري في قتل عاصم قال: وهو موضع بين عسفان ومكة، وكذا ضبطه أبو عبيد البكري الأندلسي.

وقال أبو حاتم: يقال لموضع بين مكة والطائف الهدة، بغير ألف، هو غير الأول ذكر معه لنفي الوهم.

وتحدّث عاتق البلادي: عن الهدأة والهدة فقال في حديثه، قلت: فرّقت بين الموضعين بالأرجح فجعلت (الهدأة) المكان المجاور للطائف، (والهدة) المكان المجاور لعسفان، ذلك أن المجاور للطائف هدأة في وسط الجبل فإذا وصل إليها السائر كان قد كلّ فهدأ من سير واستراح.

أما العامة اليوم فلا تفرّق في الاسم وينطق الهدة في الموضعين، وإذا أرادوا التفريق

قالوا: هدى الشام، يقصدون الهدة التي شمال مكة، ويمكن أن يكون الموضعان باسم واحد.

قلت: ما قاله عاتق في تفريقه بين الموضعين أمر ليس له ما يبرّره؛ إذ المعروف في كتب الحديث وغيرها أن الهدأة بالهمز هي الموضع الذي يقع شمال مكة قريبًا من عسفان، أما الموضع الذي بقرب الطائف فإنه معروف بدون همزة.

وقد وصف عاتق البلادي الهدأة الموضع الواقع بقرب عسفان فقال في وصفه وهو متّجه إليها: وكتبت على طريقها لوحة بهذا اللفظ (هدا الشام)، وقال: وهي وادٍ فحل يسيل من الشرق إلى الغرب موازيًا لوادي مرّ الظهران من الشمال تفصل بينهما حرّة النهيميّة، يأخذ أعلى روافده من الحمام حيث تسيل الشعبة اليمنى (الجنوبية) والحمام جبل أسود متوسط الارتفاع من نوع الحرّة يتوسط حرّة المقطة، ومن أمّ الصحاصيح حزوم في الحرّة تسيل الشعبة اليسرى الشمالية.

فإذا اجتمعت الشعبتان في وسعة نسبية سمى الوادي (مدركة) وبه بلدة مدركة، ثم ينحدر غربًا فتدفع فيه أودية عدة مما يجعل سيله جارفًا يغمر سهولاً واسعة ويجري عدّة أيام، ثم يدفع سيله الصّغو بعد أن يفترق عن ضجنان على طريق الحاج قرب عسفان من الجنوب، ومن روافده العديدة: أوان، وعلق، وأبو عروف، والرّزن، وفي الهدة خمس عيون جارية جلّها للأشراف ذوي عمرو، وأعلى الهدة لعتيبة، وأسفلها لحرب.

وهو وادٍ زراعي خصب فيه، بالإضافة إلى العيون الآبار الزراعية غزيرة المياه قريبة القعر، عليها آلات ضخ، وبها العديد من النخيل، وأشجار الحمضيات والخضروات، والموز، والحناء، وينسب إليها الباذنجان الطويل الثمرة فيقال له هدويّ، وفيها إمارة تابعة لإمارة الجموم بمرّ الظهران، وفيها العديد من القرى التي تسمّى بأسماء ساكنيها.

قلت: وقد جاء في بعض روايات البخاري عن أبي هريرة ذِكْر الهدأ بغير همزة (الهدّة) وبما أن هذا الاسم ورد في بعض الروايات مهموزًا وفي بعضها غير مهموز، فإنه يجوز أن يذكر بأي منهما لاختلاف الرواة في ضبطه.

قلت: يفهم ممّا تقدّم أن الهدأة التي وقع فيها مقتل عاصم وَأَسر خبيب وابن الدثينة واقعة شمال مكة بقرب عسفان وأنها ما زالت عامرة بالسكان، غير أن اسمها قد تغيّر فأصبحت تسمّى (هدا الشام).

وقد ذكرها بعض المؤرخين باسم الهدّة بدون همزة، وقع ذلك في كتاب (المغازي) للواقدي، غير أن المشهور هو أنها بالهمزة.

الهدّة أيضًا: موضع بين مكة والطائف، وهو إلى الطائف أقرب، قال ياقوت: بالفتح ثم التشديد، وهو الخسفة في الأرض: موضع بين مكة والطائف، والنسبة إليها هدويّ، وقد خفّف بعضهم داله.

وقد وصفها عاتق البلادي وصفًا جغرافيًا فقال: فرعة واسعة على ظهر السّراة بين مكة والطائف، عليها الطريق على (١٨) كيلاً من الطائف غربًا، ذات مزارع ومياه حسنة، تتكوّن من واديين ونواشغهما، فالوادي الأول يأتي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وادي الأعمق ثم وادي الكمّل، جمع كامل، ثم وادي الخولة، والثاني يسيل من الغرب إلى الشرق ويسمّى وادي الغربة، فإذا اجتمع الواديان سمّي الأغراف.

وفيها بساتين وفواكه، وجوّها منعش جيّد صيفًا بارد قارس شتاء، وفيها قرى عدّة

بأسماء أهلها، وقد تقدّمت حديثًا فمدّت فيها الطرق المعبّدة، وقامت فيها بلدة حديثة تسمّى المعالي، ولها إمارة تابعة للطائف، ومدارس وشرطة، وماء الهدّة ينتهي إلى نخلة اليمانية، يدفع فيها من الجنوب في وادي الكفو، وسكانها ثقيف وقريش.

قلت: والكثيرون في هذا العهد يذكرونها بتخفيف الدال.

قال ياقوت: والهدة أيضًا: بتخفيف الدال، من الهدى أو الهدى بزيادة هاء، بأعلى مرّ الظهران ممدرة أهل مكة، والمدرطَيْنُ أبيض يحمل منها إلى مكة تأكله النساء، ويدق ويضاف إليه الإذخر يغسلون به أيديهم.

هرشى: بهاء مفتوحة وراء مهملة ساكنة وشين معجمة وآخره ألف مقصورة: على الطريق بين مكة والمدينة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نزل عند سرحات عن يسار الطريق في مسيلٍ دون هرشى، ذلك المسيل لاصق بكراع هرشى بينه وبين الطريق قريب من غلوة.

قال ياقوت: هَرْشى: بالفتح ثم السكون، وشين معجمة، والقصر، يقال: رجل هرش وهو الجافي المائق، وهي ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان، فكل مَنْ سلك واحدًا منهما أفضى به إلى موضع الآخر، ولذلك قال الشاعر:

خذا أنف هرشى أو قفاها فإنما
كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

وقال عرّام: هرشى: هضبة ململمة لا تنبت شيئًا وهي على ملتقى طريق الشام وطريق المدينة إلى مكة، وهي في أرض مستوية، وأسفل منها ودّان على ميلين ممّا يلي مغيب الشمس، يقطعها المصعدون من حجاج المدينة ينصبّون منها منصرفين إلى مكة، ويتصل بها ممّا يلي مغيب الشمس خبت رمل، في وسط هذا الخبت جبيل أسود شديد السّواد صغير يقال له طفيل.

قلت: ما نقله ياقوت وغيره عن عرّام في وصف هرشى وتحديد موقعها لا يعوّل عليه؛ ذلك أنه لا ينطبق على واقع هرشى الجغرافي.

قال البكري: هَرْشى: بفتح أوله، وإسكان ثانيه، بعده شين معجمة مقصورة على وزن فعلى: جبل في بلاد تهامة، وهو على ملتقى طريق الشام والمدينة، في أرض مستوية، هضبة ململمة لا تنبت شيئًا، وهي من الجحفة يرى منها البحر، قال كثّير:

عفا رابغ من أهله فالظواهر
فأكناف هرشى قد عفت فالأصافر

ورابغ: هو بعد عقبة هرشى، على أميال من الطريق مشرّقاً، وفيه عين وآبار ونخل، قال الشاعر:

خذا بطن هرشى أو قفاها فإنما
كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

وعقبة هرشى سهلة المصعد، صعبة المنحدر، والطريق من جنبتيها، وأسفل من هرشى على ميلين ممايلي المغرب: ودّان، يقطعها المصعدون من حجاج المدينة، وينصبّون فيها صادرين من مكة... وعلى الطريق من ثنية هرشى إلى الجحفة ثلاثة أودية: غزال، ذو دوران، وكليّة، تأتي من شمنصير وذروة، تنبت النخل والأدرام والمرخ، والدوم وهو المقل، وكلها لخزاعة... وفي مسيل هرشى مسجد النبي ﷺ وهو عن يسار الطريق في المسيل دون هرشى، وذلك المسيل لاصق بكراع هرشى، بينه وبين الطريق زهاء غلوة،

وهناك كان يصلي النبي ﷺ، رواه **البخاري** - عن سالم عن أبيه.

وقال المجد: هرشى: مثال سكرى والشين معجمة: ثنية بطريق مكة بين بدر وودّان، يُرى منها البحر ولها طريقان، وكل مَنْ سلك واحدًا منهما أفضى به إلى موضع واحد ولذلك قال قائلهم.

خذا بطن هرشى أو قفاها فإنما
كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

وروى الحربي بسنده عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نزل عند سدرات عن يسار الطريق، في مسيل دون هرشى، وذلك المسيل لاصق بكراع هرشى، بينه وبين الطريق قريب من غلوة سهم.

وروي عن ابن جميع عن نادر قال: ومسجد في ثنية هرشى، وهي عقبة هرشى. وبين عقبة هرشى وبين الجار، ساحل البحر أميال، بحذاء العقبة عينٌ بها زرع ونخل وبئر لجعفر ابن سليمان على أحد عشر ميلاً من الأبواء.

قال عاتق البلادي: هرشى لا تزال معروفة، تأتي الأبواء من الجنوب بينها وبين رابغ، وإذا خرجت من هرشى شمالاً وجدت أمامك مسجدًا حجرّ بالحجر، وله محراب واضح، يقال: إنه مسجده ﷺ هناك، وحوله بقايا آثار، وعلى (١٨) كيلاً من رابغ شمالاً شرقيًا، وبينها وبين الأبواء (١٣) كم.

وقال في رحلته: وعلى (١٣) كيلاً من بئر مبيريك وصلنا ثنية هرشى، وكان أول ما قابلنا منها مسجد على وجه الثنية من الشمال، ينسبه أهل هذه الديار إلى رسول الله ﷺ وهو مقابل لفم الثنية بحيث لا يكاد يحيد عنه الطريق، وأخشى إنْ عبّد الطريق أنْ يجرف هذا الأثر، خاصة أنَّ معظم منفّذي الطرق ممن ليست لهم خبرة، ولا حرص على مثل هذه الآثار.

وهرشى: اسم حرّة تكتنفها ثنيّتان، تسمّى الكبرى: ثنية هرشى، ويأخذها الطريق القيّم، وتسمّى الأخرى هريشاء، ولا يأخذها إلا الراجل أو خفاف المطايا، والطريقان يفيضان إلى مكان واحد، وثنية هرشى شديدة الانحدار إلى الجنوب، أمّا في الشمال فهي تظهر في نجد مستو، وتمتد الحرّة غربًا فتسمّى حرّة بيض، وتمتد شرقًا متصلة بحرّة الشيباء ثم حرّة بني عمرو وشمال حرّة ذرة، وتبعد هرشى عن رابغ (١٨) كيلاً شمالاً شرقيًا، وكان طريق الحاج يطؤها بين السقيا والجحفة، ثم بين السقيا ورابغ بعد اندثار الجحفة.

وفي عهد السيارات شقّت الثنية للسيارات، ولكنه تمهيد بدائي بأيدي العمال، ذلك أنَّ الآلة لم تستخدم آنذاك في بلادنا، ثم تحوّل طريق السيارات إلى مستورة فبدر، فهجرت الثنية وخرّبتها السيول، وظهرت لنا مخيفة في انحدارها، ولكن صعودها أكثر خوفًا ومشقة.

وتأخذها اليوم سيارات البادية في عناء لا بدّ منه، ذلك أنّ كلّ مَنْ أراد الفرع والقاحة من جهات رابغ ليس أمامه إلا طريقان: هذا الطريق أو طريق مستورة ثم الأبواء، وهو طويل، والفرق بينهما (٥٧) كيلاً، ذلك أن المسافة من رابغ إلى بئر مبيريك عن طريق هرشى = ٣١ كيلاً فقط، وأن هذا الطريق عن طريق مستورة = ٨٨ كيلاً، أي: ما يقرب من ثلاثة أضعاف الأول.

قال حمد الجاسر: ومن الأبواء يأخذ الطريق ذات اليسار متّجهًا صوب الشرق، وبعد (١٩) كيلاً يصل إلى ثنية هرشا، وهذه الثنية تجزع طرفا يمتد من الحرّة حرّة رهاط يمتد معترضًا الطريق إلى الغرب حتى يقرب من البحر فيما بين رابغ ومستورة، وفي هذا الطرف قسم يدعى باسم هرشا فيه ثنيتان الغربية منهما

أسهل من الشرقية لتعبيدها، وفي هذا الثنية ورد المثل:

خذا بطن هرشى أو قفاها فإنما
كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

وقد صرّف هذا الاسم في بعض الكتب الحديثة إلى حرشا، وقد مهّدت ثنية هرشا قبل عشر سنوات لمرور السيارات عندما كان هذا الطريق مسلوكًا قبل إصلاح الطريق الحالي طريق الخبت، وكان الطريق القديم الذي سلكه الرسول ﷺ إلى مكة ثم كان المسلمون قديمًا يسلكونه كان يمر بهذه الثنية، ويحدّد المتقدّمون المسافة بينها وبين الأبواء بثمانية أميال، وقد سلكتها بالسيارة فبلغت من الثنية إلى مدرسة الأبواء (١٩) كيلاً وهذا يقارب تحديد المتقدمين.

قلت: هذا ما قاله العلماء المتقدّمون والباحثون والمتأخرون في وصف هرشى، وتحديد موقعها، وهي أقوال متّفقة في مدلوها، ويوضّح بعضها بعضًا.

باب الياء

يثرب: بياء مثناة مفتوحة وثاء مثلثة ساكنة وراء مهملة مكسورة وآخره باء موحدة: اسم من أسماء المدينة المنورة.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم وقد وهّمهم حمّى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين.

وجاء في القرآن الكريم ذكرها باسمها يثرب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٣].

قال ابن القيّم: ولمّا قدم النبي ﷺ المدينة، واسمها يثرب لا تعرف بغير هذا الاسم، غيّره بطيبة لمّا زال عنها مافي لفظ يثرب من التثريب بما في معنى طيبة من الطيب، استحقّت هذا الاسم، وازدادت به طيبًا آخر، فأثّر طيبها في استحقاق الاسم، وزادها طيبًا إلى طيبها.

روى ابن شبّة بسنده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أنهم كانوا يقولون: (المدينة) و(يثرب)، فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله سمّاها طابة.

وروى بسنده عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمٰن قال، قال النبي ﷺ: مَنْ قال للمدينة يثرب فليقل: أستغفر الله ـ ثلاثًا ، وهي طابة، هي طابة، هي طابة.

وروى بسنده عن البرّاء بن عازب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: مَنْ قال للمدينة يثرب، فليستغفر الله، هي طابة ـ ثلاث مرات.

وروى بسنده عن أبي أيوب: أنّ رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب.

وقال ابن النجار: وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (هي المدينة يثرب)، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: (يثرب اسم أرض) ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها.

وقال ابن زبالة: كانت يثرب أم قرى المدينة وهي ما بين طرف (قناة) إلى طرف (الجرف) وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى زبالة.

قال المراغي: كراهية بعض العلماء تسمية المدينة يثرب: وقد كره بعض العلماء تسميتها يثرب لقوله ﷺ «ويقولون يثرب وهي المدينة»، وفي مسند أحمد عن البراء ابن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سمّى المدينة يثرب فليستغفر، الله هي طابة، هي طابة».

وتسميتها في القرآن يثرب حكاية عن قول غير المؤمنين حتى قال عيسى بن دينار: ومَنْ سمّاها يثرب، كُتبت عليه خطيئة، وسبب الكراهة، إمّا لكونه مأخوذًا من الثرب وهو الفساد، أو من التثريب وهو المؤاخذة بالذنب، وكان عليه السلام يحب الاسم الحسن ولهذا سماها ﷺ: طابة وطيبة، لما

في اسم طيبة من الطّيب وهو موجود في المدينة، حتى ذكروا أنه يوجد أبدًا في رائحة هوائها وتربتها أو سائر أمورها، أو لموافقتها من قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [سورة يونس، الآية: ٢٢] أو لطهارتها من الكفر لقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [سورة النور، الآية: ٢٦] والطيب والطاب لغتان.

وكانت يثرب منازل بني حارثة بن الحارث: بطن من الأوس، وكانت قبل نزول الأوس والخزرج أم قرى المدينة، وبها كان معظم اليهود.

وفي حديث أبي ذرّ من قول النبي ﷺ لعلي: إنّي قد أمرت أن أسير إلى بلدة بين المسجدين يقال لها يثرب وما أراك إلا صاحبي، إشعار بعدم كراهة تسميتها به، ويقوّيه مافي الصحيحين هي المدينة يثرب والله أعلم، لكن ما حكي أن في بني حارثة نزل قوله تعالى في يوم الأحزاب: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ١٣] يؤكد ما تقدّم.

وقال ياقوت: يثرب: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وكسر الراء، وياء موحدة.

قال أبو القاسم الزجاجي: يثرب مدينة رسول الله ﷺ سُمّيت بذلك لأن أول مَنْ سكنها عند التفرق يثرب بن قانية ابن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوض بن أرم ابن سام بن نوح عليه السلام، فلمّا نزلها رسول الله ﷺ، سمّاها طيبة وطابة؛ كراهية للتثريب، وسمّيت مدينة الرسول لنزوله بها، قال: لو تكلّف متكلّف أن يقول في يثرب أنه يفعل من قولهم لا تثريب عليكم أي: لا تعيير ولا عيب كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٩٢]، قال المفسّرون وأهل اللغة: معناه لا تغيير عليكم بما صنعتم، ويقال: أصل التثريب الإفساد، ويقال، ثرب علينا فلان، وفي الحديث: إذا زنت أمة أحدكم فليحدها ولا يثرّب، أي: لا يعيّر بالزنا، ثم اختلفوا فقيل. إنّ يثرب للناحية التي منها مدينة الرسول ﷺ، وقال آخرون: بل يثرب ناحية من مدينة النبي ﷺ، ولما حملت نائلة بنت الفرافصة إلى عثمان ابن عفان، رضي الله عنه، من الكوفة قالت تخاطب أخاها:

أحقّاً تراه اليوم يا ضبّ أنني
مصاحبة نحو المدينة أركبا؟
لقد كان في فتيان حصن بن ضمضم
لك الويل ما يجلو الخِباءَ المحجّبا
قضى اللّه حقّاً أنْ تموتي غريبة
بيثرب لا تلقين أمّاً ولا أبا

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: مَنْ قال للمدينة يثرب فليستغفر الله ثلاثًا، إنما هي طيبة، وقال النبي ﷺ لمّا هاجر: اللهم إنك أخرجتني من أحبّ أرضك إليّ، فأسكنّي أحبّ أرضك إليك، فأسكنه المدينة.

قلت: فيما تقدّم يتبيّن أن للمدينة عددًا من الأسماء عرفت بها بعد هجرة النبي ﷺ إليها، وأنّ اسمها القديم التي كانت تعرف به قبل نزول النبي ﷺ فيها هو يثرب، كما يتّضح مما تقدّم كراهية بعض العلماء لتسمية المدينة يثرب بعد أن سمّاها النبي ﷺ طيبة.

ولما لهذه المدينة الطّيبة من الشهرة الإسلامية والتاريخية، فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عن اسمها يثرب، وفي رسم المدينة، وفي رسم طابة مزيد من الإيضاح والتفصيل عن أسماء المدينة المنورة.

اليرموك: بياء مثناة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وميم مضمومة بعدها واو ساكنة وآخره كاف:

نهر في بلاد الشام معروف يصبّ في نهر الأردن.

روى البخاري بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه: أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للزبير يوم وقعة اليرموك: ألا تشدّ فنشدّ معك فحمل عليهم فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر.

قال البلاذري: قالوا: جمع هرقل جموعًا كثيرة من الروم، وأهل الشام، وأهل الجزيرة، وأرمينيّة تكون زهاء مائتي ألف، وولّى عليهم رجلاً من خاصته، وبعث على مقدّمته جبلة ابن الأيهم الغساني في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم، وعزم على محاربة المسلمين، فإن ظهروا وإلاّ دخل بلاد الروم فأقام بالقسطنطينيّة، واجتمع المسلمون فزحفوا إليهم، فاقتتلوا على اليرموك أشدّ قتال وأبرحه، واليرموك نهر، وكان المسلمون يومئذٍ أربعة وعشرين ألفًا، وتسلسلت الروم وأتباعها يؤمئذٍ لئلا يطمعوا أنفسهم في الهرب، فقتل الله منهم زهاء سبعين ألفًا، وهرب فلّهم فلحقوا بفلسطين وأنطاكية وحلب والجزيرة وأرمينية، وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديدًا، وجعلت هند بنت عتبة أمّ معاوية بن أبي سفيان تقول: عضدّوا الغلفان بسيوفكم، وكان زوجها أبو سفيان خرج إلى الشام تطوعًا وأحبّ مع ذلك أن يري ولده وحملها معه، ثم إنه قدم المدينة فمات بها سنة إحدى وثلاثين، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، ويقال: إنه مات بالشام.

ولمّا بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية إلى قسطنطينيّة، فلمّا جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو، يعني: أرض الشام لكثرة مراعيها، وكانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة.

وقال ياقوت: يرموك: وادٍ بناحية الشام في طرف الغور يصبّ في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنّة، كانت به حرب بين المسلمين والروم في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقدم خالد الشام مددا لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش، أبو عبيدة على جيش، ويزيد بن أبي سفيان على جيش، وشرحبيل بن حسنة على جيش، وعمرو بن العاص على جيش، فقال خالد: إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، فأخلصوا لله جهادكم وتوجّهوا الله تعالى بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده فلا تقاتلوا قومًا على نظم وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم عملكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه هو الرأي منّي وإليكم، قالوا: فما الرأي؟ قال: إن الذي أنتم عليه أشدّ على المسلمين مما غشيهم، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرّقت بينكم - والله - فهلّموا فلنتعاون الإمارة، فليكن علينا بعضنا اليوم وبعضنا غداً والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلكم، ودعوني اليوم عليكم، قالوا: نعم، فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم فكان الفتح على يد خالد يومئذٍ وجاءه البريد يومئذٍ، بموت أبي بكر رضي الله عنه، وخلافة عمر رضي الله عنه، وتأمير أبي عبيدة على الشام كله وعزل خالد، فأخذ الكتاب منه وتركه في كنانته ووكّل به مَنْ يمنعه أن يخبر الناس عن الأمر لئلاً يضعفوا إلى أن هزم الله الكفار وقتل منهم فيما يزعمون ما يزيد على مائة ألف ثم دخل على أبي عبيدة وسلّم عليه بالإمارة، وكانت من أعظم فتوح

المسلمين، وباب ما جاء بعدها من الفتوح؛ لأن الروم كانوا قد بالغوا في الاحتشاد، فلما كسروا ضعفوا ودخلتهم هيبة، وقال القعقاع ابن عمرو ويذكر مسيرة خالد من العراق إلى الشام بعد أبيات:

بدأنا بجمع الأصفرين فلم ندع
لغسّان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومَنْ به
سوى نفر نجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة
فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت
بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

قلت: ما تقدّم هو خلاصة ما كتبه المؤرخون عن اليرموك، ووادي اليرموك ما زال معروفًا باسمه.

يلملم: بياء مثناة مفتوحة بعدها لام مفتوحة ثم ميم ساكنة بعدها لام مفتوحة وآخره ميم: مكان مهلّ أهل اليمن للحج وهو جنوب مكة على بعد (١٠٠) كيل تقريبًا.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس: أنّ النبي ﷺ وقّت لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم، هنّ لهمّ ولمن آتى عليهنّ من غيرهنّ ممّن أراد الحج والعمرة.

قال ابن حجر: يلملم: بفتح التحتانية واللام وسكون الميم بعدها لام مفتوحة ثم ميم: مكة على مرحلتين من مكة بينهما ثلاثون ميلاً، ويقال لها ألملم بالهمزة وهو الأصل، والياء تسهيل لها.

وحكى ابن السيّد فيه: يرمرم براءين بدل اللامين

وقال ياقوت: يلملم: ويقال ألملم، والململم المجموع: موضع على ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن وفيه مسجد معاذ بن جبل، وقال المرزوقي: هو جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث، وقيل: هو وادٍ هناك، قال أبو دهبل:

فما نام من راعٍ ولا ارتدّ سامر
من الحيّ حتى جاوزت بي يلملما

وقال البكري: يلملم: بفتح أوله وثانية، جبل على ليلتين من مكة، من جبال تهامة، وأهله كنانة، تنحدر أوديته إلى البحر، وهو في طريق اليمن إلى مكة، وهو ميقات مَنْ حجّ من هناك، ويقال: ألملم بالهمز، وهو الأصل والياء بدل من الهمزة، وقال طفيل:

وسلهمة تنضو الحياد كأنها
رداة تدلّت من فروع يلملم

وقال ابن مقبل

تراعى عنوداً في الرياء كأنها سهيل
بدا في عارض من يلملما

وقال الأصفهاني: وأهل اليمن يدخلون مكة... من يلملم من أسفل مكة.

وعلّق عليه حمد الجاسر بقوله: لا يزال معروفًا، ولكنه يسمّى لملم، ولعلّ هذا من قبيل تسهيل الهمزة؛ لأنه يُسمّى ألملم، ويقع في وادي السعدية، شمال ميناء الليث، بعد وادي مركوب، ووادي السعدية يسمى أيضًا وادي لملم.

وقد وصفه عاتق البلادي وصفاً جغرافياً شاملاً ـ واديه وجباله ـ فقال: يلملم: ياء مثناة تحت مفتوحة وتكرير اللام والميم: وادٍ فحل من أودية الحجاز التهامية، يأخذ أعلى مساقط مياهه من شفا بني سفيان على قرابة (٣٠) كيلاً جنوب غربي الطائف، ثم يندفع غربًا في انحدار عميق بين صلاهيج جبال فيمرّ

بالسعدية ميقات أهل اليمن على طريق تهامة على (١٠٠) كيل جنوب مكة فيصب في البحر جنوب جدة على مسافة مرحلتين، وهو وادٍ متعدد الروافد... ممّا يجعل سيله جارفًا... ونباته الأراك، وسكانه: في صدره فهم وبقية بني صاهلة من هذيل، وأسفله الجحادلة من بني شعبة من كنانة، وروافده الشمالية من ديار هذيل وأسفله الجحادلة من بني شعبة من كنانة، وروافده الشمالية من ديار هذيل، فيه مركز حكومي تابع لإمارة الليث وبه مركز صحي، ومقترح إنشاء مدرسة في السعدية وقد أنشئت، وأنشئت مدرسة بالملاقي حيث الإمارة، أما أسافله ففي السعدية إمارة تابعة لقائم مقام مكة.

قلت: مما تقدّم يتحدّد موضع يلملم ميقات حاج اليمن الذين يأتون عن طريق تهامة كما يتبيّن وصفه الجغرافي ـ الوادي والجبال التي تسمّى باسمه ـ ومن مدلول ما تقدّم من الأقوال يتّضح أن اسم يلملم يشمل الوادي كله والجبال الواقعة فيه، وقد ذكره بعضهم بأنه جبل، وذكره آخرون بأنه وادٍ، وقد أطلق اسم السعدية على مكان الميقات منه في عهد متقدّم، ذكر ذلك الأزرقي في تاريخه حيث قال: ـ وهو يذكر مواقيت الحج ـ: يلملم: في طريق الساحل الشمالي الجنوبي من الحجاز، ويسمى هذا الجبل في هذا اليوم (السعدية).

قلت: ويلملم ما زال معروفًا باسمه، والبعض يقولون له: لملم، وإذا أرادوا الميقات قالوا السعدية، وهو الاسم الذي اشتهر به مكان الميقات في هذا العهد.

اليمامة: بياء مفتوحة بعدها ميم وبعد الميم ألف وبعد الألف ميم ثانية مفتوحة وآخره هاء: منطقة واسعة في وسط بلاد نجد.

روى البخاري بسنده عن سعيد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة ﵁ يقول: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيّد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ قال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي يا محمد خير فذكر الحديث، قال: أطلقوا ثمامة.

قال ياقوت: اليمامة اسم منقول عن طائر يقال له اليمام واحدته يمامة، واختلف فيه، فقال الكسائي: اليمام من الحمام التي تكون في البيوت، والحمام البرّي، وقال الأصمعي: اليمام ضرب من الحمام البرّي، وأما الحمام فكل ما كان ذا طوق، مثل: القمريّ والفاختة، ويجوز أن يكون من أمّ يؤمّ إذا قصد ثم غير؛ لأن الحمام يقصد مساكنه في جميع حالاته، والله أعلم.

وقال المرّار الفقعسي:

إذا خفّ ماء المزن فيها تيمّمت
يماماتها أيّ العداد تروم

وقال بعضهم: يمامة كل شيء قطبه يقال: الحق بيمامتك، وهذا مبلغ اجتهادنا في اشتقاقه.

ثم أورد قولاً لابن الأنباري تلاه تفسيرات لغوية لاشتقاق هذا الاسم، وتحدّث عن أخبار طسم وجديس ونهايتهم في اليمامة حديثًا طويلاً، لا يتّسع مقامنا هذا لذكره.

وقال: وكان فتحها وقتل مسيلمة الكذّاب في أيام أبي بكر الصدّيق ﵁، سنة ١٢ للهجرة، وفتحها خالد بن الوليد عنوةً ثم صولحوا، وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي

معدودة من نجد، وقاعدتها حجر، وتسمّى اليمامة جوّا، والعَروض، بفتح العين، وكان اسمها قديمًا جوّا، فسمّيت اليمامة باليمامة بنت سهم بن طسم.

قلت: ما ذكره ياقوت، فيه اهتمام باشتقاق اسم اليمامة وتاريخها القديم، غير أنه لم يحدّد اليمامة كمنطقة جغرافية متميّزة، ولم يصفها ـ وقد يكون أوجز في تحديدها ووصفها لشهرتها ـ فاكتفى بتحديد المسافة بينها وبين البحرين، والتعريف بأنها من نجد.

وعلّق التبريزي على قول عمرو بن كلثوم:

وأعرضت اليمامة واشمخرّت
كأسياف بأيدي مصلتينا

فقال: أعرض بمعنى، بدا بعضه، كأنه بدا عرضه أي: ناحيته، وعرض إذا بدا كله، واشمخرّت طالت، والمعنى بدت مستطيلة.

وقال الأصفهاني:

وحلّت بالبغات بغاث حوضى
شآبيب تحفّر في الرّغاب
وبالأعراض حتى كلّ عرض
من الأعراض مطرّد الحباب

البغاث: برق بيض، وحوضى: من أقصى بلاد بني بكر، والأعراض: أعراض اليمامة، وهي أودية وجبال، فيها نخل.

وقال أيضًا: والعارض جبل، فصل اليمامة جمعاء، ووجه العارض مستقبل مغيب الشمس وفيه أودية وشعاب، فإذا انحدرت من العارض مستقبلاً مغيب الشمس وقعت في الدبيل، والدبيل رملة بمقابلة العارض.

وفي العارض ثنايا، فمنها ثنية الهدّار، وثنية أكمة، وثنية برك، وثنية نساح، وثنية الأحيس، وبهذه الثنايا مياه لقشير، ومياههم بالدبيل شباك كثيرة، ولهم بين الدبيل والعارض ماء يقال له آوان، ولهم مياه كثيرة لا تحصى.

وتحدّث الهمداني عن اليمامة حديثًا فصّل فيه عن أوديتها وثناياها وقراها وسكانها وحدودها، فكان في حديثه: والخرج قاع مثل يدك وحصون، ويدفع فيه الأودية نعام وبرك، ووادي المجازة، وهذه الأودية مفضاها واحد، مفضى في بطن السوط، إلاّ برك النعام فإنه يفضي في ذات نصب، وهو من ديار جرم، وكل هذه الأودية فيها نخيل وزروع وساكن، وهي تسمّى الثنايا، ثنايا العارض، وهو قفّ مستطيل أدناه بحضرموت، وأقصاه بالجزائر، في غربيّه الدهناء وفي شرقيّه تسايره.

قلت: الجزائر التي قال إنها أقصى اليمامة ـ أي بالنسبة لبلاده في اليمن ـ هي طرف جبال اليمامة الشمالي، الذي ينتهي عند مدينة الزلفي، ويسمّى: جزرة، ونهايته تسمّى: خشم جزرة.

أما قوله: في غربيه الدهناء، فالواقع والمعروف أن الدهناء تمتد من الشمال إلى الجنوب شرقًا عن سلاسل جبال اليمامة.

أما من الجانب الغربي فإنه يحتمل أنه قصد النفد (جمع نفود) وهي: الكثبان الرملية التي تمتد من الشمال إلى الجنوب غرب اليمامة. ابتداء من الشمال بنفود السرّ ثم نفود قينفذة، ثم نفود الغزيز، ثم نفود الخبرا، ثم نفود الدّحى (الدبيل قديمًا).

أما امتداد سلاسل جبال اليمامة إلى حضرموت، ، فإنه قول يؤيّده الواقع، إذ هو ممتد إلى شرق مدينة نجران، يختفي في كثافة الرمل حينًا، ويشمخ فيبدو حينًا فيسمّى في تلك الناحية المندفن، ولا يستبعد أن تكون له امتدادات تصل إلى حضرموت قد طغت عليها

رمال الربع الخالي لكثافتها فاختفت، والهمداني يبرهن على ذلك بقوله: وقف العارض مرّة تركبه الرمال فيما انخفض، ومرة يستطيل فينيف، وهذه الأعراض تجيء منه، وهي تدفع جميعًا إلى قراها بالروضة، من جوّ الخضارم.

ثم تخرج من جوّ فتفلق العرمة فلقاً ثم الدهناء فلقاً، ثم تخرج حتى تصبّ في البحر.

وقال: وبرك يحدد فيه بطن الركاء... ومن ميامين أودية نساح وملك ولحى والعرض، في كلها قرى ميّتة وحيّة، ومن فروعها قرقرى، الهزمة... والمحضة وقراها والبرّتين، وهي بين بطن قفّ العارض وبين رملة الوركة، إلى أقصى الوشوم.

قلت: ثم بعد هذا أخذ الهمداني يتحدّث عن بلدان اليمامة في الوشم، ويعدّها بأسمائها وفي منطقة الرياض وما حولها، ثم تابع حديثه عن بلدان اليمامة وأوديتها وسكانها الواقعة شمال مدينة الرياض ويذكر كل بلدة باسمها وكل وادٍ باسمه حتى بلغ آخر بلدان سدير.

وكثير من هذه البلدان والأودية والجبال التي تحدّث عنها ما زال باقياً باسمه معروفًا به في هذا العهد، هذه هي اليمامة بحدودها الجغرافية من الشمال إلى الجنوب، يمثلها امتداد سلاسل جبال طويق كعمود فقري في هذه البلاد.

أمّا من ناحيتي الشرق والغرب فإنّ ما انحدر من جبال اليمامة شرقًا من الأودية وما فيها من القرى والرياض إلى نهايتها محسوب من اليمامة، فتدخل في ذلك قفاف العرمة وما صاقبها شمالاً وجنوبًا.

أما من الغرب فإن حدود اليمامة تشمل ما انحدرت فيه أوديتها غربًا وما يحفّ بها من القفاف الممتدّة محاذية لها من الشمال إلى الجنوب، كصفراء الوشم وصفراء الشمس والشميسة. وما صاقبهما شمالاً وجنوبًا وما فيها من القرى، وتناهي الأودية والثنايا التي تفلق سلاسل الجبال من الشرق إلى الغرب.

ويمكن القول إن حدود اليمامة الغربية التي تتمثل فيها تكوينات اليمامة الطبيعية تحدّها من الشمال إلى الجنوب امتداد رمل النّفد التي تقدّم الحديث عنها، نفود السرّ (جراد قديمًا) ونفود الغزيز (الوركة قديمًا) ونفود الخبرا، ونفود الدّحى (رملة الدبيل قديمًا).

هذه هي اليمامة وصفًا جغرافيًا شاملاً وتحديدًا، ولا يتّسع مقامنا هذا بالتحدّث عن أسماء كل ما فيها من الجبال، والأودية، والرياض، والثنايا، والبلدان، والسكان.

أما حدود اليمامة الإدارية: فإنها حدود غير ثابتة، تتّسع حينًا وتقصر حينًا، حسب قوّة الولاة الذي يحكمونها وضعفهم، وقد تحدّث المؤرخون عن هذا التوسّع في حدودها، قال الأصفهاني:

عمل اليمامة جابيها يجبى بجوف المربد، مربد البصرة، وجابيها يجبي بركبة، وبينها وبين قرن ليلة، وبين قرن ومكة ليلة، وجابيها يجبي برمال اليمن، قريبًا من صنعاء، وجابيها يجبي البحرين، قال: منبر الأحساء، أحساء هجر، يدعى عليه لصاحب اليمامة، وواليها من قِبَل عامل اليمامة، وهو من هذا الوجه يجبي بجبلي طيء، وذلك أن جميع قيس جابيتها إلى اليمامة، ما خلا بني كلاب، فإن جبايتهم إلى المدينة، فأما عقيل والعجلان وقشير ونمير ونَهْم وباهلة وكل قيس فإلى اليمامة، وأما جميع بني سعد وضبّة والرباب والحزن، حزن بني يربوع وغير بني يربوع، فإن جبايتهم إلى اليمامة.

قال: جابيها يرد لينة، وهي ماءة لبني غاضرة أسد، بينها وبين زبالة ليلة.

وقال: وحجر سرّة اليمامة وهي منزل السلطان والجماعة، ومنبرها أحد المنابر الأولية: مكة والمدينة، واليمن، ودمشق، واليمامة، والبحرين، والكوفة، وجلّ أهلها بنو عبيد، وبها من كل القبائل، وبها بنو سيّار بن عبيد، وهم ولد الحوفزان بن عمرو بن خزيمة ابن عمرو بن شيبان بن عبيد، ووبرة وادٍ بين صدّى جبل فيه نخيل ومنازل، وهو لبني سيّار بن عبيد، أكثره، وبين وبرة وبين السوق نحو من ثلاثة أميال.

قال: إذا خرجت من السوق، فأدنى ماء ينسب من النخيل المنسوبة: السوق المختبية، وهي منازل لبني جبيرة بن عبيد، من بني سيّار، ثم تصعد مستقبل المغرب فأول ماء يستقبلك ياية، وهي لأخلاط الناس، فيها من آل سويد، وهم من طيء، ثم عن يمين ياية بحذائها القريّ، قريّ آل كرمان، وهم موالٍ لبني سلمة، قرية بين الواديين في جزيرة من الوادي، أهلها بنو تغلب، ثم عن يمين ذلك منصبًا عن بطن العرض محرّقة وهي قرية آل المهير، ثم أسفل منها عن يسارها جليجلة، فيها من كلّ، ثم عن يسار ذلك أسفل من ذلك منحدرًا مع الوادي إذا استقبلت الجنوب نميلة، ونمار، وهو بطن واد، فمه يفرغ في العرض، وأعلاه يذهب مغربًا وفيه من كلٍّ، وأكثر نميلة لبني قيس بن ثعلبة.

وقال: أتت بنو قيس بن ثعلبة عبيدًا، فقالوا له: انفح لنا مما أصبت أي: هب لنا، فجعل لهم قرية فسمّيت منفوحة، من أجل قولهم انفح، وهي بين حجر ومهبّ الجنوب، على طريق جوّ من حجر، وهي من سوق حجر على ميلين، . . . وبين الكوفة وحجر أربع وعشرون ليلة.

وإذا خرجت من حجر تريد مكة، وتركت المنار، وأخذت الطريق الأيمن فإنك آخذ بطن العرض، فإذا خرجت من العرض، وأقصى العرض سيح آل إبراهيم بن عربي، فإذا نصلت من العرض وصلت إلى موضع يقال الراحة، وهي قاع لمراتع اليمامة، ثم تصير إلى ثنية الأحيسى، وهي ماءة عليها نخيل لولد الشمّاخ مولى أمير المؤمنين، ثم تجوزها فتقع في ناحية قرقرى اليمامة، فترد ماءة يقال لها المنطرة، وهي لبني عديّ ابن حنيف ثم تجوز ذلك فترد الغزيز، قال: أظنّه لبني نمير.

قلت: في هذا الحديث الذي ساقه الأصفهاني نرى حدود اليمامة الإدارية في أقصى اتّساعها شاملة لبلاد واسعة تمتد غربًا إلى حدود الحجاز، وتمتد شرقًا إلى البصرة، وجنوبًا إلى اليمن، وشمالاً إلى الجبلين، جبلي طيء، وكلّ هذه البلاد تجبى زكاتها لوالي اليمامة، الذي مقرّه في مدينة حجر في الرياض، غير أن هذا الاتساع لم يكن ثابتًا ولم تطل مدّته بل إنه نفوذ الولاة في اليمامة، الذي سمته التغيّر والتبدّل.

والحديث عن اليمامة تاريخها وحضارتها وسكانها حديث طويل لا يتّسع له مقامنا هذا.

أما ما يلي شرق مدينة الرسول ﷺ من نجد ممتدًّا إلى حمى ضريّة فإنه يجبى لوالي المدينة، يلتقي جابي المدينة وجابي اليمامة على الأمواه الواقعة فيما بين النير وضريّة.

أما دخول اليمامة في الإسلام فقد تحدّث عنه مؤرخو الدولة الإسلامية، قال البلاذري: اليمامة كانت تسمّى جوّا فصلبت امرأة من

جديس يقال لها: اليمامة بنت مرّ على بابها، فسمّيت باسمها، والله أعلم.

وقالوا: ولمّا كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك الآفاق في أول سنة سبع، ويقال: في سنة ست، كتب إلى هوذة بن الحنفي وأهل اليمامة يدعوهم إلى الإسلام، وأنفذ كتابه بذلك مع سليط بن قيس بن عمرو الأنصاري ثم الخزرجي، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ وفدهم، وكان في الوفد مجاعة بن مرارة، فأقطعه رسول الله ﷺ أرضًا مواتًا سأله إيّاها، وكان فيها أيضًا الرجّال بن عنفوة فأسلم وقرأ سورة البقرة وسوراً من القرآن، إلا أنه ارتّد بعد، وكان فيهم مسيلمة الكذّاب ثمامة بن كبير ابن حبيب، فقال مسيلمة لرسول الله ﷺ: إنْ شئت خلّينا الأمر وبايعناك على أنه لنا بعدك، فقال له رسول الله ﷺ: ولا نعمة عين، ولكن الله قاتلك، وكان هوذة بن علي الحنفي قد كتب إلى النبي ﷺ يسأله أن يجعل الأمر له من بعده على أن يسلم ويصير إليه فينصره، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولا كرامة، اللّهم اكفنيه، فمات بعد قليل.

فلمّا انصرف وفد حنيفة إلى اليمامة ادّعى مسيلمة الكذاب النبوّة، وشهد له الرجّال ابن عنفوة بأن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه، فاتّبعه بنو حنيفة وغيرهم ممّن باليمامة.

وكتب إلى رسول الله ﷺ مع عبادة ابن الحارث، أحد بني عامر بني حنيفة، وهو ابن النّواحة الذي قتله عبد الله بن مسعود بالكوفة - وبلغه أنه وجماعة معه يؤمنون بكذب مسيلمة: (من مسيلمة رسول الله ﷺ إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا لا ينصفون، والسلام عليكم) وكتب عمر ابن الجارود الحنفي.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد النبي إلى مسيلمة الكذّاب»، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتبع الهدى، وكتب أبيّ بن كعب.

فلما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر فأوقع بأهل الردّة من أهل نجد وما والاه في أشهر يسيرة، بعث خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي إلى اليمامة، وأمره بمحاربة الكذّاب مسيلمة، فلما شارفها ظفر بقوم من بني حنيفة فيهم مجاعة بن مرارة بن سلمة، فقتلهم واستبقى مجاعة وحمله معه موثقًا، وعسكر خالد على ميل من اليمامة، فخرج إليه بنو حنيفة وفيهم الرجّال ومحكم بن الطفيل ابن سبيع الذي يقال له: محكم اليمامة، فرأى خالد البارقة فيهم فقال: يا معشر المسلمين، قد كفاكم الله مؤنة عدوّكم، ألا ترونهم وقد شهر بعضهم السيوف على بعض، وأحسبهم قد اختلفوا ووقع بأسهم بينهم، فقال مجاعة، وهو في حديده: كلاّ ولكنها الهندوانيّة خشوا تحطّمها فأبرزوها للشمس لتلين متونها، ثم التقى الناس فكان أول مَنْ لقيهم الرجّال ابن عنفوة فقتله الله، واستشهد وجوه الناس وقرّاء القرآن، ثم إن المسلمين فاءوا وثابوا فأنزل الله عليهم نصره، وهزم أهل اليمامة فاتّبعوهم يقتلونهم قتلاً ذريعًا، ورمى عبد الرحمٰن ابن أبي بكر الصدّيق أخو عائشة لأبيها محكّماً بسهم فقتله، وألجؤوا الكفرة إلى الحديقة فسمّيت يومئذٍ حديقة الموت، وقتل الله مسيلمة في الحديقة، فبنو عامر بن لؤي ابن غالب يقولون: قتله خداش بن بشير ابن الأصمّ، أحد بني معيض بن عامر بن لؤيّ، وبعض الأنصار يقولون: وقتله عبد الله ابن زيد بن ثعلبة، أحد بنى الحارث بن الخزرج،

وهو الذي أُري الأذان، وبعضهم يقول: أبو دجانة سماك بن خرشة ثم استشهد، وقال بعضهم: بل قتله عبد الله بن زيد بن عاصم أخو حبيب بن زيد من بني مبذول من بني النجار، وقد كان مسيلمة قطع يدي حبيب ورجليه، وكان وحشيّ بن حرب الحبشي قاتل حمزة رضي الله عنه يدّعي قتله ويقول: قتلت خير الناس، وشرّ الناس، وقال قوم: إن هؤلاء جميعًا اشتركوا في قتله، وكان معاوية ابن أبي سفيان يدّعي أنه قتله، ويدّعي ذلك له بنو أميّة.

قلت: هذا خلاصة ما تمّ به القضاء على مسيلمة الكذّاب وقومه في اليمامة كما ذكره البلاذري في كتابه.

اليمن: بياء مثناة مفتوحة وميم مفتوحة وآخره نون موحدة: قطر يقع في جنوب الجزيرة العربية.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن فقال: ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم.

قال ياقوت: اليمن: بالتحريك، قال الشرقي: إنما سمّيت اليمن لتيامنهم إليها، قال ابن عباس: تفرّقت العرب فمَنْ تيامن منهم سميت اليمن، ويقال: إن الناس كثروا بمكة فلم تحملهم فالتأمت بنو يمن إلى اليمن وهي أيمن الأرض فسمّيت بذلك.

وقال: قولهم تيامن الناس فسموا اليمن فيه نظر؛ لأن الكعبة مربعة فلا يمين لها ولا يسار، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين، وكذلك الجهات الأربع إلا أن يريد بذلك مَنْ يستقبل الركن اليماني فإنه أجلّها فإذاً يصحّ، والله أعلم.

وقال الأصمعي: اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عمان إلى نجران، ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشّحر حتى يجتاز عمان فينقطع من بينونة، وبينونة: بين عمان والبحرين وليست بينونة من اليمن، والنسبة إليه يمني ويمانٍ، مخفّفة، والألف: عوض من ياء النسبة فلا تجتمعان.

وقال سيبويه: وبعضهم يقول يمانيّ، بتشديد الياء، وقوم يمانية ويمانون مثل ثمانية وثمانون، وامرأة يمانية أيضًا، وأيمن الرجل ويمنّ ويامن إذا أتى اليمن، وكذلك إذا أخذ في مسيره يمينًا، قال الحسن بن أحمد ابن يعقوب الهمذاني اليمنى: صفة يمن الخضراء، سُمّيت اليمن الخضراء؛ لكثرة أشجارها، وثمارها، وزروعها، والبحر مطيف بها من الشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب.

وقال أبو سنان اليماني: في اليمن ثلاثة وثلاثون منبرًا قديمة وأربعون حديثة.

وقال البكري: اليمن البلد المعروف الذي كان لسبأ، فإنما سمي باليمن؛ لأنه عن يمين الكعبة، كما سُمّى الشأم شأما لأنه عن شمال الكعبة.

قال يعرب بن قحطان، وذكر تبلبل الألسنة، وتكلم بالعربية:

أنا ابن قحطان الهمام الأفضل
وذو البيان واللسان الأسهل
نفرت والأمة في تبلبل
نحو يمين الشمس في تمهّل

وكنت منهم ذا الرعيل الأول

وقال بعضهم: إنما سُمّي اليمن يمناً، بتيمن ابن قحطان.

قال القزويني: اليمن بلاد واسعة من عمان إلى نجران، تسمى الخضراء لكثرة أشجارها وزروعها، تزرع في السنة أربع مرّات، ويحصد كل زرع في ستين يومًا، وتحمل أشجارهم في السنة مرتين، وأهلها أرقّ الناس نفوسًا وأعرفهم للحق، سمّاهم الله تعالى الناس حيث قال: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ**﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٩٩]، وقال ﷺ: إنّي لأجد نفس الرحمٰن من صوب اليمن، أراد به نصرة الأوس والخزرج، وقال أيضًا ﷺ: الإيمان يمان، والحكمة يمانية.

وبها الأحقاف وهي الآن تلال من الرمل بين عدن وحضرموت، وكانت مساكن عاد، أعمر بلاد الله وأكثرها عمارة وزرعا وشجرًا، فلمّا سلط الله عليهم الريح طمّها بالرمال، وهي الآن تحت تلك الأحقاف، جعلها الله تعالى عبرة للناظرين وخبرة للغابرين.

وقال البلاذري: قالوا: لمّا بلغ أهل اليمن ظهور رسول الله ﷺ وعلوّ حقّه أتته وفودهم، فكتب لهم كتابًا بإقرارهم على ما أسلموا عليه من أموال وأراضيهم وركازهم، فأسلموا، ووجّه إليهم رسله وعمّاله لتعريفهم شرائع الإسلام وسننه، وقبض صدقاتهم وجزّ رؤوس مَنْ أقام على النصرانية واليهودية والمجوسية منهم.

حدّثنا الحسين بن الأسود قال: حدّثنا وكيع ابن الجراح: حدّثنا يزيد بن إبراهيم التستري، عن الحسن قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن: من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم، له ذمة الله وذمّة رسوله، ومن أبى فعليه الجزية.

وحدّثني هدبة قال: حدّثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن بمثله، قال الواقدي: وجّه رسول الله ﷺ خالد بن سعيد بن العاص أميرًا إلى صنعاء وأرضها.

قال: وقال بعضهم: ولّى رسول الله ﷺ المهاجر بن أبي أميّة بن المغيرة المخزومي صنعاء، فقُبض وهو عليها.

قال: وقال آخرون: إنما ولّى المهاجر صنعاء أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وولّى خالد ابن سعيد مخاليف أعلى اليمن.

وقال هشام بن الكلبي والهيثم بن عديّ: ولّى رسول الله ﷺ المهاجر كندة والصدف. فلمّا قبض رسول الله ﷺ كتب أبو بكر إلى زياد ابن لبيد البياضي، من الأنصار، بولاية كندة والصّدف إلى ما كان يتولّى من حضرموت، وولّى المهاجر صنعاء، ثم كتب إليه بإنجاد زياد بن لبيد، ولم يعزله عن صنعاء.

وأجمعوا جميعًا أن رسول الله ﷺ ولّى زياد ابن لبيد حضرموت، قالوا: وولّى رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري زبيد، ورفع، وعدن، والساحل، وولّى معاذ بن جبل الجند، وصيّر إليه القضاء، وقبض جميع الصدقات باليمن، وولّى نجران عمرو بن حزم الأنصاري، ويقال إنه ولّى أبا سفيان بن حرب نجران بعد عمرو بن حزم.

وأخبرني عبد الله بن صالح المقرئ، قال: حدّثنا الثقة عن ابن لهيعة عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ كتب إلى زرعة بن ذي يزن: أما بعد، فإذا أتاكم رسولي معاذ بن جبل وأصحابه فاجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية فأبلغوه ذلك، فإن أمير رسلي معاذ، وهو من صالحي من قبلي، وإن مالك بن مرارة الرهاوي حدّثني أنك قد أسلمت أول حمير وفارقت المشركين، فأبشر

بخير، وأنا آمركم يا معشر حمير ألاّ تخونوا ولا تحادّوا، فإن رسول الله مولى غنيّكم وفقيركم، وأن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لآله، إنما هي زكاة تزكون بها هي لفقراء المسلمين والمؤمنين، وإن مالكًا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وإن معاذًا من صالحي أهلي وذوي دينهم، فآمركم به خيرًا، فإنه منظور إليه والسلام.

وحدّثني الحسين قال: حدّثني يحيى بن آدم قال: حدّثنا زياد، عن محمد بن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ كتب لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن:

(**بسم الله الرحمٰن الرحيم**: هذا بيان من الله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [سورة المائدة، الآية: ١]، عهد من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم حيث بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، وأن يأخذ من المغانم خمس الله، وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقي البعل وسقت السماء، ونصف العشر مما سقى الغرب.

حدثني الحسين قال: حدثني يحيى بن آدم قال: حدّثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق قال: كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك حمير: بسم الله الرحمٰن الرحيم: من محمد النبي رسول الله إلى الحارث ابن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال وشرح ابن عبد كلال والي النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان، أمّا بعد، فإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة من المغانم خمس وسهم النبي وصفّيه. وما كتب الله على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء، وما سقي بالغرب نصف العشر).

قلت: هذا بعض ما ذكره المؤرخون عن اليمن، وقد تقدّم في رسم (صنعاء) وفي رسم (السدّ) مزيد من الإيضاح والتفصيل في تاريخ اليمن.

وبما أن اليمن له شهرة تاريخية عريقة، وأنه في هذا العهد تقوم فيه دولة عربية مسلمة، فإنني أكتفي بهذا القدر من الحديث عن اليمن، وذلك أن مقامنا هذا لا يتسع للتحدث عن كل أحداث اليمن قديمًا وحديثًا.



تأليف هذا الكتاب،

وسيليه - إن شاء الله - تأليف معجم الأمكنة الواردة في صحيح الإمام مسلم

بيان بمراجع البحث

القرآن الكريم

تفسير القرآن العظيم

مطبعة الاستقامة ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م). المؤلف/ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

الجامع لأحكام القرآن

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)، المؤلف/ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

صحيح البخاري

المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر إستانبول ـ تركيا. المؤلف/ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري

توزيع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المؤلف/ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، حقّقه وصحّحه/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

المناسك وأماكن طرق الحج

منشورات دار اليمامة سنة ١٣٨٩هـ (١٩٦٩)، المؤلف/ إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الحربي، تحقيق/ حمد الجاسر.

مرآة الحرمين

الطبعة الأولى ـ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م). المؤلف/ إبراهيم رفعت باشا.

تحقيق النصرة تلخيص معالم دار الهجرة

منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة الطبعة الثانية ـ بيروت ١٤٠١هـ (١٩٨١). المؤلف/ أبو الفخر المراغي، تحقيق/ محمد عبد الجواد الأصمعي.

أطلس حافظ

الطبعة السابعة عشرة ـ ١٩٦٠م. عمل/ أحمد حافظ.

عمدة الأخبار في مدينة المختار

المؤلف/ أحمد بن عبد الحميد العباسي.

الإصابة في تمييز الصحابة

الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ ـ مطبعة السعادة، المؤلف/ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني.

القاموس الإسلامي

مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٣هـ (١٩٦٣)، المؤلف/ أحمد عطية الله.

فتوح البلدان

مطبعة لجنة البيان العربي. المؤلف/ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

مقدّمة عن آثار المملكة العربية السعودية، إدارة الآثار والمتاحف

وزارة المعارف ـ المملكة العربية السعودية ١٣٩٥هـ ـ (١٩٧٥م).

البداية والنهاية

مطبعة كردستان العلمية بمصر، ١٣٤٨هـ. المؤلف/ إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي بن كثير.

تقويم البلدان

دار صادر ـ بيروت ـ طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية ١٨٥٠ مسيحية، المؤلف/ إسماعيل ابن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء.

صفة جزيرة العرب

منشورات دار اليمامة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م). المؤلف/ الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق/ محمد بن علي الأكوع الحوالي.

بلاد العرب

الطبعة الأولى ١٣٨٨خـ (١٩٦٨م). المؤلف/ الحسن بن عبد الله الأصفهاني، تحقيق/ حمد بن محمد الجاسر.

معجم شمال المملكة

منشورات دار اليمامة ـ الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) المؤلف/ حمد بن محمد الجاسر.

معجم المنطقة الشرقية

منشورات دار اليمامة ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ ـ (١٩٧٩م). المؤلف/ حمد بن محمد الجاسر.

في شمال غرب الجزيرة

الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ (١٩٨١م). منشورات دار اليمامة. المؤلف/ حمد بن محمد الجاسر.

في سراة غامد وزهران

منشورات دار اليمامة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م. المؤلف/ حمد الجاسر.

أطلس العالم

منشورات دار مكتبة لبنان ـ بيروت.

آثار البلاد وأخبار العباد.

(١٩٧٩م). دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ ـ المؤلف/ زكريا بن محمد بن محمود القزويني.

معجم عالية نجد

منشورات دار اليمامة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م. المؤلف/ سعد بن عبد الله بن جنيدل.

معجم الأماكن الواردة في المعلقات العشر

إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود ١٤١١هـ (١٩٩٠م). المؤلف/ سعد بن عبد الله ابن جنيدل.

بلاد الجوف أو دومة الجندل

الطبعة الأولى ١٤٠١هـ (١٩٨١م). المؤلف/ سعد بن عبد الله بن جنيدل.

أرض الأنبياء

الطبعة الأولى ١٩٦٢م. المؤلف/ سنت جون فيلبي. تعريب/ عمر الديراوي.

تاريخ حضرموت السياسي

مطبعة مصطفى البابي وأولاده بمصر - الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م). المؤلف/ صلاح البكر.

معجم معالم الحجاز

الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - (١٩٧٨م). المؤلف/ عاتق بن غيث البلادي.

على طريق الهجرة

دار مكة للنشر والتوزيع، المؤلف/ عاتق بن غيث البلادي.

الروض الأنف

المؤلف/ عبد الرحمٰن السهيلي. المحقق/ عبد الرحمٰن الوكيل.

آثار المدينة المنورة

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة. الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م. المؤلف/ عبد القدوس الأنصاري

بين التاريخ والآثار

الطبعة الأولى - بيروت، ١٩٦٩م. المؤلف/ عبد القدوس الأنصاري.

معجم ما استعجم

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٣٦٨هـ - (١٩٤٩م). المؤلف/ عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي. تحقيق/ مصطفى السقا.

عنوان المجد في تاريخ نجد

طبعة وزارة المعارف - الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ. المؤلف/ عثمان بن محمد بن عبد الله بن بشر.

أسماء جبال تهامة وسكانها

مطبعة أمين عبد الرحمٰن بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ. المؤلف/ عرّام بن الأصبغ السلمي. تحقيق/ عبد السلام محمد هارون.

الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى

الطبعة الثانية، عبد المنعم ماجد - علي البنا.

الكامل في التاريخ

طبعة دار صادر ودار بيروت ١٩٨٥هـ (١٩٦٥م). المؤلف/ علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى

مطبعة السعادة بمصر - الطبعة الأولى. ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م. المؤلف/ علي بن أحمد السمهودي. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد.

مروج الذهب

دار الأندلس - بيروت الطبعة الأولى. المؤلف/ علي بن الحسين بن علي المسعودي.

الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين

مؤسسة علوم القرآن - بيروت. المؤلف/ علي محمد الأمين الشنقيطي.

تاريخ المدينة المنورة

المؤلف/ عمر بن شبّة النميري البصري. تحقيق/ فهيم محمد شلتوت.

ديوان كثيّر عزّة

دار الثقافة - بيروت، ١٣٩١هـ - (١٩٧١م). تحقيق/ إحسان عباس.

النهاية في غريب الحديث والأثر

دار إحياء الكتب العربية - عيسى الحلبي وشركاه - الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - (١٩٦٣م). المؤلف/ المبارك بن محمد الجزري بن الأثير. تحقيق/ طاهر أحمد الزواوي - ومحمود محمد الطناحي.

رحلة ابن بطوطة

دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م). المؤلف/ محمد بن إبراهيم اللواتي ابن بطوطة.

زاد المعاد في هدي خير العباد

الطبعة الخامسة عشرة ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م)، مكتبة الرسالة، ومكتبة المنار الإسلامية. المؤلف/ محمد ابن أبي بكر الزرعي الدمشقي ابن القيم. تحقيق/شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط.

رحلة ابن جبير

دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م). المؤلف/ محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي.

المعجم الجغرافي مقاطعة جازان

الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - (١٩٧٩م). المؤلف/ محمد بن أحمد العقيلي.

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٦م. المؤلف/ محمد بن أحمد بن علي الفاسي. تحقيق/ لجنة من كبار العلماء والأدباء.

التعريف بما آنست الهجرة من معالم الهجرة

المكتبة العلمية - المدينة المنورة - طبعة بيروت - ١٤٠٢هـ. المؤلف/ محمد بن أحمد المطري.

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه

الطبعة الثانية - مطبعة دار خضر - بيروت ١٤١٤هـ (١٩٩٤م). المؤلف/ محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي. تحقيق/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

الطبقات الكبرى لابن سعد

دار صادر - ودار بيروت للطباعة والنشر. ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م). المؤلف/ محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري.

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار

مطابع دار الثقافة - مكة المكرمة - الطبعة الخامسة ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م). المؤلف/ محمد بن عبد الله ابن أحمد الأزرقي. تحقيق/ رشدي الصالح ملحس.

صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار

مطبعة السنّة المحمديّة ١٣٧٠هـ (١٩٥١م). المؤلف/ محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي.

السيرة النبوية

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٧٥هـ (١٩٥٥م). المؤلف محمد عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق مصطفى السقا وزملائه.

كتاب المغازي للواقدي

طبعة عالم الكتب - الطبعة الثالثة بيروت. ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م. المؤلف/ محمد بن عمر بن واقد تحقيق/ مارسلان جونس.

تاريخ الدولة العليّة العثمانية

دار الجيل - بيروت ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م. المؤلف/ محمد فريد بك المحامي.

الروض المعطار في خبر الأقطار

مطابع هيد الأبرغ - بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٤م. المؤلف/ محمد بن محمد الحميري. تحقيق/ إحسان عباس.

الدّرّة الثمينة في تاريخ المدينة

دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٦م. المؤلف/ محمد بن محمود بن النجار.

تاج العروس من جواهر القاموس

الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية في مصر ١٣٠٦هـ. المؤلف/ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي

الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسمّاه من الأمكنة.

المؤلف/ محمد بن موسى الحازمي، تحقيق/ حمد الجاسر.

المغانم المطابة في معالم طابة.

منشورات دار اليمامة - الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م). المؤلف/ محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تحقيق/ حمد الجاسر.

التعليقات والنوادر

الطبعة الأولى ١٤١٣هـ (١٩٩٢م). المؤلف/ هارون بن زكريا الهجري. دراسة واختيارات/ حمد الجاسر.

أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع

منشورات دار اليمامة - الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م). المؤلف/ هارون بن زكريا الهجري، بقلم/ حمد الجاسر.

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

الجزء الثامن ١٩٨٨م. المؤلف/ ويم رافن ويان يوست ويتكام.

معجم البلدان

دار صادر ودار بيروت للطباعة - بيروت ١٣٧٦هـ (١٩٥٧م)، المؤلف/ ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي.

الاستيعاب في أسماء الأصحاب

الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ مطبعة السعادة المؤلف/ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي.

مجلة العرب

من السنة (١- ١٧).

مذكرات رحلاتي في الجزيرة العربية

فهرس المحتويات

باب التاء

باب الثاء

باب الجيم

باب الحاء

باب الخاء

باب الدال

باب الذال

باب الراء

باب الزاي

باب السين

باب الشين

باب الصاد

باب الضاد

باب الطاء

باب الظاء

باب العين

باب الغين

باب الفاء

باب القاف

باب الكاف

باب اللام

باب الميم

باب النون

باب الواو

باب الهاء

باب الياء

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧